الألف
كتاب
الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ. ج. ولز



المجلد الأول

ترجمة



عبد العزيز توفيق جاويد



هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الأول

نشأة الكون والإنسان والحضارات

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen-

B

H. G. Wells

Revised by

RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

١- راجع الطبعة الأولى السيد الأستاذ أحمد نجيب هاشم الوزير الأسبق والأستاذ أحمد خ اكي وكيـ ل وزارة التربية والتعليم.

٢- وراجع الطبعة الثانية على الأصل الإنجليزي القديم المرحوم الأستاذ محمد بدران.

٣- ونقح المترجم الطبعة الثالثة بمراجعتها على طبعة ١٩٥٦ وطبعة ١٩٦٣ المعدلة فـ ي الإنجليزيـ ة واللتين أشرف عليهما الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الأول

ويحتوي على الكتب الثلاثة الأولى

الكتاب الأول : العالم قبل الإنسان.

الكتاب الثاني : كيف تكون الإنسان.

الكتاب الثالث : المدنيات الأولى.

إهداء الكتاب

تحية:

لذكرى أستاذنا شيخ المؤرخين العرب.

المرحوم الأستاذ "محمد شفيق غربال".

أحسن الله جزاءه بقدر ما خدم التاريخ والعلم والثقافة.

فهرس

كلمة المترجم الطبعة الأولى

ولد المؤلف سنة ١٨٦٦م بمدينة بروملي بمقاطعة كنت بإنجلترا، لأب كان يعمل بستانيًا ورياضيًا محترفًا وأم تشتغل قهرمانة بأحد بيوت السراة. تعلم في مدرسة بروملي، ثم اشتغل عاملاً عند بائع أقمشة، وأخذ يكافح في تعليم نفسه بنفسه، فالتحق بمدرسة ميدهرست الثانوية. وتحول بذلك إلى عالم العلم والأدب، فأصبح مدرسًا مدة من الزمن، ثم التحق بكلية العلوم الملكية وحصل منها على درجة البكالوريوس وعلى الدكتوراه، ولم يلبث أن أصبح أستاذًا بجامعة لندن.

كان هو وبرناردشو من أقوى المؤثرات في أوائل هذا القرن، يوم أخذت الأوضاع السياسية والدينية القديمة تتداعى وتنهار تمهيدًا لتأسيس تلك الأوضاع التي لا تزال في الصنع حتى يومنا هذا. كذلك ابتدأ ولز حياته الأدبية روائيًا، يعد هو وبرناردشو وجولزوردي طبقة واحدة هي طليعة العصريين.

وأهم رواياته هي رواية كيبس، وتاريخ المستر بولي وآل فيرونكا وتونو بانجاي وعالم ولیم كريس ولد وغيرها. على أن ولز ما لبث أن تخلف عن زميليه في فن القصص، ولم يكن ذلك لجمود لحق عبقريته، بل لأنه أصبح ميالاً ميلاً خاصًا إلى النظر نظرة شاملة في ماضي أمور الدنيا وحاضرها.

وكان دائب الاشتغال بالتاريخ عمومًا وبالقوى العامة التي تصنع التاريخ، فكان ذلك منحى اتجاهه الفكري.

ولم يلبث ولز حتى تحول بكل ما أوتي من بلاغة وصدق وإخلاص إلى نبي يحذر الإنسانية من الهاوية التي أوشكت أن تتردى فيها، ويرسم لها سبيل النجاة والخلاص.

وظل يكافح في تدعيم رأيه بالكتب والمقالات حتى وافته منيته في ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦.

***

ولقد تعشقت هـ. ج. ولز من زمن بعيد، بما كنت أطالع له أو عنه من نتف هنا وهناك في مختلف الموضوعات العلمية والتاريخية وتطبيقاتها الاجتماعية والأدبية، التي تقع تحت عين القارئ العام فيما يقرأ له ولغيره. فأدركت أنه رجل فذ بل نبي مرسل بقولة الصدق في المسائل التي جعلت أساسًا للفكر والتنظيم من بدء الزمن إلى يومنا هذا. وكان أكثرها يتضمن في الواقع عناصر الشرور التي بكت منها الإنسانية ولا تزال تبكي.

على أن عجبي لإهمال شأن هذا الرجل عندنا – نحن المصريين – وبالأحرى نحن الشعوب الشرقية العربية والإسلامية، وفراغ ديواننا الأدبي والعلمي من تراثه لم يكن مما لا أجد له جوابًا؛ لأننا جميعًا عشنا محجوبين عن معرفة قالة الحق إجمالاً، والمفصحين عن الصدق عامة، لئلا يترتب على العلم بما نجهل تنبّه تضيع بسببه مصلحة من يرون سعادتهم في دوام شقاوتنا. بيد أن خفقات القلوب لدى عظائم الأمور التي تكشفت عنها الحربان الأخيرتان، وما تواتر إلى آذاننا وعيوننا من أقوال المتناحرين وتخرصاتهم، قد نبهتنا نحن ناشئة هذه الحياة المركزية من الدنيا، إلى خطر ما حملنا عليه أبد السنين، بل القرون الماضية، فقامت نهضة قومية عامة كان من عناصر حياتها إذاعة الحقائق، وتبصير الشعوب بما يراد بها.

ولما كنت أحد هؤلاء بحكم الزمن فقد رأيت من واجبي أن أساهم في تدعيم هذه النهضة بما هو في استطاعتي. ذلك بأن أضع بين أيدي الناشئة كتابًا رائده الصدق والإخلاص، من وضع ذلك الكاتب الذي أعطى روحي وعقلي مشكاة أستنير بها في هذه الدنيا التي يريدون أن يطفئوا فيها نور الحق بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المغرضون.

وكأنما أحست روح صاحبه بمقصدي فدفعت إلى يدي نسخة من أجلِّ كتبه هو كتاب "معالم تاريخ الإنسانية" لتحفزني إلى الشروع في نقله. فشرعت على الفور ولي من حبي للرجل وتقديري لفضله، ما قواني على نقله ومتابعة العمل فيما يتيسر لي من كل ليل وكل نهار.

ولقد راعني أن رأيت له طريقة فذة في التأليف والتبويب والعنونة، تختلف عما ألفناه. وأعجبني في الرجل أنه يتناول الماضي كأنما هو كتاب يقلب صفحاته بوعي، ويطالع حوادثه بإمعان ثم لا ينقلها لنا كما وجدها، وكما يفعل غيره من المؤلفين، بل يتصفحها لنا ويدلي إلينا بما تأثرت به نفسه من أحداثها، ولا يكاد يذكر هذه الأحداث نفسها إلا لمامًا. وراقني أنه صاغ الكتاب وقد تمثل الناس أمة واحدة اتجهت جهودها منذ الأزل للعمل على الخروج من البداوة إلى أمثل الحضارات. فالعالم عنده أشبه بقرية عظيمة يرى أعمال الناس فيها ويردها إلى مصادرها ولا يهز مشاعره منها موكب أهم لديه من موكب الساعين إلى المدنية.

بدأت أنقل الكتاب إلى العربية متوفرًا عليه، فإذا أنا وجهًا لوجه أمام تلك العقلية الحلوة الرهيبة منبعثة من أسلوب يتعمد فيه كاتبه الإغراب، إلزامًا منه للقارئ بإعمال فكره وإمعان تأمله.

ظللت أعمل في الكتاب سنوات أربعًا، قاسيت فيها ما قاسيت من الجهد المضني ومن قصور القواميس الإنجليزية العربية، ولم يسعفني إلا مراجع المفردات التي استحدثها المجمع اللغوي، فاستعملتها على كره كثير من القراء لها. ولكني لم أخرج في هذا عن دأب المؤلف نفسه. ولعلي قد يسرت بعملي هذا ذيوع تلك المفردات التي لا شك أن من شأن جدتها نبو القارئ والسامع عنها. فأمسست بهذا حيية بما يوضحها من الموضوع الذي استعملت فيه. وإذا علم القارئ أن الكتاب يتناول شتى موضوعات العلوم والفنون ودقائقها، لم يفته أن يرى قدر ما يستفيد الأدب العام من ظهور هذه المفردات في كتاب جليل القدر كالذي نحن بصدده.

على أني بعد هذا أشعر بسعادة لا حد لها على كل ما أنفقت من الأعوام في نقله. فقد كان سرور العلماء والأدباء الذين علموا بنقله وطالعوه تمحيصًا، أو كانت لهم يد في تهوين مشقته، يملأ قلبي معهم حمدًا لله وشكرًا بما أرضيت وما سددت من ثغرة في ديواننا الأدبي.

ولشد ما كان اغتباطي حين كان بعض أساتذة الجامعة يقول إن من لم يقرأ هذا الكتاب جاهل بالتاريخ وإن وصل فيه إلى الأستاذية.

ولن تجد في هذا القول مبالغة إذا أنت راقبت المؤلف حين يركز اهتمامه لا في الحروب والملوك بل في خطوات تقدم البشرية بين تلك المعالم؛ وفي أحجار الزوايا التي نهضت عليها الحضارات. فهو على الدوام ممسك بناقوس يدقه لافتًا نظرك إلى كل جديدة تظهر في هذا الوجود، ويكون لها أثر في دفع موكب المدنية قدمًا. فهو يطرب لظهور الكتابة في المعابد باعتبارها حدثًا من أكبر أحداث التاريخ. ويسعده أن يذكر لك

الورق الذي هو كذلك حدث من أحداث المدنية الكبرى. ويزهى أن يقرر اختراع المطبعة لأنها هي عمود المدنية الفقري الذي يشتد به أزرها. وهو يتكلم عن نشأة الزراعة في مصر وبابل، لأن نشأة الزراعة حدث جليل من أحداث الإنسانية السائرة إلى بحابح الحضارة. وهو يتتبع الإسكندر هازئًا به وبجيوشه مستخفًا بكل ما أتاه هو ونابليون وغليوم وغيرهم وما فعلوا من إراقة الدماء وتدويخ الأمم في حروب أضاعوا فيها جهودًا لم تفد منها البشرية شيئًا كثيرًا.

ثم ترى المؤلف يقف مكبرًا مهللاً مستبشرًا لنشوء حضارة البحر المتوسط عند المصريين والإغريق والرومان ثم يتواصل العالم ويتعارف، وإذا أسوكا ملك الهند يرسل إلى الإسكندرية بعثة بوذية. وإذا المؤلف أيضًا يقف طويلاً إزاءه وإزاء أحد أباطرة الهند، وهو يدعو مللها وأجناسها المتعددة إلى التعاضد والتكافل صاهرين بذلك نحلهم في وطن واحد وسلطان واحد. ثم إذا بمخترعات القرن التاسع عشر وما تلاه تترادف وتزيد أواصر الترابط بين الناس جميعًا حتى عاد استقلال الأمم وانعزالها ضربًا من المحال بل مجلبة للمضرة.

وقد أصدر ولز كتاب معالم التاريخ هذا وكتابين آخرين أحدهما سماه (علم الحياة) والآخر سماه (جهود البشرية ورفاهيتها وثروتها) بالتعاون مع طائفة من العلماء. وقد قصد من إصدارها أن تكون أساسًا من المعلومات يقيم عليه كل مواطن في هذا العالم أسس تفكيره فيما حوله من شئون الحياة والسياسة والاقتصاد. والكتاب يقع في أجزاء ثمانية، يتناول الأول منها نشأة الكون ومبتدأ الحياة، والثاني تكوين الإنسان ونشوءه وارتقاءه وأجناسه البائدة والباقية واللغات البشرية، ويتحدث الثالث عن المدنيات القديمة ونشوء الكتابة والأديان والطبقات الاجتماعية والحركات الفكرية وهي التي يضمها هذا المجلد الذي يعد في الواقع مقدمة للتاريخ الحق الذي سيأتي به الجزء الرابع حاملاً تاريخ الإغريق ومن عاصرهم، والخامس وبه تاريخ الرومان والأمم التي عايشتهم، والسادس محتويًا تاريخ المسيحية والإسلام، والسابع عن القرون الوسطى، فأما الثامن فهو بمثابة سجل لأحداث العصر الحديث وشرح لما بين ظهرانينا من نظريات علمية وسياسية واقتصادية.

وفيه بث المؤلف رسالته للبشرية كافة. وهي الرسالة التي ظل أربعين سنة من حياته يبشر بها ويدعو إليها وينافح عنها، والتي تقوم على مبادئ أخذ الناس يتحدثون عنها منذ الحرب الأخيرة. وأهم هذه المبادئ: منع الحروب الذي لا بد للوصول إليه من التقارب بين الناس جميعًا، وذلك بتقريب الأديان بعضها من بعض، وتوزيع الثقافات توزيعًا متعادلاً بين الشعوب كافة، وتوحيد مستوى الثقافة بين شعوب العالم أجمع، ورفع راية الديمقراطية وتوطيد دعائمها توطيدا يجعلها الأداة الفعالة للحكم، وإزالة الفوارق بين الأجناس والعناصر والألوان، وقطع دابر الاستعمار، وإنشاء حكومة عالمية تكفل التوافق بين الشعوب، وإيجاد التنسيق الاقتصادي الذي يجعل المواد الخام في متناول الجميع، لا حكرة لفئة من الشعوب دون سائر شعوب العالم.

على أني مهما أسهبت للقارئ في وصف آراء الكاتب وأمنياته الجميلة، وما يرسمه لعالمنا الـ تعس مـ ن صور خلابة يؤمن بها ويدعو إليها، فما أنا بمستطيع أن أبلغ به درجة اتصاله الشخصـ ي بـ المؤلف نفسـ ه. فلأخل بين القارئ وبين الكتاب عسى أن يفيد منه ما أفدت، وهذا أقصى أمنيتي.

على أنه لا يفوتني أن أسجل عاطفة شكري العميق إلى أستاذي العالم الجليل محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف لما أبداه نحو هذا الكتاب من اغتباط به ورعاية له وكذلك إلى حضرات أعضاء لجنة التأليف الموقرة، وبخاصة الأستاذين الجليلين أحمد أمين بك وأحمد عبد السلام الكرداني بك على كريم ترحيبهم بهـ ذا الكتاب واهتمامهم بطبعه ونشره تقديرًا منهم للغاية الثقافية السامية التي توخاها المؤلف العظيم.

كما أقدم شكري لجميع من عاونوني بالعمل فيه. ولا سيما الأستاذين الكبيرين أحمد نجيب هاشـ م مـ دير البعثة العلمية المصرية بواشنطون وأحمد خاكي مدير المعهد الثقافي المصري بلندن لما بـ ذلا مـ ن وقتهمـ ا وجهدهما وعلمهما في مراجعة الترجمة وتقويمها.

عبد العزيز توفيق عزيز جاويد

كلمة المترجمة للطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من الكتاب في أمد وجيز، ولقي من الرواج في العالم العربي عامة وبين طلبة الجامعات خاصة، ومن التشجيع من الأساتذة وكبار المثقفين، أخص بالذكر منهم المرحوم الزعيم عبد العزيز فهمي، وأستاذي السيد محمد شفيق غربال ما غمرني بالسعادة والبهجة وحمل لجنة التأليف مشكورة على إعادة طبع الكتاب....

ورأيت الحاجة ماسة إلى إضافة الفهارس الأبجدية إليه فوضعتها له على ما تطلبت من جهد، وألحقته بثبت إنجليزي عربي جَمَع المصطلحات العلمية الواردة فيه.

أرجو أن تحوز هذه الطبعة ما حازته أختها الأولى من إقبال وإفادة.

ع.ت.ع.جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثالثة

لا شك أن نفاد الطبعتين الأوليين من الكتاب أكبر آية على تقدير الجمهور العربي لولز كفيلسوف ومؤرخ، وإقبالهم على آرائه، وإكبارهم لفلسفته حيث يربط الحياة بالعلم، والتفكير بالمنهج العلمي، كما يقرن سعادة الشعوب وأمنها بالديمقراطية والاشتراكية. ولا شك أن النظرة العلمية البحتة المتجردة من الشوائب الميتافيزيقية هي أشد ما يعوز الشرق الذي يجنح أهلوه بسليقتهم إلى التأمل النظري، ولذا فإني ممن يعتقد دون أنه لابد من تحويل أساس الفكر عند الشرقيين من تلك النظرة التأملية البحتة إلى الطرق العلمية، أي إلى الأبحاث والاستقراء والإحصاءات والتجارب. فليس غريبًا إذن ما أقدمت عليه الدولة في العهد الثوري من تقدير العلم، وتشجيع لأهله، ورعاية لمباحثه، وليس عبثًا بأية حال ما تنفقه من أموال على الجهاز القومي للبحوث، وما تضفيه على الباحثين من هبات وتكريم.

فجمهوريتنا العربية المتحدة تريد منا أن ننصرف عن العقلية الزارعة إلى العقلية الصانعة. وهذا الانتقال يكلفها ما لا قبل لأحد به من نفقة وجهد، ذلك أن الدولة تريد أن تجعل العلم وسيلة للحياة، يهدف إلى غاية محدودة هي تعديل طرق التفكير عندنا، والتحول بها من الاسترخاء والليونة التي تبعثها زراعة المحاصيل إلى الدقة والضبط التي تقوم على الأرقام والرياضيات والتجارب العلمية.

وولز في هذا الكتاب يربط على الدوام بين الجيولوجيا والجغرافيا الفيزيائية والبيولوجيا وبين طرائق عيش البشر ووسائلهم في العمل والفكر والمعايش.

وهذه الوسائل هي مقومات التاريخ، وليس ذلك بدعًا من المؤلف، فإنه في كل أدوار حياته وفي أدبه وفلسفته وقصصه يربط بين العلم وبين الحياة البشرية التي يعتبر التاريخ سجلاً لها. ومن يمن الطالع أن جهود الدولة في هذا الاتجاه أخذت تتكلل بالنجاح وأن اتجاهها العلمي أسفر عن براعم عظيمة أخذت تتفتح بسرعة ووفرة لم تكونا من قبل معهودتين، وشاهد ذلك تلك الأبحاث العلمية الجليلة التي يتقدم بها أبناؤنا في المحافل العلمية ما بين عالمية وقومية، وهؤلاء الخبراء العرب المصريون الذين تستفيد بخبراتهم الدنيا في كل حدب منها وصوب.

وولز يبني هذا الكتاب على علم الحياة وعلى تفاعل الإنسان مع البيئة، وتأكيدًا لقيمة ذلك العلم في نظره اتخذ نحوه خطوة إيجابية.

ومن ثم يؤلف كتابًا في علم الحياة كما أوضح ذلك في مقدمته.

***

وقد روجعت الطبعة الثانية من الكتاب في مجلداته الثلاثة الأولى على النسخة الإنجليزية الصادرة في ١٩٣٧ كما بينا ذلك في حينه، حتى إذا ما شرع المترجم في مراجعة المجلد الرابع والأخير من الكتاب عثر على طبعة عام ١٩٥٦ التي نظر فيها الأستاذ رايموند بوستجيت فضبطنا المراجعة على أساسها. وعندما شرعنا في إعادة طبع الكتاب للمرة الثالثة بادئين بالمجلد الأول نقحناها على طبعة ١٩٥٦ الإنجليزية نفسها، ولكن تصادف بعد أن وصلنا إلى ص ١٦٠ أن عثرنا على أحدث الطبعات الإنجليزية وهي منقحة في ١٩٦١ وصادرة في ١٩٦٣. وقد أوردنا كلمة مراجعها بعد كلمتنا هذه. وتحقيقًا لمواكبة النسخة العربية للأصل الإنجليزي أجملنا أهم ما أدخل على الكتاب قبل ص ١٦٠ من تعديل في التذييل الذي أوردناه في آخر هذا المجلد الأول (ص ٢٤٧)، ثم زدنا الفهرس الأبجدي دقة بل جددناه وعدلناه بما يتناسب والوضع الجديد للكتاب.

فالحمد لله على أن وفقنا إلى خدمة قراء العربية والحمد له على أن وفق أبناء العربية إلى التثقف بثقافة ولز والاستفادة من نظرته العلمية الخالصة.

أول يناير ١٩٦٧

عبد العزيز ت. ع. جاويد

مدير المركز الرئيسي للتدريب بمنشية البكري

"بالقاهرة"

حاشية الأستاذ رايموند بوستجيت
على الطبعة الإنجليزية المنقحة

تركنا الأقسام والفصول التالية كما خلفها لنا ولز دون أن تمتد إليها يد التغيير إلا ما حتمته الظروف بعد أن تراخت به السنون. وقد انتوى المؤلف إدخال تنقيحات أخرى هامة يجريها على فترات كما توضح ذلك مقدمته. وأضاف أقسامًا ليجعل "المعالم" تمضي قدمًا مع الزمان. ولكنها كانت أقسامًا عرضية وفيها بعض أخطاء أغلب الظن أنه كان متنبهًا إليها. ومن البدهي أنه توجد نسخة شرع المؤلف يعمل في إصلاحها قبيل وفاته، وأجرى قلمه بالحذف والتعديل على كل شيء ورد في محتوياتها بعد عام ١٩٣٠. وقد أدرج كل ما يريد من إصلاحات في تلك النسخة بطبيعة الحال. وأشدها إثارة للاهتمام ما انطوى منها على تغييره آراءه حول الثورة الروسية حيث أزال كثيرًا من النعوت الجارحة التي نعتها بها. ولم أكد أجد في هذه النسخة شيئًا ذا بال أغيره حتى التاريخ الذي امتد فيه قلمه إليها بحركة ضخمة من الشطب والإلغاء. وفيما قبل ذلك كنت كلما اضطررت إلى تغيير شيء كان ذلك على الدوام نتيجة لما ألم بمعلوماتنا من تبديل، وليس نتيجة لخطأ في المادة. وقد اكتشف العلماء في الآونة الأخيرة كوكب بلوتو كما اكتُشف كثير من أفراد الإنسان المتحجر، ومن أمثال ذلك أيضًا أن ملكة بريطانيا لم يعد لقبها إمبراطورة الهند، ومن ثم اقتضى الحال إجراء تعديل في بعض العبارات، وذلك كل ما في الأمر. ولم تزد الأيام صلابة الكتاب العظيمة إلا ثباتًا. وطبيعي أني اضطررت في السنوات الأخيرة إلى إجراء المزيد من التغييرات. ولكني توخيت كلما وجد مجال للشك أن أتذكر أن القارئ إنما يريد الاستمتاع بآراء ولز لا بآراء بوستجيت. من أجل ذلك تركت في الكتاب أحكامًا واستنتاجات لا أوافق عليها شخصيًا. واقتضتني الضرورة إعادة أقسام بأكملها خططها ولز قبل وفاته إذ يلحظ من قد يعنيهم الأمر أن الفصول من ٦ إلى ٩ قد نقحتها أنا و جـ .. ب. ولز ابن المؤلف. كما أن شطرًا كثيرًا من القسم ٧ وجميع مادة الأقسام ٩، ١٢، ١٣ من الفصل التاسع والثلاثين قد كتبها من جديد.

هذا إلى أن الفصل الختامي من تأليفي بأكمله.

أما سائر أقسام الكتاب فهي بالروح والجسم والدم من صنع هـ .. جـ .. ولز.

مقدمة المؤلف

معالم تاريخ الإنسانية قصته والغرض منه

١- كيف حدث أن كتب الكتاب.

٢- طريقة كتابة المعالم.

٣- في بعض ما حذف منه وما أضيف إليه.

١ - كيف حدث أن كتب الكتاب:

كُتب هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ونشر في أجزاء مصوّرة، ثم روجع مراجعة عناية وتمحيص وطبع ثانية بشكل كتاب سنة ١٩٢٠، ثم أعيد النظر فيه إعادة قاسية، كما أعيد تنظيمه توطئة لطبعة جديدة في يناير سنة ١٩٢٣، ثم أعيد إصداره في طبعة منقحة زيدت زيادة وافرة في سنة ١٩٢٥، وهي لا تزال معروضة للبيع، ثم صدرت كذلك طبعة جديدة كل الجدة أضيفت إليها مواد كثيرة، وقد روجعت هذه أيضًا مرة أخرى توطئة لطبعه سنة ١٩٣٢.

لقد كانت في سنة ١٩١٨ أسباب متعددة تدعو الكاتب إلى أن يحاول كتابة تاريخ للعالم، إذ كانت تلك السنة خاتمة سني الحرب وأثقلها على الناس وأكثرها رفعًا للحجب عن عيونهم. كان الإملاق الذي لم يألفه الناس يغشى كل مكان. وكان الأسى والحداد يملآن كل فؤاد. وكانت قصة الموتى والمشوهين قد بلغت الملايين عدًا. وأحس الناس أنهم وصلوا إلى الذروة من الأزمة المستحكمة في شئون العالم. وقد تملكهم الملل والتقزز حتى أصبحوا وليس في استطاعتهم أن يقدروا ما خبأه لهم القدر من احتمالات معقدة، فلم يكونوا يعرفون أهم قادمون على نكبة في المدنية أم هم مقبلون على فاتحة عهد جديد للتآلف الإنساني، وكانوا ينظرون إلى هذين النقيضين بسذاجة من لا ترى أعينهم سواهما أمامها، بيد أنهم كانوا معتصمين بحبل الأمل. وكانت هناك مناقشات طويلة فيما يمكن أن تصل إليه التنظيمات الجديدة في عالم السياسة، وفي المعاهدات الدولية لمنع الحرب، وفي عصبات الأمم وعصبات الشعوب. وكان كل إنسان يفكر في جميع الدول على السواء أو قل إنه كان - على الأقل - يحاول ذلك. ولكن سادهم شعور بأن الأسس الجوهرية للمسائل التي ألقيت فجأة، وبشكل محزن على عواتق الديموقراطيات في العالم لم تكن مفهومة فهمًا كافيًا وتساءل الجميع قائلين: كيف حدثت كل هذه الأحداث؟ كذلك كان الناس يتساءلون محاولين أن يسبروا أغوار ما وراء المنازعات التي كانت تدور حول سراجيفو "وقصاصة الورق البلجيكية" حتى يصلوا إلى أسباب للأمور أوسع مضطربًا وأقدم عهدًا. ماذا كانت بداية هذا النزاع الذي قام على ضفتي الراين؟ ولماذا كان له ذلك الأثر الذي عم العالم قاطبة؟ ولماذا أصبحت اليابان التي كانت منذ نصف قرن مضى بلادًا خيالية شعرية جميلة، وأسطورة من أساطير الفن الركيك، وأرضًا من أراضي المسرحيات الغنائية المضحكة تكاد تبعد عنا بعد الكواكب السيارة - لماذا أصبحت اليابان تجوب سفنها الحربية الآن البحر المتوسط؟ ولماذا ذهبت القيصرية الروسية كأنما كانت حلمًا

من الأحلام؟ وماذا كانت حقيقة تركيا؟ ولماذا كانت للقسطنطينية تلك الأهمية العالمية الكبيرة؟ ثم ما هي الإمبراطورية؟ وكيف بدأت الإمبراطوريات؟ وما الذي حوّل ألمانيا من مجموعة دويلات متفرقة إلى قوة وعزيمة عدوانية موحَّدة جعلت نصف العالم في فرق من الطاقة الألمانية.

لقد حاول كثير من الرجال والنساء أن يتذكروا المعلومات التاريخية القليلة التي تلقوها في أيام دراستهم القصيرة فوجدوا في زوايا سحيقة من ذاكرتهم قائمة مملة تكاد تكون منسية بأسماء بني جلدتهم من الملوك أو رؤساء الدول. فحاولوا أن يقرءوا عن هذه الأمور شيئًا فوجدوا أنفسهم في بحر عباب من الكتب. واكتشفوا أنهم علموا التاريخ من وراء غمامات الوطنية التي تتجاهل كل بلد إلا وطنهم فلما وقعت الغمامات أصبحوا في وهج تعشى له عيونهم. وكان من أشق الأمور عليهم أن يحددوا القيم النسبية للمسائل التي يدور حولها البحث. وكانت جماهير غفيرة من الناس، أو بمعنى أوضح، كل من أوتوا حظًا من الذكاء في العالم ممن لم يوجهوا توجيهًا خاصًا في تعليمهم – كانوا يحاولون، ويعرفون أنهم يحاولون قلّت هذه المعرفة أو كثرت، أن يتفهموا أمور العالم بصفة عامة. فكانوا في واقع الأمر يرتجلون لأنفسهم معالم للتاريخ ينشئونها لاستعمالهم الخاص.

وليس مؤلف هذا الكتاب مؤرخًا محترفًا بأي حال، ولكنه شرع يكون لنفسه معالمه التاريخية الخاصة منذ أن ابتدأ حياته العلمية. وكان دائب الاشتغال بالتاريخ بوصفه كلاً واحدًا وبالقوى العامة التي تصنع التاريخ. فكان ذلك منحى اتجاهه الفكري فهو مذ كان يدرُس العلوم احتفظ بدفتر دوّن فيه مذكرات لمطالعاته التاريخية. وكان أول ما أصدره من القصص قصة: (آلة الزمان، سنة ١٨٩٤) وهي نظرة خيالية عن اتجاه مصير البشر؛ وقصة: (عندما يصحو النائم) وهي مبالغة جذابة تصور تطورات مدنيتنا الحاضرة. وكان كتابه: (المتوقعات، سنة ١٩٠٠) محاولة لمناقشة بعض ما كان محتمل الوقوع من نتائج الأحداث الجارية.

واستمر المؤلف في عدد من كتبه أمثال: "البحث الفاخر" و "النار الأبدية" يرسم صورًا تخطيطية "لمعالم تاريخية" صغيرة، وكانت نتيجة ذلك أن وجدته تلك اليقظة الفكرية التي نشأت عن الحرب العظمى متجهًا اتجاهًا خاصًا لأن ينظر نظرة شاملة إلى ماضي الأمور، وحاضرها إن لم تكن قد وجدته مهيأ لذلك بنوع خاص، وكان قبيل ابتدائه العمل في هذه "المعالم" مشغولاً حينًا من الدهر بشئون تسويات ما بعد الحرب، ومشروع عصبة للأمم. وذلك في وقت لم يكن المرحوم الرئيس ولسون قد تبنّى بعد، هذه الفكرة. وكان هذا العمل يتضمن بالضرورة اشتراك المؤلف في النزاع القائم بين الاتحادات والجمعيات للأمم المختلفة التي تقوم بأعمال الدعاية وفي تنظيمها. وقد أظهرت المناقشات التي دارت في تلك الجماعات ظهورا جليًا ما لفكرة المرء عن الماضي من أثر بالغ في حوادث النشاط السياسي بأجمعها. قُل لي بربك: ما هي نواحي النشاط السياسية للرجل إلا أن تكون التعبير بالفعل عن فكرته عن الماضي؟ وكان الذين يفكرون في مشروعات لعصبة الأمم على خلاف فيما بينهم لأن فكرتهم عن عالمهم كما كان وقتئذ وما كان عليه من قبل، وكما يمكن أن يكون – كانت فكرة مبهمة مهوشة تخلو من التجانس. وكان ثمة بعض المعلومات الخاصة الدقيقة إلى أبعد حد – مختلطة بكثير من هذه الفروض العامة عن التاريخ وهي فروض بلغت الغاية من السذاجة.

وقد رأى المؤلف أنه يجدر به أن يجمع الخرائط والمذكرات وأن يجعل مطالعاته أكثر انتظامًا مما كانت عليه وأن يوضح لنفسه عددًا من المسائل التاريخية التي كانت لا تزال غامضة عليه غاية الغموض، حتى اتضح له أن في استطاعته أن ينتج أثرًا أجل فائدة إذا هو وسع مفكراته الخاصة عن أشكال التاريخ الرئيسية وحوّلها إلى ما يشبه (التقرير العام) ويقارب الكتاب السهل التناول، ليستفيد منه الرجال والنساء الأكثر منه عملاً أو الذين تلهيهم أمور أخرى، نقول إنه قد اتضح له أن في استطاعته أن ينتج أثرًا أجل فائدة مما يستطيع أن ينتجه إذا ظل يتخبط في وضع دساتير مستحيلة التنفيذ لاتحادات دولية أكبر الظن أنها لن تقوم، ثم يزداد في كل يوم يأسًا من النجاح. وكان كلما فكر في مشروع كتابة ملخص المعلومات الموجودة عن مركز الإنسان في الزمان والمكان تبين أنه مشروع عسير غير أنه جذاب لا يستطيع التخلي عنه.

ففكر في أول الأمر أن يسطر استعراضًا عامًا للوحدة الأوربية أي ما يشبه الملخص لقيام النظام الروماني وسقوطه، ولبقاء فكرة "الإمبراطورية" بأوربا بقاء إصرار وعناد، ولما وضع في الأوقات المختلفة من مشروعات متعددة لتوحيد العالم المسيحي. ولكن سرعان ما اتضح له أن البداية الحقة للأمور ليست في روما ولا في اليهودية Judea وأنه ليس في الإمكان قصر القصة على العالم الغربي. وأن كثيرًا من الأمور لم يكن في الواقع سوى فصل متأخر من مسرحية أكبر منه وأعظم. وإذا القصة تحمله من ناحية إلى البدايات الآرية في غابات أوربا وسهولها وفي آسيا الغربية، وتحمله من الناحية الأخرى إلى المراحل الأولى للمدنية في مصر وأرض الجزيرة، وفي تلك الأراضي التي تغمرها المياه في هذه الأيام والتي تبدو كأنما كانت يومًا عامرة بالسكان في حوض البحر المتوسط وعندئذ أخذ يدرك كيف قلل مؤرخو أوروبا في قسوة عجيبة، من شأن خطر مرتفعات آسيا الوسطى، ونصيب الثقافات الفارسية والهندية والصينية من مسرحية الجنس البشري. وأخذ يتضح له يومًا بعد يوم كيف أن الماضي البعيد لا يزال ماثلاً في حياتنا ونظمنا، وكيف أننا لا نستطيع أن نفهم إلا قليلاً، المشاكل السياسية أو الدينية أو الاجتماعية التي نشهدها اليوم ما لم نكن نفهم بعض الفهم مراحل المجتمع الإنساني الأولى. وهذا يتضمن شيئًا من فهم أصل الإنسان.

وهكذا أخذت المعالم تتمدد وتوسع نفسها كلما أمعن المؤلف فيها تفكيرًا. ثم اعترت المؤلف زمنا ما نوبة من التردد، إذ هاله هذا العبء الذي كان يتسع لحظة بعد أخرى حتى ليكاد يقارب كتب الملاحم حجمًا. وأخذ يسائل نفسه: أليس هذا العمل أجدر بمؤرخ منه برجل كان كل همه، حتى ذلك الوقت، أن يكتب مقالات فلسفية أو روايات خيالية؟ ولكن لم يبد أن هناك مؤرخًا واحدًا كان سطحيًا في تأليفه – أم أقول رحب الذرع بالحد اللازم وقليل العمق اللازم أيضًا . بحيث يحيط بهذا المضمار الفسيح الذي ينطوي عليه هذا المشروع.

والمؤرخون في عصرنا هذا أناس ذوو علم واسع يخشون الهفوات الصغيرة أكثر مما يخشون عدم التماسك بين المقدمات والنتائج وهم دائما في فرق مما يصيبهم من سخرية مؤكدة إن أخطئوا في أحد التواريخ، أكثر مما يخافون إسناد قيمة خاطئة لعمل لا يستحقها. والواقع أن من الحق والواجب أن تكون الحال كما ذكرنا؛ وأنه يجب في هذا العصر الذي يمتاز بالسرعة والإقدام، أن تقوم بالعالم طبقة كاملة من العلماء المتفانين في العلم يكون واجبها الاحتفاظ بمعيار محتم من المعايير المحكمة الضبط. ولكن هذه المعايير العالمية الممتازة بالدقة التفصيلية، تقطع علينا سبيل الرجاء في أن نلجأ إلى المؤرخين نلتمس عندهم

ما هو مطلوب ها هنا. ولن يكون هذا العمل لديهم مهمة جذابة شائقة، بل يكون على العكس من ذلك مجلبة للكثير من الضيق والعناء. فإن على المرء أن يطلب عندهم المادة التاريخية محشودة مكدسة ولـ يس النتائج المتجمعة. وهم في واقع الأمر يتحفوننا الآن بمجلدات لا يحصى عديدها تكتبها أيد متنوعة وتتجلى فيها وجهات نظر مختلفة وفيها تنوع في الروح والقصد يبهج النفس ويلذ الفؤاد وهي كلها مصنفات عظيمة نبيلة لها جليل القدر والنفع للدارسين. ولكن هذه المؤلفات الجليلة – إنما هي من ناحية الأغراض اليومية للقارئ العام الذي يشق طريقه في الحياة – شيء لا يقل في روعته وعسر الاسترشاد به عن موسوعة ضخمة متعددة الأجزاء.

وقد ظهرت بالفعل في أمريكا كتب كثيرة نافعة صغيرة الحجم تبحث في التاريخ العام، أخص بالذكر منها كتاب التاريخ القديم والحديث من تأليف روبنسون وبريستد. وأمثاله من كتب هاتون وبستر، ود. م. وست. ولكن هؤلاء الكتاب جميعًا جعلوا غايتهم المدرسة والكلية – لا القارئ العادي. وكذلك كتاب "الماضي الحي" الذي ألفه ف. س مارفن F.S. Marvin فإنه رسالة جديرة بالإعجاب تبحث في التقدم الفكري وإن لم يحو إلا القليل من الحقائق الجوهرية. فلو تقدم أحد ثقات المؤرخين المعترف لهم بالتبريز في فنهم وأعلن عزمه على وضع خلاصة تاريخية عامة لكان في ذلك نكبة على سمعته العلمية ولو أن ذلك العالم قطع على نفسه هذا العهد لانتظر القارئ العام سنين كثيرة قبل أن يحظى به. فأما كاتب هذا الكتاب فإن مركزه وهو بعيد بطبعه وبمحض اختياره عن الاحترام العلمي، بُعدَه عن ألقاب الشرف، قد مكنه أن يلذ الجمهور بالتاريخ دون أن يضحي أقل تضحية بالكرامة والمكانة، ودون أن يتعرض لما يتعرض له الثقات من المؤرخين من نقد خصومهم. وكان من أسعد مزاياه أنه يسيء إلى غيره وهو منيع صعب المنال. فهو في فيافي الأدب بدوي رحال وطنه الفضاء العظيم المحيط به؛ لا يعرف لنفسه لقبًا أكرم من اسمه، ولا يفكر في شرف إلا شرفه. ولهذا أو ذاك من العلماء الإحصائيين أن يثور لأن المؤلف أهمل إهمالاً شنيعًا هذه أو تلك من الحقائق الثمينة، التي يختص بها ذلك العالم نفسه ويحتكرها دون غيره. فذلك أمر لا يعني المؤلف في قليل ولا كثير. فهو يستطيع دون أن تخالط وجهه حمرة الخجل أن يرتشف من المؤلفات القيمة والمواد العادية القريبة المتناول، إذ لم يكن هناك قط ما يلزمه أن يعزو إلى نفسه اكتشافات مبتكرة أو وجهات نظر مبتدعة. بل كان واجبه الأهون من ذلك أن يجمع وينظم ويحدد النسب بين أجزاء مغامرة الجنس البشري العظيمة وأدوارها، ثم يدون ذلك. فهو لم يضف إلى التاريخ شيئًا، أو هو يؤمل – على الأقل – أنه لم يضف شيئًا إلى التاريخ، وكل ما فعله أنه قد حوّل مجموعة ضخمة من المواد إلى مهضوم هين سهل. وبعض تلك المواد جديد طارف. فعل كل هذا بوصف كونه كاتبًا شعبيًا يرعى احتياجات أمثاله من المواطنين العاديين.

ومع ذلك فإن الموضوع من الجلال بحيث إن أي معالج له مهما بلغ تواضعه لا يستطيع أن يفقده ما هو عليه من آيات الكرامة والجلال. فإذا كانت هذه "المعالم" تبدو في بعض الأحيان مجهدة هزيلة أو بتراء ناقصة نقصًا مستوجبًا للأسف، فإنها في بعض الأحيان الأخرى تظهر كأنما قد خططت ودونت نفسها بنفسها. وإن هذا الكتاب ليرسم للقراء صورة خلفيتها عميقة لا يسبر غورها: لغز النجوم وامتداد الزمان والمكان امتدادًا لا يعرف له معيار يقاس به.. ثم تبدأ الحياة وهي تناضل في طريق الإحساس والوعي وتجمع القوة وتدخر الإرادة خلال ملايين من

السنين وخلال بلايين لا تعد من حيوات الأفراد حتى تصل إلى ما عليه العالم الآن من حال معقدة مشوشة، مليئة بالمخاوف قدر ما هي زاخرة بالآمال والفرص. فنرى الإنسان ينهض من البدايات التي كان فيها وحيدًا إلى ما تراه في عصرك الحاضر من بزوغ فجر التآخي بين الإنسانية في العالم كله. ونلحظ كل النظم وهي تنمو وتتغير. وإنها لتتغير الآن أسرع منها في أي زمان مضى. وينتهي استعراضك لهذه الأحداث بعلامة استفهام هائلة. فما الكاتب إلا دليل يوصل القارئ في نهاية المطاف إلى الحافة الحاضرة، تلك الحافة التي تتحرك دائمًا إلى الأمام، وهي طلائع أمور تسير قُدُمًا في طريقها، ثم يقف ويهمس في أذنه: "ها هو ذا تراثنا".

ومن السخف أن ندعي أن هذا الكتاب لا يزيد عن مجرد عرض عابر لأول رؤية للحقيقة التي تكاتفت على رفع النقاب عنها خلال مائة السنة الأخيرة جهود كثيرة جبارة أنفقها علماء طبقات الأرض Geologists والإحاثة Palaentologists وعلماء الأجنة Embryologists وجميع أنواع علماء الطبيعة والنفس والسلالات البشرية Ethnologists وعلماء الآثار وفقه اللغة والباحثون التاريخيون. ولم تكن دراسة التاريخ قبل قرن من الزمان تتجاوز الإكباب على التهام ما في الكتب. فأما في يومنا هذا فليس للمؤرخ المعتمد في دراسته على الكتب وحدها إلا أن يتبوأ – كارهًا أو متأذيًا – منزلة المصنف الذي يضيف إلى مجموعة العلم بمعناه العام بعض وثائق مشكوك في قيمتها.

وكتابنا هذا يروي قصة الاستعراض العام لهذه الصورة الضخمة. والمؤلف يرى بأقصى ما في وسعه من جهد ومقدرة أن هذه هي الحال التي عليها تلك الصورة في يومنا هذا. ولكنه يكتب في حدود مقدرته الخاصة وحدود زمانه. فهذا الكتاب نختص به عصرنا الحاضر وحده، ولا ندعي له الخلود فهو القصة العابرة للحوادث، ولا مفر من أن يلحق هذا الكتاب في طبعته الجديدة سنة ١٩٣٠ بطبعاته السابقة إلى خزانة الكتب القديمة وإلى أفران حرق القمامات. ولسوف تتولى أيد جديدة أوسع مواهب وأعظم حيلة وأغزر علمًا، كتابة معالم جديدة في أساليب أرقى وأجمل. وإنما كتاب "المعالم" الذي يفضله المؤلف كثيرًا على كتابه هذا، هو الكتاب الذي سيصدر سنة ٢٠٣٠، والذي يتمنى لو قرأه وربما تمنى بتشوف أن يكب على صوره ورسومه.

فلو وقعت في أيدينا، بمعجزة من المعجزات، نسخة من معالم التاريخ الصادر في ٢٠٣٠ فلا شك عندي في أننا جميعًا سنهتم أولاً بالصور العجيبة التي في فصوله الأخيرة فنقف حيالها وحيال ما يصحبها من فنون مبهوتين ثم ننتقل بعدئذ إلى ما يصحبها من النصوص. فما أعجبها من حوادث! وما أعجبه من تقدم لا يكاد العقل يصدقه! وأخيرًا سوف يرجع كاتب هذه السطور على الأقل إلى الفصول الأولى ليرى القدر الذي تبقى من القصة المروية ههنا.

والراجح أن الصورة العامة للقسم الأول ستظل عظيمة الشبه بالصورة التي رسمناها هنا ولكن لا ريب أن مئات من التفاصيل المجهولة الآن، سوف تلقى نورًا مرشدًا حينذاك. وسوف تكون هناك أيضًا مكتشفات طريفة رائعة في الجماجم والأدوات والمدن المطمورة وآثار شعوب مفقودة أو مغمورة لا يدري العالم عنها الآن شيئًا. وستكون قصص الصين والهند أدق عند ذاك وأبين. وربما أضحت غير ما هي عليه الآن في صفاتها، وستزداد معارفنا عن آسيا الوسطى، وربما زادت معارفنا عن أمريكا قبل كولمبس. وسوف يظل شارلمان وقيصر شخصيتين عظيمتين في التاريخ. وربما انحطت نسبيًا قيمة جبابرة الزمان القريب أمثال نابليون.

٢- طريقة كتابة المعالم:

كان الغرض الأكبر من مراجعة الكتاب في هذه المرة أن نجعله أيسر فهمًا وقراءةً وقد سبق أن بيّن المؤلف كيف أنه نشأ من مذكرات وخرائط، وها هو ذا يعترف الآن حين يرجع إلى الطبعتين الأوليين: اللتين ظهرتا في أجزاء متفرقة، ثم أولى طبعاته في شكل كتاب سنة ١٩٢٠ بأن كتاباته كانت تحتفظ بطابع المذكرات، فقد وضعت مواد كثيرة غير مهضومة ولا متجانسة في الهوامش السفلى وكانت فيه إلى ذلك أقوال كثيرة مبهمة، فيها الكثير من التحفظ. وكان عرض الحقائق يداخله أحياناً شيء من الاضطراب. وتلك نتيجة طبيعية للطريقة التي اتبعها المؤلف في إنشاء الكتاب. فإنه استعان بأربعة مساعدين كبار واتخذ منهم مستشارين له في مطالعاته ومراجع معلوماته وهم السير راي لانكستر، والأستاذ جلبرت مراي، والسير هاري جونستون، والمستر أرنست باركر. هذا إلى أنه استعان بمشورة كثيرين من الرجال الممتازين بسعة الإطلاع بصفة خاصة في هذا الموضوع أو ذاك. وفي هذا الصقع أو ذاك. فأسدى إليه السير دينيسون روس والمستر جرانمر باينج، والمستر س.ن. فو أكبر المعونة في الموضوعات الخاصة بآسيا الوسطى والصين. وتكرم عليه المستر شارلس سنجر بالكثير من المعلومات القيمة عن علوم اليونان والرومان الأقدمين. وكان الأستاذ ج. ل. مايرز مرجعًا ثميناً في تاريخ آثار البحر المتوسط القديمة، والمستر فيليب جودالا مستشارًا في تاريخ أوربا السياسي في القرن الثامن عشر وفجر التاسع عشر، وهلم جرا. ولم يسكن المستر ج. ف. هورابين، بما له من عبقرية في الجغرافيا السياسية والاقتصادية، مصورًا للكتاب قدر ما كان شريكا لي في تأليفه. وهناك الكثيرون ممن تفضلوا بعلمهم وضحوا بوقتهم بسخاء وبلا مقابل. وفي الطبعات السابقة قوائم مليئة بتلك الأسماء حتى ليتردد المرء بين الاعتراف بالفضل وتوريط الأصدقاء. ابتدأ المؤلف بأن كتب مسودة كل فصل على حدة، ونسخت من كل فصل عدة نسخ، أرسلت إلى كل من رأى المؤلف الاستعانة بهم فعلقوا عليها وألهبوها نقدًا، وكتب كل ما رأى فيه الفائدة. ثم جلس المؤلف وقد تطهرت نفسه واستنارت، جلس بين هذه النسخ الكثيرة التي نالت منها يد المحو والإضافة والبتر كل منال، فقرأها وكتب الفصل من جديد. وأخيرًا أرسلت مسودات المطبعة إلى كبار المساعدين وغيرهم ممن يهتمون بالعصر المدروس في الفصل.

وبهذه الطريقة ضمنا صحة الأسماء والتواريخ وما إليها. وقد احتفظ المؤلف بشخصيته، فاحتجز لنفسه كل حقوقه في حرية الحكم على الأشياء التي يكون المدار فيها على الرأي، أما في الموضوعات التي يكون مدارها الحقيقة والواقع، فقد اتبع بغاية الدقة والأمانة رأي نخبة العلماء الذين استأنس بهم. وكانت نتيجة ذلك إدخال ألوان عدة من الجدل، أضيفت إلى الهوامش المزدحمة، بل إلى المتن نفسه. مثال ذلك أنه اعتدى على الأستاذ جلبرت مراي، في المقارنة التي عقدها بين الصفات الخلقية والعقلية للأثيني العامي العادي ومثيله اللندني. والمؤلف وإن كان قد أباح للكاتب العطف على الأثيني، فإنه احتفظ بحقه بأن يحكم على الثاني على طريقته هو الخاصة وكانت هناك كذلك صفحة أو ما يقارب الصفحة ملئت بالجدل بين المؤلف والأستاذ مراي والمستر باركر حول سلامة تربية المستر جلادستون، عدا اختلافات أخرى في الرأي مع المستر باركر. ويرى الكاتب أن عظمة نابليون الأول ليست إلا خرافة كبيرة لا أساس لها في عالم الحقائق. وهو يرى أن الوقائع والحقائق التي تؤيد هذا الحكم تفصح عن نفسها بنفسها وسترونها في هذا الكتاب في موضعها وحجمها النسبي الخليق

بها. فقد كان الرجل من طراز موسوليني ودرجته، وكانت عقليته أدنى من عقلية نابليون الثالث. بيد أن المستر باركر لم يقبل هذا الحكم فكتب إلى المؤلف يقول: "اكتبني مناقضًا لرأيك" وقد كان فدونت أقواله في الهامش. وكانت نقطة الضعف في السير هاري جونستون أو بالأحرى نقطة قوته المفرطة – تنحصر في شذوذه في كتابة الأسماء التاريخية المشهورة بطريقته الخاصة وإن كانت طريقته تلك صائبة كل الصواب. فهو يصر على أن يكتب: شيليموه Shelemoh بدل سولومون Solmon – و ibrim بدل Hebrws – وهي كلها ألفاظ تبدو عسيرة مربكة للقارئ العادي. فأدت هذه الخلافات كلها إلى إضافة هوامش للكتاب.

وكان في تلك الهوامش من التسلية للمؤلف وأصدقائه بقدر ما في الفكاهات العائلية. ولم يكن بد من هذه الهوامش مادامت أسماء المساعدين الأربعة الأول تزين الصفحة الأولى من الكتاب إلى جوار اسم المؤلف نفسه. إذ كان في وجودها سند أي سند لاسمه. كما كان فيها ما يشبه الضمان له. ولكن تلك الهوامش كانت مربكة ومتعبة لغالبية القراء. ذلك أن الهوامش والمراجع والتخفيف من الأحكام إن هي إلا أمور تلزم الكتب المؤلفة للطلاب. فأما في هذه "المعالم" فهي فضل لا تدعو الحاجة إليه؛ أو قل إن فيها (والمؤلف يعترف لك صراحة) شيئًا من الادعاء. وهو في هذه الطبعة يحل مساعديه الأربعة الأول من كل تبعة ولا ينسى لهم جميل ما أسدوا ولذلك حذفت أسماؤهم من الصفحة الأولى التي بها عنوان الكتاب، وكأن المؤلف استطاع أن يستغني عن الأربعة الذين أرشدوه إلى بر السلامة، بعد إذ قادوا السفينة في يم مضطرب خطر وفي مسالك ملتوية حتى أوصلوه إلى مرفأ أمين يحس فيه الحرية والثقة. وبعد هذه المعونة، وبعد أن أحس هذه الحرية استطاع أن يبسط هذه القصة العظيمة وأن يوضحها وأن يولي كل ناحية من نواحيها ما هي جديرة به من التقدير. ولولا فضلهم لما تسنى له أن يقصها على الناس.

هذه هي المرة الخامسة التي أعيد فيها طبع الكتاب كاملاً. وكانت الطبعة الأولى المجزأة موضع فحص شديد قام به قرابة مائة ألف قارئ قرءوا كل فصل بإمعان ودقة، وتكرم الكثير منهم بالتعليقات، وبإصلاح بعض الهفوات وبإثارة موضوعات شائنة. وكانت كل رسائلهم توضع موضع الرعاية المنظمة فعادت على الطبعة الأولى الصادرة بشكل كتاب بأعظم النفع في تفاصيلها. وانطلقت هذه الطبعة أيضًا إلى جمهور غفير من القراء؛ إذ صدر منها في أمريكا وحدها ما يربو على ربع مليون من النسخ. وأنتجت هذه بدورها محصولاً وافرًا من الاستدراكات. كما أثارت تلك الطبعة أيضًا تعليقات قيمة وظهرت بسببها نشرات نقدية عديدة. وكانت الطبعة الثانية له بشكل كتاب سنة ١٩٢٣ هي الطبعة الثالثة التي استفادت أجل الفوائد بذلك الامتحان الثاني العظيم الذي مر به الكتاب سنة ١٩٢٠ وقد أعيد في الطبعة الثالثة تنظيم الفصول من جديد فضلاً عن مراجعة التفصيلات. وظل المؤلف وقتًا طويلاً يحس أن حديثه عن الشعوب الآرية قد سبق موضعه، وأنه قد قلل من شأن الشعوب غير الآرية في تطور المدنية. فعدل بناء على هذا ترتيب الفصول الأولى، لكي يصلح هذا الأثر وكذلك أدخل فصلاً أوفى عن لنكولن Lincoln والحرب الأهلية الأمريكية. وتضمنت طبعتنا الحالية إضافات ومراجعات أخرى، وطهرت تمام التطهير من الهوامش وما إليها من استطرادات؛ فزاد الكتاب وضوحًا وطلاقة وأصبحت أجزاؤه أحكم اتصالا مما كانت في كل الطبعات التي سلفت. ولم يعد القراء يقرءون فيه بين السطور الجدل والمنازعات التي كانت تدور بين مساعدي المؤلف. حتى أصبح (وذلك ما يرجوه المؤلف) أبعد ما يكون عن مذكرات للطلاب، وأضحى في بساطة ووضوح، كتابًا في معالم التاريخ.

ولا يداخلنَّ قارئ هذا الكتاب أي ريب في صحة الوقائع والأسماء والتواريخ التي نذكرها له بعد الذي مر فيه من مآزق هذه التمحيصات والمراجعات. ذلك بأن الكتاب قد نقد نقدًا قاسيًا: ولكن أحدًا من الناقدين لم يوجه سهمًا واحدًا نحو دقته العامة. حتى المستر بيلوك ذلك الخصم العنيد، قد اعترف له بهذه الميزة. وكانت كل المآخذ والاعتراضات تدور حول الأهمية النسبية التي نالها ذلك القسم أو ذاك، وإلى تأثير هذه الثقافة أو عظم شأن تلك. ويثور ضدي بعض علماء الأدب الكلاسيكي لإهمالي هوميروس والناحية الجمالية من الحياة اليونانية إهمالاً نسبيًا، وإن كان الحديث عن العلم اليوناني وافيًا غير منقوص، ومع أن موضوع التطور العقلي الإغريقي يعالج في الكتاب بوصف كونه دورًا أساسيًا من أدوار تطور الإنسانية. وهناك فئة كبيرة من أهل الرأي ممن يرون العالم خلال الأشكال اللاتينية، ويأخذ منهم الحنق كل مأخذ حتى لمجرد ذكر اتساع الأثر النسبي للنظم البيزنطية والفارسية والصينية مثلاً. فروما لا تزال تتخذ سمة عدوانية فيما ألف في هذا العصر من أدب ونقد ولا تزال تحاول التقليل من شأن الأمم غير اللاتينية وتضييق ما لها من مجال في الصورة التي ترسم. فأما الغلاة من أصحاب الرأي الحر فإنهم يضيقون ذرعًا بالقول إن المسيح كان شخصًا حقيقيًا، ويتصايح المسلمون محتجين حين نتحدث عن النبي حديثنا عن شخص عادي، ويتسخط الشيوعيون لأن تعاليم ماركس Marx ولينين Lenin لم تجعل أساس البحث في هذه القصة كلها. وكثير من الناس ممن ينزعون في دينهم إلى الناحية المادية قد ساءتهم تلك الأدلة المجتمعة المتراصة على تسلسل الإنسان تسلسلاً حيوانيًا، فهم يرون أنه حتى لو صح هذا لكان فيه أكبر مضيعة للأخلاق والروح المعنوية بين الناس. فكان لا بد للمؤلف أن يصادف هذه الألوان من النقد. ولم يكن لديه من سبيل يتجنب بها أو يرضي بها كل هذه المطالب.

ويدرك المرء عندما يلتقي بمثل هذه المواقف والاعتراضات أن لدى كل إنسان تقريبًا نوعًا مضمرًا من "معالم التاريخ" متضمنًا في ذهنه وذلك عنده هو التفسير العملي لعالمه ولموضعه من هذه الدنيا، وهو في كل هذا يرفض هذا الرأي ويفترض ذاك، ويقدر كتابنا هذا بنفس المعايير التي اصطنعها لنفسه وقد يقيسه بما يكون قد سلف له من المعتقدات التي تقبلها والتي تختفي وتبدو في نفسه، وقد يكون في هذا أسمحيًا واسع الصدر. ومن الطبيعي أن يكون للمؤلف هو الآخر وجهة نظر خاصة؛ بل من الطبيعي أن يميل إلى ناحية من الرأي. ولكن أين يجد القارئ كاتبًا ليست له هذه الصفة التي تميز شخصيته؟ وكيف يكون هناك أي معالم للتاريخ ليست فيها نزعة خاصة إلى أمور بعينها؟ فهنا – كما هي الحال في أي كتاب إخباري ووصفي – ينبغي للقارئ أن يتذكر، مثلما ينبغي للقاضي والمحلف أن يتذكر دائمًا، أثر الخصائص الشخصية لكل شاهد في البيانات التي يدلي بها معبرًا عما رأى. وكل ما يدعيه الكاتب ها هنا هو أن الشاهد قدّم بأقصى ما تسمح كفايته، بيانًا عامًا عادلاً صادقًا، عن وجهة نظره عن ذلك المشهد العظيم مشهد الزمان والأقدار الذي تكشفت له خبيئته.

٣- في بعض ما حذف وما أضيف:

تكررت الشكاوى فيما وجه من نقد للطبعات الأولى من الكتاب من أن تطور الفنون وخاصة تطور الموسيقى قد أهمل ولم يعن به. فقد أسهبنا في الكلام على قصة كسب الإنسان للمعرفة والقوة الاجتماعية. بيد أننا لم نكد نذكر شيئًا عن بحث الإنسان المقصود عن الجمال. وقد شرعنا الآن في محاولة يقصد بها تدارك ما فات، فأضيفت أقسام كثيرة سجلنا فيها كيف بدا الفنان والشاعر والكاتب الخيالي في سماء الحياة الإنسانية. ومع ذلك فإن حدود أي "تاريخ" للموسيقى أو أي فن آخر غاية في الضيق: فربما يلحظ الإنسان ظهور أشكال جديدة وطرائق جديدة وآلات جديدة، ولكن الوسيلة الوحيدة لإدراك الفن القائم على الخيال إنما هي في أن تسمعه أو تراه أو تقرأه. وليست كتابة قوائم بأسماء أساتذة الفن ودررهم اليتيمة، وأن نمكن قارئينا من التشدق بالأسماء الضخمة، ليس كل ذلك جزءًا من خطتنا في هذا الكتاب.

وكان تقدم أعمال الحفائر سببًا في إضافة مادة جديدة. والحق أن من العسير على الكاتب في عصرنا هذا أن يجاري "الجاروف" في سرعته. فمنذ أن نقح كتاب المعالم لآخر مرة قامت أعمال شائقة جدًا في شمالي الهند وسومر وفي آسيا الوسطى وفي الصين. وتم رفع اللثام عن "السينانثروبوس" وهم أدهش نوع من أنواع (شبه الإنسان). والسينانثروبوس هم الجواب الكامل الشامل على الضجة التي أثارها مخالفو داروين منذ خمسين عامًا مطالبين بـ . "الحلقة المفقودة"، وزيادة على ذلك كان من الضروري أن نمحص من جديد ما كتب عن الحرب العظمى؛ وأن نعيد تنظيم بعض أجزاء القسم الخاص بما بعد الحرب ونكتبها من جديد. فقد كانت هذه هي أضعف أجزاء الطبعات السابقة: وذلك لأن آمال ذلك العصر الثائرة ومطالبه قريبة العهد إلى حد يخرج الكاتب عن اتزانه وتحفظه ولم يكن ثمة تناسب بين هذه الخاتمة وبين سائر أجزاء الكتاب. فقد أنذرتنا بسوء العاقبة خطب المستر لويد جورج وما كان في ثورة إرلندة من غدر، ومحاضرات بعض قواد الجيش المغمورين في مؤسسة الخدمة المتحدة. حتى داخل الموضوع شيء من روح كتابة النشرات الصغيرة، كما داخله أيضًا شيء من روح المشايعة والتحزب. والآن، وقد مضت أربعة عشر عامًا على الحرب، وبعد أن قام المؤلف برحلة عظيمة في مجال تفكير قريب إلى نفسه وإن كان مجالاً يتسع ويميل على الدوام إلى الاستقرار، فإن المؤلف يعتقد في نفسه القدرة على أن يضع هذه السنين الأخيرة في صورة أكثر تناسبًا مع سائر أجزاء الكتاب. ومن ثم فقد قضب هذا الجزء الأخير تقضيبًا قاسيًا وبذلت فيه محاولة جديدة لتحليل النظرة العالمية تحليلاً أقرب إلى الصواب. ولم يكن لزامًا على الناس أن يردوا الفكر ثانية في نواحي المجال السياسي فحسب، ذلك أن طبيعة المشاكل المالية والاقتصادية في العالم باتت الآن أوضح منها قبل أزمة سنة ١٩٢٩، واستدعى هذا أيضًا مراجعة جد دقيقة.

وهناك إلى جانب كتاب المعالم، كتابان إذا جمعا وإياه كون الثلاثة الدائرة الكاملة لأفق "النظرة المحدثة إلى الحياة" – وهما (كتاب علم الحياة) وهو خلاصة للأفكار والحقائق البيولوجية لمؤلفه ج. ب. ولز، وجوليان س. هكسلي بالتعاون مع مؤلف هذا الكتاب – ثم كتاب (جهود البشرية وثروتها وسعادتها) وهو نظرة شاملة للمعارف الاقتصادية والاجتماعية.

الكتاب الأول

العالم قبل الإنسان

الفصل الأول

الأرض بين الفضاء والمكان

١- اتساع فكرة الناس عن الفضاء والزمان.

٢- الأرض في الفضاء.

٣- ما عمر الأرض؟

(١)

اتساع فكرة الناس عن الفضاء والزمان

قبل أن نبدأ تاريخ الحياة يجدر بنا أن نتحدث قليلاً عن المسرح الذي أديرت عليه مسرحيتنا وعن الخلفية التي مثلت المسرحية بين أحضانها.

ففي خلال القرون القليلة الأخيرة زادت معلومات الناس عن العالم المرئي الذي يسكنونه زيادة خارقة. وحدث لهم في الوقت نفسه نوع من النقص فيما لشخصياتهم من قدر وخطر. إذ عرفوا أنهم أجزاء صغيرة في كلٍ أوسع مدى وأطول استدامة وأشد عجبًا مما كان أسلافهم يظنونه أو يحلمون به.

فإن الأرض تبدو لعقل المتوحش البدائي، كأنما هي كل الوطاء المنبسط للعالم، وكأنما السماء من فوق الأرض قبة تسير فيها الشمس والقمر والنجوم. ثم تعود أدراجها، ثم هي تسير من جديد بعد دورة غامضة، أو سرداب تحت الأرض. وقد ظل فلكيو بابل والصين يعتقدون أن الأرض مسطحة، حتى بعد أن قضوا قروناً عدة في مراقبة النجوم. وكان علماء الإغريق أول من استطاع أن يدرك بوضوح شكل الأرض الكروي، بيد أنهم لم يفهموا مع ذلك أن الكون عظيم جدًا إذا قيس إلى الأرض. فقد كانت كرة الأرض عندهم مركز الوجود، وكانت الشمس والقمر والكواكب والنجوم الثابتة تدور حولها أفلاكًا بللورية بوصفها مركزًا لهن جميعًا. ولم يستطع العقل البشري أن يتقدم عن هذه الفكرة إلا في القرن الخامس عشر عندما زكن كوبرنيق (Copernicus) زكنته العجيبة التي قال بها إن الشمس – لا الأرض – هي مركز الكون. ولم تحظ وجهة نظر كوبرنيق بالقبول العام حتى جاء "جاليليو" في مفتتح القرن السابع عشر، فأدخل ما أدخل من التقدم على المِرقب (التلسكوب).

والواقع أن التطور الذي حدث في المِرقب يشكل طورًا جديدًا في الفكر الإنساني – كما يشكل نظرة إلى الحياة في ضوء جديد. إن من العجائب أن الإغريق – على ما كان لهم من أذهان نشيطة نفاذة لم يدركوا قط ما يمكن أن يفيدوه من المجهر والمرقب. فلم يستعملوا العدسة بتاتًا. ومع ذلك فإنهم كانوا يعيشون في عالم عرف فيه الزجاج وعملت منه أشكال جميلة مدى مئات من السنين؛ وكان في متناول أيديهم قناني وقوارير من الزجاج لابد أنهم لمحوا خلالها الأشياء مشوهة ومكبرة. ولكن العلم في بلاد اليونان كان حرفة الفلاسفة يتناولونه بطريقة استكبار أرستقراطية، وكانوا كلهم رجالاً يأنفون أن يتعلموا العلم من هؤلاء العمال البسطاء ممن يشتغلون بصناعة الجواهر والمعادن والزجاج، لا نستثني منهم سوى أفراد قلائل من أمثال النابغة "أرشميدس"، و "هيرون Hiero".

والجهل أول قصاص الكبرياء. ولذا عاش الفيلسوف خلوًا من المهارة الآلية، وعاش الصانع سفر الوفاض من التربية الفلسفية – وترك الجمع بين الزجاج والفلكي إلى عصر آخر جاء بعد ذلك بما يربو على ألف سنة من الزمان وقد تقدم المرقب وعلم الفلك معًا منذ عصر جاليليو، ورفع عن أعماق الفضاء كل ما كان يحجبه من غياهب الجهل والافتراضات الفاسدة. فجاءت الفكرة القائلة بأن الشمس مركز الكون بعد فكرة قوامها أن الدنيا هي صاحبة هذه المنزلة. ونحن نعرف الآن أن شمسنا لا يمكن أن تدخل في عداد أكبر النجوم حجمًا، فهي لا تزيد على أن تكون إحدى النيرات الصغرى.

ولقد فك المرقب الخيال الإنساني من عقاله فكاكًا لم تصل إلى مثل أثره أية أداة أخرى. وإن ك ان هذ اك جهاز آخر جديد بأن يقرن إلى أثر المرقب الموسع لآفاق العقل فذلك هو المطياف Spectroscope محل ل الطيف الشمسي الذي تطور مما استكشفه فراون هوفر Fraun Hofer صانع الزجاج سنة ١٨١٤. فلقد طالما رأى الإنسان أقواس قزح منذ استقر على ظهر البسيطة، ولكن من ذا الذي كان يستطيع أن يخبر ره أن ه ذه الأشرطة الملونة كانت تحمل له في ثناياها وعدًا بأنه سوف يستطيع يومًا أن يحلل النجوم؟ ولك ن المطي اف (الإسبكتروسكوب) يستقبل الأشعة من أي مصدر ضوئي ويمررها خلال منشورات ويفرقه ا إل ى أشد رطة وحزم تشبه قوس قزح. وعند الفحص يتبين أن في هذه الأشرطة الضوئية خطوطًا مستعرضة [1] من الضوء والظلمة تتغير تبعًا للحرارة والتركيب الكيماوي لمصدر الضوء، تتأثر بما يعترض الضوء في مسيره إلينا من بخار، حتى ليستطيع الناس في عصرنا هذا أن يجلسوا في مراصدهم مطمئنين، يدرس ون تركي ب النج وم ويقيسون درجات حرارتها، بينما هي تبعد عنا بلايين لا تحصى من الأميال.

على أن الستار الذي كان يحجب الهوة السحيقة التي تمثل أبعاد النجوم عنا، لم يزح إلا في القرون الثلاثة الأخيرة. وأحدث من هذا كله معرفتنا بما مر على الكون الذي نعيش فيه من أحقاب هائلة الطول فلم يكن بين الشعوب القديمة من بدا عليه أنه استطاع أن يكوّن أية فكرة عن مدى العصور الهائلة التي مر فيها الوجود إلا الفلاسفة الهنود وحدهم. وأما في العالم الأوربي إلا ما قبل وقتنا بنيف وقرن ونصف من الزمان، فكان الناس يرون مدى الزمان الذي مكثته الأشياء قصيرا قصرًا يدعو إلى الدهشة والعجب. إذ جاء في كتاب في التاريخ العام أصدرته شركة من شركات بيع الكتب في لندن سنة ١٧٧٩، أن العالم خل ق س نة ٤٠٠٤ ق. م وأن ه بالضبط (وهي دقة طريفة) خلق إبان الاعتدال الخريفي!؟.. وأن تكوين الإنسان توج عملية الخلق، إذ تم ف ي جنة عدن على نهر الفرات على مسيرة يومين من البصرة بالضبط...!! وكانت الثقة بهذه المعلومات قائم ة على تفسير حرفي أكثر مما ينبغي لرواية الكتاب المقدس. وقلّ من يقبل هذه الرواية الآن بوصد فها بياذ ات مسلَّم بها حتى بين أشدّ المؤمنين بأن هذا الكتاب موحى به من عند الله.

وكان لعلم الجيولوجيا ثم لعلم الإحاثة [2] بصفة خاصة الفضل الأوفى في اختراق الحجب الزمنية وفي النفاذ من ذلك "الأمس الصغير" الذي لا يكاد يرجع إلى ستة آلاف سنة – إلى آلاف الآلاف من أشباه ذل ك الأم س. ولقد لوحظت مجموعتان كبريان من الحقائق مرارًا وتكرارًا، وهما تقحمان نفسيهما قبالة أنظار الناس قبل القرن الثامن عشر بزمان بعيد. وكانت أولى هاتين المجموعتين ما رآه الناس في أنحاء لا تحصى من المعمورة م ن سموك عظيمة مكشوفة من الصخور الطبقية لا يمكن أن تكون تجمعت إلا خلال أحقاب طويلة من الزمان، وأن هذه الطبقات كانت في كثير من الأحيان مقوسة وملتوية بطريقة تدل بلا شك على وجود قوى جبارة تعمل مدى أحقاب مديدة من الزمان. وكانت المجموعة الثانية من الحقائق تتضح للناس من وجود "حفريات Fossils" تشبه العظام والجماجم والأجزاء الصلبة من أنواع لا تزال موجودة، وإن كان ذلك الشبه غير تام.

---

(1) Transverse

(2) Palaeontology في المحيط أحاث الأرض واستحاثها أثارها وطلب ما فيها والشيء حركه وفرقه. (المترجم)

ولم تبدأ دراسة هذه الطبقات والحفريات دراسة منظمة إلا إبان القرن الثامن عشر؛ ولم يذع بين الناس العلم بقدر هذه المتراكمات وكنهها الحقيقي وهو الذي يدعونه باسم "سجل الصخور" إلا في القرن التاسع عشر. وقام كفاح عظيم يستهدف إثبات صحة ذلك السجل ويناهض تحزبات الذين كانوا يعتزون بتفسير الكتاب المقدس تفسيرًا حرفيًا. ودخل الحومة كثيرون ممن لا يزالون إلى اليوم على قيد الحياة، وأخذوا يناضلون في سبيل تحرير العقل البشري. وأخيرًا تغيرت نظرة الناس، واستطالت رويدًا رويدًا. فمنذ مائتين من السنين لم يكن خيال الجنس البشري ليمتد إلى أكثر من ستة آلاف سنة. أما اليوم فقد رفع ذلك الستار أيضًا، وأصبح الناس ينظرون خلفهم إلى ماض سحيق يمتد مدى عشرات ومئات من ملايين السنين.

(٢)
الأرض في الفضاء

سنلخص لك الآن تلخيصًا موجزًا جدًا كل ما هو معروف عن أبعاد العالم. لقد ثبت لنا أن أرضنا كرة تدور. وهي وإن بدت لنا ضخمة هائلة، لا تزيد في حقيقة أمرها على هباءة من المادة في فضاء أعظم منها وأوسع.

فأما الفضاء فهو في معظمه فراغ. وتوجد على أبعاد عظيمة في هذا الفراغ مراكز تتوهج حرارة وضوءًا، هي "النجوم الثابتة" وهي جميعا تتحرك في الفضاء رغم أن اسمها هو النجوم الثابتة. ولكن الناس ظلوا أزمانًا مديدة لا يدركون حركتها. وهي تبلغ من الضخامة حدًا كبيرًا، وتبعد عنا بعدًا سحيقًا يجعل حركتها غير مدركة. فلا يكاد الإنسان يحسّ حركتها ظاهرة له إلا خلال آلاف السنين. ولقد تبين من مصورات النجوم التي قام المصريون بعملها منذ عشرات القرون أن هيئة أبراج مجموعات النجوم قد تغيرت تغيرًا ملموسًا جدًا؛ فتحركت بعض النجوم حركة يمكن قياس مقدارها. ومع ذلك فنحن لا نزال نستعمل الاصطلاح القديم الهين: "النجوم الثابتة" لملاءمته لنا في تمييزها عن: "الكواكب السيارة". وهذه النجوم الثابتة بعيدة عنا بعدًا يجعلها على الرغم من ضخامة حجمها، تبدو مجرد نقط من الضوء تتفاوت في بريقها وإن نظرنا إليها خلال أقوى المراقب. والقليل منها مع ذلك يبدو عندما ندير إليه المرقب في شكل ملتويات وسحب من البخار البراق، نسميها بالسُدُم Nebulae. وهي ليست إلا أبخرة وأنفاسًا أو بقعًا قوامها مادة نيرة تمتد بلايين الأميال، ويبلغ بعدها عنا حدًا يجعلنا لا ندرك حركتها وإن انتقلت من مكانها ملايين الأميال.

ولقد عرف العلماء حديثًا جدًا أن في الفضاء أيضًا عددًا من "الأجسام القائمة"؛ هذا إلى سحائب من مواد معتمة، لبعضها حجم ضخم هائل. وما كنا نحن لنعرف شيئًا عن وجودها لولا أنها تحجب عنا النجوم المضيئة التي من خلفها.

بيد أن هناك مع ذلك نجمًا قريبًا منا قربًا يجعله أشبه شيء بكرة ضخمة من اللهب وهذا النجم هو الشمس. وهي في طبيعتها مماثلة للنجوم الثابتة، ولكنها تختلف في هيئتها عن النجوم الأخرى لأنها أقرب إلينا منها جميعًا قربًا لا وجه فيه للمقارنة بينها وبين غيرها من النجوم، ولأن قربها مكن الناس من أن يعلموا شيئًا من طبيعتها. ومتوسط بعدها عن الأرض ثلاثة وتسعون مليونًا من الأميال. وهي كتلة من المادة الملتهبة قطرها ٨٦٦٠٠٠ ميل، وحجمها يعادل حجم أرضنا مليونًا وربع مليون مرة. والكثير من النجوم الثابتة أضخم منها كثيرًا.

وهذه الأرقام عسيرة بالطبع على خيالنا. فلو صوبت إلى الشمس قذيفة من مدفع مكسيم، واحتفظت القذيفة في سيرها بسرعتها التي بدأت بها عند خروجها من فوهة المدفع، لاستغرقت في وصولها إلى الشمس سبع سنين. ومع ذلك فإنا نقول إن الشمس قريبة جدًا وذلك بالنسبة لما نعرفه من أبعاد النجوم الأخرى. فلو أن الأرض كانت كرة صغيرة قطرها بوصة واحدة لكانت الشمس بالنسبة لها كرة ضخمة قطرها تسعة أقدام. ولكانت وحدها ملء حجرة نوم صغيرة. ونحن نعرف الآن أنها تدور حول محورها، ولكنها وهي مكونة من

سائل متوهج، لا تسير منطقتاها القطبيتان بنفس السرعة التي يسير بها خط استوائها الذي يدور سطحه فيما يقرب من خمسة وعشرين يومًا. وسطحها الذي نراه مكون من سحب من أبخرة معدنية متوهجة؛ والغلاف الجوي الذي يحيط بالشمس هو من شدة الحرارة بدرجة تجعل الحديد والنيكل والنحاس والقصدير في حالة غازية. فأما ما دون ذلك السطح فإننا نعرفه على سبيل التخمين ليس غير.

وتدور حول الشمس مع أرضنا، وعلى مسافات عظيمة، أجسام أخرى مشابهة للأرض تسمى الكواكب السيارة. وهي تسطع في السماء لأنها تعكس ضياء، وقربها منا ييسر علينا أمر إدراك حركتها غاية التيسير، وهي تغير مواقفها بالنسبة إلى النجوم الثابتة من ليلة إلى أخرى.

ويحسن بنا أن نوقن تمامًا بخلو الفضاء من كل مادة فلو فرض، كما قلنا، وكانت الشمس كرة ضخمة قطرها تسعة أقدام لكانت أرضنا بالنسبة لها كرة قطرها بوصة واحدة وعلى بعد ٣٢٢ ياردة من الشمس أي ما يزيد على سدس الميل. ولاستغرق قطع ما بين الكرة الصغيرة وأختها الضخمة ٣,٥ دقيقة تقطع بخطى سريعة. وفي هذه الحال لا يزيد جرم القمر عن نقطة في حجم الحمصة تبعد ثلاثين بوصة من الأرض.

وتكون هنالك نقطتان متشابهتان جدًا أقرب إلى الشمس من الأرض وهما كوكبا عطارد Mercury والزُّهَرة Venus – أولهما على بعد ١٤٢ ياردة وثانيهما على بعد ٢٣٢ ياردة. وتأتي بعد الأرض كواكب المريخ Mars والمشتري Jupiter وزحل Saturn وأورانوس ونبتون وبلوتو Pluto وهي تبعد عن الشمس ٤٨٨ و ١٦٧٢ و ٣٠٦٧ و ٦١٦٩ و ٩٦٦٦ و ١٣٣٠٠ ياردة على التعاقب. وعند ذلك يكون نبتون على مسيرة ساعتين من الشمس. ويكون هناك أيضًا عدد من هباءات أو نقط أخرى أصغر من الأولى كثيرًا تتطاير بين هذه الكواكب. أخص بالذكر منها عددًا يسمى بالنجيمات Asteroids تدور ما بين المريخ والمشتري. وأحيانًا نعثر على "نَفَس" صغير من البخار والعِثْير المتفاوت في درجة ضيائه زيادة ونقصانًا، حين يدفع بنفسه إلى المجموعة الشمسية قادمًا من الخلاء الذي وراءه والذي لا تكاد تكون له نهاية. وهذا النفس هو ما نسميه بالمذنب Comet (وكل ما عدا ذلك من الفضاء حولنا وبالقرب منا وإلى مسافات شاسعة لا يمكن قياسها، فهو بارد موات وخال خواء). ويكون بعد أقرب نجم ثابت إلينا (على أساس المقياس المصغر الذي جعلنا فيه الأرض كرة قطرها بوصة والقمر نقطة قدر الحمصة) يكون بعد هذا النجم ٤٠ ألف ميل.. وطبقًا لهذا المقياس المصغر أيضًا تكون غالبية النجوم الثابتة التي نراها في السماء على بعد يتراوح بين عشرات الألوف من الأميال في مجموعتنا المصغرة هذه.

ولنرجع بالقول الآن إلى الأرض. إن قطر عالمنا يقل قليلاً عن ٨٠٠٠ ميل. وسطحها مجمد خشن، أبرز أجزائه الخشنة هي الجبال، وعلى الأجزاء المجوفة من سطحها غشاء من الماء يكون المحيطات والبحار. وهذا الغشاء المائي يصل إلى خمسة أميال في أعمق أجزائه، أي إن عمق أعمق المحيطات إنما هو خمسة أميال. وهذا شيء ضئيل جدًا إذا قورن بحجم الأرض.

وحول هذه الكرة غشاء رقيق من الهواء هو الغلاف الجوي. وكلما ارتقينا فيه بمنطاد، أو صعدنا خلاله جبلاً فوق مستوى الماء، – قلت كثافة الهواء باستمرار حتى تبلغ حدًا لا يستطيع كائن حي معه أن يبقى على قيد الحياة. ولا يكاد يوجد هواء على ارتفاع ٢٠ ميلاً. وأعلى ارتفاع تستطيع أن ترقاه الطيور يقارب أربعة أميال، ويقال إن عُقاب الكندور Condor يستطيع أن يجاهد حتى يصل إلى ذلك العلو، بيد أن غالبية الطيور الصغيرة والحشرات التي تؤخذ في الطائرات والمناطيد تفقد وعيها على مستوى أقل من ذلك كثيرًا. كما أن أقصى ما وصل إليه أي مرتاد للجبال هو ارتفاع يقارب خمسة أميال. وقد حلق الإنسان بالطائرة إلى ارتفاع يربو على سبعة أميال. كما وصلت بعض المناطيد بما فيها من رجال إلى ما يكاد يقارب سبعة أميال، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك آلاما جثمانية شديدة، كذلك أرسلت مناطيد صغيرة للتجارب لا تحمل رجالاً بل آلات تسجيل فوصلت إلى ارتفاع يقارب ٢٣ ميلاً.

ولا توجد الحياة على الأرض إلا في المئات القليلة العليا من الأقدام من القشرة الأرضية، وإلا في البحار والمستويات الدنيا من الهواء التي تقل عن أربعة أميال. ولسنا ندري شيئًا عن وجود أية حياة، عدا تلك التي نراها في هذه الأغشية الرقيقة: أغشية الماء والهواء المحيطة بكوكبنا. وعلى قدر ما وصل إلى علمنا، فإن سائر الفضاء لا يزال إلى الآن خاليًا من الحياة. وقد بحث رجال العلم في إمكان وجود الحياة، أو عملية مشابهة لها، على نظائر الأرض من الكواكب، أمثال الزهرة والمريخ. ولكنهم يشيرون مجرد إشارة بسيطة، إلا احتمالات يكتنفها كثير من الشكوك.

(٣)
ما عمر الأرض؟

حسبنا هذا عن الأرض ومركزها في الفضاء. فلننظر إلى الموضوع من ناحية الزمان. يستطيع الفلكيون والجيولوجيون والمشتغلون بدراسة الفيزيقا Physics أن يدلوا إلينا الآن ببعض المعلومات عن أصل الأرض. وهم يرون أنه منذ عصور بعيدة خلت، كانت الشمس كتلة من المادة ملتهبة دوارة، ولم تكن قد تركزت بعد حتى صارت مركزًا للحرارة والضوء، كما كانت أكبر كثيرًا مما هي عليه الآن، هذا إلى أن سرعتها كانت أعظم كثيرًا مما هي اليوم، وأنها تناثرت منها أثناء دورانها السريع قطع انسلخت فأصبح الكواكب. وأرضنا هي إحدى تلك الكواكب. وقد انقسمت الكتلة الملتهبة التي هي مادة الأرض أثناء دورانها إلى كتلتين؛ كانت إحداهما وهي الكبرى هي الأرض، وكانت الثانية – وهي الصغرى – هي القمر الميت الساكن.

ويقدم إلينا الفلكيون براهين مقنعة تثبت زعمهم بأن الشمس والأرض والقمر وكل هذه المجموعة كانت حينذاك تدور بسرعة أعظم كثيرًا من سرعتها الحالية، وأن أرضنا كانت بادئ ذي بدء شيئًا ملتهبًا لا يصلح للحياة. وهم يطالبوننا بأن نؤمن بأن الشمس وإن كانت لا تزال متوهجة، فإنها أبرد بكثير مما كانت عليه قبل، وأنها تدور أبطأ كثيرًا مما سلف، وأنها مستمرة في برودتها وفي بطئها. وهم يظهرون لنا كذلك أن سرعة الأرض تتناقص وسوف تستمر في تناقصها. ومعنى هذا أن طول اليوم عندنا يتزايد شيئًا فشيئًا وأن الحرارة التي في مركز الأرض الباطني تتشعع بالتدريج. وإذن فقد جاء حين من الزمان لم يكن فيه طول اليوم الواحد ليزيد على نصف ما هو عليه الآن أو ثلثه، حين كانت شمس مستعرة بالحرارة وأعظم حجمًا من شمسنا الحالية، لا تبرح تدور بشكل ملحوظ ظاهر للعين (لو أن هناك عينا كانت ترقبها حينذاك) من مطلعها إلى مغربها أثناء سيرها في كبد السماء. وسيأتي الزمان الذي يصبح فيه طول اليوم معادلاً لطول عام من أعوامنا الحاضرة، وتصبح فيه الشمس الآخذة في البرودة وقد خبت أشعتها – واقفة وسط السماء لا تحيد عن مكانها.

وربما يتساءل بعض القراء قائلاً: ما عمر هذا العالم؟ وهذا سؤال استرعى انتباه عدد عظيم من الناس في السنين القليلة الأخيرة، وقد تدرجت التقديرات الأولى (وكان التفاوت بينها عظيمًا بادئ الأمر) حتى تقاربت اليوم وأوشكت أن يتفق عليها. ذلك أن علماء الفلك والرياضة الذين يبنون تقديراتهم على معدل البرودة الذي تجري عليه الأجرام السماوية وعلى طرق الإشعاع المختلفة والتغير الذري، يقدرون عمر الأرض منذ أن أصبحت جسمًا منفصلاً عن الشمس بألفي مليون من السنين، كما يقدرون قرابة ثلاثمائة مليون سنة من الزمن منذ أن تكونت عليها الحياة على أية هيئة ملحوظة الكثرة. فأما عمر الشمس بوصفها نجمًا فإنه يقدر بحوالي خمسة ملايين مليون سنة. ويقول السير جيمس جينز في كتابه "الكون المحيط بنا": [٣] "إن الأرض سوف تستمر في الغالب لمدة مليون مليون سنة أخرى، تنخفض بعدها درجة حرارتها في المناطق الاستوائية إلى مستوى الدرجات القطبية ولما كان الإنسان لم ينقض عليه إلا ثلاثون ألف سنة أو أقل بوصفه كائنًا اجتماعيًا مدركًا لذاته، فإن هذا يتيح له فرصة لا نهاية لها لكي يصل إلى العلم والقوة، وربما أمكنه أن يجعل نفسه سيد الزمان والفضاء قبل أن يصل إلى ذلك الحد بأحقاب طوال."

---

(٣) Sir James Jeanes "The Universe Around Us"

الفصل الثاني

سجل الصخور

١- أول الكائنات الحية.

٢- الانتخاب الطبيعي وتغير الأنواع.

(١)
أول الكائنات الحية

لسنا ندري على وجه التحقيق كيف ابتدأت الحياة على سطح البسيطة. ولقد ارتأى علماء الأحياء في هذا الشأن آراء وتخمينات، ويكاد يكون مجمعًا عليه فيما بينهم أن الحياة ابتدأت في مياه ضحلة دفيئة تغمرها أشعة الشمس، وربما كان ذلك في برك ومستنقعات تمتد على شواطئ البحار الأولى. ولعلها اتخذت في ابتدائها شكل مادة مخاطية Slime أو أي شيء مما هو دون الحياة، وتدرجت في بطء وبهيئة غير محسوسة حتى اتخذت لنفسها الصفات المميزة للحياة. وليس على ظهر الأرض في الوقت الحاضر ذلك الصنف من الظروف، الكيماوي منها والفيزيقي، التي بدأت منها الحياة في ظننا. ولا شك أنه لا تحدث الآن بدايات جديدة للحياة. بيد أنه من الممكن أن نستخرج من المواد غير العضوية مواد مخاطية وأغشية تكاد تمثل عن بعد تركيب الأجسام الحية بل تمثل أيضًا انتشارها ونموها. وإذا كانت بداية الحياة أمرًا طبيعيًا لا يد فيه للمعجزات فسوف يأتي يقينًا، ذلك اليوم الذي يستطيع فيه العلماء أن يقلدوا بدءها ويعيدوه. وإلى أن يأتي ذلك اليوم فسيبقى هذا الموضوع من موضوعات الحدس والتخمين إلى حد ما. ولئن كان كثير من علماء الأحياء "البيولوجيا" مقتنعين بأن الحياة ظهرت وسط الظروف اللازمة لها ظهورًا طبيعيًا لا مناص منه، كما يظهر الجليد حين يبرد الماء تحت الضغط العادي إلى ما دون درجة التجمد، فإن هناك قومًا يضارعون الأولين في الذكاء ولهم وجهة نظر مناقضة لوجهة الأولين. وليس ينتظر منا في هذا المقام أن نقضي في هذه القضية بحكم.

ويبدو أن القول بأن الحياة قد ابتدأت بوصفها عملية كيميائية فيزيقية أتت بحكم طبيعة الأشياء والضرورة دون تدخل أي عامل معجز، فكرة بغيضة ترفضها عقول كثيرين من رجال الدين. بيد أن ذلك الرفض ربما يرجع إلى اضطراب تلك العقول أكثر مما يرجع إلى روح لادينية في الفكرة نفسها. فهم يرون أن الحياة هي الروح بمعنى ما، ويعزون للروح كل أنواع الصفات الخلقية، ويناصرونها معارضة لفكرة: "المادة الموات". غير أنه من العسير أن نفهم لِمَ يرى الناس الحيوان الرخو والفطْر السام أو القملة أو النمو السرطاني للطفيلي في لحاء الشجر: لِمَ يرون أن هذه جميعًا "أرقى" – بطريقة خاصة ذات أسرار عجيبة، من العناصر ذات النظام البديع التي تكون مجموعة من البللورات أو جوهرة من الجواهر أو لوحة من الرخام المجزع أو الأشكال البديعة التي تبدو فيها الأمواج تحت الشمس، أو الرمال المتموجة حين تذروها الريح؟ ولماذا ينحاز صانع الكون إلى أشياء دون أخرى؟ ولماذا يفرق بين ما هو غير حي وبين ما يكاد يكون غير حي؟

كان الغلاف الجوي أكثف كثيرًا أيام بداية الحياة؛ وكثيرًا ما حجبت الشمس غمامات متراصة من السحاب، وكثيرًا ما كانت العواصف تظلم وجه السماء. وكانت أرض ذلك الزمان تعبث بها قوى بركانية عنيفة فتدفعها إلى أعلى دفعًا، وكانت أرضًا جرداء لا نبات فيها، إذ لم يكن عليها تربة. وكانت عواصف المطر التي لا تنقطع تنهال عليها. وتحمّل الأنهار والسيول أحمالاً ضخمة من الرواسب إلى عرض البحار لتصبح أوحالاً تجمدت فيما بعد، فأصبحت أردوازًا وصخورًا ورمالاً، تجمعت فأصبحت خرسانًا.

وقد درس الجيولوجيون كل ما تجمع من هذه الرواسب، كما وجدوها بشكلها الحالي الذي تخلف من أقدم العصور إلى أحدثها. وبدهي أن أقدم تلك الرواسب هي أشدها تشوهًا وتغيرًا، وأكثرها تأثرًا بالبلى. وليس فيها الآن أي أثر محقق للحياة. وأكبر الظن أن أقدم أشكال الحياة الأولى كانت صغيرة لينة فلم تترك لنا أي شاهد يدل على وجودها، ولم تتمكن هذه الأحياء من ترك "حفريات" بعد موتها، إلا عندما كون بعضها لنفسه هياكل ومحارات من الكلس وغيره من المواد الصلبة، وبذلك تركت أثرًا وسجلت وجودها في السجل الذي نفحصه.

وكُتُب الجيولوجيا هي في معظمها قصة الحفريات التي توجد في الصخور، وشرح للترتيب الذي توجد فيه طبقات بعد طبقات من الصخور ممتدة الواحدة فوق الأخرى. وما من شك في أن أشد الصخور توغلاً في القدم تكونت قبل أن توجد البحار على سطح الأرض، عندما كانت حرارة الأرض أشد من أن تسمح بوجود بحر على وجهها. وعندما كان الماء، الذي هو البحر في وقتنا هذا، غلافًا جويًا من الأبخرة المختلطة بالهواء. وكانت أعلى طبقات الجو ملبدة بالغيوم، ومنها كان يتساقط المطر ساخنًا على ما دونه من صخور، فلا يلبث أن ينقلب سريعًا إلى بخار قبل أن يصل إلى تلك الصخور المتوهجة بزمن بعيد، وتجمدت مادة العالم المنصهرة تحت هذا الغلاف البخاري فكونت أول الصخور. وما من شك أن هذه الصخور قد تجمدت فأصبحت أشبه شيء بالكعكة من فوق مادة وهاجة هائلة دونها – على النحو الذي يحدث في الحمم Lava التي أخذت تبرد، ولابد أن هذه قد ظهرت بادئ أمرها في هيئة القشرات والأحجار المحروقة المتماسكة Clinkers ولا بد أنها قد مرت عليها أدوار من الانصهار والتبلور، قبل أن تصل إلى درجة من السماكة تجعل جمودها أمرًا مستديمًا. ويطلق اسم "النيس الأساسي Fundametol Gneiss" على مجموعة عظيمة من صخور متبلورة تدخل تحت ذلك الجنس، تكونت في عصر بعد عصر في الوقت الذي كان فيه شباب الأرض الحار قد قارب نهايته، ولابد أن مناظر العالم إبان تكوّن هذا النيس الأساسي كانت أقرب إلى باطن تنور كهربائي منها إلى أي شيء آخر تراه على ظهر البسيطة في وقتنا هذا.

وبعد عصور طويلة أخذ البخار الذي في الجو يتكثف هو الآخر ويسقط على الأرض ويتدفق في آخر الأمر على هذه الصخور البدائية القديمة الساخنة في صورة جداول من الماء الساخن، لا تلبث أن تتجمع في المنخفضات وتكوّن البرك والبحيرات والبحار الأولى. وإلى هذه البحار حملت الجداول التي تسير على وجه الصخور كثيرًا من التراب والجزيئات وألقتها فيها فكونت طبقة من الرواسب. وتجمعت هذه الرواسب فيما يسميه الجيولوجيون: الطبقات Strata وبذلك تكونت الصخور الطباقية أو الرسوبية الأولى. ثم هبطت تلك الصخور الأولى في المنخفضات وغطتها أخرى – ونالها من الاضطرابات البركانية الشيء الكثير من الطي والرفع والتمزيق، كما نالها مثل ذلك من جراء الضغط الداخلي الذي كان يسير كالموج في قشرة الأرض الصخرية. فنحن نرى هذه الصخور الرسوبية الأولى وهي لا تزال تظهر على سطح الأرض هنا وهناك، إما لأنها لم تغطها طبقات أخرى أو لأنها تعرت بعد أحقاب سحيقة من تغطيتها بسبب زوال الصخور التي جاءت فغطتها فيما بعد. وتوجد مساحات عظيمة من هذا النوع في كندا على الأخص، نجدها مشقوقة وملتوية ومصهورة انصهارا جزئيًا من جديد، ثم نراها قد عادت ثانية إلى تبلورها الأول، ثم صلبت وانضغطت، ولكنها يمكن معرفتها على حقيقتها. وهي لا تحوي أثرًا واحدًا للحياة موثوقًا به.

ويطلق عليها العلماء في العادة اسم "الصخور الآزوية" Azoic (أي التي لا حياة فيها). ولكن لما كان بعض هذه الصخور الرسوبية الأولى محتويًا على مادة تسمى "الجرافيت أو الرصاص الأسود"، كما يوجد فيه أوكسيد الحديد بنوعيه الأحمر والأسود، ولما كان الناس يزعمون أن هذه المواد يحتاج إنتاجها إلى نشاط الكائنات الحية، وهو أمر لا ندري هل حدث أم لم يحدث، فإن بعض الجيولوجيين يميل إلى تسمية هذه الصخور الرسوبية الأولى بالأركيوزوية (Archaeozoic) (أي التي فيها الحياة البدائية جدًا). وهم يظنون أن صور الحياة الأولى كانت في مادة حية هلامية لم يكن لها محار أو هياكل عظميَّة أو أي نوع من تركيب مماثل يمكن بقاؤه بعد مماتها في شكل حفرية يُمكن تمييزها، وإنما بقي لها أثرها الكيمياوي الذي كان سببًا في ترسيب الجرافيت وأوكسيد الحديد. وهذا ولا ريب مجرد حدس. وهناك على الأقل احتمال يعادل هذا في القوة، مداره أنه في أيام تكوّن الصخور الآزورية لم تكن الحياة قد بدأت بعد.

وفوق هذه الصخور الأزورية أو الأركيوزوية، أو متداخلة فيها، تأتي صخور أخرى لا شك في قدمها، وقد عبث الزمان بها، وهي تحوي فعلاً آثارًا للحياة. وهذه البقايا الأولى من أبسط الأنواع، فهي بقايا نباتات بسيطة تسمى الطحالب Algae أو آثار تشبه الأثر الذي تتركه الديدان في مسيرها في طين البحر. هذا إلى هياكل مخلوقات دقيقة جدًا تسمى حيوانات متشععة Radiolaria، وهذه السلسلة الثانية من الصخور تسمى بالصخور البروتيروزوية Proterozoic (أي التي تحوي مظاهر الحياة الأولى) وتدل على عصر طويل في تاريخ العالم.

ومن فوق الصخور البروتيروزوية تمتد سلسلة أخرى وجدت محتوية عددًا جسيمًا وأضربا [٤] كثيرة من آثار الكائنات الحية. فهناك أولاً ما يدل على وجود أنواع متعددة من الأسماك الدرقية وأبى جلمبو وما إليه من الأشياء الزاحفة والديدان، والأعشاب البحرية وما شاكلها، ثم أنواع كثيرة من الأسماك. وبداية النباتات والحيوانات البرية، وتعرف هذه باسم الصخور (الباليوزوية) Palaeozoic (أو صخور الحياة القديمة). وهي تميز حقبة هائلة كانت فيها الحياة تنتشر في بطء وتتزايد وتتطور في بحار عالمنا هذا. فلم يكن يحدث في الدنيا خلال عصور طويلة، وإبان العصر الباليوزوي الأول، سوى تكاثر هذه المخلوقات السابحة والزاحفة في الماء. فكانت هناك مخلوقات تسمى بالتريلوبيت Trilobites؛ وهي أشياء زاحفة تشبه نوعًا ما من (الحيوانات القشرية) أو السوس الكبير Wood-lice، وأكبر الظن أنها لها علاقة بأبي جلمبو الضخم الأمريكي الذي يعيش في زماننا هذا. وكذلك كانت هناك عقارب بحرية هي "سيدة" ذلك العالم القديم. وبلغت أنواع معينة منها تسعة أقدام طولاً وكانت تلك هي أعلى أصناف الحياة رتبة، وكانت هناك أنواع مختلفة جمة العدد من طبقة من الحيوانات الصدفية الرخوة تسمى ذوات الأرجل الذراعية (براكيوبود Brachiopods). وثمة أصناف أخرى من حيوانات نباتية ثابتة في مكانها ومتصلة بعضها ببعض كما تتصل النباتات، وأعشاب منفصلة مرسلة تتموج في الماء.

---

(٤) أضرب ج ضرب: Variety

ولم يكن كل ذلك منظرًا جميلاً للحياة يستثير منا الخيال. فلم يكن هناك شيء يستطيع أن يجري، أو يطير، أو حتى يسبح في سرعة أو مهارة. ولولا ما لحجم بعض المخلوقات من ضخامة لما اختلفت تلك الحياة كثيرًا، بل ولقلّت أنواعًا – عما يجمعه الطالب من إحدى البرك في يوم دافئ، من أنواع الكائنات الحية ليقوم بفحصها تحت المجهر.

تلك هي الحياة في البحار الضحلة إبان عشرين مليونًا – أو ربما مائة مليون من السنين أو تزيد قليلاً في ذلك العصر الباليوزوي القديم. ويبدو أن الأرض كانت خلال تلك المدة قاحلة قفرًا. فنحن لا نرى فيها أثرًا أو أية إشارة للحياة على البر. فكل ما كان يعيش في ذلك الزمان كان يعيش تحت الماء، إما جل حياته أو كلها. وانقضت عصور يهز طولها الخيال هزًا عنيفًا، كان كل ما فيها على البسيطة من حياة هو ما ذكرنا. وقبل ذلك الوقت استمرت الأرض تدور حارة قفرًا خلوًا من الحياة مدى ملايين السنين.

وبين عصرنا الحاضر والمدة التي تكونت فيها هذه الصخور الباليوزوية السفلى التي كانت عقارب البحر والتريلوبيت تتبوأ فيها مكان الصدارة، مرت عصور لا تكاد تدخل تحت حصر، تمثلها على الأرض طبقات وكتل من الصخور الرسوبية. فهناك أولاً الصخور الباليوزوية العليا، ويميز الجيولوجيون من فوقها قسمين عظيمين. فالصخور الباليوزوية تتلوها الصخور الميزوزوية أي (صخور الحياة الوسطى)، وهي مجموعة هائلة من الصخور الحاوية للحفريات وربما كانت تمثل مائة مليون من الأعوام مرت سراعًا. وهي تحتوي طائفة عجيبة من بقايا الحفريات ومن عظام الزواحف الجبارة وما شابهها وسنصفها بعد قليل. ثم تجيء الصخور الكاينوزوية Cainozoic (أي صخور الحياة الحديثة)، وهي السفر الثالث العظيم من أسفار تاريخ الحياة، وهو سفر لم يتم بعد فصولاً؛ يكون فيه آخر ما سطره القدر من صفحات التاريخ كل من الطمي والرمل اللذين حملتهما أنهار العالم إلى البحر بالأمس فغطت بهما العظام وقشر السمك وحراشفه وطمرت بها الأجسام والآثار التي ستغدو كلها حفريات تمثل الكائنات التي تعاصرنا.

إن تلك العلامات والحفريات الموجودة في الصخور، بل تلك الصخور نفسها، هي أولى الوثائق التاريخية. وتاريخ الحياة الذي فك الناس ألغازه ولا يزالون يفكون ألغازه، يسمى "سجل الصخور". ولا يتخيلن القارئ أن هناك أي أثر للعناية الضرورية المألوفة في تنظيم السجلات، عندما يسمعنا ندعو هذه الصخور سجلاً وتاريخاً. فكل الذي نقصده أن أي شيء يحدث في العالم يترك من خلفه بعض الأثر الذي لا نستطيع أن نفهمه إلا إذا أوتينا من الذكاء ما يسمح لنا أن نلحظ معناه. أضف إلى ذلك أن صخور العالم ليست طبقات مرتبة إحداها فوق الأخرى، ترتيبًا ييسر على الإنسان جهد قراءتها. فهي لا تشبه الكتب ولا الصفحات في أية مكتبة، بل هي ممزقة مهلهلة، مقذوفة، مقطوعة أو مدفونة هنا وهناك، وقد زالت معالمها. فهي أقرب شيء بمكتب عمل سيئ النظام بعد أن أصابته على التوالي قذائف المدافع وعبثت به يد احتلال عسكري معاد؛ ونالت منه يد السالبين؛ وصدعه زلزال وأصابه شرر فتنة عنيفة، واشتعلت به النيران. ولبث الناس يطئون سجل الصخور ذاك وهم لا يشعرون به مدى أجيال لا تحصى. وكانت الحفريات معروفة عند الإغريق الأيونيين في القرن السادس قبل الميلاد، وتناقش فيها (إيراتوس ثنيز Eratosthenes وغيره بالإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو نقاش لخصه استرابون (Strabo) في كتاب "الجغرافيا" الذي ألفه (سنة ٢٠؟ –

١٠ ق.م) وكان الشاعر اللاتيني أوفيد (Ovid) ملمًا بها، بيد أنه لم يفهم كنهما. فزعمها أول جه ود الق وة الخالقة وأبسطها – كذلك لحظها كتّاب العرب في القرن العاشر الميلادي. وكان ليوناردو دافنشي، وهو ممن عاشوا في زمن قريب جدًا هو مفتتح القرن السادس عشر (١٤٥٢ – ١٥١٩) من أوائل الأوروبيين إدراكًا لما تدل عليه الحفريات بحق، ولكن الإنسان لم يقم بسلسلة أبحاثه ومحاولاته المتصلة لحل ألغاز تلك الصد فحات الأولى من تاريخ العالم إلا في المائة والخمسين سنة الأخيرة من الزمان، كما قلنا من قبل.

(٢)
الانتخاب الطبيعي وتغير الأنواع

لم نحصل في الفصل السابع على تعريف واضح للحياة. ولعله يحسن بنا أن نسطر في وضوح بعض حقائق عامة عن هذا الشيء الحديث، الذي كان يزحف في المياه الضحلة ومناطق الطين المعرضة للمد والجزر في العصر الباليوزوي الأول، والذي ربما اقتصر أمره على كوكبنا وحده في كل هذا الفضاء الذي لا حد له.

وللحياة مظاهر عامة تميزها عن كل الأشياء التي لا حياة فيها، أيًا كانت تلك الأشياء. ومن المعلوم أن بين الكائنات الحية اليوم فروق تستثير أشد العجب. بيد أن جميع الكائنات الحية، ماضيها وحاضرها، تتفق في أن لها "مقدرة معينة على النماء"، وكل الكائنات الحية "تتغذى" وكل الكائنات الحية "تتحرك" من مكانها بينما هي تأكل وتنمو، وإن لم تزد الحركة على انتشار الجذور في الأرض أو امتداد الأغصان في الهواء. زد على ذلك أن الكائنات الحية تتكاثر، فهي تنتج أشياء حية أخرى مشابهة لها إما بالنماء، ثم الانقسام أو بوساطة البذور أو الأبواغ Spores أو البيض. أو بغيرها من وسائل إنتاج الصغار. فالتكاثر من مميزات الحياة.

وما من كائن حي يبقى حيًا إلى الأبد. والظاهر أن هناك "حدًا" لنمو كل صنف من أصناف الكائن الحي. وقد يحدث أن ينمو الفرد ثم ينقسم انقسامًا تامًا إلى فردين جديدين – كما هي الحال في الأشياء الدقيقة البسيطة مثل الحبيبات [*] الميكروسكوبية الحية المسماة بالأميبا. وربما عاد ذانك الفردان إلى الانقسام بدورهما. ويعيش كثير من المخلوقات وقتًا ما، وينمو، ثم يسكن، ولا يتحرك إلى حين، ويختبئ في غلاف خارجي ثم ينقسم انقسامًا كليًا إلى عدد من أجسام أو خلايا أصغر منه وهي أبواغ لا تلبث أن تخرج من غلافها أو تتناثر ثم تنمو إلى ما كانت عليه حال أسلافها. فأما بين الكائنات الأكثر تعقيدًا فليس التكاثر في العادة تقسيمًا بمثل هذه السهولة وإن كان الانقسام يحدث فعلاً حتى في حالات مخلوقات كثيرة يبلغ من كبرها أن ترى بالعين المجردة. بيد أن القاعدة السارية على جميع الكائنات الكبرى تقريبًا هي أن الفرد ينمو حجمًا إلى حد معين، وقبل أن يصبح ثقيلاً ضخم الجثة يقل نماؤه. وعندما يصل إلى أقصى حجم له ينضج ثم يأخذ في إنتاج الصغار. وهذه إما أن تولد حية أو ينقف عنها بيض. ولكن جسمها كلّه ليس هو الذي ينتج الصغار وإنما يقوم بهذا العمل جزء منه. وبعد أن يعيش الفرد وينتج النسل ردحًا من الزمان تراه يهرم ويموت، وهو يفعل ذلك خضوعًا منه لنوع من الضرورة. فهناك حد لحياته كما أن هناك حدًا لنمائه وتنطبق هذه الأمور على النبات انطباقها على الحيوان، وإن لم تصدُق على ما يخلو من الحياة من أشياء. أجل إن الأشياء الخلو من الحياة كالبلورات مثلاً تنمو ولكن ليس هناك حدود تحدد نموها وحجمها، وهي لا تتحرك من تلقاء نفسها، وليست بها حركة داخلية. فإذا تكونت البلورات يومًا، فلعلها تظل لا يداخلها تغير أمد ملايين عدة من السنين. وليس هناك تكاثر لأي شيء غير حي.

---

[*] الحبيبات Blobes

ويؤدي نمو الأشياء الحية وموتها وتكاثرها على هذا النمط إلى نتائج عجيبة غاية العجب. فالصغار التي ينتجها الكائن الحي تشبه آباءها إما مشابهة مباشرة وإما بعد أن تمر في أطوار وسطى من انتقال وتغير، وذلك مثلما يحدث من تحول اليسروع[٦] إلى فراشة. ولكنها لا تحمل قط شبه آبائها بالضبط ولا هي فيما بينها متشابهة تمامًا. بل إن بينها فروقًا طفيفة نسميها نحن "بالفردية Individuality ". فألف من الفراشات في هذا العام قد ينتج في العام القادم عددًا أكبر من هذا كثيرًا، وتبدو لنا هذه الأخيرة مشابهة لأسلافها تمام الشبه تقريبًا، ولكن لابد لكل واحدة منها من وجود ذلك الفرق الطفيف نفسه. ومن العسير علينا أن نرى الفردية في الفراشات، لأننا لا نلاحظها ملاحظة دقيقة جدًا. ولكن من اليسير علينا أن نراها بين الناس. فجميع الرجال والنساء الذين يعيشون في العالم الآن ينحدرون من رجال العالم ونسائه الذين عاشوا فيه سنة ١٨٠٠م. ولكن ما من واحد منا الآن يشبه تمام الشبه أي واحد في ذلك الجيل الزائل. وما عساه يصدق على الرجال والفراش يصدق على كل أنواع الكائنات الحية، وينطبق على النبات كما ينطبق على الحيوان؛ فكل نوع يغير كل فردياته في كل جيل. وهذا القول يصدق على المخلوقات الدقيقة التي احتشدت في العالم وتوالدت وماتت في بحار العصور الأركيوزوية والبروتيروزوية، صدقه على الناس في هذا العصر. فكل نوع من أنواع الكائنات الحية يموت بغير انقطاع ثم يعود فيولد من جديد في صورة حشد من الأفراد الجدد.

فتأمل إذن ما لا بد أن يحدث لجيل جديد من أي نوع من أنواع الكائنات الحية. فإن بعض الأفراد سوف يكون أقوى من سائرها وأصلب عودًا وأحسن استعدادًا للنجاح في الحياة في ناحية ما، وسيكون بعضها الآخر أضعف أو أقل استعدادًا، وليس بمستبعد أن يصيب الحظ أو الصدفة بعض حالات خاصة مفردة. ولكن الذي يحدث بصفة عامة هو أن يعيش من الأفراد أحسنها استعدادًا، وأن تنمو وتتكاثر، كما يحدث في العادة أن يهوي الأضعف ويوطأ بالأقدام، إذ يكون أقل مقدرة على الحصول على القوات وعلى مقاتلة عدوه ومواصلة حياته. فكأنما يحدث في كل جيل نوع من التصفية وعلى ذلك ففي كل جبل كما ترى، يندفع النوع المنتقى إلى أعلى، ويُفرَز الضعفاء غير الصالحين، ويفضَّل عليهم الأقوياء الصالحون. وتسمى هذه العملية عملية "الانتخاب الطبيعي" أو "بقاء الأصلح" وإن كان اسم "بقاء أصلح الاثنين" أدق تعبيرًا.

ويترتب على كون الأشياء الحية تعيش وتنتج وتموت أنه ما دامت الظروف المحيطة بأي نوع ثابتة لم تتغير، فإن صلاحيته تزداد اكتمالاً شيئًا فشيئًا، في تلك الظروف كلما تجددت الأجيال.

على أن الظروف لا تبقى على حالها، فكل نوع يعيش في ظروفه على شيء من القلق. ذلك بأن "التكيف" ناقص على الدوام بل هو في بعض الحالات شديد النقص. ومما يعين الحياة على المواءمة بين نفسها وبين مستلزمات الظروف أن تبدو الفينة بعد الفينة أشياء جديدة في التركيب، وهي فروق فجائية ملموسة تسمى "بالنشوء أو التحولات الفجائية أو الطفرات Mutations " وهي فروق تزيد كثيرًا على الفرق العادي الفردي، وقد تكون هذه الطفرات (التحولات الفجائية) عبئًا على الحيوان أثناء كفاحه في سبيل الحياة، وقد تكون عونًا له على هذا الكفاح وقد لا تؤثر قط فيما يعرض للحيوان من ظروف الحياة ومصادفاتها. فترى الانتخاب

(٦) اليسروع Caterpillar .

الطبيعي ينبذها في الحالة الأولى – وتراه يرحب بها ويشجعها في الثانية، وقد تنتشر في الثالث ة ف ي ذ وع بأكمله لا يعترضها معترض، وتمثل مظاهر لا هي بالمفيدة ولا هي بالضارة، بل هي تغير ر ذات ي تلق ائي. ولسنا نعرف حتى الآن للطفرات سببًا، وكل ما نعرفه هو أن الحياة تواصل التجريب على ه ذا النح و. وأن تجاريبها تعرض على محك الانتخاب الطبيعي ليوافق على التعديل ويثبته مرة أو لا يه تم ب ه، أو يزيل ه. والظاهر أن الطفرة نفسها إنما هي عملية تأتي بمحض الصدفة، فربما تصيب الطفرة حاجة الوقت الماس ة، وربما تكون خروجًا عقيمًا عن السياق، وربما كانت تغيرًا سخيفًا، وهي في الحالة الأخيرة تنتج "أحد عجائب المخلوقات" التي تموت. وفي الحالة الأولى تنتشر في أفراد النوع. وطريقة انتشارها التي شرحها الأب "مندل Mendel" أطول من أن يحتملها المقام ويراها القارئ واضحة الشرح في كتاب "علم الحياة" [٧]. وهو رفي ق هذا الكتاب.

ولنفرض مثلاً أن حيوانًا صغيرًا ذا فراء لونه بني مبيض يعيش في أرض قارسة البرد يكسوها الثلج على الدوام، إن أفراده التي تحمل أثقل الفراء وأشده بياضًا، أقلها تأذيًا بالبرد وأقلها تعرضًا لأنظار أعدائها، وأقلها ظهورًا لفرائسها حين تخرج باحثة عنها. فهذا النوع يزداد فراؤه غزارة وينصع بياضه في كل جي ل جدي د حتى يصل إلى حد لا تجدي معه الاستزادة من الفراء.

ثم تصور أن قد حدث تغير في المناخ يدخل الدفء إلى ذلك الإقليم ويمحو منه الثلوج، فيجعل المخلوقات البيضاء شديدة الوضوح في معظم أجزاء السنة والفراء الثقيل عبئًا على حامله؛ فكل فرد يحمل في فرائه ظلاً من اللون البني مع خفة شعره يجد نفسه متفوقًا على غيره، ويكون الفراء الأبيض ثقيلاً وكَلاًّ على أص حابه. فترى الانتخاب الطبيعي يستمسك ويرحب بكل ما يلائمه من طفرات تنشأ في عصور المحن والنوازل، فترى الأبيض يُقتلع ويتغلب الأسمر في كل جيل. فإذا حدث هذا التغير في المناخ بسرعة جد عظيمة ولم تص ادفه طفرات ملائمة فإن النوع يبيد. وأما إذا ظهرت طفرات من صنف مساعد وتهيأ لها الزمن الكافي للانتش ار بين النوع انتشارًا واسعًا، فإن النوع وإن مر عليه بعض الزمان العسير ربما استطاع أن يكيف نفس ه ج يلاً فجيلاً، وهذا التغيير والتكييف يسمى "تعديل الأنواع Modification of Species ".

وقد لا يحدث هذا التغير في المناخ في كل الأرض التي يسكنها النوع. وقد يحدث مثلاً في جانب واحد من جوانب أحد خلجان البحر العظيمة أو يحدث في ناحية واحدة دون الأخرى من سلسلة جبال أو ما شابهها من الفواصل. وقد ينحرف تيار دفيء في المحيط كتيار الخليج، ويسير فيدفئ جانبًا من الحاجز ويت رك الآخ ر يقاسي شدة البرد. وعند ذلك يستمر النوع في الجهة الباردة حتى يصل إلى أقصى غايته م ن ثق ل الف راء وبياضه، بينما هو في الجهة المقابلة متعدّل متجه إلى اللون البني وإلى خفة الغلاف.

---

(٧) The Science of Life المؤلف راجع المقدمة

ولسوف تصحب هذه التغييرات تغيرات أخرى في نفس الوقت فيما يرجح؛ فقد تشجع الظروف فارقًا في المخالب ها هنا، وتحاربه هناك، لأن نصف النوع يداوم النبش في الثلج بحثًا عن طعامه بينما النصف الآخر مستمر في الهرب من أعدائه فوق الأرض السمراء. ومن الراجح أيضًا أن تنتج فروق المناخ، فروقًا في الطعام الذي يمكن الحصول عليه، وهذا يؤدي إلى فروق في الأسنان والجهاز الهضمي، وربما حدثت تغيرات في غدد العرق والدهن في الحيوان تبعًا للتغيرات التي أصابت الفراء، وهذه بدورها تؤثر في أعضاء الإفراز في الجسم، وفي كل كيمياء البدن الداخلية؛ وهكذا يستمر التغير في كل تركيب المخلوق. وربما جاء الوقت الذي يصبح فيه هذان الصنفان المنفصلان لهذا النوع الذي كان فيما مضى نوعًا واحدًا، بعيدي الشبه بسبب تراكم الفروق الفردية وفروق الطفرات، إلى حد أن يصبحا نوعين مختلفين يمكن تمييز أحدهما عن الآخر. ويسمى هذا الانقسام في النوع على طول الأجيال إلى نوعين أو أكثر باسم "تمايز الأنواع" (٨).

ويجب أن يعلم القارئ علم الوضوح – وقد وُهب هذه الأصول الأولية عن الحياة، وعما بها من نماء وموت، وتناسل مع التغير من الفرد والطفرة، في عالم دأبه التغير – أن الحياة لابد لها أن تتغير على هذا النحو، وأنه "لابد" من حدوث تعديلات وتمايزات بين الأنواع، وأنه "لا بد" من اختفاء أنواع قديمة، ومن ظهور أخرى جديدة ولقد ضربنا لك ها هنا مثلاً حيوانًا مألوفًا، ولكن ما يصدق على الحيوان الفرائي بين الثلج والجليد يصدق على الحياة بأجمعها، كما يصدق على الهلاميات الطرية Jellies والبدايات البسيطة التي دامت تسبح وتزحف مئات الملايين من السنين بين مستويات المد وفي مياه البحار البروتيروزوية الدفيئة الضحلة. كانت كلها في حال من التبدل والطفور. وكانت تعيش في عالم حافل بالتغيرات يستحثها على كثير من تبديلاتها وطفراتها.

ولا بد أن تكون قد تعدلت وتنوعت تلك الحياة المبكرة التي عاشت في ذلك العالم المبكر، عندما كانت الشمس المحتدمة تشرق وتغرب في ربع الوقت الذي تستغرقه الآن ليس غير، وعندما كانت البحار الدفيئة تبسط مدها العظيم على الشواطئ الرملية والطينية المحيطة بالأراضي الصخرية، وعندما كان الهواء محملاً بالسحاب والبخار؛ ولا بد أن الأنواع قد تطورت بسرعة عظيمة، وأكبر الظن أن الحياة كانت عند ذاك سريعة قصيرة كما كانت الأيام والسنون، وكانت الأجيال التي كان الانتخاب الطبيعي ينتقيها يخلف أحدها الآخر في تعاقب سريع.

وعملية الانتخاب الطبيعي أبطأ في الإنسان منها في أي مخلوق آخر، فإن الأوربي الغربي العادي يستغرق عشرين سنة أو تزيد قبل أن يكتمل نموه ويتناسل، بينما الجيل الجديد في معظم الحيوانات يؤدي واجبه في سنة أو أقل. أما الحيوانات البسيطة الدنيئة التي ظهرت أولاً في البحار الأولى فيرجح أن نموها وتناسلها كانا أمرًا لا يستغرق سوى ساعات قليلة وجيزة، بل لعله لم يكن يستغرق أكثر من دقائق قليلة وإذن فقد كانت تعديلات الأنواع وتمايزاتها بلا شك سريعة سرعة عظيمة، وقد تطورت الحياة فاستحدثت أضربًا كثيرة من كائنات ذات أشكال متباينة تباينًا كبيرًا قبل أن تشرع تترك آثارها في الصخور.

---

(٨) Differentiation of Species: هو التمايز أو التفرق.

وعلى ذلك فإن سجل الصخور لا يبدأ بأية مجموعة من تلك الأشكال الوثيقة الصلة بعضها ببعض التي انحدرت عنها كل المخلوقات التالية والموجودة الآن. ويبدأ هذا السجل في "البحر" حيث كانت تتمثل الأقسام الرئيسية "لمملكة الحيوان" كلها تقريبًا. فالنباتات كانت وقتئذ نباتات كما كان الحيوان حيوانًا.

كانت ذوات الأرجل الذراعية Brachiopods قد احتلت أصدافها، وكانت تأكل من أنواع الطعام ما يأكله اليوم أنواع المحار، وكانت العقارب المائية الكبيرة تزحف بين أعشاب البحر وتتكور التريليوبيت كورًا، ثم تنتشر وتمرق مروق السهام. ويرجح أن ذلك الطين القديم كان غنيًا بالأحياء من أنواع "الإنفيوزوريا" أعني النقيعيات وما إليها، غنى يشبه ما تجده في أي قطرة من قطرات مياه البرك في يومنا هذا. وكانت في المحيطات كثرة من الكائنات الدقيقة: شبه الشفافة [9] وكثيرًا ما كانت متألقة (فوسفورية الوميض Phosphorescent)، على أن الأرض فيما يعلو المد العالي كانت لا تزال على ما نظن قفرًا حجريًا لا أثر فيه للحياة.

---

(9) Trans Incent.

الفصل الثالث

الحياة والمناخ

١- الحياة والماء. النباتات المائية.

٢- أقدم الحيوانات البرية.

٣- لماذا يجب أن تتغير الحياة على الدوام.

(١)
الحياة والماء

وجدت الحياة حيثما امتد سيف البحر، وسارت تلك الحياة في الماء وبجوار الماء ومع الماء، وكان الماء موطنها ومثواها ووسطها الذي تعيش فيه، وكانت بها إليه حاجة عظمى جوهرية.

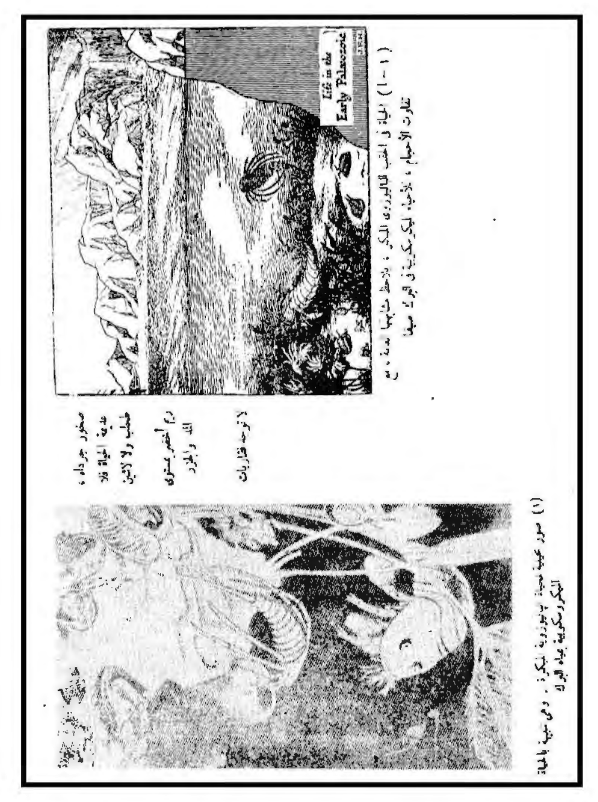
ولا شك أن بدايات الحياة الشبيهة بالهلام كانت تهلك كلما خرجت من الماء كما يجف السمك الهلامي ويهلك على شطوط بحارنا في وقتنا هذا، وكان هذا الجفاف أشد الأشياء فتكًا بالحياة في تلك الأيام. ولم يكن لديها بادئ الأمر ما يقيها شره.. ولكن ذلك العالم المكون من البرك وشآبيب المطر والبحار الضحلة والأمداد [١٠]، كان أي تبدل يمكن الكائن الحي من أن يصمد فيه ويحتفظ برطوبته أثناء ساعات الجذر أو الجفاف يقابل بالتشجيع من جميع ظروف ذلك الزمان. ولا بد أن خطر التخلف على الشاطئ كان محدقًا بالكائنات الحية على الدوام، بينما اضطرت الحياة من الناحية الأخرى أن تلتزم القرب من الشواطئ والسواحل والمضاحل، لاحتياجها إلى الهواء (الذائب بالطبع في الماء) وإلى الضوء.

وما من مخلوق يستطيع أن يتنفس، وما من مخلوق يستطيع أن يهضم طعامه بغير الماء، ونحن نتكلم عن تنفس الهواء، على حين أن ما تفعله كل الكائنات الحية هو أن تستنشق الأوكسجين الذائب في الماء. فالهواء الذي نستنشقه نحن أنفسنا يجب أن يذوب بادئ بدء في رطوبة رئاتنا. ويجب أن يتحول طعامنا إلى سائل قبل أن يمكن تمثيله. فأما الحيوانات المائية التي تعيش تحت أطباق الماء على الدوام فإنها تحرك خياشيمها المعرضة للماء تمام التعرض والتي بها تتنفس، ثم تستخلص من الماء الهواء الذائب فيه. ولكن المخلوق الذي يتعرض مدة من الزمان أيًا كان طولها خارج الماء يجب أن يكون له في جسمه وجهازه التنفسي ما يقيه شر الجفاف. فقبل أن تستطيع أعشاب البحر أن تزحف إلى خارج البحار "الباليوزوية الأولى"، إلى خط الشاطئ المعرض للمد والجزر، تحتم عليها أن تكون لنفسها جلدًا خارجيًا أصلب وأخشب مما لها ليحفظ عليها رطوبتها. وقبل أن يستطيع سلف العقرب المائية أن يظل حيًا إذا تخلف عن المد، تحتم عليه أن يكوّن لنفسه غلافًا ودرعًا لوقايته. والراجح أن التريلوبيت حين كونت غلافها الخشن، وتكورت كورًا، لم يكن هذا بقصد وقاية أحدها من الآخر أو مما عساه يكون لها من أعداء، بقدر ما كان وقاية لها من الجفاف. وعندما تظهر لنا الأسماك – وهي أولى الحيوانات الفقارية قاطبة – بمجرد انحدارنا من الصخور (الباليوزوية) يتجلى لنا أن عددًا منها قد تكيف بحيث أصبح قادرًا على أن يواجه خطر الجنوح (الشحوط) أو التخلف المؤقت، وذلك بوقاية خياشيمه بالأغطية وبنوع من الرئة البدائية ومثانة السباحة.

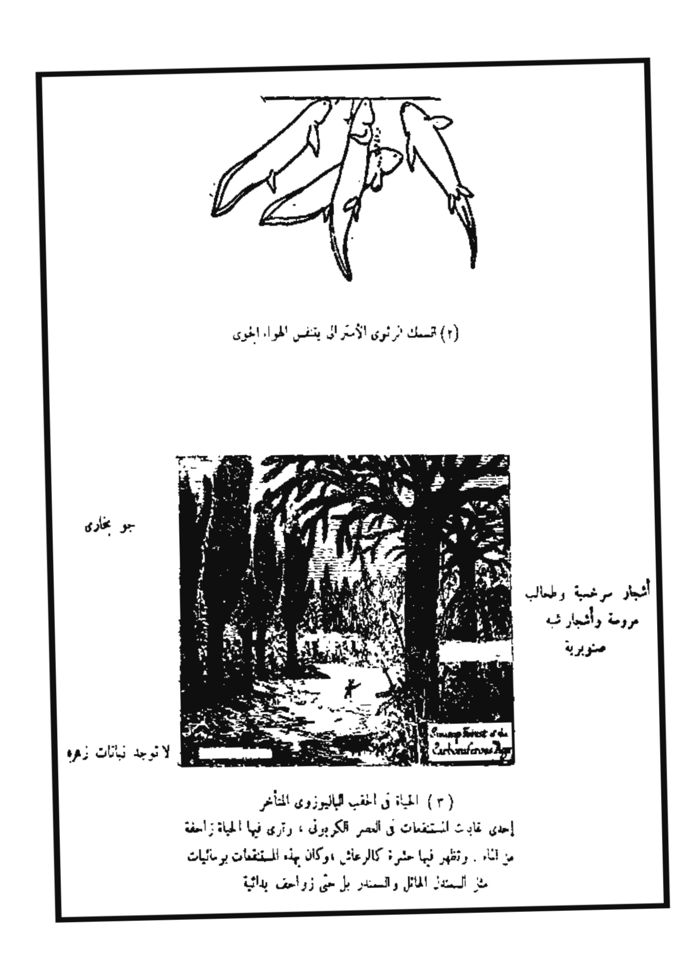
---

(١٠) جمع مد.

وفي ذلك الوقت أخذت الأعشاب والنباتات التي كانت تكيف نفسها لظروف يتناوب عليها المد والجزر، تنقل نفسها إلى منطقة أسطع ضياء. والضوء ضروري وثمين جدًا في حياة كل النباتات. وكان كل تطور في تركيبها من شأنه أن يجعلها صلبة وينهض بها في وجه الضوء حتى لتستطيع أن تقف منبسطة ممتدة الأطراف بدلاً من أن تنقبض وتتكمش عندما ينحسر الماء عنها – يكون ميزة عظيمة لها. وهكذا نجدها تتطور فتنتج الألياف Fibers والدعامة التي تعتمد عليها وبداية "الألياف الخشبية". وكانت النباتات الأولى تتناسل بالأبواغ الطرية أو الأمشاج [11] النصف الحيوانية التي كانت تطلق في الماء ويتولى توزيعها الماء، ولم يكن لها من مكان تنبت فيه إلا تحت الماء. وكانت النباتات الأولى مرتبطة بالماء ارتباط النباتات الدنيا الآن به بحكم ظروف دورة حياتها. وكانت هناك أيضًا ميزة عظيمة في هذه الحالة تترتب على إنتاج الأبواغ لبعض وسائل الوقاية من الجفاف وتدرعها بها، وهذا يساعد على حدوث التناسل دون الانغماس في الماء. وما إن استطاع نوع من الأنواع أن يفعل ذلك حتى تهيأ له أن يعيش ويتناسل وينتشر فوق مستوى حد المياه العالي، سابحًا في الضياء، بعيدًا عن منال لطمات الأمواج وصدماتها. وتدلنا الأقسام الرئيسية التي تميزت بها النباتات الكبرى وتفصلت فصولاً، على وجود مراحل تحررت بها الحياة النباتية من ضرورة الانغماس في الماء.



([11]) Oametes: أمشاج: هي خلايا التكاثر الجنسية



(٢) السمك الرئوى الأسترالى يتنفس الهواء الجوى

(٣) الحياة فى الحقب الباليوزوى المتأخر
إحدى غابات المستنقعات فى العصر الكربونى ، وترى فيها الحياة زاحفة من الماء . وتظهر فيها حشرة كالرعاش ،وكان بهذه المستنقعات برمائيات مثل السمندل المائل والسمندر بل حتى زواحف بدائية

بتطور السند الخشي وظهور وسيلة للتناسل، تزداد قوتها شيئًا فشيئًا على مقاومة الجفاف وتتح داه. أم ا النباتات الدنيا فلا تزال أسيرة الماء. فلا بد للطحالب الدنيا Moss من العيش في الرطوب ة، ب ل إن تط ور أنواع السرخس [١٢] يحتاج في أدوار من حياته إلى البلل الشديد. وقد وصلت النباتات العليا في تحررها م ن الماء حدًا يمكنها من البقاء والتناسل ولو لم يكن في التربة التي دونها إلا قليل من الرطوبة، فكأنها بذلك ق د حلت حلاً نهائيًا مشكلتها الخاصة بالمعيشة خارج الماء.

وقد تمت جوهريات هذه المشكلة ومستلزماتها إبان آماد العصر البروتيز رزوي الهائل ة وأي ام العص ر الباليوزوي الأولى بطريقة التجريب والمحاولة التي تتبعها الطبيعة. ثم شرعت أضرب م ن نبات ات جدي دة تخرج أفواجًا في بطء وكثرة عظيمة من البحر ومن فوق الأرض المنخفضة، وإن استمرت ملازم ة أثن اء انتشارها البرك والمستنقعات ومسارب الماء.

ولعله لم يكن ثمة نفس الفرق الواضحة الموجود الآن بين نباتات البحر ونباتات المياه العذبة، إذ ال راجح أن البحر كان أقل ملوحة مما هو الآن.

---

(١٢) Ferns: السراخس.

(٢)
أقدم الحيوانات البرية

ثم جاءت الحيوانات بعد النباتات. وما من حيوان بري اليوم في العالم وما من نبات يرى إلا كان تركيب ة في مبدأ الأمر تركيب كائن يسكن الماء قد كيفته تعديلات الأنواع وتمايزها وفقًا لدواعي الحياة خارج الم اء. وقد تم هذا التكيف بطرائق مختلفة، فأنت واجد في حالة العقرب البرية أمشاط الخياشيم في س لفها العق رب البحرية البدائية، وقد غارت في الجسم لكي تجعل الرئة في حرز من التبخر الس ريع. فأم ا خياش يم ذوات الدرقة Crustaceans من أمثال أبي جلمبو التي تجري متعرضة للهواء، فإن لها ما يحميها من زوائد غطاء الخياشيم التي في محار ظهرها أو درقتها. وقد نشأت في أسلاف الحشرات أجهزة هي أكياس هوائية وأنابيب هوائية تسمى بالقصبات الهوائية (Tracheal tubes)، وهي التي تحمل الهواء إلى جميع أجزاء الجسم قب ل أن يذاب. فأما الحيوانات الفقرية البرية فإن خياشيم أجدادها من السمك، قد أضيف إليها أولاً – ثم استبدل بها أخيرًا – نمو كيسي من ناحية البلعوم هو مثانة السباحة الرئوية البدائية.

وما زالت تعيش إلى يومنا هذا أ سماك طينية، تمكننا من أن نفهم جليًا الطريقة التي استطاعت به ا الحيوان ات الفقارية البرية الخروج من الماء. وتوجد هذه المخلوقات (وأضرب لك مثلاً السمك الأفريقي ذا الرئة) في المن اطق المدارية، التي بها فصلان: فصل الأمطار الغزيرة وفصل الجفاف الذي تصبح فيه الأنهار أشبه شيء شبهًا بب رك من الطين المجفف. ففي أثناء الفصل المطير تسبح تلك الأسماك وتستنشق الهواء بخياشيمها، كم ا تستنش قه ك ل الأسماك الأخرى فإذا أخذت مياه النهر في التبخر تدفن الأسماك نفسها في الطين ويبطل عمل خياشيمها، ويح افظ المخلوق على حياته حتى تعود المياه، بابتلاع الهواء الذي يدخل إلى مثانة السباحة فيه. وعندما يدرك جفاف الأنهار السمك الأسترالي ذا الرئة في البرك الآسنة، وعندما تأسن المياه وتخلو من الهواء، تراه يطفو إلى الس طح ويبتل ع الهواء. ويفعل برغوث الماء [١٣] في البرك نفس هذا الفعل. فهذه المخلوقات لا تزال باقية في مرحلة الانتقال، ه ي نفس المرحلة التي تحررت عندها أسلاف الحيوانات الفقارية العليا من حالة اقتصارها على العيش تحت الماء.

ولا تزال أنواع البرمائيات [١٤] من ضفادع وسمندر الماء والتريتون أي غول الماء.. إلخ تظهر في تاريخ حياتها مراحل عملية التحرر هذه. فهي لا تزال تعتمد على الماء في تناسلها. ولا بد لها من وضع بيضها في مياه ينالها نور الشمس – وفي الماء يجب أن يكون موضع تطورها. ولأب ي ذنيب ة الص غير [١٥] خياش يم خارجية متفرعة تتموج في الماء، ثم ينمو عليها غشاء للخياشيم ويكون غلاف الخياشيم. فإذا ما بدأت أرجل ه تظهر، وأخذ ذيله يندمج فيه شرع في استعمال رئتيه ثم تذوى خياشيمه وتختفي، ويستطيع أبو ذنيبة أن يعيش تحت الماء على الدوام كما تستطيع الضفدعة البالغة أن تقضي بقية أيامها في الهواء، غي ر أنه ا تتع رض للموت غرقًا إذا بقيت تحت الماء باستمرار.

---

(١٣) newt: برغوث الماء: سمندر الماء

(١٤) Amphibia: برمائيات، قوارب (حـ .. قوزب).

(١٥) Tadpole: أبو ذنيبة.

فإذا صعدنا درجات الوجود إلى مستوى الزواحف وجدنا "البيضة" التي تحميها من التبخر قشرتها الصلبة. وتنتج هذه البيضة صغارًا تتنفس برئتيها من أول لحظة تلي نقفها فكأن الزواحف تسابق النباتات ذات البذور في تحررها من ضرورة قضاء أية مرحلة من مراحل دورة حياتها في الماء، ولكنها تموت غرقًا إذا بقيت في الماء دون أن تخرج في الهواء.

وتعطينا صخور العصر الباليوزوي المتأخر في نصف الكرة الشمالي المعلومات اللازمة لسلسلة من الصور توضح هذا الانتشار البطيء للحياة في البر. وقد كان هذا العصر من الوجهة الجغرافية عصر مناقع وبحار ضحلة أشد ما تكون ملاءمة لهذا الغزو. وربما لم توجد هناك بحار تضارع محيطات عصرنا في عمقها. وبعد أن أصبحت النباتات الجديدة قادرة على أن تحيا الحياة الهوائية الجديدة تطورت تطورًا ممتازًا في كثرته وتنوعه.

ولم تكن قد وجدت بعد نباتات ذات زهور بالمعنى الحق، ولا أعشاب ولا أشجار "نافضة": تنفض عنها أوراقها في الشتاء. بل كانت النباتات الأولى مكونة من سراخس شجرية عظيمة وأنواع من ذنب الحصان هائلة [١٦] – أو حزازيات Cycads ضخمة وما قاربها من النباتات. وقد اتخذ الكثير من هذه النباتات صورة الأشجار الضخمة ذات السيقان التي بقي عدد وافر من جذوعها في صورة حفريات إلى يومنا هذا. وكان بعض هذه الأشجار يربو على مئة قدم في الارتفاع، وكانت تنتسب لفصائل وعائلات اختفت من العالم الآن. وكانت تقف بسيقانها في الماء. ولا شك أن قد كان في هذا الماء خليط غليظ من الطحالب الطرية والكمأ الأخضر [١٧] والفطريات Fungoid growths التي قلما تركت خلفها آثارًا واضحة. وتكون البقايا الكثيرة المعجونة بعضها في بعض لهذه الغابات المتكونة في المستنقعات أعظم وأهم مناطق الفحم الحجري في العالم في هذه الأيام.

وكانت الحشرات الأولى تزحف وتنزلق وتطير بين هذا النبات البدائي الكثيف. كانت مخلوقات صلبة الأجنحة وذات أربعة أجنحة، غالبًا ما كانت كبيرة، كانت أجنحة بعضها تبلغ القدم طولاً، وكانت هناك رعاشات Dragon Flies كثيرة العدد بلغ امتداد أجنحة واحدة منها وجدت في حقول الفحم البلجيكية ٢٩ بوصة. كما كانت ثم أضرب عظيمة من الصراصير الطيارة، وكثرة من العقارب وعدد من العناكب الأولى، وكانت أعضاء الغزل في هذه العناكب معدومة أو بسيطة، فلم تكن تنسج بيتها البتة، أو كانت تنسج بيتًا غاية في البساطة. وظهرت قواقع البر (الحلزون) كما ظهرت أيضًا أول رتب معروفة من رتب أجدادنا على الأرض، وهي البرمائيات. وكلما صعدنا في المستويات العليا للسجل المتأخر للعصر الباليوزوي وجدنا عملية التكثيف للهواء قد تقدمت حتى بلغت مرتبة ظهور الزواحف الحقة بين أنواع البرمائيات الكثيرة المتعددة.

---

(١٦) Equistums.

(١٧) Green Slime الكمأ الأخضر: المخاطي أو الغروي الأخضر.

وكانت الحياة البرية في العصر الباليوزوي الأعلى حياة غابات دائمة الخضرة تنمو في المستنقعات خلوًا من الزهور والطيور وطنين الحشرات المعروفة الآن، فلو أمكن نقل إنسان إلى تلك المناقع النضرة، فالراجح أن يفزعه سكونها، فهو لا يسمع هناك غير خرير الماء، أو حفيف الريح بأوراق الشجر، أو دوي شجرة تهوى إلى الأرض، وكأنما كل شيء في حالة توقع وانتظار، وتبدو الأشجار والنباتات أشبه بطحالب ضخمة منها بأية شجرة يعرفها. ولم يكن هناك قط أي وحوش برية كبيرة بل كانت البرمائيات المتمرغة في الوحل والزواحف البدائية أعلى المخلوقات التي أنتجتها الحياة حتى ذلك الحين. ولم تكن أية واحدة منها قد وصلت بعد إلى حجم عظيم جدًا وكانت أية أرض بعيدة عن الماء أو أعلى من مستوى الماء لا تزال قاحلة جدباء وخالية من الحياة. ولكن الحياة دأبت على الخروج جيلاً بعد جيل زاحفة من مياه البحر الضحلة التي اكتنفتها منذ بدايتها.

(٣)

لماذا يجب أن تتغير الحياة على الدوام

يشبه سجل الصخور كتابًا عظيمًا عبثت به يد العابثين في غير ما حرص أو عناية. فكل صفحاته ممزق ة بالية ممحوة المعالم، والكثيرة منها مفقود فقدانًا تامًا. فأما معالم القصة التي نرسمها لك رسمًا إجماليًا فقد جمعت جزءًا فجزءًا بغاية البطء المضني، في بحث لا يزال أبتر ولا يزال مطردًا. والصخور الفحمية Carboniferous أي "حقول الفحم" تشهد بحدوث أول امتداد عظيم للحياة فوق الوهاد البليلة، ثم تتلوها صفحات للصخور البرمية Permian [١٨] ممزقة (هي آخر الصفحات في الباليوزوي)، وهي لا تحتفظ إلا بالقليل من معالم الأرض في عصرها. ولم يبدأ التاريخ في الظهور ثانية بشكل سمح كريم إلا بعد فترة طويلة من الزمان.

فالصخور البرمية تسجل حقبًا من أحقاب العنف والدمار في تاريخ العالم. فهي علامة عصر الانتقال من العصر الباليوزوي عصر السمك والبرمائيات إلى العصر الميزوزوي عصر الزواحف.

ويجب ألا يغرب عن البال أن تغيرات عظيمة في المناخ كانت تحدث على الدوام، وكانت في بعض أحيانها تبعث الحياة وتنشطها، وفي بعض أحيانها الأخرى تعوقها وتعترض سبيلها. فكل نوع من أنواع الكائنات الحية لا يني على تكييف نفسه تكييفًا لا يزال يزداد في دقته اقترابًا من ظروفه التي تتغير على الدوام مما لا يجعل للتكيف نهاية. بل هناك على الدوام حاجة ماسة تتجه إلى التغير.

بيد أننا نجد مع ذلك مخلوقات من النوع الدنيء قد كيفت نفسها منذ القدم وفقًا للظروف البسيطة الشائعة حولها، تكييفًا بلغ منتهاه حتى لم يدخل عليها بعد ذلك أي تعديل كبير ولم تتعرض للاندثار أو لاستبدال غيرها بها. فهناك مثلاً سمكة محارية صغيرة تدعي اللينجولا Lingula، مهيأة لحياة غامضة راكدة في البحار الدفيئة. فهذا الجنس قد لبث دون أي تغير ظاهر مدى كل السجل الجيولوجي بأكمله.

غير أن الجيولوجيين يظهرون لنا مجموعات أخرى من الحفريات يمكن الإنسان أن يتتبع فيها تعديلات في مدى لا يزيد على بضعة آلاف من السنين، حدثت مع تغير المناخ ونوع الطعام والأعداء.

ولا بد لنا من أن نورد لك ها هنا بعض إيضاحات لهذه التغيرات المناخية التي لا تزال تحدث على سطح الأرض. وهي ليست تغيرات دورية، بل تقلبات بطيئة من الحر والبرد إذ ينبغي للقارئ ألا يظن أن تاريخ العالم المناخي إنما هو قصة برودة متواصلة بناء على ما يعلمه من أن الشمس والأرض كانتا يومًا ما كتلة مستمرة من نار. ذلك أن باطن الأرض لا يزال دون أدنى شك، حارًا جدًا حتى يومنا هذا بيد أننا لا نشعر على سطح الأرض بأي شيء من تلك الحرارة الباطنية. فإن الحرارة الباطنية لم يعد يدركها أحد على سطح الأرض منذ أن تجمدت الصخور أول مرة، وذلك فيما عدا ما عرفه عن البراكين والينابيع. وإنك لتجد حتى

---

(١٨) نسبة إلى يوم في روسيا. (المترجم).

في العصر الأزوي أو الأركيوزوي آثارًا في الصخور التي غطاها الجليد وأبلاها، بل وفي غير الصخور تدل على حدوث فترات من البرد الشديد. وكانت أمثال هذه الموجات الباردة تتعاور دائمًا في كل مكان هي وظروف أميل إلى الدفء. ومرت بالأرض في كل نواحيها آماد ممطرة عظيمة، وآماد جفاف عظيمة. وهي كلها تعود إلى تقلبات فلكية وأرضية تمتاز بتعقدها الشديد، ولسنا بمتعرضين لها ها هنا.

ووفاقًا لهذا نعرف من السجل الصخري أن قد جاءت آماد طويلة أصابت فيها الحياة الانتشار والتكاثر، تدفقت فيها وتزايدت وتغيرت، كما مرت عصور عجاف مهلكة صحبتها إبادة عظيمة وفناء الأنواع Species والأجناس Genera والفصائل Classes كما صحبها أن تعلّم كل ما بقي من الكائنات حيًا دروسًا قاسيات.

والراجح أن الفترات الدفيئة كانت إذا قيست إلى العصور الباردة أطول أمدًا. والظاهر أن عالمنا الحالي يخرج الآن من عصر مديد من المحن والظروف المتطرفة داخلته بعض التقلبات وربما أصبح بعد نصف مليون من المحن والظروف المتطرفة داخلته بعض التقلبات وربما أصبح بعد نصف مليون من السنين عالمًا لا شتاء له زاخرًا بالأشجار والنبات حتى في الأصقاع القطبية. ولسنا في الوقت الحاضر على يقين من صدق هذه النبوءة، ولكن يحتمل أن يصبح في إمكان الجنس البشري مع زيادة المعرفة لديه، أن يرسم خططه لآلاف من السنين مقبلة ويلاقي بها التغيرات القادمة.

الفصل الرابع

عصر الزواحف

١- عصر الحياة في الوهاد.

٢- التنين (الأفعوانات).

٣- الطيور الأولى.

٤- عصر محنة وفناء.

٥- أول ظهور الفراء والريش.

(١)
عصر الحياة في الوهاد

نعلم أن البلولة والدفء وظروف المناقع الضحلة التي مهدت السبيل لتراكم المواد النباتية تراكمًا عظيمًا، والتي انضغطت وحفظت لنا تلك النباتات محنطة فأصبحت الآن فحمًا حجريًا، نعلم أن هذه الظروف عمت معظم العالم مدى مئات الألوف من السنين، حقًا أن قد أتت على الأرض بعض فترات باردة، ولكن أمدها لم يستمر زمنًا طويلاً يمكنها من إبادة النباتات. ثم حانت نهاية ذلك العصر الطويل ذي النباتات الناضرة المنحطة الدرجة. ويلوح أن قد انقضى زمن مرت فيه الحياة على الأرض في فترة جدب وإمحال عم العالم كله. ذلك هو الجزء الأول من تاريخ هذا الكوكب إذا أجيز هذا التشبيه.

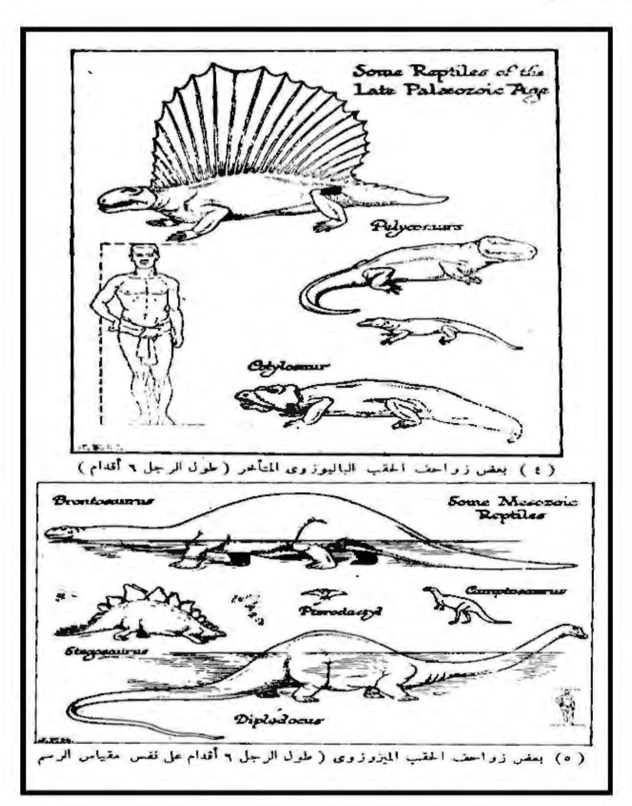
وعندما تعود القصة سيرتها الأولى في آخر العصر الباليوزوي بعد فترة الاحتباس هذه، نجد الحياة مقدمة على عصر جديد زاخر بالثراء والانتشار والسعة. وقد تقدم النبات تقدمًا عظيمًا في إدراكه فن الحياة خارج الماء. هذا وبينما كانت النباتات الباليوزوية التي في حقول الفحم تنمو ومياه المستنقعات يترقرق فوق جذورها، كان نبات العصر الميزوزوي يحتوي منذ مستهل بدايته على أشجار حزازية تشبه النخيل وأشجار صنوبرية مخروطية تنمو في الأرض الوطيئة. كانت كلها نباتات أرضية لا شك فيها تنمو في تربة أعلى من مستوى الماء.

ولا شك أن المستويات الدنيا للأراضي في الحقبة الميزوزوية كانت مغطاة بغياض السرخس العظيمة وبالشجيرات الكثيفة ونوع من جماعات الأشجار المستأجمة. ولكن لم يكن هناك بعدُ أي كلأ، ولا خضارى Turf، ولا خمائل ولا أية نباتات ذات أزهار قط، كبرت أو صغرت. والراجح أن العصر الميزوزوي لم يكن عصر نباتات جد زاهية الألوان، ولا بد أن كانت فيه نباتات خضراء في فصل المطر ودكناء وأرجوانية في فصل الجفاف. وأكبر الظن أنها لم تكن تقارب في جمالها جمال الغابات والأحراش الحالية. فلم تكن هناك زهور باسمة، ولا ألوان زاهية في الخريف قبل سقوط الأوراق، إذ لم يكن هناك بعدُ سقوطٌ للأوراق. فأما ما يعلو المستويات الدنيا فكان لا يزال مجدبًا، ولا يزال عاريًا، ولا يزال معرضًا لما يحدثه الريح والمطر من تعريةٍ وتحاتٍّ دون أي عامل من عوامل التلطيف.

وينبغي للقارئ عندما يسمعنا نتكلم على الصنوبريات Conifers في العصر الميزوزوي ألا يُصور في ذهنه أشجار الصنوبر والشربين Pines & Firs التي تكسو حدور الجبال العالية في عصرنا هذا – بل يجدر به أن يفكر في الأشجار الدائمة الخضرة التي تنمو في الوهاد. فقد كانت الجبال لا تزال جرداء مواتًا لا حياة فيها. وكان اللون الوحيد في الجبال هو لون الصخور الجرداء المماثل للألوان التي تجعل المناظر البرية بمنطقة الكولورادو فاتنة خلابة في هذه الأيام.

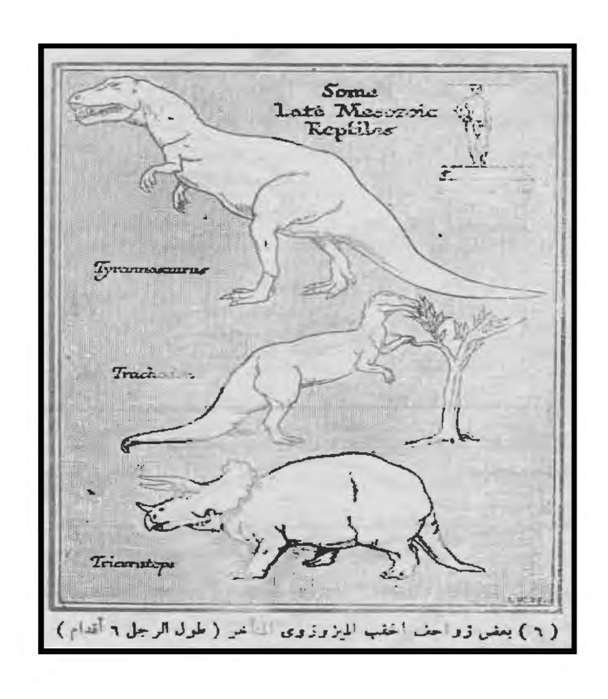
وبين هذا النبات الآخذ في الانتشار في السهول الدنيا كانت الزواحف تزداد ازديادًا عظيمً ا ف ي الع دد والأضرب. وقد أصبحت وقتئذ حيوانات أرضية خالصة في كثير من الحالات. وهناك فروق تشريحية كثيرة تميز الزاحف عن البرمائي. وكانت هذه الفوارق تنطبق أيضًا على الزواحف والبرمائيات التي سادت الفت رة الفحمية من العصر الباليوزوي العلوي. بيد أن الفارق الأساسي بين الزواحف والبرمائيات وهو الذي يهمن ا في هذا الكتاب، هو أن البرمائي يجب أن يعود إلى الماء ليبيض فيه؛ وأنه في مراحل حياته الأولى يج ب أن يعيش في الماء وتحت أطباق الماء، بينما الزاحفة من الناحية الأخرى قد ألغت كل مراحل أبي ذنيبة من دورة حياتها، أو بمعنى أدق فإن مرحلة أبي ذنيبة تنتهي قبل أن يغادر الصغار قشر البيضة، أي إن الزواحف ق د غادرت البحر نهائيًا وعاد بعضها إليه ثانية كما عاد فرس البحر وكلب البحر Otter من بين الثدييات. عل ى أن هذا أيضًا استطراد للقصة – أو قل إنه تفصيل وتعقيد لها لسنا بقادرين على أن نوليه عناية كبيرة في هذه "المعالم".

وقد أسلفنا إليك أن الحياة لم تنتشر في العصر الباليوزوي إلى أكثر من وديان النهار ذات المناقع وحافات المستنقعات البحرية Lagoons وما إليها. فأما في العصر الميزوزوي، فإن الحياة شرعت تزداد أخذًا بأسباب الاعتياد على الهواء – وهو الوسط الأكثر خفة – والانتشار في إقدام إلى أعلى السهول وإلى سد فوح الت لال والآكام. وجدير بدارس تاريخ.



(٤) بعض زواحف الحقب الباليوزوى المتأخر (طول الرجل ٦ أقدام)

(٥) بعض زواحف الحقب الميزوزوى (طول الرجل ٦ أقدام على نفس مقياس الرسم



(٦) بعض زواحف أحقب الميزوزوى المتأخر (طول الرجل ٦ أقدام)

الإنسانية ومستقبل الجنس البشري أن يعي ذلك ويتذكره. فلو أن شعلة من الذكاء لا يحملها جسد، ولا معرفة لها بالمستقبل، هبطت إلى الأرض ودرست الحياة إبان العصر الباليوزوي المبكر، لاستنتجت استنتاجًا منطقيًا سليمًا أن الحياة كانت محصورة في الماء حصرًا تامًا، وأنه لا أمل أمامها في الانتشار على الأرض، ولكنها مع ذلك وجدت لنفسها إلى الأرض منفذا. ولعل تلك الشعلة لم تكن أقل يقيناً أيام الحقبة الباليوزوية المتأخرة أن الحياة لم تكن بمستطيعة أن تخطو إلى أبعد من حافة المستنقع. ونراها في العصر الميزوزوي لا تزال ترسم حدودًا للحياة أضيق كثيرًا من الحدود التي ترسم الآن. ولذا فإنه بالرغم من أننا نلحظ اليوم أن الحياة والإنسان لا يزالان يحدهما ارتفاع قدره خمسة أميال من الهواء، وعمق في البحر ربما كان ميلاً أو ما يقاربه، فليس لنا أن نستنتج من هذا التحديد الحالي أن الحياة لن تنتشر بعد قليل عن طريق الإنسان إلى الخارج وإلى أعلى وأسفل حتى تبلغ مدى لا يستطيع أحد اليوم تصوره.

وأقدم ما عرف من الزواحف كان حيوانات ذات كروش عظيمة وأرجل ليست بالقوية جدًا، فهي وثيقة الشبه بذوي قرباها من البرمائيات، وهي تتمرغ كما يتمرغ التمساح إلى يومنا هذا ولكنها سرعان ما شرعت في العصر الميزوزوي في الوقوف والمسير بقوة على أرجلها الأربع، وأخذ عدد كبير من أقسامها يقيم توازنه معتمدًا على ذيله وأرجله الخلفية على طريقة تقارب طريقة القنغر في هذا الزمان. وذلك لكي تتفرغ الطرفان الأماميان لإمساك الطعام. وشاهد ذلك أن عظام أحد أقسام الزواحف الشهيرة وهي التي احتفظت بعادات ذوات الأربع، والتي ظلت لقسم منها بقايا جمة في رواسب العصر الميزوزوي المبكر في جنوب أفريقيا والروسيا – تُظهر من الخصائص المميزة ما يقترب بها من خصائص هياكل الثدييات. ويسمى هذا

القسم باسم (ثريمورفا) أي أشباه الوحوش لما بينه وبين هذه الثدييات (أي الوحوش) من شبه. وكان نوع التمساح قسمًا آخر منها، بينما تطور فرع آخر متجهًا إلى سلاحف البر والبحر (الترسة [19] اللجأة). فأما أشباه العظايا [20] البليزويوصور The Plesiosaurs – وعظايا البحر المتدثرة الأيخثيوصور Ichthyosaurs – فإنهما مجموعتان لم تتركا ما يمثلهما في الحيوانات التي تعيش الآن، وكانا زاحفين مهولين يعودان من حين إلى حين إلى البحر ويعيشان فيه عيش الحيتان، وقد بلغ طول واحد من أكبر أفراد أشباه العظاء ثلاثين قدمًا من طرف الأنف إلى نهاية الذيل – وكان نصف هذا الطول في رقبته. وكانت الموزاصور Mossaurs (عظايا نهر الموز) مجموعة ثالثة من العظاء البحرية الكبيرة الشبيهة بخنزير البحر Porpoise. ولكن أكبر المجموعات وأكثرها تنوعًا بين هذه الزواحف في العصر الميزوزوي هي مجموعة متنوعة تسمى بالدينوصور Dionosaurs أو العظايا المهولة. وصل الكثير منها إلى حد كبير جدًا من الضخامة ولم يبلغ أي حيوان من العِظَم ما بلغته هذه الدناصير العظمى وإن كان البحر لا يزال يستطيع أن يرينا من أصناف الحيتان مخلوقات تضارعها عظما. وكان بعض هذه – وهي أعظمها – حيوانات من العاشبات [21]، وكانت ترعى على نبات السمار والحلفاء راتعة بين أشجار السرخس والشجيرات، أو أنها كانت تقف وتمسك بالأشجار برجليها الأماميتين وهي تلتهم أوراقها التهامًا. وكان بين هؤلاء مثلاً الديبلودوكس كارنيجي Diplodocus Carnegii وكان طوله أربعة وثمانين قدمًا. على أن الجيجانتوصور أو العظاء الضخم Giganotosaurus الذي اكتشفته بعثة ألمانية سنة ١٩١٢ بين صخور شرق أفريقيا أضخم كثيرًا إذ بلغ طوله ما يربو على المائة قدم. ولا تزال تظهر عظام أضخم من هذه. وكان لهذه الوحوش العظيمة الضخمة أرجل، وهي تصور في العادة واقفة على أرجلها تلك، غير أنه من المشكوك فيه جدًا أن يكون في مقدورها حمل كتلة جسمها على أرجلها خارج الماء.

وعظامها تنتهي بغضاريف، ولذا فليست مفاصلها كبيرة القوة. فما دامت هذه الوحوش المهولة طافية في الماء أو الطين كان في إمكانها مواصلة حياتها على أحسن وجه. فقد كان الدينوصور العادي الكبير يجعل نصفه الأسفل الضخم وأطرافه السفلى الجسيمة تحت الماء على الدوام تقريبًا فأما رقبته ورأسه وطرفاه العلويان، فهي أخف كثيرًا في تركيبها – ولذا فالراجح أن هذه كانت مرفوعة عن الماء.

---

(١٩) Turtles

(٢٠) ورد في معجم الوسيط – العظاءة Lizard دويبة من الزواحف ذوات الأربع تعرف في مصر بالسحلية، وفي سواحل الشام بالسقاية. (المترجم).

(٢١) Herbivorous: العاشبات: أي آكلات العشب. (المترجم)

والتريسراتوبس Triceratops هو أحد أصناف الدينوصور الجديرة بالذكر. وهو بين الزواحف نظير لفرس البحر ولكن له قرناً يشبه قرن الكركدن. وكان هناك أيضًا عدد من اللحمات (آكلات اللحم) الضخمة يفترس هذه العاشبات – والظاهر أن التيرانوصور من بين هؤلاء جميعًا بلغ أقصى ما وصلت إليه "البشاعة" بين الكائنات الحية قاطبة. وكانت بعض أنواع هذا الجنس تبلغ أربعين قدمًا من أنفها إلى نهاية ذيلها. ويبدو أنها كانت تحمل جسمها الهائل مُقعية على منوال "القنغر": أي على ذيلها ورجليها الخلفيتين. ولعلها كانت تشب بأجسامها إلى أعلى – بل إن بعض الثقات يعتقد أنها كانت تقفز في الهواء، فإن كانت الحال كذلك فلا بد أنها كانت ذات عضلات من طراز عجيب حتى ليكاد حديث الفيل القافز الذي تذكره الأساطير، يكون أقل من هذا استثارة للعجب. والأرجح من هذا كثيرًا أنها كانت تخوض وهي نصف مغمورة بالماء خلف حيوان "الصوريان Saurians" العاشب الذي يعيش في المستنقعات. وربما كانت تنقض على فرائسها في مضايق ومنبسطات من الماء تشبه متسعات نور فولك بإنجلترة أو الإفرجليدز Everglades بفلوريدا.

(٢)
التنين (الأفعوانات)

كان من بين التطورات الخاصة في طراز العظايا الزاحفة، طراز من مجموعة مخلوقات خفيفة ة ط امرة متسلقة، تكوَّن لها بين الإصبع الرابع وجانب البدن غشاء يشبه غشاء الخفاش. تستخدمه في الاذ زلاق م ن شجرة إلى أخرى على نفس المنوال الذي يتبعه السنجاب الطيار. كانت هذه العظايا الخفاشية هي التيروداكتيل Pterodactyls (ذات الأصابع الجناحية) وهي غالبًا ما توصف بأنها زواحف (طيّارة). وكثيرًا م ا يرس م العلماء صورًا لبعض مناظر العصر الميزوزوي تمثلها وهي محلّقة حائمة منقضّة في طيرانها، ولكن ل يس لعظام صدرها هراب أي حيزوم (Keel) كالذي لعظام صدر الطير لتتصل به عضلات تبلغ من القوة ح دًا يؤهلها لتحمل الطيران طويلاً. ولا بد أنها كانت تمرق مروق الخفاش. ولا جرم أن ق د ك ان بينه ا وب ين الأفعوان التقليدي شبه مضحك. وأنها كانت تفعل ما تفعله الطيور الشبيهة ب الوطواط ف ي آج ام العص ر الميزوزوي. وهي إن كانت شبيهة بالطيور لم تكن طيورًا ولا أسلافًا للطيور. فقد كان تركيب أجنحتها مخالفًا تمام المخالفة لتركيب أجنحة الطيور، ولم يزد على كونه يدًا ذات إصبع طويلة يصحبها غشاء؛ على حين أن جناح الطائر شبيه بذراع ينمو الريش على حافتها الخلفية، وأما ذات الأصابع الجناحية: (التيروداكتي ل) فل م يكن لها ريش حسبما وصل إلى علمنا حتى الآن. فالريش إنما هو في الجلد، مخصص جد التخصص، تطور إلى شكله الحالي مرة واحدة في تاريخ التطور الذي مرت به الحياة.

(٣)

الطيور الأولى

وكانت هناك مخلوقات أخرى شبيهة بالطير حقًا أقل من هذه انتشارًا في ذلك الزمان – وكانت الأجناس الأولى منها تطمر أيضًا وتتسلق – والأجناس المتأخرة تسف قرب الأرض وتطير. وكانت هذه في مبدأ أمرها – حسب كل مقاييس التصنيف – زواحف، ثم تحولت إلى طيور حقيقية عندما أصبحت فلوسها (قشورها) وهي زواحف، سعفًا كسعف النخل، طويلاً معقدًا بدلاً من أن تظل قشورًا، وتم ذلك أخيرًا بانتشار الريش انتشارًا كبيرًا وانقسامه. والريش هو الغلاف المميز الخاص بالطيور، وهو يكسب الطير قوة على مقاومة الحر والبرد أعظم كثيرًا مما يكسبه إياها أي غلاف خارجي آخر، اللهم إلا أثقل الفراء. ففي مرحلة مبكرة جدًا مكن هذا الغطاء الريشي الجديد، بل هذه الوسيلة الجديدة التي اتفقت للحياة بطريق الصدفة، أنواعًا كثيرة من الطير أن تغزو مجالاً لم تكن "ذات الأصابع الجناحية" معدة له. فاتجهت الطيور إلى صيد البحر – إن لم تكن بالفعل قد بدأت به قبل غيره – وانتشرت شمالاً وجنوبًا متجهة إلى القطبين متجاوزة حدود الحرارة التي لم تكن تتعداها الزواحف. ويلوح أن أقدم الطيور كانت لواحم غائصة وطيورًا مائية – ولا تزال توجد إلى يومنا هذا بين الطيور البحرية في بحار المنطقة القطبية الشمالية والجنوبية، طيور أشكالها هي أشد ما يكون الطير بدائيًا في صورته. ولا يزال علماء الحيوان يجدون في مناقير هذه الطيور المائية دون غيرها آثارًا باقية لأسنان زالت معالمها تمام الزوال من مناقير سائر الطيور.

ولم يكن لأقدم نوع معروف من الطير وهو الأركيوبتريك Archaeopteryx (ذوات الأجنحة القديمة) منقار بل كان له صف من الأسنان في فك يشبه فكاك الزواحف. وكان له ثلاثة براثن في مقدم طرف جناحه، وكان ذيله أيضًا غريب الشأن. فريش الذيل في كل الطيور الحديثة مركب في زُمك قصير متماسك عظمي.

أما "ذوات الأجنحة القديمة" فذيلها عظمى طويل له صف من الريش في كلا جانبيه.

ومحتمل جدًا أن غالبية هذه الطيور الأولى لم تطر البتة، وأنه كانت هناك طيور قبل أن يكون هنالك طيران. فقد كان من بين الطيور البالغة القدم طائر يسمى الهسبرورنيس Hesperornis (الطائر الغربي) [٢٢] ولم تكن له أجنحة البتة ولكن ما كاد الريش يتطور خفيفًا قويًا وسهل الانتشار حتى صار ظهور الجناح أمرًا متروكًا للزمن وحده.

---

(٢٢) سمي كذلك لأن حفرياته وجدت في صخور أمريكا.

(٤)
عصر محنة وفناء

إن هذه الحقبة الطويلة، حقبة الحياة الميزوزوية، أي هذا السفر الثاني من كتاب الحياة، إنما هي في الواقع قصة عجيبة لحياة الزواحف في تكاثرها وتطورها. ولكن بقي علينا أن نقص عليك أغرب أحداث القصة وأدعاها إلى العجب. فنحن نجد كل هذه الضروب من الزواحف التي ذكرناها لك مستمرة في ازدهارها لا ينازعها منازع حتى طبقات أشد الصخور الميزوزوية تأخرًا. فليس فيما تبقى لنا من عالمها أي أثر لعدو أو منافس. ثم ينقطع اطراد السجل، ولسنا ندري أمد الزمان الذي يمثله ذلك الانقطاع. وربما كانت هناك صفحات كثيرة ضائعة في هذا الوضع، وهي صفحات ربما كانت تمثل حركة انقلاب شديدة في ظروف الكرة الأرضية. حتى إذا وجدنا على الأرض بعد ذلك آثارًا كثيفة لنبات البر وحيوانه نجد ذلك الحشد العظيم من أنواع الزواحف قد ذهب. ولم يخلف معظمها من ورائه عقبًا – ذلك أنها "محيت محوًا" ففنيت ذوات الأصابع الجناحية تمام الفناء، ولم يبق من أشباه العظايا وعظايا البحر المندثرة فرد واحد حيًّا. وقد ذهبت "الموزاصور" ولم يبق من العظايا (السحالي) إلا اليسير الطفيف، أكبرها حجمًا الضباب Monitors التي تعيش في الهند الشرقية الهولندية. فأما جماهير العظايا المهولة (الدينوصور) وأنواعها المختلفة فإنها اختفت من الوجود ولم يبق على قيد الحياة إلى ما بعد ذلك من الزمان بكميات كبيرة غير التمساح والسلحلفاة واللجأة (سلحفاة الماء) ويحل محل كل هذه الأنماط البائدة في الصورة العالمية التي تزيح الستار عنها على أثر ذلك حفريات العصر الكاينوزوي – حيوانات أخرى ليست ذات لحمة وثيقة بزواحف العصر الميزوزوي، وليست منحدرة ولا ريب من الأنواع السائدة في ذلك العصر. ذلك أن نوعًا جديدًا من الحياة قد ساد العالم.

ولا مجال للريب في أن هذه النهاية التي أصابت الزواحف والتي تبدو فجائية في بابها إنما هي أعجب الانقلابات وأشدها استثارة للدهشة في تاريخ الأرض بأجمعه، قبل ظهور الجنس البشري. والراجح أن لها علاقة بانتهاء أمد طويل ذي حرارة دفيئة متعادلة التوزيع، وابتداء عصر جديد أشد وأقسى: الشتاء فيه أكثر برودة وأشد وقعًا، والصيف فيه أقصر أمدًا وأشد حرًا. لقد كانت الحياة في العصر الميزوزوي سواء في ذلك الحيوانية والنباتية منها – مكيفة وفقًا لظروف الدفء، فلا تستطيع أن تقاوم البرد إلا قليلاً. وأما الحياة الجديدة فكانت قادرة قبل كل شيء على الصبر على تغيرات عظيمة في درجات الحرارة.

ولم يقتصر الأمر على أن الزواحف بهيئتها التي كانت عليها، لم يكن لها فرو ولا ريش يحدث تعادلا في الظروف الحرارية، بل إن تركيب قلوبها لم يكن مكيفًا للاحتفاظ بدرجات حرارة عالية تقيها ما حولها من البرودة.

ومهما يكن شأن الأمور التي أدت إلى إبادة زواحف العصر الميزوزوي فالراجح أنها كانت تغيرًا عميق الأثر فعلاً، إذ حاق بالحياة في البحار محنة أحدثت مثل ذلك التبديل الانقلابي الشديد. وكان استهلال الزواحف وانتهاؤها على البر حدثًا يضارع استهلال العمونيات (Ammonites) [٢٣] ونهايتها وهي ضرب من المخلوقات يشبه سمك البحار القديمة [٢٤]. ويعرف معظم الناس جيد المعرفة المحار الحلزوني [٢٥] الضخم، الذي يبلغ قطره في بعض الأحيان قدمين أو أكثر، وهناك جمهور كبير وأضرب متنوعة من هذه "العمونيات" في كل سجلات هذا العصر الميزوزوي الصخرية، وتوجد مئات من أنواعها زادت تنوعًا وضخامة قرب نهاية العصر الميزوزوي. وعندما يعود السجل سيرته الأولى نجد هذه أيضًا قد اختفت، ولم تترك قط أي بقايا تدل عليها. أما الزواحف وما يتعلق بها، فربما مال بعض الناس إلى القول بأنها أبيدت، لأن الثدييات التي حلت محلها نافستها وكانت أصلح منها للبقاء. ولكن لا يمكن أن يصدق شيء من هذا القبيل على "العمونيات" إذ لم يحل محلها حتى اليوم أي كائن، بل إنها ذهبت وكفى. فقد أمكنتها ظروف مجهولة من أن تعيش في البحار الميزوزوية، ثم طرأ تغير مجهول، ربما كان هزة أصابت تعاقب الأيام والفصول المنتظم – فجعلت حياتها أمرًا مستحيلاً. ولم يبق إلى وقتنا هذا جنس واحد من أضرب "العمونيات" الكثيفة العدد، وإن بقي لدينا جنس واحد منعزل وثيق الصلة جدًا بها هو "النوتيلوس اللؤلؤي Pearly Nautilus". ويجدر بنا أن نلحظ أنه يوجد في مياه المحيطين الهندي والهادي الدفيئة.

فأما عن الثدييات وقيامها بمناضلة الزواحف الأقل صلاحية واستبعادها إياها، وهو كفاح يتحدث عنه الناس أحيانًا، فليس هناك أقل دليل على مثل هذا التنافس المباشر بينهما فإذا حكمنا بما نعرفه اليوم من بينات السجل الصخري، وجدنا أسبابًا أقوى من الأسباب السابقة تحملنا على الاعتقاد بأن الزواحف هلكت في بادئ الأمر بطريقة لا يمكن تفسيرها، وأنه حدث فيما يلي ذلك من الأزمان وبعد انقضاء وقت عسير جدًا مرت به كل الحياة على الأرض، أن تطورت الثدييات وانتشرت لتملأ العالم الخالي حينما أصبحت الظروف أكثر مواءمة للحياة.

ولسنا نعرف شيئًا عن أسباب هذا الانقلاب الذي أصاب أحوال الأرض. وقد قلنا في قسم سابق إنه لو كان قطب الأرض عموديًا على مستوى مدارها لما حدث تغير في الفصول ولنفرض الآن أنه في الجزء الأول من تاريخ العالم لم يكن خط الاستواء مائلاً أو كان قليل الميل جدًا نحو المدار، إذن لوجدت تلك الظروف المتعادلة التي يظهر أن حيوان العصر الميزوزوي ونباته يدلان عليها. فلو فرضنا بعد ذلك أن عاملاً مجهولاً زحزح محور الدوران إلى ما هو عليه الآن من الانحراف، فإن تعاقب الصيف والشتاء والحر والبرد يحدث على الفور في كل أنحاء الأرض وتضطر الحياة إلى تكييف نفسها تكييفًا جديدًا أو تفنى. وقد هلكت غالبية

---

[٢٣] ضرب من الأصداف المتحجرة سماها العلماء سابقًا قرن عمون لشبهها بقرن الإله جوبتر عمون. وهي على شكل أصداف ذات خلايا كثيرة من صنف الموشعات المعروفة بذات الأفواه الرجلية من الحيوانات الرخوة الكبيرة الحجم. (المترجم).

[٢٤] وهو المسمى Squids أي الحبار.

[٢٥] Coiled Shells المحار الحلزوني.

الزواحف وهلكت لا شك العمونيات وأنواع جمة من المخلوقات الأخرى ولم تعد إلى الحياة كثرتها ووفرتها إلا على مهل. ولكن لم يستطع إنسان بعد أن يأتينا بفكرة عن تلك القوة التي استطاعت أن تتحرف بعالمنا الدوار على هذا النحو. ولسنا ندري شيئًا عن الرجفات والهزات والكبوات التي أصابت المجموعة الشمسية في سالف الزمان. ولهذا ليس أمامنا إلا الحدس والتخمين. ولعل قذيفة هائلة معتمة قد جاءت من الفضاء الخارجي تهوي بين الكواكب انحرف بسببها كوكبنا عن موضعه – بل ربما اصطكت به ووجهت كل مجرى النشوء والارتقاء وجهة جديدة.

وإن قذائف صغيرة من هذا الطراز لا تنفك تصيبنا. وهي تأتي طائرة إلى جونا وتشتعل بسبب الحرارة الناشئة من سرعة اندفاعها في الهواء ثم تحترق. تلك هي النيازك أو الشهب، وتحترق الكثرة الغالبة من هذه الشهب وتذوى قبل أن تصل إلى الأرض؛ ولكن كثيرًا منها قد وصل ولا يزال يصل إلى الأرض. وبعض الموجود منها في متاحفنا يبلغ قطره أقدامًا عدة.

وربما جاء واحد منها كبير الحجم إلى حد أتاح له أن ينتج هذا التغيير الذي زعمناه، ولكن هذا خروج إلى جادة الظن والتخمين فلنعد إلى ما كنا فيه من حقائق.

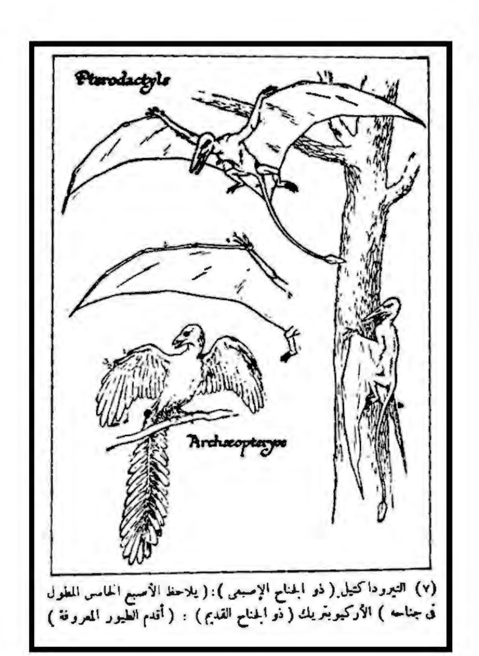
(٥)
أول ظهور الفراء والريش

تُرى هل كانت هناك ثديات في الحقبة الميزوزوية؟ لا شك أن قد كانت فيه ثدييات. بيد أنها كانت صغيرة مغمورة نادرة. وليس لدى علماء الإحاثة ما يقولونه في هذا الصدد إلا القليل الذي لا يغني. ويدأب الجيولوجيون في أناة وصبر وثبات على جمع الشواهد الجديدة والوصول إلى نتائج أكمل وأتم. فقد تتكشف طبقة جديدة في أي لحظة من اللحظات فتزيح الستر عن حفريات تلقي ضوءًا على هذا الموضوع وتجيب عن هذا السؤال. ولا مرية أن الثدييات، أو أسلاف الثدييات قد عاشت طوال العصر الميزوزوي بأكمله. وكان هناك في الفصل الأول الذي افتتح به سفر السجل الخاص بالعصر الميزوزوي تلك الزواحف ذات الهيئة الحيوانية Theriomorphous التي أشرنا إليها آنفًا. وقد عثر في العصر الميزوزوي المتأخر على عدد من عظام الفك الصغيرة، وهي ثديية تمامًا في صفاتها.

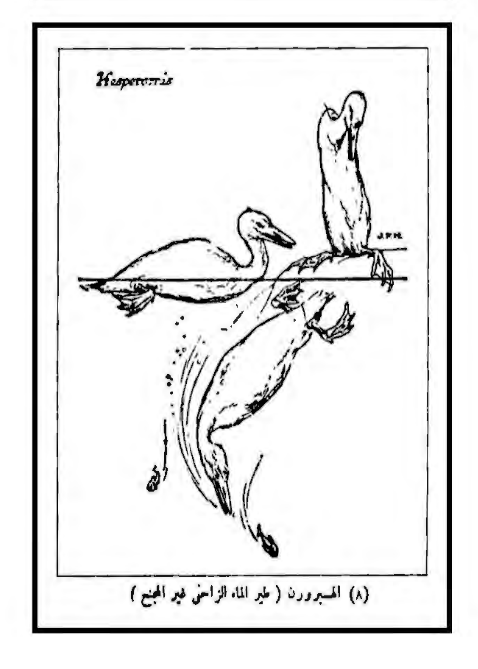
ولكن ليس هناك أي أثر، أو أي عظم، يدل على أنه قد عاشت في العصر الميزوزوي أية ثدييات عاصرت الدينوصور واستطاعت أن تواجهه. والظاهر أن الثدييات الميزوزوية أو الزواحف الشبيهة بالثدييات (إذ الواقع أننا لا نعرف على وجه التحقيق من أي الصنفين هي) كانت جميعًا حيوانات صغيرة حقيرة مغمورة، في حجم الفئران والجرذان، أقرب إلى عائلة حقيرة من الزواحف تدوسها الأقدام، منها إلى فصيلة خاصة مميزة. وربما كانت لا تزال تبيض وأنها كانت تنتج بالتدريج وبغاية البطء غلافها الشعري الخاص بها والمميز لها. وكانت تعيش بمنأة من متسعات المياه العظيمة، وربما حلَت لها النجاد الموحشة كما يفعل فأر الجبل Marmots في وقتنا هذا والراجح أنها كانت تعيش في تلك الأماكن لتكون بمنجاة من الدينوصور آكل اللحوم؛ وربما كان بعضها يسير على سيقانه الأربع وربما اعتمد البعض في مسيرة على ساقيه الخلفيتين وتسلق بمساعدة الأماميتين. ولم تتكون لها حفريات إلا قليلاً، ولهذا فإن الظروف لم تكشف لنا بعد عن حفرية لهيكل عظمي واحد بأكمله في كل السجل الطويل الذي تحويه الصخور الميزوزوية نستطيع أن نتثبت به من هذه الظنون.

وتكوّن لهذه الكائنات الصغيرة ذات الهيئة الحيوانية وهي أسلاف الثدييات شعر على جسدها والشعر إنما هو فلوس طويلة شديدة التخصص، مثله في هذا مثل الريش. وربما كان الشعر هو السبيل التي نجت بها الثدييات الأولى مما حاق بها. فقد كانت تقضي حياتها على هامش الوجود بعيدة عن المستنقعات والدفء، ولهذا أنشأت لنفسها وقاء خارجيًا، يعد في المحل الثاني من ناحية قوة احتفاظه بالدفء (المقدرة على مقاومة الحرارة) بعد الزغب والريش الذي تكتسي به طيور المنطقة القطبية الشمالية. وهكذا صمدت الثدييات كما صمدت الطيور خلال عصر الخطوب الذي انقضى بين العصر الميزوزوي والكاينوزوي والذي هلكت فيه غالبية الزواحف الحقيقية.

وكانت جميع الخصائص الهامة التي تميز بها كل ما اختفى من نبات البحر وحيوانه في نهاية العصر الميزوزوي، من طراز قد كيَّف نفسه لمناخ متعادل ولمناطق ضحلة المياه وذات مستنقعات. فأما ما خلفها في العصر الكاينوزوي فقد.



(٧) التيروداكتيل (ذو الجناح الإصبعي): (يلاحظ الأصبع الخامس المطول في جناحه) الأركيوبتريك (ذو الجناح القديم): (أقدم الطيور المعروفة)



(٨) الهسبرورن (طير الماء الزاحف غير المجنح)

أمده الشعر والريش "بقوة مقاومة لدرجات الحرارة المتفاوتة" لم تكـ ن لأيـ ـة زاحفـ ـة مـ ـن الزواحـ ـف، وبمساعدتها أصبح أمامها مجال أفسح كثيرًا مما وصل إليه أي حيوان من قبل.

لقد كان مجال الحياة في العصر الباليوزوي الأدنى مقصورًا على الحياة في المياه الدفيئة أو المسـ ـتنقعات الدفيئة والأرض المبتلة بالماء. فأما مجال الحياة في العصر الميزوزوي، كما نعرفه، فكان مقصـ ـورًا علـ ـى المياه وعلى مناطق الوديان الوطيئة نوعًا، وتحت ظروف حرارية متعادلة.

ولكن وجدت في كل من هذه العصور أنماط تمد مجال الحياة بغير إرادتها إلى ما وراء الحدود المألوفـ ـة، حتى إذا عمت العالم عصور ظروفها متطرفة كانت هذه الأنماط التي تعيش على الهامش هي التـ ـي بقيـ ـت وورثت العالم الذي خلا من السكان.

وربما كان هذا أعم إيضاح نستطيع أن ندلي به إليك عن قصة السجل الجيولوجي وهـ ـي قصـ ـة مجالهـ ـا مطرد الاتساع؛ تبدو فيه ثم تختفي فصائل وأجناس وأنواع من الحيوانات، ولكن المجال يستمر في الاتسـ ـاع، وهو لا ينفك يتسع. ولم يحدث قط أن كان للحياة مجال بمثل الاتساع العظيم الذي عليه مجالها اليوم. ذلك أن الحياة الآن ممثلة في الإنسان تعلو في الجو علوًا لم تصل إليه من قبل. ويمتد مجال الإنسان الجغرافـ ـي مـ ـن القطب إلى القطب، وهو ينزل تحت أطباق الماء بغواصاته ويسبر ظلمات أعمق البحار الباردة الخاليـ ـة مـ ـن الحياة، وهو يحتفر طبقات الصخور التي لم تمسسها من قبله يد وينفذ بفكره وعرفانه إلى مركـ ـز الأرض – وإلى أبعد النجوم. ومع ذلك ترانا لا نجد في كل ما خلفه لنا الزمن الميزوزوي أي أثر أكيد يدل على أسلافه. ولابد أن قد كان أسلافه مع أسلاف جميع الثدييات ذات الصلة بها مخلوقات نادرة مغمورة متباعدة إلى حد لم تكد معه أن تترك أي أثر بعدها بين البقايا الكثيرة التي بقيت عن الوحوش التي كانت تمرح طروبة في الهواء المشبع بالبخار، وتتمرغ على النبات الرطيب الطري في المستنقعات الميزوزوية – أو كانت تزحف أو تطمر أو ترفرف فوق سهول الأنهار العظيمة في ذلك الأوان.

الفصل الخامس

عصر الثدييات

١- عصر جديد من عصور الحياة.

٢- بدء ظهور التقاليد وتوارثها في العالم.

٣- عصر نمو المخ والعقل.

٤- عودة العسر إلى العالم ثانية.

(١)
عصر جديد من عصور الحياة

يبتدئ القسم العظيم الثالث من أقسام السجل الجيولوجي (وهو الكاينوزوي الذي رسمنا لك منذ ـه صـ ورًا بسيطة في مطلع الفصل الثاني) والعالم يشبه من الناحية الفيزيقية العالم الذي نعيش فيه اليوم شـ بهًا كبيـ رًا. والراجح أن اليوم كان في مبدأ الأمر لا يزال قصيرًا قصرًا محسوسًا. ولكن المناظر الطبيعية أصبحت جـ د عصرية في هيئتها. وكان المناخ بالطبع يتعرض عصرًا فعصـ رًا لتغيـ رات لا تنتهـ ي ولا ينقطـ ع منهـ ا الاضطراب. فمنذ أن ابتدأ العصر الكاينوزوي تقلبت على المناطق المعتدلة الحرارة الآن، أدوار من حـ رارة عظيمة وبرد شديد وجفاف متطرف. ولعل بعض التغيرات قد حدثت في سطح الأرض والمناظر البرية. فلئن داخلها شيء حقًا من التغيير، فلم يكن تغييرًا يباعد ما بينها وبين صورة هذا الجزء أو ذاك من العالم اليوم.

فبدلاً من الحزازيات والساكوانيات [٢٦] والأشجار المخروطة العجيبة أشجار العصـ ر الميـ زوزوي فـ إن أسماء النباتات التي تظهر في قوائم الحفريات تتضمن البتولا Birch – والزان Beech وشـ رابة الراعـ ي Holly والخزامي Tulip واللبلاب Ivy والصمغ الحلو Sweet Gum – وأشجار خبز الفاكهة. فأما النخيل Palms فكان عند ذاك في غاية الأهمية. ونشأت الزهور مع النحل والفراشات، وإذن فنحن قد وصـ لنا إلـ ى عصر الزهور. وقد ظهرت النباتات المزهرة واضحة جلية من زمن بعيد في صخور العصـ ر الميـ زوزوي المتأخر، أعني الصخور الطباشيرية الأمريكية. وأصبحت تزين كل حدب وصوب. ولكنها في الوقت الـ ذي نتحدث عنه كانت أبرز شيء في الطبيعة في كل مكان، وأخذ العشب يصبح حقيقة عظيمة من حقائق العـ الم. نعم قد بدت أنواع منه في العصر الميزوزوي المتأخر ولكنه لم تظهر سهول العشـ ب ومـ روج الخضـ ارى Turf إلا مع الزمن الكاينوزوي. فقد انتشرت في عالم كان من قبل أجرد صخريًا.

وافتتحت تلك المدة بفترة طويلة من الحرارة العالية ثم برد العالم. وقد صحب مستهل هذا الجزء الثالث من أجزاء السجل (أي هذا العصر الكاينوزوي) تغضن هائل في القشرة الأرضية؛ كما صحبه تكـ وين السلاسـ ل الجبلية. فجبال الألب والإنديز والهيملايا كلها سلاسل جبلية كاينوزوية. ولو أنّا توخينا الدقة لجعلنا في خلفيـ ة صورة العصر الكاينوزوي المبكر بركانًا ثائرًا أو ما يقارب. ولا بد أيضًا أنه كان عصر زلازل شديدة.

---

(٢٦) الساكوانيات شجر أمريكي من المخروطيات قد يبلغ ٣٠٠ قدم ارتفاعاً. المترجم).

ويقسم الجيولوجيون الحقب الكاينوزوي إلى عدة أقسام رئيسية – نرى من المناسب أن نذكرها لك ها هنا وأن نشير إلى مناخها. فيأتي عصر الإيوسين Eocene أولاً (ومعناه فجر الحياة الحديثة) وهو عصر حرارة غير عادية. وينقسم إلى الإيوسين القديم والحديث. ثم يأتي الأوليجوسين Oligocene (ومعناه ذو القليل فقط من الحياة الحديثة)، وفيه كان المناخ لا يزال متعادلاً. فأما عصر الميوسين Miocene (أي الذي فيه الأنواع الحية لا تزال أقلية) فهو العصر العظيم الذي تكونت فيه الجبال، والذي أخذت فيه الحرارة العامة في الهبوط. وفي البلايوسين Pliocene (أي الذي بقي من أنواعه أكثر مما باد)، كان المناخ في الأغلب على حالة الراهنة؛ ولكن بظهور البلايوستوسين Pleistocene (أي صاحب الغالبية العظمى من الأنواع الحية) ابتدأت حقبة طويلة ظروفها متطرفة، هي حقبة العصر الجليدي العظيم امتدت فيها الثلاجات (الأنهار الجليدية) من القطبين في اتجاه خط الاستواء، حتى تغطت انجلترا بالجليد إلى نهر التاميز.

ثم تلتها بعد ذلك مدة انتعاش جزئي استمرت إلى زماننا. وربما كنا نقترب الآن من دور أدفأ وربما أصبح عالمنا بعد نصف مليون من السنين أسطع شمسًا وأبهج للعيش مما هو الآن.

(٢)
بدء ظهور التقاليد وتوارثها في العالم

ظهرت في الغابات أضرب كثيرة وعدد وافر من الثدييات، وأخذت تتعقب العشب على سـ هول العصـ ر الأيوسيني. ويحسن بنا قبل أن نقدم على أي وصف لهذه الثدييات أن نبين لك – بوجه عام – ماهية الثديية:

فقد حدث تطور متزايد مطرد في الحيوانات الفقارية منذ ظهور هذه الحيوانات في العصـ ر الميـ زوزوي الأدنى حالما انسابت الأسماك أول مرة إلى البحر أسرابا. وما السمكة إلا حيوان فقاري يتنفس بخياشـ يمه ولا يستطيع أن يعيش إلا في الماء. وفي استطاعتنا وصف الحيوان البرمائي بأنه سمكة أضـ افت إلـ ى تنفسـ ها بخياشيمها قوة استنشاق الهواء بوساطة مثانة العوم عند بلوغها كمال نموها، وبأنها أنشأت أيضًا أطرافًا لهـ ا خمس أصابع تقابل ما في السمك من زعانف.

وأبو ذنيبة يظل ردحًا من الزمن سمكة تسكن الماء، ثم يصبح إذا نما مخلوقًا بريًا. فأما الزواحـ ف فهـ ي مرحلة أعلى من مراحل هذا الانفصال عن الماء؛ بل هي في الحقيقة برمائي زالت عنه صـ فته البرمائيـ ة، وهي تمر في مرحلة أبي ذنيبة الخاصة بها (أي في مرحلة السمكة) وهي في البيضة، ولا تستطيع البتـ ة أن تتنفس تحت الماء كما يفعل أبو ذنيبة.

وما الثدييات العصرية إلا نوع من الزواحف قد نُمّي له حول جسمه غلافًا واقيًا خاصًا قوي الأثـ ر هـ و الشعر. كما أنه يحتفظ ببيضه داخل بدنه حتى ينقف عنها وبذلك ينتج صغارًا حية فهو كائن "ولود" يلد صغاره أحياء ثم يُعنى بها حتى بعد ولادتها ويغذيها بأثدائه زمنًا قد يطول وقد يقصر. وبعض الزواحف – نذكر منها بعض الأفاعي على سبيل المثال – ولود لا تبيض، ولكن ليس منها ما يلازم صغاره كمـ ا تفعـ ل الثـ دييات الحقيقية. فكل من الطيور والثدييات التي نجت من جميع العوامل والقوى المهلكة التي قضت على زواحـ ف العصر الميزوزوي، تلك الطيور والثدييات التي عاشت وتسلطت على العالم الكاينوزوي، يجمعهـ ا الأمـ ران الآتيان:

أولاً : أن لها وقاء يحفظها من تقلبات الحرارة أقوى أثرًا مما تولد عن أي تغيير أنتجه نوع الزواحف.

ثانيًا : عناية خاصة منها ببيضها لوقايته من البرد، فالطير من ناحيته يقي بيضه بالحضـ انة، والثـ ديي بالاحتفاظ بالصغير في بطنه ويميله إلى رعاية الصغار مدة معينة بعد النقف أو الميلاد – وإذا وازنا الزواحف العادية بالثدييات قلنا إن الأولى عديمة العناية بصغارها.

وواضح أن الشعر كان أقدم مميز للثدييات يفرق بينها وبين سائر الزواحف. ومن المشكوك فيه أن زواحف الثريودونت Theriodont التي أنبتت الشعر في العصر الميزوزوي الباكر كانت ولودًا Viviparous ولا يزال ثدييان يعيشان إلى يومنا هذا لا يقتصران على عدم إرضاع صغارهما بل يبيضان – وهما: الأورنيثيورهينخوس Ornithorhynchus والإحيدنا Echidna، وعاش في العصر الأيوسيني عدد من أشكال مقاربة لهذين. وهذان المخلوقان، وإن كانا لا يرضعان صغارهما، يفرزان سائلاً مغذيًا من غدد متناثرة على الجلد في جانب البطن. بيد أن الغدد ليست مجموعة إحداها إلى الأخرى لتكون أثداء لها حلمات للرضاعة – كما هي الحال في الثدييات الأخرى – بل تبضّ المادة عندما تكون الأم راقدة على ظهرها فيرتفع الصغار فوق جلدها المندى؛ وإذن فهي البقية الباقية مما كان – على الأرجح – مخلوقات أوفر عددًا وأشد تنوعًا، مخلوقات بياضة ذات شعر، وهي زواحف وطامرات ومتسلقات وعداءات متشعرة، تضم الأسلاف التي كانت في العصر الميزوزوي والتي جاءت منها كل الثدييات الموجودة الآن، مرتفعة حتى تشمل الإنسان. ومع كل هذا فربما عثرنا في أي وقت داخل إحدى طبقات الصخور التي تبعد اليوم عن منال أيدينا، على أمثلة من هذه "الحلقات المفقودة".

وإذا شئنا أن نصوغ الحقائق الأساسية المتعلقة بالإنتاج في الثدييات بعبارة أخرى، قلنا إن الثديي حيوان عائلي. وتتضمن العادة العائلية إمكان حدوث نوع جديد من استمرار الخبرة في العالم. وعليك الآن أن توازن بين إحدى السحالي (العظايا) في حياتها التامة الانقطاع عما سواها، وبين حياة أي نوع من الثديي ولو كان في غاية الانحطاط. فأما النوع الأول فليس لديه أي استمرار عقلي متصل بأي شيء آخر عدا ذاته، فهو عالم من الخبرة قائم بذاته مستقل بنفسه، يعيش لخدمة أغراضه وغاياته، على حين "يلتقط" الثديي من أمه ما "يسلمه" لنسله.

وجميع الثدييات فيما عدا الجنسين اللذين ذكرناهما آنفا وصلت قبل العصر الأيوسيني الأدنى إلى هذه المرحلة التي تعتمد فيها الصغار على غيرها وتقلد ما سواها قبل البلوغ. وكانت كلها مع شيء من التفاوت بينها مقلدة لغيرها في شبابها، ذات استعداد لقدر طفيف معيّن من التعليم، وهي جميعها قد نالت من أمها قدرًا معينًا من الرعاية والمثل الذي يحتذى، بل نالت شيئًا من التوجيه . نالتها باعتبارها جزءًا من نموها. وهذا القول يصدق على الضبع والكركدن صدقه على الكلب والإنسان. والتفاوت في قابلية التعليم جد كبير، ولكن أحدًا لا ينكر حقيقتي حماية الصغار وقابليتهم للتعليم في طور الحداثة.

وقد كانت هذه الثدييات الجديدة بوصف كونها نوعًا من الحيوانات الفقارية وبما لها من ميل إلى حماية الصغار حتمته صفتها الولود، وهذه الطيور بما لها من ميل إلى الحضانة وحماية الصغار، تُدخل في مقتبل العصر الكاينوزوي شيئًا جديدًا في قصة الحياة الآخذة في الانتشار هو: الميل إلى الاجتماع (الترابط الاجتماعي)، وهو الإضافة التي أضيفت إلى تلك الغريزة الصلبة غير المرنة غريزة "التقاليد" والجهاز العصبي اللازم لتلقي التقاليد.

وبعد فإن جميع هذه المستحدثات التي تضم إلى تاريخ الحياة، تبدأ بداية وضيعة جدًا. إن الأوعية الدموي ة المزودة بها مثانة العوم في سمك الطين الذين كان يعيش في أنهار السيول في العصر البـ اليوزوي الأدن ى، والتي أمكنته من أن يحتمل فصل الجفاف، كانت تبدو حينذاك ولا شك لزائر كوكبنا الذي لا جسد له (وه و شعلة العقل التي تصورناها في فصل سابق) من الأشياء الثانوية قليلة الأهمية جدًا، في ذلـ ك العـ الم القـ ديم الزاخر بالقروش العظيمة والأسماك المدرعة، وعقارب البحر والحواجز المرجانيـ ة والأعشـ اب البحريـ ة. ولكنها هي التي فتحت الطريق الضيق الذي صعد منه حيوان البر الفقاري إلى مراقي التسلط والغلبة. وربما بدت له سمكة الطين حينذاك لاجئًا مسكينًا يفر من عدوان الأحياء التي يعج بها البحر. ولكن ما كادت الرئـ ة تظهر في عالم الأحياء حتى أخذ كل نوع من أنواع ذوات الرئات يحسِّن رئته.

وكذلك شأن ما حدث في العصر الباليوزوي الأعلى، فقد يبدو شروع بعض البرمائيات في فقدان صـ فاتها البرمائية بتأخيرها في نقف بيضها، مجرد استجابة للخطوب الداهمة التي كانت تهدد صغيرها أبا ذنيبة. ومع ذلك فإن هذا هو الذي مهد لجمهور الزواحف الظافرة في العصر الميزوزوي غزو الأرض الجافـ ة إذ فـ تح اتجاهًا جديدًا نحو حياة برية حرة قوية، سارت فيه كل الحيوانات الزاحفة.

وهذا التدريب الذي يمارسه الولود الحادب على أولاده والذي مرت فيه أسلاف الثـ دييات أثنـ اء عصـ ر المهانة والمصاعب التي مرت بها، قد أثار في العالم استمرارًا جديدًا للوعي لم يبدأ الإنسان نفسـ ه أن يقـ در قيمته إلا في العصر الحاضر.

(٣)
عصر نمو المخ والعقل

يتمخض العصر الأيوسيني عن عدد من أنماط الثدييات. يتفرع بعضها أنواعها في اتجاه ما وبعضها في اتجاه آخر، بعضها يكمل نفسه ليصير من العاشبات ذوات الأربع. وبعضها يقفز ويتسلق الأشجار. ويتجه البعض الآخر عائدًا إلى الماء ليسبح فيه. ولكن الأنماط جميعها تستثمر وتنمي عن غير وعي منها: مخها، وهو آلة القوة الجديدة، قوة التحصيل وقابلية التعليم. فمن الممكن أن يسمى إذن عصر الزهور هذا، وعصر الطيور والثدييات، أي الحقب الكاينوزوي، باسم عصر العقل النامي. وكذلك توجد في الصخور الأيوسينية بعض أسلاف أولى صغيرة للحصان (Eohippus) وجمال صغيرة وخنازير وتابيرات أولى (Early Tapirs) وقنافذ أولى وقردة وهبَّارات (ليمور) وكيسيات (Opossums) ولحمات [٢٧]. كل هذه كانت إلى حد ما أجدادًا للأشكال الحية، وكان لها كلها أمخاخ أصغر كثيرًا من أمخاخ ما يمثلها من الأحياء. فهناك مثلاً حيوان قديم قريب الشبه بالكركدن (الذي يعيش معنا الآن) اسمه التيتانوثريوم Titanotherium حجم مخه لا يزيد على عشر حجم مخ الكركدن الحالي. وليس الكركدن بأي حال من الأحوال هو المثال الكامل للدارس اليقظ المطيع. ومع ذلك فإن قوة ملاحظته وقابليته للتعلم تبلغ عشرة أضعاف ما كان لسلفه، وتنطبق هذه الحقيقة على كل الفصائل والعائلات التي تعيش حتى يومنا هذا، فقد كانت جميع الحيوانات الكاينوزوية بلا استثناء تقوم بهذا الأمر تحت إلحاح ضرورة تشملها جميعًا. كانت كلها تنمي العقل. وكان هذا تقدمًا متماشيًا بعضه مع بعض في جميع الأحياء سواء، ففي نفس الفصيلة أو العائلة التي تعيش اليوم تجد المخ في العادة يعادل من خمسة إلى عشرة أضعاف ما كان لدى سلفها الأيوسيني.

وقد أظهرت لنا المدة الأيوسينية مجموعة كاملة من الوحوش العاشبة ليس لها ممثل يعيش الآن، ومثالها الوينتاثير Uintatheres والتيتانوثير Titanatheres. وقد طردتها أشكال عاشبة Graminivorous أشد تخصصًا حين كان العشب ينتشر في العالم. ثم جاءت أسراب كبيرة من الكلاب البدائية تتعقب هذه الوحوش، كان بعضها يعادل الدب في حجمه، وجاءت القطاط الأولى، أخص منها بالذكر السميلودون Smitodon (وهي مخلوق صغير تبدو عليه سمة الشراسة، له أنياب تشبه السكاكين) والببر Tiger الأول ذو السن السيفية الذي قدر له أن يتطور فيكون أشد بأساء أعظم منه وتظهر لنا رواسب العصر الميوسيني في أمريكا أنواعًا كثيرة من الجمال: منها جمال الزرافة ذات الرقاب الطويلة، والجمال الغزلانية واللامات والجمال الحقيقية. والظاهر أن أمريكا الشمالية كانت في معظم الزمن الكاينوزوي على اتصال سهل بآسيا، فلما أن فصلت بين إقليمي القارتين العظيمتين أخيرًا ثلاجات العصر الجليدي الأعظم، ثم مضيق بيرنج Bering فيما بعد، بقيت الجمال الحقيقية في العالم القديم كما بقيت اللاما في العالم الجديد.

وتظهر في العصر الأيوسيني أول أسلاف للفيلة في شمال أفريقيا على صورة مخلوقات ذات فنطيسة طويلة Snout؛ فأما خرطوم الفيل المميز له فإنه لم يبزغ في العالم إلا في العصر الميوسيني وأخذ يطول على كر الدهور.

---

(٢٧) لحمات (Carnivorax) بفتح اللام وكسر الحاء أي آكلة لحم. [المترجم].

(٤)

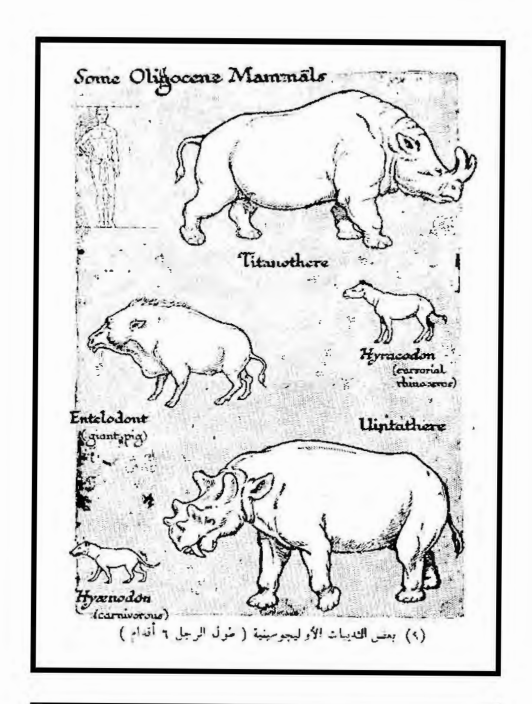
عودة العسر إلى العالم ثانية

دأب العالم الدوار على حركته حول الشمس خلال حياة ملايين كثيرة من الأجيال الحيوانية، ثم أخذ مداره – ولعله كان مستدير الشكل تقريبًا إبان العصر الأيوسيني المبكر المعتدل المناخ – ينجذب في بطء بفعل جاذبية الكواكب الخارجية الدوارة، ويتخذ شكلاً أقرب إلى الإهليلجي. وأخذ محور دورانه، وكان يميل إلى مستوى مداره كما تميل السفينة في مسيرها في البحر نحو الماء، يزداد انحرافه قليلاً قليلاً بدرجات غير محسوسة. وكان أقصى حد الصيف فيه ينحرف في كل عام، مبتعدًا قليلاً عن الحضيض حول مساره.

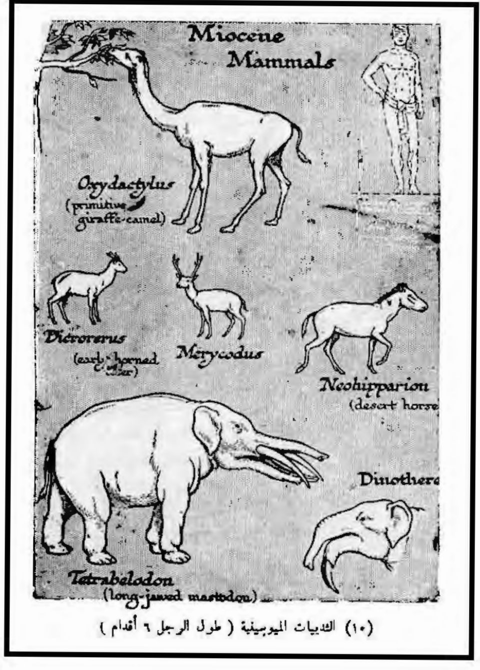
لقد كانت هذه تغيرات تعد من التوافه لو حدثت على مدى بضعة ملايين من السنين في كرة قطرها بوصة تدور على بعد ٣٢٢ ياردة من شمس متأججة قطرها ٩ أقدام. فهي تغيرات لو تسنى لها على كوكب نبتيون فلكي سرمدي خالد يلحظ الأرض من عصر إلى عصر لخفيت عليه ولم يشعر بها. ولكنها كانت أحداثًا جسامًا عميقة الأثر لو نظر إليها من ناحية حياة الثدييات المتكاثفة في العصر الميوسيني. إذ طفقت الأشتية تصبح في جملتها عصرًا فعصرًا أكثر بردًا وأشد عسرًا وأطول أمدًا، بالنسبة للأصياف. وكانت الأصياف تتقاصر من عصر إلى عصر. وكان ثلج الشتاء يتلكأ في الربيع في كل قرن عن سابقه بمعدل ثابت. وكانت الثلاجات في الجبال الشمالية تتقدم بوصة في هذه السنة وتتراجع نصف بوصة السنة التالية ثم تتقدم مرة أخرى بضع بوصات.

وينبئنا سجل الصخور عن ذلك البرد المتزايد، ولكن عصر الميوسين كان معتدل الحرارة. وكان كثير من الحيوانات والنباتات المحبة للدفء قد انصرف عن خطوط العرض المعتدل. ثم أخذ الجليد يتقدم ويتوغل في المناطق المعتدلة من الأرض بضعة أقدام أو بضع بوصات تقدمًا أقل استمرارًا وانتظامًا بدرجة ما.

وتظهر على المسرح في العصر البلايستوسيني (Pleistocene) أنواع حيوان Fauna المنطقة القطبية من أمثال ثور المسك والماموث الصوفي والكركدن الصوفي.



(٩) بعض الثدييات الأوليجوسينية (طول الرجل ٦ أقدام)



(١٠) الثدييات الميوسينية (طول الرجل ٦ أقدام)

واللمنج Lemming وأخذ الجليد يتقدم فوق أمريكا الشمالية وفوق أوربا وآسيا على السواء. واستمر تقدمه مدى آلاف من السنين، ثم أخذ يتأخر آلاف سنين أخرى ليتقدم بعدها من جديد. وظلت أوربا حتى سواحل بحر البلطيق وبريطانيا حتى نهر التاميز، وأمريكا الشمالية حتى منطقة نيو إنجلند جنوبًا – وفي الوسط حتى منطقة نهر الأوهيو، مغمورة بالأنهار الجليدية أجيالاً عدة. وسُحبت من المحيط مقادير هائلة من الماء فاعتقلت في هذه الأغطية الثلجية المدهشة، حتى لقد أحدثت في المستويات النسبية بين البحر والبر تغييرًا عم العالم. وتعرت من الماء مساحات فسيحة من الأرض عادت اليوم مرة ثانية فأمست في قعر المحيط.

ولا يزال العالم في أيامنا هذه يلقي عن نفسه، رويدًا، بعض أثقال آخر موجة من سلسلة موجات البرد. وليس معنى ذلك أنه آخذ في الدفء بانتظام، وإنما حدثت فيه ولا تزال تحدث تقلبات. وشاهد ذلك أنه توجد إلى الآن مثلاً بقايا لأشجار البلوط التي نمت في المستنقعات قبل ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين في اسكتلندا، على درجات عرضية لا تستطيع أن تعيش فيها في الوقت الحاضر حتى أشجار البلوط الواقفة عن النمو وقد يستمر هذا التغيير غير المحقق نحو الدفء، أو لا يستمر. فهذا ما لا نعرفه.

وأول مرة نجد فيها حيوانًا نميز فيه شكلاً يشابه شكل الإنسان، تجيء في حدثان ما كان يعتري الأرض من ازدياد ونقصان الصقيع والثلج، في العصر الجليدي: ذلك أن عصر الثدييات قد بلغ أوجه بظهور الجليد والشدائد والإنسان.

الكتاب الثاني

كيف تكون الإنسان

الفصل السادس

القردة وأشباه الإنسان والإنسان

١- أصل الإنسان.

٢- الآثار الأولى للمخلوقات الشبيهة بالإنسان.

٣- شبه الإنسان الهيدل برجي.

٤- شبه الإنسان البلتدوني.

(١)
أصل الإنسان

كان موضوع أصل الإنسان وعلاقته بالحيوانات الأخرى مثار جدل ونقاش شديد طيلة السنوات المائة الأخيرة. والرأي السائد بين العلماء هو أن الإنسان انحدر من أسلاف أدنى منه مرتبة، شأنه في هذا شأن سائر الثدييات، وأنه والقردة الكبيرة ومنها الشمبانزي والأورانج أوتانج Orang–Outang والغوريلا كان لها جميعًا يومًا ما جد مشترك وأن هذا الجد قد تطور من أشكال أدنى منه أيضًا، أي من نمط من أنماط الثدييات القديمة انحدر هو أيضاً من أزاحفة ذات هيئة حيوانية، وهذه نفسها انحدرت أيضًا من سلسلة البرمائيات، وهذه بدورها من الأسماك البدائية. وترتيب قائمة النسب هذه قد بُني على مقارنة مشرَّح [٢٨] الإنسان بمشرح غيره من الحيوانات الفقارية وتثبته كذلك الأدوار العجيبة التي يمر فيها جسمه وهو جنين قبل ميلاده. فإنه يبتدئ كأنما قد هيئ ليكون سمكة مزودًا بشقوق طولية للخياشيم وقلب وكلية يشبهان ما لدى السمك ثم يمر في أدوار تذكرك بالبرمائيات وبالزواحف ثم يعيد أشكال تركيب الثدييات الدنيا. ويكون له ذنب يبقى ردحًا من الزمان. وهو لا يبدأ بأن يكون إنسانًا حتى في إبان تطوره الفردي، بل لا يبرح يكافح سعيًا إلى الإنسانية، وهو يذكرنا بالقردة في عشرات من أشياء صغيرة لا نفع له من ورائها، نراها مثلاً في شعره وفي اتجاه الشعر على أطرافه.

ولقد صيغ الإنسان فصار إلى هذه الحالة التي نراه عليها اليوم من القوى والمواهب والآمال خلال ملايين وملايين من أفراده مرت في الحياة تباعًا. فانتقل بذلك من حال كان فيها مجرد هزة وحركة في الماء إلى ما ترى من حال. وها هو ذا يواجه بعزم ووعي متزايدين مصائر جنسه البشري التي يخطئها الحصر. وكاتب هذا الكتاب من أشياع هذه الفكرة عن أصل الإنسان فهي في نظره فكرة قوية الأساس متينة البنيان. ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن موضوع تسلسل الإنسان الحيواني لا يزال ينكره بغاية الشدة كثير من الرجال المقتدرين بل كثير من رجال العلم. فحكومة ولاية تنسي Tennessee مثلاً قد بلغ من اقتناعها بنقيض هذه النظرية أن منعت تدريسها في جميع مدارسها وكلياتها. ويبدو أن الغرض من ذلك هو الرغبة في عدم الإشارة إلى هذه الفضيحة العائلية!!؟... وفي أثناء المحاكمة التي حدثت في ديتون عقب ذلك الحظر وضعت حجج المستر وليم جاننج بريان (الذي تابع في الرأي نموذجه العظيم مستر جيفرسون) في الميزان إزاء العالم البيولوجي بأكمله!!

---

(٢٨) المشرَّح هو التركيب التشريحي للكائن الحي.

وقد يدعي بعضهم أحياناً أن هيئات دينية مختلفة وخاصة الكنيسة الكاثوليكية تعترض على هذه الفكرة التي تنسب الإنسان إلى التسلسل عن أسلاف حيوانية، ولكن يبدو أن هذا غير صحيح. فإن الكنيسة الكاثوليكية ليست أكثر إيماناً بأن الإنسان قد خلق خلقاً خاصاً، منها بأن الأرض مسطحة، أو أنها مركز العالم الذي تدور حوله الشمس. ولقد تصور الناس زمناً ما أن هذه تعاليم الكنيسة، ولكن هذا كله قد أزيح عنه الغموض إزاحة تامة. ويخالف كثير من الأفراد المؤمنين هذا الرأي العلمي لأنهم يحسون أنه أكرم لهم أن يعتقدوا بأن الإنسان سقط وانحط من أن يعتقدوا بأنه أرتفع، ولكن اعتراضهم لا يقيد كنيستهم بوجه عام. وواجب المؤرخ أن يعالج الأمر لا من حيث لياقته بل من حيث حقيقته. والواقع أنه لا توجد اليوم أية هيئة مسيحية كبيرة العدد تصر على قبول نص الكتاب المقدس قبولاً حرفيًا دقيقاً، فمن الخير أن تمنح هذه النصوص من الحريات ما يمنحه الشعر ومجازاته ودواعيه من سعة التصرف وانطلاق السراح. وما دام علماء الأحياء لا يصرّون على وجود أصل حيواني لروح الإنسان فلن يكون هناك في الحقيقة أي نزاع بين العلم والدين في هذا الصدد. ومع ذلك فليس من العدل أن نمضي إلى ذكر تسلسل الإنسان دون أن نشعر إلى هذه الفكرة الأولية. ذلك أن الكاتب يقول هنا ما يعتقد أنه الحق وليس من شأنه أن يذكر حجج معارضيه التي لا تبدو في نظره صحيحة سليمة والتي لا يستطيع هو أن ينصفها.

وإنه لمن المستطاع في كثير من الثدييات الكبيرة أن نتابع تسلسل الأنواع الحية منها بحيث نماشيها خطوة فخطوة حتى نصل بها إلى أسلافها الأيوسينية. تلك هي الحال فيما يختص بالفيلة والجمال والخيول مثلاً. فالسلسلة في هذه الأمثلة بالغة غاية الاكتمال. ذلك أنه توجد هناك أحشاد من النماذج تحوي مظاهر التدرج الوثيق، ولكن لا بد لنا من التسليم بأن البقايا الباقية في الحفريات لأسلاف الإنسان نادرة ناقصة، وأن هناك ثغرات واسعة تنتظر من يسد خلّتها. وفي الأيام التي لفت فيها العالم الطبيعي الإنجليزي العظيم تشارلز داروين Charles Darwin أنظار العالم إلى هذه المسألة بكتابه "تسلسل الإنسان [٢٩] " كانت البقايا الإنسانية القديمة التي ترجع إلى ما قبل التاريخ نادرة لا غناء فيها. فقد بدا أن بين الإنسان والقرد العظيم هوة هائلة وأصبحت "الحلقة المفقودة" كلمة تتداولها الألسن في المناقشات العامة. ولم تطل أيدينا آثارًا تدل على مخلوقات يبدو عليها أنها وسط بين طرفي تلك الثغرة العظيمة إلا في عصر حديث جدًا. وأدعى كل هذه الآثار إلى الدهشة هي جمجمة تاونج Taung التي اكتشفت ١٩٢٤ والتي وصفها فيما بعد العلامة دارت Dart اليوهانسبرجي، وسلسلة الجماجم العجيبة التي لمخلوق شبه إنساني (سينانثروب Sinanthropus) والتي وجدت في بيكين في زمن أحدث من هذا. وكلا هاتين اللقيتين تبين مخلوقات كانت من وجوه كثيرة في منتصف الطريق بين الإنسان والقرد. فأسنانها وفراغ مخها وكيفية حملها رأسها وانحدار جبهتها أقرب إلى الهيئة الإنسانية من أي قرد كان، وأقرب إلى هيئة القرود من أي جنس إنساني يحفظه لنا السجل.

---

(٢٩) The Descent of Man

وكثيرًا ما يدعي بعضهم بأن داروين يقول إن الإنسان ينحدر من بعض القرود الشبيهة بالإنسان من أمثال الشمبانزي والأورانج أوتانج أو الغوريلا. وهو ادعاء فيه من الصدق بقدر ما في القول إن مؤلف هذا الكتاب ينحدر عن أحد أفراد الهوتيتوت أو الإسكيمو الذي يعادله سنًا أو يصغره. ويقول البعض الآخر وق د تنبه وا لهذا الاعتراض إن الإنسان ينحدر من السلف المشترك الذي يجمعه ه و والشـ مبانزي والأوراد ج أوت انج والغوريلا. بل إن بعض علماء الإنسان Anthropologists يقولون بنظرية مؤداها أن بني الإنسان يعودون إلى أصلين أو ثلاثة أصول، فالزنوج ينحدرون من سلف يشبه الغوريلا بينما ينحدر الصينيون مـ ن أوراد ج أوتانج أوتـي، على حين يجيء الجنس الأبيض من سلف يشبه الشمبانزي وهكذا. وبناء على هـ ذه النظري ـة الألمعية يكون الشمبانزي هو الأخ الدنيء للأوروبي وله الحق والأفضلية في أن يطع ـم عل ـى مائدت ـه وأن يصاهر خير الأسر (النوردية) أكثر مما للزنجي أو الصيني اللذين هما أبعد منه صلة!!! تلك أفك ـار عقيم ـة مستحيلة لا يجيزها العقل السليم وما نذكرها هنا إلا لننبذها. وقد كان المظنون من قبل أن سلف الإنسان كان على الأرجح حيوانًا شجريًا، ولكن يلوح أن الرأي الساري بين من يؤهلهم علمهم لإبداء الرأي في هذا الشأن، هو أن الإنسان كان قردًا أرضيًا وأن القردة الحالية تطورت فصارت حيوانات شجرية عن أصلها الذي كـ ان أقل تسلقًا للأشجار.

وإذا ما وضعنا هيكل الإنسان العظمي إلى جوار هيكل الغوريلا، فإنا نجد التشابه العام بينهما بالغً ـا مـ ن الدقة مبلغًا يسهل علينا معه أن نستنتج على الفور أن الأول قد انحدر من نمط يشبه الثاني بعملية نمو في المخ وتهذيب عام. ولكن متى فحص الإنسان عن بعض الفروق فحصًا دقيقًا، اتسعت أمامه شقة الاختلاف. ولق د زادت العناية في المدة الأخيرة زيادة خاصة بوطء القدم. فالإنسان يمشي على أصابع قدميه وعقبيه. فإبه ـام قدمه هو رافعته التي يعتمد عليها في عملية المشي كما يتبين القارئ ذلك بنفسه إذا فحص عن بصمات أقدامه على بلاط الحمام ولحظ مواقع الضغط عندما تخف وتضعف بصمات القدم. فإبهام قدمه هـ و أمير ر أصـ ابع قدميه.

وإذا نظرنا إلى كافة القرود الكبيرة والصغيرة رأينا أن الفئة الوحيدة التي تطور فيها الإبهام على أية شاكلة مماثلة لطريقة الإنسان هي بعض أصناف الهبَّار Lemurs. والرُبَّاح Baboon [٣٠] يمشي على قدم مسطحة وعلى جميع أصابعه ويجعل إصبعه الوسطى أهم رافعة في رجله على نفس طريقة الدببة. فأما القردة الكبرى الثلاثة فإنها بأجمعها تمشي على الجانب الوحشي للقدم على هيئة تخالف مشيئة الإنسان كل المخالفة.

ولما كانت القردة الكبرى من ساكنات الغابات فمشيها وليد الصدفة؛ أجـ ل ليسـ ت لهـ ا خفـ ة السـ عدان Monkey بين الأشجار. بيد أنها بحكم عادتها كثيرًا ما تكون بعيدة عـ ن الأرض فـ وق الشـ جر. وأثقلهـ ا وألصقها بالأرض هي الغوريلا. فهي عندما تكون على الأرض، كثيرًا ما تستعمل أطرافها الأمامية وتجـ ري على عُقَل أصابعها على هيئة أشد ما تكون بعدًا عن الهيئة الإنسانية. وأذرعها أطول نسبيًا من أذرع الإنسان

---

(٣٠) ويسمى أيضًا القرد الكلبي لأن رأسه كرأس الكلب، وهو قرد أفريقي مستطيل الوجه كبير الشفتين قصـ ير الـ ذنب أنيابـ ه كأنياب الكلب. (المترجم)

بدرجة كبيرة، ولها طرائق في التسلق مميزة لها. إذ هي تتأرجح بأذرعها أكثر مما تتأرجح السعدان ولا تقذف نفسها بقفزة من القدمين شأن السعادين إذ ليس لها ذيول تعينها على هذا. بل لها طراز للتسلق قد تطور تطورًا خاصًا. ولكن الإنسان يسير على هيئة حسنة ويجري في سرعة عظيمة توحي إليك بوجود نسب مديد له على الأرض. هذا إلى أنه لا يستطيع أن يحسن التسلق اليوم بل يتسلق وهو على جانب الحذر والتردد.

ويخيل إلينا أن البشير بمجيء الإنسان وأشباه الإنسان وهو الذي سنصفه لك الآن، كان في أوائل الحقب الكاينوزوي وهو الزمن الثالث أو زمن الحياة الجديدة – قرد عداء يعيش معظم عيشه على الأرض ويختفي بين الصخور أكثر مما يتوارى بين الأشجار شأن سعدان جبل طارق. وكانت مقدرته على تسلق الأشجار لا بأس بها كما كان يستطيع أن يقبض الأشياء بين إبهام قدمه وبين إصبعها الثاني (كما يفعل اليابانيون اليوم)؛ ولكنه كان قد اتخذ طريق النزول إلى الأرض ثانية جريًا على ما سار عليه سلف شجري له أقدم منه عاش في الزمن الميزوزوي (وهو الزمن الثاني أو زمن الحياة الوسطى).

ويلاحظ فوق ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يسبح بطبيعته بل لا بد له أن يتعلم السباحة تعلمًا، وكأني بهذا معبرًا ومشيرًا إلى تباعد طال أمده بينه وبين الأنهار والبحيرات والبحار. وواضح جلي أنه قلما مات هذا المخلوق في الماء تحت ملابسات تجعله يخلف عظامًا تتحول فيما بعد إلى حفريات.

ويجب علينا أن نتذكر فيما نتذكر من النقائص الكثيرة الأخرى التي تنسب إلى السجل الجيولوجي، أنه يحتوي بالضرورة على أدلة جمة تدل على مخلوقات الماء أو على مخلوقات المستنقعات أو على مخلوقات سهلة الغرق كثيرته دون غيرها من المخلوقات. والراجح أن الأسباب التي تجعل أي أثر من أسلاف الثدييات نادرًا صعب المرام نسبيًا في الصخور الميزوزوية، هي نفس الأسباب التي جعلت آثار من عسى أن يكونوا أسلافًا للإنسان نادرة يعسر العثور عليها نسبيًا في الصخور الكاينوزوية. ويكاد يكون ما لدينا من المعلومات عن الإنسان الأول مأخوذًا بأسره من بعض كهوف لجأ إليها وترك فيها من بعده أثرًا. وكانوا قبل ذلك يعيشون ويموتون في العراء أو في الغابات حتى حل العصر البلايستوسيني المتطرف المناخ فبليت أجسامهم أو تحللت تحللاً تامًا.

وفضلاً عن ذلك، فإن أسلاف الإنسان لم تكن في أي يوم من أيامها جنسًا موفور العدد جدًا شأنها في ذلك شأن القردة الكبيرة اليوم. ولم يكونوا مثلاً كالخيول البرية أو الغزلان التي تستطيع أن تعيش رعائل وأسرابًا، ويمثلها مئات وآلاف من الأفراد في كل جيل، إن لم يمثلها الملايين. ولابد أن كثيرًا من هذه الكائنات قد ابتلعه الماء أو اجتنبته فيه التماسيح أو قتلت في الوحل قرب مستقاها، وبهذه الطريقة تتحول في سهولة إلى حفريات. وعلى نقيض ذلك تسير القردة الكبرى فرادى أو مثنى مثنى وخلفها طفلها أو طفلاها وهي تتجول في مساحات فسيحة تبحث عن طعامها أو تطارد من ينافسها من أبناء جنسها، فهي مخلوقات منفردة يحتاج كل فرد منها إلى قطعة أرض لنفسه. وهي تحتاج إلى طعام من نوع خاص جدًا. ومن المشكوك فيه أن يكون في العالم بأجمعه أكثر من بضعة آلاف من أفراد الغوريلا بل قد لا يجاوز عددها بضع مئات. وربما مرت في العالم منها أجيال بأسرها دون أن يدخل فرد واحد منها في عداد الحفريات. وثمة طائفة من الأسباب تحملنا على الاعتقاد بأن سلف الإنسان كان قردًا منفردًا من طراز يشابه تلك. وأنه كان يتجول وحيدًا أو في عائلات صغيرة على مساحات متسعة من الأرض. ومن الجائز أن تكون عشرات من أنواع قريبة من هذا النوع تعيش في مثل هذه الظروف، قد بادت عن آخرها ولم تكد تترك بعدها أثرًا واحدًا. ولهذا ندرت الفرص التي يعثر بها علماء الإحاثة على ذلك الأثر.

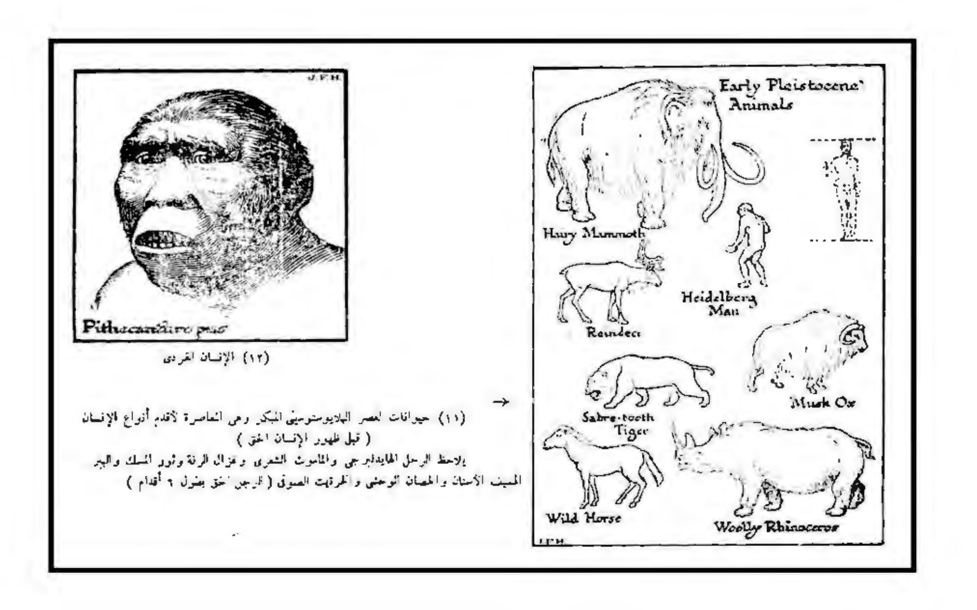
ومن الخير أن نتذكر أيضًا أن "سجل الصخور" لا يزال في حاجة إلى أن يفحص عنه فحصًا دقيقًا وافيًا. لأن ذلك السجل لم يدرسه غير أفراد قلائل وفي مدى بضعة أجيال فقط. ويكاد يكون غرب أوربا وحده هو الذي ارتيد من هذه الوجهة، وربما وجدت بل الراجح أنه توجد – آلاف من الرواسب تحتوي أجزاء وآثارًا من آثار الإنسان وأسلافه لا تزال سليمة لم تمسسها يد بشر. ولا بد أن تكون أشد الأدلة إثارة وإيضاحًا مخبوءة في آسيا وفي الهند والهند الشرقية أو في أفريقيا. فأما في أمريكا فإن وجود شيء شبه إنساني بها يبدو أقل رجحانًا، وربما كان ما نعرفه اليوم عن الإنسان الأقدم ضئيلاً جدًا بالنسبة لما سوف نعرفه قريبًا.

ويبدو أن القردة والسعادين كانت قد دخل عليها التمايز بين الأنواع في أوائل الزمن الكاينوزوي. وهناك عدد من القردة في العصر الأوليجوسيني والميوسيني لم تعرف بعد علاقة أحدها بالآخر وبقرنائها من أشباه الإنسان التي سنصفها من توّنا. ونستطيع أن نذكر لك بين هذه القردة الدريوبثكوس [٣١] Dryopithecus الذي عاش في العصر الميوسيني والذي له فك قريب الشبه جدًا بفك الإنسان. وقد وجدت في تلال سواليك Siwalik في الهند الشمالية بقايا قردة طريفة جدًا يتبين المرء في فصيلتين منهما هما السيفابثكوس Sivapithecus والباليويثكوس Palaeopithecus بعض ملامح تكاد تكون إنسانية. ولابد أن نوع البروبليوبثكوس Propliopithecus الأوليجوسيني في مصر كان مخلوقًا ممتعًا جدًا. لأسلاف القردة الشبيهة بالإنسان التي تعيش اليوم. كما كان أيضًا وثيق القربى بالأصل الذي نسل منه الإنسان.

والراجح أن هذه الحيوانات كلها، هذه الأشكال القريبة من الإنسان، كانت تستعمل الآلات. ويصور لنا تشارلز داروين الربَّاح وهو يكسر البندق بالأحجار ويستعمل الأوتاد يزحزح بها الأحجار لينقب عن الحشرات ويرسمه كذلك وهو يستخدم العصى أو الأحجار في الضرب والقذف. ويصنع الشمبانزي لنفسه فوق الشجر نوعًا من الخصائص بلفّه الأغصان بعضها حول بعض. وقد وجدت في طبقة من طبقات العصر الأوليجوسيني بمدينة بونسل Boncelles في بلجيكا أحجار منحوتة، ظاهر أنها نحتت لتستعمل ومن المحتمل أن يكون الميل إلى استعمال الآلات موجودًا من قبل في الأسلاف الميروزويين الذين يلوح أننا ننحدر منهم.

---

(٣١) وهي ألفاظ منحوتة من اللفظة اليونانية Pithekos ومعناها القرد. (المترجم)



(١٢) الإنسان القردى

(١١) حيوانات لعصر البلايوستوسينى المبكر وهى المعاصرة لأقدم أنواع الإنسان
(قبل ظهور الإنسان الحق)
يلاحظ الرجل الهايدلبرجى والماموث الشعرى وغزال الرنة وثور المسك والنمر
السيف الأسنان والحصان الوحشى والخرتيت الصوفى (الرجل الحق بطول ٦ أقدام)



(٢)
أول آثار المخلوقات الشبيهة بالإنسان

من بين أقدم آثار بعض المخلوقات الأقوى شبهًا بالإنسان من أي قرد يعيش على الأرض عدد من قط ع الظران والأحجار، منحوتة ومصوغة صوغًا خشنًا جدًا ليسهل إمساكها باليد، ولعلها كانت تستعمل كبلط ات يدوية. وكثيرًا ما بلغت هذه الآلات الحجرية Eoliths المبكرة من الخشونة والبساطة حدًا آثار حولها ج دلاً دام زمانًا طويلاً مداره هل تعد هذه المنتجات طبيعية أو اصطناعية؟ وكان من بين رواد الفكرة الثانية مس تر هاريسن وهو بدال بمقاطعة كنت وأحد أولئك الباحثين الأقوياء الملاحظة المتواضعين المخلصين الذين ت دين لهم الجيولوجيا البريطانية بالشيء الكثير. وفي أول الأمر تناول علماء التاريخ القديم ف ي عص ره، آلات ه الحجرية بالشيء الكثير من ألوان السخرية والتهكم. ولكنه اليوم يجد من الأوساط العلمية نص يرًا ل ه ف ي الاعتراف بأن كثيرًا من النماذج التي عثر عليها؛ إنما هي من صنع أشباه الإنسان. ويجب أن نقرن بالفض ل معه المستر و. لويس أبوت الجوهري بمدينة سانت ليونارد فهو الذي كانت خبرته في تركيب الأحج ار ذات قيمة قصوى إبان تلك المناقشات. على حين أن أبحاث المستر ريدموير في رواس ب إيس ت أنجلي ا East Anglia التي ترجع إلى العصرين البلايوسيني والبلايستوسيني جاءت عظيمة القيمة الأث ر ف ي علاقته ا بالموضوع كله.

ويرجع الجيولوجيون تاريخ أقدم هذه الآلات إلى العصر البلايوسيني فكأنها جاءت قبل العص ر الجلي دي الأول. غير أنها توجد أيضًا طوال الفترة الأولى بين عصري الجليد الأول والثاني. ولسنا نع رف أن هن اك عظامًا أو أي بقايا أخرى في أوروبا أو أمريكا قد تخلفت عن هذه المخلوقات شبه الإنسانية التي عاشت قب ل نصف مليون من السنين، وهذه المخلوقات هي التي اصطنعت هذه الآلات واستخدمتها. ولا يستثنى من ه ذه إلا أثر واحد مشكوك فيه وهو ضرس وجد في حصباء تعود إلى البلايوسيني الأعل ى ف ي س نيك جري ك Snake Greek بنبراسكا، ويظن بعضهم أنه ينتسب إل ى مخل وق أطلق وا علي ه اس م الهس بروبثكوس Hesperopithecus (أي القرد الغربي) وهو مشوه تشويهًا كبيرًا وربما لم يكن ضرسًا لأي قرد شبه إنساني Anthropoid مطلقًا، بل لأحد الحيوانات الداخلة في الحفريات. ولكن وجدت ف ي ناحي ة تريني ل Trinil بجزيرة جاوه في طبقات يقال إنها تتفق إما مع العصر البلايوسيني المت أخر أو م ع عص ر الجلي د الأول الأوربي والأمريكي، بعض عظام متناثرة، لمخلوق ربما كان على شاكلة صناع هذه الآلات. ووجدت ك ذلك قمة جمجمة في منتصف الطريق بين مخ الشمبانزي ومخ الإنسان. ولكن عظم الفخذ هو عظم مخلوق مهي أ للوقوف والجري تهيؤ الإنسان، وله تبعًا لذلك مثل حريته في استعمال يديه. ولم يكن ذلك المخل وق إنس انًا، وكذلك لم يكن قردًا شجريًا كالشمبانزي. بل كان قردًا يسير على قدميه. وقد سماه علماء الطبيع ة (الإنس ان القردي القائم Pithecanthropus Erectus)، وليس لدينا حتى اليوم عظ ام متخلف ة ع ن ص ناع الآلات الحجرية الأوربية، فنحن لا نستطيع أن نكون عنهم صورة إلا على سبيل الحدس والتخمين.

وبينما كان هؤلاء الرجال الأولون المبكرون أو أشباه الإنسان أو قُل منتحلو الإنسانية من أصحاب الآلات، يهيمون على وجوههم في أوربا منذ أربعمائة أو خمسمائة ألف سنة، كانت هنـاك أصنـاف مـن المـاموث والكركدن وفرس بحر ضخم الجثة وكلاب ماء هولة وثور وحشي وماشية برية تعيش كلها إلـى جـانبهم. وكانت هناك أيضًا خيول متوحشة. وكان الببر المسيف الأسنان [٣٢] كثير العدد. وليس هناك أي أثر يدل على الأسود ولا اللبور الحقة في أوروبا في ذلك الزمان. بيد أنه كانت هناك دببة وقنادس Otters وذئاب وضرب من الخنزير البري. وربما كان شبه الإنسان المبكر يقوم بدور ابن آوي حيال الببر المسيف الأسنان فكان يجهز على الأجساد بعد ما يشبع منها الببر جوعه.

---

(٣٢) Sabre Toothed Tiger: الببر المسيف الأسنان. وتجمع ببر على ببور بضم البائين كما ورد في المعجم الوسيط. (المترجم).

(٣)
شبه الإنسان الهايدلبرجي

لا يعرف أول فرد من أفراد النوع الإنساني في السجل الجيولوجي إلا على صورة فلذة من العظ م ه ي عظم فك. وقد وجد عظم الفك هذا في حفرة تؤخذ منها الرمال بالقرب من مدين ة هاي دلبرج Heidelberg على بعد ثمانين قدمًا من سطح الأرض. وليس هو عظم فك لإنسان بالمعنى الذي نفهمه الآن من لفظ إنسان، بيد أنه شبيه بعظم الإنسان من كل الوجوه فيما عدا شيئًا واحدًا هو أنه ليس به البتة أي أثر للذقن. وهو أضخم من عظم فك الإنسان. ويرى العلماء أن ضيقه من الخلف لم يكن ليعطي اللسان براحًا يساعده على المنط ق الواضح البين. لكنه ليس عظم فك قرد. لأن أسنانه إنسانية وقد سمي صاحب هذا العظم الفكي باسم Homo Heidelbergensis أي شبه الإنسان الهايدلبرجي أو باسم إنس ان هاي دلبرج الق ديم Palaeoanthropus Heidelbergensis حسب التقدير الذي كوّنه العلماء المختلفون عن درجة إنسانيته أو شبه إنسانيته. وك ان يعيش في عالم لا يبعد كثيرًا عن العالم الذي كان فيه شبه الإنسان الس ابق ل ه، ص احب الآلات الأول ى والرواسب التي وجد فيها ذلك العظم تدل على أنه قد وجد معه في العالم أفيال وخيول وخراتيت وثور ب ري وموس Moose [٣٣] وما إليها. ولكن الببر المسيف الأسنان كان آخذا في الزوال كما كان الأسد آخ ذًا ف ي الانتشار في أوروبا. وآلات هذه الفترة وهي المعروفة بالفترة "الشيليانية Chellean" تمتاز بتق دمها تق دمًا كبيرًا جدًا عن مثيلاتها في العصر البلايوسيني وهي جيدة الصنع. على أنها أضخم كثيرا من أي آلات إنسانية حقيقية. وربما كان لرجل هايدلبرج جسم كبير جدًا وأطراف أمامية كبيرة تتناسب مع حج م الف ك العظ يم وصلابته، وربما كان مخلوقًا مشعرا ً غريب المنظر غير إنساني في هيئته.

---

(٣٣) ضرب من الأيل، وهو غزال ضخم. (المترجم).

(٤)
شبه الإنسان البلتدوني

ظهر في الطبعات الأصلية من هذا الكتاب، قسم بعنوان "شبه الإنسان البلتدوني" كما أنه ورد في شجرة النسب الصورة رقم ٣٥ في الفصل العاشر نوع من التفريع أُطلق عليه ذلك الاسم نفسه. على أن الأسباب التي دعت إلى كتابة ذلك القسم، ثم إلى إسقاطه من هذه الطبعة، تستحق شيئًا من العناية. فعند نهاية عام ١٩١٢، أعلن باحث آثار من الهواة ممن لازمهم النجاح الشديد اسمه تشارلس دوسن يساعده عالم آثار اسمه سميث وُدوارد، أنه اكتشف جزءًا من جمجمة سلف بعيد من أسلاف الإنسان. كان نصف إنسان ونصف قرد، وتبين مما يحيط به من أشياء في محجر الحصباء الذي وجد به قرب بلتدون في جنوب إنجلترة، أن له من العمر ما يقارب خمسمائة ألف سنة، وهو ما كانت تومئ إليه حاله. وكان وعاء المخ بشريًا، ولكن كان الفك شبه قردي، باستثناء الأسنان التي تسطحت على الطريقة البشرية. ولكن أعوزته الأنياب، وهي سن لها دلالتها وأهميتها البالغة، غير أنها ما لبثت أن وجدت فيما بعد عند إعادة تركيب الرأس من جديد على أنها نوع من الإنسان؛ وتقابلت بالضبط على الناب في التركيب. وأحدث هذا الاكتشاف هزة ضخمة في عام ١٩١٢. وكانت الكنيسة لا تزال ترفض الاعتراف بحقيقة النشوء والارتقاء، وكثيرًا ما اتخذ رفضها صورة التحدي لرجال العلم بأن يظهروا "حلقة مفقودة" تربط بين الإنسان وبين القردة. وصاح دعاة أحد الجانبين بأن: ها قد "وجدت الحلقة المفقودة"، وأنكر القول دعاة الجانب الآخر، وكلاهما غلب عليه التحمس لرأيه لا إلى الاستفاضة في العلم.

وفحصت العظام فحصًا دقيقًا، ومع أن بعض رجال العلم أصروا أن تلك إنما هي بقايا حيوانين مختلفين، فإن غالبيتهم اتفقت على أنها جاءت من مخلوق واحد، وذلك لأنها توافقت بعضها مع بعض بغاية الضبط كشيء واحد.

على أن خصوم النشوء والارتقاء أخطئوا في الحقيقة حين اعتقدوا أن هذا الشيء الذي أطلقوا عليه اسم إنسان دوسون الفجري (Eoanthropus Dawsoni)، كان هبة من هبات الله لعلماء التطور. إذ الأمر على العكس، فإنه كان مثار المتاعب والإزعاج لهم. حتى إذا تم اكتشاف المزيد فالمزيد من البينات الدالة على تطور الجنس البشري، زاد وجود الإنسان البلتدوني من حيرة العلماء. فإن ذلك الوعاء المخي البالغ في إنسانيته متى ربط إلى فك على أتم صورة شبه قردية لم يكن يتمشى مع خط سير التطور على الإطلاق – بل الواقع أنه جاء مناقضًا لعملية التطور الرئيسية تمامًا، وإذن فالأمر كله تلاعب وخداع. وبلغ عدد الأبحاث التي كتبت فيه ما يقارب المئات. وكانت لهذه المراجعة والبحث الدائبين نتيجة في النهاية، ولكنها نتيجة جاءت غير متوقعة تمامًا. إذ اكتشف الناس بعد أربعين سنة بالضبط أن إنسان بلتدون لم يظهر قط في الوجود. وإنما هو أعظم "خدعة" ناجحة في التاريخ البشري كله.

فقد أظهرت تجارب الفلورين أولاً وقبل كل شيء أن عمر الوعاء المخي ليس خمسمائة ألف عام بل خمسين ألفًا فقط. ثم تبين أن الأسنان التي في الفك قد سويت عمدًا حتى أصبحت مسطحة، وظهر أخيرًا أن الفك نفسه عصري، وتبين في النهاية أن مظهر القدم البادي على العظام إنما يرجع إلى تلويثها تلويثًا بالغ المهارة. والتجارب التي استخدمت لم تكن معروفة في عهد دوسن، فإن كان هو الذي دبر اللعبة فلعله أيقن أنها لن تكشف وما كانت لتكشف فعلاً لو أن الباحثين لم يتتبعوا أهم واجبات المؤرخين – وهو عدم أخذ أي شيء مأخذ الثقة، بل الشك في كل شيء، والاستعداد الدائم لمراجعة الشيء وإعادة مراجعته بفحص البينات والشواهد.

وبعد تلك البارقة التي لاحت لنا بهذه الجمجمة لا يعطينا السجل مدى قرون طويلة كثيرة العدد إلا آلات من الظران مطردة التجويد. ولقد ذهبت كل عظام المخلوقات التي صنعتها كما ذهبت كل الأدوات الخشبية والجلدية التي كان صانعوها يستعملونها. فني كل شيء منها وذهب هباء. وكان لا بد من أن يعفي النسيان على آثاره لولا هذه الأحجار. ومن أعجب تلك الأشكال شكل في هيئة نعل ذي وجهين أحدهما مكسور بطرقة واحدة، والآخر مشغول. ويستطيع علماء الآثار أن يميزوا مع استمرار الزمان بالسجل محكات (مكاشط) ومخاريز ومدى وخناجر وأحجار معدة للقذف وما إليها.

والتقدم في هذه الآونة أسرع وأنشط إذ يبدو في شكل البلطة اليدوية تحسن واضح ملحوظ في مدى قرون قلائل.

ثم يتلو ذلك عدد كبير من البقايا. وأخذ العصر الجليدي الرابع في الصعود إلى أقصى ذروته وزمهريره. وتبعًا لذلك أخذ الإنسان يتجه إلى الكهوف ويترك آثاره فيها. فقد وجدت بقايا إنسانية في كرابينا Krapina بكرواتيا وفي نياندرتال بالقرب من دوسلدورف وفي اسباي Spy وهي جماجم وعظام لمخلوق لا شك في إنسانيته. ففي زمان ما يرجع إلى خمسين ألف سنة خلت أو أكثر ظهر الإنسان النياندرتالي المسمى كذلك باسم الإنسان السابق لنوعنا Homo primigenius أو الإنسان العتيق Homo Antiquus وهو كائن يمكن أن يكون مقبولاً كإنسان. وليس إبهامه معادلاً في مرونته وفوائده لإبهام الإنسان. وكان ينحني إلى الأمام، ولا يستطيع أن يحمل رأسه منتصبًا كما يفعل الناس اليوم. ولم يكن له ذقن ولعله لم يكن يستطيع الكلام. وهناك فروق غريبة بين ميناء أسنانه وأسناخها وتجاويف لبها وبين أسنان كل من يعيشون اليوم من الناس. وكان غليظ التركيب بل لم يكن في الواقع من النوع الإنساني بالضبط ولكن لا مشاحة في نسبته إلى الجنس الإنساني Genus Homo ولم يكن ولا شك منحدرًا من الإنسان الفجري (Eoanthropus)، ولكن عظم فكه يشبه عظم الفك الهايدلبرجي شبهًا يجعل من الممكن أن يكون الرجل الهايدلبرجي من نفس دمه وجنسه وإن يكن أثقل منه حركة ووزنًا وأسبق منه بألف قرن خلت.

الفصل السابع

الإنسان النياندرتالي – جنس بائد

"العصر الحجري القديم الأول"

١- العالم منذ خمسين ألف سنة.

٢- حياة الإنسان النياندرتالي اليومية.

٣- آخر رجال العصر الحجري القديم.

٤- جمجمة روديسيا.

(١)
العالم منذ خمسين ألف سنة

كانت معالم أوربا وآسيا الغربية إبان الفترة بين الجليدية [٣٤] الثالثة مخالفة جدًا لما هي عليه الآن. وف ي مستطاع علماء طبقات الأرض أن يلحظوا الفروق الإجمالية بين العصرين. ونحن نورد لك هنا خريطة لم ا وصلوا إليه من استنتاجات. فقد كانت هناك مساحات فسيحة عظيمة تقع في جهة الغرب والشمال الغربي هي الآن تحت مياه المحيط الأطلنطي، وكانت حينذاك أرضًا جافة، فكان البحر الأيرلندي وبحر الشـ مال وديـ ـان أنهار. وكان يتقدم من فوق هذه المساحات الشمالية، ثم يتراجع، ثم يتقدم من جديد – بساط عظيم من الجليـ ـد، كالذي يغطي جرينلندة الوسطى في أيامنا هذه. وسحب هذا البساط الهائل الذي غطى المنطقتـ ـين القطبيتـ ـين أجرامًا هائلة من مياه المحيط، فانحط تبعًا لذلك مستوى البحر وانكشفت مساحات عظيمة مـ ـن الأرض هـ ـي اليوم مغمورة بالماء مرة أخرى. وأكبر الظن أن متسع البحر المتوسط كان واديًا عظيمًا منخفضًا عن مستوى البحر العام ويشمل بحرين داخليين مقتطعين من المحيط العام. وربما كان مناخ حوض البحر المتوسط آنذاك من النوع البارد المعتدل. فأما منطقة الصحارى الواقعة في جنوبه فلم تكن حينذاك صـ ـحراء تترامـ ـى فيهـ ـا الصخور التي تصليها الشمس نارًا حامية، وتنبسط الرمال التي تذروها الرياح، وإنما كانت قطرًا خصبًا كثير المياه. وكانت تمتد فيما بين بُسُط الجليد في الشمال وبين جبال الألب ووادي البحر المتوسط في الجنوب برية جرداء كان مناخها يتغير من التطرف إلى الاعتدال والدفء. ثم عصفت به عوامل التطرف من جديد طـ ـوال العصر الجليدي الرابع.

وكانت تجول في هذه البرية التي هي اليوم السهل الأوربي الأعظم حيوانات كثيرة متنوعة. كان فيها أول الأمر أفراس بحر وخراتيت وماموث وأفيال. وكان الببر المسيف الأسنان يتناقص آخذًا في الانقراض، فلمـ ـا أن أخذ الجو يشتد بردًا كف فرس البحر وتبعته الحيوانات الأخرى المحبة للدفء عن التوغل كثيـ ـرًا نحـ ـو الشمال. واختفى الببر المسيف الأسنان اختفاء تامًا، وأصبحت الماموثات الصوفية والخراتيت الصوفية وثور المسك والجاموس البري والثور الوحشي (الأوروك Aurochs) وغزال الرنة حيوانات شائعة، وأخلى نبـ ـات المناخ المعتدل مكانه لنبات أكثر ملاءمة للمناخ القطبي. وقد امتدت الثلاجات جنوبًا حتى بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى أوجه (قرب خمسين ألف سنة خلت) ثم تراجعت من جديد.

([٣٤]) الفترة بين الجليدية Interglacial هي فترة اعتدال في المناخ تقع بين عصرين جليديين.

وفي الفترة السابقة لتلك وأعني بها الفترة بين الجليدية الثالثة، كانت تجوس خلال الأرض أعداد من مجموعات عائلية صغيرة من الناس(أعني من الإنسان النياندرتالي)، وأكبر الظن أنه كان فيها أيضًا جماعات من شبه الإنسان الملقب بالرجل الفجري. على أنهم لم يتركوا من ورائهم شيئًا يشهد على وجودهم إلا آلاتهم الظرانيّة [٣٥]. ولكن ربما كان هناك بعض الأنواع الأخرى التي تصنع الآلات والتي ليس لدينا مما يثبت وجودها غير بعض الظنون. والراجح أنهم كانوا يستعملون أيضًا عددًا جمًا وأضربًا متنوعة من الآلات الخشبية ولعلهم قد تعلموا بمعالجتهم الخشب شيئًا كثيرًا عن أشكال الأشياء وطرق استعمال الأشكال المختلفة، وهي معرفة طبقوها فيما بعد على الحجر. وليس يسعنا الآن إلا الاعتماد على الحدس والظن في شأن أشكال تلك الأدوات وطريقة استعمالها.

ولما بلغ الجو أقصى درجات برودته أخذ إنسان نياندرتال، وقد عرف من قبل فيما يبدو استعمال النار، يطلب الاستتار تحت أطناف الصخور ويكتهف الكهوف وبذلك يترك من بعده آثارًا وكانوا اعتادوا حتى ذلك الحين أن يجثموا إلى جوار النار في العراء بقرب مورد الماء ولكنهم بلغوا من الذكاء حدًا أتاح لهم أن يكيفوا أنفسهم والظروف الجديدة القاسية. فأما أشباه الإنسان فالظاهر أنهم لم يصمدوا قط إزاء ويلات العصر الجليدي الرابع، ذلك أن أخشن أصناف الآلات تختفي من الوجود على التو.

ولم يقتصر اكتهاف الكهوف على الإنسان وحده. بل كان في هذه المدة أيضًا أسد يسكن الكهوف ودب يقيم فيها وضبع يحذو حذوها. وكان لا بد للإنسان من دفع هذه المخلوقات إلى الخارج ومن منعها من الدخول إلى تلك الكهوف حيث كان أولئك الرجال الأوائل يريدون أن يجثموا ويختفوا. ولا ريب أن النار كانت وسيلة فعالة من وسائل الإبعاد والوقاية. والراجح أن الرجال الأوائل لم يتوغلوا في الكهوف إذ لم تكن لديهم وسائل ينيرون بها أعماقها، بل كانوا يدخلون فيها بالقدر اللازم لابتعادهم عن غائلة الجو الخارجي. كما كانوا يختزنون الخشب والطعام في بعض زواياها. وربما أقاموا المتاريس على مداخل الكهوف، وكانت المشاعل كل ما يستطيعون استعماله من نور للتغلغل في أعماق الكهوف.

ترى ماذا كان يصيد أولئك الرجال النياندرتاليون؟ إن كل ما كان في وسعهم من أسلحة يقتلون بها هذه المخلوقات الضخمة من أمثال الماموث أو دب الكهوف أو حتى غزال الرنة حراب من الخشب، وهراوات خشبية، وتلك القطع من الظران التي خلفوها من بعدهم وهي الآلات "الشيليانية والموستيرية". والراجح أن صيدهم العادي كان الحيوان الصغير. ولكن لا شك في أنهم كانوا يأكلون لحوم الوحوش الكبيرة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وربما كانوا يترسمون خطاها إذا وجدوها عليلة أو ألفوها جريحة على أثر صراعها مع غيرها، وربما انتهزوا الفرصة إذا ما وجدوها مغلولة في الوحل أو مأسورة في الماء أو الثلج. ولا يزال هنود لبرادور يقتلون غزال الكاريبو Caribou حينما يقع في مأزق أثناء عبوره مخاضات الأنهار. وقد وجد بمدينة دوليتش Dawlich بمقاطعة ديفون Devon خندق صناعي يظن أنه كان فخًا للفيلة في العصر الحجري القديم. ونحن نعرف أن جماعة النياندرتاليين كانوا يأكلون فرائسهم حيث تقع. ولكنهم كانوا يحملون

([٣٥]) الظران: Flints: وهي جمع ظر وهي قطع الصوان المصنوعة على شكل أدوات في الأزمنة القديمة. (المترجم)

العظام الكبيرة ذات النخاع ليكسروها ويأكلوها على مهل، بدليل أننا لا نجد في الكهوف إلا القليل من الأضلاع، والفقار، على حين نجد كميات كبيرة من العظام الطويلة مكسورة ومشققة. وقد استعملوا الجلود يلفونها حول أجسامهم. والراجح أن النساء كن يرتدين الجلود: وإننا لنعرف أيضًا أنهم كانوا قومًا يَسِرين (أي يعتمدون على استعمال أيديهم اليمني) كالرجال العصريين سواء، لأن الناحية اليسرى من المخ (وهي التي تستخدم الشقة اليمنى من البدن) أكبر من اليمنى. ولكن بينما ترى أجزاء المخ الخلفية التي تتصل بالبصر واللمس والنشاط البدني متطورة تطورًا حسنًا، تجد الأجزاء الأمامية التي تتصل بالتفكير والنطق صغيرة نسبيًا. لقد كان ذلك المخ في حجم مخنا ولكنه كان مختلفًا عنه. ولا شك أن قد كان لهذا النوع من الناس عقلية تخالف عقليتنا جد المخالفة، فلم يكن أفرادهم أبسط منا وأدنى مرتبة فحسب، بل كانوا يختلفون في كثير من سلوكهم عنا. وربما لم يكونوا يتكلمون قط أو أنهم كانوا نادري الكلام. ولم يكن لديهم شيء تستطيع أن تسميه لغة.

(٢)
حياة الإنسان النياندرتالي اليومية

يوجد في كتاب "الإنسان: المتوحش البدائي Man THE Primeval Savage " الذي ألفه ورثجتن سميث Worthington Smith وصف رائع أجيد تدبيجه أيما إجادة عن الحياة في الشطر الأول من العصر الحجري القديم. ومنه اقتبسنا الشيء الكثير مما سنورده في هذا الفصل. ويفترض ورثجتن سميث وجود حياة اجتماعية أشد اتساعًا، ومجتمعًا وتقسيمًا للعمل أشد تحديدًا، مما يمكن قبوله وتبريره تمام التبرير، سيما عند مواجهته بما تلاه من كتابات من أشباه مقالة المستر ج. ج. أتكنسن J. J. Atkinson القيمة الشهيرة عن "القانون البدائي Primal Law" وعلى هذا بدلنا بالقبيلة الصغيرة التي وصفها المستر ورثجتن سميث جماعة عائلية تحت إمرة "شيخ مسن" وإن أدخلنا آراء المستر أتكنسن فيما يتعلق بسلوك "الشيخ المسن" في صلب هذا الفصل.

ويصف المستر ورثجتن "منتجعًا" ومجثما للإنسان بالقرب من مجرى ماء، لأن الإنسان الأول – ولم يكن لديه جرار وما شاكلها من آنية – كان مضطرًا ولا شك أن يكون دائم القرب من معين الماء ومن بعض المرتفعات الطباشيرية القريبة التي يستطيع أن يستخرج منها ما يستخدمه في توليد النار من قطع الصوان. إذ كان الهواء قارس البرد وكانت النار ذات قيمة كبرى لأنها إن أطفئت مرة لم تكن إعادة إيقادها بالأمر اليسير. فإن هم أرادوها غير متأججة، تركوها فيما يرجح كامنة تحت الرماد. وأرجح وسائل إيجاد النار كانت بتهشيم قطعة من حجر النار Pyrtie بقطعة من الصوّان وسط قليل من ورق الشجر الجاف. وتوجد مخاليط من حجر النار والصوّان في إنجلترة كلما اقتربت طبقتا الطين والمارل [٣٦] من الطباشير.

وكانت تلك المجموعة الصغيرة من الناس تعيش بين هشيم السرخس، والطحلب وما قاربها من المواد الجافة. وكانت بعض النساء والأطفال بحاجة إلى الدأب على جمع الوقود لتظل النار موقدة على الدوام. وهو أمر لا بد أن يصبح تقليدًا ما لبث أن نما وترعرع. ثم لا يلبث الصغار أن يقلدوا الكبار في القيام بهذه المهمة. وربما أنشأ القوم لأنفسهم في أحد جوانب المنتجع خصاصًا خشنة من أغصان الشجر تقيهم الريح.

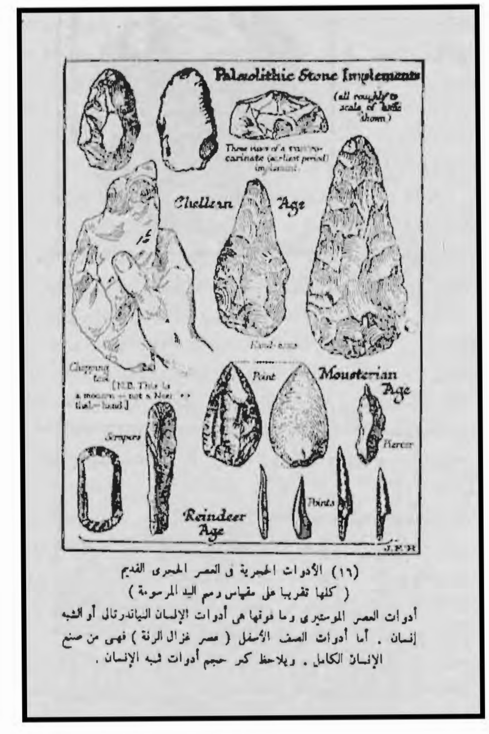
فإذا انشغل "الشيخ المسن" أبو الجماعة وسيدها بطرق الصوان إلى جوار النار قلده في ذلك الأطفال وتعلموا منه استعمال الشظايا الحادة. ولعله كان على بعض النساء أن يبحثن عن قطع صالحة من الصوان. فهن يتصيدنها من وسط الطباشير بالعصي وينقلنها إلى مجثم الجماعة.

وكانت في المكان جلود متناثرة؛ إذ يبدو لنا مرجحًا أن الناس البدائيين أخذوا يستعملون الجلود في زمن مبكر جدًا. والراجح أنها كانت تلف حول الأطفال وتستعمل للرقاد عليها حينما تكون الأرض رطبة أو باردة. فإذا اشتغلت إحدى النساء بإعداد واحدة من تلك الجلود كشطت باطن الجلد كشطًا جيدًا لإزالة ما علق به من اللحم الزائد بقطع من الظران مهذبة، ثم هي بعد ذلك تمطّ وتشد وتنشر على العشب مشدودة بأوتاد حتى تجف في الشمس.

---

(٣٦) المارل Marl لفظة معربة معناها الثرى الذي يتضمن بعض مواد كلسية. (المترجم).





(١٦) الأدوات الحجرية فى العصر الحجرى القديم
(كلها تقريبا على مقياس رسم اليد المرسومة)
أدوات العصر الموستيرى وما فوقها هى أدوات الإنسان النياندرتالى أو الشبه إنسان . أما أدوات الصف الأسفل (عصر غزال الرنة) فهى من صنع الإنسان الكامل . ويلاحظ كبر حجم أدوات شبه الإنسان .

وثم أفراد آخرون من تلك المجموعة الإنسانية يغادرون النار ويتربصون طلبًا للطعام. ولا يكاد يخيم الليل حتى يجتمع الكل متلاصقين حول النار ويشبونها عالية لأنها كانت وقاءهم من الدب الجوال وما إليه من الضواري. والشيخ هو الذكر البالغ الوحيد المكتمل الرجولة في الجماعة الصغيرة. وهناك نساء وغلمان وبنات. ولا يكاد الغلمان يبلغون حدًا من النمو يثيرون به غيرة الشيخ حتى يصطدم بهم، وينتهي به الأمر إما إلى إبعادهم عن الجماعة أو القضاء عليهم. وربما خرجت بعض الفتيات مع هؤلاء المبعدين، أو ربما أجمع اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الشبان على أن يعيشوا أحدهم مع الآخر زمانًا يهيمون فيه على وجوههم حتى يسقطوا على بعض الجماعات الأخرى فيحاولوا أن يسرقوا منها أنثى. وينتهي بهم الأمر فيما يرجح إلى تنازع أمرهم بينهم. وقد يحدث في يوم من الأيام، حين يكون الرجل قد أشرف على الأربعين أو جاوز حدها، وحين تكون أسنانه قد سقطت ونشاطه قد أخذ يفتر، أن يقف في وجهه أحد الذكور الأصغر منه سنًا ويقتله ويتولى الرياسة بدلاً منه. وكانت المهلة التي أمام المسنين في المجثم وجيزة قصيرة لا يلبثون بعدها أن يقضى عليهم. فلا يكاد يداخل الضعف جسومهم وتتمشى حدة الطبع في مزاجهم حتى تحل بهم المتاعب والدمار.

وماذا كانوا يطعمون في المنتجع؟.

"يوصف الإنسان البدائي عادة بأنه صائد الماموث الشعري الكبير والدب والأسد؛ ولكن من أبعد الأمور أن يكون الإنسان المتوحش قد اصطاد قط في يوم من الأيام حيوانًا يزيد في حجمه كثيرًا على الأرنب الجبلي والأرنب المنزلي والفأر البري، بل الراجح أن يكون الإنسان هو الصيد لا الصائد.

كان المتوحش البدائي يجمع بين خلتي أكل العشب واللحم، وكان يأكل فيما يأكل البندق وتمر الزان والقسطل الحلو والبندق الأرضي وجوز البلوط، وكان أمامه التفاح البري Crab Apples والكمثرى البرية والكرز البري والتوت البري والبرقوق البري وعنب الديب، والغبيراء فاكهة شجيرات الصورب sorbs والخوخ البري وثمار الزَّرْنَب أو السر (Yew berries) – وثمرة الزعرور، ثم الجرجير والنباتات الورقية – والفطر (Fungi) ويختار أكبر البراعم الورقية وأطراها، والنستق (Nostoc) (وهي الخضر التي يسميها القرويون بالنجم الساقط)، والريزومات (Rhizomes) اللحمية ذات العصير التي تشبه الهليون (Asparagus) أو الجذور التي تحت الأرض التي للنباتات الشفية وما شابهها إلى غير هذا من لذائذ أخرى في مملكة النبات. وكانت أمامه الطيور؛ بيضها وصغارها وعسل النحل وأقراص العسل يشتارها من خلايا النحل البري. وكان أمامه السمندر Newts والقواقع والضفادع، ولا يزال اللونان الأخيران موضع تقدير الناس العظيم في نورماندي وبريتاني بفرنسا. وكانت أمامه الأسماك ما بين حية وميتة، والمحار وأم الخلول Musseis ساكنة المياه العذبة. وكان في ميسوره أن يمسك الأسماك بيده وأن يعوم على سطح الماء ويغوص من أجلها ويتصيدها بالأحابيل. بل كان لابد واجدًا عند سواحل البحر الأسماك والرخويات Mollusca والأعشاب البحرية. ولا بد أن كانت يده تمتد إلى الطيور الصغيرة والثدييات الصغرى التي كان يستطيع أن يحصل عليها بقذفها بالأحجار وبالعصي أو بنصب الفخاخ البسيطة لها. وكان يستطيع أن ينال الثعبان ودودة

الأرض (الدودة النباشة) والجمبري، وكان لا جرم يتناول اليرقات Grubs والحشرات المتنوعة وعذراء الخنافس الكبيرة واليساريع Caterpillars بأنواعها. ولا يزال التمزز باليساريع موجودًا في الصين حتى اليوم حيث تباع في الأسواق حزمًا مجففة. ولا بد أن قد كانت العظام من أهم مواد الطعام الشديدة التغذية بعد أن تهشم وتحوّل إلى عجينة خشنة حبيبية.

"وهناك حقيقة ذات أهمية بالغة هي أن الرجل البدائي لم يكن ليدقق أو يشدد كثيرًا في تناول اللحم طازجًا جدًا!! إذ إنه لابد واجده على الدوام ميتاً. فإن وجده شبه منتن لم يمنعه ذلك من أن يستمرئه ويلتذ به، ولا يزال الميل إلى الصيد الشديد النتن أو المتوسط النتن موجودًا إلى وقتنا هذا. فإذا عضه الجوع وألح عليه فإنه ربما عدا في بعض الأحيان على بعض المستضعفين من إخوانه فأكلهم أو أكل الأطفال المرضى من الضعاف والعميان أو ممن يجدهم عبئا ثقيلاً عليه في حياته. ولا بد أنه كان على الدوام يبحث بتلهف عن الحيوانات الكبرى حينما تضعف مُنَّتها أو تكون في النزع، فإن لم يجدها مواتية له اكتفى بما يجده منها ميتًا أو نصف رميم. ولم يكن لديه كما أسلفنا أي تمنع على الروائح الكريهة، وهي لا تزال ولا اعتراض عليها في كثير من فنادق القارة الأوربية حتى اليوم".

"وكان المتوحشون يجتمعون حول نارهم متراصين متقاربين ومعهم الفواكه والعظام واللحوم الفاسدة. ونحن نستطيع أن نتخيل الرجل الشيخ ونساءه يحركون جلد مناكبهم وحواجبهم وعضلاتهم إذا ضايقهم شيء أو عضهم الذباب أو لسعتهم الحشرات الأخرى. وإنا لنستطيع أن نتخيل منخري الإنسان الكبيرين اللذين ينمان عن الشم الحاد وهما يكرران الشم السريع للحم المنتن قبل تناوله. وكانت رائحة اللحم الكريهة والروائح الأخرى المتنوعة التي تغثى منها النفس والتي تنسب إلى مرابع المتوحشين غير مكروهة لديهم ولا مستنكرة".

"ولم يكن الإنسان في ذلك حيوانًا وضيعًا، إذ إنه لم يعل من قبل على تلك الدرجة أبدًا. بل كان كما ترى حيوانًا رفيعًا. وأيًا ما تبلغه منزلته في أعيننا اليوم من الضعة فقد كان مع ذلك يمثل أرقى ما وصلت إليه مراحل التطور في مملكة الحيوان في زمانه".

وحسب القارئ فيما تقدم هذه الصورة البسيطة لمجثم الإنسان النياندرتالي. ولكن النياندرتاليين أنفسهم قد تعلموا الشيء الكثير ونالوا قسطًا من التقدم قبل أن يعمل فيهم الفناء عمله.

ومهما تكن طريقة تصرف رجال العصر الحجري القديم الباليوليني في موتاهم، فإن هناك أسبابًا تحملنا على الاعتقاد بأن الإنسان النياندرتالي المتأخر كان يدفن بعض الأفراد على الأقل بين مظاهر الاحترام والتكريم. ومن أشهر الهياكل العظمية النياندرتالية هيكل لشاب لعله دفن عمدًا، وقد أضجع ضجعة النائم وأسند رأسه إلى ساعده الأيمن ووسد الرأس والذراع على كومة من قطع الصوان رصت بعضها إلى بعض بعناية على شكل وسادة. وهناك بلطة يدوية كبيرة موضوعة بالقرب من رأسه ومن حوله عظام ثور عديدة محروقة ومشقوقة كأنما أقيمت له وليمة جنازية.

وربما كان هذا الضرب من الناس يضرب في الأرض أو يجثم حول نيرانه أو يموت في أوربا طوال زمان يربو على مائة ألف سنة. وذلك على فرض أن عظم الفك الهايدلبرجي ينتمي إلى فرد من ذلك النوع. وتلك حقبة من الزمان هائلة إلى حد يجعل كل ما تلاها من تاريخ جنسنا أمرًا قريبًا قرب الأمس. وكان هذا النوع الإنساني وهو يسير في طريقه الخاصة به يجمع لنفسه بعض تقاليد ضعيفة ويستفيد من ظروفه المحدودة. وكانت جمجمته السميكة تحبس مخه وتضيق عليه. وكان منذ بدايته إلى نهايته خفيض الحاجبين أشبه بالبهيم.

والرأي القائل بأن النوع النياندرتالي نوع بائد لم يتزاوج مع الإنسان الحقيقي Homo Sapiens، رأي يؤمن به العلامة أوسبورن Osborn وإن لم يأخذ به كثير من الكتّاب. بل هم يرون أن بعض الجماجم قبل التاريخية إنما هي ثمرة التزاوج Crosses بين الجنس النياندرتالي والأجناس الأخرى؛ هذا إلى أنهم يتكلمون ويكتبون عن "النياندرتاليين" الأحياء بين معاصريهم من الناس. من ذلك أن أحد من اشتهروا بدقة الملاحظة كتب في الماضي عن وجود هذه الأنماط في غرب أيرلندة، ولاحظها آخر في بلاد اليونان. فهؤلاء "النياندرتاليون الأحياء" كما يسميهم العلماء – لا يحملون خصائص الرقبة أو الإبهام أو الأسنان التي كان يتصف بها الجنس النياندرتالي السابق للإنسان، ذلك أن للأضراس في الإنسان الحقيقي مثلاً أسناخًا طويلة بينما أضراس النياندرتالي "أكثر تعقيدًا وتخصصًا". إذ هي سن طويلة ذات أسناخ قصيرة وأنيابه أقل شبهًا بأسنان الكلب من أنيابنا. وواضح أنه كان يتطور في اتجاه مخالف. ونحن حتى الآن لم نفحص فحصاً جيدًا سوى منطقة أوربا الغربية بحثًا عن بقايا العصر الحجري القديم. ولذا فإننا – فيما عدا موضع واحد هو كرابينا في كرواتيا وجمجمة الجليل Galilean المستكشفة حديثًا – ندين لتلك المنطقة وحدها بكل ما نعرفه عن النوع النياندرتالي.

ولا مراء أن سلف الإنسان العاقل أو الحقيقي، وهو نوع يشمل التسمانيين أيضًا كان وثيق الشبه بالرجل النياندرتالي ونظيرًا له. ونحن لم نبتعد عن ذلك السلف بعدًا يتيح لنا أن نمحو من أنفسنا الطراز النياندرتالي، بل ولا الأنماط شبه النياندرتالية. ووجود أمثال هذه الأنماط يثبت أن النوع النياندرتالي (صانع الأدوات الشليانية والموستريانية Mousterian) اختلط بالإنسان الحقيقي في بقاع أوربا أكثر مما يشهد ذوو الوجوه القردية من الناس بوجود تزاوج بين الإنسان والقرود؛ أو أكثر مما يثبت أقوام لهم وجوه تشبه الخيل، أن هناك عرقًا من سلالة الخيل فيمن حولنا من الناس.

(٣)

آخر رجال العصر الحجري القديم

لما اكتشف الهولنديون تسمانيا وجدوا فيها جنسًا بشريًا منعزلاً لا يزيد في تقدمه كثيرًا على هذه المرحلة من العصر الحجري القديم السفلي. ولكن ثقافة العصر الحجري القديم المبكر كانت تطورت في معظم أرجاء العالم فأصبحت نوعًا من الحياة أكثر تقدمًا وأشد تعقيدًا وذلك منذ عشرين أو ثلاثين ألف سنة خلت. ولم يكن التسمانيون نياندرتاليين من الوجهة العنصرية إذ تدل أوعية مخهم وعظام أعناقهم وفكاكهم وأسنانهم على انعدام كل صلة لهم بالنياندرتاليين، ذلك بأنهم كانوا قومًا من نفس نوعنا. وإن كانوا يمثلون مرحلة شبه نياندرتالية Neanderthaloid من مراحل نشوء الإنسان وارتقائه. ولا يكاد يتسرب إلينا الشك في أنه خلال مئات القرون التي كانت فيها جماعات إنسان نياندرتال الصغيرة المتناثرة هي كل من يمثل الجنس البشري في أوربا، كان بنو جنسنا من الأناسي الحقيقيين يتقدمون في حياتهم في ناحية أخرى من الأرض بخطى مناظرة لخطى هؤلاء، مبتدئين من نفس المرحلة التي انتهى إليها النياندرتاليون والتي احتفظ بها التسمانيون، فمرتفعين بها إلى درجة عالية من القوة والتقدم والاكتمال. ولقد تقاعس التسمانيون عن سائر إخوانهم من بني الإنسان، لأنهم كانوا يعيشون في أحوال راكدة لا استثارة فيها، وبمعزل عن كل منافسة إنسانية أو مثال يحتذى ومع ذلك فإن بقايا الحفريات القديمة حتى في هذا الركن المتأخر من العالم – كما يقول السير آرثر كيث Arthur – تدل على أن الإنسان قد تقدم فإن تسمانيي القرن التاسع عشر كانوا أخف حركة وأقل بهيمية من أقاربهم الأقدمين.

(٤)
جمجمة روديسيا

وجدت في صيف سنة ١٩٢١ لقيّة شائقة جدًا في كهف بمزرعة بروكن هل Broken Hill بجنوب أفريقيا. وهي جمجمة ينقصها الفك الأسفل ومعها أيضًا عدد من العظام تنتسب إلى نوع جديد من الإنسان يُعَدُّ في الدرجة المتوسطة بين الرجل النياندرتالي والإنسان الحقيقي العاقل وسنفيض لك القول في ذلك النوع. ولم تكن الجمجمة متمعدنة إلا تمعدنًا يسيرًا. وإذن فلا بد أن صاحبها كان حيًا قبل زمان لا يزيد على آلاف قليلة من السنين. ولا يزال ترتيب الطبقات في هذه المنطقة غامضًا مبهمًا. ولعل الرجل الروديسي كان ممن يطارد القردة الإنسانية من طراز التونج. فهذا المخلوق المكتشف حديثًا (هذا الرجل الروديسي أو إنسان الكهف الروديسي) يظهر لك بعض أوجه الشبه بالإنسان النياندرتالي في بعض قسماته. وفي نفس الوقت لا نتبين من بقايا جسمه أي خصيصة من خصائص الإنسان النياندرتالي المميزة. ذلك أن وعاء مخه ورقبته وأسنانه وأطرافه من طراز إنساني بحت. ولسنا نعرف شيئًا عن يديه ولكن حجم الفك العلوي وسطوحه المفصلية تدل على فك سفلي له حجم يزيد على حجم فك هايدلبرج. وللحاجب فيها حافة بارزة Brow- ridges كحد وافي حاجب القردة وهي تضارع في هيئتها ما لدى النياندرتاليين. ويبدو أن ذلك المخلوق يكاد يكون فردًا من أفراد الجنس البشري له وجه شبيه بوجه القردة. ولعله عاش حتى العصر الإنساني كما كان معاصرًا للإنسان الحق في جنوب أفريقيا. وربما كان مصدر فزع لأطفال الإنسان العاقل.

وقد وصلتنا فضلاً عن ذلك من أجزاء كثيرة في أفريقيا الجنوبية بقايا للجنس الإنساني الحق منها جنس البوسكوب Boskop وهو قديم جدًا وإن كنا لم نستطع بعد تحديد مدى قدمه. وكان لإنسان البوسكوب جماجم أقرب إلى جماجم البوشمن الأحياء منها إلى أي جنس آخر موجود ولكنها كانت أكثر سماكة وأكبر كثيرًا، بل إن لها على التحقيق فراغًا مخيًا أكبر من فراغ الجماجم الأوربية الحديثة. كانوا شعبًا من البوشمن أضخم من الحاليين حجمًا ولعلهم كذلك أذكى عقولاً. وقد يكونون أقدم أنواع الإنسان الحق المعروفة. وبعض الجماجم المكتشفة في وادجاك Wadjak بجزيرة جاوه قبل اكتشاف الإنسان القردي (Pithecanthropus) بقليل والتي ترجع فيما يرجح إلى العصر البلايستوسيني، تبدو كأنما هي القنطرة التي تصل ما بين شقي المسافة بين إنسان روديسيا وسكان أستراليا الأصليين Aborigines على حين أن جمجمة تالجاي Talgai التي وجدت في طبقات العصر البلايستوسيني بكوينزلاند، تمثل طرازًا من الجنس الأستراليدي (الشبيه بالأسترالي Australoid) يختلف عن طراز الأستراليين السود الحاليين اختلافًا أهم مظاهره زيادة فكه عن فكاكهم حجمًا.

الفصل الثامن

إنسان العصر الحجري القديم التالي
لعصر الجليدي الإنسان الحقيقي الأول
(العصر الحجري القديم المتأخر)

١- ظهور أناس يشبهوننا.

٢- جغرافية العالم إبان العصر الحجري القديم.

٣- خاتمة العصر الحجري القديم

٤- لا وجود لأشباه الإنسان في أمريكا.

(١)
ظهور أناس يشبهوننا

عم طراز الإنسان النياندرتالي أوربا مدة تقدر على الأقل بعشر ات الآلاف م ن السنين. ظل ت ه ذه المخلوقات القريبة من الإنسانية سائدة منتشرة إبان عصور لو قورن بها التاريخ كله لبدا كأنه الأمس القريب. وإذا صح أن الفك الهاندلبرجي فك لأحد النياندرتاليين، وإذا لم يكن هناك خطأ في تقدير تاريخ ذلك الفك، فإن الجنس النياندرتالي يكون قد عمَّر مائتي ألف سنة. وفي آخر الأمر أي منذ زمن يتراوح بين أربعين ألف سنة وخمسة وعشرين ألف سنة، ويوم راح العصر الجليدي الرابع يتجه صوب الاعتدال، ظهر على مسرح الحياة الأوربية طراز إنساني مخالف، قضى فيما يبدو على "الإنسان النياندرتالي".

والراجح أن هذا الطراز الجديد تطور في جنوب آسيا أو أفريقيا في أراضي تغمرها اليوم مياه البحر المتوسط. ولسوف يزيد علم الناس بمراحله الأولى مع زيادة اكتشاف بقاياه وجمعها وبعد تكاثر الأدلة والشواهد. فنحن لا نستطيع الآن إلا أن نحدس أين وكيف نشأ هؤلاء "الرجال الحقيقيون" الأوائل منحدرين من بعض الأجداد الأكثر شبهًا بالقردة خلال العصور المتراخية، مسايرين في ذلك أبناء عمومتهم النياندرتاليين. وظلوا يكتسبون خلال مئات القرون: مهارة في أيديهم وأطرافهم وقوة وضخامة في المخ، في تلك البيئة التي لا تزال مجهولة. وكانوا متفوقين فعلاً على رجال نياندرتال رقيًا وذكاء عندما ظهروا أمامنا أول مرة، وكانوا قد انقسموا من قبل قسمين شديدي التميز أو أكثر من قسمين.

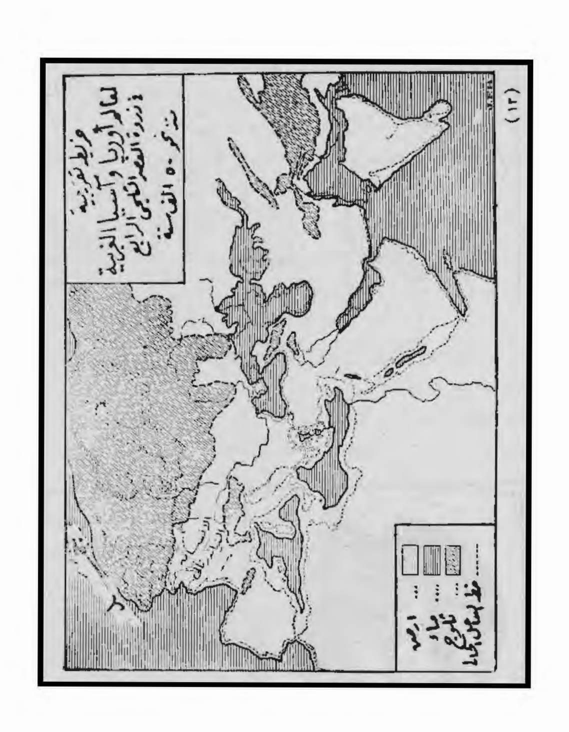
على أن هؤلاء القادمين الجدد لم يهاجروا إلى أوربا هجرة بالمعنى الدقيق الذي نفهمه من هذه الكلمة، ولكن لما أخذ المناخ يتحسن قرنًا بعد قرن، فإنهم تتبعوا الطعام والنبات اللذين اعتادوهما وقتما أخذ هذان في الانتشار في الآفاق الجديدة التي تفتحت لهم. كان الجليد شرع يتراجع، وكان النبات أخذ يتزايد وكان الصيد الكبير من جميع الأنواع قد بدأ يزداد عدده. وأخذت حالات تشبه حالات السهوب وشجيراتها تستجلب معها رعائل عظيمة من الخيل البرية. ويضع علماء السلالات البشرية Ethnologists هذه الأجناس البشرية الجديدة في نفس النوع الذي ننتسب نحن إليه، ويضعونها مع كل الأجناس البشرية التالية لها تحت اسم مخصص جامع هو "الإنسان الحق Homo Sapiens". فقد كانت لهم أوعية مخ وأيد تامة السمة الإنسانية، وكانت أسنانهم ورقابهم من ناحية التركيب التشريحي شبيهة بأسناننا ورقابنا.

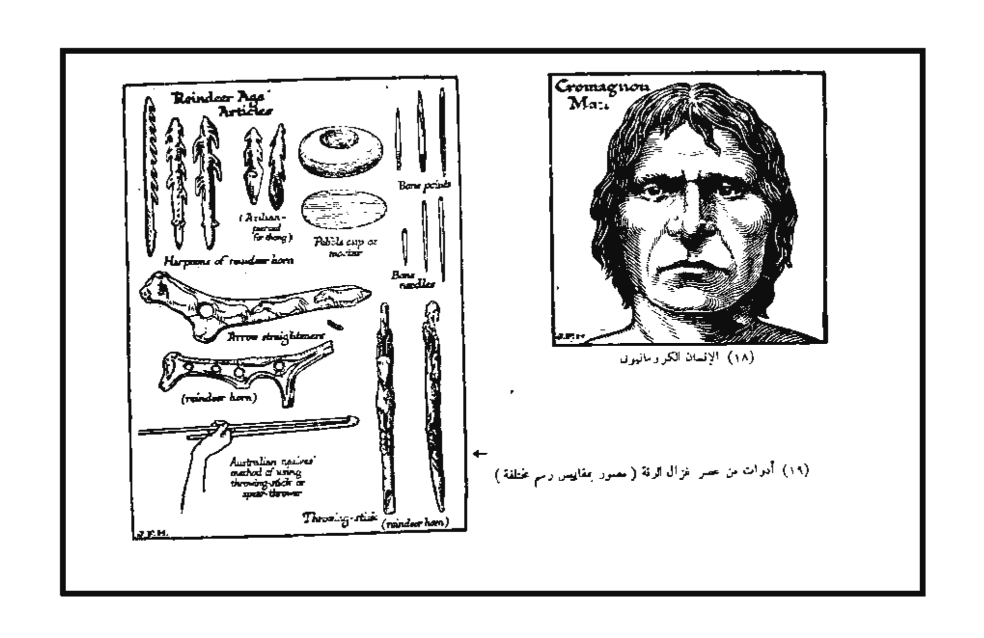
ونحن الآن على علم بنوعين متميزين من بقايا الهياكل في تلك المدة، أولهما هو الشهير باسم جنس كرومانيون Cromagnon وثانيهما باسم جنس جريمالدي Grimaldi. ولكن الغالبية العظمى من البقايا والمعدات الإنسانية التي نجدها تكون على إحدى حالتين: فهي إما غير محتوية على عظام إنسانية أو هي محتوية على عظام غير كافية للاستدلال منها على طرازها الجثماني المرتبط بها. وربما وجدت أجناس أخرى متميزة غير هذين. وربما وجدت أنماط متوسطة. وحدث أن عثر لأول مرة في غار كرومانيون على هياكل عظمية كاملة لجنس هام من أجناس هؤلاء الرجال رجال العصر الحجري القديم الجدد أي الإنسان الحقيقي، ومن ثم نشأت تسميتهم باسم الكرومانيين.

كان هؤلاء الكرومانيون شعبًا طويل القامة له وجوه عريضة جدًا، وأنوف عالية بارزة وأمخاخ كبيرة كبرًا يبعث على الدهشة. فإن سعة مخ المرأة التي في كهف كرومانيون تفوق سعة مخ الرجل المتوسط العادي اليوم. وقد وجد رأسها محطما إثر ضربة شديدة. وكان معها في نفس الكهف هيكل كامل لرجل أسن منها يقارب طوله ستة أقدام، وحطام هيكل عظمي لطفل وهيكلان لرجلين في مقتبل العمر. وكانت هناك أيضًا آلات من الظران ومحارات بحرية مثقوبة كانت تستعمل للزينة ولا شك. فهذا نموذج لأقدم الرجال الحقيقيين. ولكن كشف أيضًا في كهف جريمالدي بالقرب من (منتون) Mentone هيكلان يرجعان إلى العصر الحجري القديم المتأخر، ولكن لهما طرازًا مباينًا للأول مباينة شديدة لما فيهما من خصائص شبه زنجية (تجريدية Negroid) تكاد تشير إلى هذا الطراز من الناس إشارة صريحة. وهما يتجهان في نمطهما صوب الجنس البوسكوبي بجنوب أفريقيا الذي سبق أن ذكرناه لك. وليس هناك من شك في أن علينا في هذه المرة أن نعالج جنسين على الأقل من الإنسان الحق متباعدين تباعدًا عظيمًا إن لم نكن نعالج أكثر من جنسين على الراجح. وربما كانا يعيشان في وقت واحد، وربما يكون الكرومانيون قد جاءوا بعد الجنس الجريمالدي، وربما كان أحدهما أو كلاهما معاصرًا للمتأخرين من النياندرتاليين. وإن لمختلف الثقات في هذه النقط آراء قوية جدًا ولكنها لا تزيد في جل شأنها على مجرد آراء وتخمينات.

وظهور هاته الشعوب الإنسانية الحقة في العصر الحجري القديم الذي أعقب الجليدي كان على التحقق قفزة هائلة في تاريخ الإنسانية. فقد كان لكل من هذين الجنسين البشريين مقدم مخ [٣٧] Forebrain إنساني ويد إنسانية وذكاء قريب الشبه جدًا بذكائنا. وقد سلبوا الإنسان النياندرتالي كهوفه ومحاجره. وكانوا فيما يبدو لنا يتفقون مع علماء الأجناس العصريين في اعتباره نوعًا مخالفًا لهم. لذا لم يفعل الإنسان الحق ما يفعله كل الفاتحين المتوحشين الذين يحرزون لأنفسهم نساء الجانب المغلوب ويتزوجون منهن، بل لم يكن ليرضى بوجود أية علاقة بينه وبين الجنس النياندرتالي: رجاله ونساءه على السواء. ذلك أنه لا يوجد أثر يدل على وجود أي تزاوج بين الأجناس بالرغم من الاعتراف بأن النازلين الجدد (وكانوا أيضًا من مستعملي الظران) أخذوا يركزون أنفسهم في نفس البقاع التي كان يحتلها سابقوهم.

(٣٧) مقدم المخ: الفص المقدم من ثلاث فصوص في تخليق أجنة الفقاريات. (المترجم).


خريطة تقريبية
لبلاد أوربا وآسيا الغربية
في ذروة العصر الجليدي الرابع
منذ نحو ٥٠ ألف سنة
أرض
بحار
ثلوج
خط السواحل الحالية
(١٢)



(١٨) الإنسان الكرومانيوني

(١٩) أدوات من عصر غزال الرنة (مصور بمقاييس رسم مختلفة)

ولسنا ندري شيئًا عن شكل الإنسان النياندرتالي، ولكن امتناع هذا التزاوج يكاد يفصح لنا عن شدة اكتسائه بالشعر وعظم بشاعته أو وجود غرابة كريهة في هيئته، فضلاً عن جبهته الخفيضة وحواجبه التي تشبه الخنفساء، ورقبته التي تقارب رقبة القرود، وقامته القصيرة. وربما كان – ذكرًا أو أنثى – شديد الشراسة إلى حد لا يمكن معه استئناسه. ويقول السير هاري جونستون في دراسته الشاملة لموضوع نهوض الإنسان العصري في كتابه "نظرات ومراجعات Views and Reviews": "إن الذكريات العنصرية الغامضة الباقية من هذا الوحش الشبيه بالغوريلا ذي العقل الماكر والمشية الحاجلة والأجسام المكسوة شعرًا والأسنان القوية والميل إلى أكل البشر فيما يحتمل – ربما كانت الأصل في فكرة الغول في القصص الشعبية".

هؤلاء الرجال الحقيقيون في العصر الحجري القديم الذين حلوا محل النياندرتاليين كانوا مقبلين على مناخ أكثر اعتدالاً. وهم وإن استخدموا كهوف سابقيهم ومآويهم، فقد كانوا يقضون معظم حياتهم في العراء. كانوا شعبًا صيّادًا، ويبدو أن بعضهم أو كلهم كانوا يصطادون الماموث والحصان البري وغزال الرنة والثور الوحشي الكبير Auroch، وكانوا يأكلون الخيول بكثرة. ففي مخيم عظيم في العراء عند سوليوتريه Solutré حيث يبدو أن قد كانت لهم اجتماعات سنوية طوال قرون عدة متوالية، يقدر الخيول الموجودة عظامها هناك بمائة ألف حصان، وذلك فضلاً عن عظام غزلان الرنة والماموث والجاموس الوحشي. والراجح أنهم كانوا يتتبعون رعائل الخيل (وهي من السيسيات الصغيرة الملتحية) في تنقلها طلبًا للكلأ. كانوا دائمًا على مقربة من حواشي الرعيل حتى أصبحوا يعرفون كل المعرفة عاداته وميوله ولا بد أن شطرا كبيرًا من حياة هؤلاء الرجال كان يقضي في مراقبة الحيوانات. ولا يزال أمر ترويضهم الخيل وتأنيسها موضوعا مفتوح الباب أمام الباحثين. ولعلهم قد تعلموا ذلك تدريجيا مع انقضاء القرون ومهما يكن من هذا الأمر فإننا نجد رسوما متأخرة من العصر الحجري القديم تمثل الخيل وفي رءوسها علامات تنوّه تنويهًا قويًا باللجُم. ويوجد نقش يمثل رأس حصان به شيء قد يكون حبلاً من

الجلد أو من أوتار العضلات المفتولة. وحتى لو فرض أنهم روضوا الحصان فإننا نشك في أنهم ركبوه أو أنه كان عندهم ذا نفع كبير بعد تأنيسه. وكان الحصان الذي عرفوه سيسيا بريّا له لحية تحت ذقنه، لا يستطيع حمل الإنسان، وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الرجال قد تعلموا بعد طريقة اتخاذ لبن الحيوانات غذاء لهم، وهي الطريقة التي تكاد تكون غير طبيعية. فلئن أفلحوا آخر الأمر في ترويض الحصان فقد كان هو الحيوان الوحيد الذي يبدو أنهم روّضوه ولم تكن لهم كلاب وما كانوا ليستطيعوا الاستفادة كثيرًا من أي شاة أو ماشية مستأنسة.

ومما يساعدنا مساعدة عظيمة على إدراك خلة الإنسانية المشتركة بينهم أن هؤلاء الرجال الحقيقيين الأقدمين كانوا يستطيعون أن يرسموا. والواقع أنهم كانوا يرسمون رسومًا تبعث جودتها على الدهشة. كانوا لا شك متوحشين، بالغة ما بلغت المعايير التي نطبقها عليهم، ولكنهم كانوا متوحشين فنيين، يرسمون خيرًا من أي جنس خلفهم حتى بداية التاريخ. فيرسمون وينقشون على جوانب الصخور وعلى جدران الكهوف التي غصبوها من النياندرتاليين. وتهبط البقية الباقية من الرسوم على علماء الأجناس البشرية وهم يعصرون أذهانهم مكبين على العظام والقطع المكسرة – هبوط رسالة صريحة يتلألأ فيها نور يسطع في كل ما حوله من سدفة ظلام وعماية حدس وتخمين. كانوا يرسمون على العظام والقرون المتشعبة وينحتون أشكالاً صغيرة.

ولم يكتف هؤلاء الناس، أناس العصر الحجري القديم المتأخر، برسم هذه الرسوم العجيبة في جودتها والتي أمدتنا بالمعلومات، لم يكتفوا بهذا وبالمهارة المتزايدة على مر القرون، بل تركوا لنا في قبورهم عدا هذا معلومات أخرى عن حياتهم. إذ كانوا يدفنون موتاهم.. يدفنونهم ومعهم في الغالب الحلي والطعام. وكانوا يستعملون في الدفن قدرًا صالحًا من الأصباغ؛ ومن الجلي أنهم كانوا يصبغون الجثة؛ ومن هذا يستطيع الإنسان أن يستنتج أنهم كانوا يصبغون أجسامهم وهم أحياء. وكان الصباغ عظيم الأهمية في حياتهم، وكانوا صباغين راسخي القدم، يستعملون صباغًا سوداء وبنية وحمراء وصفراء وبيضاء. ولا تزال الأصباغ التي استعملوها باقية حتى يومنا هذا في الكهوف وعلى سطوح الصخور في فرنسا وإسبانيا. ولم يظهر واحد من الشعوب الحديثة مثل هذه الميول التصويرية. وأقرب الأقربين إليهم هم الهنود الحمر.

وقد استمرت هذه النقوش والرسوم التي صنعتها شعوب العصر الحجري القديم المتأخر [٣٨] مدة طويلة من الزمان. وهي تعرض علينا تقلبات في الجدارة الفنية تتفاوت بينها مسافة الخلف. وكثيرًا ما يكون الرسم في أقدم مراحله بدائيًا كرسوم الأطفال المهرة؛ فذوات الأربع ترسم في العادة برجل واحدة خلفية وأخرى مفردة أمامية، كما يرسمها الأطفال إلى هذه الساعة، إذ كانت الأرجل التي في الجهة الأخرى فوق ما يطيقه فن الفنان عندئذ. وربما تكون أول الرسوم قد ابتدأت كما تبدأ رسوم الأطفال ببعض خدوش يغلب فيها العبث. وكان المتوحش يخدش بقطعة من الصوان على سطح صخرة ملساء، وكان يتنبه إلى بعض الخطوط والحركات فلا تفوته. على أن منحوتاتهم الصلبة لا تقل في قدمها عن صورهم الأولى. وتبين الرسوم الأولى عجزهم التام عن تصوير جماعات الحيوانات.

ولكن مع تقدم القرون ظهر عدد أكبر من الفنانين المهرة، فالصور التي تمثل الوحوش أصبحت واضحة قريبة الشبه من الأصل إلى حد يبعث على الدهشة. وكانوا وهم في ذرا رقيهم الفني ذاتها لا ينفكون يرسمون صورًا جانبية Profiles كالتي يرسمها الأطفال. وكان المنظور اللازم للمناظر الخلفية والأمامية فوق ما في طوقهم. والماموث والحصان من بين أهم موضوعات تصويرهم. فإن كهوف شمالي إسبانيا لا تحتوي على رسوم للإنسان بل لحيوانات فقط، ولكن توجد في شرق إسبانيا صور ترجع إلى الأزمنة المتأخرة من هذه المدة وفيها تظهر بعض صور بشرية. وكان بعض الناس أيضًا يصنع تماثيل صغيرة من العاج ومن حجر الصوان. ومن بين هذه أشكال لنساء بدينات جدًا يشبهن نساء البوشمن. وكان النحت الإنساني في الزمان القديم الأول ميالاً إلى عمل أشكال كاريكاتورية. والأشكال الإنسانية التي يمثلها ذلك النحت هي على العموم أحط كثيرًا من الدراسات الحيوانية من ناحية القوة والتمشي مع الواقع.

وبعد ذلك زادت رشاقة الصور والتماثيل التي تمثل الإنسان، ونقص بعض ما فيها من خشونة. فإن المنقبين عثروا على رأس فتاة من العاج قد أحكم ترجيل شعرها إحكامًا. وكان هؤلاء الناس في مرحلة متأخرة عن هذه يخدشون ويحفرون رسومًا على العاج والعظام؛ ومن أطرف مجاميع هذه التصاوير أشكال محفورة حول العظام على هيئة غريبة جدًا، وبخاصة حول قضبان من عظام الغزلان حتى ليستحيل على الإنسان أن يرى الرسم كله دفعة واحدة. وقد وجدت أشكال أخرى مصنوعة من الطين وإن لم يكن هناك أي شعب يستعمل الفخّار في العصر الحجري القديم.

---

(٣٨) ويسمى أيضًا بالعصر الحجري القديم الثاني. (المترجم)

وكثير من هذه الصور الملونة موجودة في أعماق كهوف مظلمة لا ضوء فيها، وغالبًا ما يكون ولوجها عسيرًا. فلا بد أن يكون الفنانون قد استعملوا المصابيح أثناء عملهم. وقد وجدت بالفعل مصابيح ضحلة من حجر الصابون لابد أنهم كانوا يستعملون فيها الشحم ونحن الآن في حيرة تامة من أمر هذه النقوش: فهل كانت رؤية هذه الصور الكهفية بعض شعائر الطقوس من ناحية ما أو تحت أي الظروف كانت ترى؟ ومع هذا فالصور في جنوبي وشرقي إسبانيا ليست مرسومة في كهوف بل على صخور يقيها نتوء بارز ويضيؤها نور لا بأس به.

ويميز علماء الآثار في الوقت الحاضر بين ثلاث مراحل رئيسية في تاريخ هؤلاء الرجال، رجال العصر الحجري القديم المحدثين أي هؤلاء الرجال الحقيقين في أوربا. ونحن نرى لزامًا علينا أن نذكر تلك هذه المراحل ها هنا. ولكن ربما كان لزامًا علينا أيضًا أن نقول في الوقت عينه إن من أشق الأمور وأعوصها علينا أن نتبين في حالة طبقتين تختلفان مكانًا، أيتهما أقدم وأيتهما أحدث. فربما كنا ندرس أجناسًا مختلفة قد تكون متعاصرة إلى حد قليل أو كثير، على حين نظن أنفسنا ناظرين إلى أجناس متعاقبة. ولا بد للقارئ أن يتذكر أننا ندرس مجاميع من البقاع صغيرة لا رابط بينها لا تزيد في مجموعها على بضع عشرات.

وأقدم مرحلة يتبينها الخبراء عادة هي "الأورينياكية Aurignacian" أي المأخوذة عن كهف أورينياك. وأشهر مميزاتها وجود آلات من الظران متقنة الصنع وتطور سريع في الفن وعلى الأخص في التماثيل الصغيرة والصور الجدارية. وأدعى الكهوف الصورة إلى التقدير يعزى إلى الجزء المتأخر من هذا القسم الفرعي وأعني به القسم الأول من الأقسام الفرعية الثلاثة التي ينقسم إليها العصر الحجري القديم الثاني. ويسمى القسم الفرعي الثاني باسم "السوليوتري Soiutrian" والاسم مشتق من سوليوترية Solutré، وهو يتميز على الخصوص بجمال صنف آلاته الحجرية وجودته. وبعض نصاله الشبيهة بالمواسي لا يضارعها إلا خير ما أنتجه العصر الحجري الحديث وإن لم يفقها. وهي بالطبع غير مصقولة ولكن خير نماذجها تضارع في رقتها أحسن نصال الصلب وتكاد تطاولها في حدتها. ويبدو أن جاءت آخر الأمر المرحلة المجدلينية نسبة إلى La Madeleine، وفيها أخذ يتناقص عدد الخيل وغزال الرنة ويبدأ ظهور الغزال الأحمر في أوروبا. وتصبح الآلات الحجرية أصغر حجمًا كما توجد هناك كمية عظيمة من الحراب ورءوس الرماح والإبر وما أشبهها مصنوعة من العظم.

ويبدو أن صيادي تلك المرحلة الأخيرة الثالثة من العصر الحجري القديم المتأخر كانوا يستكملون طعامهم المتناقص بصيد الأسماك. والفن المميز لتلك المدة يتألف من نقوش بارزة Reliefs عميقة محفورة على العظام ورسوم من خطوط محفورة على العظام أيضًا. وإلى هذه المدة تنتسب الرسوم المنقوشة حول العظام. ولقد ارتأى بعض الناس أن هذه النماذج المحيطة بالعظام المستديرة كانت تستعمل في طبع الأشكال الملونة على الجلد. وبعض ما على تلك العظام من رسم، خارق للعادة في جودة صنعته. ويقول باركن Parkyn نقلاً عما كتبه دي مورتيليه De Mortillet عن الإبر العظمية في عصر غزال الرنة (المجدليني) "إنها تفوق كثيرًا غيرها مما كان في الأزمان المتأخرة حتى التاريخية منها إلى عصر النهضة. فلم يكن لدى الرومان مثلاً إبر قط يمكن أن تقاس إلى إبر الحقبة المجدلينية".

ويستحيل علينا تمام الاستحالة في الوقت الحاضر أن نقدّر على سبيل الحدس طول تلك العصور منسوبًا بعضها إلى بعض. بل نحن لسنا متأكدين تأكدًا جازمًا عن علاقتها النسبية بعضها ببعض. وقد يكون مدى كل منها أربعة أو خمسة آلاف سنة أو تزيد أي ما يربو على ضعفي الزمن من بدء التاريخ المسيحي حتى وقتنا هذا. أضف إلى ذلك أن أسس هذا التقسيم تعتمد أكثر ما تعتمد على البقايا التي وجدت في فرنسا وشمالي إسبانيا. فإذا ما انتقلنا جنوبًا في إسبانيا وإيطاليا وشمالي أفريقيا لا نعثر بها على شيء يحمل خصائصها المميزة. فقد كان طراز الحياة في الجنوب مختلفاً كما كان هناك طعام مختلف ومعدات مختلفة.

ويبدو أن الظروف قد أخذت آخر الأمر تتقلب انقلابًا تامًا على هذه الشعوب الصيادة التي ظهرت في العصر الحجري القديم الثاني، والتي ازدهرت هذا الزمان الطويل في أوربا. فاختفوا من الوجود وحل محلهم أنواع أخرى من الإنسان آتية من الجنوب والشرق. ويلوح أن هؤلاء الأخيرين أدخلوا معهم القسي والسهام، وكانوا قد استأنسوا الحيوان وازدرعوا الأرض. فانتشرت في كل أصقاع أوربا طريقة جديدة للعيش هي طريقة العيش في العصر الحجري الحديث "النيوليثي Neolithic" وزالت من المسرح الأوربي حياة "عصر غزال الرنة" وحياة رجال العصر الحجري القديم الثاني بعد أن سيطروا مدة أكبر من الزمان الممتد من عصرنا حتى أشد بدايات التاريخ المسجل قدمًا.

وقد يميل بعض الكتاب إلى المبالغة في الصفات الذهنية والجثمانية التي يستمتع بها إنسان العصر الحجري القديم الثاني محاولين بهذا أن يخلقوا منه أعجوبة مدهشة. والحق إننا إذا نظرنا إليهم في مجموعهم وجدنا لديهم مواهب عجيبة، ولكن قليلاً من التأمل يكشف لك فيهم عن نقائص عجيبة أيضًا. فإن ذلك التقدم الهائل الذي يظهرونه على من سبقوهم من النياندرتاليين، وتلك الموهبة الفنية الخاصة التي كانت لهم يجب ألا تحجب أبصارنا عن إدراك نواحي قصورهم الشديدة الوضوح. ذلك أن مخهم على الرغم من كبره كان من صنف ضيق له اتجاه خاص. فكان إدراكهم للأشكال الحيوانية ممتازًا خاصا وإحساسهم بها مرهفًا. لذا تجلت فيهم الدوافع التي تدفعهم إلى تصوير ما يرون بروح الفنان الحق. وكانوا من هذه الوجهة كائنات إنسانية تامة النماء. على أن نفس هذا الميل إلى التصوير بالألوان والرسم يبديه اليوم البوشمن وهنود كاليفورنيا وسكان رجال أستراليا السود. وإذن فليس ذلك دلالة على عقلية عالية من كل النواحي.

والأثر الكلي الذي تحدثه رسومهم وصورهم الملونة أثر بالغ العظم، ولكن ينبغي لنا ألا نخطئ فنجمع كل ما وصلوا إليه جمعًا مزدحمًا في أذهاننا، كما لو كانت أمورًا ظهرت على سطح الأرض فجأة كلمع البرق أو في فترة من الزمان وجيزة أو كما لو كانت هي الثمرة التي وصل إليها شعب واحد بمفرده. فإن هذه الأجناس أجناس رجال غزال الرنة، ظلت تمتلك كل أوربا الغربية من غير منازع طوال مدة لا تقل عن عشرة أضعاف الفترة الممتدة بين زماننا وبين أول التاريخ المسيحي. وكانت في كل هذا الزمان الهائل حرة في تطوير حياتها وتنويعها إلى أقصى ما تهيؤه لها الظروف المتاحة لها. كانوا على اتصال وثيق بالحيوانات، ولكن لم يبد عليهم أنهم استطاعوا أن يتفاهموا مع أي حيوان إلا الحصان. ولم يكن لديهم كلاب ولا كانت لديهم قط حيوانات مستأنسة بالمعنى الذي نفهمه. بل كانوا يترصدون الحيوان ويجذبونه ويقتلونه ويأكلونه. ولم يبد عليهم أنهم يطبخون طعامهم. وربما كانوا يشوّطون ظاهرها أو يشتونونها. ولكن لم يكن في إمكانهم أن يزيدوا على ذلك كثيرًا إذ أعوزتهم أدوات الطبخ.

ومع أن الطين كان في متناول أيديهم ومع أنهم خلفوا وراءهم عددًا كبيرًا من الأشكال الطينية من العصر الحجري القديم فلم يكن لديهم فخار. ومع أنهم كان لديهم أضرب كثيرة من آلات الظران والعظام فإنهم لم يصلوا قط إلى استعمال الخشب للمساكن الدائمة وما إليها من المباني. وهم لم يصنعوا قط البلطات ذوات النصاب أو ما يشابهها من أدوات تمكنهم من معالجة الخشب. وإن في بعض الرسوم لشيئًا يشير ولو من بعيد إلى سياج من العصي قد حصر فيه أحد أفراد الماموث. على أننا قد نكون هنا حيال خدوش أضيفت فيما بعد ذلك من العصور. ولم تكن لديهم مبان بل ليس مؤكدًا أن كان لديهم خيام أو خصًا. وربما كانت لديهم خيام بسيطة من الجلود، فبعض الرسوم يوحي فيما يبدو بوجود هذه الخيام. واستعمالهم القوس أمر مشكوك فيه لأنهم لم يخلفوا من بعدهم أي رءوس سهام جيدة. وواضح أن الشك الذي يخامرنا في استعمال رجل العصر الحجري القديم (عصر غزالة الرنة) للقسي لا ينطبق على رجال العصر الحجري القديم أثناء عهد الثقافة القابسية Capsian [٣٩] المتأخرة نسبيًا. وربما طفر ذهن القارئ غير المدقق إلى استنتاج أن هذا الرأي ينطبق على رجال العصر الحجري القديم بأسرهم، ولكن هذا ظن خاطئ. نعم إن رجال القسم الأول من العصر الحجري القديم وهم النياندرتاليون كانوا ولا شك بلا قسيّ. والراجح أنه ليس لإنسان عصر غزال الرنة أي دراية بالرماية والنبال. ويقول بعض الثقات الذائعي الصيت بأن عددًا من أدواتهم إنما هو من نوع الأدوات التي تقوّم بها أعواد السهام وتثقّف، ولكن هذا لا يضارع في قوة دلالته عثورنا على السهام نفسها. وربما كانوا يستخدمون عصيا مبرية بدل السهام. ولم يزرعوا الحبوب والخضر أيًا كان نوعها. وكانت نساؤهم فيما يرجح أصغر حجمًا من الرجال وتمثلهن التماثيل الصغيرة الأولى على صورة السمن القبيح حتى ليصلن غالبًا إلى مستوى البدانة الذي عليه نساء البوشمن في أيامنا هذه فهن يسمن من أجل الزواج. ولعل هذا كان حال نساء (العصر الحجري). وكن أصغر من الرجال حجمًا لأنهن كن ولا شك يأخذن في الحمل والولادة قبل أن يستكمل نموهن ولقد كانت المرأة البدائية مخلوقًا ذليلاً خاضعًا.

وإنسان العصر الحجري القديم المتأخر (الثاني) كان يكتسي فيما يبدو بالجلود إن كان يكتسي بشيء على الإطلاق. وكانوا يهيئون هذه الجلود ببراعة وإتقان، ولما قارب العصر نهايته كانوا يستعملون إبرًا من العظم، يستعملونها ولا شك في خياطة هذا الفراء. ويستطيع المرء أن يحدس وهو مطمئن أنهم كانوا يرسمون على هذه الجلود بالألوان بل لقد ذهب البعض إلى الظن بأنهم كانوا يطبعون عليها رسومًا بوساطة أسطوانات من العظم. ولكن ثيابهم كانت مجرد لفائف؛ إذ لم نعثر لهم على مشابك. ولم يبد عليهم أنهم استعملوا الأعشاب أو ما شابهها من الألياف في صنع المنسوجات. فتماثيلهم الصغيرة جردة من الثياب، وإذا ما استثنينا تدثرهم ببعض الفراء في الجو البارد قلنا إنهم كانوا شعبًا من المتوحشين العراة المنقوشي الأديم. وكانوا من ناحية نسائهم وفنهم أشبه شيء ببوشمن جنوبي أفريقيا. وكانوا في مطاردتهم الرنة يشبهون هنود لبرادور، ولعلهم من الناحية الجثمانية كانوا شديدي المشابهة لهؤلاء الهنود.

---

(٣٩) الثقافة القابسية: وهي ثقافة نسبها العالم أوبر ماير إلى اسم كان في تونس كما سيأتي بعد. (المترجم)

وعاش هؤلاء الصيادون على السهوب الفسيحة مدى مائتي قرن أو ما يقاربها وهو مـ ا يعـ ادل عشـ رة أضعاف الحقبة المسيحية. ولعلهم قد فاجأهم نمو الغابات الأوربية عندما خفت وطأة المناخ البارد وأصبح أشد مطرًا. حتى إذا نقص عدد قطعان الحصان البري وغزال الرنة في أوربا ونشأ طراز من الثقاف ـة الإنسـ انية أحدث مما كان قبلاً، سيطرته على المواد الغذائية أكبر من سيطرة ما سبقه، أصـ بحوا أقـ در علـ ى التـ زام الاستقرار. ووجد في أغلب الظن تنظيم اجتماعي أوسع. فلما حدث هذا كله كان لزامًا على رجـ ال عصـ ر غزال الرنة أن يختاروا بين أن يتعلموا طرائق جديدة للعيش أو أن يزولوا من الوجود.

(٢)
جغرافية العالم إبان العصر الحجري القديم

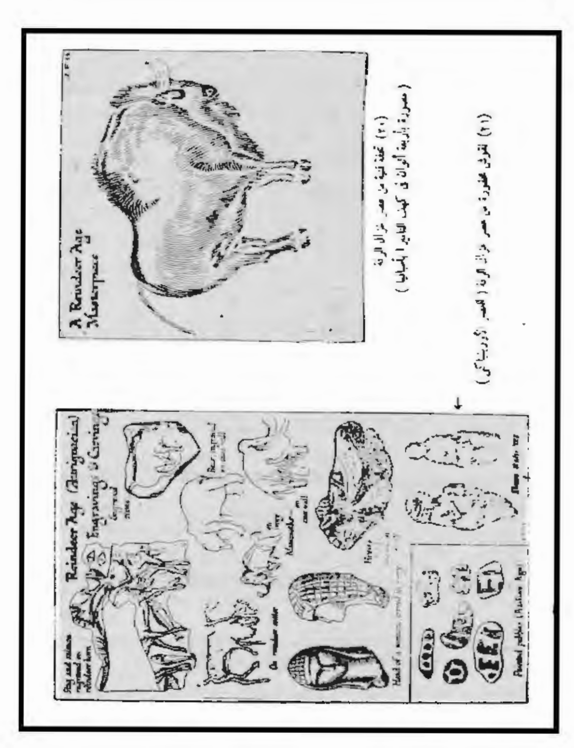
من أهم الأشياء أن ندرك الفروق بين جغرافية عصر غزال الرنة وجغرافية العصر الحاضر. ذلك أن هذا موضوع كثيرًا ما يغفله الباحثون حتى لقد بلغ الأمر أن يسهو عنه عالم خطير كالد دكتور فيرفلد أسبورن Fairfield Osborn. فهو يكتب مثلاً عن غزو إسبانيا بالثقافتين الشيليانية والموستيريانية الآتيتين من مصر عن طريق شمالي أفريقيا كأنما كان هذا الطريق حينذاك كما هو الآن الطريق الوحيد الذي يمكن الوصول منه إلى إسبانيا، ويذهب العلامة أوبرماير Obermaier إلى أبعد من هذا فيبحث ويناقش في هل وصلت الثقافة الشيليانية من أفريقيا إلى إسبانيا "فوق سطح ضرب بدائي من الأرمات!!" [٤٠].

وغني عن البيان أن ذلك الرمث كان غير ضروري البتة آنذاك. فإن الخريطة التقريبية لأوربا وغربي آسيا كما كانت قبل ثلاثين ألف سنة (انظر الخريطة ١٧) لتريك لأول وهلة أن من السخف اعتبار إسبانيا جزءًا من الأرض منفصلاً على الدوام عن غيره من بقاع العالم. على أن هذه مع ذلك ملحوظة نسوقها عرضًا، أما المسألة العامة الجديرة بالبحث، فهي أن هذه الشعوب التي عاشت في العصر الحجري القديم كانت تعيش على هامش الحياة بشكل واضح بين. ولسنا نملك بعد النص الرئيسي لسفر القصة البشرية. فإن حياة الناس في عصر غزال الرنة إنما هي حياة قوم مرابطين على التخوم لأنهم كانوا يسكنون على الصخور الجرداء الواقعة شمالي أحسن أراضي العالم. فقد كان حوض البحر المتوسط يمتد في الجنوب والغرب منهم. وما من شك في أن بقايا معاصري رجال غزال الرنة مغمورة إلى الأبد فيما نظن تحت هذه المياه الزرقاء والراجح أنهم كانوا أكثر من هؤلاء تقدمًا وأرقى تفكيرًا وأكبر الظن أن الوديان العظيمة المحيطة ببحيرتي البحر المتوسط وفي مثلث البحر الأحمر قد أتاحت للتطور الإنساني ظروفًا بديعة رائعة. وكان أهم مسارح التاريخ الإنساني منذ عشرين ألف سنة يقع في الجنوب الشرقي من الأراضي الفرنسية الإسبانية، وهي البلاد الوحيدة من قارة أوروبا التي تم التنقيب فيها عن آثار الإنسان الأقدم.

وبفضل مجهودات العلامة أوبرماير المدريدي على الأخص بدأنا نتحقق أنه بينما انتشر رجال غزال الرنة في فرنسا وشمالي إسبانيا، كان الرجال الذين يضربون في الأرض في معظم أجزاء الأراضي الإسبانية وأفريقيا الشمالية ذوي ثقافة مخالفة لثقافة هؤلاء يسميها ذلك العالم بالثقافة (القابسية) نسبة إلى اسم مكان في تونس. ولم تترسم المرحلة القابسية خطى المراحل الأورينياكية والسوليوترية والمجدلينية في فرنسا بل كانت معاصرة لها، وكانت تختلف عنها. وإنا لنلمس فيها ما يتم عن أحوال اجتماعية أكثر تقدمًا وإن أعوزتها القدرة التصويرية التي رزقها الفن الشمالي (الذي يشمل النقوش الباهرة التي في كهوف ألتاميرا Altamira)، ولكنها من الناحية الأخرى قد هيأت لنا عددًا عظيمًا من الصور الملونة التي تمثل بني الإنسان وهم يشتغلون في أوجه نشاط متنوعة. وهي في غالبية أمرها منقوشة على سطوح الصخور. وتشابه في وعيها وطريقة

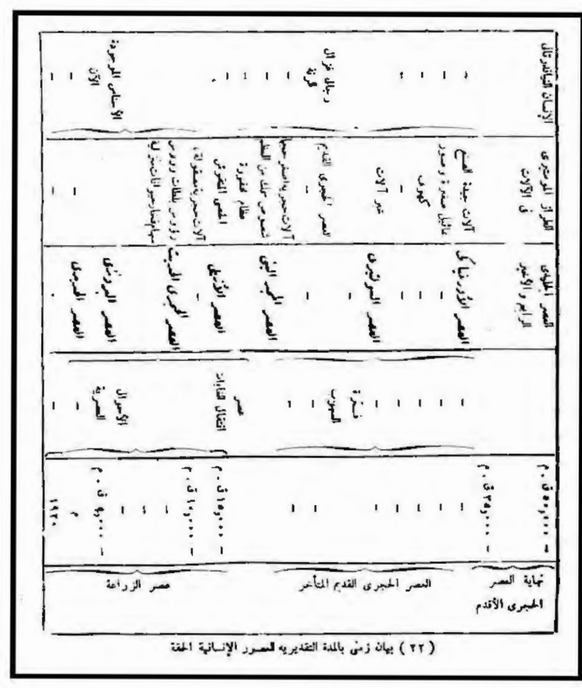
---

(٤٠) الرمث: الطوف وهو خشب يشد بعضه إلى بعض ويُركب في البحر. [المترجم].



(٢٠) تحفة فنية من عصر غزال الرنة (صورة بالأربعة ألوان في كهف التاميرا (أسبانيا))

(٢١) النقوش المحفورة من عصر غزال الرنة (العصر الأورجناكي)



(٢٢) بيان زمنى بالمدة التقديريه للعصور الإنسانية الحقة

علاجها كثيرًا من الصور القديمة والعصرية التي نقشت على الأحجار والتي قامت بصنعها قبائل البوشمن في جنوبي أفريقيا. كذلك عثر الباحثون في إيطاليا أيضًا على صور قابسية.

والحياة التي تسجلها الصورة القابسية حياة أيسر وألين، تفيأت ظلال ظروف مناخية أكثر ملاءمة مما كانت يتفيؤها صيادو غزال الرنة في الشمال؛ وليست لغزال الرنة ولا للدب ولا للجاموس البري صور تمثلها. وأهم الحيوانات المصورة هي الغزال العادي والثور البري. ويبدو في الصور أيضًا رسوم الكركي دون الحمار الوحشي والتيس الجبلي. وفيها يحمل الرجال القسي وهم عراة، ولكن معظم الصور النسائية تمثل النساء في مآزر تغطي نصفهن الأسفل. وللتزين بالريش صور تمثله في كثير من الأحوال. وهناك منظر يمثل صيد الخنزير الوحشي وآخر يمثل طرد النحل البري من بيوته بإطلاق الدخان عليه. وهناك جماعات تمثل في غالب الظن ما تحتمه الطقوس من حفلات الرقص. وهنا أيضًا أشكال لرجال يلبسون أقنعة تتدلى على رءوسهم وأكتافهم وتمثل الحيوانات. وعندما عرض عليَّ العلامة أوبرماير بمدريد منذ بضع سنين بعض الرسوم المأخوذة عن هذه الصور، وجه نظري إلى ما فيها من ميل غريب إلى تشويه الهيئة الإنسانية مع تمثيل الحيوانات من غير ما مسخ أو تشويه، فقد كانوا يظهرون الحيوان في أشكال صادقة أمينة يمكن معها تمييزها. فحصر الإنسان في الصورة ممطوط على الدوام مضغوط كثيرًا؛ وغالبًا ما تكون الساقان مضخمتين تضخيمًا كبيرًا. ثم تتحول هذه الأوضاع في الصور التالية إلى ما يكاد يجعل العمل في رسم الإنسان أمرًا هندسيًا توضيحيًا. فلا تصبح الصور صورًا وإنما تتحول إلى علامات ورموز.

(٣)
خاتمة العصر الحجري القديم

حدث منذ حوالي اثنا عشر ألف سنة أو أقل قليلاً أن أوشكت حياة الصيد التي شملت أوربا زمنًا طويلاً، أن تنتهي تبعًا لانتشار الغابات ولتغير عظيم لحق بنوع الحيوان. فاندثر غزال الرنة. ذلك أن الظروف المتغيـ ـرة غالبًا ما تحمل في طياتها أمراضًا جديدة. وربما تكون قد حدثت أوبئة في زمن ما قبل التاريخ/. حتى ليبـ ـدو أنه جاء على فرنسا زمن خلت فيه من كل كائن حي قبل ظهور السكان الجدد. فأما في جنوبي أورب ـا فـ ـإن الثقافة القابسية المتأخرة تمر فيما يسميه العلامة أوبرماير باسم مرحلة "ما فـ ـوق العصـ ـر الحجـ ـري القـ ـديم Epipalaeolithic" أثناء انتقالها إلى المرحلة الأزيلية (نسبة إلى كهف هضبة أزيل). فالصور التي رسـ ـمها القابسيون وفق ما جرى به عرفهم من أوضاع، يزداد قربها إلى الهيئة الهندسية في المرحلة الأزيلية. وهناك مجاميع عظيمة من الحصى منقوشة بلمسات من فرشاة نعرف عنها اليوم أنها تمثـ ـل طـ ـرازًا مـ ـن النـ ـاس والحيوان متواضعًا عليه. وهناك قبائل أسترالية متعددة في الوقت الحاضر لديها أحجار منقوشة شديدة الشـ ـبه بهذه يسمونها "أحجار الروح". ويزعمون أنها تحتوي روحًا معينة لسلف الميت أو صفات معينة له أو بعـ ـض هذه الروح أو الصفات.

وكان هؤلاء القوم الجدد شعبًا دقيق القسمات ميالاً إلى السمرة وكانوا طلائع جنس بشرى هو جنس البحر المتوسط ذي اللون الأبيض الداكن أي الجنس (الأيبيري) الذي لا يزال هو السائد في جنوبي أوروبا. وامتدت مجتمعاتهم شمالاً مع انتشار الغابات في مكان السهوب ومع تضاؤل عهد الصيادين منذ حوالي عشـ ـرة آلاف واثنا عشر ألف سنة.

وكانت خريطة العالم قد شرعت تتخذ لنفسها صورة تشبه معالمها الحالية، وأخذت منـ ـاظر البـ ـر وهيئـ ـة الأرض والنبات والحيوان تتخذ خصائصها كما هي الآن. وكانت الحيوانات التي تعم الغابـ ـات الآخـ ـذة فـ ـي الانتشار في أوروبا هي الغزال الملكي Royalstag والثور الكبير والجاموس الوحشي (البيـ ـزون). واـ ـدثر الماموث وثور المسك وهما من الحيوان القطبي وباد الثور الوحشـ ـي أي الأوروك، ولـ ـم يحـ ـدث قـ ـط أن استؤنس، ثم جُلبت الماشية المستأنسة إلى أوربا بعد ذلك، وهي من سلالات أخرى. وكان ارتفاع الثور الكبير أحد عشر قدمًا عند الكتف أي ما يضارع ارتفاع الفيل.

وظلت الأسود تجوب شبه جزيرة البلقان حتى حوالي ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ ق. م. وبلغ حجم أسود ورتمبرج Wurtemberg وجنوبي ألمانيا في ذلك الزمان ضعفي حجم الأسد العصري. وانتشرت آنذاك فـ ـي جنـ ـوبي روسيا وآسيا الوسطى الغابات الكثيفة. وكانت في أرض الجزيرة وسوريا أفيال كما ساد في بـ ـلاد الجزائـ ـر نبات وحيوان المنطقة المدارية الأفريقية.

وحتى ذلك الحين، لم يكن الناس قد تخطوا في أوربا شمالاً بحر البلطيق ولا الجزر البريطانية، ولكن شبه جزيرة إسكنديناوة وروسيا العظيمة – فيما يلوح – أخذت تصبح مناطق ميسورة السكنى للجـ نس البشـ ري. وليس في السويد أو النرويج أي بقايا من العصر الحجري القديم. فقد كان الإنسان حين دخل هذه الأقطار قـ د سبق فوصل في تطوره الاجتماعي إلى مرحلة العصر الحجري الحديث.

(٤)
لا وجود لأشباه الإنسان في أمريكا

ليس هناك دليل مقنع حقًا على وجود الإنسان في أمريكا قبل نهاية العصر البلايستوسـ يني. ويق ال إن ه وجدت بعض آلات الظران Eoliths في بعض الأماكن ولكن في غير كثرة؛ ولعل تحسن المناخ الذي سـ مح بتراجع صيادي غزال الرنة إلى مجاهل الروسيا وسيبريا أثناء تقدم قبائل العصر الحجري الحديث، وهو الذي أتاح لهم أن يضربوا في الأرض التي يفصلها الآن مضيق به رنج Bering فوصـ لوا بـ ذلك إلـ ى الق ارة الأمريكية. ومن ثم انتشروا جنوبًا عصرًا فعصرًا. فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية وجدوا حيوان الكسـ لان الجبار Megatherium والجليبتودون Glyptodon أو المجوف الأسنان، وكثيرًا مـ ن المخلوق ات البائـ دة الأخرى وهي في إبان ازدهارها. وكان الأخير ضربًا من الأرمديللو (المصفح الجسم) هائلاً فظيعًا خاصًا بأمريكا الجنوبية، ويقال إن هيكلاً إنسانيا قد وجد مدفونًا تحت درقته الهائلة الشبيهة بدرقة السلحفاة.

والظاهر أن كل البقايا الإنسانية في أمريكا إنما هي ذات صبغة أمرندية (أمريكية هندية). ويبدو أنـ ه لـ م يظهر في أمريكا أي جنس من أشباه الإنسان أقدم من هذا الجنس، ولقد أشرنا من قبل إلى الشاهد الوحيد الذي يثبت نقيض ذلك وهو سن وحيدة مشكوك في أمرها. لقد كان الإنسان كامل الإنسانية عندما دخـ ل أمريكـ ا، وكان العالم القديم مهدًا لما دون الإنسان من الأجناس. ففي مكان ما يقع فيما بين جنوبي أفريقيا وبين جزائـ ر الهند الشرقية وبين البحر المتوسط راحت هذه من أشباه الأجناس البشرية تصوغ مصائرها بينما الأراضـ ي ترتفع وتنخفض وبينما الصحارى تحل محل الغابات والغابات تحل محل الصحاري. وربما تم ذلك في المكان الذي يمتد فيه الآن المحيط الهندي. وخليق بنا أن نعيد هنا ما قلناه من قبل، وهو أن قصـ ة إنسـ ان العصـ ر الحجري القديم قصة ناقصة المعالم مستمدة من الكشوف الأوروبية التي لا تزال حتى الآن كل مـ ا حصـ لنا عليه من مادة علمية أما المادة التي نستطيع أن نكوّن منها القصة الرئيسية فهي لا تزال مستغلقة علينا. لقـ د كانت أحداث القصة الرئيسية تجري مجراها في بعض المناطق التي لم تحدد بعد والتي لعلها قد غمرها البحر فأبعدها عن متناول البحث والكشف وذلك يوم كان الإنسان النياندرتالي يهيم على وجهه في أوربا.

الفصل التاسع

إنسان العصر الحجري الحديث في أوربا

١- عصر الزراعة يبتدئ.

٢- أين نشأت ثقافة العصر الحجري الحديث؟

٣- الحياة اليومية إبان العصر الحجري الحديث.

٤- التجارة البدائية.

٥- امتلاء وادي البحر المتوسط.

(١)
عصر الزراعة يبتدئ

ابتدأت مرحلة العصر الحجري الحديث (Neolithic Age) للحياة الإنسانية في أوربا منذ عشرة آلاف أو اثني عشر ألف سنة. ولكن الراجح أن الناس كانوا قد بلغوا مرحلة العصر الحجري الحديث في الأراضي الواقعة في الجنوب الشرقي قبل ذلك ببضعة آلاف من السنين. ودخل رجال العصر الحجري القديم إلى أوربا في بطء وأناة قادمين من الجنوب أو الجنوب الشرقي، بينما كان غزال الرنة ومتسعات السهوب تتراجع أمام الغابات وأمام الظروف الأوربية العصرية.

وتتميز مرحلة ثقافة العصر الحجري الحديث بما يأتي:

أ- وجود آلات حجرية مصقولة، وبخاصة (البلطة الحجرية) المتصلة بيد من خشب. وهذه الأداة قد تكون استعملت فيما بعد في قطع الخشب أكثر من استعمالها في القتال. وهناك أيضًا رءوس سهام كثيرة. على أن وجود بعض الآلات المصقولة لا يمنع وجود كميات كبيرة من الآلات الحجرية غير المصقولة. ولكن هناك فوارق في الصنع بين نفس الآلات غير المصقولة في العصر الحجري الحديث وبين مثيلاتها في العصر الحجري القديم.

ب- ابتداء نوع من الزراعة واستعمال النباتات والبذور، ولكن هناك في بداية ذلك العصر أدلة كثيرة على أن الصيد كان لا يزال ذا قيمة عظيمة في العصر الحجري الحديث. فلم يكن إنسان العصر الحجري الحديث في مبدأ أمره ليرابط إلى جوار زراعته، بل كان يتناول المحاصيل السريعة، الخاطفة، أو قل إن نساءه كن يجمعن البذور البرية ثم أصبحن فيما بعد يبذرن المحصولات السريعة النضج، بينما كان الرجل منهمكا في صيده. على أنه استقر فيما بعد ذلك من الزمان.

ج- صناعة الفخار والطبخ الحقيقي. ولم يعد الإنسان يأكل الحصان.

د- الحيوانات المستأنسة. ظهر الكلب في عهد شديد التبكير.

وقد استأنس إنسان العصر الحجري الحديث الماشية والضأن والماعز والخنازير.

لقد كان صيادًا انقلب إلى راع للقطعان التي كان يصيدها فيما غبر من الأيام.

هـ- الضَّفْرُ والنسيج.

ونزح أقوام العصر الحجري الحديث هؤلاء فيما يرجح إلى أوربا، على نفس الطريقة التي نزح بها رجال غزال الرنة من قبلهم، أعني أنهم انتشروا سعيًا وراء ما اعتادوه من طعام جيلاً فجيلاً، وقرنا فقرنا، مع تغير المناخ. ولم يكونوا من الرحل البدو؛ لأن الترحل أي "البداوة" لم يكن قد نشأ بعد، شأنه في ذلك شأن الحضارة. ذلك أن الترحل يضارع المدنية في حداثة العهد ويضارعها في كونه حالة عليا من حالات التطور.

ولسنا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقدِّر، إلى أي حد كان رجال العصر الحجري الحديث من النازحين الجدد، وإلى أي حد نمَّى المنحدرون من القانصين وصيادي السمك في العصر الحجري القديم المتأخر فنونهم أو اقتبسوها. ولعل صائدي غزال الرنة قد ألم بهم التأخر، ولكن الشعوب القابسية تطورت من ناحية، وتعلمت طرائق الحياة الجديدة من ناحية أخرى، من قوم أكثر منهم تقدمًا في الجنوب والشرق.

ومهما تكن النتائج التي نصل إليها في هذا الصدد فإنّا نستطيع أن نقول عن يقين وثقة، إنه لم تحدث أية ثغرة انفصال كبيرة، ولم يحدث اكتساح جديد لصنف من أصناف الإنسان ولا حلول صنف آخر مكانه فيما بين زمن ظهور طريقة الحياة في العصر الحجري الحديث وبين زماننا هذا. نعم هناك غزوات، وفتوح، وهجرات واسعة النطاق، وتمازجات Intermixtures، بيد أن الأجناس بوجه عام تظل باقية تكيف نفسها وفق الأراضي التي أخذوا يستقرون فيها في مفتتح العصر الحجري الحديث. وكان رجال أوربا إبان العصر الحجري الحديث من البيض وهم أسلاف الأوربيين المحدثين. وربما كانت لهم بشرة أشد سمرة مما لكثير من أحفادهم، ذلك أمر لا نستطيع أن نجزم به. ولكن لم يكن ثمة انقطاع حقيقي في حبل الثقافة منذ زمانهم حتى عصر الفحم والبخار والآلات التي تدفعها القوى المحركة والتي ابتدأت في القرن الثامن عشر الميلادي.

وبعد زمن طويل، ظهر الذهب بين الحلي العظمية وهو في غالب ظننا أول ما عرف من المعادن، وظهر معه الكهرمان الأسود والأصفر. والبقايا الأيرلندية قبل التاريخ غنية بصفة خاصة بذخائر الذهب. وربما شرع الناس في العصر الحجري الحديث منذ ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة في استعمال النحاس في بعض المراكز، وأخذوا يصنعون منه آلات على صورة آلاتهم الحجرية نفسها. وكانوا يصبون النحاس في قوالب مصنوعة على شكل الآلات الحجرية، ويحتمل أنهم وجدوا بادئ الأمر النحاس الخالص بطبيعته وصاغوه بالطرق، ولا يزال النحاس الخالص يوجد اليوم في إيطاليا والمجر وكورنوال وأماكن أخرى كثيرة. على أن النحاس الخالص أدنى من الظران مرتبة بوصفه مادة للآلات، فهو لا يحافظ على حدة شباته أما النحاس المخلوط بالقصدير (بنسبة لا تزيد على العشر) فهو أصلب منه كثيرًا. واستطاع الناس فيما بعد (ولن نحاول أن نحدد بالأرقام تاريخ ذلك) أن يعرفوا كيف يستخلصون النحاس من معدنه الخام. ولعلهم اكتشفوا سر الصهر كما يرى اللورد أفبوري Avebury – بوضعهم بمحض الصدفة أُثْفِيَّة [٤١] من خام النحاس، بين الأثافي الحجرية العادية التي كانوا يضعونها في حفر النار التي استخدموها في الطبخ.

ومن المعلوم أن خام النحاس يوجد في عرق واحد مع حجر القصدير في الصين وكورنوال وغيرهما من الأماكن. ويوجد النحاس ببلاد المجر إلى جوار حجر الأنتيمون، وهكذا استطاع الصاهرون الأوائل بسبب أمر لعله إلى القذارة أقرب منه إلى المهارة، أن يصادفوا البرونز الذي هو أصلب وأحسن من النحاس والذي هو مزيج من النحاس والقصدير. ولا يقتصر أمر البرونز على أنه أصلب من النحاس فحسب، بل إن الخليط المكون من القصدير والنحاس أسهل انصهارًا وأيسر منه استخلاصًا. فأما ما يسمونه بالآلات المصنوعة من (النحاس النقي) فإنها تحتوي في العادة على نسبة صغيرة من القصدير. وما نعرف أن هناك آلات قصديرية

(٤١) الأثْفِيَّة: أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القدر. (المترجم).

قط، كذلك ليست هناك شواهد كثيرة على أن الإنسان الأقدم عرف القصدير بوصفه معدنًا منفصلاً. وقد وجدت كتلة من القصدير في رواسب مساكن البحيرات السويسرية، وعرف القصدير في مصر بوصفه مستوردًا أجنبيًا أيام الأسرة الثامنة عشرة. والقصدير المايوسيني قليل، وقد عثر الباحثون على أشياء مصنوعة من القصدير في بلاد القوقاز (والراجح أن يكون ذلك في عصر متأخر وإن لم يعرف تاريخه بوضوح). ومن أعسر الأمور أن يميز المرء بين القصدير والأنتيمون. ومن البرونز القبرصي قدر كبير يحوي الأنتيمون، والحق أن قدرًا عظيمًا مما يبدو للرائي قصديرًا لهو في حقيقة أمره أنتيمون. ولقد حاول القدماء أن يحصلوا على القصدير ولكنهم حصلوا بالفعل على الأنتيمون ظانين إياه قصديرًا. وعثر في إسبانيا على مصنع لأحد صاهري النحاس قبل التاريخ، كما عثر على المواد الخاصة بمصاهر البرونز في نواح أخرى مختلفة. وإن وسائل الصهر التي تكشف هذه المكتشفات عنها الحجب، لتؤيد أقوال لورد آفبوري. فأما في الهند حيث يوجد الخارصين (Zinc) وخام النحاس جنبًا إلى جنب فقد عثروا بمحض الصدفة وبنفس الطريقة على النحاس الأصفر (وهو مزيج من المعدنين).

وبلغ من ضآلة التغير الذي أحدثه ظهور البرونز في الأساليب والطرائق أن هذه البلطات البرونزية ظلت زمانًا طويلاً تصب هي وما إليها مما كانوا يصنعون – في قوالب في شكل الآلات الحجرية التي أخذوا يستبدلونها بها.

وأخيرًا – ولعل هذا منذ ثلاثة آلاف سنة في أوربا وقبل ذلك في آسيا الصغرى – أخذ الناس يصهرون الحديد، وكان الحديد معروفًا قبل ذلك العصر بزمن مديد، بيد أنه كان حديدًا مستخلصًا من الشهب. والحجر الشهابي كما يعرف أغلب الناس، مكون في معظمه من الحديد والنيكل. وكان هذا الحديد نادرًا ويستعمل حليًا أو تتخذ منه مادة سحرية، فلما عرف الإنسان عملية الصهر، لم يكن حصوله على الحديد أمرًا يثير الدهشة. فقد كانوا يصهرون الحديد بالنفخ في نار من الفحم النباتي، ويصوغونه بإحمائه وطرقه. وقد أنتجوه في بادئ الأمر قطعًا صغيرة نسبيًا، ويعتبر ظهوره بداية لعهد انقلاب تدريجي في الآلات والأسلحة، ولكنه لم يكن كافيًا لتغيير الحالة العامة لما يحيط بالإنسان من بيئة وملابسات.

والحياة اليومية التي عاشها إنسان العصر الحجري الحديث الأكثر استقرارًا منذ عشرة آلاف من السنين لا تختلف كثيرًا عن الحياة التي كان يحياها الفلاحون في الأماكن النائية في كل أنحاء أوربا عند مفتتح القرن الثامن عشر.

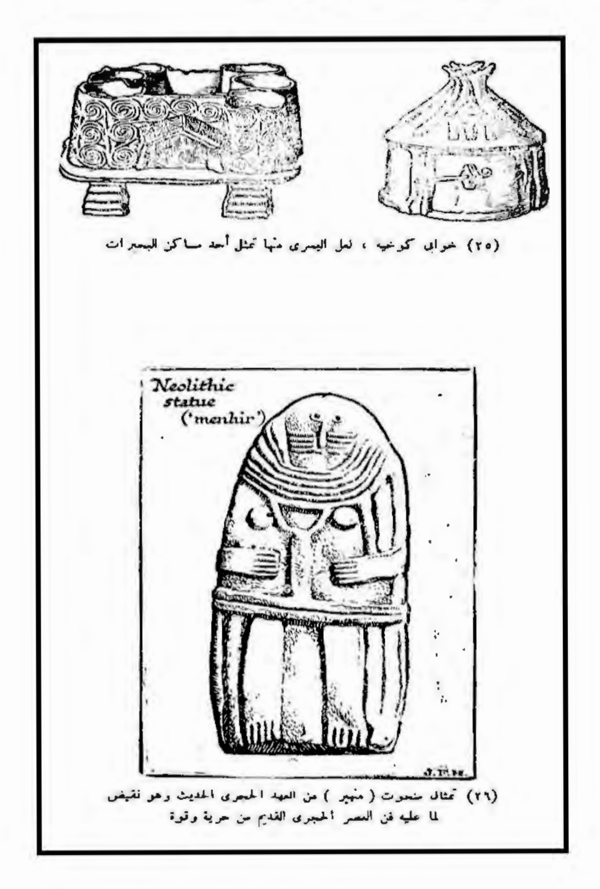
ويتكلم الناس عن العصر الحجري وعصر البرونز وعصر الحديد في أوربا، ولكن الحديث عن هذه العصور الطريفة بصورة قد يفهم منها تساويها في القيمة والأهمية التاريخية، حديث مضلل. وأصدق من هذا تعبيرًا أن يقال إنه جاء:

أ- عصر حجري قديم مبكر دام زمانًا طويلاً جدًا.

ب- عصر حجري قديم متأخر لم يستدم عشر زمان الأول، ثم عقبه:

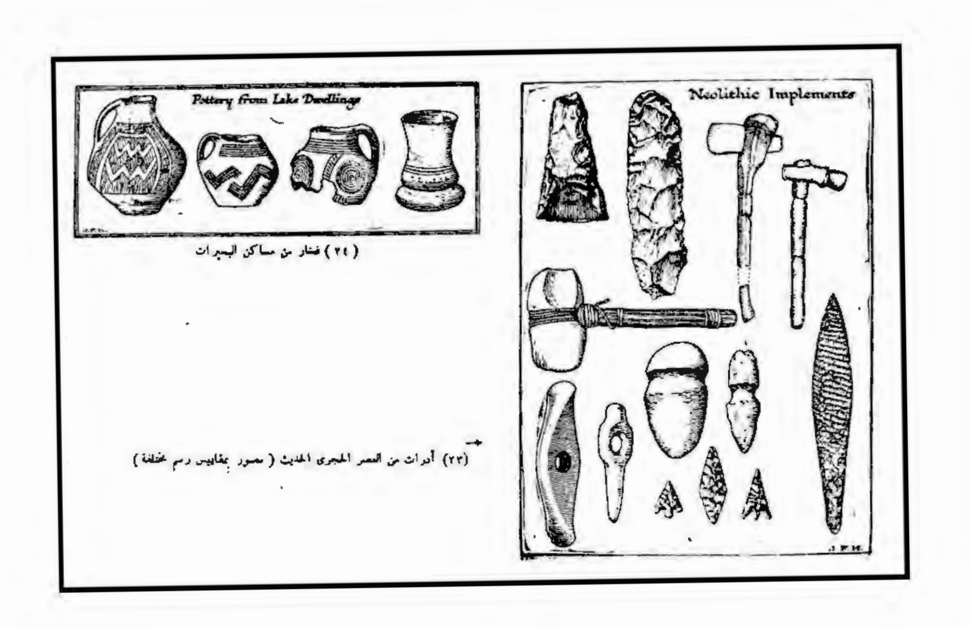
ج- عصر الزراعة وهو عصر الرجل الأبيض في أوربا.

وهو الذي ابتدأ فيها منذ عشرة آلاف سنة أو اثنا عشر ألفًا على أقصى تقدير، والذي كان العصر الحجري الحديث باكورته، والذي لا يزال مستمرًا إلى يومنا هذا. وقد اقترح إليوت سميث Elliot Smith أن يسد مى العصر رقم "أ" باسم الباليانثروبي Palaeanthropic أي (العصر القديم للإنسان) وأن يسمي كل ما تلاه باسم النيوأنثروبي Newanthropic أي (العصر الجديد للإنسان).



(٢٥) خوابي كوخية، لعل اليسرى منها تمثل أحد مساكن البحيرات

(٢٦) تمثال منحوت (منهير) من العهد الحجري الحديث وهو نقيض لما عليه فن العصر الحجري القديم من حرية وقوة



(٢٣) أدوات من العصر الحجرى الحديث (مصور بمقاييس رسم مختلفة) ←

(٢٤) فخار من مساكن البحيرات

(٢)
أين نشأت ثقافة العصر الحجري الحديث؟

لقد سبق القول إننا لا ندري حتى اليوم شيئًا عن الإقليم الذي أخذ فيه أسلاف شعوب العصر الحجري الحديث الضاربة إلى اللون البني يكوِّنون أنفسهم وينهضون من مرحلة العصر الحجري القديم في التطور الإنساني. والراجح أن ذلك قد حدث في مكان ما من آسيا الجنوبية الغربية، أو في بعض المناطق التي يغمرها البحر المتوسط الآن، أو يغطيها المحيط الهندي، وأنه بينما كان النياندرتاليون على ما هم عليه من شظف العيش في الجو القارس الذي كان يعم أوربا الجليدية، طفق أسلاف الإنسان الأبيض ينمون الفنون الخشنة التي تهيأت لهم في فترة العصر الحجري القديم المتأخر. ومضت مائة من القرون أو ما يقاربها، ما برح فيها رجال غزال الرنة يعيشون عيشًا لا تقدم فيه نسبيًا فوق سهوب فرنسا وألمانيا وإسبانيا، بينما كان القوم المحظوظون والآخذون بأسباب التقدم في الجنوب الشرقي، قد شرعوا يملكون ناصية الزراعة ويتعلمون كيف يرقون بكل أدواتهم، ويروضون الكلب ويؤنسون الماشية، ثم ينتشرون شمالاً كلما خفت وطأة المناخ في الشمال وأخذ المناخ الاستوائي يتحول قليلاً ما إلى مناخ مداري.

ولا تزال كل هذه الفصول الأولى في القصة الإنسانية بحاجة إلى من يزيل عنها الحجب. ولعلنا نعثر على المادة اللازمة في آسيا الصغرى وفارس وبلاد العرب والهند أو شمالي أفريقيا، أو عساها ترقد تحت أطباق مياه البحر المتوسط أو البحر الأحمر أو المحيط الهندي. فأما منذ اثنا عشر ألف سنة أو ما يقاربها – إذ إننا ما زلنا هنا بعيدين عن التحديد التاريخي الدقيق – فإن شعوب العصر الحجري الحديث كانت منتشرة في كل أرجاء أوربا وشمالي أفريقيا، وفي آسيا. كانوا شعوبًا يقاربون مستوى كثير من سكان الجزر البولينيزية [٤٢] في القرن الماضي، غير أنهم كانوا أكثر سكان العالم تقدمًا.

---

(٤٢) بالمحيط الهادي الجنوبي عند خ. ع ٣٠ْ جنوبًا وبين طول ١٧٠ْ شرقًا و١١٠ْ غربًا وأشهرها جزر هاواي وفيجي وساموان. (المترجم).

(٣)
الحياة اليومية إبان العصر الحجري الحديث

ربما لذ لنا أن نسوق بياناً موجزًا عن حياة الشعوب الأوربية في العصر الحجري الحديث قبل ظهور المعادن. وإنا لنستضيء في وصف هذه الحياة بمصادر مختلفة. ذلك أنهم كانوا ينثرون قماماتهم حولهم، وقد تجمعت تلك القمامات في بعض الأماكن (كشاطئ الدانيمرك مثلاً) فصارت كومات عظيمة، تسمى باسم مزابل المطبخ. وكانوا يدفنون بعض موتاهم، (وإن لم يدفنوا عامة الشعب) بعناية وتبجيل عظيمين، ويرفعون فوق نواويسهم أكوامًا هائلة من التراب. وهذه الأكوام هي القبور أو روابي الدفن [٤٣] التي هي من مظاهر المناظر الأوربية والهندية والأمريكية إلى وقتنا هذا. وكانوا يقيمون أحجارًا عظيمة متصلة بهذه الأكوام أو منفصلة عنها، وهي جنادل ضخمة Megaliths يقيمونها إما واحدة بمفردها أو جماعات. ومن أحسن أمثلتها المعروفة نصبًا ستون هنج في ولتشير، وكارناك Carnac في بريتالي، ولا يزال في الإمكان تتبع آثار قراهم في أماكن متعددة من أوربا.

تعدّ سويسرا من أغنى المصادر التي نستمد منها معلوماتنا عن الحياة في العصر الحجري الحديث، وقد كشف عنها الحجاب لأول مرة ذلك الشتاء الشديد الجفاف الذي جاء في ١٨٥٤ ذلك أن مستوى الماء انحط في إحدى البحيرات انحطاطًا لم يسمع به الناس من قبل، فانكشف الحجاب عن أسس "مساكن البحيرات" قبل التاريخية في العصر الحجري القديم وعصر البرونز الأول، وهي مساكن تبنى منيفة على الماء على نسق ما يماثلها من المنازل الموجودة اليوم في جزائر سلبيز Celbes وفي أماكن أخرى، وأخشاب هاتيك المصاطب القديمة لم تبق محفوظة سليمة وحسب، بل إن عددًا كبيرًا من الأواني والحلي المصنوعة من الخشب والعظام والحجر والفخار ثم بعض بقايا الطعام وما إليها – وجدت فيما تحتها من أكوام النبات المتحلل، حتى لقد استطاع العلماء أن يكشفوا أيضًا قطعًا من الثياب والشباك.

وكذلك وجدت أمثال مساكن البحيرات هذه في اسكتلندة وإرلندة وفي أماكن أخرى.

وتوجد بقايا معروفة مشهورة في جلاستون بري Glastonburry بمقاطعة سمرست. وكانت مساكن البحيرات في إرلندة آهلة بالسكان منذ الأزمنة قبل التاريخية حتى أيام كان أونيل O'Neil التيروني يحارب الإنجليز قبل نزول المستعمرين الاسكتلنديين ليحلوا محل الأرلنديين في آلستر Ulster بشمالي أرلندة، إبان حكم الملك جيمس الأول لإنجلترة. ولمساكن البحيرات هذه عندهم قيمة دفاعية عظيمة؛ ولا شك أن في السكنى فوق مياه فياضة جارية ميزة صحية عظيمة.

---

(٤٣) روابي الدفن Barrows هي كما هو واضح – قبور تقام فوقها تلال صناعية. (المترجم).

والراجح أن "مساكن البحيرات" السويسرية التي أقيمت في العصر الحجري الحديث لم تكن لتؤوي أكبر مجتمعات تلك الأيام. بل كانت مثوى فئات صغيرة تتبع نظام الأبوة. وأكبر الظن أنه كان في أماكن أخرى من السهوب الخصبة وفي الأراضي الريفية الأكثر اتساعًا، مجموعات من المنازل أكبر كثيرًا مما في هذه الوديان الجبلية. فإنك تجد في ولتشير بإنجلترة آثار وبقايا لمجتمع العائلات الكبير الذي ذكرنا. فإن بقايا الدائرة الحجرية في آفبوري بالقرب من ربوة سِلبوري Silbury كانت يومًا ما "أبدع البقايا الجندلية في أوربا". وكانت تتركب من دائرتين من الأحجار تحيط بهما دائرة أكبر منهما وخندق، وتشغل في مجموعها أرضاً مساحتها ثمانية وعشرين فدانًا إنجليزيًا ونصف فدان. وكان يمتد منها شارعان من الأحجار طول كل منهما ميل ونصف، ويتجهان غربًا وجنوبًا على جانبي تل سِلبوري، وهو أكبر ربوة اصطناعية قبل التاريخ في إنجلترة. وإن اتساع مساحات هذا المركز الخاص بعقيدة وحياة اجتماعيتين نسيهما الناس الآن تمام النسيان، لتدل على الجهود المتكاتفة والمصالح المشتركة لجمهور غفير من الناس مهما يبلغ من عظم تناثرهم فوق أراضي غربي إنجلترة وشرقيها ووسطها. ولعلهم كانوا يجتمعون في موسم خاص من السنة في ضرب بدائي من الأسواق. والراجح أن المجتمع بأكمله كان يتعاون في بناء الروابي وجر الأحجار. فأما سكان البحيرات السويسريون فيلوح أنهم يكادون يعيشون في قرى تعتمد على ذاتها.

ويعتبر سكان قرى البحيرات هؤلاء أكثر تقدمًا في وسائلهم وعرفانهم، وأكبر الظن أنهم أحدث عهدًا من أهل العصر الحجري الحديث الأولين الذين كانوا يكدسون روابي المحار المعروفة بمزابل المطابخ، والموجودة على سواحل الدانيمرك واسكتلندة. فهؤلاء الناس أصحاب مزابل المطابخ، قد يرجعون في القدم إلى عشرة آلاف سنة ق. م أو أكثر. وظلت مساكن البحيرات فيما يرجح مأهولة على الدوام من سنة ٥٠٠٠ أو سنة ٤٠٠٠ ق.م إلى ما يكاد يقارب الزمان التاريخي. وهؤلاء القوم – قوم مزابل المطبخ، من أشد شعوب العصر الحجري الحديث همجية. فإن بلطهم الحجرية خشنة، ولم تكن لديهم حيوانات مستأنسة عدا الكلب، وهو من سلالة متوسطة الحجم. أما سكان البحيرات فقد كان لديهم بالإضافة إلى هذا الحيوان، الثيران والماعز والضأن، ثم حصلوا فيما بعد على الخنزير بينما كانوا يقتربون من عصر البرونز. وبقايا الماشية والماعز منتشرة بين مخلفاتهم، وإذا راعينا الجو والإقليم المحيطين بهم رجحنا أن هذه الحيوانات كانت تأوي في الشتاء في المباني المقامة فوق القوائم الخشبية المنصوبة في البحيرات، وأن الأعلاف كانت تختزن من أجلها. ويرجح أن الحيوانات كانت تعيش مع الناس في نفس منازلهم، كما يعيش الناس والحيوان اليوم في أكواخ سويسرا، المقامة على شواطئ البحيرات.

ولعل الناس في المنازل كانوا يحلبون الأبقار والماعز، ولعل اللبن كان له في حياتهم الاقتصادية ذلك الأثر الهام الذي له في اقتصاديات السويسري الجبلي اليوم. ولكننا لم نصل بعدُ إلى حد التأكد من هذا الأمر. وليس اللبن طعامًا طبيعيًا للبالغين، فلا بد أنهم عدوه في مبدأ الأمر مادة تناولها عجيب. ولعلهم لم يستطيعوا الحصول على مقدار مستمر من اللبن من الأبقار والماعز إلا بعد لأي وبعد شيء كثير من استنتاج السلالات. وفي رأي بعض الناس أن استعمال اللبن والجبن والزبد وغيرها من منتجات الألبان ظهر في حياة الإنسان فيما بعد، عندما انتقل الناس إلى "الترحل"؛ على أن الكاتب ميال مع هذا إلى الاعتراف لرجال العصر

الحجري الحديث بفضل اكتشاف عملية الحلب. ولا بد أنهم كانوا يحفظون اللبن – إن صح أنهم اسـ تعملوه – في أوعية من الفخار (ولا شك في هذه الحالة أنهم عرفوا اللبن الرائب الحامض أيضًا، وإن لم يستعملوا جبنًا وزبدًا جيدي الصنع) ذلك أنهم كان لديهم الخزف وإن كان خزفهم مشغولاً باليد شغلاً خشنًا، وليس بـ الخزف الحسن الهيئة الذي تخرجه عجلة الخزاف.

على أنهم كانوا يزيدون مقدار طعامهم هذا بالصيد. فيقتلون الغزال الأحمر والوعل والجـ اموس البـ ري والخنزير البري ويأكلونها وكانوا يأكلون الثعلب، وهو ذو لحم حاد النكهة في الغالب، وليس مما يقدم عليه أي إنسان في عالم تكثر فيه الخيرات. وعجيب جدًا أنه لا يبدو أنهم أكلوا الأرنب البري، وقد كان طعامًـ ا فـ ي متناول أيديهم. والمظنون أنهم تجنبوا أكله كما يمتنع بعض المتوحشين إلى اليوم عن تناوله فيما يقال، لأنهـ م كانوا يخشون أن يجعلهم أكل لحم هذا الحيوان الرعديد جبناء عن طريق العدوى.

ومعلوماتنا عن وسائلهم في الزراعة قليلة نادرة. إذ لم يعثر لهم على محاريث أو مناجل لأنها كانت مـ ن الخشب فاندثرت. وزرع رجال العصر الحجري الحديث الحنطة والشعير والذرة الرفيعة وأكلوها. بيد أنهم لم يعرفوا شيئًا عن الشوفان والجودار Rye، وكانوا يحمصون حبوبهم ويطحنونها بين الأحجار ويختزنونها في أوعية لتؤكل عند الحاجة، وخبزهم شديد التماسك والثقل، لأن قطعًا منه مسطحة مستديرة استخرجت من تلك الرواسب. ويبدو أنهم لم يعرفوا الخميرة، فإن صح هذا، فمعناه أنهم لم يعرفوا الشراب المخمر.

وثمة ضرب من الشعير عثر عليه لديهم هو الضرب الذي كـ ان يزرعـ ه قـ دماء الإغريـ ق والرومـ ان والمصريين. وكان لديهم أيضًا ضرب من الحنطة مصري، مما يدل على أن أسلافهم استجلبوا تلك الزراعـ ة من الجنوب الشرقي أو أخذوها عنه، فإن مركز انتشار الحنطة كان مكانًا ما في منطقـ ة البحـ ر المتوسـ ط الشرقي. ولا يزال ضرب بري منه موجودًا في جوار جبل هرمون Mount Hermon. وعندما كان سكان البحيرات يزرعون قطع الأرض الصغيرة قمحًا في سويسرا، كانوا عند ذاك يترسمون خطى الجنس البشري منذ أيام لا أول لها، ولا بد أن البذور استجلبت عصرًا فعصرًا من مركز الانتشار البعيد الذي تحدثنا عنـ ه. فإن الرجال في أرض الأجداد في الجنوب الشرقي اضطلعوا من قبل ببذر الحنطة مدة ربما بلغت آلافًا مـ ن السنين. إذ إن جميع شعوب العالم القديم الذين درجوا إلى مرحلة العصر الحجري الحديث زرعـ وا الحنطـ ة وطعموها. على أنه لا بد أن هنود أمريكا قد طوروا الزراعة بعد انفصالهم عن أهل العالم القديم. ولـ م تكـ ن لديهم الحنطة قط، ولكنهم زرعوا الذرة الهندية، وهي حب خاص بالعالم الجديد. وسكان البحيـ رات هـ ؤلاء أكلوا أيضًا البازلاء والتفاح البري، وهو التفاح الوحيد الذي كان موجودًا في العالم إذ ذاك. ولم يكن الازدراع والانتخاب قد أنتجا بعد تفاحة العصر الرهن.

وقد كسوا أجسامهم، ولكن أهم ما يرتدونه هو الجلود. على أنهم صنعوا أيضًا ضربًا خشنًا من نسيج الكتان، وقد وجدت قطع من ذلك النسيج الكتاني. وشباك الصيد لديهم من الكتان أيضًا، ولم يكن لديهم حتى ذلك الحين أي علم بالقنّب أو حبال القنب، وزادت دبابيسهم وكثرت حليهم بمجيء البرونز. ولدينا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا يهتمون بشعرهم اهتمامًا كبيرًا، فكانوا يرجلونه خصلاً كبيرة يمسكونها بدبابيس من العظام أصبحت فيما بعد من المعادن. وإذا جاز لنا أن نحكم على ثيابهم رغم عدم وجود صور واقعية منحوتة أو محفورة أو ملونة، قلنا إنهم إما لم يكونوا يزينون ثيابهم قط أو إنهم كانوا يزينونها بالخطوط المتقاطعة (على طريقة القماش المسمى بالاسكوتش) وبالنقاط والتصميمات المتشابكة وما أشبهها من الزخارف العرفية. وليس هناك أي شاهد يدل على وجود الكراسي أو المناضد قبل ظهور البرونز. والراجح أن أهل العصر الحجري الحديث كانوا يجلسون القرفصاء على أرض بيوتهم الطينية، ولم يكن هناك قطاط في مساكن البحيرات هذه، ولم تكن الفئران أو الجرذان قد كيفت نفسها والمساكن الإنسانية، ولم تكن قوقأة الدجاجة قد أضيفت بعد إلى ما يسمع في حياة الإنسان من أصوات، كما لم تكن البيضة المنزلية قد أضيفت إلى غذائه. ذلك أن الدواجن وبيض الدجاج لم تضف إلى مطبخ الإنسان إلا في عهد متأخر رغم ما لها الآن من شأن كبير في غذائنا، فلسنا نجد للدجاجة ذكرًا في (العهد القديم) كما لا نجد لها ذكرًا في إلياذة هوميروس، ولكنا نجد إشارة إلى البيضة في الآية ٦ الإصحاح ٦ من سفر أيوب، فالدجاج الوحيد في العالم حتى قرابة ١٥٠٠ ق. م كان من قواطن الأحراش في بلاد الهند وبورما. وقد لاحظ جلاسفيرد Glasfurd صياح ديكة الأحراش في بياناته الشائقة عن صيد الببر، ووصفه بأنه البشير الذي لا ينفك يؤذن بطلوع الفجر في الأحراش الهندية. والراجح أن الدواجن استؤنست لأول مرة في بورما، ومنها انتقلت إلى الصين قرابة ١١٠٩ ق. م فقط كما تقول السجلات. وهي قد وصلت بلاد اليونان بطريق بلاد فارس قبل زمن سقراط. ولكننا نجد في أسفار العهد الجديد، لا العهد القديم، أن صياح الديكة يؤنب بطرس على خيانة "السيد".

أهم آلات رجل العصر الحجري الحديث وأسلحته هو بلطته. وثانيها هو القوس والنشاب وكانت رءوس سهامه من الظران، وهي جميلة الصنع، كان يربطها ربطاً وثيقًا إلى ساق سهمها. والراجح أنه كان يعد الأرض لبذاره بمساعدة هراوة، أو بمعونة عمود ألصق فيه قرن وعل، وكان يصطاد السمك بالشص أو الحربة، وكانت هذه الآلات ولا شك تلقى متفرقة في جوانب البيت، الذي كانت تتدلى من حيطانه شباك الصيد. فأما الأرضية وهي من الطين، أو من روث البقر المُداس بالأقدام – على مثال أرضية العشوش في الهند اليوم – فقد انتثرت عليها قدور وخوابٍ وسلال منسوجة تحتوي القمح واللبن، وما إليه من طعام. وكان بعض الأوعية والحلل يتدلى من عُرىً للحبال في السقف، وترقد الحيوانات في أحد جوانب الحجرة، فيساعد وجودها على تدفئة الحجرة شتاء بما لها من حرارة حيوانية ويخرج الأطفال بالبقر والماعز لترعى، ويعيدونها في الليل قبل أن تفتك بها الدببة والذئاب.

ووجود القوس عند رجل العصر الحجري الحديث يرجح أيضًا وجود الآلات الوترية لديه، لأن الرنين الإيقاعي الذي لوتر القوس أمر يكاد يؤدي إلى ذلك حتمًا. وكانت لديه أيضًا طبول من الفخار يشد عليها الجلود، ولعله صنع الطبول أيضًا بشد الجلود إلى جذع شجرة أجوف. والصفارات العظيمة معروفة للناس حتى منذ العصر الحجري القديم. ولنا أن نزعم أن صفارات القصب اختراع مبكر قديم. ولسنا ندري متى أخذ الإنسان في الغناء، لكن من البيِّن أنه كان ينتج الموسيقى. ذلك أنه لما كانت لديه الألفاظ، فلا ريب في أنه قد ألف الأغاني، ولعله ابتدأ بإرسال صوته على سجيته كما قد يسمع المرء اليوم مثل ذلك من الفلاحين الإيطاليين خلف محاريثهم حين يغنون أغاني بلا ألفاظ. وكان الإنسان يجلس في داره وقد سجا ليل الشتاء، يتحادث ويردد الألحان، ويصنع بعض الآلات، معتمدًا على حاسة اللمس دون البصر، وليس ثم شك في حقارة ما لديه من وسائل الإضاءة، وأهمها ضوء النار. ولكن الراجح أن كانت هناك على الدوام نار موقدة في القرية آناء الصيف، وأطراف الشتاء، إذ كان إيقاد النار يجشم الرجال من الجهد ما لا يسعهم معه أن يدعوها تفلت من أيديهم مختارين، وقد تحدث في بعض الأحايين كارثة عظيمة لقرى البحيرات هذه حين تنطلق النار فتحرقها بأكملها. والبقايا السويسرية تحتوي في ركامها ما يدل على حدوث أمثال هذه الكوارث.

وقد جمعنا كل هذا الذي ذكرناه من بقايا مساكن البحيرات السويسرية، وتلك هي صفة الحياة الإنسانية التي كانت منتشرة في أوربا؛ والتي جاءت من الجنوب والشرق مع ظهور الغابات حين أخذ غزال الرنة ورجاله في الزوال. وواضح أن بين أيدينا الآن طريقة من طرائق الحياة. يفصلها واد عظيم من آلاف سني الاختراع، عن مرحلة العصر الحجري القديم الأصلية. ولسنا نستطيع إلا الرجم بالحدس في الخطوات التي نهضت بها هذه الحياة عن تلك الحالة. ولعل الإنسان انتقل على درجات غير مدركة من صياد يحوم حول أطراف قطعان الماشية والضأن البرية..، ومن مشارك للكلب في صيده، إلى أن أصبح له نوع من الإحساس بملكية الحيوانات، وإلى أن أنشأ بينه وبين منافسه الكلب مودة وصداقة. فتعلم كيف يرد الماشية والضأن البرية..، ومن مشارك للكلب في صيده، إلى أن أصبح له نوع من الإحساس بملكية الحيوانات، وإلى أن أنشأ بينه وبين منافسه الكلب مودة وصداقة. فتعلم كيف يرد الماشية إذا هامت في الأرض أكثر مما ينبغي، وجعل يحمل عقله الأوسع من عقولها على قيادتها إلى مرعى أوفر عشبًا. ثم هو يظل يدفع بالحيوانات ليحصرها في وديان وحظائر، حتى يتحقق من إمكان عثوره عليها مرة ثانية. وكان يطعمها إذا سغبت، وبذلك استطاع أن يستأنسها في بطء ومهل، وربما ابتدأت زراعته مع اختزانه الأعلاف، فإنه حصد لا جرم قبل أن يبذر. ألم تر إلى الأسلاف في العصر الحجري القديم في تلك البلاد الأصلية البعيدة المجهولة في الجنوب الشرقي، كيف ابتدءوا باستكمال ما ينقص الصيادين من اللحم بتناول الجذور والفواكه والحبوب البرية؟ ومن المشكوك فيه أن يكون الإنسان البدائي في أي مرحلة من مراحله لحِمًا تمامًا معتمدًا في طعامه على اللحم فقط.

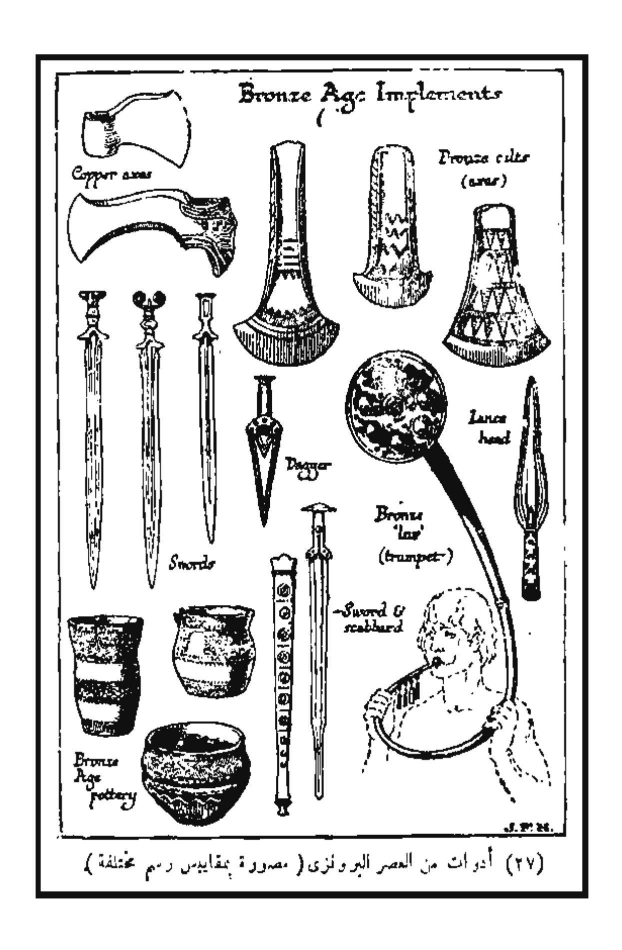
فإنه ابتدأ في زمن ما بأن يزرع – ما في ذلك ريب.

ويظهر لنا السير ج. ج فريزر في كتابه العظيم "Golben Bough" أن من أعجب الأعاجيب ومن أعظم الحقائق أهمية في نماء المجتمع الإنساني أن فكرة البذار كانت مشتبكة اشتباكًا لا تفصم عراه في ذهن رجـ ل العصر الحجري الحديث البدائي مع فكرة التضحية الإنسانية. كانت خليطًا معقدًا في ذلك العقل البدائي الحالم الذي يشبه عقول الأطفال، ذلك العقل الذي كان يصنع الخرافات. وما من سبيل إلـ ى تفسـ ير ذلـ ك تفسـ يرًا معقولاً. ففي ذلك العالم القديم قبل عشرة آلاف من السنين كانت تقدم أضحية إنسانية كلما حان أوان البـ ذار، ولم يكن الأمر تضحية بأي شخص وضيع أو منبوذ، بل كان كما جرى العرف تضحية بشاب مختار أو فتـ اة مختارة، وكان المختار في غالب النياندرتاليين لأحايين فتى يعامل باحترام عميق وتبجيل عظيم حتى سـ اعة التضحية. وكان يعد في غالب أمره "ملكًا ربا" كتبت عليه التضحية، ثم أصبحت كل تفاصيل قتله من بعـ ض الطقوس المقدسة، التي يقوم عليها الكهول (العارفون) ويقرها ما جرى عليه العرف المتكـ رر علـ ى امتـ داد العصور.

وهذه التضحية الإنسانية أو بعض أثر يتبقى منها تبدو في كل مكان بلغ فيه الإنسان بـ دايات الزراعـ ة أو تخطاها.

(٤)
التجارة البدائية

لا بد أن كل هذه البدايات المبكرة حدثت في زمان قديم جدًا وفي أقاليم من العالم لا تزال بحاجة إلـ ى أن تفحصها يد علماء الآثار فحصًا منتجًا فعالاً. وكان رجال العصر الحجري الحديث قد تخطوا هذه البدايات منذ أزمان بعيدة، واقتربوا من فجر التقاليد المكتوبة ومن تاريخ الجنس البشري، الذي لا تزال الذاكرة تعيه، حتى أمسوا لا تفصلهم عنه إلا بضع آلاف من السنين، ثم ظهر البرونز آخر الأمر في الحياة الإنسانية. فلم يحدث هزة عظيمة أو صدعًا كبيرًا، غير أنه أتاح للقبائل التي سبقت غيرها إلى اكتشافه ميزة عظيمة في الحروب. وكان التاريخ المكتوب قد ابتدأ فعلاً قبل دخول الأسلحة الحديدية إلى أوربا لتحل محل البرونز.



(٢٧) أدوات من العصر البرونزي (مصورة بمقاييس رسم مختلفة)

	أوربا	مصر	أرض الجزيرة
١٨ر٠٠٠ ق.م –	–	الإنسان يدخل المرحلة النيوليثية	
–	فترة		
–	المهوب		
–	إنسان غزال الرنة	بدايات الزارعة	
١٥ر٠٠٠ ق.م –	ذاهب	–	–
–	فترة انتقال الغابات		
١٢ر٠٠٠ ق.م –	الأزيل		
		–	–
–	–	–	–
–	–	–	–
–	–	–	–
		–	–
		–	–
	رجال العصر الحجرى	–	–
١٠ر٠٠٠ ق.م –	الحديث ينتشرون فى أوربا	–	–
	الثقافة النطوفية		
٨ر٠٠٠ ق.م –	أول مساكن البحيرات	–	فجر الحضارة السومرية
–	–	تطور	
–	–	–	البرونزى
٦ر٠٠٠ ق.م –	–	–	العبيد = إريدو
٥ر٠٠٠ ق.م –	–	الأسرة الأولى	أول كتابة سومرية (٥ر٠٠٠)
٤ر٠٠٠ ق.م –	–	الأهرام	–
٣ر٠٠٠ ق.م –	البرونزى	–	–
	إنشاء مجموعة اللغات	–	سارجون الأول
٢ر٠٠٠ ق.م –	الآرية		
١ر٠٠٠ ق.م –	الحديدى	–	الحديدى
٣٢٠ ق.م –	الإسكندر الأكبر		
٥٠ ق.م –		يوليوس قيصر	
م –		الحقبة المسيحية	
١٩٢٩			

(٢٨) بيان زمنى يوضح الطول العام لفترة العصر الحجرى الحديث
التى تطور فيها الفكر المبكر

ولا شك أنه ابتدأ في تلك الأيام بالفعل ضرب من التجارة البدائية. فإن البرونز والأسلحة البرونزية والأحجار النادرة والصلبة أمثال الكهرمان الأسود والذهب (بسبب إمكان تشكيلة وصوغه حليًا) والكهرمان (بسبب ما له من جمال نفاذ للضياء)، والجلود ونسيج الكتان وشباكه – كانت جميعًا موضع المقايضة، أو كانت تسرق وتنقل من يد إلى أخرى فوق مساحات فسيحة من الأرض. ولعل الملح أيضًا كان ضمن ما يتَّجر به، ويستطيع الناس أن يعيشوا من غير ملح ما اعتمدوا على غذاء من اللحم، في حين أن مستهلكي الحبوب من الناس محتاجون إليه احتياج الحيوان العاشب. ويقول المستر هوبف Hopf إنه طالما نشبت حروب مريرة بين القبائل الصحراوية السودانية في السنين الأخيرة على امتلاك رواسب الملح في فزان. وفي مبدأ الأمر كانت المقايضة والابتزاز بالتهديد والجزية والسرقة بالإكراه يتطرق أحدها إلى الآخر على درجات غير محسوسة. فكان الناس يحصلون على ما يشتهون بأية وسيلة استطاعوا.

(٥)

امتلاء وادي البحر المتوسط

لقد ظللنا حتى الآن نقص عليك تاريخاً بلا أحداث، تاريخ عصور وآماد ومراحل من التطور. ولكنا قبل أن نختم لك هذا القسم من القصة الإنسانية، ينبغي لنا أن نسجل شيئًا قد يكون ذا أهمية أولية، وربما كان في مبتدأ أمره ذا أهمية محزنة في تطور الجنس البشري، هذا الحادث هو انسياب مياه المحيط الأطلنطي إلى وادي البحر المتوسط العظيم.

ويجب أن يتذكر القارئ على الدوام أننا نحاول جهدنا أن نعطيه بيانات واضحة يستطيع أن يتقبلها مرتاحًا راضي النفس. على أنه يوجد بالضرورة في مادة خرائطنا الزمنية وخرائطنا العادية، التي أوردناها مبينة للجغرافيا قبل التاريخ، قدر كبير من المادة يعتمد على مجرد الظن. ولقد أزحنا عصر الجليد الأخير وظهور الإنسان الحق منذ حوالي خمسين ألفًا أو خمسة وثلاثين ألفًا خلت من السنين. وإنا لنرجو القارئ أن يتذكر جيدًا كلمة (حوالي) هذه، فقد تكون حقيقة ذلك هي الستين ألفًا أو العشرين ألفًا من السنين. ولسنا نكتفي في تقدير هذه بقولنا "منذ زمان بعيد" أو "منذ عصور سحيقة" إذ لا غناء في مثل هذه العبارات، لأن القارئ لن يعرف منها أنحن نعني القرون أم الملايين من السنين. ولهذا كانت الصور والأشكال أدق كثيرًا. فإن تلك الخرائط التي نوردها لا تمثل الحقيقة بل تمثل شيئًا يشابه الحقيقة. فكأننا نقول إن معالم الأرض تكاد تقارب هذه المعالم أي إنه كان هناك ما يماثل هذه البحار وما يماثل تلك الكتل الأرضية. على أن كلاً من المستر هورابين Horrabin الذي قام برسم هذه الخرائط وكاتب هذه السطور الذي دعاه إلى رسم تلك الخرائط، قد آثر أن يلتزم الحذر لأن الخطأ فيه أسلم من الخطأ في الإسراف والمبالغة. فنحن لم نصل في الجيولوجيا إلى الحد الذي يسوّغ لنا أن نمخر عباب المباحث الأصلية في تلك الشئون، ولذا تجدنا التزمنا في البحر خط الأربعين قامة عمقًا وفي البر الرواسب الحديثة، واتخذناهما دليلاً يرشدنا في خريطتنا عن "عصر ما بعد الجليد"، وفي الخريطة الخاصة بالحقبة من سنة ١٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق. م. على أننا تخطينا هذين الدليلين في أمر واحد. فإن من المحقق عمليًا أنه عند نهاية العصر الجليدي الأخير كان البحر المتوسط مكونًا من حوضي بحرين محوطين بالأراضي لا يتصل أحدهما بالآخر أو يتصلان فقط بنهر سيلي فيضي. وكان الحوض الشرقي أعذب الحوضين ماء؛ لأن مياه النيل والنهر الأدرياتي ونهر البحر الأحمر كانت تغذيه بالمياه العذبة، وربما كان يغذيه كذلك نهر ينصب بين الجبال التي هي الآن الأرخبيل اليوناني خارجًا من بحر وسط آسيا. كان موجودًا حينذاك وكان أعظم كثيرًا من كل الأنهار التي ذكرنا. ويكاد يكون محققًا أن رجال العصر الحجري الحديث جاسوا خلال فردوس البحر المتوسط المفقود.

والأسباب التي تحملنا على القول بهذا وجيهة وواضحة جدًا. فإن البحر المتوسط لا يزال حتى اليوم بحرًا يتبخر ماؤه. فالأنهار التي تصب فيه لا تعوضه عما يفقد سطحه بسبب البخر. وهناك تيـ ـار مسـ ـتمر لميـ ـاه تنصب إلى البحر المتوسط من المحيط الأطلنطي، وتيار آخر ينساب خلال البسفور من البحر الأسود. ذلـ ـك أن البحر الأسود يتلقى من مياه الأنهار العظيمة التي تنصب فيه، فوق ما هو في حاجة إليه. فهو بحر يفيض بالمياه على حين كان البحر المتوسط بحرًا دائم التعطش إليها. ومن ذلك يتضح أنه عندما كان البحر المتوسط منفصلاً عن كل من المحيط الأطلنطي والبحر الأسود على السواء، كان من غير شك بحـ ـرًا متناقصًـ ـا، وأن مياهه كانت تهبط إلى مستوى أدنى كثيرًا من مستويات المحيط في خارجه. وهذه هي حال بحر قزوين اليوم، وهي أكثر انطباقًا على حال البحر الميت.

فإن كان هذا التعليل سليمًا فلا بد أن كانت هناك أرض حيث تلتطم اليوم أمواج البحر المتوسط، ولا بد أن كانت هذه الأرض شاسعة ولا بد أن كان جوها معتدلاً ملائمًا. ولعل الحال كانت كذلك في العصر الجليـ ـدي الأخير. ولسنا ندري على وجه التحقيق متى تغيرت هذه الحال فنفذت مياه المحـ ـيط إلـ ـى حـ ـوض البحـ ـر المتوسط. ولكننا نعلم علم اليقين أن قومًا من الأزيليين وأهل العصر الحجري الحديث كانوا يتقلبون في أنحاء الوديان والغابات التي اندثرت فيما بعد تحت مياه البحر المتوسط. ثم نعلم علمًا لا يبلغ درجة اليقين أن الأقوام البيض الداكنين في العصر الحجري الحديث ربما كانوا قد تقدموا نحو بدايات الاستقرار والمدنية فـ ـي ذلـ ـك الوادي الذي غمره البحر.

وللمستر و. ب. رايت W.B. Right بعض آراء مثيرة شائقة في هذا الشأن. فهو يرى أنه كانـ ـت فـ ـي حوض البحر المتوسط بحيرتان: إحداهما بحيرة عذبة الماء في المنخفض الشرقي، تنصـ ـرف مياههـ ـا فـ ـي البحيرة الثانية التي في المنخفض الغربي. ومن الطريف أن نتخيل ما لا بد أن حدث عنـ ـدما عـ ـلا مسـ ـتوى المحيط مرة أخرى نتيجة لذوبان بساط الثلوج، فأخذت مياهه تنصب إلى متسع البحر المتوسـ ـط، ولا بـ ـد أن ذلك الانسياب – وكان قليلاً في بادئ الأمر – قد تزايد حتى أصبح في النهاية مهولا مروعًـ ـا، مـ ـع تـ ـوالي انخفاض النتوء الذي في قاع المضيق بفعل التحاتّ ومع الزيادة البطيئة في مستوى المحيط. فإذا كانت هنـ ـاك أي مواد غير متماسكة في نتوء المضيق فلا بد أن تكون النتيجة تفككها تفككًا حقيقيًا. ولو أنا حسـ ـبنا المـ ـدة المديدة التي استغرقها هذا السيل الهائل العظيم في ملء متسع هائل كحوض البحر المتوسط، أدركنا أن هـ ـذه النتيجة محتملة الحدوث على كل حال. وربما بدا كل هذا ضربًا من أشد أنواع التفكير النظري إمعانًـ ـا فـ ـي الغرابة. على أنه ليس كذلك من كل الأوجه، إذ إننا إذا فحصنا خريطة تمثل الارتفاعات المختلفة لقاع البحـ ـر عند مضيق جبل طارق، وجدنا أن هناك واديًا عظيمًا يرتفع من أعماق البحر المتوسط ويختـ ـرق المضـ ـيق ويسير مسافة ما في أحضان شاطئ المحيط الأطلنطي. والراجح أن هذا الـ ـوادي أو الخـ ـانق تكـ ـوّن نتيجـ ـة لانصباب مياه المحيط في البحر عند نهاية مدة الصرف الداخلي.

وما من شك في أن هذا الامتلاء الذي يرجح حدوثه فيما بين ١٥٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ سنة ق. م وفقًا للتقديرات الزمنية الإجمالية التي نستعملها في كتابنا هذا، كان من بين أعظم الأحداث الفريدة في الزمن السابق لتاريخ جنسنا. فإذا كان التاريخ الأخير هو أصدق الاثنين، فإن بدايات المدنية الفجة وأعني بها مساكن البحيرات الأولى والزراعة الأولى، نشأت فيما يرجح حول تلك البحيرة الشرقية أي ذلك البحر العذب المياه الذي لم يكن ينصب فيه نهر النيل وحده، بل ينصب فيه كذلك النهران العظيمان اللذان هما اليوم البحر الأدرياتي والبحر الأحمر.

وعلى حين فجأة أخذت مياه المحيط تعلو فوق نتوء التلال الغربية المعترضة في قاع المضيق وتنصب على هذه الشعوب البدائية وقد أصبحت تلك البحيرات التي كانت ملاذهم وصديقهم عدوًا لدودًا لهم، فكانت مياهها تعلو ثم تعلو ولا تنخفض قط. فأغرقت مستقراتهم وسارت المياه في أثرهم وهم يهربون منها مهطعين، وأخذت المياه تغطي على الوديان وتدفع بالجنس البشري أمامها يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة. ولا بد أن يكون قد أحاط بكثير منهم ذلك الفيض من الماء الملح الدائب الارتفاع، والذي لم يكن أمام لججه ما يصدها عنهم والذي لم يكن للناس منه عاصم، كلا!! بل كان يتقدم أسرع فأسرع ويعلو ويعلو رءوس الأشجار ويغطي التلال، حتى ملأ حوض البحر المتوسط الحالي بأسره، وحتى احتضن جبال بلاد العرب وأفريقيا. حدثت هذه الكارثة في ذلك الزمان السحيق، قبل بزوغ فجر التاريخ المكتوب بوقت طويل.

ولعل ستارًا من الماء قد أسدل بذلك على طائفة من أكثر مناظر هذه المسرحية الإنسانية فتنة وجمالاً.

الفصل العاشر

الفكر المبكر

١- الفلسفة البدائية.

٢- الرجل المسن في الدين.

٣- عاملا الخوف والأمل في الدين.

٤- النجوم والفصول.

٥- قص الأقاصيص وإنشاء الأساطير.

٦- الأصول المعقدة للديانات.

(١)
الفلسفة البدائية

قبل أن نواصل الحديث ونخبرك كيف حدث منذ ستة آلاف سنة أو سبعة، أن أخذ الناس يجتمع ون ف ي المدن الأولى ويكونون شيئًا يزيد على القبائل المتفككة العرى التي كانت حتى ذلك الحين أعلى مجموع اتهم السياسية، لا بد لنا من كلمة نسوقها عن الأفكار، التي كانت تتردد في خبيئة تلك العقول التي تتبعن ا نماءه ا وتطورها خلال مدة طولها خمسمائة ألف سنة منذ مرحلة الإنسان القرد.

ماذا كان رأي الإنسان في نفسه وفي العالم أثناء تلك الأيام الخوالي؟ لم يكن يفكر في بادي الأمر ف ي أي شيء عدا الأشياء التي تهمه مباشرة، فلم يكن يشغله بادئ الرأي إلا التفكير مثلاً في طريقة للخلاص من الدّب إن اعترض الدبُّ طريقه، أو الحصول على السنجاب إذا لقي السنجاب. وقبل أن تتطور لغته إلى حد ما، ل م يكن بقادر إلا على الشيء القليل من التفكير الذي لا يتجاوز نطاق الخبرة العملية البحتة، لأن اللغة ه ي أداة التفكير شأن مسك الدفاتر في كونه أداة الأشغال. فهي تسجل وتثبّت وتمكن الفكر من الانتقال إلى أفكار تتزايد درجة تعقيدها شيئًا فشيئًا. هي يد العقل يمسك بها الأشياء ويختزنها لديه.

والراجح أن الإنسان الأول كان قبل أن يستطيع الكلام يرى الأشياء واضحة بينة، ويقلد ما ي رى بغاي ة المهارة، ويأتي بالحركات والإيماءات، ويضحك ويرقص ويعيش من غير إعمال أي فكر عن: أي ان ج اء؟ ولماذا يعيش؟ كان يخشى الظلام لا جرم، ويخاف الصواعق والحيوانات الكبيرة، والأشياء الش اذة الهيئ ة، ويخشى أي شيء تأتيه به الرؤيا في المنام. ولا ريب في أنه كان يأتي أمورًا يستجلب بها رضاء الأشياء التي كان يخشاها أو يغير بها طالعه ويدخل بها السرور على القوى الوهمية التي خالها ف ي الص خر وال وحش والنهر. ولم يكن تمييزه بين الكائنات الحية وبين الجمادات تمييزًا واضحًا جليًا، فإن آذته عصا لكزها بقدمه. وإن أرغى النهر وفاض، ظنه عدوًا مبينًا. وكان فكره فيما يرجح قريبًا جدًا من مستوى عقل طف ل ص غير ذكي في الرابعة أو الخامسة من عمره. فكان له نفس ما للطفل من عدم تعقل ومن تقلب أهواء. وكان ت ل ه نفس الأغلال التي تحد أفق عقل ذلك الطفل. ولكن لما لم يكن لديه إلا القليل من الحديث واللغة، أو لم يك ن لديه حديث بتاتًا، فإنه لم يستطع إلا قليلاً أن ينقل إلى غيره الخيالات التي كانت تطيف ب ه أو أن ينش ئ أي تقاليد أو أفعال جمعية تدور حول التقاليد.

ورسوم الإنسان حتى ما يرجع منها إلى العصر الحجري القديم المتأخر، لا تحمل أية إشارة إلى أنه ك ان يهتم أدنى اهتمام بالشمس أو القمر أو النجوم أو الأشجار. بل كان الحيوان والإنس ان دون غيرهم ا ش غله الشاغل. ولعله كان يعد الليل والنهار والشمس والنجوم والأشجار والجبال أمورًا من طبيعة الأشياء شأنه ف ي ذلك شأن الصبي إذ ينظر إلى مواعيد طعامه، وإلى اللعبة الصغيرة التي يلهو بها، بوصفها أش ياء معترفً ا بوجودها مسلمًا بها وفي اعتقادنا أنه لم يكن ينشئ أي رسوم خيالية ولا أي أشباح ولا أي ش يء م ن ه ذا القبيل. ورسوم رجل غزال الرنة إنما هي رسوم لأشياء مألوفة لا يداخلها الخوف، وليس فيها أي أثر للتوقير

والاحترام. ولعله كان يشعر أن رسم الوحش يجذب الوحش إليه، وربما كانت رسومه رسوماً سحرية تجلب الحظ في القنص، ولكن لا يبدو عليها أنها رسمه بغية التعبد. ولا يكاد المرء يعثر بين كل ما أنتجه على شيء نستطيع أن نزعمه رمزًا دينيًا يحتوي سرًا من أسرار الدين.

ولا مراء في أن حياته كانت تضم قدرًا معيناً مما يسميه الناس باسم الفتيشية فإنه كثيرًا ما أتى أشياء يرمي بها إلى الوصول إلى نتائج يرغبها، وهي لعمري أشياء نراها نحن اليوم غير معقولة، لأن ذلك هو أقصى ما تستطيع الفتيشية بلوغه؛ فما الفتيشية إلا العلم الخاطئ المبني على الحدس والتخمين أو الاستنباط الخاطئ، وهي تختلف في طبيعتها تمام الاختلاف عن الدين. ولا ريب أن أحلامه كانت تستثيره، وأنها كانت في بعض الأحيان تختلط بما يؤثر في ذهنه أثناء اليقظة من مؤثرات وتبلبل فؤاده. ولما كان ذلك الإنسان يدفن موتاه، ولما كان الرجل النياندرتالي المتأخر نفسه يلوح كأنما كان يدفن الموتى ومعهم الطعام والأسلحة كما يعرف القارئ، أخذ بعض الناس يحاج بأنه كان يعتقد في وجود حياة مستقبلة. على أنه من المعقول أيضًا أن يكون الرجال الأوائل قد دفنوا موتاهم ومعهم طعامهم وأسلحتهم ارتيابًا في أن موتاهم قد فارقوا الحياة حقًا. ولا يدل هذا في نفسه على إيمانهم بخلود الروح. وكانوا يرون موتاهم في أحلامهم فتقوى عندهم العقيدة بأنهم ما زالوا أحياء، ولعلهم كانوا يعزون إليهم التحول إلى صورة الذئاب إلى حين، ثم يحاولون استرضاءهم.

وإنا لنشعر أن رجل غزال الرنة كان من الذكاء والمشابهة لأشخاصنا على صورة لا تسمح بألا تكون له لغة. على أنه من الراجح جدًا أنها لم تكن لتعينه عوناً كبيرًا في أي شيء يتجاوز الإيضاح المباشر أو التحدث بما يقع. كان يعيش في مجتمع أكبر من مجتمع الرجل النياندرتالي أو من مجتمع سلفه هو المباشر شبه النياندرتالي (٤٤) أو مجتمع أي قرد كبير، ولكن كم كان حجم القبيلة؟ هذا ما لا نعرفه. على أنه تحتم على مجتمعات الصيد ألا تقيم بعضها مع بعض في مجاميع كبيرة، وإلا هلكت جوعًا، ما لم تكن الأرض زاخرة بالصيد الجم. والهنود الذين يعتمدون على غزال الكاريبو في (لابرادور) يعيشون في ظروف شبيهة بظروف رجال غزال الرنة. فقد كانوا ينتشرون في جماعات عائلية صغيرة مثلما ينتشر الكاريبو بحثًا عن طعامه، ولكن عندما يجتمع الغزال استعدادًا للهجرة الموسمية يحذو الهنود حذوه ويجتمعون. وهذا هو أوان التجارة والأعياد والزواج لديهم.

وأبسط رجل هندي أمريكي متفوق في خبرته بأمور الدنيا على الإنسان النياندرتالي بمقدار عشرة آلاف سنة، ولكن الراجح أن هذا الضرب من التجمع والتفرق هو نفس طريقة رجل غزال الرنة. وتوجد في سوليوتريه (Solutré) بفرنسا آثار تدل على مكان عظيم كانوا يخيمون فيه ويقيمون. وكان الناس يتبادلون الأخبار في ذلك المخيَّم ولا ريب. ولكن المرء منه في حل من أن يرتاب أنه كان ثمة أي تبادل للأفكار، ولسنا نرى في مثل هاتيك الحياة أي مجال للإلهيات أو الفلسفة أو الخرافات أو النظر التأملي في الأمور. فأما المخاوف فنعم، لكنها مخاوف غير منظمة؛ وكانت لديه أوهام وهواجس من نسج الخيال، ولكنها كانت هواجس وأوهامًا شخصية عابرة سريعة الزوال.

---

(٤٤) Neanderthaloid

وربما انطوت تلك الحالات على قدر معين من قوة الإيحاء. حقًا إن الخوف إذا أحس به صاحبه لم يحـ تج إلى أكثر من كلمات قليلة للتعبير عنه للآخرين؛ وإن القيمة التي يقدرها صاحبها لشيء ما يمكن الإخبار عنها بغاية البساطة.

وينبغي لنا أن نتذكر في مثل هذه المسائل الخاصة بالفكر والدين البدائيين، أن دراسـ ـة الشـ ـعوب الـ ـدنيا المتوحشة في زماننا تكاد تكون عديمة القيمة في دراسة حالة الإنسان العقلية قبل زمن اللغة الكاملة التطـ ـور. ذلك أن الإنسان الأول لم يكن ليستطيع أن ينشئ إلا تقاليد قليلة، أو لم يكن ليستطيع أن يكوّن أي تقاليد قبـ ـل تقدم الكلام. وعلى العكس من ذلك نجد كل الشعوب المتوحشة والبدائية في العصر الحاضـ ـر غارقـ ـة فـ ـي التقاليد، وهي تقاليد آلاف من الأجيال. وقد تكون أسلحتهم شـ ـبيهة بأسـ ـلحة أسـ ـلافهم الأبعـ ـدين وطـ ـرائقهم كطرائقهم، ولكن الشيء الذي كان في عقول السالفين آثارًا طفيفة ضحلة، أصبح في عقول الحـ ـاليين أخاديـ ـد عميقة معقدة، حفرت خلال القرون السابقة جيلاً بعد جيل.

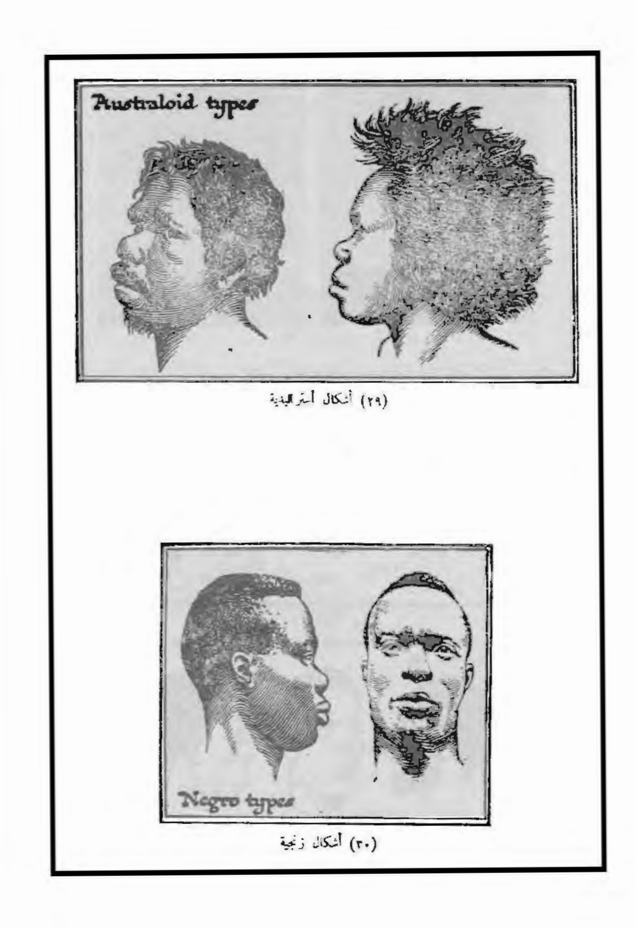
(٢)

الرجل المسن في الدين

لعل هناك أشياء جوهرية جدًا في نفسها استقرت في أذهان الناس قبل النطق بالكلام بزمن مديد. ولقد كانت الحياة العقلية لإنسان العصر الحجري القديم المتأخر قريبة من حياتنا العقلية، وهي تشابه حياتنا في قيامها على أسس ذلك السلف الشبيه بالقرد، الأكثر انفرادًا والأكثر حيوانية. هذا وإن علم التحليل النفسي الذي ينمو بخطى سريعة إنما يدأب باحثًا في مجاهل أحلامنا، وفي حالاتنا التي تبدر منا عن غير وعي، وفي أفكارنا التي تشبه أفكار الأطفال، وفيما يمكن تحقيقه مما عسى أن يكون باقيًا من أفكار المتوحشين؛ ويهدف هذا كله إلى معرفة أسس الفكر عند ذلك الكائن البدائي الذي نشأنا منه. ويقوم ذلك العلم الآن بتفسير "شعورنا" على أساس من تلك المباحث. فإن القردة الكبرى تتزاوج ثم تربى صغارها، ويستمر الصغار في خشية من الذكر المسن، ثم لا تلبث الذكران الصغيرة أن تستثير غيرته، فيبادر إلى قتلها أو طردها، فأما الإناث فهن إماء الذكر المسن اللائي يحميهن. وهذه هي الحال العامة للأمور في كل الحيوانات شبه الاجتماعية. وليس هناك أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن "شبه الإنسان" اختلف عن هذا حالاً.

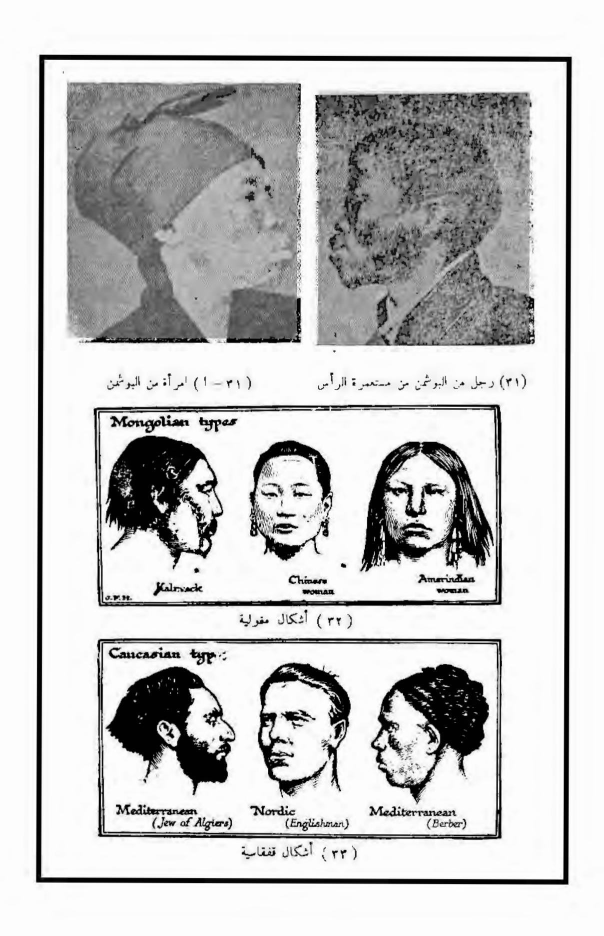
وكانت الخشية من الرجل المسن هي بداية الحكمة الاجتماعية. فقد نشأ صغار المجثم البدائي في ظل ذلك الخوف. وكانت الأشياء المتصلة به محظورة فيما يرجح. فكان كل فرد ممنوعا من أن يلمس رمحه أو يجلس مكانه على نفس الطريقة التي يحرم بها اليوم على صغار الأطفال أن يلمسوا غليون آبائهم أو يجلسوا في مقاعدهم، كان فيما يرجح سيدًا على كل النساء. وكان لزامًا على شباب المجتمع الصغير أن يتذكروا هذا وتلقنهم أمهاتهم أن يتذكروه، ويغرسن في نفوسهم خشية "الرجل المسن" واحترامه وتقديره.

وكأني بفكرة المحظورات أو فكرة أن بعض الأشياء محرمة أو "تابوهات Tabus" كما يسمونها فلا يجوز لمسها ولا يجوز النظر إليها – قد تم لها الرسوخ والاستقرار على هذه الطريقة في ذلك الذهن شبه الإنساني في مرحلة متقدمة جدًا. هذا ويتقصى المستر ج.ج. اتكنسون في كتابه "القانون



(٢٩) أشكال أسترالية

(٣٠) أشكال زنجية



(٣١) رجل من البوشمن من مستعمرة الرأس

(٣١ – ١) امرأة من البوشمن

(٣٢) أشكال مغولية

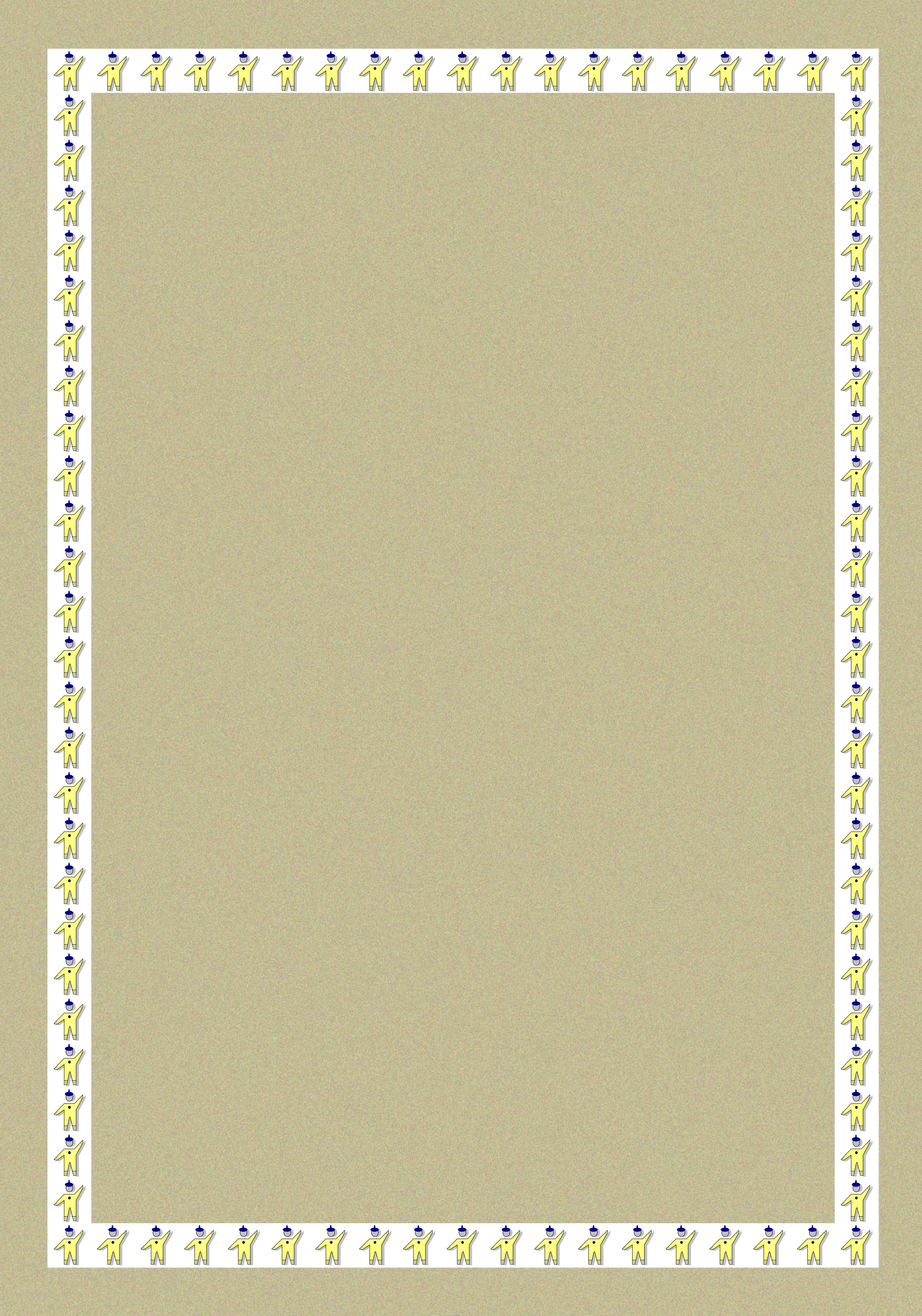
(٣٣) أشكال قفقاسية

البدائي" وهو تحليل بارع لتلك المحظورات البدائية، التي توجد لدى الشعوب المتوحشة في جميع أرجاء العالم، أمثال المحظورات (Tabus) التي تفصل بين الأخ وأخته والمحظورات التي تجعل الرجل يفر ويتوارى من زوجة أبيه – يتقصى أثرها حتى يصل بها إلى هذا السبب الجوهري. والذكر الصغير لم يكن يستطيع أن ينجو من حنق "الرجل المسن" إلا باحترام هذا القانون البدائي.

وفي مستطاع القارئ الآن أن يفهم أيضًا لماذا وجد ذلك النزوع إلى استرضاء الرجل المسن حتى بعد وفاته. ولا بد أنه كان عاملاً كبير الأثر في العدد الجم من الكوابيس والأحلام المرعبة التي كان النائمون يرونها في ذلك الزمان الأول. إذ لم يكن المرء على يقين من وفاته. فإنه قد يكون مستغرقًا في النوم فقط أو متظاهرًا بالنعاس. وبعد وفاة الرجل المسن بزمن طويل وحين لم يعد يمثله شيء إلا ربوة قبر أو جندلة حجرية، كانت النساء لا تفتأ تسرد قصته وتروي إلى أي حد كان عجيبًا مرعبًا. ولكونه مما برح مصدرًا للرعب لدى قبيلته الصغيرة، كان من السهل الانتقال من ذلك إلى الرجاء بأن يكون مصدر رعب لأقوام آخرين معادين لهم. ولقد طالما حارب في حياته زيادًا عن قبيلته، وإن كان يؤذي قبيلته ويتحكم فيها. فلم لا يكون كذلك بعد الموت؟ وفي مكنتك الآن أن ترى أن الفكرة المتعلقة بالرجل المسن كانت فكرة طبيعية جدًا موائمة للعقل البدائي، وكان أمامها متسع لتطورات عظيمة، ثم انتقل الخوف من الوالد على درجات لا تدرك إلى الخوف من "رب القبيلة".

وعلى نقيض الرجل المسن، كانت الأم أشد إنسانية وأكثر ترفقًا وحنانًا؛ فهي التي كانت تعين، وتؤوي، وتبذل التضحية. وهي التي كانت تدرب أولادها على طاعته وخشيته. فهي كانت تهمس في الآذان في الزوايا وتعلّم الخفايا. وللتحليل النفسي الذي أنشأه فرويد Freud ويونج Jung أثر كبير في تمكننا مما لا يزال لخشية الأب ومحبة الأم من شأن عظيم في تكييف العقل البشري وفقًا للحاجات الاجتماعية. وقد كان لدراستهما التي قتلت بحثًا موضوع أحلام الطفولة والشباب وأخيلتهما، أكبر الفضل في إعانتنا على إعادة بناء روح الإنسان البدائي. نعم أعدنا بناءها فإذا هي روح طفل قوي، يرى الكون بالطريقة التي يبتغيها رب الأسرة ومولاها. وكان خوفه من الرجل الشيخ، وذلته وصغاره حياله، يخالطان خوفه مما حوله من حيوانات خطرة، حتى لقد يصبح (الدادا) أي الأب – في بعض الأحيان – ربما يتحدث عنه في مخادع الأطفال في هذه الأيام. وكان يسيرًا على الشيخ المسن الذي صعده خيالهم إلى علياء التسامي، كان يسيرًا على ذلك "الإله الأول" أن يتخذ صورة حيوان.

أما النساء الربات فكنّ أكثر شفقة وأوسع حيلة. فكن يقدمن المعونة، وكن يحمين من يلوذ بهن، وكن يجزين ويرضين، ويواسين الحزين. ومع هذا كان يحيط بهن في نفس الوقت جو غامض أقل في الأذهان وضوحًا من وحشية الرجل الشيخ المباشرة، ويحيط بهن خفاء يعظم كثيرًا ما حوله. وهكذا كان للمرأة أيضًا حظها من خوف الرجل البدائي إياها. فكانت الربات موضع الخشية، وكانت لهن صلة بالأشياء الخفية.



الألف
كتاب
الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ. ج. ولز

المجلد الثاني

ترجمة





هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

في تاريخ الإغريق والرُّومان

ومَن عاصروهما

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen sixty-

By

H. G. Wells

Revised by

RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

١- راجع الطبعتين الأوليين الأستاذ زكي علي، الأستاذ السابق للتاريخ القديم بجامعة القاهرة..

٢- وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

ويحتوي الكتابين الرابع والخامس

الكتاب الرابع : بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند.

الكتاب الخامس : قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها.

فهرس

كلمة المترجم

هذا هو المجلد الثاني من "المعالم"، أقدمه لقراء العربية راجياً أن يعود عليهم منه ما حفزني إلى ترجمته من نفع وفائدة. وسيجد فيه القراء ذكرًا مفصلاً لمجتمعات ثلاثة مرت في مواكب التاريخ: أولها ذلك المجتمع الذي ابتدع لنفسه فكرة الوعد وأرض الميعاد، واتخذ التوحيد والخلود له عقيدة، وكتبه المقدسة رباطًا ومُحتشدًا. وأعني به مجتمع العبرانيين الذين يعرفون باسم اليهود.

وأما المجتمع الثاني فمجتمع يونان الذي عرفت فيه الإنسانية أن لها عقلاً يفكر، وأن هذا العقل ينبغي له أن يفكر وهو طليق من أغلال الماضي وتقاليده، وأن ما لا يستقيم على صراط العقل وهم مبطل وخيال خادل. في ذلك المجتمع عرف الناس أنهم سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بحسن السيرة واحترام القانون، وعرفوا أن الحاكم ليس ظلا لله، وأن مشيئته ليست كما زعم الأقدمون قبسًا من إرادة الله؛ وإنما يستمد الحاكم قوته من فوق الأرض، من ذلك الشعب المحكوم الذي لا بد وأن تكون له إرادة وأن يكون له سلطان وأن تكون له أداة تعبّر عن تلك الإرادة وذلك السلطان، وهي الديمقراطية التي اتخذها أولئك القوم مذهبًا ومعتقدًا، وأورثوها من جاء بعدهم من القرون.

هنالك قام أفلاطون ينشئ خيالاً ويعبّر للإنسانية عن أمانيه العذاب فيما رسم لها في "جمهوريته" من خطط وما ارتضى لها من مثل، وقام أرسطو منقبًا في ضوء عقله، باحثًا في طوايا نفسه وفي أسرار هذا العالم وخفاياه، وذلك بعد أن أتم لولون وضع القوانين التي تصون كرامة البشر وحقوقهم، وبعد أن جاء رجل الدولة بريكليس فوطد للديمقراطية أركانها بما آتاه الله من حصافة وحسن تدبير وتقديس للحرية.

أولئك قوم نعجب بهم لا لأنهم قاموا بما قاموا به من أعمال، بل لأنهم كانوا – فيما يرى ولز – البادئين بمعالجتها السباقين إلى التفكير فيها دون من تقدمهم من أجيال الإنسانية جميعًا. تلك أمة قد خلت بعد أن خلَّفت للدنيا تراثًا جليلاً ما أحوج العالم العربي وهو في إبّان نهضته الحديثة إلى تدبره والتفكر فيه.

وقبل انبثاق تلك البحوث الفكرية التي امتاز بها ذلك المجتمع تولدت أساطير اليونان جميلة جذابة ساذجة ونشأت الرطازات حلوة عذبة، تعبّر عن ذلك الخيال البدائي المبكر الحافل بالشاعرية الهادية الرقيقة.

أما المجتمع الثالث فمجتمع روما الجامع بين النقيضين الوارث للضدين: جاهلية الإتروديين ومدنية الإغريق. ففي مجتمع روما اجتمع من أسباب الحضارة أرقاها ومن دلائل الهمجية أحطها وأدناها. وفي مجتمع روما تطور فن المال نافعًا وضارًا وتنوعت أساليب استعماله. وفي مجتمع روما ازدهر فن عمارة عظيم لا يزال الناس يعجبون به ويفيدون منه إلى يومنا هذا. وفي مجتمع روما تجمعت كل حضارة الغابرين وتكدس ترف الأولين. ومدت الطرق وأنشئت الجسور. وفيه بدأت أساليب التلاعب بالضعفاء، وأحابيل العبث بإرادة الكثرة من الشعب وتزييف اتجاهاته. على أن مجتمع الرومان كان بين تجاريب إنشاء الدولة العظيمة صورتها الأولى فتبدى فيما يتبدى فيه كل تجريبي من نقص شائه لسنا نشعر أن الدنيا قد نضته عن نفسها حتى في عصرنا هذا على الرغم من تأخر الزمان وجهود المصلحين. وفي مجتمع روما الضخم عرف الناس أن في الإمكان أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه مهما أوتي من الضخامة ومهما كثرت مدنه ودساكره.

وعن مجتمع روما أخذت أوربا قانون الظفر والنّاب، ألم تكن روما قدوة الدول الغربية ومعلمتها الأولى فيما أخذت به هذه الدول من استعمار وأنانية واستغلال للشعوب المغلوبة وعدم اهتمام بمصالحها أو الأخذ بيدها إلى طريق النهوض والتقدم؟ ولعل في أسطورة رومولوس منشئ روما وأنه قد غذته ذئبة بلبنها، انسجامًا مع ما اتسمت به هذه الدولة من جشع وغدر وذئبية. فلا عجب أن كانت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر، قرن ثورة الاستعمار وفورته تضع روما موضع التقدير والإعجاب بسياستها الغشوم ونظمها الاستنزافية.

إن العالم لم يلق من روما وضريباتها في العصر الحديث إلا كل شر ونكر، ولكن الشرق العربي الناهض الذي لا يزال يصلى أساليب الاستعمار الجهنمية خليق بأن يقلب الرأي في تاريخ روما عله أن يستفيد من سالف التجارب في رد ما يلقى من المحن في حاضره ومستقبله.

* * *

والمؤلف لا يقتصر في هذا السفر بالبداهة على التاريخ من الناحية السرديَّة وحدها، بل يتناوله من نواحيه الاجتماعية ثم الإنسانية ومن زاوية الحياة وتنظيماتها.

وإنك لا تدري إذ تطالع هذا السفر من أي أقطاره يأخذك الإعجاب به وبمؤلفه؛ بل إن رمت التاريخ وجدت فيه ما يملك مشاعرك من أحداث وعبر؛ وإن التمست السياسة أو الاجتماع ظفرت بكل رائع أخاذ، في نهج علمي محكم وتناسق بين الأقسام فريد.

وها هو ذا المؤلف يحلل بين يديك مقومات تلك المجتمعات ثم لا يقف عند هذا الحد بل يتقدم إلى الموازنات فيعقد الواحدة منها تلو الأخرى بين تلك المجتمعات وبين ما يشاكلها أو يجافيها في عصره، فتخرج من كل ذلك بأن تلك المجتمعات إنما هي هيئات إنسانية مركبة، تماثل أو – تكاد – معظم ما تنطوي عليه حياتنا العصرية من الظواهر. فإن ما كان يحرك عقول الرجال يومئذ من مشاكل وعواطف وشهوات، لا يزال يعتلج في صدور الناس إلى وقتنا هذا. ولم يفت ولز ألا يقصر حديثه على الوقائع مجردة، بل هو ينشئ للقارئ نسجًا محبوكًا، لحمته آراؤه ومذاهبه التي خلقها وآمن بها، جاعلاً من أحداث التاريخ سدى لذلك النسيج. فأنت إذ تطالع الكتاب تتناول معه خمائر ثمينة، منها ما يبثّك الديمقراطية، ومنها ما يدعوك إلى تقديس الحرية وصون الكرامة البشرية والتحلل من قيود التعصب أيًّا كان مبعثه، ومنها ما يحفزك إلى تقدير الإنسان ووضعه في مرتبته الشريفة بين الكائنات بوصفه إنسانًا: العالَمُ موطنه والإنسانية قوميته وجنسيته.

* * *

ولا يفوتني أن أسجل مزيد اغتباطي للتقدير الكريم الذي لقيه المجلد الأول من الأوساط العلمية ومن كثير من أساتذة الجامعة المحترمين وكبار رجال وزارة المعارف وخاصة أستاذي المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال بك الذي يعد بحق راعي الكتاب ونصيره – فلقد تلقيت من حضراتهم من عبارات التشجيع ورسائل الرضاء ما لا يسعني إلا أن أشكر الله عليه أجزل الشكر وأعظمه. ولقد أحسنت لجنة التأليف الموقرة كل الإحسان كدأبها إذ عنيت بمواصلة طبع هذا الكتاب وإذاعته في الناس فأسدت إلى المكتبة التاريخية في لغة

الضاد فضلاً جديدًا. ذلك أني لست أعلم – ويشركني في ذلك حضرة الأستاذ المراجع وهو الأخصائي الثقة – بأنه قد صدر في العربية كتاب في تاريخ الإغريق والرومان انطوى على ما ينطوي عليه هذا المجلد من الإحاطة والشمول مع الدقة العلمية وصحة المعلومات ولذلك أشعر بالسعادة إذ أقدمه للأمة العربية مشفوعًا بشكري العظيم لحضرتي صاحبي العزة الأستاذ الجليل أحمد أمين بك رئيس اللجنة والأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك سكرتيرها العام وحضرات أعضائها المحترمين.

ولقد بذل حضرة المراجع الأستاذ زكي علي أستاذ التاريخ القديم بجامعة الإسكندرية جهدًا صادقًا في مراجعة الكتاب والإشراف على خرائطه حتى أصبح على ما يلمس القارئ من يسر ولين.

* * *

وبعد فتلك هي انطباعاتي لدن تقليب الفكر في هذا الكتاب وبعد مداومة النظر فيه، أقدمها للقارئ، وأنا أشعر أنني مهما نوهت بفضل الكتاب ومؤلفه فما أنا ببالغ ما يبلغ القارئ بمطالعته من التأثر والتزكي.

ع.ت. جاويد

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الفصل الثالث عشر

الأسفار المقدسة العبرانية

والأنبياء العبرانيون

١- مركز الإسرائيليين في التاريخ

٢- شاول وداود وسليمان.

٣- اليهود شعب مختلط الأصل.

٤- أهمية الأنبياء العبرانيين.

١- مركز الإسرائيليين في التاريخ

في وسعنا الآن أن نضع الإسرائيليين ومعهم أعجب مجموعة من الوثائق القديمة في الموضع الصحيح اللائق بهم، بالنسبة إلى هذه المعالم العامة التي تؤرخ للإنسانية. وأعني بهذه المجموعة تلك الوثائق التي تعرفها جميع الشعوب المسيحية باسم "العهد القديم". وإنا لنجد في هذه الوثائق أكثر المستندات طرافة وأعلاها قيمة في تبيان تطور المدنية، كما نجد فيها أنصع الدلالات على انبثاق روح جديدة أخذت تتدسس إلى شئون البشرية أثناء المنازعات التي قامت بين مصر ومملكة آشور من أجل التسلط والسيطرة على العالم.

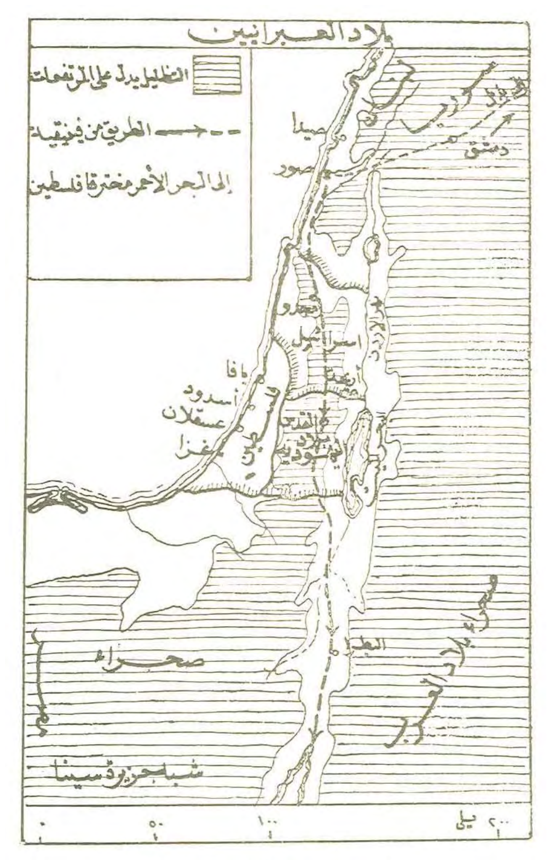
ولا شك أن جميع الأسفار التي يتكون منها العهد القديم كانت موجودة – وفي نفس صيغتها الحالية تقريبًا – في سنة ١٠٠ ق. م. على أقصى تقدير. والراجح أن معظمها كان يعتبر كتابات مقدسة في عصر الإسكندر الأكبر (٣٣٠ ق. م.)، وكانت هذه الأسفار هي الأدب المقدس للشعب اليهودي الذي نُقل قبل ذلك بزمن قصير – فيما عدا بقية صغيرة من الدهماء – من موطنه الأصلي إلى مملكة بابل عام ٥٨٧ ق. م. بأمر الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني. وكانوا قد عادوا إلى مدينتهم "أورشليم" (بيت المقدس)، وأعادوا بناء معبدهم هناك تحت رعاية قورش، ذلك الفاتح الفارسي الذي خلع نابونيداس آخر الحكام الكلدانيين في بابل (٥٣٩ ق. م.) كما ذكرنا آنفًا. دام الأسر البابلي قرابة خمسين سنة. ويعتقد كثير من الأعلام الثقات أن اليهود اختلطوا بالبابليين في أثناء هذه الفترة، اختلاطًا عنصريًا وفكريًا عظيمًا.

ولا يخفى أن موقع أرض اليهودية (١) وعاصمتها أورشليم فريد في بابه، فهي بقعة مستطيلة الشكل تشبه الشريط يحدها البحر المتوسط غربًا والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شرقًا. ويمر خلالها الطريق الرئيسي الطبيعي الذي يصل بين الحيثيين وسوريا وآشور وبابل شمالاً وبين مصر جنوبًا. فكانت لذلك قطرًا قدر له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير.

كانت هذه البلاد طريقًا لمصر وكل قطر عزيز الجانب إلى الشمال، وكانت الجيوش الزاحفة للفتح والتوسع تخترقها، كما يشنون على أهلها الحروب رغبة في شق طريق للتجارة. ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القدرة الزراعية ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية. وقصة الشعب اليهودي التي حفظتها لنا تلك الأسفار المقدسة تجري كأنها تعليق مسطر على هامش التاريخ الأعظم شأنا، أعني به تاريخ نظامي الحضارة القائمين في الشمال والجنوب ومدنيّة الشعوب البحرية في الغرب.

---

(١) في هذا البيان التاريخي الدقيق الذي سطرته يد محايدة نزيهة ما يدحض كل مدعيات الصهيونية وإسرائيل في أرض فلسطين العزيزة. فلم يكن اليهود فيها في يوم من الأيام إلا مغتصبين لأرض لا يملكونها، وإذا هم اليوم يقولون للجهلاء إنها كانت لهم مستقرًا لملك عضود وموعد موعود.



(ش ٥٨) – خريطة بلاد العبرانيين

وتتكون هذه الأسفار المقدسة من عدة عناصر مختلفة. وكان الناس من قديم الزمان ينظرون إلى الأسفار الخمسة الأولى (توراة موسى) باحترام خاص. وهي تبدأ على صورة تاريخ عام يروي قصة مزدوجة تتناول خلق العالم والبشرية والحياة الأولى للجنس البشري، كما تتحدث عن طوفان عظيم قضى على البشر جميعاً ما سوى بضع أفراد محظوظين. وقصة الطوفان هذه عظيمة الانتشار في الروايات القديمة. وقد تكون صدى لذلك الفيضان الذي اجتاح وادي البحر المتوسط والذي حدث في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) من تاريخ الإنسان. ولعلها تعيد إلى الأذهان ذكرى إحدى الكوارث العظيمة التي حدثت ببلاد جورجيا وإقليم بحر قزوين. وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروي كلا من قصتي الخليقة والطوفان، وهي نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى وطنهم. ومن ثم فإن نقاد الكتاب المقدس يحاجون بأن اليهود استولوا في أثناء أسرهم على تلك الفصول الافتتاحية، وهي قوام الإصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين.

ويتلو ذلك تاريخ آباء الشعب العبراني ومؤسسيه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهم يمثّلون فيه على صورة رؤساء بدو يتبعون نظام الأبوة ويعيشون عيشة الرعاة الرحل في المنطقة الممتدة بين بابل ومصر. ويقول النقاد إن قصة التوراة الراهنة قد صيغت من نصوص عديدة سابقة. على أنه مهما يكن شأن مصادر القصة، فإنها بحالتها التي نجدها عليها اليوم ملأى بالحيوية وقوة التعبير. وكان ما يسمى اليوم باسم "فلسطين" يسمى في ذلك الحين "أرض كنعان" ويسكنه قوم ساميون يسمون الكنعانيين، وهم شعب وثيق القربى بالفينيقيين الذين أسسوا صور وصيدا، وبالعموريين الذين فتحوا بابل وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حمورابي.

وكان الكنعانيون شعبًا عرف الاستقرار في زمن معاصر تقريبًا لحكم حمورابي – وقد مرت ببلادهم قطعان إبراهيم ورعلانه. وتقول رواية للكتاب المقدس إن رب إبراهيم وعده هو وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن العامرة. وعلى القارئ أن يرجع إلى "سفر التكوين" فيقرأ كيف أن إبراهيم الذي لم يكن له عقب قد ارتاب في هذا الوعد، ثم يقرأ أخبار مولد إسماعيل وإسحاق. وسيجد القارئ في "سفر التكوين" كذلك ترجمة حياة إسحاق ويعقوب، الذي تغير اسمه فأصبح إسرائيل، وسيرة أبناء إسرائيل الاثنا عشر وكيف أنهم هبطوا مصر أيام قحط عظيم. وبهذا ينتهي "سفر التكوين" أول الأسفار الخمسة الأولى ويختص الكتاب الثاني وهو سفر الخروج بقصة موسى.

وقصة استقرار أبناء إسرائيل في مصر واستعبادهم بها قصة عسيرة معقدة. وهناك سجل مصري يشير إلى نزول بعض الشعوب السامية بأرض "جاسان Goshen" بأمر الفرعون رمسيس الثاني، وجاء في هذا السجل أنهم لجئوا إلى مصر بسبب افتقارهم إلى الطعام. ولكن ليس هناك قط أي سجل مصري يتحدث عن حياة موسى وأعماله. ولم يصل إلينا أي بيان تاريخ عن إصابة مصر بالطاعون ولا عن أي فرعون أغرق في البحر الأحمر. وتحتوي قصة موسى على قدر كبير من شذى الأساطير. ومن أبرز الحوادث فيها، حادثة تخبئة أمه له في تابوت من الحلفاء، وهي قصة لها شبيه في أسطورة سومرية قديمة.

فالقصة السومرية المتحدثة عن سرجون الأول تجري كما يأتي: "هاأنذا سرجون الملك القوي ملك أكاديا. كانت أمي فقيرة، وما عرفت أبي قط، وكان شقيق أبي يعيش بين الجبال... وقد ولدتني أمي الفقيرة سرًا، ووضعتني في سلة من القصب، وأغلقت بابها بالقار، ثم ألقتني في النهر، فلم تبتلعني لججه بل حملتني مياهه حتى أوصلتني إلى (أكيّ) الموكل بالرّي. وقد تلقاني أكي هذا في طيب قلبه. ورباني أكي حتى أصبحت غلامًا يافعًا. وجعلني أكي بستانيًا. وأدخلت خدماتي كبستاني السرور على قلب (عشتار) وبذلك أصبحت ملكًا".

إن هذا لأمر يحير اللب. ومما يزيدنا حيرة تلك اللوحة الطينية التي كشفت أخيرًا والتي كتبها الولاة المصريون على إحدى مدن كنعان إلى فرعون "أمنحوتب الرابع" أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فليس من الممكن أن يأسرهم ويضطهدهم رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة قبل أن يتموا فتح أرض كنعان. ومن الجلي أن قصة الخروج (Exodus) – وقد كتبت بعد الحوادث التي ترويها بزمن طويل – ربما كانت تركيزا وتبسيطًا، أو لعلها تمثيل ورمز لما كان في الحقيقة تاريخًا معقدًا طويلاً لغزوات قبلية. ولعل كل ما في الأمر أن إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر وأصبحت مستعبدة، على حين كانت القبائل الأخرى قد أخذت بالفعل تهاجم المدن الكنعانية النائية. بل إن في الإمكان ألا تكون مصر (واسمها بالعبرانية مصرايم) هي أرض الأسر بل (مسريم) في شمال بلاد العرب، على الجانب المقابل من البحر الأحمر. وقد بحثت هذه المسائل بحثًا مستفيضًا دقيقًا في "موسوعة الكتاب المقدس Encyclopedia Biblica في مادتي موسى والخروج"، فليرجع إليها القارئ المحب للاستطلاع إن شاء.

ويتناول كتابان آخران من الكتب الخمسة الأولى هما "سفر تثنية الاشتراع وسفر اللاويين"، الشرائع والقواعد الكهنوتية. أما سفر الأعداد فيسرد تجولات بني إسرائيل في الصحراء وغزوهم كنعان.

ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان، فمما لا ريب فيه أن ذلك القطر الذي فتحوه تغير تغيرًا عظيمًا منذ أيام أسطورة "الميعاد" الذي وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون. ثم يصبح القطر من بعد ذلك – فيما يلوح – أرضًا سامية إلى حد كبير وتنشأ به كثير من المدن التجارية المزدهرة. على أن موجات كبيرة من شعوب غريبة نزحت على طول شاطئه. ولقد ذكرنا من قبل كيف هوجمت الشعوب الأيبيرية البيضاء الداكنة أو شعوب البحر الأبيض القاطنة في إيطاليا وبلاد الإغريق، وشعوب المدنية الإيجية التي بلغت الأوج في كنوسوس، Conssos، إذ هاجمتها موجة زاحفة جنوبًا من أجناس ناطقة بالآرية من أمثال الإيطاليين والإغريق، وأوضحنا كيف نهبت كنوسوس حوالي (١٤٠٠ ق. م.)، وكيف دمرت تدميرًا تامًا حوالي (١٠٠٠ ق. م.). وبدهي أن سكان هذه المواني الإيجية كانوا يجتازون البحر فرارًا من الأعداء وطلبًا لمستقرات أكثر أمنًا وسلامًا. لذلك غزوا الدلتا المصرية وما يليها غربًا من الشاطئ الأفريقي، وأنشئوا أحلافًا بينهم وبين الحيثيين وبعض الشعوب الآرية أو المصطبغة بصبغة آرية.

حدث هذا كله بعد عصر رمسيس الثاني أي في عهد رمسيس الثالث. وتسجل الآثار المصد رية معـ ارك بحرية عظيمة، كما تمثل مسير هؤلاء القوم إلى مصر على امتداد ساحل فلسطين. وكانت وسيلة النقل لـ ديهم هي العربات التي تجرها الثيران وهي إحدى خصائص القبائل الآرية. ومن الواضح أن هـ ؤلاء الكـ ريتيين كانوا يعملون متحالفين مع بعض الغزاة الآريين الأول. ولم يتم بعد الوصول إلى صورة متصـ لة الحلقـ ات لقصة هاته المنازعات التي استمرت بين ١٣٠٠ ق. م. و ١٠٠٠ ق. م. على أنه يتضح من روايـ ـة الكتـ اب المقدس أنه عند ما نهض العبرانيون تحت إمرة "يشوع" لمواصلة إخضاع أرض الميعـ اد بـ بطء اصـ طدموا بشعب جديد هم الفلسطينيون الذين كانوا يستقرون على امتداد الشاطئ في سلسلة من المدن أصبحت أهمهـ ا وأعظمها غزة وجت (جات) وأشدود وعسقلان وعقرون [1]. وكان هؤلاء الفلسطينيون في الحقيقـ ـة نـ ازحين جددًا كالعبرانيين تمامًا. والراجح أنهم كانوا بوجه خاص هم أولئك الكريتيون اللاجئون من البحر والهابطون من الشمال. وعلى ذلك فإن الغزو الذي ابتدأ بشكل هجوم على الكنعانيين سرعان ما أصبح نزاعًا طويلاً لـ م يحالفه التوفيق التام، نشب من أجل تلك الأرض الموعودة التي كانت مطمع الأنظار، بيـ نهم وبـ ين هـ ؤلاء الفلسطينيين النازحين الذين كانوا أكثر قوة وأشد بأسًا.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يومًا في قبضة العبرانيين تمامًا. ويلي الكتـ ب الخمسـ ـة الأولى في الكتاب المقدس أسفار "يشوع" والقضاة وسفر راعوث (وهو اسـ تطراد عـ ن سـ ياق الموضـ وع) وصموئيل الأول والثاني والملوك أول وثان. مع سفر الأيام بجزءيه، وهو يكرر في شيء من التنويع كثيـ رًا من مادة سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك. وينطوي الشطر الأكبر من هذا التاريخ المتأخر على ظل للحقيقة يزداد على اطراد الأيام ظهورًا. وفي هذه الأسفار نجد الفلسطينيين قد شددوا قبضتهم على ما امتلكـ وه مـ ن أراضي الجنوب المنخفضة الخصبة، كما نجد الكنعانيين والفينيقيين صامدين فـ ي الشـ مال ضـ د أعـ دائهم الإسرائيليين. وليست انتصارات يشوع الأولى مكررة.

وكتاب القضاة إنما هو سرد محزن لسلسلة من الهزائم والنكبات يفقد القوم بسببها شجاعتهم، ويتخلون عن عبادة ربهم الخاص "يَهْوَهْ Jehovah" ويعبدون بعلا وعشتورث ويختلطون بالفلسطينيين والحيثيين وغيـ رهم حتى صاروا شعبًا مختلط الجنس، كما ظل هذا طابعهم فيما بعد. وكانوا يخوضون – وهم تحت إمرة سلسـ لة من الحكماء والأبطال – غمار حروب اتسمت بالفشل على وجه العموم، ولم تتحد كلمتهم أثناءها قط. فقهرهم على التعاقب المؤابيون (Moabites) والكنعانيون والمديانيون والفلسطينيون. ويتحدث سفر القضاة عن قصة هذه الحروب التي خاضها جدعون وشمشون وغيرهم من الأبطال الذين يلقون بين الفينة والفينة بصيصًا من أمل فيما كان يلم بإسرائيل من نكبات. ويروي سفر صموئيل الأول قصة الكارثة العظيمة التي حلت بهم عند حجر المعونة (Ebenezer) أيام أن كان "عالي" قاضيًا.

---

(١) ضبطت هذه الأسماء وغيرها على ما ورد بالكتاب المقدس. (المترجم).

كانت المعركة حربًا ضروسًا أعد لها الطرفان عدتهما واشتبكت فيها جيوشهما برمتها وخسر فيها بنو إسرائيل ٣٠,٠٠٠ رجل (!) وكانوا قبل ذلك أصيبوا بهزيمة فادحة خسروا فيها ٤٠٠٠ رجلاً، وعند ذلك أبرزوا أقدس رمز لديهم، وهو تابوت عهد الرب [١].

"وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلّة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافًا عظيمًا حتى ارتجت الأرض، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا: ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة. فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة. وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله. ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية. تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم.

"فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل، وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جدًا. وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالي حفني وفينحاس.

"فركض رجل من بنيامين من الصف وجاء إلى شيلوه في ذلك اليوم وثيابه ممزقة وتراب على رأسه. ولما جاء فإذا عالي جالس على كرسي بجانب الطريق يراقب لأن قلبه كان مضطربًا لأجل تابوت الله. ولما جاء الرجل ليخبر في المدينة صرخت المدينة كلها، فسمع عالي صوت الصراخ فقال ما هو صوت الضجيج هذا؟ فأسرع الرجل وجاء وأخبر عالي، وكان عالي ابن ثمان وتسعين سنة وغامت عيناه ولم يقدر أن يبصر.

"فقال الرجل لعالي أنا جئت من الصف، وأنا هربت اليوم من الصف. فقال كيف كان الأمر يا ابني؟ فأجاب المخبر وقال: هربت إسرائيل أمام الفلسطينيين، وكانت أيضًا كسرة عظيمة في الشعب، ومات أيضًا ابناك حفني وفينحاس وأخذ تابوت الله. وكان لما ذكر تابوت الله أنه سقط عن الكرسي إلى الوراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات، لأنه كان رجلاً شيخًا ثقيل الجسم. وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة.

"وكنته امرأة فينحاس كانت حبلى تكاد تلد، فلما سمعت خبر أخذ تابوت الله وموت حميها ورجلها ركعت وولدت لأن مخاضها انقلب عليها، وعند احتضارها قالت لها الواقفات عندها: "لا تخافي لأنك قد ولدت ابنا فلم تجب ولم يبال قلبها، فدعت الصبي إيخابود قائلة "قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ ولأجل حميها ورجلها".

وكان خلف (عالي) وآخر القضاة هو صموئيل، وقد حدثت في أواخر حكمه حادثة في تاريخ بني إسرائيل تتمشى مع ما مر بالشعوب العظمى المحيطة بهم من تجارب، بل هي التي أوحت بها إليهم، إذ نشأ بينهم ملك حكم فيهم وظهرت فيهم الملكية. وهم يقصون علينا بأوضح عبارة نبأ الصراع المحتدم بين طريقة الحكم العتيقة على يد الكهنة وبين الطريقة الأحدث منها في تصريف شئون البشر. ومن المستحيل علينا ألا نقتبس اقتباسًا ثانيًا فكم يبدو استياء الكاهن واضحًا جليًا في حديث الرب إلى صموئيل.

---

(١) الإصحاح السابع من صموئيل الأول من الكتاب المقدس.

"فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك، فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب.

"فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا: أعطنا ملكاً يقضي لنا. وصلى صموئيل إلى الرب. فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم. وحسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم، وتركوني وعبدوا آلهة أخرى. هكذا هم عاملون بك أيضًا. فالآن اسمع لصوتهم، ولكن اشهدنّ عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم.

"فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكاً بجميع كلام الرب وقال: "هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم: يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه. فيركضون أمام مراكبه، ويجعلهم لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين، فيحرثون حراثته، ويحصدون حصاده، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدًا. فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم. فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم. "فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب، ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا". (صموئيل الأول الإصحاح الثامن).

٢ – شاول وداود وسليمان

على أن طبيعة بلاد العبرانيين وموقعها كانت عوناً عليها، لذا لم يكن ملكهم الأول شاول أوفر حظاً في النجاح من القضاة، هذا إلى أن المكايد الطويلة التي كان يدبرها المغامر داود ضد شاول مسرودة في الجزء الباقي من سفر صموئيل الأول. وكانت خاتمة شاول هي الهزيمة المنكرة التي أصابته على جبل جلبوع (Gilboa) إذ قضت بسالة رماة السهام من الفلسطينيين على جيشه قضاء تامًا.

"وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع. فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينيين في كل جهة لأجل التبشير في بيت أصنامهم وفي الشعب. ووضعوا سلاحه في بيت عَشْتُورَثَ وسمروا جسده على سور بيت شان.

(صموئيل الأول الإصحاح ٣١).

وكان داود (٩٩٠ ق. م. على وجه التقريب) أشد كياسة وأكثر نجاحًا من سلفه. ويلوح أنه وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور. فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه، وكانت العامل الجوهري في عظمة ابنه سليمان. وقصة داود بما تحوي من قتل وسفك دماء واغتيالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض [٤]، أشبه بتاريخ أحد رؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدّن. والقصة مسرودة بأسلوب رائع واضح في السفر الثاني من صموئيل[١].

ويبدأ سفر الملوك الأول بحكم الملك سليمان (٩٦٠ ق. م. على وجه التقريب) وأمتع ما في تلك القصة من وجهة نظر المؤرخ الذي يتناول التاريخ من الوجهة العامة، علاقة سليمان بالديانة القومية والكهانة وتصرفاته إزاء الهيكل والكاهن صادوق (Zadok) والنبي ناثان.

كانت بداية حكم سليمان مخضبة بالدماء كحكم أبيه سواء. وآخر ما سجل من حديث داود تدبيره لولا هذه الوسيلة لقتل شِمعي (Shimei)، وآخر ما سجل من كلماته هي "الدم" إذ يقول لابنه "وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية [٢] " هكذا يقول مشيرًا إلى أنه كان شمعي الشيخ يحميه القسم الذي أخذه داود على نفسه للرب ما دام حيًا، فما من عهد يرتبط به سليمان في هذا الشأن. ويغلو سليمان فيقتل أخاه، الذي حاول أن يغتصب العرش، ثم ما لبث أن تخاذل وقدم الطاعة. ومن ثم أخذ يتصرف بملء حريته في أنصار أخيه. وإن ضعف سلطان الدين على العبرانيين المختلطة أجناسهم والمبلبلة في ذلك الأوان عقولهم، ليتضح من السهولة التي يستبدل بها سليمان برئيس الكهنة المعادي له نصيره صادوق، كما يتضح ذلك بشكل أدعى للعجب من قتل يوآب (Joab) في الهيكل على يد بناياهو أعظم صنائعه إجرامًا، على حين لاذت الضحية بقدس حرم المعبد، واستمسكت بقرني مذبح يَهْوَهْ (Jehovah) ثم شرع سليمان بعد ذلك يجد في العمل، بأسلوب كان يعد بالنسبة لذلك الزمان ذا روح عصرية حقة. فعمد إلى صوغ ديانة شعبه في قالب جديد. وقد استمر في تحالفه مع حيرام ملك صور، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقًا عامًا يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبني فيه السفن. ونتيجة لهذه الشركة بينهما تكدست في أورشليم ثروة لم يسمع بها من قبل.

---

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول وصموئيل الثاني.

(٢) المصدر السابق.

وقد ظهرت فرق العمال عند بني إسرائيل، فكان سليمان يرسل أفواجًا من العمال تحل إحداها محل الأخرى لقطع أخشاب الأرز من لبنان في عهد حيرام. كما أنه نظم في أرجاء بلاده مجاميع من الحمالين. (وفي هذا كله الكثير مما يذكر القارئ بعلاقات أحد الرؤساء في أفريقيا الوسطى بهيئة تجارية أوربية). وبعد ذلك بنى سليمان لنفسه قصرًا ومعبدًا ليهوه الرب لا يكاد يضارع قصره في الضخامة. وكان تابوت عهد الرب – ذلك الرمز المقدس لهؤلاء العبرانيين الأقدميين – قد استقر مقامه حتى ذلك الحين في فسطاط كبير. كان ينقل من مكان مرتفع إلى آخر، وكانت تقدم القرابين لرب إسرائيل في عدد من الأماكن المرتفعة المختلفة. فالآن أدخل التابوت بين الروائع الذهبية الموجودة في حجرة داخلية من معبد كسيت جدرانه الحجرية بخشب الأرز، ووضع بين تمثالين عظيمين لهما أجنحة، ومصنوعين من خشب الزيتون المذهب، وتحتم منذ ذلك الحين ألا تقدم القرابين على غير المذبح الذي بين يديه.

وهذا التجديد المنطوي على المركزية الدينية يذكرنا بكل من إخناتون ونابونيداس. ولا يتم لمثل هذه الأمور نجاح إلا متى هوت إلى الدرك الأسفل سطوة هيئة الكهنوت ونفوذها وتقاليدها وعلمها.

"وأوقف حسب قضاء داود أبيه فرق الكهنة على خدمتهم واللاويين على حراساتهم للتسبيح والخدمة أمام الكهنة عمل كل يوم بيومه والبوابين حسب فرقهم على كل باب. لأنه هكذا هي وصية داود رجل الله. ولم يحيدوا عن وصية الملك على الكهنة واللاويين في كل أمر وفي الخزائن".

بيد أن إقامة سليمان لعبادة يهوه في أورشليم على هذا الأساس الجديد، ورؤياه لربه ومحادثته له في مستهل حكمه لم تحل دون ابتداعه في أواخر أيامه ضربًا من العبث بالأمور الدينية. فإنه أكثر من الزواج. وإن يكن ذلك لأسباب تتصل بالدولة وأبهة الملك. وكان يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية، فهو يقدم القربان لربة صيدا "عَشتُورَثَ" وكضمُوش (وهو رب مؤابي) ومُولَكَ وهلم جرا. والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكًا متقلبًا كغيره من الملوك، لا يفضل البتة أيًّا منهم في تمسكه بأهداب دينه، كما يصور لنا في قومه شعبًا معتقدًا بالخرافات وذا عقلية مبلبلة ككل شعوب العالم المحيط بهم.

وفي قصة سليمان ناحية ذات أهمية كبيرة جدًا لأنها تسجل طورًا جديدًا في الشئون المصرية وهي زواجه من ابنة فرعون. ولا بد أن هذا الفرعون كان أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين. ففي أيام عظمة أمنحوتب الثالث، كما تشهد بذلك رسائل تل العمارنة، كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل في حريمه أميرة بابلية. ولكنه كان يرفض رفضًا باتًا أن يسمح لأميرة مصرية لها ما لها من قداسة، أن تصبح زوجة لعاهل بابلي. ومما يدل على انحطاط مهابة مصر واطراد تدهورها أن يحدث الآن بعد انقضاء ثلاثة قرون، أن ملكًا صغيرًا كسليمان، يستطيع أن يتزوج من أميرة مصرية على قدم المساواة. ومع ذلك فإن مصر نهضت من كبوتها إبان حكم الأسرة المصرية التالية (الثانية والعشرين) يوم اغتنم الفرعون شيشنق مؤسس تلك الأسرة فرصة الانشقاق بين إسرائيل ويهوذا (Judah) وهو الانشقاق الذي ظل ينمو طوال حكم كل من داود وسليمان – فاستولى على أورشليم ونهب كلا من مستودعي الأبهة والعظمة القصيرة الأجل وهما المعبد الجديد وقصر الملك.

ويبدو أن شيشنق استطاع كذلك أن يخضع فلسطين. وجدير بالذكر أن الفلسطينيين ذوت أهميتهم منذ ذلك التاريخ. فنجدهم قد فقدوا لغتهم الكريتية واتخذوا لغة الساميين الذين كانوا أخضعوهم. ومع أن مدائنهم ظلت مستقلة إلى حد ما، فإنهم اندمجوا رويدًا رويدًا في غمار الحياة السامية العامة لفلسطين.

وهناك من الشواهد ما يدل على أن قصة حكم سليمان الأصلية على صورتها البدائية الأولى المقبولة عقلاً، وقصة ما أتاه من اغتيالات متنوعة، وارتباطه بحيرام، وابتنائه القصر والمعبد [1]، وذلك البذخ الذي أوهن مملكته ثم مزقها آخر الأمر شطرين – قد تعرضت (أعني القصة) لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر، كان مشغوفًا بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعًا بتمجيد حكمته. وليس هذا مجال معالجة موضوع نقد أصول الكتاب المقدس ومصادره، وإن لم يتطلب الأمر منا إلا شيئًا عاديًا بسيطًا من الإدراك دون تفقه في العلم – لندرك ما يتجلى في المادة الرئيسية لقصة داود وسليمان من حقيقة جلية وصدق واضح. وهي قصة يعمد كاتبها إلى الشرح والتوضيح آونة، وإلى التبرير أخرى، وإن كانت مع ذلك تسرد كل الحقائق مهما بلغ بعضها من القسوة، على نحو لا يفعله إلا كاتب معاصر أو كاتب يكاد يكون معاصرًا، يقصها وهو مقتنع بأن لا سبيل إلى إخفائها. ثم يلاحظ الإنسان أيضًا ذلك التحول المفاجئ إلى الإطراء والثناء ساعة ظهور الفقرات التي أضيفت إلى القصة. ومما يشهد بقوة تأثير القول المكتوب وتغلبه على الحقائق الماثلة في أذهان الناس، أن رواية الكتاب المقدس هذه استطاعت أن تحمل العالم المسيحي بل الإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان لم يكن من أشد الملوك عظمة وأبهة فحسب بل كان أيضًا من أحكم الرجال. فإن سفر الملوك الأول يسهب في الكتابة عن أقصى ما وصل إليه مجده من أبهة وفخامة، وإذا قيست هذه إلى حمال وعجائب المباني والتنظيمات التي قام بها عاهل عظيم كتحوتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نفر من الفراعين الأخر، أو سرجون الثاني أو سردانابالوس أو نبوخذ نصر العظيم، فإنها تبدو من التوافه الهينات. كان بُعد معبده من الداخل عشرين ذراعًا عرضًا أي ما يقرب من خمسة وثلاثين قدمًا (وهذا لا يزيد عن عرض فيلا للسكنى العادية)، وستين ذراعًا أي مائة قدم طولاً. وتختلف الأقوال في تقدير الذراع، وهو على أكبر تقدير يعادل أربعًا وأربعين بوصة. وعلى هذا الاعتبار يتسع العرض فيصبح سبعين قدمًا ليس غير ويصبح الطول مائتي قدم. فأما حكمته ومعرفته بأصول الحكم وتدبير السياسة، فما القارئ بمحتاج أن يجاوز الكتاب المقدس [2] لكي يعرف أن سليمان لم يتجاوز بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق، فأما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا. وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت، ذلك الضعف الذي أثار طموح الفينيقيين وألزمهم باسترضاء القابض على مفتاح طريق آخر للتجارة إلى الشرق. كان سليمان في عين شعبه ملكًا مبذرًا جائرًا، وقد أخذت مملكته تتداعى قبل موته تداعيًا ظاهرًا وتتجزأ بددًا.

---

(1) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول والأيام.

(2) يستطيع القارئ إذا شاء استزادة أن يرجع إلى أسفار صموئيل والملوك، الأول والأيام الثاني التي رجع إليها المؤلف من الكتاب المقدس. (المترجم).

وينتهي بانتهاء حكم سليمان مجد العبرانيين القصير الأمد، فإن القسم الشمالي من مملكته وهو الأكثر ثراء، والذي طال تحمله عبء الضرائب المفروضة في سبيل بذخه، انسلخ عن أورشليم وأصبح مملكة منفصلة هي إسرائيل. وقد فصم هذا الصدع تلك العلاقة التي كانت تربط بين صور وصيدا وبين البحر الأحمر، وهي التي مهدت السبيل لومضة الثروة التي هبطت على سليمان فجأة. وليس هناك بعد ذلك أي ثراء في التاريخ العبراني. فأما أورشليم فإنها ظلت قصبة قبيلة واحدة هي قبيلة يهوذا، وحاضرة أرض ملؤها التلال المجدبة، تحول فلسطين بينها وبين البحر ويحيط بها الأعداء من كل جانب.

ويظل هذا القطر بعد ذلك ثلاثة قرون مسرحًا لحروب ومنازعات دينية واغتصابات واغتيالات وقتل الإخوة للإخوة طلبًا للملك. وهي قصة سافرة في همجيتها. فإن إسرائيل تحارب يهوذا وما جاورها من دول، وتعقد المحالفات مع إحداها ثم تعقدها مع الأخرى، وتبدأ قوة سنوريا الآرامية في الصعود كنجم يؤذن العبرانيين بالشر والأذى. ثم تنهض من خلفها القوة العظيمة النامية، قوة الإمبراطورية الآشورية الأخيرة. لقد ظلت حياة العبرانيين طوال ثلاثة قرون شبيهة بحياة رجل أصر على العيش وسط سوق صاخب فكان مصيره أن تدهمه سيارات الجمهور والبضائع.

وكان "فول Pul" (وواضح أنه تَغْلَثَ فَلاسِرُ الثالث نفسه Tiglath Pileser) أول ملك آشوري فيما تقول رواية الكتاب المقدس، ظهر في أفق العبرانيين، فدفع له مَنَحِيمُ ألف تالنتوم [1] talent من الفضة (٧٣٨ ق. م.) ثمنًا لخلاص البلاد منهم. على أن قوة آشور كانت تتجه آنذاك قدمًا نحو أرض مصر التي شاخت وتدهورت. ويخترق طريق المغيرين أرض اليهودية ويعود تَغْلَثَ فَلاسِرُ الثالث أدراجه ويعقبه في الزحف شَلْمَنَأَسَرُ فيتآمر ملك إسرائيل التماسًا للعون مع مصر – تلك "القصبة المرضوضة"، وفي ٧٢١ ق. م. اجتيحت مملكته كما ذكر آنفًا ووقعت في ربقة العبودية وزالت من التاريخ تمام الزوال. وكانت يهوذا (Judah) عرضة لنفس المصير ولكنها نجت منه فترة من الزمان. ولقد ذكرنا لك من قبل مصير جيش الملك سَنْحاريب أيام حكم الملك حَزَقِيَّا [2] (٧٠١ ق. م.). وكيف قتله ابنه (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٩: ٢٧). وليس في الكتب المقدسة أية إشارة لما يلي ذلك من إخضاع الآشوريين لمصر. على أنه من الواضح أنه قبل حكم سنحاريب، كان الملك حزقيًا يتبادل المراسلات السياسية مع بابل(٧٠٠ ق. م.)، التي كانت ثائرة على سرجون الثاني ملك آشور. وتبع ذلك غزو آسَرْحَدُّون لمصر، ثم شغلت آشور فترة من الوقت بمشاكلها الداخلية. ذلك أن الاسكيذيين (الإشقوذيين) والميديين والفرس كانوا يتهددونها من الشمال، وكانت بابل نهبًا للفتن. وقد أسلفنا كيف أن مصر خف عنها الضغط الآشوري فترة من الزمان فأخذت تنهض من كبوتها. وكان هذا أول الأمر في عهد أبسماتيك ثم في عهد نخاو الثاني.

---

(1) نص عبارة الكتاب المقدس "فأعطاه ألف وزنة من الفضة" الملوك الثاني ١٥: ٢٠. [المترجم].

(2) حزقيا بوزن زكريا. [المترجم].

وهناك خان التوفيق مرة أخرى القطر الصغير الواقع في الوسط فلم يحسن اختيار حلفائه. ولكن أين يجد العبرانيون السلامة وعلى كلا جانبيهما عدو؟ فإن يوشيا (Josiah) وقف في وجه نخاو فذبح في معركة مجدّو (٦٠٨ ق. م.) وأصبح ملك يهوذا تابعًا يدفع الجزية لمصر. ولكن عندما سقط نخاو أمام نبوخذ نَاصَّرُ الثاني بعد أن توغل حتى وصل إلى الفرات سقطت يهوذا معه (٦٠٤ ق. م.) حتى إذا نصب نبوخذ ناصَر ثلاثة ملوك خاضعين له كالألعوبة، ساق غالبية الشعب أسرى إلى بابل (٥٨٦ ق. م.)، أما الباقون فقاموا بثورة ذبحوا منها الموظفين البابليين، ثم التجئوا إلى مصر فرارًا من انتقام كالديا.

"وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتي بها جميعًا إلى بابل. وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة. وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدًا إلى أن ملكت مملكة فارس".

(سفر الأيام الثاني إصحاح ٣٦: ١٨، ١٩، ٢٠).

وهكذا انتهت القرون الأربعة التي عاشتها الملكية العبرانية وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظمًا. ولكن جرى القدر بأن تنشأ عنه إذ ذاك نتائج أخلاقية وعقلية ذات أهمية كبرى للبشرية كافة.

٣- اليهود شعب مختلط الأصل

واليهود الذين عادوا بعد فترة تربو على الجيلين إلى أورشليم من بابل أيام الملك قورش كانوا شعبًا مختلفًا جد الاختلاف عن أولئك المتقاتلين من عباد "بعل" وعبّاد "يَهْوَه"، وعمن يقدمون القرابين في المرتفعات، ومن كانوا يقدمون القرابين في أورشليم في مملكتي إسرائيل ويهوذا. والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجًا وعادوا منها ممدنين. خرجوا جمهورًا مختلطًا منقسمًا على نفسه، لا يربطه وعي ذاتي وطني، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال، جعلهم ينئون بجانبهم عمن عداهم، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة، إذ لم يحدث إلا قبل الأسر بأربعين عامًا أن اكتشف الملك يوشيا كما يقال "سفر الشريعة" في المعبد (سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٢: ٨)، وفيما عدا ذلك فليست هناك أية إشارة في السجل إلى تلاوتهم أي كتاب، وعادوا إلى وطنهم ومعهم الشطر الأكبر من مادة "العهد القديم" وواضح أن اليهود وقد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين وحجبوا عن السياسة، وعاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي، فإن العقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة.

كان ذلك العصر في بابل عصر بحوث تاريخية ونهضة علمية، وكانت المؤثرات البابلية التي حملت سردانا بالوس على اقتناء مكتبة عظيمة من مخطوطات قديمة في نينوي، لا تزال تعمل عملها. ولقد أخبرناك من قبل كيف بلغ انشغال نابونيداس بالبحوث الخاصة بالآثار القديمة حدا جعله يهمل الدفاع عن مملكته ضد اعتداء قورش. ومن ثم كانت كل الظروف مما يحفز اليهود المبعدين على البحث في تاريخهم الخاص، ثم إنهم وجدوا في نبيهم حزقيال زعيمًا يستنهض هممهم. ومن أمثال تلك السجلات المخبأة والمنسية التي كانوا يحملونها معهم – ما بين تواريخ أنساب وتواريخ معاصرة تؤرخ لداود وسليمان وغيرهما من الملوك، وما بين أساطير وتقاليد قديمة – صاغوا قصتهم وأطنبوا فيها ثم قصوها على بابل وعلى أنفسهم.

وقصة الخليقة والطوفان، والكثير من قصة موسى، والشيء الكثير من قصة شمشون قد جمع شتاتها من مصادر بابلية. وهناك نصّان، نص عن قصة الخليقة، ونص آخر عن قصة عدن، يلوح أنهما وإن كانا في أصلهما بابليين، كانا معروفين للعبرانيين قبل النفي، وعندما عاد اليهود إلى أورشليم، لم يكن قد اكتمل لهم بين دفتي سفر واحد غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتويك [1]، ولكن لم يكن مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخية.

ولقد ظل سائر أدبهم قرونًا طويلة في صورة كتب منفصلة، كانت تلقى من الاحترام قدرًا متفاوتًا جدًا. ولا ينكر أحد أن بعض الكتب المتأخرة قد ألف بعد الأسر. هذا وأضيفت إلى كل هذا الأدب أفكار رئيسية بأعيانها. فثمة فكرة كانت هذه الكتب نفسها تدحضها في تفصيلها، وهي القول بأن كل الناس قاطبة أبناء إبراهيم الخلص الدماء. وثمة فكرة أخرى عن وعد قطعه يهوه لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودي على جميع الأجناس

([1]) وهي المسماة بتوراة موسى كما أسلفناه. [المترجم].

الأخرى. وثمة فكرة ثالثة هي ما كان يخالجهم قبل كل شيء من الاعتقاد في أن يهوه هو أعظم وأق وى آله ة القبائل طرًا، وأنه كان على ذلك ربًا يعلو كل الأرباب، وأخيرًا أنه كان الرب الحق الوحيد د. وانته ى الأم ر بالشعب اليهودي بأن اقتنعوا – على بكرة أبيهم – بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة.

وكانت هناك فكرة رابعة نشأت نشوءًا طبيعيًا جدًا من هاته الفكرات الثلاث، وهي القول بزعيم منتظ ر، مخلّص للعالم، ومسيح يحقق ما ترامى به الزمن من وعود ياهوه التي طال الأمد عليها.

ولا مراء أن هذا الالتئام الذي ضم شتات اليهود فأصبحوا في مدى هذه السنين السبعين شعبًا تؤلف بين ه تقاليد مكتوبة متواترة، هو أول مثال في التاريخ للقوة الجديدة الكامنة بين القرطاس والقلم في شئون البشرية. كان ذلك الذي حدث تماسكًا عقليًا لم يقف أثره عند توحيد الشعب الذي عاد إلى أورشليم، بل تج اوز ذل ك كثيرًا. وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل، كانت فكرة خلابة. واستولت هذه الفكرة أيضًا على لب اليهود الذين ظلوا في بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليه ود ال ذين ك انوا مستقرين في مصر إذ ذاك، كما أنها أثرت في الشعب المختلط الذي أسكن السامرة، (وهي العاصمة القديم ة لملوك إسرائيل) عندما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا. وهي التي أوحت إلى عدد كبير من البابليين وغي رهم أن يدعوا في إبراهيم أبا لهم، وأن يفرضوا أنفسهم عل ى اليه ود العائ دين. وك ذلك أص بح العمونيـ ون (Ammonites) والمؤابيون (Moabites) أنصارًا لهم. وسفر نحميا (Nehemiah) حافل بأخب ار المح ن التي نجمت عن انتحال هؤلاء المتطفلين لامتيازات الشعب المختار. كان اليهود من قبل شعبًا متناثرًا في أقاليم ومدن كثيرة، يوم توحدت عقولهم وأمانيهم، ثم أصبحوا شعبًا ذا نزعة انعزالية متباعدًا عم ن ع داه، ولك ن نزعتهم الانعزالية كانت بادئ الرأي مجرد رغبة في حفظ التعاليم والعبادة سليمة مصونة خشية تكرار أمث ال تلك الكبوات المحزنة التي حدثت في عهد الملك سليمان. وظلت العقيدة اليهودية زمانًا طويلاً فاتحة ذراعيه ا مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصًا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى.

ولا بد أن الفينيقيين بعد سقوط صور وقرطاجة كانوا يرون الدخول في العقي دة اليهودي ة أم رًا يمت از بسهولته وجاذبيته. وكانت لغتهم وثيقة القربى بالعبرانية. ومن المحتمل أن الغالبية العظم ى ليه ود أفريقي ا وإسبانيا، كانت في حقيقة الأمر ذات أرومة فينيقية. كذلك دخل العرب في زمرتهم أفواجًا. وكما سنلحظ فيما بعد، كان في جنوب الروسيا يهود من الجنس المغولي نفسه.

٤- أهمية الأنبياء العبرانيين

والأسفار التاريخية من سفر التكوين إلى نحميا، التي أقحمت عليها فيما بعد فكرة الوعد المقطوع للشعب المختار، كانت ولا شك العمود الفقري الذي تقوم عليه الوحدة الفكرية ولكنها ليست البتة الفصل الختامي الذي يتم به الأدب العبراني، الذي تكون منه الكتاب المقدس آخر الأمر. وما هذا بمجال الكتابة عن أسفار من أمثال سفر أيوب Job (الذي يقال إنه محاكاة للمأساة الإغريقية) هذا إلى نشيد الإنشاد لسليمان، والمزامير، والأمثال وغيرها، على أن من الضروري معالجة الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء في شيء من التوسع والاستيعاب. وذلك لأن هذه الأسفار تكاد تكون أقدم الشواهد، بل هي ولا مراء أفضل الدلائل على ظهور صنف جديد من الزعامة في شئون البشر، هو زعامة الأنبياء.

وليس هؤلاء الأنبياء بطبقة جديدة في المجتمع، وذلك لأنهم ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة إلى أقصى حد. فكان حزقيال مثلاً من طائفة الكهنة، وكان ذا عواطف كاهنية، وكان عاموس (Amos) راعيًا، على أنهم يشتركون جميعًا في كونهم يبثون في الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد. ويبدو أن الأنبياء الأول أشد الناس شبهًا بالكهنة الأول، فإنهم يستلهمون الوحي ويقدمون النصح وربما لم يكن هناك في البداية أي فارق كبير بين الكاهن والنبي إبان الأيام التي كانت العبادة فيها تقام على مرتفعات كثيرة في البلاد، والتي كانت الفكرات الدينية في أثنائها غير مستقرة نسبيًا.

وكان الأنبياء يرقصون فيما يلوح بطريقة تتشبه إلى حد ما طريقة الدراويش، وينطقون بالوحي. وكانوا يرتدون على وجه العموم رداء يميزهم مصنوعًا من جلد الماعز الخشن، وكانوا يتبعون تقاليد البدو الرحّل وينفرون من "بدع المستقرين الجديدة". على أن طراز الأنبياء ظل بعد بناء المعابد وتنظيم الكهانات عاملاً آخر قائمًا ومنعزلاً عن الخطة الدينية الرسمية. والراجح أن الكهان لم يبرحوا يتبرمون بالأنبياء تبرمًا يتفاوت قدره. إذ إنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس في الشئون العامة، والداعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة، وهم قوم "نصبوا أنفسهم بأنفسهم" إن جاز مثل هذا القول، ولم يكن لهم من سند يستندون إليه إلا ما يحسون من نور باطني. وفي الكتاب المقدس صيغة ثابتة هي (وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى فلان).

وفي الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا وهي أشد أيامها اضطرابًا، ويوم أطبقت مصر وشمال بلاد العرب ومملكة آشور ثم مملكة بابل إطباق المنجلة على البلاد، أصبح لهؤلاء الأنبياء شأن وقوة عظيمان، وكانت دعوتهم موجهة إلى العقول القلقة الوجلة، وقد ركزوا جل نصحهم وترغيبهم في بادئ الأمر على الندم خاصة وعلى هدم هذا المكان المرتفع أو ذاك وعلى إعادة العبادات إلى أورشليم وما شاكل ذلك. ولكن بعض نبوءاتهم كانت تحمل بين طياتها بالفعل نغمة تشابه النغمة التي تصدر في أيامنا هذه عمن نسميهم (بالمصلحين الاجتماعيين). كقولهم "إن الأغنياء يسحقون وجوه الفقراء"؛ وإن المترفين ليستنفدون خبز الأطفال؛ وإن ذوي النفوذ والأثرياء ليقلدون بذخ الأجانب ورذائلهم ويضحون بالعامة على مذبح هذه البدع الجديدة، وهذا ما لا يرضاه الإله "يهوه"، ولا مراء أنه منزل بالبلاد من أجل سخطه وعقابه.

ولكن اتساع أفق الأفكار الذي نجم عن الأسر، أفضى إلى تغيير نغمة التنبؤ وتوسيع مجالاتها. فإن الوضاعة المشوبة بالحسد والتي كانت تشوه الصورة القبلية الأولى للإله، قد حلت محلها صورة جديدة تقول بإله كله بر وصلاح مطلق، وواضح أن سلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودي، بل كان شيئاً يحدث في تلك الأيام في كافة أنحاء العالم السامي. فإن تفتيت الشعوب والممالك لتكوين إمبراطوريات ذلك العصر العظيمة الدائبة التغير، وتحطيم النحل ونظم العبادات والكهانات، وما كان يجري من تبادل التكذيب والتحقير بين المعبد والمعبد في تنافسهما ومنازعاتهما، كانت كلها مؤثرات تفك عقال أذهان الناس وتفتح أمامها آفاقًا أكثر سعة وأشد حرية في النظرة الدينية. كانت المعابد تكدس كنوزًا عظيمة من المواعين الذهبية ولكنها فقدت سيطرتها على أخيلة الناس.

ومن العسير علينا أن نقدر ما إذا كانت الحياة في ظلال هذه الحروب المستديمة قد صارت أقل استقرارًا وسعادة مما كانت عليه من قبل، ولكن مما لا سبيل إلى الشك فيه أن الناس أصبحوا أشد إدراكًا لما فيها من شقاوة وعدم اطمئنان. فلم يبق للناس إلا القليل من الارتياح والاطمئنان – اللهم إلا في قلوب الضعفاء والنساء – إلى تلك القرابين والطقوس وإلى عبادات المعبد الشكلية. هكذا كان العالم الذي شرع أنبياء إسرائيل المتأخرون يحدثونه عن الرب الأوحد وعن الوعد بأنه لا بد أن يأتي يوم يسود العالم فيه السلام والوحدة والسعادة. وهذا الإله العظيم الذي شرع الناس إذ ذاك في الكشف عنه كان يعيش في معبد "لم تصنعه يد، وهو سرمدي في السموات". ولا يخالجنا إلا القليل من الشك في وجود مقدار كبير من أمثال هذه الأفكار وتلك القواعد في مملكة بابل ومصر وفي كل أرجاء الشرق السامي. وأسفار الأنبياء في الكتاب المقدس لا تعدو أن تكون نماذج لتنبؤات ذلك الزمان.

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى تسلل الكتابة والعرفان تدريجيًا من أفقهما المحدود المقصور على الكهنة وخدم المعابد وحرمها المقدس، أعني من تلك القوقعة التي نمت فيها وترعرعت أول الأمر. ولقد اتخذنا من هيرودوت نموذجا شائقًا لما أطلقنا عليه اسم الذكاء الطليق للجنس البشري. وها نحن أولاء نعالج تدفقًا جديدًا لآراء وأفكار أخلاقية تنساب في المجتمع العام. وإن في ظهور الأنبياء العبرانيين، وفي الانتشار المطرد الذي لقيته فكراتهم المتجهة إلى الاعتقاد بوجود رب واحد في هذا العالم بأسره، لتطورًا آخر مماثلاً لذاك، تهيأ لضمير البشرية الحر. ومنذ ذلك الزمان فصاعدًا، والفكر الإنساني تخالجه – إما في شيء من الضعف والخفاء، وإما على حالة من التآزر وحشد القوى – فكرة تهدف إلى إقامة حكم واحد في العالم، وفكرة أمل ورجاء في سلام فعال بديع وسعادة رائعة يسودان شئون البشر. بذلك تحولت الديانة العبرانية من ديانة معبد من الطراز القديم، وأصبحت إلى حد كبير ديانة أنبياء خلاّقة من طراز جديد. ويتعاقب الأنبياء نبيًا بعد نبي.

ثم ولد فيما تلا ذلك من أيام – كما سنذكر لك – نبي ذو قوة لم يسبق لها مثيل، هو عيسى، الذي أسس أتباعه تلك الديانة العالمية العظيمة، وأعني بها الديانة المسيحية، وبعد ذلك ظهر أيضًا نبي آخر، هو محمد، وكان ظهوره في بلاد العرب، وقد أسس الإسلام، وعلى الرغم من انفراد كل منهما بما له من خصائص مميزة، فإن هذين المعلمين قد نشآ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء اليهود. وليس من عمل المؤرخ أن يناقش صدق الدين أو كذبه، وإنما يقتصر عمله على تسجيل ظهور الآراء والفكر البنّاءة العظيمة. فمنذ ألفين وأربعمئة من السنين، وبعد أن انقضت ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف من السنين على بناء حوائط المدن السومرية الأولى، ظهرت في العالم فكرتا الوحدة الخلقية للبشرية والسلام العالمي.

الفصل التاسع عشر

الشعوب الناطقة بالآرية

في عصور ما قبل التاريخ

١- انتشار الناطقين بالآرية.

٢- عن حياة الآريين الأصلية.

٣- العائلة الآرية.

١ – انتشار الناطقين بالآرية

تكلمنا عن اللغة الآرية بوصفها لغة نشأت على الأرجح في إقليم الدانوب وجنوب الروسيا ثم انتشرت من منطقتها الأصلية إلى مناطق أخرى. ونحن إنما نقول "على الأرجح" لأنه لم يثبت قط ثبوت محققاً أن ذلك الإقليم كان مركزها. ولقد أثيرت حول هذا الموضوع مناقشات واسعة النطاق وحدث بصدده اختلاف كبير في الرأي. لذا فنحن إنما نقدم إليك وجهة النظر السائدة. كانت تلك اللغة في الأصل لغة مجموعة من الشعوب النوردية الجنس. فلما أن انتشرت الآرية انتشارًا واسعًا أخذت في التفرع والانقسام إلى عدد من اللغات الثانوية. فالتقت في الغرب والجنوب بلغة "الباسك" التي كانت سائدة في إسبانيا، ولعلها لقيت أيضًا لغات أخرى متنوعة على شواطئ البحر المتوسط.

وقبل انتشار الآريين من بلادهم الأصلية نحو الجنوب والغرب كان الجنس الأيبيري موزعًا بين بريطانيا العظمى وأيرلندا وفرنسا وإسبانيا وشمال أفريقية وجنوب إيطاليا، كما كان على حالة أكثر مدنية وتحضرًا في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى. وكانت بينه وبين المصريين صلات وثيقة. وإذا حكمنا عليه بآثاره الباقية في أوربا، قلنا إنه كان صغير الحجم أو يكاد، وكان بوجه عام بيضاوي الوجه مستطيل الرأس. وكان يدفن رؤساءه وذوي المكانة من أفراده في حجرات من الجندل [١] مغطاة بروابٍ عظيمة من التراب. ولما كانت هذه الروابي أكثر طولاً منها عرضًا، فإنها تعرف بالقبور [٢] المستطيلة، وكان هؤلاء الأقوام يحتمون في بعض الأحيان في الكهوف، كما كانوا أيضًا يدفنون بعض موتاهم فيها. ومن آثار العظام الإنسانية، سواء المحترق منها والمهشم والمقطع، بما في ذلك عظام الأطفال – نستنتج أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر.

هذه القبائل الأيبيرية القصيرة الأجساد الداكنة اللون (يضاف إليهم الباسك إن كانوا جنسًا مغايرًا) قد دفعوا إلى الخلف جهة الغرب، ثم هزموا واستبعدوا على أيدي موجات تتقدم وئيدًا من أولئك الناطقين بالآرية الأطول قامة والأشد شقرة الذين نزحوا نحو الجنوب والغرب عابرين أوربا الوسطى، وهم الذين نسميهم الكلت. ولم يقف في وجه ذلك اللسان الآري القاهر غير شعب الباسك وحده. وشرع أولئك الناطقون بالكلتية يتخذون طريقهم رويدًا رويدًا نحو المحيط الأطلسي، وكل ما يتبقى اليوم من أعقاب الأيبيريين مختلط بالسكان الكلتيين. أما مدى تأثير الغزو الكلتي في سكان إرلندة فهو مثار جدل إلى وقتنا هذا. وربما كان الكلت في تلك الجزيرة مجرد طائفة من الغزاة فرضوا لغتهم على رعية من السكان أكثر عددًا. وربما صح مثل هذا القول عن إسبانيا. بل يشك بعض الناس فيما إذا كان شمال إنجلترة نوردي الدم أم يغلب عليه الدم السابق للكلتي. فإن بين أهل ويلز من هو قصير داكن البشرة، كما أن بين الإرلنديين طرزات مماثلة، وكلاهما أيبيري الجنس. والبرتغاليون العصريون يغلب عليهم كذلك الدم الأيبيري.

([١]) الجندل: هو الصخر الضخم. (المترجم).

([٢]) وقد أسميناها أيضًا في المجلد الأول باسم تلعات الدفن. (المترجم)

وكان الكلت يتكلمون لغة هي الكلتية، يقال عنها إنها كانت تجمع بين مفردات آرية، وبين أجرومية البربر Berbers (أي الأيبيريين)، وهي اللغة التي قدر لها أن تتفرع بدورها فتصبح لغة غالة واللغ ات (Gallic) الويلزية والبريطونية (Briton) والاسكتلندية والإرلندية الغيلية (Gaelic) وألسنة أخرى. وك ان الكلتي ون يدفنون رماد رؤسائهم وعظمائهم في قبور مستديرة. وعلى حين كان هؤلاء الكلتيون النورديـ ون ينتشـ رون غربًا، كانت هناك شعوب آرية نوردية أخرى تضغط جنوبًا على شعب البحر المتوسط ذي اللـ ون الأبـ يض الداكن في أشباه الجزائر الإيطالية والإغريقية وتطور مجاميع الألسن اللاتينية والإغريقية. وثمة قبائل آريـ ة معينة كانت تندفع نحو البلطيق وعبره حتى تدخل اسكندناوة، وهي تتكلم ضـ روبًا مـ ن الآريـ ة أصـ بحت النورسية القديمة – وهي أصل السويدية والدانمركية والنرويجية والإيسلندية – والقوطية والجرمانيـ ة العليـ ا والسفلى [1].



([1]) انظر اللغات البشرية ص ١٣٩ من المجلد الأول. (المترجم)

وفي نفس الوقت الذي كان اللسان الآري البدائي ينتشر فيه على هذا النحو، وينقسم إلى لغات وليدة في الغرب، كان ينتشر ويتفرع في الشرق كذلك. فإن القبائل الناطقة بالآرية كانت تستعمل في شمال جبال الربات والبحر الأسود لهجة تميزها تسمى السلافونية (الصقلبية) التي منها جاءت الروسية والصربية والبولندية والتشيكية وألسنة أخرى. وثمة لهجات أخرى للغة الآرية موزعة في آسيا الصغرى وبلاد إيران، تجسمت ذاتيتها في صورة الأرمنية "والهندوإيرانية" وهي أم اللغتين السنسكريتية والفارسية. ولقد أطلقنا في هذا الكتاب كلمة الآرية على كل هذه المجموعة الضخمة من اللغات، وإن كان اصطلاح "الهندوأوربية" مستعملاً في بعض الأحيان للدلالة على العائلة بأسرها، على حين اقتصر استعمال كلمة الآرية على حيز أضيق هو اللسان الهندوإيراني، ثم قدرت الأيام لهذا اللسان الهندوإيراني أن يتشعب فيما بعد فيصبح عددًا من اللغات من بينها الفارسية والسنسكريتية، والأخيرة إنما هي لغة قبائل بعينها من الناطقين بالآرية ذوي البشرة الشقراء، زحفوا شرقًا ودخلوا الهند في زمان ما بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق. م.، وتغلبوا على الشعوب الدرافيدية السمراء الذين كانت تلك الأرض في أيديهم إذ ذاك.

ولقد انتشرت قبائل آرية أخرى من مجال جولانها الأصلي إلى شمال البحر الأسود وجنوبه، كما سارت حول شمال وشرق بحر قزوين ملازمة شواطئ بحار تلك المنطقة أثناء انحسارها أمامهم وإفساحها الطريق لهم. وبذلك أخذت تنشب المنازعات فضلاً عن الاختلاطات بينهم وبين الشعوب المغولية من مجموعة الأورال آلتاي اللغوية، وهم القوم الذين يربون الخيل في سهوب آسيا الوسطى المعشبة. ويلوح أن الآريين اكتسبوا طريقة استخدام الخيل في الركوب والحرب من هاته الشعوب المغولية. ولقد كانت هناك في عصر ما قبل التاريخ ثلاثة أو أربعة أنواع أو أجناس مختلفة من الخيل في أوربا وآسيا. على أن أرض السهوب أو الأراضي شبه الصحراوية هي التي أعدت في مبدأ الأمر خيولاً ذات بنية مهيأة لغاية أخرى غير الانتفاع بها كغذاء.

وليكن مفهومًا أن كل هذه الشعوب القاطنة في السهوب الروسية والآسيوية، كانوا يغيرون مواطنهم بسرعة. ذلك أن تعاقب الفصول المتطرفة المناخ ربما قذف بهم مئات كثيرة من الأميال. ولذا فليس في ميسورنا اليوم أن نستدل على مضارب أقدامهم وتنقلاتهم إلا على سبيل الظن والاستدلال. فكانوا ينزحون إلى الشمال في كل صيف، ثم يعودون أدراجهم إلى الجنوب من جديد عندما يحل الشتاء. وكان مدى هذا التأرجح السنوي يبلغ في بعض الأحيان مئات الأميال. ورغبة منا في التبسيط، تمثل خرائطنا انتقالات الشعوب المترحلة بخط مستقيم، وإن كانوا في حقيقة الأمر يتحركون في تأرجحات سنوية مثلهم في ذلك مثل خادم يكنس دهليزًا فتنتقل مكنسته من جانب إلى جانب آخر وهو يخطو إلى الأمام في عمله. وكانت المنطقة الممتدة حول شمال البحر الأسود وربما كذلك شمال بحر قزوين، والمبتدئة من مجال القبائل التيوتونية الأصلية القاطنة في أوربا الوسطى وأوربا الشمالية حتى منطقة الشعوب الإيرانية التي تفرعت إلى الميديين والفرس والهنود (الآريين)، – كانت هذه المنطقة كلها هي أراضي الرعي التي تنتجعها قبائل اختلط حابلها بنابلها اختلاطا يجعل الإبهام لا الدقة بالنسبة لها أقرب إلى الحقيقة، وهي قبائل من أمثال الكمّريين، والسرماتيين وأولئك الإسكيذيين (الإشقوذيين) الذين اشتركوا مع الميديين والفرس في الاتصال بالإمبراطورية الآشورية اتصالاً له أثره الفعال قرابة سنة ١٠٠٠ ق. م. أو قبلها.

وإلى الشرق والجنوب من البحر الأسود بين الدانوب وبين الميديين والفرس وإلى الشمال مـ ن الشـ عوب السامية وشعوب البحر المتوسط الساكنة على السواحل وفي أشباه الجزر، استقرت سلسلة أخرى مـ ن قبائـ ل آرية لا تقل عن الأخرى في عدم تحديد مستقراتها، وهي تتنقل تنقلاً سهلاً هيناً من مكان إلى آخـ ر وتخـ تلط اختلاطًا حرًا، وهو أمر يورث المؤرخين أعظم الحيرة والارتباك، إذ يلوح مثلاً أنهم مزقوا الحضارة الحثّيـ ة وتمثلوها، وهي حضارة كانت على ما يرجح سابقة للآريين في أصل نشأتها. وربما لم يكن هؤلاء الآريـ ون الأخيرون قد وصلوا إلى نفس المرحلة العالية من حياة الترحل التي بلغها اسكيذيو السهول العظيمة.

٢- عن حياة الآريين الأصلية

أي نوع من الحياة كان يعيشه هؤلاء الآريون في عصر ما قبل التاريخ؟ أولئك الآريون النورديون الذين هم أهم أسلاف معظم الأوربيين ومعظم الأمريكيين البيض والمستعمرين الأوربيين في أيامنا هذه، كما هم أسلاف الفرس والطائفة العليا من الهندوك، وربما كانوا أيضا أسلاف الأرمينيين، على أن هؤلاء الأخيرين كانوا على الأرجح شعبًا غير آري، ولعلهم شعب حيثي تعلم لغة آرية.

ولدينا في الإجابة عن هذا السؤال مصدر جديد من مصادر المعرفة يضاف إلى ما كشف عنه الحفر من الآثار والبقايا التي التزمنا أن نعتمد عليها في حالة أسلاف الآريين، لدينا ميدان اللغة نطرقه. ذلك أن دراسة اللغات الآرية دراسة عناية وتمحيص تبين أن من الممكن استنتاج طائفة من النتائج عن حياة هؤلاء الشعوب منذ ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سلفت من السنين.

فإن بين كل هاته اللغات مشابهة عامة، فإن كلاً منها كما سبق أن بينا تشتق الكلمات المختلفة بإدخال تغييرات على عدد من الأصول أو (الجذور) المشتركة بينها. فمتى وجدنا نفس أصل الكلمة وجذرها متداولاً في كل هذه الألسن أو جلها بدا من المعقول أن نستنتج أن المعنى الذي يومئ إليه أصل الكلمة هذا، كان لا ريب معروفًا للأجداد المشتركين. وبدهي، أنه إن وجدت بلغاتهم نفس الكلمة بالضبط فربما اختلف الحال إذ إنها قد تكون اسمًا جديدًا دالاً على شيء جديد أو فكرة جديدة انتشرت في العالم في زمان حديث جدًا، فكلمة "غاز" مثلاً لفظة صاغها "فان هلمونت" وهو كيماوي هولندي، حوالي سنة ١٦٢٥، فانتشرت في معظم الألسن الممدنة، وكلمة "التبغ" كذلك كلمة هندية أمريكية جاءت في أثر انتشار التدخين في كل مكان تقريبًا. على أنه إذا وجدت نفس الكلمة في عدد من اللغات وإذا كانت تتبع في تصريفاتها خصائص التصريف في كل لغة على حدة جاز لنا أن نوقن أنها كانت في تلك اللغة، وأنها ظلت جزءًا من تلك اللغة. وإنا لنعرف مثلاً أن الكلمتين الدالتين على العربة والعجلة تتداولان على هذا المنوال في جميع الألسن الآرية، وبذلك نستطيع أن نستنتج أن الآريّن البدائيين، وأعني بهم الآريين النورديين الخلص، كانت لديهم عربات، وإن كان يبدو من عدم وجود أي كلمات مشتركة دالة على برانق العجلة وإطارها ومحورها، أن عجلاتهم لم تكن من صنع صانع عجلات ولا كانت ذات برانق، بل كانت تؤخذ من جذوع الشجر وتسوى فيما بين الأطراف ببلطة.

وكانت هذه العربات البدائية تجرها الثيران، إذ لم يكن الآريون الأول يركبون أو يسوقون الخيل ولم يكن للخيل عندهم كبير منفعة. وكان مغول العصر الحجري الحديث شعبًا من الفرسان راكبي الخيل، على حين كان آريو نفس العصر الحجري الحديث شعبًا يستخدم البقر، فكانوا يأكلون لحم البقر، لا لحم الخَيل. وشرعوا بعد عصور كثيرة في استخدام الماشية في الجر، وكانوا يقدرون الثراء بعدد الأبقار، ويضربون بها في الأرض طلبًا للمرعى، ويحملون بضائعهم على عرباتهم التي تجرها الثيران كما يفعل بوير أفريقيا الجنوبية، وإن كانت عرباتهم بطبيعة الحال أقبح شكلاً من أية عربة توجد الآن في العالم، والراجح أنهم كانوا يتنقلون في مناطق فسيحة مترامية الأرجاء، إذ كانوا شعبًا نزوعًا إلى الهجرة، ولكنه لا يدخل تحت المعنى الدقيق

لكلمة "الرحّل" لأن انتقالاتهم كانت أبطأ وأثقل وأقل مهارة من الشعوب التي أصبحت فيما بعد هي الشعوب المترحلة الأكثر تخصصًا. كانوا قوم غابات أو أحراش خفيفة (Parklands) لا خيل عندهم، وكانت حياتهم تتطور متجهة صوب الهجرة متحولة عن حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر استقرارًا والمشتغلة بقطع الغابات، وقد تكون التغيرات المناخية التي كانت تحيل الغابات إلى مراع، وكذلك احتراق الغابات بالنار عرضًا، من العوامل التي ساعدت على هذا التطور.

سبق أن وصفنا لك نوع البيت الذي يسكنه الآري البدائي، كما وصفنا لك حياته المنزلية بقدر ما سمحت لنا بقايا مساكن البحيرات السويسرية وكانت بيوته في معظم الأحوال رثة بالغة الضعف، كما كانت مصنوعة من الطين وفروع الأشجار المتشابكة، بحيث لم تقو على البقاء. ولعله كان يتركها لأتفه الأسباب، راحلاً عنها بعرباته التي تجرها الأبقار، وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها، وهي عادة لا يزالون يرعونها في الهند، على أن أسلافهم أصحاب القبور المستطيلة وهم الأيبيريون، كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم في هيئة الجالسين. وفي بعض ركام الدفن الآرية القديمة (وهي القبور المستديرة) كانت الأوعية المحتوية على رماد الراحلين مصنوعة على صورة المنازل، وهذه تمثل أكواخًا مدورة لها سقوف من القش.

وكان انتجاع الآري البدائي للمرعى أعظم أهمية لديه من الزراعة. وكان يزرع في مبدأ الأمر بفأس خشبي بدائي، ثم ما لبث حين اكتشف استخدام الماشية لأغراض الجر أن بدأ في الحراثة الحقيقية بالثيران متخذًا محراثه في مبدأ الأمر من فرع شجرة معوج اعوجاجًا يفي بحاجته. وزراعاته الأولى التي ظهرت قبل ذلك، لا شك أنها كانت أقرب إلى صورة البساتين الصغيرة المجاورة لمباني المنازل منها إلى زراعة الحقول. وكانت معظم الأراضي التي تنزلها قبيلته أرضًا مشاعة ترعى فيها الماشية بعضها مع بعض.

وهو لم يستعمل الحجر قط في بناء جدران المنازل حتى شارف حافة العصر التاريخي ذاتها. وكان يستعمل الحجر في المواقد (أمثال ما يوجد في جلاستونبُري Glastonbury، كما كان يستعمل الحجر أحيانًا في الأجزاء السفلى من المباني. على أنه قد شاد بالفعل نوعًا من البيت الحجري في وسط الركام العظيمة التي كان يدفن فيها رماد النابهين من موتاه، ولعله تعلم هذه العادة عن جيرانه وسابقيه الأيبيريين، فقد كان هؤلاء البيض الداكنون أصحاب الثقافة الجندلية [1]، وليس الآريون البدائيون هم أصحاب الفضل في إقامة معابد من أمثال ستون هنج (Stonehenge) في ولتشير (Wiltshire) وكارناك (Carnac) في بريتاني (Brittany).

وما كان هؤلاء الآريون يحتشدون في مدن، ولكن في مناطق الرعي في هيئة عشائر ومجتمعات قبلية، ويؤلفون فيما بينهم أحلافًا مفككة هدفها التعاون المتبادل بزعامة رؤساء مختارين. وكانت لهم مراكز يستطيعون أن يلجئوا إليها مع ماشيتهم إن دهمهم خطر، وكانوا يقيمون المخيمات المحوطة بالجدران الطينية والسياجات. ولا يزال من الممكن تقصي آثارها في طبقات ما عفا عليه التاريخ من معالم البلاد الأوربية. والزعماء الذين كانوا يقودون الناس في الحرب، هم في غالب الأمر نفس الأشخاص الذين يقومون بالتطهير من الرجس بتقديم القرابين، وهم كهنتهم الأول.

([1]) انظر ص ١٠٢، ١٠٧ من ج١ (ط٣) من المعالم. (المترجم).

وقد انتشرت معرفة الإنسان للبرونز في أوربا في أوان متأخر. فإن الأوربي النوردي ظل يسير في سبيل التقدم البطيء جيلاً بعد جيل مدة ترامت إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة قبل ظهور المعادن، وكانت حياته الاجتماعية قد تطورت في تلك الفترة حتى لقد كان هناك رجال ذوو حرف مختلفة فضلاً عن رجال ونساء من مراتب مختلفة في المجتمع، فكان هناك رجال يعملون في الخشب والجلد، وكان ثم الفخرانيون والنحاتون. وكانت النساء يغزلن وينسجن ويطرزن، وكان هناك رؤساء عائلات تسنموا مراتب الزعامة والنبالة.

وكان الرجل من أفراد القبيلة الآرية يذهب عن نفسه سآمة حياة الرعي والتجول بأن ينذر النذور ويقيم الحفلات ابتهاجًا بالنصر، ويقيم الجنازات ويميز بين فصول السنة التقليدية بما يقيم من أعياد وولائم. ولقد مر بنا من قبل حديث اللحوم التي كان يتناولها. وكان شغوفاً بتناول المشروبات المسكرة يصنعها من الشهد ومن الشعير. ثم عاد فصنعها من العنب مع انتشار القبائل الناطقة بالآرية جنوبًا. فإذا شربها تملكته نشوة السكر والمرح. ولسنا نعرف ما إذا كان قد عرف الخميرة واستخدمها لتجفيف خبزه ورفعه أو لتخمير مشروباته.

وكان في ولائمه أفراد أوتوا موهبة المجون والسخرية يعمدون إلى ذلك لا جرم للفوز بضحك إخوانهم، على أنه كان هناك نوع آخر من الرجال أوتوا أهمية عظيمة في عصرهم وأهميتهم لدى المؤرخ أعظم وأكبر، أولئك هم بعض المغنين الذين كانوا يرجعون الأغاني وينشدون القصص، وهم المنشدون أو الشعراء المتجولون. وكان هؤلاء الشعراء يعيشون بين ظهراني كافة الشعوب الناطقة بالآرية. جاء ظهورهم نتيجة لذلك التطور الذي أصابته لغة الكلام بل هم عامل آخر مساعد في تطور تلك اللغة التي كانت رأس كل ما أصابه الإنسان من تقدم في العصور الحجرية الحديثة.

وكانوا ينشدون أو يلقون أقاصيص عن الماضي، أو أقاصيص عن رئيسهم الراهن وشعبه، كما ينشدون أيضًا أقاصيص أخرى استحدثوها، وكانوا يستظهرون النكات والقفشات. وهم الذين استحدثوا الأوزان والقوافي وتمسكوا بها وحسنوها كما وفقوا إلى السجع وجناس الحروف الأولى من الكلمات وما شابه ذلك ومما يتهيأ في اللغة من احتمالات كامنة. والراجح أنهم بذلوا جهدًا كبيرًا في سبيل إحكام قواعد اللغة ووضعها على أسس ثابتة. وكانوا فيما يحتمل أول من أمتع الأذن من عظماء الفنانين على نحو ما كان مصورو الصخور الأورينياكيون فيما بعد أول عظماء الفنانين الذين نعمت بآثارهم الأيدي والعيون. ولا ريب أنهم كانوا يأتون بالكثير من الحركات والإشارات. والراجح أنهم كانوا يتعلمون الحركات والإشارات المناسبة وهم يحفظون أناشيدهم. على أن ترتيب اللغة وعذوبتها وقوتها كانت لا جرم شغلهم الشاغل.

وهؤلاء الشعراء يؤذنون بخطوة جديدة خطتها إلى الأمام قوة العقل الإنساني وآفاقه. وإليهم يرجع الفضل في توجيه أذهان الناس إلى شعور جديد "بكائن" أعظم من أشخاصهم هو القبيلة، وشعور آخر بحياة ترجع إلى الماضي البعيد. فلم يقتصروا على مجرد تذكير قومهم بقديم الإحن والمعارك، بل أخذوا يترنمون بذكرى المحالفات القديمة والتراث المشترك، فبعثت على أيديهم جلائل أعمال السالفين من الأبطال. وبذا صار الآريون يعيشون بخيالهم قبل مولدهم وبعد انتهاء أجلهم.

وهذه التقاليد الشاعرية نمت في مبدأ الأمر نموًا وئيدًا، ثم ما لبث نموها أن زاد سـ رعة كمعظ م أم ور الإنسان. حتى إذا حان الزمان الذي كان البرونز يدخل فيه إلى أوربا، لم يكن هناك شعب آري واحد لا يقوم فيه احتراف الشعر وتدريب الشعراء. وعلى أيديهم أصبحت اللغة كأجمل ما يمكن أن تكون فقد كان هـ ؤلاء الشعراء كتبًا حية، وكانوا تواريخ في صورة رجال، وكانوا قوامين ومنشئين لتقاليد جديدة في الحياة الإنسانية أشد قوة. وكان لكل شعب آري سجله الشاعري الطويل يتوارثونه على هذا الوجه نقلاً وسماعًا. فكان للألمان قصائد الساجا كما تسميها اللغة التيوتونية، وللإغريق ملاحمهم وللهنود الآريين شعرهم القصصي الفيدانتي بالسنسكريتية القديمة. وأقدم الشعوب الآرية كانوا في جوهر أمرهم شعب صوت؛ إذ يلوح أن الإلق اء ك ان متسلطًا على كل شيء حتى على تلك الرقصات الطقوسية والدرامية وعلى "ارتداء ثياب الماضي" وهي أمور كان لها أيضًا لدى معظم الشعوب الإنسانية الفضل في نقل التقاليد من السلف إلى الخلف.

ولم تكن هناك في ذلك الزمان كتابة. ولما أن تسرب فن الكتابة لأول عهده في أوربا – كما سنقص عليك نبأه فيما بعد – فلا بد أن الناس رأوا فيه طريقة تسجيل أشد ما تكون بطئًا أو سماجة وجمودًا، حتى لأوشكوا آن يضنوا على القرطاس بهذه الكنوز الوهاجة الجميلة التي تعيها ذاكرتهم. وقصرت الكتابة في أول الأم ر على الحسابات والحقائق الواقعية. وازدهر شأن الشعراء والمنشدين المتجولين، حتى بعد إدخال الكتابة بزمن بعيد جدًا، بل الواقع أنهم بقوا في أوربا حتى العصور الوسطى في صورة المغنين المتجولين. Minstrels.

ولم يكن لتقاليدهم لسوء الحظ ما للسجل المكتوب من ثبات. إذ إنهم كانوا لا ينفكون يصححون ويهـ دمون ويبنون، وكانت لهم طرائقهم المتجددة وكانت لهم نواحي إهمالهم فترتب على ذلك أن لم يبق من ذل ك الأدب غير المسطور لعصور ما قبل التاريخ غير آثار ضئيلة دخلها الشيء الكثير من التحوير والتنقيح. ومن أمتـ ع تواليف الآريين قبل التاريخ وأحفلها بالمعلومات تلك الملحمة التي خلدتها الإلياذة الإغريقية. ويرجح أن صيغة أولى من الإلياذة كانت تتلى على الناس إبان ١٠٠٠ ق. م. ولكن لعلها لم تدون حتى (٧٠٠ أو ٦٠٠ ق. م.) ولا بد أن لكثير من الرجال يدًا فيها، إما مؤلفين أو محسنين منقحين. على أن ما عقب ذل ك مـ ن مت وارث التقاليد الإغريقية تنسبها إلى شاعر ضرير يدعي هوميروس، كما ينحلونه كذلك الأوديسيا، وهي مؤلف شديد الاختلاف عنها في الروح والنظرة. ويحتمل أن يكون بين الشعراء الآريين كثير من المكفوفين. والشعراء كما يقول الأستاذ ج. ل. مايرز Myres كانوا يُسلبون البصر لمنعهم من الشرود من القبيلة. ولقد رأى المستر ل. لويد في روديسيا موسيقارًا لدى جوقة ممن احترفوا الرقص من الأهالي، وقد سلبه رئيسه بصره لهذا السبب عينه. وكان السلاف (الصقالبة) يسمون الشعراء باسم سليباك Sliepae، وهي الكلمة التي يطلقونهـ ا أيضً ا على الرجل الضرير.

ونص الإلياذة الأصلي الذي كان الناس يتلونه أقدم من الأوديسيا عهدًا. ويقول الأستاذ جلبرت مـ ري: "إن الإلياذة بوصفها أثرًا شعريًا نص كامل أقدم من الأوديسيا عهدًا، وإن كانت مادة الأوديسيا (وهي إلى حد كبير من التراث الشعبي (Folk-lore) الذي لا يمكن تحديد تاريخه) أقدم من أية مادة تاريخية في الإلياذة. ويرجح أن كلاً من الملحمتين كتبت مرة ثانية، ثم أعيدت كتابتها في تاريخ لاحق، على نفس النحو الذي أعاد به لورد تنيسون أمير شعراء الملكة فكتوريا في كتابه "أناشيد الملك" كتابة قصة "مـ وت آرثـ ر Morte d'Arthur"، وهي بذاتها التي أعاد كتابتها السير توماس مالوري قرابة ١٤٥٠ نقلاً عن الأساطير السابقة لعصره، وفيه ـا

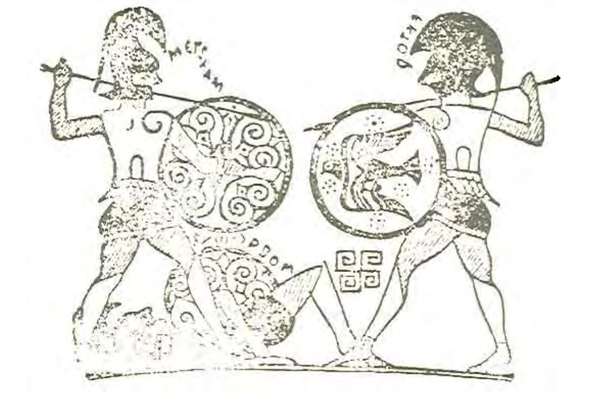
جعل الأقوال والمشاعر والشخصيات أقرب إلى الاتساق مع عصره. على أن حوادث الإلي اذة والأوديس يا، وطريقة العيش التي تصفان، وروح الأفعال المدونة فيهما، تنتمي إلى القرون الختامية لعصر ما قبل التاريخ. ثم إن هاته الأشعار سواء منها الساجا والملاحم والفيدا تزودنا هي وعلم الآثار القديمة وعلم فقه اللغة بينب وع ثالث للإحاطة بأنباء هاته الأزمان الغابرة. وإليكم مثلاً فقرة الإلياذة الختامية، وهي تصف على وجه الضـ بط طريقة إقامة القبر قبل التاريخ [١]:

أسرعوا جملة لشد البغ ال   وقويّ الثيران حول العج ال
ثم ساروا بهن فورًا وج دوا   وإلى السور أقبل وا أسد رابًا
أنهرًا تسعة بجم ع الضـ رام   لبثـ وا ثـ م عاشـ ر الأيـ ام
رفعوا الميت والعيون هوام
فوق ذاك الوقود ثـ م الذ ارا   أضرموها بـ ـه تـ ؤج أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ .   فجر من حوله أقاموا عصابا
حيث هبت لواهب النيـ ران   أخمدوها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان
جمعوا كل أعظم الميت جمعا   بكئيب الفؤاد يـ ذرون دمعـ ـا
أودعوها من ثم حُق لجـ ين   وكسوه برفيرهم [٢] جلبابً ـا
أنزلوها في حفرة حفروهـ ـا   وبجلمود صخرهم طمروهـ ـا
ثم شادوا الضريح إذ دفنوها
وحواليه أوقفـ وا الأرصـ ادا   من سراة السُّرى قروما شدادا
خشية من عدوهم أن يفـ اجي   بغتة حين غفلـ ـة واحتسـ ابا
وإذا القبـ ـر أكملـ وا وأتمـ وا   صرح ذاك المليك فريام أمُّوا
حيث حواليه للعزاء انضموا
ولهم هيـ أ المليـ ك طعامً ـا   كان في مأتم الفقيـ د ختامـ ـا
ذاك ما كان من مناحة هكطوا   والذي روض الجياد الصلابا

---

(١) اعتمد المؤلف في هذا الاقتباس على ترجمة تشابمان الشعرية للإلياذة مصححًا بعض الكلمات بمساعدة ترجمة لانج وليـ ف ومايرز النثرية ونقلناه نحن عن ترجمة البستاني العربية لها ص ١١٤٨ (المترجم).

(٢) البرفير والفرفير ضرب من الألوان مركب من الأحمر والأزرق، والثوب صبغ به ويعرف بالأرجوان. (المترجم).



ولا تزال هنا أيضًا ملحمة إنجليزية قديمة (ساجا) هي بيووُلْف (Beowulf) وقد صنفت قبل عبور الإنجليز من ألمانيا إلى إنجلترة بزمن طويل. وهي تختم بوصف منظر للدفن شبيه بذاك. وهي تبدأ بالحديث عن إعداد كومة الحطب للإحراق. وقد علقت من حولها التروس والدروع، وتحمل الجثة وتوقد النار، وبعد ذلك يدأب المحاربون عشرة أيام على إقامة مقبرة ضخمة لكي يراها عن بعد كل مسافر بالبر أو البحر.

وملحمة بيوولف التي ظهرت بعد الإلياذة بألف سنة على الأقل شائعة هي الأخرى، وذلك لأن إحدى مغامراتها الكبرى تدور حول نهب كنوز مقبرة قديمة ترجع إلى عهد أقدم من ذلك.

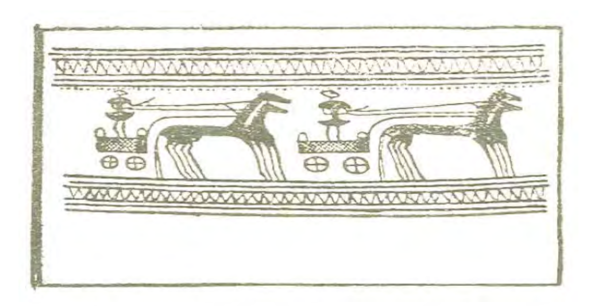
٣- العائلة الآرية

والملاحم الإغريقية تصور لنا الإغريق الأوائل على غير علم بالحديد، صفرًا من كل معرفة بالكتابة، كما تصورهم قبل أن يؤسسوا أي مدن إغريقية في تلك البلاد التي تدل كل الدلائل على حداثة عهـ دهم بفتحهـ ا. فأخذوا ينتشرون جنوبًا من مواطن الآريين الأصلية، وكانوا فيما يلوح قومًا من الشقر نازحين، حديثي عهـ د ببلاد الإغريق أي حديثي العهد بأرض كان يتملكها إلى ذلك الحين شـ عوب البحـ ر المتوسـ ط أو الشـ عوب الأيبيرية.

وتوخيًا للوضوح وإن تعرضنا لشيء طفيف من التكرار في هذه المسألة بالذات، نذكرك بـ أن الإلي اذة لا تعطينا صورة حياة العصر الحجري الحديث البدائية بذلك الإقليم الآري الأصلي، بل تعرض علينا تلك الحياة وقد سارت حثيثًا صوب حالة جديدة، وكانت طريقة العيش الحجري الحديث قد انتشرت فيما بـ ين ١٥٠٠٠، ٦٠٠٠ ق. م. بانتشار الغابات ووفرة النباتات في الحقبة المطيرة – فوق الجزء الأكبر من العالم القديم مـ ن نهر النيجر إلى نهر الهوانج هو، ومن إرلندة إلى جنوب الهند. وبينما كان مناخ أجزاء عظيمة مـ ن الأرض يرتد من جديد إلى حالة أكثر جفافًا وأشد تعريًا من النبات، كانت حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر بساطة تتطور في اتجاهين: أحدهما يؤدي بها إلى حياة أكثر تجوالاً وانتقالا، أي إلى حياة تنتهي آخر الأمـ ر إلى أن تصبح حياة هجرة مستديمة بين مراعي الصيف والشتاء وهي ما تسمى باسم "حياة الترحل أو البداوة"، والآخر يفضي بها في وديان لأنهار معينة تسطع عليها الشمس – إلى حياة ري يختزنون فيها المـ اء. وهـ ي التي تجمّع فيها الناس فكوّنوا المدن الأولى وأقاموا المدنيات الأولى. ولقد أسلفنا وصـ ف المـ دنيات الأولـ ى وألمحنا إلى تعرضها من وقت لآخر لغزوات الشعوب المترحلة ولحظنا من قبل أنه في خلال آلاف عديدة من السنين ظلت المدنيات تتعرض للغزوات يتردد عليها المترحلون ترددًا يكاد يكون إيقاعيًا كخفق الطبول.

وينبغي لنا أن نلحظ أن الإغريق كما تصورهم لنا الإلياذة ليسوا مجرد رحّل من العصر الحجري الحديث عارين من كل حضارة ولا هم بالقوم الممدنين، وإنما هم بدو مترحلون في حالة انفعال واضـ طراب، لأنهـ م كانوا التقوا من فورهم بمشهد الحضارة ورأوا فيه فرصًا للحرب والمغنم والسلب.

وإغريق الإلياذة الأوائل محاربون شديدو المراس، ولكن يعوزهم النظام – وما معاركهم إلا فوضى قوامها النزال الفردي. ولديهم الخيل ولكن ليس لديهم فرسان، وهم يستخدمون الحصان وهو حيوان عرفه الآريـ ون في زمن حديث نسبيًا، يتخذونه لجر مركبة حربية. بدائية في ميادين القتال. وكان الحصان لا يزال في ذلـ ك الزمان شيئًا جديدًا حتى لقد كان في حد ذاته مبعثًا للرعب. فأما أغراض الجر العادية فكانت الثيران أنعامها، كما رأينا من الاقتباس الذي قدمناه لك من الإلياذة.



ولم يكن لهؤلاء الآريين من كهنة سوى سدنة المقاصير والأماكن المقدسة. ومن رؤساء العائلات من كان يقوم كذلك بتقديم القرابين، ولكن لا يبدو أن ديانتهم تنطوي على خفايا كثيرة أو شعور بأسرار مقدسة. فعندما يخرج الإغريق للقتال، يلتئم من هؤلاء الرءوس والأكابر مجلس ينصّبون عليهم فيه ملكًا، يتمتّع بسلطات فضفاضة. وليست لديهم قوانين بل لديهم العرف وحده دون أي معايير مضبوطة للسلوك والأخلاق.

وكانت الحياة الاجتماعية لدى الإغريق الأوائل تدور حول دوارات [1] هؤلاء الزعماء. وكان هناك ولا ريب أكواخ للقطعان وما شابهها، ومبان "للعزب" منعزلة. على أن بهو الرئيس كان مركزًا جامعًا يؤمه الناس لحضور الولائم وسماع الشعراء والأخذ بنصيبهم من الألعاب والرياضة. وكان أرباب الحرف البدائيون يتجمعون هناك. وكانت من حوله حظائر البقر وإسطبلات الخيل وما إلى ذلك من المرافق. وكان الدهماء من غير ذوي المكانة ينامون في أي مكان حول ذلك البهو على النحو الذي كان يفعله الخدم والأتباع في قلاع القرون الوسطى، وكما يفعل الناس حتى الآن في الدوارات الهندية. وفيما عدا وجود الممتلكات الشخصية البحتة كان لا يزال يحيط بالقبيلة جو من الشيوعية القائمة على نظام الأبوة. فكانت القبيلة أو رئيس القبيلة يملك أرض المرعى، وكانت الغابة والأنهار مشاعًا بين الجميع.

ويلوح أن النظام الاجتماعي الآري – بل في الحق كافة المجتمعات الأولى . لم يكن يقوم على المنازل الصغيرة المنفصلة التي تتكون منها في الوقت الحاضر كتلة السكان في أوربا الغربية وأمريكا، بل كانت القبيلة عائلة كبيرة. وكانت الأمة جماعة من العائلات القبلية. وكان الدوار كثيرًا ما يضم مئات من الناس. وقد ابتدأ المجتمع البشري أمره على نفس الشاكلة التي ابتدأ بها تكوين القطعان والأسراب بين الحيوانات، وذلك بأن كانت العائلة تؤخر تفككها وانقسامها. وإنك لتجد الأسود في الوقت الحاضر في شرق أفريقيا جانحة بشكل واضح لأن تصبح حيوانات اجتماعية من هذه الناحية، وذلك في ملازمة الصغار لأمهاتها بعد استكمالها لنموها ثم في خروجها للصيد جماعة. وكان الأسد حتى حين أقرب شيء إلى حيوان منفرد. ولئن لم يتعلق الرجال والنساء بعائلاتهم في الوقت الحاضر بالقدر الذي كانوا يتعلقون به في الماضي، فذلك لأن الدولة والمجتمع يزودان الناس بالطمأنينة والعون والتسهيلات التي كانت في يوم ما في متناول جماعة العائلة دون غيرها.

(1) الدوار كما هو معلوم هو دار الوجيه الريفي. (المترجم).

ومجتمع الهندوك في الوقت الحاضر لا يزال يحتوي تلك الدورات الكبيرة التي كانت في المراحل الأول ى للجماعة البشرية. وقد وصف (المستر بهو بندرانات باسو) من أمد قريب دوارا هندوكيًا طرازيًا، ه و دوار آري تهذب وتلطف بمرور آلاف من سني المدنية. بيد أن تكوينه الاجتماعي هو عين تكوين الدوارات الت ي تتحدث عنها الملاحم الآرية.

قال: "إن نظام العائلة المشتركة قد وصل إلينا من أزمان سحيقة في القدم، ولا يزال النظام الأب وي الآري القديم مسيطرًا في الهند. وهو على قدمه لا يزال زاخرًا بالحيوية. والعائلات المشتركة إنما هي هيئة تعاونية فيها للرجال والنساء منزلة محددة المعالم، وعلى رأس تلك الهيئة أرشد أعضاء العائلة، وهو في العادة أكب ر الذكور سنًا، غير أنه كثيرًا ما تتسلم مقاليد السلطة أرشد النساء في حال ة غياب ه (راج ع قص ة بنيل وب Penelope في الأوديسيا).

"وعلى جميع القادرين جسميًا من الأعضاء أن يكرسوا جهودهم وكسبهم إلى الحصيلة العامة سواء أك ان ذلك عن طريق المهارة الشخصية أو الزراعة والتجارة. فأما الضعفاء والأي امى واليت امى وذوو القرب ى المعوزون، فقد كان لزامًا أن تعولهم العائلة جميعًا وتعينهم، وكان لزامًا أن يعامل الأبن اء وأبن اء الإخ وة والإخوة وأبناء العم جميعًا على قدم المساواة، إذ إن أي تفضيل لا محل له ربما أفضى إلى تفكك العائل ة. وليس لدينا (في الهند) أي كلمة للدلالة على أبناء العمومة. فهم إما إخوة أو أخوات. وليس في مصطلحنا لفظ يدل على أبناء العمومة الذين يبعدون في قرابتهم لنا درجتين، فإن أولاد ابن عمك لحًا [1] إنما هم أبناء وبنات أخيك، مثلهم كمثل أولاد إخوتك أو أخواتك تمامًا. والرجل لا يستطيع أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله مهم ا بعدت قرابتها منه إلا بقدر ما يستطيع التزوج من أخته لحًا، اللهم إلا في أجزاء بعينها من "م دراس"، حي ث يستطيع الرجل أن يتزوج ابنة خاله. والعواطف العائلية والروابط العائلية قوية جدًا بينهم على الدوام. ول ذلك كانت المحافظة على معايير المساواة بين هذا العدد الكبير من الأعضاء، لا تبلغ من الصعوبة ما تبدو علي ه لأول وهلة. زد على ذلك أن الحياة هناك جد بسيطة، فلم يكن استعمال الأحذية حتى زمن قريب شائعًا داخ ل المنازل، وإنما كانوا يستعملون الخفاف أي الصنادل غير ذات الشسوع الجلدية. وإني لأعرف عائلة ميسورة الحال من الطبقة الوسطى مكونة من عدد من الإخوة وأبناء العمومة، ولها زوجان أو ثلاث ة م ن الأحذي ة الجلدية تتناوب استعمالها. إذ إن تلك الأحذية لا تستعمل إلا إذا حدث ما يستدعي خروجهم، ولا ت زال تل ك الطريقة عينها مرعية في حالة الثياب الغالية الثمن أمثال الشيلان التي تبقى أجيالاً عدة، والتي تلقى مع تقادم العهد بها عناية ملؤها التجلّة لسابق استعمالها على يد أجداد كريمي الذكرى.

---

(1) ورد في الوسيط: لحت القرابة بيننا لحًا، دنت ولصقت. [المترجم]

"وتبقى العائلة المشتركة أحياناً متجمعة مدة أجيال عدة، حتى تصبح كبيرة الجرم ثقيلة العبء عسيرة القياد فتتجزأ إلى عائلات أصغر منها. وإنك لترى على هذا النحو قرى بأكملها مأهولة بأعضاء عشيرة واحدة. قلت إن العائلة هي جماعة تعاونية، وربما أمكن تشبيهها بدويلة، ويحتفظ لها بأوضاعها وبمكانتها نظامها القوي القائم على المحبة والطاعة، وإنك لترى في كل يوم تقريبًا أفراد العائلة الصغار، يتقدمون إلى كبيرها "ويأخذون تراب قدميه" علامة على التبرك، وكلما انطلقوا في مشروع لهم استأذنوه فيه وتقبلوا بركاته...! وهناك روابط كثيرة تربط العائلة بعضها ببعض: أولها رابطة التعاطف والمسرات المشتركة والأحزان المشتركة. فعندما تحدث في العائلة وفاة يشمل الحداد كل أفرادها، وإذا ولد مولود أو تزوج فرد عمت الأفراح كل العائلة. وهناك فوق كل شيء إله العائلة وهو تمثال لفشنو (Vishnu) الحافظ، وله حجرة خاصة، تعرف عادة باسم حجرة الرب. على أن بعض العائلات الميسرة الحال تخصص له معبدًا ملحقًا بالمنزل تؤدي فيه العائلة عبادتها اليومية، وترتبط العائلة بتمثال الرب بنوع من المحبة الشخصية، لأن التمثال ينحدر على العموم من الأجيال السابقة، وكثيرًا ما يكون أحد الأجداد الأتقياء قد حصل عليه بمعجزة من المعجزات في بعض الأزمان السحيقة.. وكاهن العائلة وثيق الارتباط برب العائلة. والكاهن الهندوكي جزء من حياة أتباعه العائلية لا يتجزأ، وقد دامت الرابطة بينها وبين شخصه مدة أجيال كثيرة. وليس الكاهن عادة رجلاً واسع العلم، وهو على كل حال ملم بتقاليد عقيدته. وليس الكاهن بالعبء الثقيل على العائلة إذ هو يرضى بالقليل. فإن ملء حفنات قليلة من الأرز لتكفيه، وإن عددًا قليلاً من أصابع الموز أو الخضر المزروعة في المنزل، وإن قليلاً من السكر غير المكرر المصنوع في القرية، وإن قليلاً من قطع العملة النحاسية تعطى له في بعض الأحيان – لهي كل ما يلزمه.

"وكل صورة لحياتنا العائلية لا تتناول بالحديث خدم الدوار تكون صورة بتراء. فالخادم الأنثى تعرف في البنغال باسم "جهي" أي الابنة، فهي كابنة البيت، وهي تدعو رب البيت وربته أبًا وأمًا، وتدعو شبان وفتيات العائلة إخوة وأخوات، وهي تقاسم العائلة حياتها، وتذهب إلى الأماكن المقدسة مع سيدتها، إذ إنها لا تستطيع الذهاب بمفردها، وهي على العموم تقضي حياتها مع العائلة التي تبنتها، وتعنى العائلة بأطفال الخادمة. والخدم الرجال يلقون معاملة مماثلة لهذه تماماً". وهؤلاء الخدم الرجال منهم والنساء هم في العادة قوم من طوائف أدنى مرتبة. على أن شعورًا بالتعلق الشخصي ينمو بينهم وبين أفراد العائلة، وحين تتقدم بهم السن يسميهم الصغار من أفراد العائلة – في حنان ومحبة – إخوة كبارًا وأعمامًا وخالات.

"ولكل بيت ميسر الحال مدرس مقيم على الدوام، يعلم أطفال العائلة كما يعلم أولادًا آخرين من أبناء القرية وليست مباني المدارس كثيرة النفقة، فإن في أية شرفة "فراندة" أو مظلة في الفناء متسعًا للأطفال ومعلمهم، ويقبل أبناء الطوائف الدنيا في هذه المدرسة مجاناً. فهذه المدارس الأهلية لم تبلغ يومًا مرتبة عالية جدًا. بيد أنها كانت مركزًا لتعليم الجماهير لم يتيسر مثله في أي قطر آخر.

"ويرتبط بالحياة الهندوكية واجب الكرم الذي تحتمه التقاليد، فإن واجب صاحب الدار يقضي عليه بأن يقدم الطعام لأي غريب يحضر قبل الظهيرة، وإن ربة البيت لتمتنع عن تناول طعامها حتى يتناوله كل أفراد العائلة – وإذ إن طعامها يكون في بعض الأحيان هو كل ما تبقى في المنزل، فإنها لا تتناول غداءها إلا بعد وقت الظهيرة بزمن كاف خشية أن يأتي غريب جائع ويطلب الغداء".

لقد استمرأنا الاقتباس من المستر باسو في شيء من الإسهاب، لأننا بهذا نصل فعلاً إلى شيء يشبه الفهم الحي لطراز الدوارات التي عمت المجتمعات البشرية منذ العصر الحجري الحديث، والتي لا تفتأ تعم اليوم الهند والصين والشرق الأقصى. والتي أخذت في الغرب تخلي مكانها سريعًا لنظام للتعليم تقوم به الدولة ومجالس البلديات، ولنظام "تصنيع" واسع النطاق يتيسر فيهما من استقلال الفرد وحريته قدر لم تعرفه قط تلك الدوارات الكبيرة. ولنعد الآن إلى التاريخ الذي تحفظه لنا الملاحم الآرية.

تنبئنا الملاحم السنسكريتية بقصة شديدة الشبه بتلك القصة التي تنطوي عليها الإلياذة. وهي قصة شعب أشقر يأكل لحم البقر – فإنهم لم يصبحوا نباتيين إلا في زمن لاحق – ينحدر من بلاد الفرس إلى سهل الهند الشمالي ويشق طريقه في مهل إلى نهر السند. ومن السند ينتشرون في أنحاء الهند ولكن بينا هم في انتشارهم تراهم يقتبسون الشيء الكثير من الدرافيديين السمر الذين غزوا بلادهم، ويبدو أنهم فقدوا تقاليدهم الشاعرية. ويقول المستر باسو: "إن الأشعار القديمة كانت تتناقل على الأخص في الدوارات على ألسنة النساء".

أما أدب الشعوب الكلتية الشفوي المحفوظ، وهم الذين اتجهوا غربًا، فلم يبق سليمًا كما بقي أدب الإغريق والهنود، وذلك لأنه سطر بعد انقضاء قرون عديدة، ولذلك فإنه – شأن ملحمة البيوولف (Peowlif) الإنجليزية البدائية – قد فقد كل شاهد واضح يشهد بوجود فترة هجرة إلى أراضي شعب سالف. ولئن ظهر فيه أثر لمن سبقوا الآريين، فإنهم إنما يظهرون فقط ظهور (الفيري [1] Fairy) في القصص الإرلندية.

وظلت إرلندة – وهي أشد المجتمعات الناطقة بالكلتية انقطاعًا عن العالم – محتفظة بحياتها البدائية إلى أحدث الأزمان. وقصة التين (Tain) وهي الإلياذة الإرلندية تصف حياة قوم يربون الماشية ولا يزالون يستخدمون العربات الحربية كلا تزال كلاب الحرب مستعملة لديهم، وتحمل رءوس القتلى معلقة حول رقاب الخيول. "والتين" إنما هي قصة غارة لسرقة الماشية، وفيها أيضًا يبدو النظام الاجتماعي على نحو ما شوهد في الإلياذة. فإن الرؤساء يجلسون في قاعات عظيمة رحيبة، ذلك أنهم يشيدون لأنفسهم القاعات ويقيمون فيها الولائم. وهناك ترفع أصوات الشعراء بالغناء وقص الأقاصيص على حين تدور الكأس بالشراب وينتشي الحاضرون. وليس هناك ما يدل دلالة واضحة على وجود كهنة، بيد أن هناك نوعًا من الطبيب الساحر حارس التعاويذ والتنبؤات.

([1]) الفير – كائن أو روح خيالي كثير الورود في القصص الأوربي، له صورة إنسانية وقامته أقصر من الإنسان وله قدرة على عمل أشياء كثيرة خارقة لا يستطيع الإنسان عملها. (المترجم).

الفصل العشرون

الإغريق والفرس

١- الشعوب الهيلينية.
٢- المظاهر المميزة للمدنية الهلينية.
٣- الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في بلاد الإغريق.
٤- مملكة ليديا.
٥- نهوض الفرس في الشرق.
٦- قصة كرويس (قارون).
٧- دار يجتاح الروسيا.
٨- معركة ماراتون.
٩- ثيرموبيلا وسالاميس.
١٠-بلاتايا وميكالي.

١- الشعوب الهلّينية

يظهر الإغريق لأول مرة في ذلك الضوء المعتم السابق لفجر التاريخ (قبل عام ١٥٠٠ ق.م. على التقريب) بوصفهم أحد الشعوب الآرية الجوالة غير كاملة الترحل. وكانوا يوسعون نطاق رعيهم شيئًا فشيئًا نحو الجنوب متوغلين في شبه جزيرة البلقان، ويقاتلون شعوب تلك المدنية الإيجية السابقة التي كانت مدينة كنوسوس تاجًا على مفرقها، ويختلطون بها.

وتنبئنا الأشعار الهوميرية بأن هذه القبائل الإغريقية تتكلم لسانًا واحدًا مشتركًا، وأن تقاليدها المشتركة التي تدعمها أشعار الملاحم تشدهم بعضهم إلى بعض في وحدة مفككة الأوصال. وهم يسمون قبائلهم المختلفة باسم مشترك هو الهلينيون. ولعلهم نزحوا على موجات متعاقبة، إذ يميز العلماء في لغة الإغريق القديمة ثلاث لهجات رئيسية: هي الأيوينة Ionic والأيولية Aeolic والدورية Doric. على أن لديهم أيضًا أضربًا كثيرة من اللهجات المتنوعة. ويلوح أن الأيونيين سبقوا من عداهم من الإغريق إلى الميدان، واختلطوا اختلاطًا وثيقًا بالشعوب المتحضرة التي غلبوها على أمرها. وقد يكون سكان مدن من أمثال أثينا وميليتوس من ناحية الجنس أقل نوردية وأقرب إلى سكان البحر المتوسط. والظاهر أن الدوريين هم قوام آخر موجات الهجرة وأقواها مُنة وأقلها تمدينًا. فهاته القبائل الهلينية غزت المدنية الإيجية ودمرتها إلى حد كبير وهي المدنية التي سبقت وصولهم، وبنى الفاتحون على أنقاضها حضارة خاصة بهم. وهفت نفوسهم إلى البحر وعبروه إلى آسيا الصغرى بطريق الجزر. وبعد أن ركبوا السفن مخترقين الدردنيل والبسفور، نشروا مواطنهم ومستقراتهم على امتداد سواحل البحر الأسود الجنوبية. ثم ما لبثوا أن مدوها على امتداد سواحله الشمالية. كذلك انتشروا في جنوبي إيطاليا، التي أطلقوا عليها آخر الأمر ماجنا جرايكيا Mgna Graecia أي بلاد الإغريق العظمى)، ثم انتشروا حول الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط وأسسوا مدينة مرسيليا محل مستعمرة فينيقية قديمة. ثم أخذوا ينشئون لأنفسهم في صقلية المستقرات (المستعمرات) منافسين بذلك القرطاجنيين في زمان يرجع إلى ٧٣٥ ق.م.



وجاء في أعقاب الإغريق الخلّص أقاربهم المقدونيون والتراقيون وعلى جناحهم الأيسر عبر الفريجيو ون البوسفور إلى آسيا الصغرى.

وإنا لنجد هذا التوزيع كله يتم للإغريق قبل بواكير التاريخ المكتوب. حتى إذا حل القـ رن السـ ابع ق. م. أعني إبان الأسر البابلي لليهود، كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم عـ الم المدنيـ ة السابقة للهلينية في أوربا. ألا ترى إلى تيرينز (Tiryns) وكنوسوس (Cnossus) كيف صارتا مواقع غيـ ر ذات بال، وإلى مسيناي (Mycenae) وطروادة (Troy) كيف لا تعيشان إلا في عالم الأساطير؟ فأما المـ دن العظيمة في هذا العالم الإغريقي الجديد فهي أثينا وإسبرطة (عاصمة لاكيدايمون) وكورنثة وطيبة وسـ اموس وميليتوس. ومن ثم يكون العالم الذي كان أجدادنا يسمونه باسم "بلاد الإغريق القديمة" قد قام علـ ى أطـ لال منسية تنتمي لبلاد إغريق أشد إمعاناً في القدم من تلك، كما أنها تضارعها في تمدينها وتقدمها الفني من كثير من الوجوه. بل إننا اليوم لم نكد نتجاوز المرحلة الأولى في تعرف تلك المدنية السحيقة القدم تعرفاً ا يرجـ ع الفضل فيه إلى جهود المنقبين عن الآثار.

بيد أن بلاد الإغريق القديمة هذه الأحدث من السالفة، التي نحن الآن بصدد الحديث عنها لا تزال تعيش عيشًا ناصعًا رائعًا في أخيلة الرجال ونظمهم، لأنها كانت تنطق بلسان آري جميل أشد ما يكون بيانًا، قريب الصلة باللغة الإنجليزية، ولأنها تناولت الأبجدية المستعملة عند شعوب البحر المتوسط وبلغت بها مرتبة الكمال بإضافة حروف الحركة إليها، وبذا أصبحت القراءة والكتابة عند ذاك فنين يسيرين يسهل تعلمهما وممارستهما، وصار في ميسور عدد كبير من الناس إتقانهما ووضع سجل خالد للأجيال المقبلة.



٢- المظاهر المميزة للمدنية الهلينية

إن هذه المدنية الإغريقية التي نراها تدرج في جنوب إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى في القرن السابع ق. م.، إنما هي مدنية تخالف من أوجه كثيرة هامة كلا من المدنيتين العظيمتين اللتين قفونا نموهما من قبل، وهما مدنية النيل ومدنية رافدي أرض الجزيرة. نمت هاتان المدنيتان حيث هما خلال عصور طويلة. نشأتا على مهل حول حياة مركزها المعبد، دارجتين عن زراعة بدائية. ثم قام الملوك الكهنة والملوك الآلهة يجمعون شمل دول المدن الأولى تلك [١]، في إمبراطوريات. على أن رعاة الإغريق المتبربرين شقوا طريقهم جنوبًا مغيرين على عالم كانت مدنيته قد أصبحت قصة طال بها العهد، إذ كانت الملاحة والزراعة وإقامة المدن المسورة والكتابة أمورًا معروفة بها من قبل. فلم ينشئ الإغريق مدنية خاصة بهم، بل حطموا مدنية وأقاموا من أنقاضها وعلى أطلالها مدنية أخرى.

وذلك هو السبب الذي يرجع إليه عدم وجود مرحلة دولة معبد في سجل الإغريق [٢] ولا مرحلة الملوك الكهنة، بل وصل الإغريق مباشرة إلى نظام المدينة التي لم تنبت في الشرق إلا حول المعبد، فعزفوا من الشرق فكرة ارتباط المعبد بالمدينة وتسلموها منه لقمة سائغة. ولعل أشد ما أثر فيهم من مظاهر المدينة أسوارها. وإنا لفي ريب من أنهم جنحوا من فورهم إلى حياة المدينة ومقتضيات المواطنية. فكانوا في بادئ أمرهم يعيشون في قرى مفتوحة طلقة خارج أطلال المدن التي حطموها، ولكن النموذج كان ماثلاً أمام أعينهم لا يبرح يوحي إليهم ويذكّرهم. وطبيعي أنهم فكروا في المدينة في بادئ الأمر كموضع أمين لهم في زمان حافل بالمنازعات. كما فكروا في المعبد في غير فحص ولا تمحيص، بوصفه مظهرًا طبيعيًا للمدينة. انتقل إليهم هذا الميراث الذي ورثوه عن حضارة سابقة بينما لا تبرح ذكريات الآجام وتقاليدها قوية ماثلة بقوة في أذهانهم. واستولى على زمام البلاد النظام الاجتماعي القائم على الأبطال والذي تمجد الإلياذة ذكراه. ولم يلبث أن تكيف ليوفق بين نفسه وبين ما يحوطه من ظروف جديدة. وبمرور الأيام أصبح الإغريق أكثر تدينًا وأشد اعتقادًا في الخرافات على حين استمرت عقائد المغلوبين حية وإن توارت عن الأنظار.

ولقد ذكرنا آنفًا أن التركيب الاجتماعي للآريين البدائيين كان نظامًا ذا طبقتين مكونًا من النبلاء والعامة، ولم تكن الطبقتان منفصلتين انفصالاً شديدًا إحداهما عن الأخرى. كان يقودهما في الحرب ملك لم يكن إلا كبير إحدى العائلات النبيلة وهو الزعيم المقدم بين نظرائه Primus inter pares. بانتصار الإغريق على السكان الأصليين وابتنائهم البلدان أضيف إلى هذا التنظيم الاجتماعي البسيط المزدوج الطبقات، طبقة دنيا من عمال المزارع وحذاق الصناع وغير حذاقهم، وهي في جل أمرها من العبيد. على أن المجتمعات الإغريقية لم تكن بأجمعها من هذا الطراز القائم على الفتح. فكان بعضها مدنًا من "اللاجئين" تضم وتمثل مجتمعات محطمة خاضعة، ولم يكن بهذه المدن الأخيرة أية واحدة من الطبقات الدنيا المكونة من السكان الأصليين.

---

(١) دولة المدينة City State ويسميها بعض المؤرخين المدينة الحكومية. (المترجم).

(٢) دولة المعبد Temple state: دولة مركزها أحد المعابد ويرأسها الكهنة. (المترجم).

وفي كثير من الحالات السابقة كان من تبقى من السكان الأقدمين يكونون طبقة محكومة تتمثل في رقيق الدولة بوجه عام كما هو الحال في طائفة الهيلوطيين في إسبرطة، وأصبح النبلاء والعامة أصحاب الأراضي وأعيان الزراع. وكانوا هم المديرين لحركة بناء السفن والمشتغلين بالتجارة. على أن بعض المواطنين الأحرار الأشد فقرًا احترفوا الفنون والصناعات الآلية، وكانوا – كما سبق أن لاحظنا – لا يأنفون حتى الاشتغال بالتجديف في إحدى السفن مقابل أجر معلوم. أما أولئك الكهنة الذين كانوا في العالم الإغريقي فهم إما سدنة للمقاصير المقدسة والمعابد أو موظفون يقومون بتقديم القرابين. واعتبرهم أرسطو في كتابه "السياسة – Politics" قسمًا فرعيًا محضًا في طبقة الموظفين. وكان المواطن يشتغل في شبابه محاربًا وفي كهولته حاكمًا وفي شيخوخته كاهنًا. وكانت طبقة الكهان بالمقارنة إلى الطبقة المعادلة لها في مصر وبابل صغيرة لا يعتد بها.

أما آلهة الإغريق الخلّص الأبطال فكانوا كما أسلفنا كائنات بشرية ممجدة، كما كانوا يعاملون في غير كثير خوف أو رهبة. ولكن كان يستتر وراء آلهة الغزاة الأحرار آلهة أخرى للشعوب المقهورة تجد من يتبعونها خلسة بين الأرقاء والنساء. ولم يكن منتظرًا من الآلهة الآرية الأصلية أن تأتي بالمعجزات، أو أن تتصرف في حياة الناس، بيد أن بلاد الإغريق كانت شديدة التعلق باستشارة مهابط الوحي (Oracles) أو العرافين، شأنهم في ذلك شأن معظم العالم الشرقي في السنوات الألف السابقة للميلاد. وكانت دلفي (Delphi) شهيرة بنبوءاتها على وجه خاص. وفي ذلك يقول جلبرت مري: "عند ما يعجز أسن شيوخ القبيلة عن إخبارك وإرشادك بما يجدر بك أن تعمله، فإنك تذهب إلى الأموات الميامين، إن مهابط النبوءات جميعها عند قبور الأبطال، فهم يطلعونك على المقدور (Themis) [1] وما يجدر بك أن تعمله، ويكشفون لك عن إرادة الله على حد قول رجال الدين اليوم".

ولم يكن كهنة هذه المعابد وكاهناتها يكونون طبقة واحدة، كما أنهم كطبقة لم يكونوا يمارسون أية سلطة في البلاد إذ الواقع أن قوام الدولة الإغريقية كله هو النبلاء والعامة الأحرار، وهما طبقتان اندمجتا في بعض الحالات في هيئة واحدة مشتركة من المواطنين. وفي كثير من الحالات وبخاصة في دول المدن الكبرى، كان عدد العبيد الأرقاء وعدد الغرباء غير المتمتعين بالحقوق يفوق عدد المواطنين الأحرار إلى حد كبير. على أن الدولة في نظرهم لم تكن لتقوم إلا عند تفضل منهم وتكرم، إذ هي موجودة من الناحية القانونية من أجل الهيئة المختارة، هيئة المواطنين الأحرار وحدهم، وهي حرة في أن تتسامح أو لا تتسامح مع الدخيل والرقيق. ولكن لم يكن لهؤلاء أي صوت قانوني في نوع المعاملة التي يلقون، الأمر الذي يجعل معاملتهم لا تفترق عما لو كانوا يعيشون في ظل أي نظام استبدادي.

وغني عن البيان أن هذا تكوين اجتماعي يختلف اختلافًا بعيدًا عنه في النظم الملكية الشرقية. والأهمية الكبرى التي كان ينفرد بها المواطن الإغريقي الحر تذكرنا بعض الشيء بالأهمية الماحقة الساحقة التي كان يستمتع بها "أبناء إسرائيل" في الدولة اليهودية الأخيرة. بيد أن الجانب الإغريقي خلو من كل معادل للأنبياء والكهان، ومن فكرة وجود إله واحد مثل "يهوه" له السيطرة والسلطان على كل شيء.

---

(1) Themis كلمة يونانية معناها القانون الوضعي أو العرف أو المقدور. (المترجم).

وهناك وجه آخر للتباين بين الدول الإغريقية وبين أي من المجتمعات الإنسانية التي وجهنا إليها اهتمامنا حتى الآن، هو انقسامها المستمر الذي استعصى علاجه. ومدنيات مصر وسومر والصين ومعها دون ريب مدنية شمال الهند أيضًا ابتدأت كلها في شكل عدد من دول المدن المستقلة، كل واحدة منها تتكون من مدينة يحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية التابعة ومن الأراضي والمزارع. ولكنها خرجت من هذا الطور عن سبيل عملية تماسك التأمت بها أجزاؤها فأصبحت ممالك وإمبراطوريات. ولكن الإغريق لم يتحدوا قط حتى انصرم تاريخهم المستقل بأكمله؛ ويرجع هذا بوجه عام إلى الظروف الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها. فإن بلاد الإغريق قطر مجزأ إلى عدد كبير من الوديان، تقطعت أوصاله بفعل كتل جبلية وخلجان من البحر جعلت الاتصال فيما بينها أمرًا عسير المنال. بل لقد بلغ من عسر الاتصال أنه قل من المدن من استطاعت أن تحتفظ بكثير من المدن الأخرى تحت سيطرتها أي مدة من الزمان. وفضلاً عن ذلك فإن الكثير من المدن الإغريقية كانت تقع في جزائر، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة. وظلت أكبر دول المدن الإغريقية حتى النهاية أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية. وكانت مساحة بعضها لا تتجاوز بضعة أميال مربعة. وأثينا وهي واحدة من أكبر المدن الإغريقية كان فيها من السكان في أوج عزها عدد ربما بلغ ثلث المليون. وقل من المدن الإغريقية الأخرى من تخطى سكانه الخمسين ألفًا. وكان نصف هذا العدد أو ما يتجاوز النصف من الرقيق والغرباء، وكان ثلثا هيئة الأحرار من النساء والأطفال.

٣- الملكية والأرستقراطية
والديمقراطية في بلاد الإغريق

كانت حكومة دول المدن هذه تختلف في طبيعتها اختلافاً بيّنًا. فإن الإغريق عندما استقروا بعد فتوحاتهم احتفظوا إلى حين بحكم ملوكهم، ولكن هذه الممالك ما لبثت أن عادت رويدًا رويدًا إلى حكم الطبقة الأرستقراطية. وفي إسبرطة أي (لاكيدايمون) كان الملوك لا يزالون متمتعين بمنزلة رفيعة في القرن السادس ق. م. وكان لأهل لاكيدايمون نظام غريب في بابه ينطوي على ملكية ثنائية، إذ يولون عليهم ملكين من أسرتين ملكيتين مختلفتين يحكمان معًا.

على أن معظم دول المدن الإغريقية أصبحت جمهوريات أرستقراطية قبل حلول القرن السادس بزمان بعيد. ومهما يكن من شيء، فإن غالب العائلات التي تتولى الحكم بالوراثة يتجلى فيها على الدوام نزوع إلى التواني وعدم الكفاية ومصيرها هو التدهور والزوال طال بها الزمن أو قصر. ولما أن خرج الإغريق إلى البحر وأسسوا المستقرات وانتشرت تجارتهم، برزت بينهم عائلات غنية جديدة، فزحزحت العائلات القديمة عن مكانتها وتسلمت مقاليد الأمور شخصيات جديدة. وأصبح هؤلاء الأغنياء الحديثو الثراء أعضاء في طبقة حاكمة كبيرة أقامت ضربًا من الحكومة يعرف بالأوليجركية – تمييزا له من الأرستقراطية – وإن كان المعنى الدقيق للفظ الأوليجركية (وهو حكومة الأقلية) يجب أن يشمل الأرستقراطية الوراثية كحالة خاصة.

وفي كثير من المدن كان أشخاص من ذوي النشاط الفذ ينتهزون فرصة حدوث شيء من النزاع الاجتماعي، أو وقوع شيء من المظالم على بعض الطبقات ويقبضون على زمام سلطة ذات طابع استثنائي إلى حد ما بالفعل في الدولة، وهذا المزج بين الشخصية والفرصة قد حدث بالفعل في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، حيث يسمى الرجال الذين يمارسون أنواعًا مختلفة من السلطات غير الرسمية باسم "الرؤساء Bosses " وكان أمثال هؤلاء يسمون في بلاد الإغريق باسم "الطغاة Tyrants" على أن الطاغية يوشك أن يكون أكثر من الرئيس نفوذا وسلطانًا، فقد كان يعترف به ملكًا، كما أنه كان يطالب بسلطات الملك. ثم إن الرئيس في العصر الحديث يستتر وراء بعض الأوضاع القانونية التي "استحوذ عليها"، ويستخدمها في أغراضه الخاصة. وكان الناس يفرقون بين الطغاة والملوك الذين كانوا يدعون لأنفسهم بعض الحقوق، أعني ضربًا من الأسبقية العائلية في أمور من أمثال تولي الحكم. وربما ناصر هؤلاء الطغاة الطبقات الفقيرة المظلومة. مثال ذلك أن بيزاستراتوس الذي كان طاغية من طغاة أثينا وتولى الحكم مدة تتخللها فترتان نفي أثناءهما ما بين ٥٦٠، ٥٢٧ ق. م.، كان يؤيده الأثينيون من سكان التلال الذين أضناهم الفقر، وربما حدث في بعض الأحيان كما حصل في صقلية الإغريقية أن وقف الطغاة في صف الأغنياء ضد الفقراء. وعندما أخذ الفرس فيما بعد في إخضاع المدن الإغريقية بآسيا الصغرى أقاموا عليها طغاة يناصرونهم.

وكان أرسطو المعلم الفيلسوف العظيم– وقد ولد أيام الملكية الوراثية المقدونية، وقضى بضع سنين مربياً ا لابن الملك، – يفرق في كتابه "السياسة" بين الملوك الذين يحكمون بحق طبيعي مسلم به، كملك مقدونيا الذي كان يعمل في خدمته، وبين الطغاة الذين يحكمون بغير رضاء المحكومين. والواقع أن من العسير علين ا أن نتصور وجود طاغية يحكم بغير رضاء الكثير من رعاياه ودون مشاركة العدد الجوهري م نهم المش اركة الفعالة، وإن إخلاص "ملوكهم الحقيقيين" ونكرانهم الذات، قد عرفا بأنهما يثيران الامتعاض والتش كك. وق د استطاع أرسطو أيضًا أن يقول إنه بينما يحكم الملك من أجل خير الدولة، كان الطاغي ة يحك م لمص لحته الخاصة. وكان أرسطو في هذا الموضوع، كما كان في قدرته على اعتبار الرق أمرًا طبيعيًا واعتبار النس اء غير جديرات بالحرية والحقوق السياسية – متسقاً مع سير الحوادث حوله.

وكان الشكل الثالث للحكومة التي انتشرت في بلاد الإغريق انتشارًا متزايدًا في القرون السادس والخامس والرابع ق. م. معروفًا باسم الديمقراطية. ولما كان العالم المعاصر ف ي ه ذه الأي ام لا يفت أ ي تكلم ع ن الديمقراطية، وإذ إن الفكرة الحديثة عن الديمقراطية إنما هي شيء يختلف اختلافًا بينًا عن ديموقراطي ة دول المدن الإغريقية. فمن الخير إذن أن نعمد إلى أشد الوضوح في معنى الديمقراطية في بلاد الإغري ق، فق د كانت الديموقراطية عند ذاك حكومة تديرها العامة، وهم الديموس (Demos). وكانت حكومة تديرها هيئ ة المواطنين جمعاء وتديرها الكثرة تمييزًا لها عن القلة. ولكن على القارئ العصري أن يلحظ كلمة (م واطن) هذه فقد كان الرقيق مستبعدًا منه ا، وك ان الرجل المعتوق "المح رر" مس تبعدًا منه ا، وكذلك الغريب، وحتى الإغريقي المولود في المدينة والذي نزح أبوه إليها من مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المدينة التي تق ع وراء أحد الرءوس الممتدة في البحر، كان يس تبعد من عداد المواطنين. وكانت الديمقراطيات الأولى (وإن لم تكن كلها) تشترط في الم واطن [١] م ؤهلاً م ن الملكية العقارية، وكان قوام الملكية العقارية في تلك الأيام هو الأرض. على أنهم م ا لبث وا فيم ا بع د أن تسامحوا في هذا الشرط. بيد أن القارئ المعاصر سوف يدرك أنه يلمس هاهن ا ش يئًا مختلفً ا ج دًا ع ن الديمقراطية الحديثة. وفي نهاية القرن الخامس ق. م. كان هذا المؤهل العقاري قد ألغي في أثينا مثلاً. عل ى أن بريكليس وهو السياسي الأثيني العظيم، الذي سوف نتكلم فيما بعد عنه في شيء من الإسهاب – سن قانونًا (٤٥١ ق. م.) يقصر حق المواطنية على أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم الانحدار من أبوين أثينيين خالصين. ومن ثم يكون حال هؤلاء المواطنين الأحرار في الديمقراطيات الإغريقية كحالهم في الأوليجركيات تمامًا، إذ يؤلفون "هيئة متماسكة" تتولى أحيانًا – كما في حالة أثينا في أيام عظمتها – حكم عدد كبي ر م ن السكان الأرقاء والغرباء.



---

(١) المواطن Citizen هو كل حر يستمتع بالمواطنية أي الحقوق والواجبات المدنية كاملة. وإن كان الأولى أن يسمى بالممادن نظرًا لطبيعة أوطان الإغريق المكونة من مدن. (المترجم).

فلو أن سياسيًا عصريًا عامر الذهن بفكرة الديمقراطية على وجهها الحديث المختلف تمامًا والقائلة بأن الديمقراطية في أكمل أوضاعها معناها أن لكل رجل بالغ وامرأة بالغة صوتاً في الحكومة، لو أنه رد فجأة إلى الديمقراطية الإغريقية المتطرفة لعدها ضربًا من الأوليجركية. والفرق الحقيقي الوحيد بين الأوليجركية الإغريقية والديمقراطية الإغريقية هو أنه في الأولى لم يكن للمواطنين الأحرار الأفقرين والأقل أهمية صوت في الحكومة، بينما كان لكل مواطن حر في الثانية صوت. ويبين أرسطو في كتابه "السياسة" بغاية الجلاء النتيجة العملية لهذا الفارق. إذ كانت الضرائب خفيفة العبء على الأغنياء في الأوليجركيات. بينما كانت الديمقراطيات من الناحية الأخرى تفرض الضرائب على الأغنياء، ويدفع في العادة للمواطن الحر المعدم ما يقيم أوده من غذاء وكساء وغير ذلك من نفقات خاصة. وفي أثينا كان للمواطنين الأحرار جُعل يدفع لهم، حتى على حضور مجلس العامة. على أن العامة والدهماء ممن هم خارج نطاق الطائفة السعيدة المحدودة من المواطنين الأحرار، كانوا يكدحون ويصدعون بما يؤمرون. فإن رغب أحدهم في حماية القانون، كان عليه أن يبحث عن مواطن حر يتولى الدفاع عنه. إذ لم يكن لغير المواطنين الأحرار أي كيان أو حق في الالتجاء إلى المحاكم. أما الفكرة العصرية القائلة بأن أي فرد في الدولة يجب أن يكون مواطناً حرًا فلو أنها عرضت على الديمقراطيين ذوي الامتيازات في أثينا لأزعجتهم كل الإزعاج.

وقد نشأت عن جعل الدولة حكرًا موقوفًا على المواطنين لطبقة الأحرار نتيجة بينة واحدة، هي أن وطنية هؤلاء القوم الممتازين اتخذت شكلاً حادًا ضيقًا. فكانوا يكونون الأحلاف مع "دول مدن" أخرى، ولكنهم لم يندمجوا أبدًا بعضهم مع بعض، إذ كانوا في ذلك قضاء على كل امتياز يستمتعون به كما أن الحدود الجغرافية الضيقة لتلك الدول الإغريقية الصغيرة زادت شعورهم حدة وإرهافاً. وكان مما يشد من أزر حب الرجل لوطنه حبه لبلدته وهي مسقط رأسه، ولدينه وبيته، إذ كانت هذه جميعًا أمرًا واحدًا. وبدهي أن الأرقاء لم يكونوا يشاطرونهم تلك المشاعر. وفي الولايات الأوليجركية كانت الطبقة المهيضة المحرومة في الكثير الغالب تتغاضى عن كراهيتها للأجانب لشدة كراهيتها للطبقة التي تسومها العذاب في أرض الوطن. ولكن الوطنية الإغريقية في صميمها كانت عاطفة شخصية ذات حدة خطرة تبعث الإلهام، فهي كالحب المرفوض، سهلة التحول إلى شيء أقرب ما يكون إلى الكراهية. والمنفى الإغريقي كان على شاكلة المهاجر الفرنسي أو الروسي في استعداده لمعاملة بلاده المحبوبة معاملة لا تخلو من الخشونة لكي يقيها شر شياطين الإنس الذين تملكوها وأخرجوه هو من ربوعها.

وقد نظمت أثينا في القرن الخامس ق. م. علاقاتها بعدد من دول المدن الإغريقية الأخرى فأنشأت بذلك نظامًا، كثيرًا ما يتحدث عنه المؤرخون باسم الإمبراطورية الأثينية. على أن دول المدن الأخرى احتفظت جميعًا بحكوماتها الخاصة. وهناك "حقيقة جديدة" أضافتها هذه الإمبراطورية الأثينية، وهي القضاء المبرم على القرصنة، وثمة حقيقة أخرى وهي إقامة نظام هو ضرب من القانون الدولي. نعم كان القانون في واقع الأمر هو القانون الأثيني، ولكن سهل بفضله إقامة القضايا ونشر لواء العدالة بين مواطنين ينتمون إلى دول الحلف المختلفة. وبدهي أن هذا أمر لم يكن ميسورًا من قبل.

كانت الإمبراطورية الأثينية في حقيقة الأمر وليدة حلف دفاع مشترك ضد فارس، وكانت قاعدته في الأصل جزيرة ديلوس. وقد ساهم الحلفاء في رصيد مالي مشترك أو دعوة خزانة في تلك الجزيرة، ثم نقل رصيد ديلوس إلى أثينا لأنه كان هناك عرضة للغارات الفارسية المحتملة الوقوع. وسرعان ما تقدمت مدينة في أثر الأخرى تعرض دفعات من المال عوضًا عن الخدمة العسكرية مما أفضى إلى أن أصبحت أثينا آخر الأمر تقوم بعبء العمل كله تقريبًا، وتتلقى المال منهن جميعًا تقريبًا، ويعينها في النهوض بذلك العبء جزيرة أو اثنتان من كبريات الجزر. وبهذه الطريقة تحول "الحلف" بالتدريج إلى إمبراطورية. على أن مواطني الدول المتحالفة – اللهم إلا حيث كانت هناك معاهدات خاصة تنظم تبادل التزاوج وما شابهه – لبثوا من الناحية العملية أجانب بعضهم عن البعض. وقد وقع على كواهل أفقر المواطنين بوجه خاص في أثينا معظم أعباء هذه الإمبراطورية بما كانوا يبذلون من جهود جبارة وخدمات شخصية متواصلة. وكان كل مواطن عرضة للخدمة العسكرية داخل موطنه أو خارجه بين سن الثامنة عشرة والستين. وكان يطلب آونة للذود عن موطنه في شئون أثينية محضة، ويتصدى آنًا آخر للذب عن مدن الإمبراطورية التي افتدى مواطنوها أنفسهم بالمال. ولم يكن هناك على الراجح بين أفراد مجلس الأحرار الأثيني رجل واحد تزيد سنه على الخامسة والعشرين لم يتمرس بالحرب في حملات عديدة في نواح مختلفة من البحر المتوسط أو البحر الأسود، ولم يكن يتوقع أن يعود إلى الخدمة العسكرية ثانية. وخصوم الاستعمار العصري يأخذون عليه أنه استغلال الأغنياء للعالم، على أن الاستعمار الأثيني كان استغلال العالم على يد المواطنين من فقراء الأثينيين.

وثم فارق آخر عن الأحوال والظروف السائدة في العصر الحديث، يرجع إلى حجم دول المدن الإغريقية الصغير، وهو أنه كان لكل مواطن في النظام الديمقراطي الحق في حضور مجلس الأحرار والتكلم والتصويت فيه. وكان فحوى هذا أن يلتئم لحل المدن جمع لا يضم سوى بضع مئات من الناس. فلم يكن عددهم في أكبرها يزيد على بضع آلاف من المواطنين. وليس شيء من هذا القبيل بممكن في ديمقراطية عصرية فيها من الأصوات ما قد يصل عدده إلى ملايين عديدة. ويلاحظ أن صوت المواطن العصري في الشئون العامة مقصور على حقه في التصويت لواحد أو لآخر من مرشحي الأحزاب الذين يقدمون إليه. ومفروض عند ذاك "موافقة" الناخب أو الناخبة على الحكومة التي يتمخض عنها ذلك الانتخاب. وهذا أرسطو الذي لو أنه عاصرنا لأثلجت فؤاده الأساليب الانتخابية التي تستخدمها ديمقراطياتنا العصرية، يوضح بطريقة جد بارعة، كيف أن طبقة المواطنين من الفلاحين الذين نأت مساكنهم يمكن في الديمقراطية القديمة أن يحرموا حرمانًا فعليًا من حقوقهم المدنية بسبب الإكثار من دعوة مجلس الأحرار دعوة متداركة متكررة لا يستطيعون معها أن يحضروا الجلسات بانتظام. وفي الديمقراطيات الإغريقية المتأخرة (في القرن الخامس) كان تعيين الموظفين العموميين، فيما عدا القواد الذين يجب أن تتوافر فيهم دراية خاصة جدًا، يتم بالقرعة ورمي القداح، إذ كان المفروض أن في هذه الوسيلة ضمانًا يفي الهيئة العامة للمواطنين أرباب الامتيازات من دوام تسلط الأغنياء وذوي النفوذ والمبرزين من أهل الكفاية.

كان لدى بعض الديمقراطيات (مثل أثينا وميليتوس) نظام يسمى النفي السياسي (Ostracism) وهي كلمة مشتقة من أوستراكون (Ostrakon) ومعناها الشقفة إذ كان الناخب يستطيع إبان المنازعات والأزمات أن يكتب اسم أحد المواطنين على قطعة من الشقافة أو المحار فيصدر طبقًا لذلك قرار إما بإبعاد ذلك المواطن لمدة عشر سنوات أو عدم إبعاده. وقد يبدو هذا للقارئ العصري نظامًا قائمًا على الحسد، على أن الحسد لم يكن صفته الجوهرية. إذ الواقع فيما يقول جلبرت مري إنه كان وسيلة للوصول إلى قرار حاسم في مسألة انقسام الشعور السياسي بصددها انقسامًا ينذر بوقوع أزمة سياسية لا سبيل إلى حلها. وكان في الديمقراطيات الإغريقية أحزاب وزعماء أحزاب، ولكن لم يكن لديهم حكومة منتظمة بيدها مقاليد الحكم. ولم تكن لديهم معارضة منتظمة، فلم يكن هنالك إذن أية وسيلة لتنفيذ سياسة ما، وإن كانت هي السياسة التي تروق في نظر الشعب – إذا انبرى زعيم قوي أو جماعة قوية لمناهضتها. على أن النفي السياسي كان يلزم أقل الزعماء الكبار منزلة في قلوب الشعب وأقلهم استمتاعًا بثقته أن ينسحب من الميدان إلى حين دون أن يلحق أي ضرر بشرفه أو ممتلكاته.

وقد خلد نظام النفي السياسي هذا اسم عضو خامل من أعضاء الديمقراطية الأثينية يكاد يكون أميًا؛ ذلك أن شخصًا اسمه أريستيديس قد ذاع صيته في المحاكم لاستقامته ولمناصرته العدل والقانون – حدث ذات مرة أن نشب بينه وبين ثيموستوكليس نزاع بشأن موضوع يتعلق بالسياسة البحرية إذ كان أريستيديس من أنصار تقوية الجيش على حين كان ثيموستوكليس من أنصار النهوض بالبحرية، فكان الجو منذرًا بخطب فادح، وكان أن لجأت المدينة إلى النفي السياسي لحسم هذا النزاع بينهما. ويقص علينا بلوتارك أنه بينما كان أريستيديس يتجول في شوارع المدينة ساعة التصويت، استوقفه مواطن غريب من الأصقاع الزراعية المحيطة بالمدينة لا يعرف فن الكتابة وطلب إليه أن يكتب اسمه هو نفسه على قطعة من الشقافة قدمها إليه.

فسأله أريستيديس قائلاً: "ولماذا؟ فهل حدث قط أن أساء إليك أريستيديس؟".

فقال المواطن: "كلا، كلا، فإن عيني لم تقعا عليه أبدًا ولكنني مع الأسف برمت جدًا بما وصل إلى سمعي من أنه يدعى أريستيديس العادل".

وعند ذلك كما يقول بلوتارك – كتب أريستيديس ما أشار به الرجل دون أن يطيل عليه الكلام.

ومتى فهم المرء المغزى الحقيقي لهذه الدساتير الإغريقية وفهم بوجه خاص مسألة حصر جميع السلطات سواء أكان ذلك في الديمقراطيات أم الأوليجركيات في يد طبقة ذات امتياز محلي، أدرك كيف كان من المحال قيام أي اتحاد فعال بين مئات المدن الإغريقية المتناثرة حول إقليم البحر المتوسط، أو حتى وجود أي تعاون منتج بينها يرمي إلى غاية مشتركة. فإن كل مدينة كانت في قبضة فئة قليلة أو بضع مئات من الرجال الذين كان أهم ما يعنون به ويحرصون على تحقيقه في حياتهم هو أن تظل مدينتهم منفصلة عن المدن الأخرى. ولم تكن في العالم قوة تستطيع أن توحد الإغريق غير الغزو الخارجي. ولم تتحقق لهم أي وحدة سياسية حتى غزيت بلاد الإغريق، فلما أن غزيت بلادهم آخر الأمر، كان غزوها كاملاً بحيث لم تجعل لوحدتهم أدنى قيمة حتى لهم أنفسهم، إذ اجتمعوا على وحدة الاستسلام والخضوع.

ومع ذلك فقد كان هناك على الدوام مقومات لوحدة بين الإغريق كافة في بعض التقاليد السائدة بينهم، دعامتها لغة مشتركة وكتابة مشتركة وتراث مشترك من ملاحم الأبطال، هذا إلى اختلاطهم المتواصل الذي يسره موقع دولهم من البحر، عدا روابط دينية بأعيانها كانت تدعو إلى توحيد البلاد. ولو تأملت بعض المقاصير المقدسة – كمقصورة الإله أبولو بجزيرة ديلوس ومعبد دلفي مثلاً – لرأيت أن ما كانت تلقاه من تأييد وعون لم يقتصر أمره على دول بمفردها بل تجاوز ذلك إلى اتحادات من الدول "أو أمفكتيونات (Amphictyonies) (والأمفكتيون هو حلف الجيران)، وهي اتحادات أمست واسعة النطاق جدًا في حالة "حلف دلفي" وما ماثله من أحلاف. وكان الحلف يحمي المقصورة المقدسة ويحافظ على سلامة من يؤمها من حجاج ويصون الطرق المؤدية إليها ويحفظ السلام إبان الأعياد الخاصة، ويسن قواعد معينة للحد من لجوء أعضائه إلى الحرب. كما أن اتحاد ديلوس كان له بوجه خاص فضل القضاء على القرصنة. وثمة رابطة أخرى للاتحاد الهليني أكثر أهمية مما سلف وهي الألعاب الأولمبية، التي كانت تعقد في أولمبيا كل أربع سنوات. وكان سباق الجري والملاكمة والمصارعة وقذف الرمح وقذف القرص والقفز وسباق المركبات والخيول أهم الألعاب. وكانوا يحتفظون بسجل للفائزين وللزوار الممتازين، وظلت هذه الألعاب منذ ٧٧٦ ق. م. تقام بانتظام مدة تربو على ألف سنة. وكان أثرها كبيرًا في الاحتفاظ بذلك الإحساس بوجود حياة إغريقية مشتركة ذات طابع هليني عام، يسمو على السياسات الضيقة التي تجري على سنتها دول المدن. وتعتبر ٧٧٦ ق. م. وهي أول سنة عقدت فيها الألعاب الأولمبية نقطة بداية قيمة في حساب التاريخ الإغريقي.

على أن أمثال تلك الروابط القائمة على العواطف وروح التآلف كانت قليلة الجدوى إزاء "الروح الانفصالية" الحادة التي ترجع إلى النظم السياسية الإغريقية. وفي طوق طالب العلم أن يحس لدى مطالعته "تاريخ هيرودوت" بمبلغ الحدة والعنف والإصرار واللجاجة في المنازعات التي ألقت بالعالم الإغريقي في غمرة حرب مزمنة. وفي الأيام الخوالي (أي حتى القرن السادس ق. م. على وجه التقريب) كانت تسود بلاد الإغريق عائلات كبيرة نوعًا ما احتفظت بشيء من نظام الدوارات الآري القديم بكل ما يلازمه من شعور قوي واعتداد بالعشيرة. ومن قدرة على مداومة الاحتفاظ بالمنازعات وإن طال بها الأمد. ويدور تاريخ أثينا مدى سنين عديدة حول منازعات حدثت بين عائلتين عظيمتين هما عائلتا الألكمايونيديين (Alcmaeonidae) والبيزستراديين (Peisistratidae) والأخيرة تعادل الأولى في الأرستقراطية بيد أنها أسست صرح قوتها على مساندة الطبقة الفقيرة من الشعب وعلى استغلالها لما يحل بهم من الحيف والمظالم. وفيما عقب ذلك من الزمان أي في القرنين السادس والخامس أدى تحديد النسل ونقص أفراد العائلات إلى اثنين أو ثلاثة (وهي عملية لحظها أرسطو وإن لم يدرك لها سببًا) – إلى اختفاء العشائر الأرستقراطية القديمة. وكانت الحروب التي وقعت بعد ذلك راجعة إلى المنافسات التجارية وإلى بعض المظالم التي سببها وأثارها بضع نفر من المغامرين أكثر منها إلى الأحقاد العائلية وروح الأخذ بالثأر.

ومن اليسير علينا الآن أن نفهم في ضوء هذه الروح الانفصالية الحادة لدى الإغريق، كيف سـ ـهل وقـ ـوع الأيونيين بآسيا وبالجزيرة تحت سلطة مملكة ليديا أول الأمر ثم سلطان الفرس عنـ ـدما قـ ـام قـ ـورش بخلـ ـع كرويسوس ملك ليديا عن عرشه. ثم هب الأيونيون ثائرين وكأنهم لم يثوروا إلا لكي يعود إليهم الفرس ثانيـ ـة بالبطش والإخضاع ثم جاء دور بلاد الإغريق الأوروبية فكان مما يدعو إلى الدهشة، بـ ـل ممـ ـا دهـ ـش لـ ـه الإغريق أنفسهم أن وجدوا أن بلاد الإغريق نفسها لم تقع تحت سلطان الفرس، أولئك الآريـ ـين المتبربـ ـرين قاهري المدنيات القديمة وسادتها في آسيا الغربية. على أننا قبل أن نتحدث عن هذا الكفاح نرى لزامًا علينـ ـا أن نلقى نظرة إلى هؤلاء الآسيويين الذين صمد الإغريق أمامهم ووقفوا لهم بالمرصاد وعلى الأخص للميديين والفرس، الذين ما كادت تحل بهم سنة ٥٣٨ ق. م. حتى كانوا قد استولوا بالفعل على حضارتي آشور وبابل القديمتين وكانوا على وشك أن يقهروا مصر.

٤ – مملكة ليديا

سنحت لنا فيما سلف الفرصة لذكر مملكة ليديا وربما كان من المستحسن أن ندلي إليك ها هنا بنبذة موجزة عن الليديين قبل أن نواصل الحديث في قصتنا. وربما كان السكان الأصليون في معظم أجزاء آسيا الصغرى يمتون بالقرابة إلى السكان الأصليين ببلاد الإغريق وكريت؛ فإن كان الحال كذلك فلقد كانوا من جنس البحر المتوسط ولعلهم فرع آخر من أولئك القوم الضاربين إلى السمرة الذين هم أعم انتشارًا وأقدم عهدًا وأقرب إلى الجنس الأساسي، والذين نشأ منهم جنس البحر المتوسط في الغرب، والجنس الدرافيدي في الشرق. وهناك بقايا من نفس نوع الفن الذي امتازت به كنوسوس وميكيناي وجدت متناثرة في نواحي آسيا الصغرى. ولكن كما أن الإغريق النورديين انسابوا جنوبًا إلى بلاد الإغريق فغزوها واختلطوا بالسكان الأصليين، فإن قبائل أخرى نوردية تمتّ إليها بصلة القربى فعلت ذلك سواء بسواء فتدفقت عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى.

وقد تغلبت هذه الشعوب الآرية على بعض المناطق تمامًا وصارت تكون الشطر الأكبر من السكان مع احتفاظها بلغتها الآرية، ذلك شأن الفريجيين وهم شعب لغته تكاد تكون شديدة الصلة بلغة الإغريق، شدة صلة اللغة المقدونية بالإغريقية. على أن بعض المناطق الأخرى لم يعمها الآريون إلى مثل هذا الحد: ففي ليديا حافظ الجنس الأصلي على نفسه وعلى لغته، فلم يهن ولم يخضع. وكان الليديون شعبًا غير آري يتكلمون لغة غير آرية، لا يعرف منها في الوقت الحاضر سوى بضع كلمات قليلة. وكانت سارديس (Sardis) عاصمتهم.

وكانت ديانتهم غير آرية كذلك. فإنهم كانوا يعبدون إلهة أنثى هي الأم العظيمة. وكذلك الفرجيون، فإنهم وإن احتفظوا بلغتهم شبه الإغريقية، انتقلت إليهم عدوى الديانة الغامضة ذات الأسرار الخفية. والواقع أن قدرًا كبيرًا من الديانات ذات الأسرار الخفية والطقوس السرية التي عمت أثينا في تاريخ تال، كانت فريجية (إن لم تكن تراقية) في أصلها.

وقد احتفظ الليديون بادئ الأمر بساحل آسيا الصغرى الغربي، ولكنهم طردوا منه نتيجة لرسوخ قدم الإغريق الأيونيين الذين جاءوا بطريق البحر وأسسوا المدن. ومع ذلك فإن هذه المدن الأيونية الإغريقية أخضعها فيما بعد الملوك الليديون.

وتاريخ بلاد ليديا هذه لا يزال غامضًا غير معروف معرفة واضحة، ولو أنه كان معروفًا بالفعل ما بلغت أهميته قدرًا يجعله جديرًا بأن يذكر في هذه المعالم التاريخية. على أن القرن الثامن ق. م. يظهر لنا اسم ملك جدير بالذكر يدعى جيجيس. فإن البلاد تعرضت في أيامه لغزو آري آخر؛ ذلك أن قبائل مترحلة تسمى الكمريين جاءت تتدفق عبر آسيا الصغرى، فردهم جيجيس وابنه وحفيده بغاية الجهد والمشقة. واستولى هؤلاء البرابرة الهمج على مدينة سارديس وأحرقوها مرتين. ويذكر التاريخ أن جيجيس دفع الجزية لساردانابالوس (Sardanapalus). وهذا أمر يربط ما بينه وبين فكراتنا العامة عن تاريخ مملكة آشور وبنى إسرائيل ومصر. ثم ثار جيجيس فيما بعد ضد مملكة آشور، وأرسل الجنود لمساعدة أبسماتيك الأول في تحرير مصر من عبوديتها القصيرة الأجل للآشوريين.

وإلى ألياتيس (Alyattes) حفيد جيجيس يرجع الفضل في جعل ليديا قوة يعتدّ بها. وقد ظل في الملك سبع سنين، وهو الذي أخضع غالبية المدن الأيونية في آسيا الصغرى لحكمه. وأصبحت الـ بلاد مركـ زًا لتجـ ارة عظيمة بين آسيا وأوربا وكانت على الدوام بلادًا منتجة غنية بالذهب. واشتهر الملك الليدي بأنه أغنى ملـ وك آسيا. وكان هناك بين البحرين الأسود والمتوسط وبين الشرق والغـ رب حركـ ـة غـ دو ورواح لا تنقطـ ـع. واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم في إنتاج النقود المسكوكة، وفي إعداد الخانات (الفنـ ـادق) للمسـ ـافرين والتجار، ينزلون بها ويجدون وسائل الراحة والاستجمام. ويلوح أن الأسرة المالكة الليدية كانت أسرة تجارية من طراز أسرة مينوس في كريت وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية فيها شأوًا لا باس به. وفي هـ ـذا القدر الكفاية من أخبار ليديا نقدمه على سبيل التوطئة للقسم التالي.

٥- نهوض الفرس في الشرق

وعلى حين كانت سلسلة من الغزاة الناطقين بالآرية تدرج وتنتشر، على الشاكلة التي وصفناها، في بلاد الإغريق الأصلية وبلاد الإغريق العظمى (أي جنوب إيطاليا) وما حول شواطئ البحر الأسود، فإن هناك سلسلة أخرى من الشعوب الناطقة بالآرية ربما كان دمها النوردي الأصلي مختلطًا من قبل بأحد العناصر المغولية، قد أخذت تستقر وتنتشر في شمال وشرق الإمبراطوريات الآشورية والبابلية.

ولقد أسلفنا الكلام عن تشتت الشعوب النوردية الآرية على صورة تشابه شكل القوس في شمال البحر الأسود وبحر قزوين. والراجح أن هذا الطريق هو الذي ملكته الأجناس الهندية الفارسية الناطقة بالآرية في نزولها التدريجي إلى ما يكوّن الآن بلاد فارس، وانتشرت شرقًا إلى الهند من ناحية (من نحو ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق. م.) وازدادت من الناحية الأخرى وتكاثرت في المرتفعات الفارسية حتى بلغت من القوة حدًا جعلها تهاجم مملكة آشور بادئ الأمر (٦٥٠ ق. م.) ثم بابل (٥٣٨ ق. م.).

ويحيط الغموض الكثير بتغيرات المناخ التي كانت تحدث في أوربا وآسيا خلال عشرة الآلاف السنة الأخيرة. فإن ثلج العصر الجليدي الأخير تراجع تراجعًا تدريجيًا، وبذلك تحول سهل أوربا العظيم طوال فترة مديدة إلى سهوب وأحوال شبيهة بالبراري. ومنذ اثنا عشر ألفًا أو عشرة آلاف من السنين تقريبًا كما يقدرون اليوم، كانت هذه الحالة آخذة في الزوال لتحل محلها الغابات والآجام. ولقد ذكرنا آنفًا كيف حدث نتيجة لهذه التغيرات، أن أخلي صيادو الحصان السوليوتريون (Solutreans) مكانهم لصائدي السمك المجدلينيين [1] (Magdalenias) ولصائدي غزال الغابات، كما أخلى هؤلاء أيضًا مكانهم بدورهم لرعاة العصر الحجري الحديث وزراعه. ويلوح أن المناخ الأوربي لبث بضع آلاف من السنين أدفأ منه الآن. وكان هناك بحر عظيم يمتد من ساحل شبه جزيرة البلقان متوغلاً في آسيا الوسطى، ويصل امتداده شمالاً إلى وسط روسيا. وكان انحسار ذلك البحر وانكماشه وما نجم عن ذلك من اشتداد المناخ وقسوته في جنوب روسيا وآسيا الوسطى، معاصرًا تمامًا لقيام المدنيات الأولى في وديان الأنهار ومتمشيًا مع تطورها. ويبدو أن هناك حقائق كثيرة تومئ إلى وجود مناخ أكثر اعتدالاً في أوربا وآسيا الغربية، وتشير أيضًا بشكل أقوى إلى ازدهار في حياة النبات والخضروات منذ أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف سنة خلت يفوق ما نشهده الآن. كانت هناك آنذاك غابات في آسيا الجنوبية وفي القطر الذي هو الآن التركستان الغربية، حيث تعم اليوم السهوب والصحارى. ومن ناحية أخرى كانت منطقة أورال وقزوين منذ مدة تتراوح بين ١٥٠٠ سنة و٢٠٠٠ سنة أجف فيما يرجح، كما كان هذان البحران أصغر منهما في الوقت الحاضر.

(¹) راجع المجلد الأول ص ٨٩، ٩٣ الطبعة الثالثة.

ونلحظ في هذا الصدد أن تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر ق. م على وجه التقريب) صد اد ف ي حملته التي امتدت إلى ما وراء الفرات قطيعًا مكونًا من مائة وعشرين فيلا في ذلك الإقليم، وعدا ذلك فثم ة خنجر إيجي من ميكيناي يرجع تاريخه إلى حوالي (٢٠٠٠ ق. م) وعليه صورة منظر صد يد أسد د يحم ل الصائدون فيه تروسًا كبيرة ويقفون في صفوف، الواحد منهم تلو الآخر، فيطعن الرجل الأول الأسد بحربته، فإذا وثب الوحش الجريح عليه، ارتمى الرجل على الأرض متوقيًا بترسه الكبير، تاركًا للرجل الذي يلي ه أن يكرر طعنته، وهكذا حتى يُقضى على الأسد. وما برح شعب الماساي (Masai) [1] يمارس إلى اليوم طريقة الصيد هذه، على أنها لا تصلح إلا في أرض كثيرة الأسود. ولكن كثرة الأسود تشد ير ض منًا إل ى كث رة القنائص، وهذا بدوره ينم عن وجود وفرة من النبات. وكان اشتداد المناخ حوالي ٢٠٠٠ ق. م. في الأج زاء الوسطى من العالم القديم، وهو الذي سبق أن أشرنا إليه، مدعاة لتغير اتجاه الشعوب الآرية المترحلة فجعله ا تتجه جنوبًا نحو الحقول والغابات بين الشعوب الأكثر استقرارًا وتمدنًا.

([1]) هم شعب ذو أرومة حامية شبه زنجية يسكن في كينيا وتنجانيقا. (المترجم).



ومما هو جدير بالذكر أن الأسود بقيت في شبه جزيرة البلقان حتى قرابة القرن الرابع ق. م. إن لم يكن بعد ذلك. وربما كانت الفيلة اختفت من آسيا الغربية قبيل القرن الثامن ق. م.، ولكن الأسد – وكان أضخم من الأسد الحالي جثة – ظل في جنوب ألمانيا حتى العصر الحجري الحديث (النيوليثي). ولبث النمر الأرقط (Panther) يسكن بلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وإسبانيا الجنوبية حتى بداية الحقبة التاريخية (قرابة ١٠٠٠ ق. م.).

وتنحدر الشعوب الآرية إلى التاريخ من الأقاليم القزوينية الشرقية قرابة الوقت الذي كانت فيه ط روادة وميكيناي وكنوسوس تسقط في بد الإغريق. ومن الصعب فصل القبائل والأجناس المختلفة وتمييزها بعضها عن بعض. وهي تظهر تحت حشد كبير من الأسماء في السجلات والمخطوطات التي تسجل أول ظهورهم. على أنه من حسن الطالع أنه ليست بنا حاجة إلى هذه الفروق المميزة في "معالم" أولية كهذا الكتاب. ويظهر شعب يسمى الكمّريين في ناحية بحيرتي أوروميا (Urumiya) وفان (Van). وبعد ذلك بوقت قصير ينتشر الآريون من أرمينيا إلى عيلام (Elam). وفي القرن التاسع ق. م. تذكر المخطوطات الآشورية اسم شعب يسمى الميديين (Medes) وثيق اللحمة بالفرس يظهرون إلى الشرق منهم، ويدعي كل من تغلث فلاسر الثالث وسرجون الثاني وهما اسمان غير جديدين على أسماعنا في هذه القصة، أنهما ألزماهم دفع الجزية. والمخطوطات تشير إليهم بـ أنهم "الميديون الخطرون"، وهم – بَعْدُ – شعب قَبَلي لم يتحد تحت لواء ملك واحد.

وقرابة القرن السابع ق. م. يتوارى من سجل التاريخ فجأة عيلام والعيلاميون الذين كانت عاصمتهم سوسا وهم شعب له تقاليد ومدنية لا تقل عن تقاليد السومريين ومدنيتهم من حيث القدم. ولسنا ندري ما حدث لهم. ويلوح أن الغزاة اجتاحوا السكان وامتصوهم ووقعت سوسا في قبضة الفرس.

وثمة شعب رابع يمت بصلة إلى هذه القبائل الآرية، يظهر في هذا الزمان في رواية هيرودوت، وهو الإسكيذيون أو الأشقوذيون (Scythians). فإن ملوك دولة آشور يوقعون الشحناء طرفاً من الزمان بين مختلف هذه الشعوب ذوات القربى ويُغْرون الكمريين والميديين والفرس والإسكيذيين بعضهم ببعض وتتزوج أميرات آشوريات (بينهن بنت آسَرْحدون Esarhaddon مثلاً) من رؤساء إسكيذيين. ومن جهة أخرى نرى نبوخذ ناصَّر العظيم يتزوج من ابنة كياكسارس (Cyaxares) الذي أضحى ملكاً على الميديين كافة، والآريون الإسكيذيون يتجهون نحو الآشوريين الساميين، على حين ينزع الميديون الآريون صوب البابليين الساميين. وكياكسارس هذا هو الذي فتح نينوي عاصمة آشور (٦٠٦ ق. م.) وبذا خلص بابل من النير الآشوري. وبذا تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية تحت الحكم الكلداني. ثم يعود أحلاف دولة آشور الإسكيذيون فيسقطون من القصة بعد هذا ويواصلون عيشهم في مكان بعيد في الشمال دون كثير تدخل في شئون الشعوب التي في الجنوب، وإن نظرة إلى خريطة ذلك العصر لتريك كيف أنه خلال ثلثي قرن من الزمان استقرت الإمبراطورية البابلية الثانية استقرار الحمل بين ذراعي الأسد الميدي.

ولن نتدخل في معترك المنازعات الداخلية بين الميديين والفرس، وهي التي انتهت آخر الأمر باعتلاء قورش (Cyrus) الفارسي "عرش كياكسارس الميدي عام ٥٥٠ ق. م. ففي تلك السنة كان قورش يحكم إمبراطورية تمتد من حدود ليديا إلى فارس وربما وصلت إلى الهند. على حين كان نابونيداس آخر الحكام البابليين، كما ذكرنا آنفاً يحفر منقبًا عن السجلات القديمة ويبني المعابد في مملكة بابل (بابلونيا).

٦- قصة كرويسوس Croesus (قارون)

على أن هناك ملكًا واحدًا في العالم تنبه لخطر تلك القوة الجديدة المجتمعة بين يـ دي قـ ورش ذلـ ك هـ و كرويْسوس ملك ليديا. وقد قُتل ابنه بطريقة محزنة جدًا ذكرها هيرودوت ولكننا لن نتعرض هنا لوصفها؛ قال هيرودوت:

"أقام كرويسوس بعد ذلك الحادث مدة سنتين في حداد عميق لفقد ولده، ولكن راعه بعد تلك الفترة مـ ا رآه من خلع قورش لابن كياكسارس من الحكم ومن تزايد الفرس عظمة وسلطانًا، فأقلع كرويْسوس عن أحزانـ ه، وأخذ يعمل بكل ما أوتي من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهي لا تزال في طور النمو وقبل أن تبلغ غاية العظمة. وعند ذلك أخذ يجرب مهابط الوحي المتنوعة.

وقد كلف كرويْسوس الليديين الذين كان عليهم أن يحملوا العطايا إلى المعابد، بأن يسـ ألوا الـ وحي هـ ذا السؤال: "هل يهاجم كرويسوس الفرس، وإن كان الحال كذلك، فهل يجب عليه أن يضم إليه أي جـ يش مـ ن الرجال بوصفهم أصدقاء؟" ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعـ وا العطايـ ا وقـ دموا النذور استفسروا من الوحي قائلين: "إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى، إذ يعد هذه هي مهـ ابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب، ويسألكم الآن مـ رة أخرى هل قدر له أن يسير جنده على الفرس، وإن كان الأمر كذلك، فهل كتب عليه أن يضم أي جيش مـ ن الرجال بوصفهم أصدقاء؟" ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعـ وا العطايـ ا وقـ دموا النذور استفسروا من الوحي قائلين: "إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى، إذ يعد هذه هي مهـ ابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب، ويسألكم الآن مـ رة أخرى هل قدر له أن يسيّر جنده إلى الفرس، وإن كان الأمر كذلك، فهل كتب عليه أن يضم أي جـ يش مـ ن الرجال بوصفهم أحلافًا؟" هكذا استفسروا، واتفقت إجابات كل من مهبطي الوحي على أمـ ر واحـ د، وهـ و تأكيدهم لكرويسوس بأنه إن زحف على الفرس فإنه سيحطم إمبراطورية عظيمة. وعلى ذلك لما نقلت الإجابة إلى الملك كرويسوس وبلغت مسامعه، سره الوحي، ولتوقعه أنه لا بد مدمر مملكة قورش، أرسل ثانية إلـ ى بيثو (Pytho) وأهدى إلى رجال دلفي كافة، بعد أن استوثق من عددهم، قطعتين من الذهب لكل رجل منهم، (قيمة الواحدة منهما ستاتير [1] Stater). وفي مقابل هذا أعطى الدلفيون كرويسوس والليديين حق الأسـ بقية في استشارة الوحي والإعفاء من كل الرسوم وحق الجلوس في المقاعد الأمامية في حفـ لات الألعـ اب، مـ ع منحهم امتيازًا آخر يبقى لهم على مر الزمان: وهو أن يسمح لكل من يرغب منهم بأن يكون له حق المواطن الحر في دلفي.

([1]) ستاتير: عملة قديمة وهي أكبر عملة ذهبية كانت تستخدم قديمًا ببلاد الإغريق. (المترجم).

ومن ثم عقد محالفة دفاعية مع كل من اللاكيديمونيين (Lacedemonians) والمصريين. ثم يستطرد هيرودوت فيقول: "وبينما كان كرويسوس يتأهب للمسير إلى الفرس، نصح له أحد الليديين وكان من قبل هذا الزمان معروفًا بالحكمة والحصافة، على أن هذه النصيحة زادته شهرة على شهرته بالعقل والحكمة بين الليديين – نصح الملك بما يلي، قال: "أيها الملك، إنك تستعد للهجوم على رجال يرتدون سراويل من الجلد، وسائر ثيابهم من الجلد كذلك، وهم يأكلون طعامًا ليس مما يشتهونه، وإنما مما يستطيعون الحصول عليه، ويعيشون في أرض وعرة، وفضلاً عن ذلك فإنهم لا يتناولون النبيذ بل يشربون الماء، وليس لديهم من التين ما يتخذونه حلوا بعد طعامهم، ولا أي غذاء طيب آخر. فمن ناحية، إن كانت الغلبة لك عليهم فماذا أنت آخذ منهم وليس لديهم شيء يستلب؟ ومن جهة أخرى إن غلبوك فتأمل كم من الأشياء الطيبة تذهب عنك حين ذاك. فإنهم لو ذاقوا خيراتنا لأول مرة تشبثوا بها لا محالة، ولن يستطاع بعد ذلك إقصاؤهم عنا. وأنا عن نفسي أشعر بالشكر للآلهة لأنهم لم يبثوا في عقول الفرس أن يزحفوا على الليديين". هكذا تكلم من غير أن يقنع كرويسوس، لأنه من المحقق أنه لم يكن لدى الفرس – قبل أن يخضعوا الليديين – شيء من وسائل الترف ولا من الطيبات".

واقتتل كرويسوس وقورش في معركة غير فاصلة في بتيريا (Pteria) تراجع منها كرويسوس، وتبعه قورش فالتحما في معركة خارج عاصمته سارديس، وكانت قوة الليديين تنحصر في فرسانهم، إذ إنهم كانوا فرسانًا ممتازين، وإن كانوا غير منظمين، يقاتلون برماح طويلة.

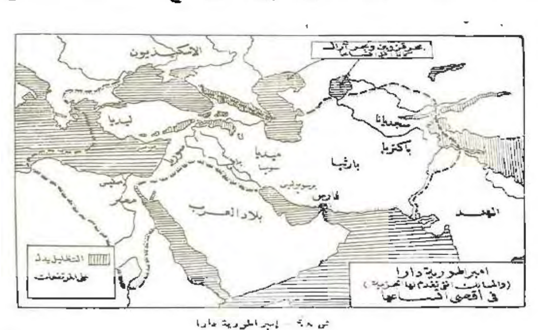
"أما قورش فإنه لما أن رأى الليديين مصطفين للقتال وخشي فرسانهم أقدم على ما يأتي تنفيذًا لمشورة هارباجوس (Harpagos) فقد جمع في صف واحد كل الجمال التي كانت في مؤخرة جيوشه تحمل المؤن والمتاع، ورفع عنها أحمالها وأقام عليها رجالاً مزودّين بعتاد الفرسان، وبعد أن أعد عدتهم على هذه الشاكلة، أمرهم أن يكونوا في مقدمة سائر الجيوش وأن يتجهوا صوب فرسان كرويسوس، ومن خلف فصيلة الجمال، أمر المشاة أن يتبعوهم، ومن خلف المشاة وضع قوة فرسانه بأكملها، وعندما عبأ رجاله كلا في مكانه الخاص أمرهم ألا يتركوا فردًا واحدًا من الليديين الآخرين حيًا، وأن يذبحوا كل من قد يقف في سبيلهم، على أنهم لم يكونوا ليذبحوا كرويسوس نفسه، وإن أبدى المقاومة ساعة القبض عليه. تلك كانت أوامره وقد وضع الجمال ضد الخيل لهذا السبب: وهو أن الخيل تخاف الإبل ولا تستطيع أن تطيق رؤيتها أو أن تشم رائحتها. فلهذا السبب إذن دبرت الحيلة، حتى تصبح فرسان كرويسوس عديمة الجدوى. وهي القوة نفسها التي كان يتوقع منها الملك الليدي كل التفوق والتبريز. وبينما الجانبان يتقدمان للالتحام في المعركة، وبمجرد أن اشتمت الخيل رائحة الجمال ورأتها دارت على أعقابها وانهارت آمال كرويسوس على الفور".

وهوجمت سارديس طوال أربعة عشر يومًا ووقع كرويسوس في الأسر...

"ولما أن ظفر به الفرس قدموه بين يدي قورش، فجمع الملك كومة عظيمة من الحطب وأمر فجعل كرويسوس من فوقها مشدود الوثاق، كما جعل معه أربعة عشر من أبناء الليديين، فهل كان يقصد أن يقدم هذا القربان ثمرة أولى لنصره إلى أحد الأرباب؟ أو هل كان يبغي تحقيق الوفاء بنذر قطعه على نفسه؟ أو أنه سمع أن كرويسوس رجل يخشى الله، فأمر به أن يوضع من فوق قمة الحطب، لأنه أراد أن يعرف هل ستنقذه إحدى القوى الإلهية فلا يحرق حيًا؟ في قولهم إنه فعل ذلك ابتغاء تلك الغاية.

على أن كرويسوس، وهو واقف على كومة الحطب هبطت عليه على الرغم مما كان فيه من سوء الحال ذكرى حكمة سولون (Solon) حين قال بوحي من الآلهة: "إنه ليس بين الأحياء من يدعى بالسعيد"، فلما خطر ذلك الخاطر بباله، قالوا إنه تأوه تأوهًا عميقًا وأنَّ أنينًا عاليًا، بعد أن ظل صامتًا زمانًا طويلاً، ثم هتف باسم سولون ثلاثًا. فلما أن سمع قورش ذلك أمر المترجمين أن يسألوا كرويسوس عمن يكون ذلك الشخص الذي يناديه، فاقتربوا منه وسألوه، ويقال إن كرويسوس لزم الصمت زمانًا عندما سئل في هذا، ولكنهم لما ألحوا عليه بعد ذلك قال "إنه رجل وددت . وإن فقدت في سبيل ذلك ثروة طائلة – لو أنه تحدث إلى كل الملوك". وعند ذلك لما كانت كلماته ذات مضمون مبهم، سألوه من جديد عما قال، وإذ كانوا ملحفين لا يعطونه أي سلام أو راحة، أخبرهم كيف أن سولون – وهو فرد أثيني – قد جاءه، وبعد أن فحص كل ثروته استخف بها بكلمات كيت وكيت، وكيف أن كل ما حدث له جاء مطابقًا لما قاله سولون، وهو لم يكن يتكلم البتة بالنسبة إلى كرويسوس نفسه بوجه خاص ولكن بالنسبة إلى الجنس البشري أجمع، وخاصة إلى أولئك الذين يخالون أنفسهم رجالاً سعداء. وبينما كان كرويسوس يقص هذه الأمور، كانت النار أُضرمت في كومة الحطب وكانت حوافيها قد اتقدت من كل النواحي. وعند ذلك يقال إن قورش عندما سمع من المترجمين ما قاله كرويسوس، غير عزمه وأيقن أنه هو نفسه إن هو إلا إنسان، وأنه يقدم رجلاً آخر لا يقل عنه سعادة؛ ليكون وقودًا للنار وهو حي، وفضلاً عن ذلك فقد خشي القصاص، ورأى أنه لا أمان لشيء مما تملكه الناس، ولذلك يقولون إنه أمرهم أن يطفئوا بأسرع ما يستطاع تلك النار التي كانت تتلظى وأن ينقذوا كرويسوس ومن معه من فوق كومة الحطب، وإذ أخذوا يبذلون الجهود لم يستطيعوا إذ ذاك أن يتغلبوا على لهيب النار. ثم يقص الليديون بعد ذلك أن كرويسوس، وقد علم كيف عدل قورش عن رأيه ورأى كل إنسان جاهدًا في إطفاء النار، وأنهم لم يعودوا قادرين على الحد من امتدادها صاح متوسلاً إلى أبولون (Apollo): إذا كنت يومًا قدمت هدية تقبّلها الإله أبولون، فإنه سيهب لنجدتي وسينقذني من الشر الذي هو الآن محيق بي. هكذا تضرع إلى الرب والدمع ملء عينيه. وفجأة كما يقولون، وبعد أن كانت السماء مصحية والجو هادئًا مستقرًا، تجمع الغمام وانفجرت العاصفة، وأمطرت السماء وابلاً مدرارًا فأطفأت نار الحطب.

"ثم لما أدرك قورش أن كرويسوس محب للآلهة ورجل خير أمر به فأنزل من فوق كومة الحطب وسأله كما يأتي: "أخبرني يا كرويسوس مَنْ من الناس قاطبة أغراك بأن تزحف على أرضي وتصبح عدوًا لـ ـي بـ ـدل أن تكون صديقًا ودودًا؟"، فقال له: "أيها الملك لقد فعلت ذلك فكان فيه سعادتك وجر علي شقاوتي، والسبب في ذلك هو رب الهلينيين الذي حرضني على الزحف بجيشي، إذ ما من فرد بلغت به الحماقة حدًا يجعله يختار بمحض إرادته الحرب دون السلم، لأن الأبناء يوارون آباءهم التراب في أوان السلم، على حين يواري الآباء أبناءهم في زمن الحرب. على أني أعتقد أنه كان مما يسر القوى الإلهية أن تقع هذه الحوادث على هذا النحو.".



على أن هيرودوت رفيق شائق جذاب يغري من يكتب معالم التاريخ بالإسهاب في الاقتباس منه، ولذا فإن بقية حياة كرويسوس وكيف أخذ يقدم إلى قورش نصائح حكيمة، يجب أن تقرأ عل ـى صد فحات هير ودوت الزاخرة.

ولما أن أخضعت ليديا، وجه قورش التفاته إلى نابونيداس في بابل، فقهر الجـ ـيش البـ ـابلي تحـ ـت قيـ ـادة بلْشَاصَّر (Belshazzar) خارج أسوار بابل، ومن ثم ألقى الحصار على المدينة فـ ـدخلها عـ ـام ٥٣٨ ق. م.، والراجح أن ذلك الفتح تم كما سبق أن أشرنا برضاء كهنة بعل وإغضائهم.

٧- دارا يجتاح الروسيا

خلف قورش على الملك ابنه قمبيز، الذي اقتاد جيشاً دخل به مصر (٥٢٥ ق. م.)، وحدثت معركة على أرض الدلتا اقتتل فيها مرتزقة من الإغريق في كل من الجانبين. ويصرح هيرودوت أنه رأى عظام القتلى وهي لا تزال في الميدان بعد ذلك بخمسين أو ستين سنة. وهو يشير إلى صغر حجم الجماجم الفارسية نسبيًا. ذلك أن هيرودوت لم يخفف قط من دعايته ضد الفرس. واستولى قمبيز بعد هاته المعركة على منف ومعظم أجزاء مصر.

ويقال إن قمبيز أصيب بمس من الجنون في مصر. فاستباح المعابد المصرية أيما استباحة وظل في ممفيس "ينبش المقابر القديمة ويفحص جثث الموتى". وكان قمبيز قد اغتال قبل وصوله إلى مصر كلا من كرويسوس ملك ليديا السابق وشقيقه نفسه سميرديس (Smerdis). ثم مات في سوريا أثناء عودته إلى سوسا متأثرًا بجرح عارض ولم يترك عقبًا يخلفه على العرش فخلفه في الحال دارًا الميدي (٥٢١ ق. م.) وهو ابن هيستاسبس (Hystaspes) أحد كبار مستشاري قورش.

وكانت إمبراطورية دارا الأول أعظم من جميع الإمبراطوريات السابقة التي تتبعنا فيما سلف نموها، فهي تضم كل آسيا الصغرى وسوريا، أو بعبارة أخرى الإمبراطوريتين الليدية والحيثية القديمتين، وكل الإمبراطوريات الآشورية والبابلونية القديمة ومصر وبلاد القوقاز وإقليم قزوين وميديا وبلاد الفرس، ولعلها امتدت في الهند حتى نهر السند. دانت كل هذه البلاد لحكم دارا فأقام عليها حكامًا إقليميين (ينعت الواحد منهم باسم ساتراب)، ولم ينج من دفع الجزية للساتراب الفارسي إلا العرب الرحل وحدهم دون سائر شعوب ما يسمى الآن باسم الشرق الأدنى التابعين لدارا. ويلوح أن تنظيم هذه الإمبراطورية العظيمة كان على مستوى من الكفاية أعلى كثيرًا مما كان في الإمبراطوريات التي سبقتها. فكانت الطرق الرئيسية العظيمة تصل الولاية بالولاية، وكان هناك نظام للبريد الملكي، وكانت خيول البريد تقف على مسافات مقررة وهي مستعدة على الدوام لحمل رسل الحكومة أو لحمل المسافر إن كان لديه تصريح من الحكومة – إلى المرحلة الثانية من مراحل رحلته. ويلوح أن الحيثيين رصفوا الطرق الكبرى الممتدة عبر بلادهم في زمن أبكر من هذا بكثير. على أن هذا أول تنظيم للبريد معروف لدينا، وفيما خلا مسألة حق الحكومة المركزية في استخدام الطرق الإمبراطورية والاستيلاء على الجزية، فقد كانت الحكومات المحلية تستمتع بقدر جسيم جدًا من الحرية المحلية، وأفضت تبعيتهم للحكومة المركزية إلى الحيلولة دون وقوع نزاع داخلي قتّال بينهم، وهو أمر عاد عليهم جميعًا بالخير العميم. وفي أول الأمر كانت المدن الإغريقية الواقعة في القارة الآسيوية تدفع الجزية وتشترك في الاستمتاع بهذا "السلم الفارسي".

وقد استحث دارا على مهاجمة الإغريق في أوربا طبيب إغريقي في بلاطه وكان يحن إلى وطنه، ويريد أن يعود إلى بلاد الإغريق بأي ثمن. وكان دارا قد رسم من قبل الخطط لحملة على أوربا وليس على بلاد الإغريق. بل على ما هو في شمال الإغريق عبر البوسفور والدانوب (الطونة)، كان يريد أن يضرب جنوب روسيا التي كان يعتقد أنها موطن الإسكيذيين المترحلين الذين يهددونه على حدوده الشمالية الشرقية. على أنه أعار مُستَحِثَّه أذنًا مصغية وأرسل الرسل إلى بلاد الإغريق.

وهذه الحملة العظيمة التي قام بها دارا توسع رحاب نظرتنا في هذا التاريخ. فهي ترفع الستار عن بلاد البلقان من خلف بلاد الإغريق، وهذه أول مرة نذكر لك فيها البلقان. وهي تحملنا إلى الدانوب وما وراء الدانوب. سارت نواة جيشه من سوسا وهي تجمع الأحلاف وفرق الجند المساعدة أثناء تقدمها إلى البوسفور، وهنا كان حلفاء دارا من الإغريق "وهم الإغريق الأيونيون في آسيا" قد أقاموا جسرًا من الزوارق عبر الجيش عليه، على حين واصل حلفاؤه الإغريق رحلتهم بسفنهم إلى نهر الدانوب، ثم رسوا على مسيرة يومين من مصبه ونصبوا جسرًا طافيًا آخر على حين كان دارا يتقدم بجيوشه بإزاء الساحل الذي نسميه الآن بلغاريا، والذي كان يسمى حينذاك تراقيا؛ فعبروا نهر الدانوب وأخذوا يستعدون لمنازلة الجيش الإسكيذي والاستيلاء على مدن الإسكيذيين.

على أن الإسكيذيين لم تكن لهم مدن، كما أنهم تجنبوا الالتحام معه في أية موقعة. وتحولت الحرب إلى عملية طراد مضنية موئسة قوامها اقتفاء أثر أعداء أكثر سرعة وأخف حركة. وكان المترحلون يطمرون الآبار ويدمرون المراعي. وكان فرسان الإسكيذيين يغيرون على أطراف الجيش المكون في معظمه من جنود من المشاة، فيتصيدون الشاردين منهم ويحولون دون المرعى وجمع الأعلاف. وبذلوا كل ما في مقدورهم لحمل الإغريق الأيونيين – الذين أقاموا الجسر عبر الدانوب وقاموا على حراسته – على أن يفكوا الجسر، وبذلك يضمنون تدمير "دارا" تدميرًا محققًا لا ريب فيه. على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتًا لا يتزعزع ما داموا يرونه يتابع تقدمه.

ولكن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسي وأعجزته عن التقدم، وفقد دارا عددًا كبيرًا من الرجال ممن شردوا عن جيشه، واستنفدت كل مؤنه ثم ساوره أخيرًا خاطر أليم بأن التراجع عبر الدانوب كان أمرًا ضروريًا لإنقاذه من إعياء وهزيمة كاملين.

ولكي يجد مخرجًا ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بالتضحية بالمرضى والجرحى من رجاله. فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الإسكيذيين في أثناء الليل، وتسلل من المعسكر تحت هذه الدعوى مع نخبة من جنوده المختارين وانطلق جنوبًا تاركًا نيران المعسكر متقدة فضلاً عن الضوضاء والحركة العاديتين. وفي اليوم التالي أدرك الرجال المخلفون في المعسكر الحيلة التي لعبها ملكهم عليهم، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيذيين، ولكن دارا كان حصل على ما يشتهي، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه. على أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم في الظلام. وعند النهر "بلغ الخوف بالفرس المتراجعين أقصى غايته" إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد انهارت ولم يجدوا أثرًا لنهايته الشمالية.

وفي هذه المرحلة يدوي في آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالي. فهؤلاء جماعة من الفرس الـ وجلين يقفون حول الملك العظيم على شاطئ النهر المتدفق.. وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن المسير وقـ د أنهكهـ ا الجوع وأضنتها الحرب... وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذي قد يظهر عليه فـ ي أي وقت جنود مقدمة المتعقبين... وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشـ د، بـ ل يسـ ودهم صمت القلق المتوجس. وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب الآخر مـ ن مجـ رى النهر العظيم، وكأنما هي لغز لا سبيل إلى حله. ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجـ ال عنـ ده أم لا، فـ إن سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لا تزال تُسحب على الشاطئ الآخر، ولكن كان كل شيء بعيـ دًا بعـ دًا سحيقًا. "وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصري له صوت أجهر من صوت أي رجل على الأرض. وقـ د أمـ ر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستر Ister (أي الدانوب) وأن ينـ ادي هسـ تيائيوس الميليط ـي (Histiaeus of Miletus)".

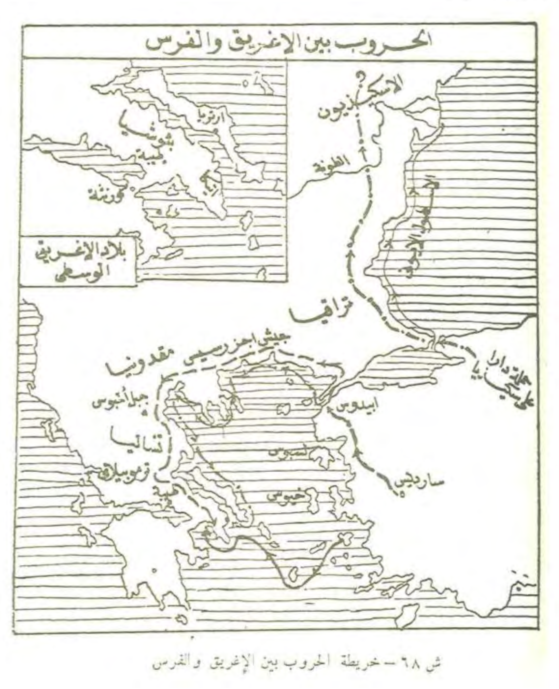
وإذا بهذا المبجل الذي كان موضع التكريم – وسيأتي يوم تُحمل فيه رأسه إلى دارا في سوسا كما سنفصل ذلك من توّنا – يظهر عبر النهر مقتربًا رويدًا رويدًا في قارب.

ويدور حديث يتبين منه أن "كل شيء على ما يرام".

والتفسير الذي قدمه هستيائيوس عن الأمر تفسير معقد، ذلك أن بعض الإسكيذيين حضروا ثم انصـ رفوا، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشافة. ويبدو أنه جرت مناقشة بين الإسكيذيين والإغريق، وكـ انوا يطلبـ ون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون لهم بأن يهلكوا عند ذلك الجيش الفارسي ويقضوا علـ ى دارا وإمبراطوريتـ ه. وعندئذ يستطيع إغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنهم ثانية. وكان ملتياديس الأثيني يـ دعو إلـ ى قبـ ول هـ ذا المقترح، على أن هستيائيوس كان أشد منه دهاء. فإنه قال إنه يفضل ألا يتخلى عن الفرس تمامًا إلا بعـ د أن يراهم وقد دمروا تدميرًا. فهل يوافق الإسكيذيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفـ رس ليطمـ ئن إلـ يهم الإغريق، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر؟ ومهما يكن الجانب الذي انحاز إليه الإغريـ ق آخر الأمر، فقد كان من الواضح الجلي لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية. فإن لم يفعلـ وا ذلك فإن الإسكيذيين قد يجتاحونه. والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان، شرع الإغريق في العمـ ل بأسرع ما يستطاع على هدم الطرف الذي كان يربطهم بالإسكيذيين. ثم انطلق الإسكيذيون بخيـ ولهم بـ احثين عن الفرس، وبذا تركوا الإغريق مطمئنين على كلا الحالين. فإن فرّ دارا ونجا، استطاعوا أن يكونـ وا إلـ ى جانبه، وإن دمر لم يكن للإسكيذيين موضع للشكوى.

ولم يعرض هستيائيوس الأمر على دارا على نفس هذه الصورة، ولكنه حافظ على الأقل علـ ى السـ فائن وعلى معظم الجسر. كما أظهر نفسه بمظهر صديق فارس المخلص. ولم يكن دارا ميالاً إلـ ى شـ دة النقـ د والتدقيق. وجاءت السفائن الأيونية. وسرعان ما أخذت بقية الفرس المجهدة المكدودة تنظر من خلفها بشـ عور ارتياح لا حد له إلى لجج الدانوب الفولاذية القاسية وهي تنساب مترامية وفاصلة بينهم وبين متعقبيهم.

وزال عن نفس دارا كل سروره واهتمامه بالحملة الأوربية. فعاد إلى سوسا تاركًا في تراقيا جيشًا تحت إمرة قائد أمين هو ميجابازوس (Megabazus) فأخذ ميجابازوس هذا على نفسه إخضاع تراقيا. ومن بين الدول الأخرى التي أذعنت لدارا مُكرهة مملكة تظهر في تاريخنا الآن لأول مرة، وهي مملكة مقدونيا. وهي بلاد يسكنها شعب وثيق الصلة بالإغريق إلى حد أن أحد أمرائها أذن له من قبل ذلك بأن يتبارى في الألعاب الأوليمبية ويحصه على جائزة فيها.



ش ٦٨ — خريطة الحروب بين الإغريق والفرس

وكان دارا ميالاً إلى مكافأة هستيائيوس بالسماح له بأن يبني لنفسه مدينة في تراقيا، لولا أن ميجابازوس كان له رأي مغاير لهذا في جدارة هستيائيوس بالثقة. فحمل الملك على أخذه إلى سوسا، وأن يحتفظ به هناك أسيرًا يحمل لقب مستشار. ولقد غر هذا المنصب في البلاط هستيائيوس بادئ ذي بدء، ثم أدرك حقيقة مغزاه، فأضجره البلاط الفارسي وأخذ يحن إلى موطنه ميليتوس فنصب نفسه لعمل الشر واستطاع أن يقيم ثورة على الفرس بين الأيونيين من الإغريق في آسيا الصغرى. ولهذه القصة ملابسات ملتوية وتأويلات وتخريجات بلغت من التعقيد درجة لا يتسع لها هذا المقام. وهي تتضمن إحراق سارديس على يد الأيونيين وهزيمة أسطول إغريقي في لادي (٤٩٥ ق. م.)، وهي قصة حالكة مليئة بالخيانة والقسوة والبغضاء. حتى ليبدو فيها مصرع هستيائيوس الماكر حدثًا ساطعًا وضاءً أو يكاد، فإن "ساتراب" سارديس التي أخذ فيها هستيائيوس أسيرًا وهو في طريقه إلى سوسا، كان له فيه رأي يطابق رأي ميجابازوس، كما كان يعرف مقدرته على الخداع والتهويش على دارا فقتله هناك في التو والساعة واكتفى بإرسال رأسه إلى مولاه.

ولقد أقحمت قبرص والجزر الإغريقية في هذا النزاع الذي أثاره هستيائيوس واشتبكت فيه أثينا آخر الأمر. وأدرك دارا الغلطة التي وقع فيها حين اتجه يميناً بدل أن يعرج يسارًا عندما عبر البوسفور، ومن ثم نصب نفسه لغزو كل بلاد الإغريق فبدأ بالجزر.

وكانت صور وصيدا المدينتان التجاريتان الساميتان العظيمتان خاضعتين للفرس. ومن ثم انضمت سفائن الفينيقيين والأيونيين من الإغريق إلى الفرس، فصار لهم أسطول استطاعوا به إخضاع الجزر الإغريقية الواحدة تلو الأخرى.

٨- معركة ماراتون (Marathon)

شن الفرس أول هجوم لهم على بلاد الإغريق نفسها عام (٤٩٠ ق. م.) وكان هجومًا بحريًا على أثينا بقوة دربت بعناية تدريبًا طويلاً لتلك الغاية. وكان الأسطول مزودًا بنقالات بنيت خصيصًا لراحة الخيول. وقد نزلت هذه الحملة العسكرية قرب ماراتون في أتيكا (١) (Attica). وأرشد الفرس إلى ماراتون رجل إغريقي من الخونة هو هيباس بن بيزستراتوس الذي كان طاغية على أثينا. واتفق المتآمرون أنه إذا سقطت أثينا، يصبح هيباس طاغية لها تحت حماية الفرس. وفي الوقت ذاته تمكن من نفوس القوم شعور بأن شئون هيلاس أخذت تستحكم فيها أزمة حرجة - تمكنًا جعل رسولاً من العدائين ينطلق من أثينا إلى إسبرطة ناسيًا كل العداوات القديمة بين البلدين، لكي يقول لأهلها: "أيها اللاكيديمونيون إن الأثينيين ليهيبون بكم أن تهبوا خفافًا لمساعدتهم، وألا تسمحوا لمدينة أقدم ما تكون بين الهليّنيين بأن تقع في ربقة العبودية على أيدي الهمج البرابرة (٢). ولا تنسوا أن إرتريا (Eretria) مستعبدة في يومنا هذا مما أضعف قوة هيلاس بفقد هذه المدينة الشهيرة".

قطع هذا الرجل واسمه "فيديبيدس Pheidippides" المسافة من أثينا إلى إسبرطة وهي قرابة مائة ميل، سالكًا كالغراب خطًا مستقيمًا، بل أقصر منه - إذا أدخلنا في حسابنا ما بالطريق من التعريجات والمنعطفات - قطعها فيما يقل عن أربعين وثمانية من الساعات.

على أنه قبل أن يستطيع الإسبرطيون الوصول إلى المكان، كان الفريقان قد التحما. فهاجم الأثينيون العدو وقاتلوهم "بطريقة جديرة بالخلود لأنهم فيما نعرف كانوا أول من تقدم من الهلتينيين لمهاجمة العدو جريًا كما كانوا كذلك أولهم في الصبر على تحمل النظر إلى ثياب الميديين وملاقاة الرجال الذين يرتدونها، حين كان مجرد اسم الميديين حتى ذلك الزمان مما يرعب الهلينيين سماعه".

وتزعزع جناحا الفرس أمام ذلك الهجوم العنيف ولكن القلب صمد. على أن الأثينيين كانوا مع ذلك هادئي الروع مثلما كانوا أشداء. فحملوا الجناحين على الفرار. ثم أطبقوا على جانبي القلب. وعند ذلك فرت كتلة الفرس الرئيسية إلى السفن. وسقطت سبع سفن في أيدي الأثينيين ولاذت البقية الباقية بالفرار. وبعد أن قامت السفن بمجهود فاشل تروم به التقدم إلى أثينا والاستيلاء على المدينة قبل أن يعود إليها الجيش الإغريقي، تراجع الأسطول إلى آسيا.

---

(١) إحدى ولايات بلاد الإغريق القديمة وكانت عاصمتها أثينا. (المترجم).

(٢) البرابرة (أو الهمج) اصطلاح في التاريخ اليوناني أطلقه اليونان على كل من عداهم من الشعوب تحقيرًا لشأنهم. (المترجم)



٦٩– جندى أثينى من المشاة

ولندع هيرودوت يختم القصة بفقرة تلقى إلينا ضوءًا ساطعًا على مهابة الميديين الهائلة في ذلك الزمان.

"ومن اللاكيديمونيين حضر إلى أثينا ألفان بعد تمام القمر وبعد أن أسرعوا سرعة عظيمـ ـة ليصـ ـلوا فـ ـي الأوان، حتى وصلوا إلى أتيكا في اليوم الثالث لخروجهم من إسبرطة وهم وإن حضروا بعد فـ ـوات فرصـ ـة المعركة بزمن طويل، إلا أنهم كانوا يرغبون في مشاهدة الميديين. فذهبوا وفقًا لهذا إلى مـ ـاراتون وشـ ـاهدوا جثث القتلى، ثم رحلوا بعد ذلك إلى وطنهم، وهم يثنون على الأثينيين وعلى العمل الذي أتوه".

٩- ثرموبيلاي وسالاميس

بذلك الفوز العظيم أحرزت بلاد الإغريق – وقد وحد الخوف كلمتها ردحًا من الزمان – أول نصر لها على فارس. وترامت الأنباء بذلك إلى دارا في نفس الوقت الذي وصلت إليه فيه أخبار شبوب فتنة في مصر. ولكنه مات قبل أن يجمع رأيه على الاتجاه الذي ينبغي عليه أن يسلكه. واتجه ابنه وخلفه إجزرسيس (Xerxes) في بادئ الأمر إلى مصر فولى عليها واليًا (ساتراب) فارسيًا ثم استمر أربع سنوات يعد العدة لهجوم ثان على بلاد الإغريق. ويقول هيرودوت – وينبغي ألا يغيب عن بالنا أنه كان إغريقيا وطني النزعة – في مؤلفه التاريخي الذي أخذ يسمو آن ذاك إلى أوج الروعة والبهاء:

"فأي شعب لم يخرج به إجزرسيس من آسيا على هيلاس؟! وأي ماء لم ينضب معينه حين ينهال عليه جيشه شربًا، اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها؟ لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن كما كان بعضها مكلفًا بالخدمة في الجيش البري. وكان على بعضها أن يقدم الفرسان كما تعين على البعض الآخر أن يقدم سفنًا تحمل الخيل. على حين كانوا هم أنفسهم يشتغلون كذلك في الحملة، وكان أن أُمر آخرون بتقديم سفن حربية للجسور، وأمر آخرون كذلك بتقديم سفن محملة بالمؤن".

عبر إجزرسيس إلى أوربا، لا عند معبرة البوسفور التي عرضها نصف ميل كما فعل "دارا"، بل عند الهلسبونت (Hellespont): الدردنيل). وهيرودوت في وصفه لتجمع ذلك الجيش العرمرم ومسيره من سارديس إلى الهلسبونت، إنما تغلب نزعة الشاعر فيه على المؤرخ. ويمر الجحفل العظيم الجرار بكل أبهته بمدينة طروادة (Troy)، وإجزرسيس وإن كان فارسيًا ومن الهمج إلا أنه يلوح في زي المتأدبين بأدب القدامى فهو يعرج على تلك المدينة، كما يقول مؤرخنا، لزيارة قلعة بريام (priam)،، وقد أقيم الجسر على الهلسبونت عند أبيدوس، وأقيم على قمة أحد التلال عرش من الرخام ليشرف منه إجزرسيس على عرض جيشه بأجمعه.

"حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ورأى كل شواطئ سهول أبيدوس غاصة بالرجال، قال عن نفسه إنه لسعيد، وما لبث بعد ذلك أن هملت عيناه بالدموع. فلما أن رآه عمه أرطبانوس (Artabanus) على تلك الحال – وهو نفسه الذي صرح برأيه بادئ الأمر في جرأة ناصحًا إجزرسيس بأن لا يزحف على هيلاسي، – أقول إن هذا الرجل عندما لاحظ أن إجزرسيس كان يبكي، سأله كما يأتي: أيها الملك، ما أبعد الشقة بين الأمرين اللذين أتيتهما الآن وقبل الآن ببرهة وجيزة، فإنك وقد دعوت نفسك رجلاً سعيدًا، تذرف الدمع الآن: فأجاب الملك: أجل إني بعد أن أحصيتهم عدًا دار بخلدي إحساس الإشفاق والحسرة لتذكري كم حياة الإنسان كلها قصيرة. لعلمي أنه من بين هذا الجمع الحاشد لن يكون واحد حيًا بعد أن تمضي مائة من السنين".

وربما لم يكن هذا من التاريخ الدقيق في شيء ولكنه على كل حال شعر رائع عظيم. إذ الواقع أنه يحـ وي من الروعة ما تحويه ملحمة "الديناست [1] الدرامية " (The Dynasts).

ورافق الأسطول الفارسي هذا الحشد البري منتقلاً بحذاء الساحل من رأس إلى رأس. عل ى أن عاصـ فة هوجاء أنزلت بالأسطول أضرارًا عظيمة، فأغرقت أربعمائة سفينة بينها الكثير من حاملات القمـ ح. وسـ ار الهلينيون بادئ الأمر وقد توحدت صفوفهم لملاقاة الغزاة في وادي تمبي (Tempe) في الشمال قرب جبـ ل أوليمبوس، ولكنهم تراجعوا بعد ذلك مخترقين تساليا، واختاروا آخر الأمر أن ينتظروا الفرس المتقدمين عند مكان يدعى "ترموبيلاي" (Thermopylae)، حيث كانت هناك في ذلك الوقت صخرة عظيمة يقع البحر إلى الشرق منها، وبينهما ممر ضيق لا يكاد يتسع لمركبة واحـ دة إلا بشـ ق الأنفـ س – وقـ د غيـ رت الألفـ ان والأربعمائة من السنين التي انصرمت معالم كل شيء في تلك البقعة. والميزة العظيمة التي كانت للإغريـ ق من هذا الموقع في ثرموبيلاي هي أنه كان يمنع أعداءهم من استخدام كل من سلاح الفرسـ ان والمركبـ ات. وكان الممر يضيق جبهة المعركة إلى حد يقلل من شأن عدم التكافؤ بين الفريقين في العدد. وهنـ اك الـ تحم الفرس بهم في معركة في أحد أيام صيف ٤٨٠ ق. م.



٧٠ – جنديان من الحرس الفارسي

[1] الديناست ملحمة شعرية درامية لتوماس هاردي. وتصف الحروب النابوليوفية. (المترجم)

صد الإغريق هذا الجيش العظيم ثلاثة أيام، وأنزلوا بهم خسائر بليغة لقاء خسارة طفيفة نالتهم؛ ثم ظهرت في اليوم الثالث فصيلة من الفرس في مؤخرة الإغريق، بعد أن أرشدها فلاح إلى طريق فوق الجبل. وسرعان ما اشتد الجدل والخلاف بين الإغريق، فكان البعض يدعو إلى الانسحاب، والبعض يدعو إلى الثبات. وكان ليونيداس (Leonidas) قائد القوة جمعاء يرى وجوب الصمود، على أن يستبقى معه ثلاثمائة إسبرطي وفي الوقت نفسه يستطيع سائر الجيش الإغريقي أن يتقهقر إلى الممر الثاني الذي يمكن الدفاع عنه. ومع ذلك فإن الفرقة الثسبية (Thespian) وعددها سبعمائة رفضوا أن يتراجعوا مفضلين البقاء مع الإسبرطيين. وبقيت كذلك فرقة أخرى من أربعمائة محارب من طيبة. ولما كانت طيبة انحازت فيما بعد إلى الفرس. فإن هناك قصة تقول بأن الطيبيين أكرهوا على البقاء في هذا الموضع قسرًا ورغم إرادتهم، وهو أمر ليس له ما يرجحه من أسس عسكرية أو تاريخية. وقد ثبت هؤلاء الألف والأربعمائة وذبحوا عن بكرة أبيهم بعد قتال تجلت فيه البطولة والبسالة. واتفق أن تخلف رجلان من الإسبرطيين لإصابتهما بالرمد. فلما أن سمعا الخبر، كان أحدهما على حالة شديدة من المرض لا يستطيع معها حراكًا، وأمر ثانيهما عبده (helot) أن يقوده إلى مكان المعركة، وهناك أخذ يضرب ضرب العميان حتى قتل. وأخذ الإسبرطي الحي أرستوديموس (Aristodemus) مع الجيوش المتراجعة وأعيد إلى إسبرطة حيث لم تنزل به أية عقوبة على سلوكه، ولكنه عرف باسم المتقهقر (Treasas). وكان ذلك كافيًا لتمييزه عن سائر الإسبرطيين، وما لبث أن عمل على أن يقتل في معركة بلاتايا بعد ذلك بسنة، بعد أن أبدى ضروبًا عجيبة من شجاعة المستهين بالموت.. ظلت تلك الفئة القليلة قابضة على الممر يومًا كاملاً، يهاجمها من الأمام والخلف قوة الفرس بأجمعها. فاستطاعت أن تغطي تراجع الجيش الإغريقي الرئيسي، وأنزلت بالغزاة خسائر فادحة ورفعت مهابة المحاربين الإغريق على مهابة الميديين رفعًا يعلو بها عما فعله النصر في معركة ماراتون (Marathon).

وأخذت فرسان الفرس ومركباتهم تنساب انسيابًا بطيئًا خلال ممر ترموبيلاي الضيق، وتقدمت نحو أثينا بينما كانت تدور في البحر سلسلة من الالتحامات البحرية. وتراجع الأسطول الهليني أمام تقدم العمارة الفارسية، التي أصيبت بخسارة فادحة بسبب جهلها النسبي بالسواحل المعقدة الكثيرة التعاريج وبتقلبات الجو المحلي. على أن ضخامة العدد هي التي حملت الجيش الفارسي قُدُمًا نحو أثينا، والآن وقد ضاع ممر ثرموبيلاي، لم يبق هناك من خط دفاع أقرب من زبرزخ كورينثة، وكان معنى هذا هو التسليم في كل الأراضي الواقعة بين منطقتي ثرموبيلاي وكورينثة بما في ذلك مدينة أثينا، وهذا معناه أنه لم يبق أمام السكان إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يفروا وإما أن يستسلموا للفرس. خضعت طيبة ومعها بوءوتيا بأجمعها (Boeotia)، وارغمت على الانضواء إلى الجيش الفارسي فيما عدا بلدة واحدة هي بلاتايا (Plataea) التي فر سكانها إلى أثينا. وجاء دور أثينا بعد ذلك، وبذل الفرس جهودًا عظيمة لإقناعها بالتسليم لهم. ولكن جميع السكان أصروا على التضحية بكل شيء والنزول إلى السفن. فحمل النساء وغير المحاربين إلى سالاميس (Salamis) والجزر المختلفة المجاورة. ولم يبق في المدينة غير عدد قليل من الناس ممن أقعدتهم السن عن الحركة أو ممن خالفوا الإجماع، فاحتلها الفرس وأحرقوها. فأما الأشياء المقدسة والتماثيل

التي أحرقت في هذه المرة فإنها دفنت فيما بعد في الأكروبول إذ تولى دفنها الأثينيون العائدون، وعثر عليها في عصرنا هذا وبها آثار الحريق ظاهرة. وأرسل إجزرسيس إلى سوسا رسولاً راكبًا يحمل البشرى ودعا أبناء بيزستراتوس (Peisistratus) الذين كانوا معه، أن يعودوا إلى تراثهم وأن يقدموا الضحايا من فوق الأكروبول جريًا على الطريقة الأثينية.

وفي نفس الوقت كان الأسطول الهليني الموحد انتقل إلى سالاميس وهناك انقسمت الآراء انقسامًا مريرًا بين أعضاء مجس الحرب. وكانت كورينثة، والدول التي وراء البرزخ تطلب أن يتراجع الأسطول إلى ذلك المركز، أي إلى كورينثة تاركًا مدن ميجارا (Megara) وآيجينا لرحمة القدر. ولكن ثميستوكليس (Themistocles) أصر بكل قواه على القتال في مضيق سالاميس. وظلت الغالبية تميل إلى التقهقر، حتى جاءت الأخبار فجأة بأن خط التراجع قد قطع. فإن الفرس أبحروا حول سالاميس وقبضوا على ناصية البحر من الجهة الأخرى. وقد حمل هذه الأخبار أريستيديس العادل الذي أسلفنا عليك أمر نفيه من أثينا، وأبلت رجاحة عقله وفصاحته أحسن بلاء في معاونة ثميستوكليس على تشجع القواد المترددين. كان هذان الرجلان عدوين لدودين فيما سلف ولكنهما إزاء الخطر العام تناسيا شحناءهما في تسامح نادر في تلك الأيام. وخرجت السفن الإغريقية للقتال عند الفجر.

وكان الأسطول الآخر أكثر تخليطًا وأقل اتحادًا وانسجامًا من أسطولهم غير أنه كان يبلغ ثلاثة أضعاف أسطولهم تقريبًا. وكان الفينيقيون في أحد جناحيه، والإغريق الأيونيون من سكان آسيا والجزر في الجناح الآخر. فحارب بعض هؤلاء الأخيرين حرب العتاة على حين تذكر الآخرون أنهم هم كذلك من الإغريق. وكانت سفن الإغريق في الناحية الأخرى يديرها في غالب الأمر رجال من الأحرار يقاتلون من أجل أوطانهم. واحتدمت المعركة في ساعاتها الأولى احتدامًا اختلط فيه الحابل بالنابل. ثم اتضح لإجزرسيس وهو يراقب النضال أن أسطوله كان يحاول الفرار. وتحول الفرار إلى كارثة.

وكان إجزرسيس اتخذ مجلسًا في مكان يرقب منه المعركة، فرأى سفنه تدقها حيازيم السفن الأخرى الحادة؛ ورأى رجاله المحاربين يصرعون، ورأى الأعداء ينزلون في سفنه. وكانت طريقة حرب البحر الغالبة في تلك الأيام هي الصك والمصادمة. فكانت السفن الكبيرة تثقب السفن المعادية لها وتغرقها لتفوقها عليها في قوة الصدمة أو كانت تهشم مجاديفها وبذلك تقضي على مقدرتها على المداورة، وتتركها قعيدة مغلوبة على أمرها. ثم ما لبث إجزرسيس أن رأى بعض سفنه المكسورة تسلم للأعداء. وكان يستطيع أن يرى في الماء رءوس الإغريق وهم يسبحون إلى البر؛ "فأما رجاله البرابرة فقد هلك العدد الأكبر منهم في البحر لجهلهم السباحة". ثم بذل الصف الأول من الأسطول الفارسي وهو محصور مضيَّق عليه جهدًا تعوزه المهارة ليتزحزح عن مكانه قليلاً فأفضى ذلك إلى ارتباك لا سبيل إلى وصفه، فاصطكت بعضها بالسفن الفارسية الواقفة خلفها. وكانت هذه السفن القديمة أصنافًا ضعيفة هزيلة لا تصلح للبحر إذا قيست إلى أي صنف حديث من السفن. وكانت الريح الغربية تهب، وكان كثير من سفن إجزرسيس المهشمة تسوقها الرياح حتى تتوارى عن مجال بصره وتتحطم على أحد الشواطئ البعيدة. وذلك بينما الإغريق يسحبون بعضها الآخر إلى سالاميس على حين شرع البعض الآخر المصاب إصابة أقل وما زال كامل عدة القتال، ينسحب

نحو السواحل القريبة من الملك لكي يصبح في حماية الجيش. وهناك أخذت السفن تتقابل متناثرة على الجزء البعيد من البحر فيما وراء الرءوس، وهي بعيدة غير واضحة المعالم لائ ذة ب الفرار – تطاردها ا السفن الإغريقية. وقد أخذت الكارثة تتجلى لناظري الملك – في بطء – إذ يظهر له منها حدث بع د حدث. وإنا لنستطيع أن نتصور الحال وقد أخذ الرسل يغدون ويروحون ويصدر الملك أوامر عاجلة لا غناء فيها ويغير الخطط طيلة نهاره. وكان إجزرسيس قد خرج في الصباح مزودًا بالمنصات لكي يلحظ من فوقها أحسن قواده بلاء في القتال فيكافئه على حسن بلائه، ولكنه رأى وذهب الأصيل يملأ السماء – قوة فارس البحرية ت ذهب بددًا بين غريقة ومحطمة، ورأى الأسطول الإغريقي سليمًا مظفرًا أمام سالاميس، وهو ينظم صفوفه، كأنما لا يزال غير مصدق بما أصاب من نصر.

ظل الجيش الفارسي عدة أيام على مقربة من مكان المعركة البحرية، كأنما لم يستقر على رأي، ثم أخ ذ يتراجع إلى تساليا، حيث أشار بعض الناس على الملك أن يقضي الشتاء ثم يواصل الحملة. بيد أن إجزرسيس شأنه شأن دارا الأول من قبله تملكه السأم والضيق من الحملات الأوربية، وخشي تدمير جس ر ال زوارق، فواصل المسير مع جزء من جيشه حتى الهسبونت (الدردنيل) تاركًا القوة الكبرى في تساليا تحت قيادة قائ د اسمه ماردونيوس (Mardonius). ويروي لنا المؤرخ قصة تراجعه على النحو الآتي:

"إنهم أيان ساروا، وحيثما حلوا عند أي من الشعوب يأخذون حاصلات ذلك الش عب، ويس تعملونها ف ي مئونتهم، فإن لم يجدوا حاصلات، أخذوا الكلأ النابت في الأرض، وكم ك انوا يس لبون الأش جار لحاءه ا، ويسقطون أوراقها ويلتهمونها، لا تمييز في ذلك عندهم بين الأشجار المزروعة والأشجار التي تنم و بري ة. وكانوا لا يتركون شيئًا من ورائهم، وقد فعلوا ذلك بسبب المجاعة. ثم فشا فيهم فضلاً ع ن ذل ك الط اعون والدوسنتاريا التي أهلكتهم أثناء الطريق، والبعض منهم أيضًا – وكان مريضًا – تركه الملك من ورائه مكلفًا المدن التي قد يحدث أن يمر بها آنذاك أثناء مسيره بأن تعنى بهم وتعولهم، وترك بعض هؤلاء ف ي تس اليا، وبعضهم في سيريس (Siris) الواقعة في بايونيا (Paionia) وترك البعض في مقدونيا... وبعد أن اخترق وا تراقيا وصلوا إلى مضيق الهلسبونت فعبروه في سرعة إلى أبيدوس بالسفن، إذ إنهم لم يجدوا الجسر الط افي ممتدًا عبر البحر، لأن إحدى العواصف حطمته. وأقام الجند هناك حينًا وزعت عليهم فيه جراية من الطع ام أكثر مما كانوا ينالون في الطريق. فمات كثير من رجال الجيش الذين ظلوا سالمين حتى ذلك الحين، نتيج ة لإشباعهم نهمهم بغير حساب وكذلك من تغيير الماء، ووصل الباقون مع إجزرسيس إلى ساردييس".

١٠- بلاتايا وميكال

ظل سائر الجيش الفارسي في تساليا تحت قيادة ماردونيوس، الذي استمر سنة بأكملها يقوم بالحملات العدوانية على الإغريق. ثم هزم آخر الأمر وقتل عام ٤٧٩ ق. م في معركة أعد لها الطرفان عدتهما في بلاتايا. وفي نفس ذلك اليوم أصيب أسطول الفرس وأحد جيوشهم البرية بكارثة مزدوجة تحت ظلال جبل ميكالي على أرض آسيا الصغرى بين إفيسوس ((Ephesus) وميليتوس. ذلك بأن الفرس غلبهم الخوف على سفنهم من الإغريق فسحبوها إلى الشاطئ وبنوا من حولها جدارا. ولكن الإغريق نزلوا إلى البر واقتحموا تلك الحظيرة عنوة، ثم أقلعوا إلى الهلسبونت ليدمروا ما تبقى من جسر الزوارق حتى لقد اضطر من فر عقيب ذلك من الفرس الهاربين من بلاتايا أن يعبروا بالسفن عند البوسفور مكابدين في ذلك أكبر مشقة.

ويقول هيرودوت إن المدن الأيونية في آسيا شجعتها تلك الكوارث التي أصابت قوة الإمبراطورية، فظهرت فيها للمرة الثانية بوادر العصيان ضد الفرس.

وبهذا ينتهي الكتاب التاسع من تاريخ هيرودوت الذي كان مولده قرابة (٤٨٤ ق. م) فهو إبان معركة بلاتايا كان طفلاً يناهز الخامسة. والكثير من مادة تاريخه قد جمعه هو بنفسه واستقاه ممن حضروا بأنفسهم وشهدوا بأعينهم الأحداث العظيمة التي يقصها. واستمرت الحرب تجر أذيالها زماناً طويلاً. فإن الإغريق ناصروا ثورة شبت ضد الحكم الفارسي في مصر، وحاولوا أن يستولوا على قبرص فلم يوفقوا. ولم تنته الحرب إلا حوالي سنة ٤٤٩ ق. م. ثم أصبحت سواحل آسيا الصغرى الإغريقية والمدن الإغريقية في البحر الأسود حرة بوجه عام، على أن قبرص ومصر استمرتا تحت الحكم الفارسي، فأما هيرودوت الذي ولد رعية فارسية في مدينة هاليكارناسوس الأيونية، فكان يبلغ عند ذاك الخامسة والثلاثين، ولا بد أنه انتهز أول فرصة بعد ذلك السلم بين بلاده وبين الفرس ليزور بابل وفارس. والراجح أنه ذهب إلى أثينا ومعه تاريخه معداً للإلقاء حوالي (٤٣٨ ق. م).

ولم تكن فكرة إيجاد اتحاد عظيم للإغريق هدفه مهاجمة فارس، فكرة غريبة كل الغرابة على هيرودوت. ويظن بعض قارئيه أنه كتب مؤلفه التاريخي لتقوية تلك الفكرة ورفع شأنها. ولا شك أن جو ذلك الزمان كان مشبعًا بعبير تلك الفكرة. وهو ينسب إلى أرستاجوراس، زوج ابنة هيستيائيوس أنه عرض على الإسبرطيين "لوحة من البرونز حفرت عليها خريطة العالم أجمع بما فيه من بحار وأنهار" وهو يحكي على لسان أرستاجوراس قوله:

"إن هؤلاء البرابرة ليسوا شجعاناً في القتال، وأنتم من الناحية الأخرى، قد وصلتم إلى أقصى درجات المهارة في الحرب، وهم يحاربون بالقسي والسهام وبالحربة القصيرة، ويدخلون المعارك مرتدين السراويل وقد وضعوا الكمّات (أي القلانس) على رءوسهم، وأنتم قد استكملتم عدة قتالكم وأسلحتكم ونظامكم، فهم قريبو الغلبة هيّنوها، وليس لدى كل شعوب العالم ما يملكونه من الذهب والفضة والبرونز والأثواب المطرزة والحيوانات والعبيد فكل هذا ربما تختارونه لأنفسكم لو أنكم شئتم ذلك".



٧١ – خريطة

وانقضت مائة عام قبل أن تؤتي هذه الآراء ثمارها.

ثم قتل إجزرسيس في قصره حوالي (٤٦٥ ق. م)، ومن بعدها لم تقم فارس بأية محاولة أخرى للغزو في أوربا. وليس لدينا من العلم بما كان يجري في إمبراطورية الملك العظيم من أحداث قدر ما لدينا عن أحداث الدول الصغيرة ببلاد الإغريق الوسطى، فقد شرعت بلاد الإغريق فجأة في إنتاج الأدب. وخلدت نفسها ف ي سجل التاريخ على شاكلة لم يأتها من قبل أي شعب حتى ذلك الزمان. ويبدو أنه بعد (٤٧٩ ق. م) (أي ع ام معركة بلاتايا) أخذت روح النشاط تفارق حكومة الميديين والفرس، ثم دخلت إمبراطورية الملك العظيم بعدها في فترة شيخوخة وانحلال، ويمر عبر المسرح أرتجزرسيس ثم إجزرسيس ثان ثم دارا جديد. وتحدث الف تن في مصر وسوريا، ويثور الميديون، ويقتتل على الملك أرتجزرسيس آخر وقورش آخر وهما شقيقان. ويكاد هذا التاريخ أن يماثل تاريخ بابل وآشور ومصر في قديم الأيام، فهو صورة الأوتوقراطية، وقد عادت سيرتها الطبيعية الأولى من جرائم القصور والأبهة الملوثة بالدماء والفسوق والأرجاس الأخلاقية. على أن هذا الكفاح بين الشقيقين أنتج درة إغريقية يتيمة، لأن هذا الملك المسمى قورش الثاني جمع جيشًا من مرتزقة الإغري ق دخل به مملكة بابل. وهناك لقي مصرعه في ساعة نصره على أخيه أرتجزرسيس الثاني، وعند ذلك أص بح عشرة الآلاف إغريقي فوضى ولا سيد لهم يستخدمهم، فتراجعوا إلى ساحل البحر ثانية (٤٠١ ق. م) وقد خلد هذا التراجع كتاب من أوائل ما سطر في صفة الحرب وسير أبطالها هو كتاب الصعود [1] الذي ألف قائ دهم زينوفون".

وتوالت جرائم القتل والثورات وحوادث القمع والتأديب، وتعاقبت المحالفات الخبيثة والخيانات الوض يعة. ومن أسف أن الأيام لم تتح لنا مؤرخًا عظيمًا كهيرودوت يسجل أحداثها. ذلكم هو نسيج التاريخ الفارس ي!!! وجاءت حقبة من الزمن ازدهر فيها ازدهارًا معتمًا ضعيفًا حكم ملك آخر هو أرتجزرسيس الثال ث الملط خ بالدماء. "ويقال إن أرتجزرسيس الثالث قد قتله باجواس وولى على العرش مكانه أرسيس أصغر أبناء المل ك لكي يقتله بدوره عندما أظهر شيئًا من الاستقلال في التصرف.

---

(1) الصعود (Anabaals) – وهي كلمة يونانية معناها التوغل والزحف من شاطئ البحر إلى هضبة آسيا الصغرى، والكت اب يمتاز بأسلوبه السهل البسيط. (المترجم).

على هذا النهج تسير الأمور. فأما أثينا فإنها بعد أن أخذت بأسباب التقدم حيناً من الزم ان عقيب صد د الفرس، ألم بها الطاعون الذي مات فيه بريكليس أعظم حكامها (٤٢٩ ق. م). ولكن تنهض في غم رة ه ذه الفوضى حقيقة جديرة بالتنويه: فإن عشرة الآلاف الذين قادهم زينوفون كانوا يتناثرون آن ذاك بين ظهراني المدن الإغريقية، مكررين على الأسماع ما لمسوه بأنفسهم من صد دق م ا أعلن ه أرس تاجوراس م ن أن الإمبراطورية الفارسية إنما هي فوضى شاملة يخالطها الغنى والثراء، وأن أمر غزوها من الس هولة بمك ان على ذوي العزم من الرجال.

الفصل الحادي والعشرون

الفكر والأدب والفن عند الإغريق

١- أثينا في عصر بريكليس.

٢- سقراط.

٣- أفلاطون والأكاديمية.

٤- أرسطاطاليس والليسيوم.

٥- الفلسفة تصبح غير دنيوية.

٦- نوع الفكر الإغريقي وتحديداته.

٧- أول أدب خائل عظيم.

٨- الفن الإغريقي.

١ – أثينا في عصر بريكليس

إن تاريخ الإغريق في الأربعين سنة التالية لمعركتي بلاتايا وميكالي إنما هو قصة سلم وهدوء نسبيين. نعم نشبت الحروب، ولكنها لم تكن حروبًا ضروسًا. وتهيأت لفريق من الموسرين في أثينا الفرص وأسباب الفراغ إبان فترة قصيرة من الزمان. فكان لهذه الفرص وهذا الفراغ أبعد النتائج أثرًا وأطولها عمرًا بسبب تفاعل الحوادث وتجمعها بعضها مع بعض والمسلك الذي سلكته فئة قليلة من الناس.



٧٣ — بركليس

وكان لوصولهم إلى طريقة للكتابة تستطيع أن تنقل الأصوات وتحمل دقائق لغة الكلام، أثر جعل نشوء الأدب أمرًا ممكنا، فنتج الكثير من الأدب الجميل الرائع، وازدهرت فنون التشكيل، وثبتت دعائم العلم الحديث التي سبق أن وضعها من قبل فلاسفة المدن الإغريقية الأيونية الأول. ثم انقضت فترة امتدت خمسين عامًا أو تزيد، انفجرت على أثرها العداوة التي ظلت نيرانها تسري تحت الرماد بين أثينا وإسبرطة، فأصبحت حربًا عبوسًا موهنة للقوى، امتصت آخر الأمر كل حيوية هذه الحركة الإنشائية الخلاقة.

وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز، وقد استمرت قرابة ثلاثين عامًا. واستنفدت كل قوى بلاد الإغريق. وقد سطع نجم أثينا في بادئ الأمر ثم تألق حظ إسبرطة. ثم قامت طيبة – وهي مدينة تقل المسافة بينها وبين أثينا عن خمسين ميلاً – تنافس إسبرطة وتبزها. وعادت أثينا مرة ثانية إلى الطليعة بوصفها رئيسة لاتحاد عقدته بين المدن. تلك قصة منافسات ليس لها من سبب معقول يبررها، وكادت حرية أن يتناساها الناس منذ أمد طويل، لولا أن الإغريق دونوها وصوروها في أدب رفيع.

وتبدو فارس طوال هذا الزمان ثم تختفي ثم تعود فتبدو من جديد حليفة لهذه العصبة أو لتلك. ثم يداخل بلاد الإغريق عند قرابة منتصف القرن الرابع ق. م شعور بوجود مؤثر جديد في شئونها، وهو فيليب ملك مقدونيا. فإن مقدونيا تنهض بالفعل في خلفية [1] بلاد الإغريق التي أعيا انقسامها من يداويه – نهضة الميديين والفرس من قبل خلف الإمبراطورية الكلدانية. ثم يأتي زمان يولي فيه العقل الإغريقي ظهره لمنازعاته (إن حق لنا استعمال هذا التعبير)، ويحدق ببصره شاخصًا إلى ذلك المقدوني وقد شمله منه فزع عام.

([1]) الخلفية (Back – ground) كلمة وضعها المجمع اللغوي لتدل على ما يظهر في مؤخرة أية صورة. (المترجم)

لا شك أن المنازعات الارتجالية الإجرامية تظل كذلك مهما قيل من أن ثوسيديدس (١) قام بقص القصة بحذافيرها على أسماعنا، ولن يزيدها إلا إمعاناً في الإجرام والارتجال – أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من تحطيم بدايات عظيمة لحضارات جديدة بسبب ما تمخضت عنه من شامل الفوضى. ولسنا بمستطيعين في هذه المعالم العامة أن نفسح المجال لتفاصيل هذه المنازعات الداخلية وهذه الحروب والهزائم التي كثيرًا ما أطاحت إلى عنان السماء بواحدة من المدن الإغريقية أولاً ثم بأخرى ثانيًا وهي تتأجج نارًا وتتسعر لهيبًا. ولو تأملنا بلاد الإغريق لما وجدناها تعادل بالقياس إلى كرة أرضية مصغرة قطرها قدمان (٢) إلا ذرة صغيرة لا تكاد العين تميزها لدقتها. كما أن كتابًا موجزًا في تاريخ الإنسانية لا بد أن يخفت فيه ضجيج هذا القرن المليء بالانقسامات الذي يمتد بين أيام سالاميس وبلاتايا وبين ظهور الملك فيليب، فيصبح وسوسة خفيضة لا تكاد تسمع لها نأمة، أو يُصبح مجرد هينمة عابرة على صفحة الفرصة السانحة التي مرت سريعًا بالشعوب والرجال على السواء.

على أن الشيء الذي لا تتناقص أهميته لأنه امتزج بثقافة الأمم اللاحقة كلها، ولأنه جزء من دعامتنا العقلية لا يمكن فصله عنها – ذلك الشيء هو الأدب الذي أنتجته بلاد الإغريق في أثناء فترات قصيرة من السلام ولمحات بارقة من الهدوء والطمأنينة التي أتاحتها تلك الأيام.

يقول الأستاذ جلبرت موراي:

"الواقع أن تاريخهم السياسي الخارجي كتاريخ كل الشعوب الأخرى مليء بالحروب والدبلوماسية وبالقساوة والخداع. وإنما العظيم حقاً هو التاريخ الداخلي، تاريخ الفكر والشعور والخلُق. كانت أمامهم بعض صعاب يناضلونها، وهي صعاب لا تكاد اليوم تعرض لنا. ولم تكن لديهم في الواقع أية خبرة ولا مرانة، بل كانوا يجربون كل شيء لأول مرة. وكانوا في غاية الضعف في مواردهم المادية، وكان ما يعتلج في نفوسهم من عواطف ورغبات ومخاوف وغضبات أشد جموحًا فيما يرجح مما لدينا. ومع ذلك فإنهم أنتجوا أثينا بريكليس وأفلاطون".

---

(١) ثوسيديدس سياسي وزعيم أثيني معارض لبريكليس؛ أعظم مؤرخي الإغريق كافة؛ ألف كتاب تاريخ حرب البيلبونيز. وهو سفر يمتاز بالدقة والتمحيص؛ كاتبه شاهد عيان مستقل محايد غير متحيز؛ وجيز النسج بارع السبك؛ يتصف أسلوبه بالتدفق والبساطة، رائع الخطاب. ولد ٤٦٠ ق.م. تقريبًا، وأصبح قائدًا بحريًا في حرب البيلبونيز ونفي ٢٠ عامًا وعاد وقتل ٣٩٥ ق.م. (المترجم).

(٢) يشير الكاتب بهذا إلى الصورة التي تصورها للكون في الجزء الأول من المعالم ص ١٧. (المترجم)

إن هذه الذرا العجيبة التي تسنمتها قوى العقل الإغريقي الخلاقة التي ظلت زمانًا طويلاً تتجمع والتي ظلت عشرين وثلاثة من القرون نبراسًا منيرًا من الماضي لذوي الألباب من الرجال يرشدهم ويبث فيهم الإلهام، قد ثارت حُميّاها بعد معركتي ماراتون وسالاميس، وجعلت من أثينا بلدًا حرًا لا يخشى شيئًا، وهيأت لها السيادة والسلطان في عالمها وإن لم يتح لها تفوقها العسكري والمادي ما يبرر تلك العظمة. كان ذلك عمل فئة قليلـ ـة جدًا من الرجال تعد على الأصابع. فإن بضع نفر من مواطنيها قضوا معظم جيلهم في ظـ ـروف كانـ ـت ولا تزال في جميع العصور تبعث الرجال على أن ينتجوا من الأعمال كل ما هو جميل وخير. كانوا فـ ـي أمنـ ـة وكانوا أحرارًا، وكانت بهم كبرياء وما كانوا يعرفون ذلك الإغراء الذي يصاحب كل ذي سلطان ظاهر غيـ ـر منازع، والذي يحملنا جميعًا على إيقاع الأذى بإخواننا. ولما أن ضاق صدر الحياة السياسية مرة ثانية فهوت إلى دركات الفساد والضياع التي يقتل فيها الأخ أخاه – كما تجلى ذلك في الحرب مع إسبرطة – كان هنـ ـاك لهيب متقد للنشاط الذهني بلغ من قوته واتساع رحابه وحسن تغذيته أن استمر على كل المحن العاصفة فـ ـي تلك الحرب، وإن جاوز حياة الإسكندر الأكبر الوجيزة الأمد، فدام بذلك فترة من الزمان مجموعها الكلي يربو على مائة سنة منذ بداية الحروب.

وإذ كان أهل أثينا قد ملأهم النصر حمية، وتشبعت نفوسهم بشعور الحرية التي ظفروا بها عـ ـن جـ ـدارة فإنهم لبثوا يرقون مراقي النبل والعزة ردحًا من الزمان. وعندما كانوا تحت قيـ ـادة الـ ـديماجوج [1] العظـ ـيم بريكليس كبير موظفي الجمعية العمومية الأثينية، وهو رجل دولة وسياسي خطير، يكاد يقارب جلادستون أو لنكولن في التاريخ العصري – هفت أنفسهم للقيام بواجب إعادة بناء مدينتهم وتوسيع تجارتهم. وانقضت فترة من الزمان تهيأ لهم أثناءها أن يتبعوا في سماحة زعيمًا كريم النفس مسماحًا. وحباهم القدر بذلك الزعيم فـ ـي شخص بريكليس. وكان يجمع بشكل نادر المثال بين المقدرة السياسية والإحساسات الحية نحو كل مـ ـا هـ ـو عميق ورفيع رائع، وظل قابضًا على ناصية الحكم ما يربو على الثلاثين عامًا. وقد أوتي قوة خارقة وحريـ ـة فكر تفوق ما ألفه الناس. فطبع زمانه بطابع تلك الصفات. وقد نوه وينكلر بأن وجه بريكليس وطابعه، ظـ ـلا حيناً من الدهر مطبوعين على الديمقراطية الأثينية. وكان بريكليس يعتمد على صداقة ربما كانت نبيلة سامية، عقدت أواصرها بينه وبين أسبازيا. وهي امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية، وكان لا يسـ ـتطيع الزواج منها بسبب القانون الذي يقصر حق المواطنية الأثينية على المولودين في أرضها، ولكنها كانت فـ ـي الواقع زوجة له. لعبت أسبازيا دورًا عظيمًا في أن تجمع من حوله رجالاً لهم مواهب غيـ ـر عاديـ ـة. فكـ ـان يعرفها كل عظماء الكتاب في زمانها. وأثنى الكثير منهم على حكمتها. حقًا إن بلوتارك يتهمها بإضرام حرب خطيرة مروعة ضد ساموس وإن انتهت بالنصر ولكن الأمر كما بينه هو نفسه فيما بعد، كان أمـ ـرًا تحتمـ ـه العداوة البحرية التي أظهرها أهل ساموس والتي كانت تهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار، وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها. وأطماع الرجال عرضة على الدوام أن تعكس صورة المعايير التي عليهـ ـا

([1]) الديماجوج ومعناها زعيم الأحرار وهي مشتقة من ديموس Demos بمعنى الشعب وأجوجوس Agogos بمعنى قائد ومرشد. وكانـ ـت في البداية تدل على الزعيم المسيطر على الجماهير ثم حرفت فيما بعد فغدت تعبر عن زعيم الفوضى والتهريج. (المترجم)

قرناؤهم وخلطاؤهم. فقد كان بريكليس قانعًا على كل حال، بأن يخدم أثينا زعيمًا عن أن يتسلط عليها طاغية. وبإرشاده وتدبيره عقدت المحالفات وتأسست مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود. ونقلت كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا. ولما كان بريكليس واثقًا من منعته وعصمته من خطر فارس، فإنه أنفق مدخرات الحلفاء لحرب فارس في تجميل مدينته. ولم يكن هذا تصرفًا قويمًا إذا قيس بمعايير عصرنا هذا. على أنه لم يكن تصرفًا وضيعًا أو قائمًا على الطمع، فإن أثينا تحملت بمفردها ما كان على حلف ديلوس من أعباء، أفليس العامل جديرًا بنيل أجره؟ فاستيلاؤه على هذا المال هيأ له فرصًا استثنائية لاستخدام مهندسي العمارة والفنانين. وما كان البارثينون (Parthenon) الأثيني الذي لا تزال على خرائبه مسحة الروعة والجمال. إلا الإكليل الذي توج مجد أثينا التي أعاد بناءها بريكليس. وإن أمثال تلك النحائت والتماثيل التي تركها فيدياس (Phidias) ومايرون (Myron) وبوليكليتوس (Polyclitus) والتي لا تزال موجودة، لتشهد بعظمة الفن في ذلك الزمن.

وعلى القارئ أن يتذكر تلك الملاحظة المشرقة التي أوضح بها وينكلر أن أثينا هذه المنبعثة بعثًا جديدًا ظلت حينًا من الدهر تحمل طابع وجه بريكليس. فإن عبقرية هذا الرجل الفذة والجو الزاكي المحيط به هما اللذان أطلقا نبوغ من حوله من الرجال من عقاله، واجتذب إلى أثينا رجالاً ذوي عقليات جبارة. وقد تلثمت أثينا بوجهه فترة من الزمان، كما يرتدي المرء أحد الأقنعة، ثم داخلها الضجر وأرادت التخلص منه. وما كانت نفس الأثيني العادي تنطوي على مثقال ذرة من العظمة والسماحة. ولقد عرضنا عليك من قبل نموذجًا لروح الأثيني الحر أثناء الاستفتاء في نفس أريستيديس نفيًا سياسيًا. ويصرح لويد في كتابه "عصر بريكليس" بأن الأثينيين لم يكونوا يطيقون سماع اسم ملتيادس مقرونًا بمعركة ماراتون. وسرعان ما دفع الاعتزاز الشديد بالكرامة عامة الناخبين إلى الثورة على تلك المباني الأنيقة التي ترتفع أمام أنظارهم إلى عنان السماء، وعلى ما كان يلقاه أمثال فيدياس من المثالين من حظوة وتكريم يفوقان ما يناله نظراؤهم في الصنعة المحبوبون من الشعب، وعلى المنح التي كانت تعطى لأجنبي محض مثل هيرودوت الهاليكارناسي، وعلى خدش بريكليس لكرامتهم بإيثاره لصحبة امرأة ميليطية وتفضيله حديثها. وكانت حياة بريكليس العامة منظمة تنظيمًا ملحوظًا أدى برجل الشارع أن يظن في حياته الخاصة الفساد الشديد والرشوة. على أن الدلائل كلها تنبئ أن بريكليس كان ممتازًا مترفعًا في سلوكه، وقد أظهر في بعض الأوقات احتقاره للمواطنين الذين كانوا يسهر على رعاية مصالحهم.

"ولم يوهب بركيليس فقط سموًا في العاطفة ورفعة وتنزيهًا لأسلوبه يرفعه تمامًا عن تعبير السوقة الوضيع، بل كان كذلك وقورًا عبوسًا لا يلين، ولا يجنح إلى ضحك أو تبسم، كما كانت نبرات صوته ثابتة متزنة، وسلوكه هينًا سهلاً، وكان ذوقه في الثياب سليمًا فلم يؤثر عنه قط أنه تخلى عن حسن هندامه لحدة في الحديث، فهذه الأشياء وغيرها مما يماثلها في طبيعتها، قد استثارت إعجاب كل من رآه، وعلى هذه الشاكلة كان خلقه وسلوكه عندما ظل أحد الأوغاد يلاحقه يومًا كاملاً بألوان التقريع والسباب. فتحمل الأذى بالصمت والصبر، واستمر يرسل الرسل أمام الملأ في بعض الشئون الماسة، ثم سار في المساء إلى منزله في هدوء يتبعه ذلك التعس الوقح، وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات السباب. ولما كان الظلام قد خيم عندما وصل

إلى باب داره، فإنه أمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلاً يضيء به للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله. ومع ذلك يقول الشاعر أيون (Ion)، إنه كان متكبرًا ومترفعًا في حديثه، ويخالط وقاره وعزة نفسه قدر عظيم من الغرور والاحتقار لمن سواه، فكان لا يبدو في الشوارع إلا ساعة ذهابه إلى الفوروم (سوق المدينة [1]) أو دار الشيوخ [2]. وكان يرفض دعوات أصدقائه، ويمتنع عن كل حفلات السمر والنزهات الاجتماعية إلى حد أنه إبان توليته السلطة – وهو أمد طويل – لم يذهب قط ليتعشى مع أي صديق من أصدقائه إلا مرة واحدة، وذلك يوم زواج ابن أخيه يوريبطليموس (Euryptolemus) ولم يلبث هناك إلا ريثما انتهى طقس صب النبيذ المقدس، وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جاه الوظيفة ووقارها، وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة...".

ولم يكن هناك حتى ذلك الحين أية صحافة وضيعة تظهر العالم على دنايا الخاصة المبرزين والعلية الموفقين وخستهم. على أن الرجل العامي كان لما يدخله من الغرور والاعتداد بالنفس، يجد قدرًا كبيرًا من السلوى في فن الملهاة (الكوميديا) التي ازدهرت أيما ازدهار. وأشبع كتاب الكوميديا تلهف العامة الشديد الذي يكاد يشملهم جميعًا على الحط من قدر أولئك الذين تجرح عظمتهم الظاهرة حب الناس لأنفسهم. لذا لم يكفوا البتة عن رمي بريكليس وأصدقائه بكل نقيصة دنسة. وحدث ذات يوم أن صور أحد المثالين بريكليس وعلى رأسه خوذة، فأصبحت إشارة إليه ورمزًا تهكميًا عليه، ولعله ألم بطرف من تلك القصة. وأثارت قصة الخوذة مرحًا ومزاحًا لا نهاية له عندما اقترح بعضهم الاستعاضة عن الرأس ببصلة مشوهة تشويهًا مخيفًا. وكانت "حركات أسبازيا وسكناتها" بالطبع كرمة مثمرة تنهشها تخرصات رجل الشارع.

ولطالما تمنت النفوس الحالمة حين تضيق ذرعًا بوضاعة زماننا هذا وانحطاطه لو نقلت إلى عصر بريكليس الرفيع. على أنهم لو قذفوا إلى أثينا المشتهاة تلك، لوجدوا أنفسهم في نفس الجو الوضيع الذي تتمرغ فيه الحياة في أدنى أنواع صالات الموسيقى العصرية، والذي يتجلى في الصحف الشعبية تجليًا كبيرًا، ولوجدوا أفحش لفحات السباب والقذف العلني الصاخب اللاذع، ولهبّت عليهم نفس التهم الدنسة والوطنية الشرهة والوضاعة العامة، ولظلت النغمة العصرية تتقفى آثارهم. حتى إذا اضمحلت ذكريات بلاتائا وسالاميس، وألفت عيون الناظرين المباني الجديدة، أخذ بريكليس وفخامة أثينا يثيران ثائرة الجمهور وتفكهه الوضيع شيئًا فشيئاَ. أجل لم يحدث قط أنه نفي من أثينا نفيًا سياسيًا، لأن مكانته لدى المواطنين الأكثر اتزانًا وقته غائلة ذلك. بيد أنه لبث عرضة لهجمات تتزايد على الأيام جرأة وإصرارًا. وقد عاش ومات رجلاً فقيرًا. ولعله أطهر وأنزه ديماجوج بين زعماء العامة. على أن هذا لم ينقذه من تهمة اختلاس الأموال فقدم من أجلها إلى محاكمة شوهاء عقيمة. فلما فشل أعداؤه في ذلك لجئوا إلى وسيلة أكثر ضلالة والتواء، فأخذوا يقصدون عنه أصدقاءه.

---

[1] الفوروم (Forum) هو سوق المدينة عند الرومان، أما عند اليونان فيسمى ذلك السوق باسم الأجورا (Agora). المترجم.

[2] هو مجلس المشورة (Bonlê) عند اليونان ويقابله تقريبًا السناتو عند الرومان. (المترجم).

والتعصب الديني والتهم الأخلاقية إنما هي الأسلحة الطبيعية لمن أكل الحسد قلوبهم غيظاً من زعماء الرجال. فنفى صديقه دامون نفيًا سياسيًا من المجتمع الأثيني. وهوجم فيدياس بتهمة عدم التقوى. فإن فيدياس اجترأ أن يضع على درع التمثال العظيم للربة أثينا صورًا له ولبريكليس أضافها إلى صورة تمثل المتحاربين في قتال بين الإغريق والأمازون. وكانت عاقبة ذلك أن مات فيدياس في السجن. وهذا أناكساجوراس ذلك الأجنبي الذي رحب بريكليس بمقدمه إلى أثينا – يوم كان فيها عدد وفير من نزهاء الرجال فأقام فيها وهو على أتم الاستعداد لإشباع كل ما يخالج محبي الاستطلاع من رغبات كريمة – كان يقول أعجب الأشياء عن الشمس والنجوم ويلمح تلميحًا لإخفاء فيه أنه لا وجود للآلهة، وإنما توجد في العالم روح تبعث الحياة هي نوس [1]. عند ذلك تبين كتاب الكوميديا على حين فجأة أن لهم مشاعر دينية عميقة، يمكن أن تنزعج انزعاجًا شديدًا، بل تنزعج بشكل خطر!!، ومن ثم فر أناكساجوراس مما كان يحاك من تدبير لمحاكمته. ثم جاء دور أسبازيا وتجلى في أثينا التصميم على طردها من المدينة. وكان بريكليس موزعًا بين المرأة التي يهواها فؤاده وبين المدينة الناكرة للجميل والتي أنقذها ودافع عنها وجعلها أجمل شكلاً وأخلد ذكرًا من أية مدينة أخرى في التاريخ. فوقف يدافع عن أسبازيا حتى غلبته عاصفة من العواصف الإنسانية الحقة. فانهلّت الدموع من عينيه وهو يتكلم، وأنقذت عبراته أسبازيا إلى حين.

وقنع الأثينيون بما لحق بريكليس من إذلال، بيد أنه كان قد أسدى إليهم من الخدمات ما طال به الأمد حتى لم يعد في إمكانهم الاستغناء عنه. إذ مضى عليه وهو في مقام زعامتهم ثلث قرن.

وفي (٤٣١ ق. م) نشبت الحرب ضد إسبرطة. ويتهم بلوتارك بريكليس بأنه عمل على إشعالها، إذ إنه شعر أن حب الجمهور له قد ذوى بسرعة فأشبّ الحرب ليتمسك به الناس. قال:

"ولما كان هو نفسه قد أصبح لديهم بغيضًا بسبب ما كان من فيدياس وكان يخشى أن يستدعي ليستجوب – فإنه عجل بالحرب وكانت حتى ذلك الوقت أمرًا غير محقق. فنفخ بذلك في اللهيب الساكن تحت الرماد، وكان يأمل أن يزيل عن نفسه بهذه الوسيلة التهم التي كانت تهدده، وأن يخفف من ثورة الحاقدين عليه، ذلك أنه بلغ من مهابته وسلطانه، أنه كلّما اعترى الجمهورية خطب عظيم، أو تعرضت لخطر فادح كانت تودع كل ثقتها فيه دون سواه".

على أن الحرب كانت حربًا بطيئة مخطرة حتى عيل صبر الشعب الأثيني. ونهض رجل طموح يدعى كليون (Cleon) يريد أن ينحي بريكليس عن زعامته. وقامت في المدينة ضجة تدعو إلى إنهاء الحرب عاجلاً. وبذل كليون جهدًا لينسب إلى نفسه أنه صاحب الفضل في كسب الحرب". وأخذ الشعراء المحببون إلى الشعب يلعبون على هذه النغمة وينشدون:

---

[1] نوس (nous)، هي كلمة يونانية معناها العقل أو المواهب. (المترجم).



٧٣ – تمثال الربة أثينا فى البارثنون

"وأنت يا ملك الساتير [١]... لماذا تفاخر بشجاعتك؟

ومع ذلك فأنت ترجف فرقًا لدى سماعك صليل السيوف المشحوذة، أعن غلٍّ ذلك منك على كليون المتوقد؟".

وفشلت إحدى الحملات تحت قيادة بريكليس، فانتهز كليون الفرصة وطالب بمحاكمته وأوقف بـ ريكليس عـ ن مباشرة عمله في القيادة وحكم عليه بالغرامة. وتقول القصة بعد ذلك بأن أكبر أبنائه – ولم يكن هذا ابن أسـ بازيا، بل من زوجة سابقة – تنكر له وأخذ يكيل له اتهامات دنيئة لا يصدقها العقل. ثم قضى الطاعون على هذا الفتى، ثم ماتت شقيقة بريكليس ثم آخر أبنائه الشرعيين، وبينما هو يضع – على عادة ذلك الزمان – أكاليل الجنازة على جثمان ذلك الغلام أعول بالبكاء وسرعان ما انتقلت العدوى إليه هو نفسه فمات (٤٢٩ ق. م.).

(١) الساتير (Satyr): طبقة من الكائنات الـ طارية (الميثولوجية) الإغريقية، التي ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس وتمثـ ل هـ ذه الطبقة قوى الطبيعة الحيوية الوافرة. وتبدو الساتير بشعر خشن وأنف مستدير وأذن مدببة كآذان الحيوان وقرنين صغيرين وذنب وساقين كساقي الماعز. وهي تمثل دائمًا وبيدها الكأس (إيماء إلى حبها للنبيذ والملذات الحسية) أو راقصـ ـة رقصًـ ا تهتكيًا أو ممسكة بإحدى الآلات الموسيقية، وكان الناس يخشون شرها. (المترجم).

والحقائق البارزة في هذه الخلاصة الوجيزة تساعدنا على تبيان مبلغ تنافر بريكليس وعدم انسجامه مع الشيء الكثير من حياة مدينته. على أن النهضة الذهنية والفنية التي غمرت أثينا كانت تساعدها ولا شك الظروف السائدة في ذلك الزمان. وهي لم تكن حركة عامة ولكنها ترجع كذلك في بعض نواحيها إلى ظهور بعض الشخصيات الفذة ممن أتيحت لهم فرص استثنائية وأوتوا مواهب فريدة.

٢- سق راط

ومن الشخصيات القيادية الأخرى البارزة في أثينا في هذه النهضة الأثينية رجل اس مه س قراط، وه و شخص أشد من بريكليس عدم انسجام مع حياة عصره كما أنه يعدله في كونه مصد دراً اش تهر بالأصد الة والابتكار، وكان عاملاً منبهًا له أثره في عظمة عصره الخالدة. وهو ابن أحد البنائين، ولد بعد د هير رودوت بنحو ستة عشر عامًا، وكان صيته آخذاً في الذيوع قرب الوقت الذي مات فيه بريكليس. وهو نفسه لم يكت ب شيئاً. على أن عادته جرت أن يتكلم في الأماكن العامة. وكان يدور في تلك الأيام بحث عظيم ع ن الحكم ة وكان بالبلاد جمهور مخلّط من المعلمين يسمى السفسطائيين، كانوا يفكرون في الصد دق والجم ال والحي اة الصائبة، ويلقنون العلم عقول الشباب المستطلعة وأخيلتهم النامية. وكان هؤلاء يضطلعون بذلك العمل حيث لم تكن بالبلاد مدارس عظيمة الشأن يقوم عليها الكهنة. وإلى حلبة هذه المناقشات دخل هذا الرجل بسماجته وقبح منظره وتثاقله وحفاء قدميه فالتف من حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ.

وكانت طريقته طريقة التشكك العميق. وكان يرى أن الفضيلة الوحيدة الممكنة إنما هي المعرفة الحقة. فهو لا يسمح بأي معتقد. ولا يجيز أي أمل لا يستطيع أن يصمد للامتحان النهائي المرير. وكان معنى ذلك ف ي نظره هو الفضيلة، على أن ذلك كان معناه في عين الكثيرين من أتباعه الضعاف النفوس ضياع المعتق دات والعادات الأخلاقية التي كانت تحد من نزعاتهم ودوافعهم الجامحة. وقد أصبح هؤلاء الضعاف النفوس أنذالاً يتلمسون لأخطائهم المعاذير وينغمسون في الملذات. وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون، الذي خل د بع د ذلك طريقة أستاذه في سلسلة من المحاورات الفلسفية وأسس المدرسة الفلسفية "الأكاديمية"، الت ي اس تدامت تسعمائة سنة. وكان أحدهم زينوفون قائد العشرة آلاف الذي دبج وصفاً لموته سقراط. وم ن بي نهم ك ذلك إيزوقراط (Isocrates) وهو من أحصف المفكرين السياسيين عند الإغريق وأرجحهم عقلاً. ولكن كان منهم كذلك كريتياس (Critias) الذي أصبح عندما هزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائي ة – زعيمً ا عل ى الطغ اة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليمرّغوا المدينة المقهورة في حمأة الحضيض الأدنى من المذلة ولي دمروا نظامها التعليمي. ومنهم خارميديس (Charmides) الذي قتل إلى جانب كريتياس عندما خُلع الثلاثون وغلبوا على أمرهم، وألسيبياديس، وهو خائن عريق في الخيانة وقاد الذهن خبيث الطوية قام بدور كبير في دفع أثينا إلى القيام بالحملة على سيراقوزة، تلك الحملة الخاسرة التي انتهت بتحطيم قواها، فخانها عند ذلك وانضم إلى الإسبرطيين. ثم اغتيل آخر الأمر وهو في طريقه إلى البلاط الفارسي حيث كان يبغي أن يدبر الش ر ل بلاد الإغريق. ولم يكن هؤلاء التلاميذ الأخيرون هم الشبان الوحيدين الذين لاح عليهم م ن ال دلائل م ا يبش ر بمستقبل حسن، والذين قضى سقراط على عقيدتهم السوقية ووطنيتهم وترك مكانها شاغراً في نفوسهم. وكان ألد خصومة أنيتوس وهو شخص أصبح ابنه وهو تلميذ مخلص لسقراط، سكيرًا مدمناً لا يرج ى ص لاحه، فسعى أنيتوس جاهدًا حتى قدم سقراط آخر الأمر إلى المحاكمة بتهمة إفساد شباب أثينا، وقضى عليه بالإعدام بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكران (٣٩٩ ق. م).



وفي محاورة أفلاطون المسماة باسم فيدون (Phaedo) وصف لوفاته بالغ درجـة عاليـة مـن الروعـة والجمال.

٣- أفلاطون والأكاديمية

ولد أفلاطون في (٤٢٧ ق. م) وعَمَّر ثمانين عامًا.

وكان يخالف سقراط تمامًا من حيث المزاج الفكري. فقد كان كاتبًا أشد الكتاب رقة وجم ال ذوق، عل ى حين لم يكن سقراط ليستطيع أن يكتب شيئًا متصل الحلقات. وكان يعنى بالجميل من الأشياء على حين ك ان سقراط يزدري الجمال.. وكان يعنى عناية فائقة بتنظيم الشئون العامة، وبتدبير الخطط لإقامة علاقات جديدة بين الناس تفضل ما في العالم، على حين كان سقراط يركز ذهنه وهو ساكن النفس في إماطة حجب الخ داع والأوهام عن العقول غير آبه بحر أو قر ولا برأي من يحيط به من الناس. كان سقراط يق ول ب أن الحي اة خداع، وأن الروح وحدها هي التي تعيش. وكان أفلاطون شديد التعلق بهذا المعلم الهرم الجاف الطبع. وق د وجد طريقته ذات قيمة قصوى في تنقية الآراء وتخليصها من التعقيد، فجعله الش خص ال ذي ت دور علي ه محاوراته الخالدة. على أن أفكاره ونزعاته الخاصة نأت به كثيرًا عن الاتجاهات المتشككة التي عليها سقراط. ومن ثم يكون الصوت والاسم لسقراط ولكن الفكر هو فكر أفلاطون.

كان أفلاطون يعيش في زمان شك وتساؤل يدوران حول كل ما بين الناس م ن علاق ات. والظ اهر أن الناس في أثينا في أيام بريكليس العظيمة قبل (٤٥٠ ق. م) كان يخامرهم شعور الرضا الت ام ع ن ال نظم الاجتماعية والسياسية ولم يكن يبدو أي سبب للتشكك حين ذاك. إذ كان الرجال يشعرون بأنهم أحرار. وك ان المجتمع في رخاء. وكان الحسد أهم ما يشكو منه الناس. ولا يكاد تاريخ هيرودوت ينم عن شيء م ن ع دم الرضا عن النظم السياسية الأثينية.



٧٥ — أفلاطون

ولكن أفلاطون الذي ولد قرابة الزمان الذي مات فيه هيرودوت، والذي ترعرع في جو عسير تكاثرت فيه المحن ما بين حرب طاحنة وملمات اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة، واجه منذ نعومة أظفاره ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس. وكان أن استجاب عقله لذلك التحدي. ومن ثم نجد في أول مؤلفاته وآخرها مناقشات جريئة نفاذة تستهدف إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية. وكان سقراط علّمه ألا يقبل شيئًا مسلمًا به، حتى ولا العلاقات المشتركة: علاقات الزوج والزوجة والوالد والولد. وكتابه "الجمهورية" وهو أول الكتب التي تبحث في اليوتوبيا [١] إنما هو بحث في المدينة التي يحلم بها خيال الشباب، وفيها تنظم الحياة الإنسانية على أساس خطة جديدة تفضل ما سلفها. ومؤلفه الأخير الذي لم يتمه وعنوانه "القوانين"، هو مناقشة تستهدف وضع قواعد يوتوبية أخرى شبيهة بتلك. وإن هناك لقدرًا كبيرًا من آراء أفلاطون لا نستطيع هنا أن نلقي إليه حتى مجرد نظرة عابرة، غير أنه – لا جرم – يمثل ركنًا من الأركان الأساسية في تاريخنا هذا، ذلك أن ظهور فكرة في عادة تشكيل ظروف مجتمعنا البشري وصياغتها صياغة كاملة تتجلى فيها الإرادة والقصد، كان شيئًا جديدًا في تطور الإنسانية. فكان البشر حتى ذلك الحين يعيشون بالتقاليد المتوارثة في خشية من الآلهة. وها نحن الآن حيال رجل يقول للناس في جرأة، وكأنما قوله هذا أمر طبيعي معقول: "تناولوا حياتكم بالبحث فإنكم تستطيعون أن تجتنبوا معظم تلك الأشياء التي تؤلمكم وإنكم لتستطيعون أن تلقوا عن كواهلكم نير معظم الأشياء التي تتسلط عليكم، بل وإنكم لتستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون".

وهناك شيء آخر ربما كان له – بالإضافة إلى منازعات ذلك العصر – الفضل في استثارة عقل أفلاطون في ذلك الاتجاه. فإن أثينا كانت أسست في أيام بريكليس مستقرات كثيرة وراء البحار؛ وكانت إقامة هذه المستقرات مما قرب إلى أذهان الناس كافة الفكرة القائلة بأنه لا حاجة بالمجتمع إلى النمو، بل إن في الإمكان خلقه وصنعه بأيدنا.

وكان بين خلطاء أفلاطون المقربين فتى أحدث منه سنًا. أدار فيما بعد مدرسة في أثينا؛ وعاش عمرًا يكاد يربي على عمره. هذا الفتى هو إيزوقراطيس (إيزوقراط). وفي استطاعتنا أن نعد إيزوقراطيس هذا صحفيًا وأن نعتبره كاتبًا أكثر منه خطيبًا. وقد اختص بمناصرة فكرة هيرودوت التي تنادي بتوحيد بلاد الإغريق ضد الإمبراطورية الفارسية واتخاذ ذلك علاجًا لما تفشى في شئونها السياسية من اتضاع وفوضى، ولما منيت به من الخسارة من جراء الحروب الطاحنة. وكان أفقه السياسي أرحب من بعض النواحي من أفق أفلاطون. وكان يتطلع في سنيه الأخيرة إلى الملكية، وعلى الأخص ملكية فيليب المقدوني، بوصفها وسيلة لحكومة أكثر توحيدًا للشعب أو أكثر اتساعًا من ديمقراطيات المدن. وكذلك اتجهت نفس زينوفون صاحب كتاب "الصعود" إلى التفكير في الملكية. وكتب زينوفون وقد علت به السن قصة "الكيروبيديا Cyropeadia " [٢] وهو دفاع وتزكية نظرية وعملية تدعمها البراهين للملكية المطلقة التي تتجلى في تنظيم الإمبراطورية الفارسية".

---

(١) اليوتوبيا (utopia) أو الطوبى: كتاب يدعو إلى المدينة المثالية الفاضلة. (المترجم).

(٢) "الكيروبيديا" كتاب من تصنيف زينوفون كتبه على شكل قصة سياسية اعتمد فيها على تاريخ ملك الفرس قورش. (المترجم).

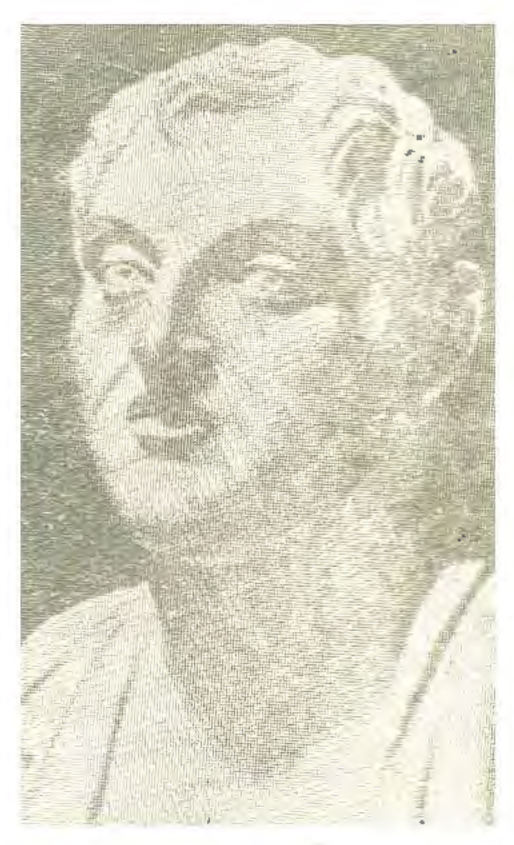
٤- أرسطاطاليس والليسيوم

كان أفلاطون يعلم الناس في الأكاديمية وقد وفد عليه وهو في سن عالية فتى وسيم الطلعة قدم من استاجيرا في مقدونيا، هو أرسطاطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا، وهو رجل له عقلية صيغت من معدن مختلف جدًا عن عقلية ذلك الأثيني العظيم أفلاطون. وكان بطبعه ذا شكوك في الإرادة التخيلية. وكان يكن عظيم الاحترام والفهم للحقائق الثابتة. وقد أنشأ بعد وفاة أفلاطون مدرسة في الليسيوم [1] بأثينا، وأخذ يعلم الناس منتقدًا أفلاطون وسقراط في شيء من العنف. وبينما هو يلقي تعاليمه كان شبح الإسكندر الأكبر يلقي ظلاله مخيما على حرية بلاد الإغريق. وكان يحبذ وجود الرق ونظام الملوك الدستوريين. ذلك أنه اشتغل حيناً من الدهر قبل ذلك مربيًا للإسكندر في بلاط فيليب المقدوني.

وكان الجزع قد استولى على النابهين من الرجال في تلك الأيام، إذ إن إيمانهم بقدرة الناس على صوغ ظروفهم الخاصة في الحياة أخذ يتناقص ويفتر. فلم تعد تظهر بين ظهرانيهم أية يوتوبيا. وتبين لهم بجلاء أن اندفاع الحوادث وتتابعها كان من القوة بحيث لا تستطيع أن تصده تلك الجهود المنظمة التي كان في الوسع أن ينفقها حينذاك ذوو الذكاء الممتاز من الرجال. فقد كان من المستطاع التفكير في إعادة صوغ الجماعة البشرية حين كانت الجماعة البشرية مدينة صغيرة تضم بضع آلاف من المواطنين. على أن ما كان يحدث من حولهم من أحداث كان طوفاناً عظيمًا لا سبيل إلى دفعه، هدفه صوغ شئون العالم المعروف كله في قالب سياسي ومعها شئون جمهور من الناس لا بد أن عدده بلغ حتى في تلك الأيام حدًا يتراوح بين الخمسين والمائة مليون. وكانت عملية إعادة الصوغ هذه على مقياس لم يكن أي عقل إنساني مهيئًا بعد لإدراكه. فكانت من ثم تدفع الفكر أدراجه إلى فكرة "القضاء والقدر الهائل المحتوم. وصار الناس يحاولون التشبث بكل ما يخالونه عامل ترابط واستقرار. فقد كانت الملكية مثلاً رغم ما يشوبها من رذائل ظاهرة – نظامًا للحكم في وسع الملايين قبوله عقلاً. وكثيرًا ما وضعت من قبل موضع التنفيذ والاختبار إلى مدى معين. كانت تفرض إرادة حاكمة، حيث تتجلى استحالة وجود الإرادة الحشدية (الجماعية). فهذا التغيير الذي لحق مزاج الناس الفكري عامة، كان يتسق مع احترام أرسطو الطبيعي للحقائق القائمة. فلئن جعله من ناحية يستصوب الملكية والرق وإخضاع النساء بوصفها كلها نظمًا معقولة، فإنه جعله من الناحية الأخرى تواقاً إلى فهم الحقيقة والحصول على طرف من المعرفة المنظمة عن هذه الحقائق، حقائق الطبيعة والفطرة البشرية التي كانت آنذاك في حالة انتصار بيّن على ما ساور الحيل من أحلام خلاقة.

---

(1) أو اللوقيون: كما وردت في الموسوعة العربية الميسرة. (المترجم)



٧٦ - آرسطاطيس

وأرسطو سليم العقل ناصع الذهن واضح إلى حد رهيب. وتعوزه الحماسة المضحية بالنفس إعوازا رهيبًا. فهو يناقش أفلاطون منكرًا عليه دأبه على استبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة اليوتوبيا، ذلك أن الشعر ق وة. وهو يوجه كل قوته في اتجاه يضاد على خط مستقيم تحقير سقراط لشخص أناكساجوراس. وكأني به توقعًا ا يمهد السبيل لباكون (Bicon) والحركة العلمية العصرية ويبشر بهما في إدراكه لأهمية المعرف ة المنظم ة. ذلك أنه نصب نفسه للقيام بواجب جمع المعرفة وتدوينها، فكان أول عالم بالتاريخ الطبيعي. أجل إن رج الًا آخرين من قبله طالما أمعنوا النظر في طبيعة الأشياء. على أنه هو وكل شاب استطاع ضـ مه إليـ ه أخـ ذوا أنفسهم بتصنيف الأشياء ومقارنتها.

أجل إن أفلاطون يقول "فلنتناول الحياة ولنصغها في قالب جديد". أما خليفته هذا الأثيث جنانًا فيقول "علينا قبل كل شيء أن نزيد في معرفتنا بالحياة وعلينا في الوقت نفسه أن نخدم الملك وننتفع به". ولم يكن في ذلك القول مناقضة منه لأستاذه قدر ما كان تحديدًا شديدًا لآرائه.

تمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لعمله لم تتهيأ بعد ذلك لباحث علمي مدى عصور طويلة. إذ كان تحت تصرفه مئات من التالنتات الذهبية (والتالنت يقارب في القيمة ٢٤٠ جنيهًا) – يستطيع أن ينفقها في أغراضه الخاصة. وجاء زمان كان تحت تصرفه ألف رجل متناثرين في أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعي. وبدهي أنهم كانوا مشاهدين تعوزهم الدربة تمامًا، بل كانوا جامعي أقاصيص أكثر منهم مشاهدين، ولكن أحدًا لم يحاول قبله على مدى الدهر شيئًا من هذا القبيل، بل لم يفكر فيه قبل زمانه أحد قط، على قدر ما وصل إليه علمنا. وابتدأ علم السياسة كما ابتدأ علم التاريخ الطبيعي. فإن طلاب الليسيوم قاموا تحت إشرافه بتحليل مائة وثمانين وخمسين دستورًا سياسيًا.

وكان هذا أول بارقة للبحث العلمي المنظم في العالم. ولكن تلك الهبات ذات النطاق الضخم قضت عليها لمدة ألفين من السنين وفاة الإسكندر المبكرة وتقسيم إمبراطوريته وهي بعد في المهد. ولم يتواصل البحث العلمي إلا في مصر بمتحف الإسكندرية [١]، ولم يستمر هذا إلا بضع أجيال قليلة وسنحدثك عن ذلك من فورنا. ولم تمض على وفاة أرسطو خمسون سنة حتى تضاءلت الليسيوم وأصبحت غير ذات شأن.

(١) ذلك المتحف هو الأكاديمية المشهورة. (المترجم)

٥- الفلسفة تصبح غير دنيوية

لم يكن الاتجاه العام للحركة الفكرية في السنين التي ختم بها القرن الرابع ق. م يساير أرسطو، ولا ك ان يهدف إلى التجميع الضروري المتواصل للمعرفة المنظمة. وربما لم يتهيأ لأرسطو أن يك ون لنفس ه غي ر شخصية ضئيلة في التاريخ الفكري لولا تلك الهبات التي كان يتلقاها من الملك. فإنه استطاع بفضلها أن يبرز ذكاءه الباهر في صورة مادية ويجعل له أثرًا محسوسًا. فالرجل العادي يفضل الطرق الس هلة م ا دام ف ي استطاعته سلوكها، وهو لا يكاد يأبه متعمدًا بما تنتهي به تلك الطرق آخر الأمر حتى ولو أدت به إلى طريق مغلق. ولما أن وجد عامة معلمي الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يس تطيعوا ض بطه عل ى الف ور، انصرفوا في تلك الأيام عن إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة، وتحوّلوا إلى إتقان أساليب التهرب الجميلة التي تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس.

وربما كان في هذا القول ضرب من وضع الأشياء في صورة خشنة فيها شيء من التجني. والأول ى أن نترك المجال للأستاذ جلبرت موراي ليحدثنا عن هذا الموضوع.

"لم يكن الكلبيون يعنون إلا بالفضيلة وعلاقة الروح بالرب. وكان العالم وعلومه، ومراتب الشرف فيه في نظرهم خبثًا. وكان الرواقيون والأبيقوريون، وإن تباعدت الشقة بينهما لأول نظرة، متشابهين جد التشابه في غايتهم القصوى، وكان ما يعنيان به حقًا هو علم الأخلاق. وكان سؤالهما العملي: كيف يجب أن ينظم الإنسان حياته؟ وكلاهما، لا جرم، قد انصرف إلى بعض العلوم – فاتجه الأبيقوريون إلى الفوزيقي أو علم الطبيع ة، واتجه الرواقيون إلى المنطق وعلم البيان والبلاغة – ولكن بوصفها وسيلة توص ل إل ى غاي ة. وح اول الرواقيون أن يفوزوا بقلوب الناس واقتناعهم بمحض اللباقة في الجدل المجرد والتس امي الب راق المت ألق بالفكرة والعبارة. ووطد الأبيقوريون العزم على أن يتركوا الإنسانية تشق طريقها دون الزلفى لآله ة متقلب ة الأهواء ودون التضحية بالإرادة الحرة. ويلخص أبيقور إنجيله في مبادئ أربعة: " لا يجوز الخوف م ن الله. لا يمكن الشعور بالموت. يمكن الفوز بالخير. يمكن احتمال كل ما نخشاه والتغلب عليه".

وفي نفس الوقت كان تيار الحوادث ينساب في مجراه مبادلاً الفلسفة عدم اهتمام بعدم اهتمام.

٦- نوع الفكر الإغريقي وتحديداته

إذا أريد للدراسات الإغريقية القديمة أن تقرأ في العصر الحديث قراءة مجدية، وجب أن تقرأ بوصفها من تصنيف رجال يماثلوننا. وينبغي لنا أن نضع موضع الاعتبار تقاليدهم والفرص التي هيئت لهم والقيود التي حدّت من جهودهم. ذلك أن الفطرة الإنسانية تنزع دومًا إلى المبالغة في كل شعور بالإعجاب. ومعظم النصوص القديمة لدينا مهرّأة مشوهة إلى حد كبير، وكلها في الأصل من عمل مخلوقات إنسانية اكتنفتها المصاعب وكانت تعيش في زمان يحوطها فيه من ظلمات الأفق وضيق حدوده ما يجعل زماننا بالقياس إليه زمنًا وضاء يكاد سنا ضيائه يخطف الأبصار. فكل ما سنفقده من احترامنا لهم فيما ستشهد وشيكًا من معالجة خالية من الكلفة، سنعوضه بالعطف على تلك المجموعة من العقول المضطربة القلقة العصرية الروح. ذلك أن الكتاب الأثينيين كانوا – لا جرم – أول الرجال العصريين. فكانوا يتناقشون في مسائل لا نزال نتناقش فيها، وهم الذين شرعوا يجاهدون في معالجة المشاكل الكبرى التي تواجهنا اليوم، وما كتاباتهم إلا مطلع فجر نهارنا.

ويجيد يونج (Jung) في كتابه "علم نفس اللاشعور Psycl dology of the Unconscious خير إجادة، حين يتكلم عن الفروق بين الفكر القديم (قبل الأثيني) والفكر الحديث. وهو يسمي الأول باسم "التفكير غير الموجه" ويسمى الثاني باسم "التفكير الموجه" وكان الأول تفكيرًا بالأخيلة شبيهًا بالأحلام، بينما الآخر تفكير بالكلمات. وما العلم إلا تنظيم للتفكير الموجه. فأما الروح العتيقة (أعني قبل المفكرين الإغريق) فقد خلّفت الأساطير والرطازات (الميثولوجيا) لا العلم. وكان عالم الإنسان القديم عالم خيالات ذاتية (subjective) يشبه عالم الأطفال والشبان غير المتعلمين في أيامنا هذه، كما يشبه عالم المتوحشين ودنيا الأحلام. وأفكار الطفولة وأحلامها إنما هي ترديد لصدى طرق التفكير عند المتوحشين في عصر ما قبل التاريخ. ثم يقول يونج: "إن الرطازات هي كتلة الأحلام المتجمعة عند الشعوب، وإن الأحلام هي رطازات الأفراد. ولقد وجهنا نظر القارئ من قبل إلى التشابه بين آلهة الحضارة الأولى وبين أوهام الأطفال وخيالاتهم الغريبة. وغني عن البيان أن التفكير الشديد المنظم بواسطة الكلمات والجمل المحللة تحليل عناية، ذلك التفكير الذي بدأه المفكرون الإغريق، واستأنف العمل فيه الفلاسفة الذين اشتغلوا بالدرس والتحصيل في القرون الوسطى – كان تمهيدًا ضروريًا لتطور العلم الحديث".

بدأ الفلاسفة الإغريق البحث بيد أنهم لم يصلوا إلى أية حلول. ولسنا بمستطيعين أن ندعي اليوم أننا وصلنا إلى حلول لمعظم المسائل التي أثاروها. فإن عقل العبرانيين كما أوضحنا آنفًا، تنبه فجأة إلى التعاسات والاضطرابات اللانهائية التي تنغمس فيها الحياة، ورأى أن تلك التعاسات والاضطرابات كانت في معظم أمرها نتيجة للأعمال غير المشروعة التي يأتيها البشر، فاستنتجوا أن الخلاص لا يمكن أن يجيء عن غير طريق إخضاعنا أنفسنا لخدمة الرب الأحد الذي يحكم السماوات والأرض. فأما الإغريق فإنه وقد ارتفع إلى نفس المستوى الفكري ووصل إلى نفس ذلك الإدراك – لم يكن مزودًا بنفس فكرة الألوهية الأبوية، لأنه كان يعيش في عالم لم يكن فيه إله واحد بل كانت فيه آلهة. فإن حدث أن أحس أن الآلهة أنفسهم كانوا محدودين، فإنه فكر عند ذلك في القضاء والقدر يقف من ورائهم جامدًا لا يميز بين شخص وآخر. ومن ثم فإنه وضع مشكلته في صورة بحث عن ماهية العيش الصائب، دون أي ارتباط محدود بين الرجل الذي يعيش عيشة صائبة وبين إرادة الإله.

وعندي وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية تاريخية بحتة، أن في الإمكان عرض هذه المشكلة العامة على صورة مزدوجة – خدمة للأغراض التاريخية – تكون شاملة للطريقتين اللتين صاغها فيهما كل من العبرانيين والإغريق على السواء. فلقد رأينا جنسنا البشري ينهض من حالة عدم الوعي التي عليها الحيوانات إلى حالة مستمرة من شعور بشرى بالإحساس بالذات، ويدرك التعاسة التي تعود على البشرية بسبب تعدد أغراضها الأهوج، ويعرف ما لا بد من حدوثه من مأساة انصراف الفرد إلى الجري وراء نفسه ومصالحه، وهو يتحسس طريقه في عماية نحو فكرة ما يرتبط بها الناس ولها يخضعون: فكرة يأمل أن تنقذه من الآلام والحوادث المترتبة على الفردية المحضة. فمن هذه الفكرات التي ادعت لنفسها الحق في ولاء الناس لها وظفرت به إلى حين فكرة الآلهة والملك الرب وفكرة القبيلة وفكرة دولة المدينة، وهي فكرات فقدوا من جرائها أنانيتهم الفردية شيئًا ما، ولكنهم أفلتوا بفضلها وفروا إلى إدراك حياة أكثر استدامة واستقرارًا. ومع ذلك فكما تشهد حروبنا وكوارثنا بأجلى بيان، ما من واحدة من تلك الفكرات العظيمة بلغت حتى اليوم حد العظم الذي يكفل للناس الوقاية. فإن الآلهة فشلت في حمايتها لهم، وأثبتت القبيلة على نفسها الدناءة والقساوة، ونفت دولة المدينة خير أبنائها وأخلص أصدقائها نفيًا سياسيًا، وجعل الملك الرب من نفسه وحشًا.

ونحن إذ نقرأ الأدب [1] التأملي (أعني الفلسفة) في هذا العصر العظيم للإغريق، نلمس ثلاثة حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقي، ولم يكد ينجو منها إلا في النادر، وإن كنا الآن فيما يحتمل موشكين على الخلاص منها.

فأول هذه القيود هو تشبع العقل الإغريقي بفكرة أن المدينة هي الغاية القصوى للدولة. ففي عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية، وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها، وفي عالم كان الناس والفكرات يزدادون تحررًا وتفكك عرى وحرية سراح يومًا بعد يوم، وفي عالم نزعة التوحيد فيه ظاهرة للعيان حتى في ذلك الزمان السحيق، كان الإغريق بسبب ما يكتنفهم من ظروف جغرافية وسياسية خاصة لا يزالون يحلمون بذلك الحلم المستحيل الذي يأمل في وجود "دولة مدينة" متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية، وهي آمنة في شجاعة من العالم أجمع. وتقدير أفلاطون لعدد المواطنين الأحرار في الدولة المثلى قد تراوح بين ألف في كتابه "الجمهورية" وبين ٥٠٤٠ في كتاب "القوانين". ويقول أرسطو في كتابه "السياسة": "إنه من أجل إقامة العدل إقامة صحيحة ومن أجل توزيع السلطة، يجب أن يتعرف كل مواطن أخلاق أخيه، بحيث إنه إذا تعذر تنفيذ هذا في مكان ما، نجم عنه الشيء الكثير من الضرر والشر في ناحيتي مباشرة السلطات وتوزيع العدالة. فليس من العدل أن نفصل في الأمور بطريقة تعسفية، وهو الوضع الذي لا مفر منه في حالة وجود العدد الوفير من السكان". فهذا النوع من الدولة المحصورة النطاق التي فصلنا معالمها على هذه الشاكلة كان عليها أن تخوض الحرب وأن تحافظ على كيانها من غائلة المدائن الأخرى التي في مثل حجمها. وكان هذا كله ولما يمض غير جيلين اثنين على اجتياز جموع إجزرسيس معبرة الهلسبونت.

([1]) لفظة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام الذي يعبر عما ظهر في اللغة من مؤلفات بوجه عام. (المترجم)

وكأني بهؤلاء الإغريق وقد زعموا أن أيام الإمبراطوريات العالمية ولت إلى الأبد. على حين لم تكن تلك الإمبراطوريات بعد إلا في مرحلة الابتداء وأقصى ما وصلت إليه أذهانهم هو المحالفات والأحلاف. ولا مراء أن بلاط إجزرسيس كان به رجال يتجاوز تفكيرهم إلى أبعد حد دائرة هذه الأفكار الصغيرة المحصورة في نطاق الخور الصخري أو الجزيرة المنعزلة أو الوادي المحوط بالحبال. على أن الحاجة إلى الاتحاد ضد القوى العظمى التي كانت تتحرك خارج نطاق العالم الناطق بالإغريقية، قد تجاهلها العقل الإغريقي عمدًا. فإن هؤلاء الأجانب كانوا في نظرهم برابرة وهمجًا، لا يجوز التفكير فيهم تفكيرًا أليس إليه ضرورة. وها قد حال الآن بينهم وبين بلاد الإغريق حاجز أبدي لا يزول. فكان الواحد منهم يقبل النقود الفارسية، بل كان الجميع يقبلون تناول تلك النقود الفارسية. فأي ضير في ذلك؟ أو ينضوي ردحًا من الزمان تحت لواء جيوشهم (كما فعل زينوفون) مؤملاً أن يسعده الحظ باصطياد أسير غني. وتدخلت أثينا في الشئون المصرية فناصرت مصر، وأشبَّت نار حروب قليلة الأهمية ضد فارس. ولكن لم تكن هناك فكرة تدعو إلى سياسة موحدة، أو تهدف إلى مستقبل مشترك لبلاد الإغريق...

حتى أخذ صوت يصيح في أثينا آخر الأمر قائلاً: "مقدونيا!" وأن يُجلب إجلاب الكلاب صائحًا: "مقدونيا!". وكان هذا صوت الخطيب والديماجوج ديموستثيس. وهو يقذف بالتحذيرات والتهديدات، وينهال بالتهم على فيليب ملك مقدونيا الذي تعلم سياسته لا من أفلاطون وأرسطو فحسب، بل من إيزوقراط وزينوفون كذلك، ومن بابل وسوسا، والذي كان يعد أهبته في هدوء ومقدرة وثبات للسيطرة على كل بلاد الإغريق، وليستطيع بوساطة الإغريق أن يغزو العالم المعروف.

وثمة أمر آخر شل العقل الإغريقي وهو نظام الرق المنزلي، إذ كان الاسترقاق أمرًا مسلمًا به متغلغلاً في الحياة الإغريقية.

فلم يكن الناس يستطيعون أن يتصوروا الراحة أو الكرامة والمهابة من غير وجود الرقيق. على أن الرق يحول دون عطف الإنسان، لا عن طبقة من إخوانه في الوطن فحسب، بل يضع مالك الرقيق في طبقة وهيئة مضادة لكل غريب، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة. ولو أن أفلاطون استجاب لما يدفعه إليه ذهنه الصافي وسلامة روحه النبيلة من تجاوز أوضاع حاضره، لألغى الرق. وكان الشيء الكثير من شعور الرأي العام وألوان الكوميديا الجديدة معاديًا للرق. وكان الرواقيون والأبيقوريون، وجلهم من العبدان يتهمون الرق بأنه نظام غير طبيعي. على أنهم لما أن وجدوه من القوة بحيث لا يستطيعون القضاء عليه، قالوا إنه لا يؤثر في الروح وأن في الإمكان تجاهله وأن العاقل لا يفرق بين من هو مقيد ومن هو حر. فأما أرسطو الواقعي ومعظم الرجال العمليين فيما يرجح، فكانوا يرون أن إلغاءه أمر لا يمكن تصوره. ولذا صرحوا بأن من الناس من هو "عبد بالفطرة".

وأخيرًا كان يعوق الفكر الإغريقي افتقاره إلى المعرفة افتقارًا لا نكاد نتصوره اليوم. إذ لـ م يك ن لـ دى الإغريق أية معرفة البتة بماضي البشرية. وهم قوم كان كل ما لديهم في أحسن الأحوال بضع تخمينات تـ نم عن فكر صائب. ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس. ونحن ندري اليوم ما كان يجري في سوسا وبرسيبوليس وبابل وممفيس أيام بريكليس أكثر بكثير مما كان يعرفه الإغريقي نفسه. وكانت آراؤهم الفلكية لا تزال في حالة تأملات وتخمينات بدائية. ولقد كان أناكساجوراس عظيم الجرأة حين زعم أن الشمس والقمر كرتان هائلتان، يبلغ من ضخامتهما أن الشمس كانت فيما يرجح "قدر البيلوبونيز [1] بأجمعها حجمًا". وكانت آراؤهم في الفوزيقي والكيمياء نتيجة للتأمل العميق. ومن عجب أنه كانـ ـت لهـ ـم بالفعل تخمينات عن التركيب الذرّي.

ولا بد للإنسان أن يتذكر إعوازهم الشديد في الأجهزة التجريبية. وقد لونوا الزجاج للزينة، ولكنـ ـه لـ يس بالزجاج الصافي. وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى، ولا أي ترقيم عددي يتسم بالكفايـ ـة الحقة، ولا أي مقاييس شديدة الضبط، ولا أي مبادئ أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب فلو دفع عالم عصري إلى أثينا في زمن بريكليس لوجد أقصى الصعوبة في شرح عناصر علمه مهما عمد إلى التبسـ ـيط للرجـ ـال الذين كان يلتقي بهم هناك، فعندئذ يضطره الحال إذن أن يعد أبسط الأجهزة في ظروف غير ملائمة تمامًـ ـا. على حين يتصدى سقراط لتبيان مبلغ سخافة البحث عن "الحقيقة" بقطع من الخشب والخيط والمعـ ـدن أمثـ ـال تلك التي يستعملها الصغار في صيد السمك. والفيلسوف يترفع عن الصانع ترفعًا أبعد يده من أن تصل إلـ ـى أي جهاز. وما كان أي سيد إغريقي ليقبل أن يدقق في الزجاج أو المعدن. ولم يكـ ـن بـ ـد لأسـ ـتاذ العلـ ـوم العصري المذكور من التعرض للمحاكمة بتهمة الزندقة والإلحاد. فلم تكن ديمقراطيـ ـة أثينـ ـا لتتسـ ـامح مـ ـع "دارون" إلا بالقدر الضئيل الذي تسامحت به معه ديمقراطيـ ـة مقاطعـ ـة تنسـ ـي (Tennessee) بالولايـ ـات المتحدة).

وينتهل عالمنا اليوم من أكداس هائلة نسبيًا من المعرفة بالحقائق. فأما في أيام بركيليس فإن الحجـ ـر الأول من صرحنا العلمي الهائل نسبيًا – ذلك الصرح المشيد من مواد مدونة ومثبتة بالبرهان – لم يكد يوضع فـ ـي مكانه بعد. فإذا تأملنا هذا الفارق، لم يعد عجيبًا لدينا أن الإغريق مع كل ميلهم للتأمل السياسي كـ ـانوا صـ ـمًا وعميانًا عن تقلقل مدنيتهم وعدم أمنتها من الخارج والداخل، وعن ضرورة الاتحاد بطريقة فعالة وعن اندفاع الحوادث السريع الذي كان مقدرًا له أن يأتي على هذه الحريات الأولى التي نعم بها العقـ ـل الإنسـ ـاني فتـ ـرة قصيرة الأمد ويحرمه منها عصورا طويلة.

([1]) البيلوبونيز: هي شبه الجزيرة اليونانية المكونة من عدة أشباه جزائر تتخللها الخلجان والمسماة في التاريخ الحديث باسم شبه جزيرة المورة، وتنسب إليها تلك الحرب الطاحنة التي نشبت ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م. بين إسبرطة وأثينا. (المترجم).

وليست قيمة هذه الجماعة من متحدثي الإغريق وكتّابهم في النتائج الت ي حصـ لوا عليه ا، ولك ن ف ي المحاولات التي قاموا بها. وليس فضلهم في أنهم أجابوا عن الأسئلة، بل في أنهم اجترءوا على توجيهه ا. إذ لم يحدث قط من قبل، أن تحدى الإنسان عالمه وأسلوب معيشته التي أوجده فيها مولده. ولم يحدث من قبل أنه قال إنه يستطيع أن يغير الظروف المحيطة به، لأن التقاليد والضرورة كما تبدو له – ربطت ه بالحي اة كم ا وجدها مشتدة العود متمركزة في قبيلته منذ أزمان سحيقة القدم. ولقد كان حتى ذلك الحين يتقبل العالم، كما لا يزال الأطفال يتقبلون المنازل والعادات التي يُنشّئون عليها.

هكذا تتبين لنا بغاية الوضوح إبان القرنين الخامس والرابع ق. م بأرض اليهودية (Judea) وأثين ا – وإن لم يقتصر الأمر على هذين المركزين بأي حال – بدايات لعملية خلقية وفكرية عند الجنس البشـ ري قوامه ا مناشدة الناس البر والصلاح، ومناشدتهم الصدق والحق، والإقلاع عن الشهوات والارتباكات وعن المظـ اهر المباشرة للوجود. وكأني بذلك عملية بزوغ فجر الشعور بالمسئولية في صدر أحد الشبان حين يكتشف فج أة أن الحياة لا هي باليسيرة ولا هي بالخالية من الهدف. فالجنس البشري في تقدم مستمر، وظلت خيوط بقي ة التاريخ على مر عشرين وثلاثة من القرون تنتسج سدى ولحمة بانتشار تلك الفكرات الأساسـ ية المسـ يطرة ووضعها في القالب الأوضح بياناً والأشد تأثيرًا. أخذ الناس على مهل يفهمون شيئاً فشـ يئًا حقيق ة الأخـ وة الإنسانية، وأن لا داعي للحرب والقساوات والتعسف، ويفهمون ما يكمن وراء الهدف المشترك من إمكانيات بالنسبة لكل جنسنا البشري. وإنك لتشهد في كل جيل جاء بعد ذلك ما يدل على وجود رجال ينشـ دون ذل ك النظام الأفضل الذي يشعرون أنه لا بد لعالمنا من الوصول إليه.

على أنك لو تأملت الناس في كل مكان وحيثما تملكت الأفكار البنّاءة العظيمة زمام أي إنسـ ان، لشـ هدت المطامع الحادة والحسد والريبة والشبهات والجزع التي تتضح بها طبيعة كل فرد منا – في نضال وكفاح ضد ما يجيش في صدورنا من السعي إلى تحقيق غايات وأهداف أكبر وأوسع مـ دى. وكـ أن القـ رون الثلاثـ ة والعشرين الأخيرة من التاريخ مجهود فرد مخلد متعجل يروم استباق الحوادث، ويريد أن يفكر تفكيرًا صافيًا ويعيش عيشاً صالحًا ويعقب الزلل الزلل، وتنتهي البدايات المبشرة بالخير بخيبات أمل شـ وهاء تـ دعو إلـ ى السخرية، بينما ينابيع ماء الحياة يسممها الكوب الذي يحملها إلى شفاه الجنس البشري المتلهفة عطشاً. بيد أن أمل الرجال لا يلبث أن ينتعش ثانية آخر الأمر إثر كل كارثة ملمة...

٧- أول أدب خائل عظيم

سبق أن أشرنا في هذه "المعالم " إلى أن تطور الأدب كان لابد له من انتظار تطور طريقة للكتابة تبلغ من المرونة حدًا يؤهلها لنقل اتجاهات التعبير ومراميه وجمال الأصوات. وما كان الأدب المكتوب ليستطيع قبـ ل هذا الزمان أن ينقل غير المعاني. فإن الشعوب الآرية الأولى، كان لها كما أسـ لفنا، أدب شـ عري مـ وزون محفوظ في الصدور قبل أن تعرف الكتابة. فكانت لهم أغنيات المنشدين والشعراء المتجـ ولين وأقاصيصـ هم وتواريخهم ونواميسهم الأخلاقية تحفظها طبقة اجتماعية خاصة، هي الشعراء. ولم تصـ بح هـ ذه المقتنيـ ات المتواترة ثابتة حتى دونت في أثبات [1] ويبدو أن الملحمتين الإغريقيتين الرئيسيتين وهما "الإلياذة والأوديسيا" دونتا في ثبت مكتوب حوالي سنة ٧٠٠ ق. م، وكلتاهما مكتوبة باللغة الإغريقية ذات اللهجة الأيونية. ويقـ ال إن "بيزستراتوس" هو الذي بدأ في جمع القصائد الهوميرية، وكانت لهذه الملاحم روايات متنوعة كثيرة. ولـ م يستقر النص الموجود الآن إلا في القرن الثاني ق. م، وهناك ملاحم أخرى لا تخرج عن ذيـ ول وإطنابـ ات "للإلياذة والأوديسيا". هذا إلى قصص مغامرات منفصلة كادت اليوم أن تبيد تمامًا.

وكان الإغريق عامة مجمعين على أن "الإلياذة والأوديسيا" من عمل شاعر واحد هو "هوميروس". وهـ و رجل تقول الروايات إنه ولد في سبع مدن مختلفة، وفي تواريخ متباينة تتراوح بـ ين ١١٠٠، ٨٠٠ ق. م ولا يجمع التواتر إلا على حقيقة واحدة فقط، هي أنه كان ضريرًا. وكانت هاتان الملحمتان تنـ زلان مـ ن قلـ وب الإغريق منزلة الحب والاحترام إلى حد أنه لم يحدث حتى القرن الثاني ق. م، أن واحدًا من الإغريق لاحـ ظ الحقيقة الظاهرة، حتى في الترجمات نفسها، وهي أن هذين المؤلفين العظيمين مختلفان تمامًـ ا فـ ي الـ روح والأسلوب والنوع، اختلاف صوت البوق عن صوت الناي. ولكن كما كان من المقبول لديهم عقلاً أن يولـ د هوميروس في أمكنة متعددة على مثل هذا المحال المتباعد ويمثل هذا المدى الزمني المديد، لـ م يكـ ن فـ ي امتلاكه لعقلين وصوتين في وقت معًا ما يزيد ما له من تفرد بالعجائب والمعجزات إلا قليلاً! هـ ذه مباحـ ث تخص دارسي الأدب القديم. فهو وحده الذي يستطيع أن يقدر هذه المؤلفات حق قدرها. وهو يؤكد لنا أن لهـ ا من الروعة والجمال والحكمة وحسن النغم والإيقاع ما لا تستطيع أن تنقله إلينا أية ترجمة. وما من ترجمـ ة يمكن أن تنقل شيئًا يبرر نشوة العلماء وطربهم لهذه الدرر النفيسة الأولى في الأدب الأوربي. فـ إن ضـ ربًا معينا من الإملال يتسرب إلى عمل كل مترجم كما يتسلل إليه ضرب معين من التفاهـ ة، بـ ل إن الألحـ ان الإغريقية الرائعة البهجة لتبدو للأذن حين يرتلها عشاقها المتحمسون لها على مسامع غيـ ر المثقفـ ين مـ ن المتشككين المرتابين سقيمة الجرس نابية النغم تذكرنا بتلك الأصوات الكريهة التي تصدر عن أجهزة المـ اء الساخن المختلة. ومع كل هذا فإن هذه الملاحم تحوي الشيء الكثير من الجمال والإمتاع. وهي مشوبة بشيء لذيذ من الروح الصبيانية، وفيها لمحات بارقة بأشد المشاعر حدة، وأشد الملاحظات نصوعًا وإشراقًا. ومـ ن الأسف أن الدارسين المعجبين الذين يتحدثون عنها بأنها شيء رفيع سامٍ لا يلحق ولا يداني وما إلى ذلك مـ ن قول، يسرفون في القول إسرافًا مضحكًا جلب عليها إهمال القارئ العادي الذي أرهبه الفزع منها.

---

[1] الأثبات جمع ثبت وهو السجل الذي يدون فيه. (المترجم)

وإلى جوار اسم هوميروس يذكر التاريخ اسم هسيود الذي كان على الأرجح شخصًا حقيقيًا. وتاريخ ميلاده معروف في مدى قرنين هما القرن التاسع والسابع ق. م. وملحمتاه وهما "الأعمال والأيام" ثم "البحث في منشأة الآلهة" تخلد إحداهما الشيء الكثير من حياة الفلاح البوءوتي وكدحه، وتبقى لنا الأخرى ما تواتر من الأخبار الجارية عن أصول آلهة الإغريق، وعلاقاتها بعضها ببعض.

وكان شعر الملاحم في بلاد الإغريق أساس كل ضروب الشعر الأخرى، وانقضت قرون عدة لم يكن القوى يعنون أثناءها إلا بهذا الشعر. فهو الشعر الآري الأصلي، ثم ظهرت أنواع أخرى بأعيانها. فكان هناك شعر المراثي وهو لطيف رقيق، ويغنّى بمصاحبة موسيقى الناي الليدي، والشعر الغنائي وهو يغنى إلى الكنّارة ذات السبعة الأوتار. ومن المستحيل التوسع في الكلام عن هذه الأشكال والضروب هاهنا. ومن العبث أيضًا أن نسرد لك أسماء الشعراء دون بعض الإشارة إلى طبيعة أشعارهم وكنهها. ولا يمكن أن يكون لاسمي بندار (Pindar) وسيمونيدس (Simonides) معنى إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يخصصوا قدرًا كافيًا من وقتهم لـلا يزال في متناول الأيدي من مؤلفاتهما. وربما جاز لنا أن نذكر الآن أن من بين أعظم شعراء الغزل الأولين ببلاد الإغريق امرأة هي سافو (Sappho) من أهل لسبوس.

وقد ابتدأت الدراما [1] المكتوبة مثلما ابتدأ الشعر المكتوب في العالم الإغريقي. فنشأت المسرحية بوصفها جزءًا من الاحتفال الدوري لديونيسوس (Dionysus) إله الخمر. وكان الاحتفال في الأصل أغنية جماعية ترتلها جوقة تشيد بأعمال الإله. ثم يتقدم قائد الجوقة وهو (الكوريفيوس) (corypheus) وينشد وحده وتجيبه الجوقة. ثم أدخل إيسكيلوس (Aeschylus) (المولود في ٥٢٥ ق. م) ممثلا ثانيا، كان يتقدم عن الجماعة ويجيب الأول. وأخيرا جاء الممثل الثالث على يد سوفوكليس (Sophocles) (المولود في ٤٩٥ ق. م). وتطور الحوار والتمثيل وأصبحت الجوقة في المحل الثاني من التمثيل. وكانت المسرحيات حتى ذلك الحين تمثل من فوق منصات خشبية. ولكن أخذت دور المسارح تبنى في القرن السادس. وفي هذا القدر الكفاية في "معالم تاريخية" كهذه. كذلك يسجل التاريخ أنه لم يكد يمضي قرن واحد، حتى ظهرت أعظم أيام (الدراما) الإغريقية. وأسماء إيكسيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس (Euripides) (المولود سنة ٤٨٠ ق. م)، هي الأسماء التي بلغت الذروة بالمأساة الإغريقية. ولكنها ليست إلا أسماء مجردة هنا، لا يمكن أن يكون لها أي مغزى عند القارئ الذي لا يبحث عن مؤلفاتهم – إما في الأصل أو في الترجمات الشهيرة الموثوق بها – والذي لا يحاول أن يشهد تمثيل مسرحياتهم.

---

(1) يقصد بالدراما الأدب المسرحي بجميع أنواعه. (المترجم).

وكان يدارج تطور المأساة وهي الناحية الحدية في عبادة ديونيسوس شكل آخر للتمثيل أكثر سخرًا وتسلية هو الملهاة (الكوميديا). وكانت الملهاة منذ البداية أكثر مرونة من المأساة. وكانت تمسخ المأساة وتهزأ بها في بعض الأحايين، ولكنها في البعض الآخر، كانت تتحول إلى صور (اسكتش ات) صد ريحة لطب اع الن اس وللنواحي المسلية من مظاهر الحياة. وقد ابتدع أرسطوفانيس (Aristophanes) في القرن الخ امس ق. م. خليطًا بهيجًا من الخيال والتهكم السياسي. وكان ميناندر (Menander) بعد ذلك بمائة سنة، الأستاذ المب رز في الكوميديا الأخلاقية. وكانت المأساة الإغريقية لونًا موقوتًا ذا طابع شكلي، وقد تطورت حتى وصلت إل ى أقصى إمكانياتها فيما يتجاوز القرن بقليل. على أن الكوميديا لازمة للجماعات البشرية ولا غنى له ا عنه ا. وإنك لتجد التهكم والمحاكاة والكوميديا أنى اجتمع اثنان أو ثلاثة من بن ي الإنس ان من ذ أن ابت دأ ظه ور الجماعات الإنسانية. ولم يحدث قط أن وقف بالفعل تيار الكوميديا المكتوبة في العالم، منذ أن أمكن تدوين أول محاورة. ولم تبدأ القصة المكتوبة أن تنافس الكوميديا منزلتها من قلوب الناس إلا مع انتش ار ف ن الكتاب ة. وكانت هناك في بلاد الإغريق مجموعات من "القصص الصالحة" وما إليها. عل ى أن تط ور ف ن القص ة والرواية (Fiction) بوصفها فنًا عظيمًا كان ينتظر جمهورًا واسع القراءة وينتظر تكاثر الكت ب وانتش ارها السريع. ومن سوء الطالع أن العدد الأكبر من كل من صنفي التراجيديا والكوميديا الإغريقية باد م ن الع الم مرة أخرى.

وابتدأ الأدب النثري لأول عهده على صورة التاريخ والمناقشة الجدية. ولعلك ت ذكر م ا أس لفناه ع ن هيرودوت وما اقتبسناه من مؤلفه في أول هذا الكتاب. ولسوف يلحظ القارئ أن "أبا التاريخ" زار أثينا زم ن بريكليس وأنه عندما كان يصنف كتابه، كانت المأساة الأثينية قد جاوزت من قب ل أوج ذروته ا. ث م تكل م ثوسيدياس (Thucydices) بعد ذلك التاريخ فروى قصة حرب البيلوبونيز. كذلك أش رنا إل ى زينوف ون، وكتابه "الصعود" (Anabasis) وهناك شق هام آخر من الأدب الإغريقي لا يزال باقيًا لنا، وهو الخطب التي دونت عن مختلف الخطباء المفوهين النابهين. وأخيرًا يجب أن نشير إلى البيانات النثري ة الجدي ة والج دل النثري الذي يتجلى في الأدب العلمي على نحو ما دونه أرسطو، وأن نلحظ تحوله إلى حوار مسرحي فني في محاورات أفلاطون...

وعلى هذا النحو من الاختصار نسجل هنا ألوان أول أدب عظيم في العالم. وهذا كل ما نستطيع أن نعمله في النطاق الذي تحت تصرفنا. فمن رغب من قراء الإنجليزية في المزيد فليطلبه ومع ه ق در وفي ر م ن الاقتباسات الموصولة به وصلاً يدل على المهارة في كتاب "الإغريق والبرابرة" ت أليف ج. أ. ك. تومس ون (J.A.K. Thomson) على أن الطريقة المثلى للإحاطة الحقة بأي أدب، إنما هي في القراءة الدقيقة لكت ب خاصة فيه ومؤلفين معينين.

٨- الفن الإغريقي

لبث العالم الحديث بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر أي قبل اكتشاف فن الشـ عوب الإيجيـ ة السابق على الفن الإغريقي، وقبل المعرفة بالإنتاج الفني الهائل لدى الإمبراطوريات الأولـ ى – يـ ولي فـ ن التشكيل [1] الإغريقي تقديرًا لا يتناسب وما أنتجه ذلك الفن. فكان يرتسم وحده في أخيلة الناس، كأنمـ ا هـ و شيء قفز إلى الوجود من العدم، وكأنما كان كل ما جاء قبله قبيحًا مرذولاً، وكل شيء جـ اء بعـ ده سـ وقيًا وضيعًا. ولكم ولّد ذلك الفن في عقول المثقفين طربًا، يملؤنا اليوم بالعجب أكثر مما يشيع في أنفسنا العطف.

وإنا لنعرف الآن أنه بينما تدل مبتكرات الإغريق الأدبية والفكرية على بداية مظهر جديد مميز من مظاهر الخبرة الإنسانية، فإن فن النحت الإغريقي لا يخرج عن كونه حلقة في تطور المدنيات التي مضت قبله. ذلك أن صوغ الذهب والجواهر والأختام والدمى الصغيرة والزهريات وما إليها مما صنعه الإغريـ ق فـ ي هـ ذا العصر المجيد يضارع تلك التي صنعها السكان الإيجيون السابقون وتلك الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة فـ ي مصر وإن لم يتفوق عليهما، وإن في فنهم المعماري لرشاقة وإتقاناً اختص بهما. والظاهرة الغالبة فهي هـ ي مجاميع الأعمدة (Colonade) في شكلها الوقور النبيل بإكليلها (Capital) الـ دوري الضـ خم (Doric) أو منظرها الرشيق بإكليلها الأيوني (Ionic) وهيئتها الزهرية بإكليلها الكورنثي (Corinthian). وأصبح العمود الكورنثي بشعبه وتفريعاته في الأزمنة الرومانية وحدة عالمية في فن العمارة، وهي وحدة كانـ ت ولا تـ زال تنبت في ذلك الفن كالعشب الطفيلي حيثما وجدت فروع المصارف أو الفنادق الفاخرة.

ومهما يكن من شيء فإن فن النحت الإغريقي هو وحده الذي كان علمًا على ما يمتاز به ذلك العصر من إبداع. كان في بادئ الأمر شكليًا متكلفًا، ثم وصل فيما بين عهدي بيزستراتوس وبريكليس إلـ ى حالـ ة مـ ن الحرية والمطابقة للطبيعة لم يسبق لها مثيل. وفي أيام إخناتون اتخذ النحت المصري اتجاهًا وتحـ ولاً نحـ و اليسر والمسابقة للواقع، ولكن الناس لم يبلغوا في فن النحت قبل ذلك درجة يمكن أن تقارن بما بلغـ ه الفـ ن الإغريقي من حرية انطلق فيها سراحه. ويحدثوننا أن معظم النحائت الإغريقية كانت مصـ بوغة بالأصـ باغ. فذلك الجمال الخاص الأبيض الصارم الذي أضفت عليه لمسة الموت والكمال نبلاً، والذي يملـ ك علينـ ا الآن مشاعرنا عندما يواجهنا خير ما تبقى من الإنتاج الإغريقي، لم يكن جزءًا من غاية الفنان. وكذلك المعابد فإنها على ما بها من خرائب ذات سحر رائع يشبه سحر ضياء القمر، كما أن لها إبداعًا سماويًا كان ينقصـ ها ولا ريب إبان شبابها الغض البهيج.

---

[1] فن التشكيل (plastic art) هو فن صوغ الأشكال ويطلق على النحت وما شابهه من فنون تمييزًا لهـ ا عـ ن التصـ وير أو الدهان (Painting) وما إليه من فنون الرسم. (المترجم)



٧٧ – ڤينوس



٧٨ – آلهة يونانية

ولسنا نعرف عن فن الرسم والتصوير الإغريقي إلا القليل الطفيف. أجل ورد ذكر دررهم اليتيمة، بيد أنه ا فنيت جميعها. لذا فلسنا نستطيع أن نقضي فيه برأي إلا بسبيل ما نلقاه باقيًا منه أيام روما في عصر الإمبراطورية في صور تعتبر استمرارًا لتيار التقاليد الفنية المتدهور والتصوير الملون في مدينتي بمبياي، (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) بهيج ممتع تتجلى فيه المهارة، وهو أقرب إلى الطبيعة والوثوق بالنفس، إلى درجة لا تسمح بمقارنته إلى أي من الإنتاج المصري أو البابلي.

وكانت موسيقى ذلك الزمان عاملاً ثانويًا وتابعًا مساعدًا للأغنية، وكان يعوزها الانسجام اللحني (الهارموني). ويتحدث السير و. هـ.. هادو (Hadow) عن "قبح نماذج الموسيقى الإغريقية التي ظلت محفوظة وأمكن استجلاء كنهها".

الفصل الثاني والعشرون

سيرة الإسكندر الأكبر

١- فيليب المقدوني.

٢- مقتل الملك فيليب.

٣- أول فتوح الإسكندر.

٤- تجولات الإسكندر.

٥- أكان الإسكندر عظيمًا حقًا؟

٦- خلفاء الإسكندر.

٧- برجاموم ملاذا للثقافة.

٨- الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية.

١ – فيليب المقدوني



– فيليب المقدوني

ليس البطل الحقيقي في قصة الإسكندر، هو الإسكندر نفسه قدر ما هو أبوه فيليب. فإن مؤلف التمثيلية لا يتألق في ضياء المسرح تألق الممثل. ففيليب هو الذي دبر الشيء الكثير من العظمة التي بلغها ابنه، فهو الذي وضع أسسها وصاغ وسائلها وأدواتها وهو الذي أعد في الحق العدة للبدء في الحملة الفارسية قبيل وفاته. ولا ريب في أن فيليب كان واحدًا من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم على كر العصور. وكان رجلاً على أقصى غايات الذكاء والكفاية. فأما مجال فكراته فيتجاوز دائرة زمانه تجاوزًا بعيدًا فاتخذ من أرسطو صديقًا له. ولا بد أنه تناقش وإياه في تلك الخطط المرسومة لتنظيم المعرفة الحقة التي قدّر للفيلسوف أن يحققها فيما بعد بواسطة هبات الإسكندر. ويبدو أن فيليب على قدر ما نستطيع أن نجزم، كان "أمير" أرسطو ومولاه، وإليه كان يشخص أرسطو ببصره كما يرفع الرجال بصرهم إلى مقام أولئك الذين يعجبون بهم ويثقون. وإلى فيليب أيضًا لجأ إيزوقراط بوصفه القائد العظيم الذي كان ينبغي عليه أن يوحد الوطن الإغريقي وأن يسمو بالحياة العامة لدى الإغريق بعد إذ شملتها الفوضى.

وتذكر الكثير من الكتب أن فيليب كان رجلاً اتصف بالاستخفاف إلى درجة لا يصدقها العقل. وكان على شهوات لا ضابط لها. حقًا إنه في الولائم شأنه شأن كل معاصريه من المقدونيين، كان يكثر من الشراب، وكان يغدو في بعض الأحيان مخمورًا ثملا – إذ الراجح أن عدم الإكثار من الشراب في الولائم كان يعد أمرًا غير ودي. ولكن لم يقم دليل ثابت على التهم الأخرى الموجهة إليه. وليس بين أيدينا لدليل عليها إلا قدح خصومه من أمثال ديموستنيز (Demosthenes)، الديماجوج والخطيب الأثيني، وهو رجل ذو بيان لا يأبه

بالعواقب. وقد يساعدنا اقتباس فقرة أو ما إليها على تبيان إلى أي حد كانت غضبة ديموسثنيز الوطنية تحمله. فهو ينفث عن نفسه في إحدى "فيليبياته" – كما تسمى تنديداته بفيليب – على هذا الأسلوب.

"وفيليب، ذلك الرجل الذي لا يقتصر أمره على أنه ليس إغريقيًا، ولا يمت بحال ما بصلة إلى الإغريق، بل ليس هو حتى همجيًا من قطر محترم – كلا، وإنما هو شخص فاسد من مقدونيا، ذلك القطر الذي لا نستطيع قط أن نحصل منه حتى على عبد لائق". إلى غير ذلك من المثالب. ونحن نعرف على وجه التحقيق أن المقدونيين كانوا شعبًا آريًا شديد القرابة للإغريق، وأن فيليب كان فيما يرجح أوسع رجال زمانه علمًا. ولكن كانت هذه هي الروح التي كتبت بها القصص المعادية لفيليب.

ولما آل إلى فيليب مُلك مقدونيا (٣٥٩ ق. م.)، كانت بلاده قطرًا صغيرًا ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة هامة. وكان سكانها جميعًا من الفلاحين، وتكاد لغتهم أن تكون إغريقية، هذا إلى أنهم على أتم استعداد لأن يكونوا إغريقًا في عواطفهم وميولهم، ولكنهم خلّص في دمهم النوردي أكثر من أي شعب يقع إلى الجنوب منهم. ولقد حوّل فيليب هذه الدويلة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة. وأنشأ أكفأ وأفضل نظام عسكري رآه العالم حتى ذلك الحين، وتمكن قبيل وفاته أن يضم شمل غالب بلاد الإغريق في عصبة واحدة بقيادته. على أن قوة تفكيره التي سما بها عن مألوف أفكار زمانه وما اتسم به من صفات خارقة للعادة، لا تتجلى في تلك الأمور العظيمة قدر ما تتجلى في العناية التي جعل المربين يدربون بها ولده حتى يواصل من بعده السياسة التي ابتدعها. فهو واحد من أولئك الملوك القليلين في التاريخ الذين عنوا بخلفهم. وكان الإسكندر – على صورة لم يصل إليها غير عدد قليل من الملوك في الدهر كله – ملكًا قد تربى تربية خاصة تؤهله لتولي شئون إمبراطورية. ولم يكن أرسطو غير واحد من بين كثير من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبوه له. وقد استودعه فيليب سياسته وولاه الإمرة والحكم عندما بلغ السادسة عشرة، فقاد الفرسان في موقعة خيرونيا (Chaeronea) تحت بصر أبيه فهو قد درب على السلطة تدريبًا كريمًا لا تشوبه شبهة أو ريبة.

ويتضح لكل من يقرأ تاريخ حياته بعناية، أن الإسكندر تولى عمله مزودًا بعدة من التدريب ومن الأفكار القيمة التي لم يسبق لها نظير. فلما أن تجاوز حد الحكمة التي أهلته لها تربيته، أخذ يقع في الزلل ويظهر ألوانًا من سوء السلوك – مع حماقة مروعة في بعض الأحيان. وتبدت غلبة نقائصه الخلقية على تربيته قبل وفاته بزمن بعيد.

كان فيليب ملكًا من الطراز القديم، أي ملكًا قائدًا، وهو المقدم على نبلائه ذوي الطراز النوردي القديم. وكان الجيش الذي أوجده في مقدونيا يأتلف من حشد عام من الجند المشاة، وطبقة نبيلة من الفرسان تسمى "بالرفقاء". وكان الشعب فلاحين وصيادين، ألفوا بعض الشيء تناول الشراب، على أنهم كانوا على استعداد لقبول النظام وتعلم استخدام وسائل القتال الحسنة. ولئن كان القوم على الفطرة وفيهم سذاجة، فلقد عُرفت الحكومة بالفطنة واليقظة. وظلت لغة البلاط عدة أجيال هي الإغريقية ذات اللهجة الأتيكية (أي الأثينية). وبلغ من حضارة البلاط أن كان يئوي ويرحب بشخصيات عظيمة من أمثال يوريبيديس الذي مات هناك (٤٠٦ ق. م)، وزيوكسيس (Zeuxis) الفنان. وفضلاً عن ذلك فإن فيليب قبل ارتقائه العرش، أقام بضع سنين رهينة في

بلاد الإغريق. وقد نال من التربية والتعليم خير ما يمكن أن تقدمه إليه بلاد الإغريق في ذلك الزمان، فك ان لذلك ملمًا كل الإلمام بما نستطيع أن نسميه فكرة إيزوقراط – وهي فكرة إنشاء اتحاد عظيم للدول الإغريقي ة في أوربا للسيطرة على العالم الشرقي. وكان يعرف أيضًا مبلغ عجز الديمقراطية الأثينية بس بب دس تورها وتقاليدها عن انتهاز الفرصة الماثلة بين يديها. إذ إنها فرصة لا بد له من الإسهام فيها. فأما مغزاه ا ل دى الأثينيين أو الإسبرطيين فهو السماح "لعدد جم من الأجانب" بالتمتع بمزايا المواطنية. وإن في ه ذا لتحقي رًا لأنفسهم وإنزالهم إلى حد المساواة والزمالة مع المقدونيين – "وهم شعب لا نحصل منه حتى على عبد لائق".

ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع الذي أزمع عمله إلا بوس اطة القيام بعمل سياسي ثوري. ولم يكن حب السلام هو الذي يمنع الإغريق عن مثل هذه المغامرة، بل هو تفرقهم وانقسامهم السياسي. وكانت موارد الدول العديدة مستنفدة في سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بينه ا، وه ي حروب طالما نشبت لأتفه الأسباب، وزادت الخطب الرنانة في تلهب أوارها. مثال ذلك أن حراثة الف وكيين (Phocians) لبعض الأرض المقدسة بالقرب من دلْفي، كانت ذريعة انتحلت لإشباب ن ار ح رب دموي ة مقدسة.



ش (٨٠) اتساع رقعة مقدونيا في حكم فيليب

وكرسي فيليب سني حكمه الأولى لتنظيم جيشه. وحتى ذلك الحين، كان القتال الرئيسي في أية موقعة يقوم بمعظمه في أرجاء العالم قاطبة جند المشاة وهم منتظمون في تشكيلات. وإنا لنرى في المعارك السومرية السحيقة القدم، حاملي الرماح في نظام متراص مكونين كتلة الجيش الرئيسي على نحو ما كان المشاة يفعلون في جيوش الزولو في القرن التاسع عشر. وكانت الجيوش الإغريقية في زمان فيليب لا تزال تحارب على نفس ذلك الأسلوب. وكان الفيلق الطيبي كتلة من المشاة حاملي الرماح تطعن الصفوف الخلفية منها العدو برماح أطول تخترق الصفوف الأمامية. وكانت مثل هذه التشكيلة تستطيع أن تخترق كل ما يعترضها من جيش يكون أقل منها تنظيمًا. وكان الفرسان من الناشبة (حاملي القسى) يستطيعون طبعًا أن ينزلوا خسائر جسيمة بمثل هاته الكتلة من الرجال، فلما أن استخدم الحصان في الحرب ظهر الراكبة على كلا الجانبين بوصفهم عاملاً ثانويا مساعدًا لهذا الجيش الرئيسي. ويجدر بالقارئ أن يتذكر أن الحصان لم يستخدم بطريقة فعالة تمامًا في حروب الغربيين حتى قيام الآشوريين، ولم يتجاوز استخدامه في مبدأ الأمر جر المركبات. وكانت المركبة تطعن بنفسها وبكل قوتها كتلة المشاة محاولة تحطيمها وكان التوفيق حليف المركبات ما لم يكن نظام كتلة المشاة قويًا متينًا. والقتال الذي يصفه شعر هوميروس قتال مركبات. ولا يبدأ ظهور الفرسان كقوة متميزة عن جنود المركبات وقائمة بدور خاص في خوض المعارك والحروب إلا في الألف سنة السابقة على الميلاد. ويبدو أنهم كانوا يقاتلون في مبدأ الأمر متناثرين، إذ يبلي كل رجل بمفرده أحسن ما يستطيع من بلاء. هكذا حارب الليديون قورش. ولكن يلوح أن فيليب كان أول من استحدث هجوم الفرسان فأمر "رفقاءه" أن يتدربوا على الهجوم حاشدين. كذلك قوّى فيلقه بتزويد الرجال في الصفوف الأخيرة برماح أطول مما كان بأيديهم حتى آنذاك. وبذلك زاد في عدد صفوف فيلقه ولم يكن الفيلق المقدوني إلا مجرد صورة للفيلق الطيبي أقوى تماسكًا وأشد صلابة ترادف. وإن واحدة من تشكيلات المشاة المحشودة هذه، لم تكن مرنة مرونة تجعلها تصمد أمام هجوم من الجناح أو الخلف، فإن قوتها على المداورة (المناورة) طفيفة جدًا. ومن ثم كانت انتصارات فيليب وابنه ثمرة اتباعهما – مع شيء من التغيير والتعديل – خطة عامة من التعاون بين هذين السلاحين فيتقدم الفيلق في الوسط ويشتبك مع جيش العدو الرئيسي. وتجرف هجمات الراكبة على أحد الجناحين أو الآخر راكبة الأعداء أمامها، ثم تدور فتنقض على جناح فيلق العدو ومؤخرته، بينما يكون الفيلق المقدوني قد أنزل من قبل ضربته على مقدمته. وعند ذلك تتحطم قوى جند العدو الرئيسية وتعمل فيها السيوف عملها. ولما ازدادت خبرة الإسكندر العسكرية، أضاف كذلك استعمال المجانيق في الميدان، وهي أداة كبيرة تقذف الأحجار لتمزيق مشاة العدو. وكانت المجانيق قبل زمانه تستعمل في الحصار ولكنها لم تستعمل في المعارك أبدًا. فهو إذن أول من استحدث عملية "التمهيد بالمدفعية".

حتى إذا أيقن فيليب من جدارة هذا الجيش الجديد شرع في استخدامه، فاتجه بنظره بادئ بدء إلى شمال مقدونيا. فأنفذ الحملات العسكرية إلى إلّيريا (Illyria) وإلى الدانوب ومدّ سلطانه أيضًا على طول الشاطئ حتى الهلسبونت واستولى على ميناء أمفيبوليس (Amphipolis) وبعض مناجم الذهب المجاورة لها. وبعد أن قام بحملات عديدة في تراقيا أخذ يوجه اهتمامه الجدّي نحو الجنوب. فنصر قضية الحلف (الأمفكتيوني) الدلفي ضد أولئك الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلفي وبذلك ظهر بمظهر راعي الديانة الهللينية.

ويجدر بنا أن نتذكر أن فريقًا قويًا من الإغريق كان ينادي بالكتلة الهللينية التي تلم شمل الجميع، مؤيدًا زعامة فيليب للإغريق. وكان رأس كتاب هذه الحركة الداعية للكتلة الهللينية الشاملة هو إيزوقراط. وكانت أثينا من الناحية الأخرى، على رأس جبهة المعارضة لفيليب وشيعته. وكانت تربطها بفارس صلات المودة الصريحة، حتى لقد أرسلت البعوث إلى "الملك العظيم" تحذره الخطر المحدق به من اتحاد بلاد الإغريق. وليس لنا في هذا المجال الضيق من سبيل إلى سرد قصة الغدوات والروحات التي دامت زهاء اثنتي عشرة سنة. وفي ٣٣٨ ق. م. وصل النزاع بين دعاة الانقسام ودعاة الكتلة الهللينية إلى نتيجة حاسمة يوم أوقع فيليب بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة بمعركة خيرونيا. ثم عقد مع أثينا صلحًا منحها شروطًا سخية سخاء يبعث على الدهشة. فأظهر نفسه بمظهر العازم عزمًا أكيدًا على إرضاء تلك المدينة التليدة. وفي ٣٣٨ ق. م. اعترف به مؤتمر من الدول الإغريقية قائدًا عامًا في الحرب ضد فارس.

وكان عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين. وكأنما كان العالم مطروحًا تحت قدميه. إذ جعل مملكته الصغيرة الدولة المتزعمة في اتحاد مقدوني إغريقي شامل وطيد، وقدر لهذا التوحيد أن يكون مقدمة لتوحيد آخر أعظم منه، هو توحيد العالم الغربي والإمبراطورية الفارسية في دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب المعروفة. فمن ذا يستطيع أن يرتاب في أن هذا الحلم كان يخالج فؤاده؟ وكتابات إيزوقراط تقنعنا بأنه كان يملأ جوانب نفسه. ومن ذا يستطيع أن ينكر أنه ربما تمكن من تحقيقه؟ وقد يخالجه أمل معقول في أن تتاح له فسحة من الأجل لعلها تبلغ ربع قرن آخر من الزمن المليء بالنشاط. وفي ٣٣٦ ق. م. عبرت جنوده الأمامية إلى آسيا. على أنه لم يلحق بها لا هو ولا كتلة قواته الرئيسية؛ إذ إنه قتل غيلة.

٣- مقتل الملك فيليب

من الضروري الآن أن نلم بطرف من حياة الملك فيليب المنزلية. فإن حياة كل من فيليب وابنه، كانت تخالطها شخصية امرأة قلقة شريرة لا يستقر لها قرار هي أوليمبياس (Olympias) أم الإسكندر.

كانت ابنة ملك إبيروس (Epirus) القطر الواقع إلى الغرب من مقدونيا، وهو كمقدونيا أرض شبه إغريقية. التقت بفيليب أو لعلها قذفت في طريقه في أحد الاجتماعات الدينية في ساموترافيا (Samotharce). ويصرح بلوتارك بأن هذا الزواج كان يقوم على الحب المتبادل. ويبدو أن هذه على الأقل إحدى المآخذ على فيليب، وهي أنه شأن الكثيرين من الرجال ذوي النشاط الجم والخيال الرحب كان ميالاً إلى هوائج الحب الجامح. تزوجها بعد أن اعتلى العرش، وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات.

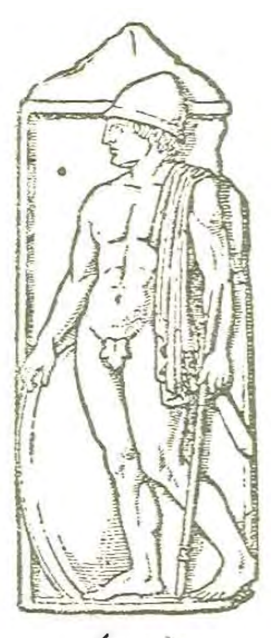
ولم يمض طويل زمن حتى دب الخلاف بين فيليب وأوليمباس عنيفًا مريرًا. فإنها كانت تغار منه، ولكن كان هناك مصدر ثان للمتاعب أشد خطورة من هذا، هو شغفها الشديد بالأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية. ولقد بينا من قبل أن ديانة الإغريق النوردية الممتازة ذات النطاق المحدود، كانت البلاد غاصة من دونها بنحل وعبادات من نوع أقتم وأقدم، وهي عقائد أصيلة في البلاد لها أسرار ومراسيم يلقّنها من يمارسها ولها حفلات تهتكية خليعة وكثيرًا ما تصحبها طقوس قاسية فاحشة. فعقائد الأشباح هذه، وما كان يمارسه النساء والفلاحون والعبيد من أمور، هي المصدر الذي تستقي منه بلاد الإغريق معتقداتها الأورفية [١] (Orphic) والديونيسية [٢] (Doonysiac) والدميترية [٣] (Demeter). وهي قد كمنت في ثنايا تقاليد أوربا حتى ما يداني أزماننا هذه، وما أعمال السحر في القرون الوسطى وما بها من لجوء إلى دم الأطفال وإلى أجزاء من أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام والرقي والتعاويذ السحرية إلا المظاهر المتخلفة عن تلك الاحتفالات الدينية لدى البيض الداكنين. وكانت أوليمبياس حاذقة في هذه الأمور، خبيرة بها ومتحمسة لها. ويذكر بلوتارك أنها حازت شهرة واسعة لاستخدام الثعابين المستأنسة في هذه الممارسات والطقوس الورعة!!!! وكانت الحيات تجتاح جناحها المنزلي. ولم يوضح لنا التاريخ هل كان فيليب يجد فيها مادة تثير سخطه أو تبعث فيه الرهبة الدينية؟!!!... ولا بد أن أعمال زوجة فيليب هذه كانت مصدر مضايقة خطيرة له، لأن الشعب المقدوني كان لا يزال في تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطور الاجتماعي التي لا يستحب فيها التحمس في الورع والإفراط في التدين ولا الزوجات العسيرات القياد.

---

(١) أورفيوس: شخصية خرافية لشاعر قبل هوميروس عاش في تراقيا وصحب الأرجونوتس وهم البحارة الأبطال الذين أبحروا للبحث عن الجزيرة الذهبية (راجع المجلد الأول). وهبه أبوللو قيثارة وعلمته آلهة الفن التاسوعية Muses كيف يلعب عليها وسحرت لسماعه الحيوانات والأشجار والصخور وكانت تتحرك من أماكنها لتستمع إلى قيثارته الذهبية. (المترجم)

(٢) ديونيسوس: إله شاب بهي الطلعة متخنث، كان يعتبر إله الخمر ويسمى أيضًا باكخوس وهو ابن زيوس. وينسب إلى هذا الإله أنه هو الذي علم الإنسان صناعة النبيذ؛ والخمر هي رمز فتوته. (المترجم).

(٣) دميتر: هي إحدى الربات العظيمات عند الإغريق هي حامية الزراعة وما تخرجه الأرض من ثمار. ويقال إن مخترع المحراث ومن عرف القمح المبذور هو من أحب الناس إليها. وهي ابنة أخت زيوس. (المترجم).



(٨١)
مقاتل مقدونى
فى عهد فيليب
(عن صورة محفورة من بيلا)

وإن الدلائل على وجود عداوة مريرة بين الوالدة والوالد، لتبدو لنا من خلال الكثير من الأشياء الصد غيرة في كتب التاريخ. وواضح أنها كانت تغار من فتوح فيليب. إذ كانت تكره له ذيوع الصد يت. وهنـ اك مـ ن الشواهد كثير عن أن أوليمبياس كانت تبذل قصارى جهدها لتنفر ابنها من أبيه وتضمه إلـ ى جانبهـ ا ضـ مًا كاملاً. ويروي لنا كتاب (السير لبلوتارك" قصة تقول بأنه كلما وردت الأنباء بانتصار لفيليب مثل فتح مدينـ ـة أو الفوز في بعض المعارك الكبيرة، لم يكن يبدو على الإسكندر أي فرح عظيم لسماعها، بل كان على العكس يقول للداته وأترابه "سيحصل أبي على كل شيء مقدمًا يا صبيان. ولن يترك أي عمل عظيم أشرككم معـ ي فيه".

وليس أمرًا طبيعيًا أن يحسد ولد أباه على هذه الشاكلة دون بعض الإيحاء. وكأني بهذه العبارة تـ رن فـ ي الأذن رنين الصدى المردّد.

ولقد أوضحنا من قبل كم كان تدبير فيليب لمسألة تولية الإسكندر من بعده أمرًا بينا جليًا للعيان، وإلـ ى أي حد كان تواقًا إلى جلب الشهرة والسلطان إلى يد الغلام. فكان الأب دائب التفكير في البناء السياسـ ي الـ ذي يعمل على تشييده – ولكن الأم كانت تفكر فيما تصيبه تلك السيدة العجيبة، أوليمبياس، من مجـ د وكبريـ اء. ولكنها أخفت كرهها لزوجها وأحاطته بستار من قلق الأم على مستقبل ابنها. ولما تزوج فيليب ٣٣٧ ق. م. – على عادة الملوك وأسلوبهم في تلك الأيام – زوجة ثانية مقدونية الأصل اسمها كليوبطرة "وكان يحبها حبًـ ا شديدًا" أثارت أوليمبياس شيئًا كثيرًا من المتاعب.

ويحدثنا بلوتارك عن منظر محزن حدث في حفل زواج فيليب من كليوبطرة فلقد عاقر القـ وم الخمـ ر فـ ي الوليمة ما شاءوا. وإذ كان أتالوس (Attalus) والد العروس قد ثمل من الشراب، فإنه كشف النقاب عـ ن تلـ ك العداوة التي كان يكنها الناس عامة لأوليمبياس وإيبروس بقوله: "إنه يأمل أن ينتج ذلك الزواج طفلاً يكون وارثًا مقدونيًا قحًا للعرش". وعندها صاح الإسكندر وكان متوثب النفس سائر الأعصاب لمثل هذه الإهانة "فمـ اذا أنـ ا إذن؟" ثم قذف أتالوس بكأسه. ونهض فيليب وقد ثارت ثائرته، ويقول بلوتارك إنه جرد سيفه ولكنه عثر ووقع. وقام الإسكندر وقد أعماه الحنق والحسد فعيّر أباه وأهانه بقوله: "أيها المقدونيون، انظروا ها هنا إلى القائد الذي يريد أن يزحف من أوربا إلى آسيا، كيف!!؟... إنه لا يستطيع أن ينتقل من منضدة إلى أخرى!".

فكم لا يزال هذا المنظر حيًا عالقًا بالأذهان، من ارتماء الملك على الأرض والوجـ وه المحمـ رة انفعـ الاً وسكرًا، وصوت الغلام الغاضب. وفي اليوم التالي رحل الإسكندر مع أمه – ولم يحـ اول فيليـ ب منعهمـ ا. وذهبت أوليمبياس إلى وطنها إبيروس – ورحل الإسكندر إلى إلليريا ومن هناك أقنعة فيليب بالعودة.

ثم لم يلبث أن نشب بينهما شغب جديد فقد كان للإسكندر أخ به ضعف في قـ واه العقليـ ة اسـ مه أريـ دايوس (Aridaeus) [1] رغب حاكم كاريا الفارسي في أن يتخذه صهرًا له. "هنالك أخذ أصدقاء الإسكندر وأمه يغرونه بأبيه ويبثونه الهواجس من جديد، وإن لم يكن لها ظل من الحقيقة. مدعين بأن فيليب بتدبيره هاته الزيجة النبيلـ ة وما يترتب عليها من المساعدة، كان يرمي إلى إعطاء التاج إلى أريدايوس، ومن ثم أرسل الإسكندر – وقد أقلقته تلك الشبهات – شخصًا اسمه تسالوس (Thessalus) وهو ممثل مسرحي، إلى كاريا ليطلب مـ ن عظيمهـ ا أن يعرض عن أريدايوس غير الشرعي المولد، والناقص الإدراك؛ وأن يتخذ وريث التاج الشرعي حليفًا له وصهرًا. وبلغ سرور بكسوداروس (Pixodarus) بهذا المقترح أقصى غايته. ولكن لم يكد فيليب يسمع بالخبر، حتى ذهب إلى جناح الإسكندر مصطحبًا معه فيلوتاس (Philotas) ابن بارمنيون (Parmenio) وهو من أشـ د أصـ دقائه ورفقائه إخلاصًا، وعنف الإسكندر بمحضر هذا الصديق على انحطاطه ودناءة روحه في تفكيره أن يكون ختنًا [2] لرجل من كاريا، هو أحد عبيد ملك همجي. وكتب في الوقت نفسه إلى الكورنثيين مشددًا عليهم بإرسال تسالوس إليه مكبلاً بالقيود. وعمد الملك إلى هاربالوس (Harpalus) ونيارخوس (Niarchus) وفرجيوس (Phrygius) وبطليموس Ptolemy وهم بعض رفقاء آخرين للأمير فنفاهم. على أن الإسكندر استدعاهم فيما بعد، وعـ املهم معاملة ملؤها التقدير".

([1]) يسمى في كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر فيليب أريدايوس (Philip Aridaeus) (المترجم).

([2]) الختن بفتح التاء هو زوج الابنة. (المترجم).

وهناك شيء مؤثر جدًا في هذه القصة، قصة الوالد وهو يحاج الولد الذي كان حبه الأبـ وي لـ ـه ظـ ـاهرًا ملحوظًا، وقد حيره ذلك المقترح الوضيع الذي نسج حول خيال الفتى.

أصيب فيليب بطعنة في حفل زواج ابنته من خالها ملك إبيروس وشقيق أوليمبياس. إذ كـ ـان يسـ ـير فـ ـي موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح وعليه ثوب أبيض، فطعنه أحد رجال حرسه. وكـ ـان هنـ ـاك حصان ينتظر القاتل الذي حاول أن يفر، لولا أن اشتبك حافر حصانه في كرمة برية، فألقته عثرة الجواد من سرجه، وقتله متعقبوه.

وهكذا أصبح الإسكندر ملكًا على مقدونيا في سن العشرين وانتهى قلقه على تبوئه العرش.

وعند ذلك عادت أوليمبياس فظهرت في مقدونيا كامرأة بررت موقفها تبرير المتكبرين، ويقال إنها أصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنازية التي أقيمت لذكرى فيليب.

وسرى في بلاد الإغريق سرور عظيم بذلك الحادث السعيد. فأما ديموستثيز فإنه لما أتاه هذا النبأ العظيم، خرج إلى الجمعية العمومية بأثينا في ثياب بهيجة وعلى رأسه إكليل من الزهر، ولما يمض على وفرة ابنتـ ـه ما يجاوز السبعة أيام.

ومهما يكن أمر ما فعلت أوليمبياس بشأن قاتل زوجها، فما تحيط أية شكوك تاريخية بتفاصـ ـيل معاملتهـ ـا لضرتها كليوبطرة. إذ لم يكد الإسكندر يغادر مقدونيا (حين شغلته على الفور ثورة رجال التلال في الشمال) – حتى قتل ابن كليوبطرة الحديث الولادة بين ذراعي أمه، ثم خنقت كليوبطرة بعد أن وجهت إليها عبـ ـارات السباب والتقريع ولا ريب. ويقال إن هذا الغلو في المشاعر النسوية، هال الإسكندر ولكنه لم يمنعه من بسـ ـط يدي أمه بسلطان عظيم في مقدونيا. وقد كتبت إليه رسائل في موضوعات دينية وسياسية وأظهر لها ابنها من الوفاء والبر ما جعله يرسل إليها على الدوام نصيبًا كبيرًا من الأسلاب التي كان يغنمها.

٣- أول فتوح الإسكندر

اضطررنا إلى سرد هذه الأقاصيص اضطرارًا إذ لا يستطاع فهم التاريخ بدونها. وها هو ذا عالم واسع الأرجاء يعج بالناس ممتد بين الهند والبحر الأدرياتي وهو مستعد للوحدة متأهب إلى حد لم يسبق له مثيل للانصياع لحكم من يلم شمله. وها هي ذي الدولة العظيمة – دولة الإمبراطورية الفارسية بطرقاتها ونظام بريدها وسلمها المخيم على أرجائها وشامل رخائها – مهيأة تمامًا للتأثر بما يشعه العقل الإغريقي وما ينتجه من قطوف دانية. ومع ذلك فهذه هي القصص التي تصور طبيعة المخلوقات البشرية التي أتيحت لها تلك الفرص العظيمة. فها هو ذا فيليب، ذلك الرجل العظيم البالغ النبل، ومع ذلك فهو سكير مدمن، وهو لا يستطيع أن يضبط نظام داره. وهاكم الإسكندر وهو إنسان موهوب من كثير من النواحي، مواهب أعلى مما لدى أي رجل في زمانه، ولكنه مغرور متشكك في الناس، نزق حاد العواطف، وله ذهن أحدثت أمه به انحرافًا وزيغًا.

وقد شرعنا الآن في فهم شيء مما عسى أن كان يئول إليه العالم، وشيء مما عسى أن كان يصير إليه جنسنا، لولا طبيعتنا البشرية التي لا تزال فجة غريرة، ولم يكد يتجاوز ما مضى بين عصرنا وبين الإسكندر ما يزيد على سبعين جيلاً؛ كما لا يكاد يفصل بيننا وبين أجدادنا الصائدين المتوحشين الذين كانوا يضهبّون [١] طعامهم على الحمر أو يأكلونه نيئًا، – ما يتجاوز الأربعمائة أو الخمسمائة جيل. ولن يتهيأ مجال كبير لدخول التعديل على نوع من الأنواع الحية في مدى أربعمائة أو خمسمائة جيل. وما عليك إلا أن تثير فيمن حولك من الرجال والنساء مشاعر الغيرة أو الخوف أو السكر أو الغضب إلى درجة كافية حتى تبدو لك فيهم عيون رجال الكهوف الحمراء محملقة إليك اليوم. وقد تهيأت لدينا الآن المعرفة بالكتابة وتوفر التعليم والعلوم وتسخير القوى. وقد روضنا الوحوش وسخرنا البرق. ولكننا لا نزال ندلف [٢] نحو النور وئيدًا في تعثر. أجل روضنا الوحوش وربيناها. ولكن بقي علينا أن نروض أنفسنا ونربيها.

([١]) من ضهب اللحم إذا شواه قليلا ولم ينضجه . (المترجم)

([٢]) دلف دلوفًا: مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه. (المترجم)

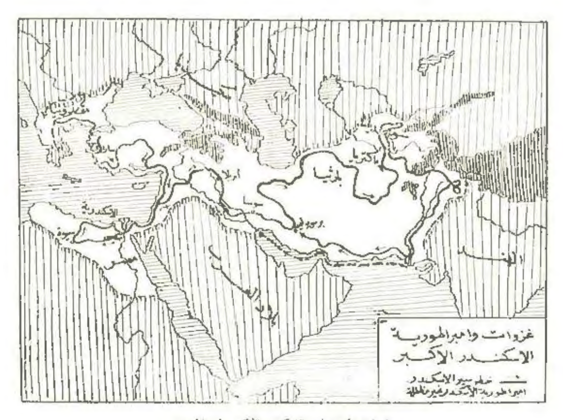


(٨٢) الإسكنـو لاكبر

أظهرت أعمال الإسكندر منذ أول بدايات حكمه، إلى أي حد كبير تمثّل خطط أبيه وسار على نهجها، وإلى أي حد كانت كفاياته عظيمة. ولا بد لنا من خريطة للعالم المعروف لتبين مجرى حياته. ففي أول الأمر بعـ د أن حصل على التأكيدات من بلاد الإغريق، بأنه سيكون القائد العام للجيوش الإغريقية، سار مخترقًا تراقيـ ا إلى نهر الدانوب، وعبر النهر وأحرق إحدى القرى، وبذا أصبح الملك العظيم الثاني الذي أغار على الـ بلاد الإسكيذية فيما وراء الدانوب، ثم عاد فعبره واتجه غربًا وبذا قفل بطريق إلليريا. وفي ذلك الوقت كانت مدينة طيبة أعلنت العصيان عليه، فكانت ضربته التالية في بلاد الإغريق. فإن طيبة – ولم تساعدها أثينا بالطبع – قهرت ونهبت وعوملت معاملة عنف مسرف. إذ هدّت كل مبانيها اللهم إلا المعبد ومنـ زل الشـ اعر بنـ دار (Pindar) وبيع ثلاثون ألف نسمة من سكانها رقيقًا في أسواق النخاسة. فصعقت بلاد الإغريق. وأصبح فـ ي ميسور الإسكندر بذلك أن ينطلق حرًا للقيام بالحملة الفارسية.

وكشف تدمير طيبة على هذا النحو عن مسحة من القسوة والعنف في سيد أقدار البشرية الجديد. إذ كانـ ت تلك ضربة أثقل من أن يقدم عليها إنسان بل كان إتيانها عملاً وحشيًا غشومًا. فلئن قضـ ي بهـ ا علـ ى روح العصيان، فقد قضي كذلك على روح العون. فإن دول المدن الإغريقية ظلت جامدة منذ ذلك الحين، فلا هـ ي تشغب عليه ولا هي تعينه. وأبت تلك المدن أن تمد الإسكندر بسفائنها، وهو أمر كانت نتيجته مضايقة خطيرة له.

وهناك قصة يرويها بلوتارك عن هذه المذبحة الطيبية بوصفها أمرًا يشرف الإسكندر. لكنها لعمري تبـين كيف أن جوانبه السليمة التي تنم عن التعقل وجوانبه الأخرى التي بها مس من الجنون كانت فـي صـراع. وهي تحدثنا عن ضابط مقدوني وسيدة من طيبة. كان هذا الضابط ينهب مع الناهبين، فدخل إلى منزل هاتـه المرأة، وأوقع بها من الإهانات والأضرار ما لا يمكن التعبير عنه، ثم سألها آخر الأمر عما قد يكون لـديها مخبّأ من كنوز الذهب أو الفضة. فأخبرته بأن كل كنوزها مخبوءة في البئر وقادته إليه، وبينما هو مائل يتأمل قاعه، قذفته فيه على الفجاءة ثم قتلته بإلقاء الأحجار الضخمة عليه. ووصل إلـى المكـان بعـض الجنـود الموالين، وأخذوها إلى الإسكندر ليقضي فيها برأي.



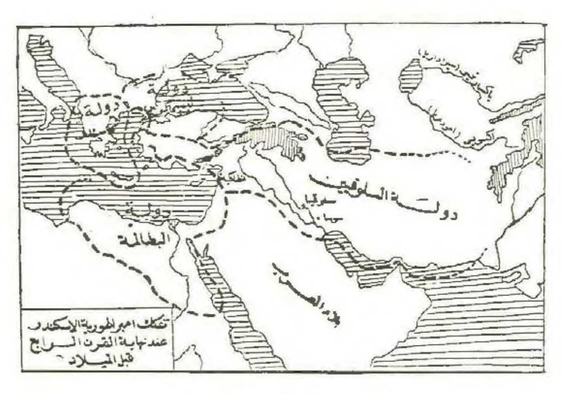
ش (٨٣) غزوات الإسكندر الأكبر وامبراطوريته

فتحدته، وكان دافع الغلو والتطرف الذي حدا به إلى القيام بالمذبحة قد أخذ في التناقص والتضـاؤل. فلـم يكتف الإسكندر بالعفو عنها، بل أمر برد عائلتها وممتلكاتها وحريتها إليها. ويفسر بلوتارك هذا بأنه كرم خلق وسماحة نفس ولكن المسألة أعقد من ذلك. إذ إن الإسكندر هو الذي كان ينهب ويستعبد وينتهك حرمات طيبة بأكملها. فذلك الوحش المقدوني المسكين المتردي في البئر. ما كان يفعل إلا ما قيل له إن له ملء الحرية أن يفعله. فهل يجوز لقائد أن يصدر في مبدأ الأمر أوامر قاسية، ثم يعود فيعفو عمن يقتلون أعوانه بل ويكافئهم؟ إن هذه البارقة من وخز الضمير في حالة امرأة واحدة ربما لم يكن يعوزها مظهر الكرامة الحزينة والجمـال الأسيف، إنما هي عوض زهيد في مقابل هلاك مدينة عظيمة.

وقد اجتمع في نفس الإسكندر خليط من جنون أوليمبياس الذي ورثه عنها وما أخذه عن أبيه من رجاحـة عقل وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم. ولا مراء أن حادث طيبة هذا أزعج خاطر الإسكندر. فكان كلما لقـي الطيبيين فيما بعد حاول أن يظهر لهم عطفًا خاصًا. ومما يذكر له بالفضل أن شبح ما جنت يداه في حق طيبة كان دائم الملاحقة له.

ومع ذلك فإن ذكرى طيبة لم تنقذ ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوج اء. فإذ ه دمر صور (Tyre) وغزة ومدينة ببلاد الهند، سقط أثناء فتحه إياها عنوة وجرح في قتال شريف، ولم ي نج من هذه المدينة الأخيرة نفس واحدة، حتى الأطفال. فلا بد أن ما استولى عليه من الذعر كان شد ديدًا حت ى اجترح مثل هذا الانتقام الذريع.

وعند ابتداء الحرب كان للفرس عليه ميزة فائقة. إذ كانوا في واقع الأمر سادة البحر. لأن سفن الأثيني ين وحلفائهم كانت معرضة غاضبة لا تعين الإسكندر. ولكي ينتقل الإسكندر إلى آسيا، اضطر أن يطوف معرجًا حتى عبر عند الهسبونت. فلو أنه تقدم متوغلاً في الإمبراطورية الفارسية، لتعرض لخطر قط ع مواصد لاته تمامًا عن قاعدته. وعلى ذلك كان أول واجب عليه أن يقصم العدو في البحر. ولم يكن هذا في مس تطاعه إلا بالمسير على محاذاة ساحل آسيا الصغرى والاستيلاء على الميناء تلو الميناء، حتى يتم تدمير ك ل القواع د البحرية الفارسية. فلو أن الفرس تجنبوا الالتحام معه في المعارك وانصرفوا إلى غش يان خ ط مواصد لاته الطويل، لقضوا عليه فيما يرجح ولكنهم لم يفعلوا ذلك. فإن جيشًا فارسيًا لا يزيد عن جيشه كثيرًا اشتبك معه في معركة على ضفاف نهر جرانيكوس (Granicus) (٣٣٤ ق. م.) فباء بالتدمير. وبذلك أصبح الإس كندر مطلق اليد في الاستيلاء على سارديس وأفيسوس وميليتوس ثم بعد قتال عنيف على هاليكارناس وس. وف ي الوقت نفسه كان الأسطول الفارسي عن يمينه يفصل بينه وبين بلاد الإغريق، وهو يهدده أكثر التهديد ولكن ه لا يفعل شيئًا.



ش (٨٤) تفكك إمبراطورية الإسكندر

وفي (٣٣٣ ق. م.) وحين كان يتابع هجومه هذا على القواعد البحرية، سار بمحاذاة الشاطئ حت ى رأس الخليج المسمى اليوم "خليج إسكندرونة". وكان هناك جيش فارسي جرار تحت قيادة الملك العظيم دارا الثالث متغلغل في داخلية البلاد إلى جوار خط سيره، تفصله عن الشاطئ الجبال. وتقدم الإسكندر عن ه ذه الق وة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من تدان، إذ كانت أعمال الاستطلاع – كما هو واضح – على أسوأ حال لدى الإغريق والفرس على السواء وكان الجيش الفارسي حشدا هائلاً سيئ النظام: من الجنود

والدواب ووسائل النقل ومنتجعي المعسكرات [١] ومن إليهم. ونذكر على سبيل المثال، أن دارا كان مصحوبًا بجريمة، وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين. وكان الكثيرون من كبار الضباط قد أحضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغزاة المقدونيين. وقد جمعت الجيوش من كل ولاية في الإمبراطورية، ولم يكن لديهم تقاليد متعارف عليها أو مبدأ يجمعهم ويؤلف بينهم في عمل موحد. وتملكت "دارا" فكرة قطع السبيل على الإسكندر إلى بلاد الإغريق فساق هذا الجمع الحاشد من فوق الجبال حتى البحر، ومن يمن طالعه أن اجتاز الممرات دون أن يعترض سبيله معترض، ثم عسكر في سهل إيسوس (Issus) بين الجبال والساحل. وهناك هزمه الإسكندر وكان قد عاد ليلاقيه. إذ كر الفرسان وحطم الفيلق هذا الجيش العظيم الهش كما يهشم الحجر الزجاجة، فتفرق بددًا. وفر "دارا" من مركبته الحربية – تلك الآلة العتيقة الطراز – ممتطيًا صهوة جواده، تاركًا كل شيء حتى حريمه في أيدي الإسكندر.

وكل الأقاصيص التي تروى عن الإسكندر بعد هذه المعركة تصوره على خير ما يكون الخلق الكريم فتظهره متحرزًا مسماحًا. فعامل الأميرات الفارسيات بأقصى ما يكون من الأدب، وتملك ناصية رشده، واستمسك استمساكًا وثيقًا بخطته، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعقبه. ثم واصل مسيره على قواعد الفرس البحرية – أي على ميناءي صور وصيدا الفينيقيين؛ فسلمت صيدا، وقاومته صور.

فلئن أتيح لنا أن نجد في مكان ما دليلا على مقدرة الإسكندر الحربية الفائقة، فهاهنا موضعها ومجلاها. كان جيشه من صنع أبيه، ولكن فيليب لم يظهر في حصار المدن نبوغًا أبدًا. ولما كان الإسكندر غلامًا في السادسة عشرة رأى مدينة بيزنطة الحصينة على البوسفور تصد أباه. وها هو ذا يواجه مدينة منيعة صمدت لحصار بعد حصار، وقاومت نبوخذ ناصَّر العظيم أربعة عشر عامًا. إذ إن الشعوب السامية صاحبة قصب السبق في احتمال الحصارات. وكانت صور عند ذلك جزيرة تبعد عن الشاطئ نصف ميل، وأسطولها سليمًا لم يصب بسوء، وكان الإسكندر من الناحية الأخرى، قد سبق فتعلم الشيء الكثير أثناء حصاره قلعة هاليكارناسوس، وضم إليه هيئة من المهندسين من قبرص وفينيقيا، وكان أسطول صيدا معه. وما لبث ملك قبرص أن انضم إليه بمائة وعشرين سفينة جعلت سيادة البحر في يده. وفضلاً عن ذلك فإن قرطاجة الكبيرة لم ترسل أي عون – إما اعتمادًا منها على قوة المدينة الأم أو خروجًا منها عن الولاء لها – فضلاً عن أنها كانت مشتبكة في حرب في صقلية.

وكان أول ما اتخذه الإسكندر من تدابير أن بنى جسرًا من أرض القارة إلى الجزيرة، ولا يزال هذا السد باقيًا إلى يومنا هذا. وأقام الإسكندر على طرفيس هذا الجسر عند اقترابه من أسوار صور أبراجه ومجانيقه وأكباشه [٢]. ثم شد كذلك إلى الأسوار سفنًا، أقيمت عليها الأبراج والمجانيق. واستخدم أهل صور الحراقات (سفن النيران) ضد هذا الأسطول الصغير، وأخذوا يلاحقونه بالخروج المباغت من مينائهم. وحدث في إحدى

---

(١) يزاد بها من يتعقبون المعسكرات من رجال ونساء للاستفادة من الجند. (المترجم)

(٢) الكبش: المنطاح (battering ram) آلة كانت تستعمل قديمًا في هدم أسوار الأماكن المحاصرة، تتكون من عرق عظيم من الخشب برأس من حديد قريبة الشبه برأس الكبش، ومنه اتخذ اسمها. (المترجم).

غاراتهم المفاجئة على السفن القبرصية أن أمسك بهم المغيرون وأوقعوا بهم أضرارًا جسيمة، وأصيب الكثير من سفنهم بقذائف المجانيق. ووقعت فورًا في أيدي قوات الإسكندر سفينة كبيرة مخماسة، أي ذات خمس طبقات من المجاديف، وأخرى ذات أربع طبقات – ثم فتحت آخر الأمر ثغرة في الأسوار – وبعد أن تسلق المقدونيون الأنقاض من سفنهم فتحوا المدينة عنوة.

استمر هذا الحصار سبعة أشهر، وقاومته غزة شهرين. وحدثت في كلتا الحالتين مذبحة كما حدث أن نهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق. ثم دخل الإسكندر مصر قرب نهاية (٣٣٢ ق. م.) وثبتت له سيادة البحر. فأما بلاد الإغريق – وكانت طيلة ذلك الزمان تتأرجح في سياستها – فإنها انتهت آنذاك إلى التصميم على الانحياز إلى جانب الإسكندر. وقرر مجلس دول المدن الإغريقية المنعقد في كورنثة إهداء تاج نصر من الذهب "لقائده العام". ومنذ ذلك الحين ظل الإغريق منضمين إلى المقدونيين.

وكان المصريون أيضًا في صف المقدونيين، على أنهم كانوا مع الإسكندر منذ البداية. فإن الحكم الفارسي أظلهم قرابة مائتي سنة. ولم يكن لمجيء الإسكندر من معنى عندهم سوى ذهاب سيد وقدوم آخر، ولكنه تغيير كان في جملته تغيرًا إلى أفضل. فسلمت البلاد من غير قتال. وأظهر الإسكندر الاحترام البالغ نحو شعورها الديني، فلم يكشف اللفائف عن أي مومياء كما فعل قمبيز، ولم يعتد على حرمة آبيس عجل ممفيس المقدس. وفي تلك البلاد لمس الإسكندر في نفسه في ظلال المعابد الضخمة وعلى نطاق واسع كثيرًا من الشواهد والأدلة على وجود ميل إلى تدين خفي غير منطقي يذكره بأسرار وخفايا طالما اعتنقتها والدته وأثرت في طفوليته أيما تأثير. وظل أربعة أشهر في مصر يداعب العواطف الدينية وتداعبه.

ولا بد لنا أن نتذكر أنه كان لا يزال شابًا يافعًا، منقسمًا على نفسه. أجل إن سلامة العقل القوية التي ورثها عن أبيه جعلت منه جنديًا عظيمًا. وحبته تعاليم أرسطو بشيء من النظرة العلمية إلى العالم. أجل إنه دمر صور. بيد أنه أنشأ في مصر عند أحد مصبات النيل مدينة جديدة هي الإسكندرية، لتحل محل ذلك المركز التجاري القديم. وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من إيسوس، مرفأ ثانيًا هو الإسكندرونة. ولا تزال كلتا هاتين المدينتين زاهرة إلى يومنا هذا. كما أن الإسكندرية انقضى عليها دهر ربما كانت فيه أكبر مدينة في العالم. فلا بد إذن أن موقعيهما اختير اختيارًا حكيمًا. على أن الإسكندر كانت لديه كذلك روح التخيل العاطفية الهوجاء التي كانت لأمه. فإنه إلى جانب هذا العمل الإنشائي كان مستغرقًا في مغامرات دينية إذ استحوذت آلهة مصر على لبه. وإذا هو يسافر أربعمائة ميل إلى واحة قصية لزيارة وحي آمون. ذلك بأنه كان يريد أن يبت في شكوك معينة كانت تساوره عن حقيقة نسبه ومولده. فإن أمه طالما ألهبت ذهنه بالتلميح والإشارة والألفاظ المبهمة عن سر عميق يكتنف حقيقة أبوته. فهل كان إنسان عادي مثل فيليب المقدوني أباه حقًا؟

وقد لبثت مصر قرابة أربعمائة سنة وهي قطر لا يعتاد به من الوجهة السياسية، يغزوها الإثيوبيون آونة ويغزوها الآشوريون أخرى والبابليون تارة والفرس طورًا. ولما أن أصبح تفكير المصريين فيما هم فيه من حاضر المهانة والاتضاع أمرًا بغيضًا إلى نفوسهم، أصبح الماضي والعالم الآخر أكثر روعة في نظرهم. وما تنشأ الدعاية الدينية المتبجحة بالمفاخرة والاغترار بالماضي إلا عن طول شعور الشعوب بالمذلة المزمنة الأليمة. فإن المقهور

يستطيع أن يقول للظافر "ليس هذا الظفر بشيء ذي بال في نظر الآلهة الحقة". وهكذا اضطر ابن فيليب المقدوني وسيد بلاد الإغريق العام إلى أن يحس صغاره وضآلة قدره بين المعابد الضخمة المشمخرة. وكان للإسكندر نصيب غير عادي مما هو مألوف من طموح الشباب الطبيعي إلى التأثير في كل من يحيط بهم من الناس. فكم كان ارتياحه واطمئنان نفسه عظيمًا إذن حين يكتشف لتوه أنه ليس مجرد مخلوق موفق، وليس واحدًا من أولئك السوقة من هؤلاء الإغريق العصريين وإنما هو قديم أزلي قدسي ابن إله، وهو الإله فرعون بن آمون رع!!!...

ولقد سبق لنا أن قدمنا لك في فصل سابق وصفاً لتلك المقابلة في معبد الصحراء.

ولم يقتنع الشاب تمام الاقتناع. نعم أطافت به في بعض الأحايين لحظات الاقتناع. كما كانت تنتابه في أحيان أخرى أطوار من سلامة العقل، عند ما كان الأمر أقرب إلى مزاح. فأبدى في حضرة المقدونيين والإغريق الشك في أنه إله حقًا. فلما انطلق دوي الرعد القاصف، أقدم السفيه أريستارخوس (Aristarchus) على سؤاله "ألا تنوي أن تفعل شيئاً من هذا القبيل يابن زيوس"، ولكن الفكرة الجنونية جعلت مع ذلك تطيف بذهنه منذ ذلك الحين وهي مستعدة لأن يلهب أوارها النبيذ أو الملق.

وفي الربيع التالي (٣٣١ ق. م.) عاد إلى صور، وزحف من هناك نحو مملكة آشور جاعلاً الصحراء السورية عن يمينه، فوجد في انتظاره عند خرائب نينوي المنسية جيشاً فارسيًا عظيمًا، طفق دارا يجمعه منذ معركة إيوس. وكان يتألف من خليط هائل آخر من فرق الجند، ويعتمد في قوته الرئيسية على ذلك السلاح البالي العتيق حتى في ذلك الوقت: وهو المركبة الحربية. وكان لدارا من هذه قوة عدتها مائتان، وقد ربطت بعجلات كل مركبة وإلى عريشها وجسمها مناجل. ويبدو أنه كان بكل مركبة أربعة خيول، فبات واضحًا أنه إذا جرح أحد هذه الخيول بنبل أو سهم، تعطلت المركبة. وكانت الخيول الخارجية تعمل أكثر ما تعمل كوقاية لخيول العجلة الداخلية. ولذا كانت تشبك إلى المركبة بسير خارجي مفرد يسهل قطعة، ولكن إصابة أحد خيول العجلة (أي الخيل الداخلية) كان يفضي إلى تعطيل العربة كلية. ولمثل هذه العربة أثر ساحق عظيم إذا هي استعملت ضد جيش مفكك من المشاة أو نفر من المحاربين الفرادى. ولكن دارا ابتدأ المعركة بقذفها على الخيالة وعلى المشاة الخفاف، فبلغ القليل منها هدفه وسرعان ما تم القضاء على هذه أيضًا بسهولة. وأجريت المناورات لتخير مواقع أفضل والاعتصام بها، وانطلق المقدونيون المدربون أحسن تدريب يسيرون في خط مائل صوب الجبهة الفارسية محتفظين بحسن نظامهم. فأما الفرس فإنهم في تعقبهم لهذه الحركة حتى الجناح، فتحوا في صفوفهم ثغرات. وعلى حين بغتة كر الفرسان المقدونيون المنظمون في أحد هاته الصدوع وصدموا قلب الجيش الفارسي. وعلى أثر كرتهم مباشرة تقدم المشاة يتبعونهم، فتمزق قلب الفرس وميسرتهم. وقد تقدمت الراكبة الخفيفة في الميمنة الفارسية فترة من الزمان فاكتسبت من ميسرة الإسكندر أرضًا، وكأنها لم تفعل ذلك إلا لكي تمزقها فرسان تساليا إربًا. وكانت في ذلك الوقت أصبحت تقارب في حسن دربتها نموذجها المقدوني المحتذى، ولم تعد القوات الفارسية تشبه الجيش بالمعنى المعروف. فإنها انحلت إلى جمع غفير من الفارين تنساب ثلله تحت غمامات عظيمة من القتام. وليس بينها سبب واحد يلم شعثها وهي تسير عبر السهل الحار نحو أربيل (Arbela). وانطلق المنتصرون بخيلهم خلال الغبار والجمهور الهارب وهم يقتلون ويذبحون حتى خيم الظلام ووضع للمذبحة حدًا. وقاد دارا المتقهقرين.

تلك هي معركة أربيل (أربيلا) التي حدثت في اليوم الأول من أكتوبر (٣٣١ ق. م.). وإنا لنعرف تاريخها بمثل هذا الضبط الشديد، لأن التاريخ سجل لنا أنه اتفق قبل حدوثها بأحد عشر يومًا أن كان المنجمون عل ى كلا الجانبين في شغل شاغل بخسوف القمر.

وفر دارا شمالاً إلى بلاد الميديين، وتقدم الإسكندر إلى بابل.

وكانت المدينة القديمة مدينة حمورابي (الذي حكم قبل ذلك بسبع عشرة مائة من السنين) ومدين ة نبوخ ذ ناصَّر العظيم ونابونيداس، لا تزال على العكس من نينوي مركزًا هامًا ناجحًا. والبابليون شأنهم في ذلك شأن المصريين، لم يكن ليعنيهم كثيرًا أمر انتقال الحكم من الفرس إلى المقدونيين. وكان معبد بعل – م ردك ق د أصبح حطامًا وخرائب ومحجرًا تؤخذ منه مواد البناء، بيد أن تقاليد الكهنة الكلدان كانت لا تزال باقية، وق د وعد الإسكندر بإعادة بناء المعبد.

ومن ثم سار إلى سوسا، التي كانت يومًا ما مدينة العيلاميين البائدين المنسيين، والتي أصبحت العاصـ مة الفارسية.

ثم سار إلى برسيبوليس حيث أمر – وقد بلغ انتشاؤه بالخمر في إحدى المآدب ذروته – بإحراق بيت ملك الملوك. ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزرسيس أثينا.

٤ – تجولات الإسكندر

هنا يبدأ طور جديد من أطوار قصة الإسكندر. فإنه ظل السنوات السبع التالية يتجول بجيش معظمه من المقدونيين، في شمال وشرق الجزء الذي كان عند ذلك يُعد العالم المعروف. ابتدأ أولاً بالسير في أعقاب دارا، ثم لا ندري بعد ذلك ماذا أصبح...؟ فهل كان الأمر أمر مسح منظم لعالم كان ينوي أن يوحد أجزاءه ويؤلف منه دولة كبرى، أم هو مجرد سير على غير هدى كطراد الإوز البري في صيد؟ لقد كان جنوده أنفسهم بل خاصة أصدقائه يعتقدون في الرأي الأخير، وأخيرًا أوقفوا مدْرجه وراء السند. والواقع أن عمله هذا يبدو على الخريطة أشبه الأشياء بطراد إوز برى، وكأني بهذا الطراد لا يهدف إلى شيء بوجه خاص ولا يرمي إلى الوصول إلى مكان ما.

وسرعان ما انتهى به تعقبه دارا الثالث إلى مسرح خاتمته المحزنة. إذ يلوح أن قواد الملك العظيم أنفسهم ثاروا عليه بعد معركة أربيلا، ناقمين منه ضعفه وعدم كفايته. فسجنوه وأخذوه معهم على الرغم من رغبته في أن يلقي بنفسه بين يدي سماحة قاهره، واتخذوا من بيسوس (Besst) حاكم باكتريا قائدًا لهم. وانتهى الأمر بالإسكندر إلى طراد جدي حامي الوطيس يتعقب آثار القافلة الهاربة التي كانت تحمل ملك الملوك الأسير. وعند الفجر، وبعد مطاردة دامت الليل كله، لاحت القافلة في الأفق البعيد، وأصبح الفرار جموحًا جنونيًا، فإن بيسوس وقواده تركوا المتاع والنساء وكل شيء آخر، كما تركوا من خلفهم أيضًا عائقًا آخر، فإلى جوار بركة ماء منعزلة عن الطريق العام سرعان ما وجد جندي مقدوني عربة متروكة لا تزال بغالها مشدودة إليها، في تلك العربة كان يرقد دارا صريعًا، وهو مطعون في عشرات الأماكن من جسمه والدم يتدفق منه حتى الموت، ذلك أنه رفض أن يواصل المسير مع بيسوس، وأبى أن يمتطي الجواد الذي قدم إليه. ولذا طعنه قواده بحرابهم ثم تركوه، فسأل آسريه بعض الماء. ولسنا ندري إن كان قد قال شيئًا آخر غير هذا. على أن المؤرخين رأوا من اللائق أن يلفقوا عليه حديث النزع الأخير، وهو ما لا يقبله العقل. ولعله لم يقل إلا الشيء القليل الطفيف.

ولما أن وافى الإسكندر بعد شروق الشمس بقليل كان دارا قد قضى نحبه...

ولتجوالات الإسكندر عند مؤرخ العالم أهمية خاصة بها، منفصلة تمامًا عن الضوء الذي تلقيه على أخلاقه. فكما أن حملة دارا الأول رفعت الستار من خلف بلاد الإغريق ومقدونيا، وأظهرتنا على شيء مما يقع خلف الأستار الشمالية الصامتة من وراء تاريخ المدنيات الأولى الذي تنقله إلينا السجلات، فإن حملات الإسكندر تنقلنا كذلك إلى أقاليم لم يكن أحد دون عنها حتى ذلك الوقت أي شيء جدير بالثقة.

فيتكشف لنا أنها لم تكن مناطق صحراوية، بل كانت زاخرة بحياة جماعات ذات طابع خاص.

سار الإسكندر إلى شواطئ بحر قزوين، ومن ثم اتجه شرقًا عبر ما يسمى الآن باسم "التركستان الغربية"، وأسس مدينة تسمى الآن هيرات (Herat) ومنها سار شمالاً بطريق كابول وما يسمى الآن باسم سمرقند، حتى وصل إلى جبال التركستان الوسطى، ثم عاد أدراجه جنوبًا وانحدر إلى الهند مخترقًا ممر خيبر، والتحم في معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد القامة، هو الملك بوروس (porus) وفيها التقت المشاة المقدونية بجمع من الأفيال وهزمته. ولعله كان يرغب في مواصلة السير شرقًا عبر الصحراوات إلى وادي الجانج، بيد أن جنوده أبت مواصلة السير، ويحتمل أنهم لو لم يفعلوا ذلك في تلك الآونة أو بعدها، لواصل السير حتى يبيد من التاريخ شرقًا، ولكنه اضطر أن يحول وجهته مرتدًا، فبنى أسطولاً انحدر به إلى مصب السند. وهناك قسم قواته، فأخذ الجيش الرئيسي وسار على امتداد الشاطئ القاحل قافلاً به إلى الخليج الفارسي، وقاسى الجيش في الطريق متاعب وأهوالا جمة، ومات منه الكثير من الرجال عطشًا، وتبعه الأسطول بحرًا، ولحق به عند مدخل الخليج الفارسي. وكان في خلال رحلته أثناء هذه السنوات الست يشتبك في معارك، وتدين له بالخضوع كثير من الشعوب العجيبة، وينشئ المدن. ولقد رأى جثة دارا في يونيه (٣٣٠ ق. م) وعاد إلى سوسا (٣٢٤ ق. م.) فوجد الإمبراطورية في اختلال. ووجد ولاة الأقاليم (الستاربة) ينشئون لأنفسهم جيوشًا خاصة بهم. وألفى باكتريا وميديا في ثورة، ووجد أوليمبياس جعلت مهمة الحكومة في مقدونيا أمرًا مستحيلاً. كما أن هاربالوس خازن الملك فر بكل ما خف حمله من الخزانة الملكية، وأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريق وهو يرشو الناس في رحيله. ويقال إن بعض أموال هاربالوس وصل إلى جيب ديموستثيز.

على أننا قبل أن نعالج الفصل الختامي لقصة الإسكندر، نرى أن نقول كلمة عن تلك الأقاليم الشمالية التي تجول فيها. وواضح أنه من إقليم الدانوب وعبْر جنوب روسيا قدمًا، وعبْر القطر الواقع إلى شمال بحر قزوين قدمًا، والقطر الواقع إلى شرق بحر قزوين فما تلاه حتى الكتل الجبلية في هضبة البامير، ثم شرقًا إلى حوض نهر تاريم بالتركستان الشرقية، – كانت تنتشر آنذاك سلسلة من قبائل وشعوب همجية (متبربرة) متشابهة كلها وهي جميعًا على مرحلة واحدة من الثقافة تقريبًا، وهي في معظم أمرها آرية في لغتها، ولعلها نوردية في جنسها. وكانت مدنهم قليلة العدد إذ هم في الكثير الغالب من المترحلين، وقد يستقرون في بعض الأحيان استقرارًا موقوتًا رغبة في زراعة الأرض. ولا ريب أنهم كانوا قبل ذلك يختلطون في آسيا الصغرى بالقبائل المغولية. بيد أن تلك القبائل المغولية لم تكن آنذاك منتشرة هناك.

وقد تعرضت تلك الأجزاء من العالم لعملية هائلة مستمرة من جفاف الجو وارتفاع السطح ظلت تحدث طيلة العشرة آلاف سنة الأخيرة. فمنذ عشرة آلاف سنة كاملة كان هناك – فيما يرجح – حاجز مياه متصل الحلقات يمتد بين حوض نهر الأوبي (Obi) وبين بحر آرال – قزوين. وإذ إن هذا البحر قد جف، وأصبحت أراضي المستنقعات قطرًا شبه سهوبي، فإن الرحل النورديين القادمين من الغرب والرحل المغول من الشرق التقوا واختلطوا وعاد حصان الركوب إلى العالم الغربي. وواضح أن هذه المنطقة المترامية أخذت تتحول إلى مركز تتجمع فيه هذه الشعوب البربرية. وكان ارتباطهم بالأرض التي يحتلونها ارتباطًا مفككًا الأوصال، فكانوا يعيشون في خيام وعربات أكثر منهم في منازل. وكانت دورة وجيزة من سني الوفرة وانتشار الصحة أو انقطاع الحروب بين القبائل أثناء عهد أحد الحكام الأقوياء، تؤدي إلى زيادة جسيمة في عدد السكان فإذا أتت سنتان أو ثلاث من العسيرات العجاف فإنها تكفي لعودة القبائل إلى تجوالها من جديد التماسًا للغذاء.

ومن قبل بزوغ فجر التاريخ المدوّن، كان إقليم التجمع البشري هذا بين الدانوب والصين، يلقى على التناوب قبائل تنهال مثل شآبيب المطر المتتابع زاحفة جنوبًا ونحو الغرب. فكانت تلك المنطقة من خلف المناطق المأهولة بالسكان أشبه بسحب الغمام المتراكم، يتجمع فيها الغزاة ثم ينفذون كالسيل الطامي. ولقد لاحظنا كيف هبطت الشعوب الكلتية غربًا كطل [1] خفيف، وكيف أن الإيطاليين والإغريق وذوي قرباهم من سكان إبيروس والمقدونيين والفريجيين انحدروا جنوبًا. ولاحظنا كذلك حركة الكمريين من الشرق وهي تندفع عبر آسيا الصغرى كشؤبوب فجائي من البرابرة؛ كما شهدنا انحدار الإسكيذيين والميديين والفرس جنوبًا وهبوط الآريين إلى الهند. وحدثت قبل عهد الإسكندر بما يداني القرن غزوة آرية جديدة لإيطاليا على يد شعب كلتي، هو الغال الذين سكنوا وادي نهر بو (Po)، فهؤلاء الشعوب، على اختلاف أجناسهم، هبطوا من غمرات الحجب الشمالية إلى ضياء التاريخ. وفي الوقت ذاته كان المستودع، أعني إقليم التجمع، خلف ذلك الضياء لا يفتر عن تجميع الشعوب استعدادًا لفيضانات جديدة. فمسير الإسكندر في آسيا الوسطى يدخل الآن في تاريخنا أسماء جديدة على أسماعنا، هي أسماء البارثيين (Parthians) وهم شعب من الراكبة الرماة بالقسي، كتب لهم أن يمثلوا دورًا هامًا في التاريخ بعد ذلك بقرن تقريبًا. والباكتريين، الذين كانوا يعيشون في الموطن الرملي للجمل. ويبدو أنه حيثما طاف الإسكندر لقي شعوبًا تنطق بالآرية، وكان البرابرة المغول في الناحية الشمالية الشرقية لا يزالون مجهولين. ولا أخال أحدًا كان يتصور أن هناك أيضًا مستودعًا آخر عظيمًا من السكان فيما وراء الإسكيذيين وأقربائهم مقره شمالي الصين، قدر لهم أن ينسابوا هم أيضًا منت وهم متدفقين تدفقًا جديدا، نحو الغرب والجنوب، ويختلطوا أثناء مجيئهم بالإسكيذيين (الأشقوذيين) النورديين وبكل من يلتقون به من شعوب أخرى ذات عادات مماثلة لعاداتهم. وحتى ذلك الحين لم يكن أحد غير أهل الصين يعرف شيئًا عن الهون (Huns). ولم يكن هناك أتراك في التركستان الغربية أو في أي مكان آخر آنذاك. ولم يكن ثمة أي تتار في العالم.

إن هذه اللمحة عن الأحوال السائدة في التركستان في القرن الرابع ق. م. لمن أمتع مظاهر تجولات الإسكندر. وهناك غارة أخرى، هي غارته على أرض البنجاب. فإن مما يستثير غضب رواة القصة البشرية، أنه لم يواصل مسيره حتى إقليم الجانج (الكنج)، وأننا لم نحصل نتيجة لذلك على أوصاف وتفاصيل قائمة بذاتها دبجها كتاب الإغريق عن الحياة في البنغال القديمة. على أن هناك مجموعة ضخمة من المؤلفات في لغات هندية متنوعة تعالج تاريخ الهند وحياتها الاجتماعية، وهي لا تزال في حاجة إلى من ينفض عنها الغبار، ويقدمها إلى القراء الأوروبيين.

([1]) الطل: المطر الخفيف؛ والوابل الثقيل؛ والشؤبوب: الدفعة الواحدة من المطر. (المترجم)

٥- هل كان الإسكندر عظيمًا حقًا؟

ظل الإسكندر ست سنوات يمتلك الإمبراطورية الفارسية غير منازع، وكـ ان عنـ د ذلـ ك بلـ غ الحادية ة والثلاثين. ولم يستحدث في هذه السنوات الست شيئًا يذكر. فاستبقى معظم نظم المقاطعات الفارسية، وعـ ين حكامًا (Satraps) جددًا أو استبقى السابقين منهم. وكانت الطرق والموانى ونظم الإمبراطورية لا تزال على ما تركها سلفه الأعظم قورش. واكتفى في مصر باستبدال حكام جدد بحكام الأقاليم القدماء، وقهر في الهند د بوروس ملكها ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عما وجده عليه؛ اللهم إلا أن بوروس أصبح يسميه الإغريق ساتراب. وخطَّط الإسكندر عددًا من المدن، قدر لبعضها أن تنمو وتزدهر فتصبح مدنًا عظيمة. فإنه أسس ما يبلغ في مجموعة سبعة عشر إسكندرية تعاورت على أسمائها تغيرات شتى – مثال ذلك قند دهار (إسـ كندر) وسيكندر أباد. على أنه دمر صور، ودمر مع صور كل أمن وطمأنينة تستظل بها الطرق البحرية التي كانت حتى ذلك الحين المنفذ الرئيسي لبلاد ما بين النهرين نحو الغرب. ويقول المؤرخون إنه "هلَّـ ن" الشـ رق، أي صبغه بالصبغة الهللينية. على أن مملكة بابل ومصر كانتا تعجان بالإغريق قبل زمانه. فهـ و إذن لـ م يكـ ن السبب في هذ العملية بل كان أحد عواملها. وبفضله ظل العالم بأسره ردحًا من الزمان، من البحر الأدريـ اتي إلى نهر السند تحت لواء حاكم واحد. وبذا يكون قد حقق أحلام إيزوقراط وآمال فيليب أبيه. ولكن إلى أي حد كان يسعى إلى جعل هذا الاتحاد مستديمًا وطيد الأركان؟ وهل كانت إمبراطوريته حتى آنذاك إلا زخرفًا براقًا يبهر الأبصار ورواء مؤقتًا لشخصه العظيم الأخاذ؟.

لم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة، ولا إقامة مواصلات بحرية آمنة مضمونة ومن السخف أن نتهمه بأنـ ه أهمل التعليم، لأن الفكرة القائلة بأن الإمبراطوريات يجب أن يربط التعليم أجزاءها، كانت لا تزال غريبة عن الفكر البشري. بيد أنه لم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ولا كان يفكر في أي خلف له، ولم يعمـ ل علـ ى ابتداع أي تقاليد، بل إن ما أنشأه لا يعدو أن يكون أسطورة تدور حول شخصه. ويلوح أنه لم يدر بخلـ ده أن الفلك سوف يواصل الدوران من بعده، وأن العالم لن تشغله أمور أخرى عدا التحدث بفخامته وروعته. كـ ان لا يزال صغير السن لا جرم. ولكن ألا ترى أن فيليب قبل أن يصل إلى الحادية والثلاثين من عمره بـ زمن بعيد كان يفكر في تعليم الإسكندر؟

وقد يتساءل الإنسان عما إذا كان الإسكندر صاحب فكرة في السياسة على الإطلاق؟

إن بعض دارسي تاريخ حياته يؤكدون أنه كان من أرباب السياسة والتدبير، وأنه شغل يوم كان في سوسا بوضع الخطط لإقامة إمبراطورية عالمية؟. وأنه كان لا يرى فيما يعمل مجرد فتح مقدوني للعالم، بل صهرا ومزجًا لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض. ومهما يكن من شيء فإنه فعل شيئًا واحدًا، يلمح إلـ ى هـ ذه الفكرة تلميحًا خفيًا، إذ أقام وليمة عرس كبرى، تزوج فيها هو وتسعون من قواده وأصـ دقائه مـ ن عـ رائس فارسيات. فأما هو فقد تزوج بنت دارا، وإن كانت لديه من قبل زوجة آسيوية هي روكسانا (Roxana) ابنة ملك سمرقند. وأقام لهذا الزواج الجماعي حفلاً رائعًا جدًا. وفي الوقت نفسه، قـ دم هـ دايا العـ رس للجنـ ود

المقدونيين الذين تزوجوا من عرائس آسيويات، والذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف. وقد سمي هذا "زواج أوربا وآسيا". إذ كان لا بد للقارتين من الارتباط على حد قول بلوتارك "برباط زواج شرعي وبجامع الاتصال والاشتراك عن طريق الذرية والنسل". ثم أخذ بعد ذلك يدرب المجندين من فارس ومن الشمال، أي من الفرس والباكتريين ومن على شاكلتهم – على فنون الحرب التي تتميز بها الأنظمة الخاصة بالفيلق والفرسان. فهل كان ذلك أيضًا لكي يتم مزج آسيا وأوربا؟ أم كان يرمي من وراء ذلك إلى الاستقلال بنفسه عن رجاله المقدونيين؟ لقد اشتمُّوا منه رائحة الفكرة الثانية على كل حال، فتمردوا عليه، واستطاع في شيء من الصعوبة أن يرجعهم في حال من الضراعة والندم، واستمالهم إلى الاشتراك في وليمة عامة جمعت بينهم وبين الفرس. ولقد أجرى المؤرخون على لسانه حديثًا بليغًا مستفيضًا لهذه المناسبة... كان بيت القصيد فيه أنه أمر رجاله المقدونيين أن يرحلوا، ولم يوضح لهم الطريقة التي يرى أن يخرجوا بها من فارس إلى وطنهم. فبعد أن قضوا ثلاثة أيام في هلع، خضعوا له والتمسوا منه الصفح والغفران.

والواقع أن هذا الموضوع يمكن أن يكون موضع بحث شائق. فهل كان الإسكندر حقًا ينوي إدماج الأجناس ومزجها بعضها ببعض، أم أن كل ما في الأمر أن قلبه تعلق بحب ما يستمتع به الملك الشرقي من عظمة وقدسية؟ وكان لذلك يريد أن يتخلص من هؤلاء الأوربيين الذين لا يعدونه إلا ملكًا قائدًا؟ على أن كتّاب عصر الإسكندر، والكتاب الذين عاشوا في زمن قريب من عصره أميل كثيرًا إلى الأخذ بالفكرة الثانية. وهم يؤكدون لنا أنه كان مغرورًا غرورًا لا حد له، ويقصون كيف أنه أخذ يرتدي أثواب ملوك الفرس وتيجانهم، "يرتديهما أولاً أمام البرابرة وعلى انفراد وبين خاصته، ولكنه ما لبث حتى أخذ يرتديهما على الملأ عند جلوسه لتصريف الأمور" وسرعان ما طلب من أصدقائه مظاهر الخضوع والخشوع على الطريقة الشرقية.

ولعل هناك شيئًا واحدًا يقوي الظن بوجود غرور شخصي عظيم في الإسكندر. فإن صورته نقشت ونحتت مرارًا كثيرة، وهو يبدو فيها على الدوام في صورة الشاب الجميل ذي الذوائب المدهشة التي تتدلى إلى الخلف كاشفة عن جبين عريض. وكان معظم الرجال في سالف الزمان يرخون لحاهم، ولكن الإسكندر الذي فتن بجماله وغضارة شبابه كان يأبى أن تفارقه نضرة الصبا. لذا ظل غلامًا زائفًا في سن الثانية والثلاثين فكان حليق الوجه وبذلك استن للإغريق وإيطاليا سنّة دامت قرونًا كثيرة.

وقصص العنف والغرور في سنيه الأخيرة تتجمع متكاملة حول ذكراه. فإنه أصغى ذات مرة إلى هذر نمام وشى له بفيلوتاس بن بارمينيون أحد أشد قواده إخلاصًا وفوزًا بثقته. إذ أبلغه أن فيلوتاس، قال متفاخرًا بنفسه أمام امرأة كان يغازلها: "إن الإسكندر إنما هو مجرد غلام. وإنه لولا رجال من أمثال أبيه وأمثاله لما تم له غزو فارس وأشباهها من البلدان". ومثل هذه الروايات تنطوي على عنصر معين من الصدق. وأحضرت المرأة بين يدي الإسكندر، فأصغى إلى غدرها وخيانتها. واتهم فيلوتاس للساعة بالتآمر عليه، ثم أمر به فعذب وأعدم بناء على أدلة بتراء ناقصة. ثم فكر الإسكندر في بارمينيون، الذي مات ولداه الآخران من أجله (أي الإسكندر) في ميدان القتال. فأرسل رسلا سراعًا ليقتلوا الشيخ المسن قبل أن يبلغه مقتل ولده وكان بارمينيون هذا من أكثر قواد فيليب تمتعًا بثقته، وبارمينيون هذا هو القائد الذي قاد الجيوش المقدونية

إلى آسيا قبل مصرع فيليب. وليس هناك أقل شك في صحة جوهر هذه القصة وصدق ما ت روي. ولا ف ي إعداد كاليسثنيز ابن أخت أرسطو الذي رفض أن يقدم للإسكندر مراسم التقديس. ثم "أخذ يسير ف ي كبري اء واختيال كمن دك طغياناً، على حين كان الشبان يتبعونه بوصفه الرجل الحر الأبي الوحيد بين آلاف الرجال". ويختلط بأمثال هذه الحوادث تلك القصة التي لها دلالتها – قصة الشجار الذي قتل فيه الملك كليت وس أثن اء معاقرتهما الخمر. ذلك أن الملك ورفاقه أكثروا ذات ليلة من الشراب. فأطلق الشراب الألسنة وجعل الح ديث عاليًا حرًا وانطلقت ألسن بالملق الكثير "للإله الصغير" مع الإسراف في الحط م ن ق در فيلي ب، وابتس م الإسكندر لذلك ابتسامة الرضا. وكان ذلك الاغتباط النفسي المخمور فوق ما يطيقه المقدونيون، فث ارت ل ه ثائرة كليتوس – وهو أخوه في الرضاع – ثورة جنونية. فلام كليتوس الإسكندر على ارتدائه الثياب الميدي ة وأثنى على فيليب. وعقب هذا شجار صاخب، ودفع أصدقاء كليتوس به إلى خارج الحجرة لوضع حد له ذا الشجار. على أنه كان مع ذلك في حالة السكر التي تبعث العناد فعاد من مدخل آخر وسمع في الخارج وه و ينشد مقتبسًا هذه الأبيات من شعر يوريبيدس في نبرة جريئة مليئة بالازدراء "أهذه ع اداتكم؟ أهك ذا ب لاد الإغريق تكافئ مقاتليها؟ أيدعي رجل واحد الغنائم التي غنمها الآلاف؟".

وعند ذلك اختطف الإسكندر حربة من أحد حراسه وأنفذها في جسم كليتوس وهو يرفع الستار ليدخل...

والإنسان مضطر إلى الاعتقاد بأن هذا هو الجو الحقيقي لحياة الفاتح الشاب. ثم إن قصة مظ اهر حزن ه الجنوني الشديد على هيفايستيون Hephaestion لا يمكن أن تكون كلها اختلاقاً ولا من نسج الخيال تمامً ا، فلئن صحت كلها، أو كانت صحيحة في بعض أجزائها، فإنها تكشف عن ذهن مضطرب لا يعرف الات زان، ومحصور تمامًا في صغائر الأمور الشخصية، ذهن لم تكن الإمبراطورية لديه إلا مجالاً للمظهر الأناني، ولا موارد العالم بأسرها إلا مادة لنوبات من ذلك النوع من السماحة والكرم الذي يسرق ألف إنسان لكي ينت زع إعجاب شخص واحد مبهور بما يجزل له من عطاء.

فإن هيفايستيون الذي كان مريضا فرضت عليه تغذية خاصة دقيقة – عمد أثناء غياب طبيبه في المس رح إلى دجاجة محمرة فتناولها، واحتسى قنينة من النبيذ المثلوج فمات على الأثر. وعند ذلك آلى الإسكندر عل ى نفسه أن يقيم مظاهر الأسى والأحزان. وكان حزنه هذا حزن مجنون معتوه. فأمر بالطبيب فص لب، وأم ر بقص شعر كل حصان وبغل في بلاد فارس وهدم جميع حصون وطوابي المدن المجاورة، ومنع الموس يقى بتاتاً في معسكره مدة طويلة. ولما أن استولى على قرى معينة من قرى القوزيين (Cusaeans) أم ر بك ل البالغين فيها فذبحوا قرباناً لروح هيفايستيون، ثم خصص ما لا يقل عن عش رة آلاف ت النتوم (talentum) لإقامة قبر له. وكان هذا بالنسبة لتلك الأيام مبلغاً هائلاً من المال. وليس في واحد من هذه الأمور أي تك ريم حقيقي لهيفايستيون، بيد أنها أظهرت للعالم المأخوذ فرقاً ورعبًا كم يكون حزن الإسكندر هائلاً مروعًا!!

وقد تكون هذه القصة الأخيرة والكثير من أمثالها ترهات وأكاذيب أو تشويهات أو مبالغات، بيد أن بينه ا سببًا يجمعها. وبعد حفل صاخب في بابل اشتد فيه الشراب، ألمت بالإسكندر حم ى مباغت ة (٣٢٣ ق. م.) فاعتل ومات وهو بعد في الثالثة والثلاثين لم يتجاوزها. ومنذ ذلك الحين تجد الإمبراطورية العالمي ة، الت ي كان اختطفها وأمسك بها بين يديه، كما يفعل الطفل بزهرية ثمينة، قد سقطت إلى الأرض وتحطمت إربًا.

فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه في مخيلة الناس من نظام حكم عالمي شامل، ووقعت البلاد من بعده بين براثن حكم استبدادي مطلق أو أوتوقراطي همجي يغشاه الاضطراب. وأخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يشيد لنفسه ويعمل لحسابه. ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الإسكندر بأسرها فقد سارعت روكسانا زوجته الأعجمية إلى قتل ضرتها ومنافستها ابنة دارا. ثم وضعت – للوقت – ابناً للإسكندر ولد بعد وفاته، وكان يسمى هو أيضًا الإسكندر. ثم ما لبث أن لقي مصرعه معها بعد ذلك ببضع سنين (٣١١ ق. م.). وقتل أيضًا هرقل (Hercules) الابن الآخر الباقي للإسكندر؛ وكذلك قتل أيضًا أريدايوس أخو الإسكندر غير الشقيق الضعيف العقل. ولم يفت بلوتارك أن يلقي لمحة أخيرة إلى أوليمبياس في أثناء فترة وجيزة استمتعت فيها بالقوة والسلطان في مقدونيا. وقد أخذت تتهم هذا الشخص أولاً ثم ذاك، بتهمة دس السم لولدها الرائع، فقتلت الكثيرين في ثورة حنقها، وأمرت بجثث بعض خاصته الذين ماتوا بعد وفاته، فاستخرجت من قبورها. ولسنا ندري هل ألقى هذا البحث والنبش لجثث الموتى أي ضياء جديد على وفاة الإسكندر. وأخيرًا قتلت أوليمبياس في مقدونيا، إذ اغتالها أصدقاء أولئك الذين قتلتهم.

٦- خلفاء الإسكندر

وسرعان ما برزت من حمأة الإجرام هذه شخصيات رئيسية ثلاث. فإن شطرًا كبيرًا من الإمبراطورية الفارسية القديمة يمتد حتى السند شرقًا، وحتى ما يكاد يداني ليديا غربًا، تملكه قائد واحد اسمه سلوقوس (Seleucus) أسس أسرة مالكة هي الأسرة السلوقية. وانتقلت مقدونيا إلى يد قائد مقدوني آخر هو أنتيجونوس (Antigonus). واستحوذ على مصر مقدوني ثالث هو بطليموس (Ptolemy)، فجعل من الإسكندرية قصبة لبلاده، وأسس قوة بحرية متفوقة تكفل له الاحتفاظ بقبرص ومعظم ساحل فينيقيا وآسيا الصغرى في حوزة يده. ودامت إمبراطوريتا بطليموس وسلوقوس زمانًا طويلاً. على أن أوضاع الحكم في آسيا الصغرى والبلقان كانت أقل استقرارًا. وإنا لموردون للقارئ خريطتين لتساعداه على تفهم ما كان يطرأ على الحدود السياسية في القرن الثالث ق. م. من التقلبات الكثيرة. وهزم أنتيجونوس وقتل في معركة إبسوس (Ipsus) (٣٠١ ق. م) تاركًا ليسيماخوس (Lysimachus) والي تراقيا، وكساندر (Cassander) والي مقدونيا وبلاد الإغريق، خلفين له وإن لم يمكثا في الحكم طويلاً.

واقتطع حكام أقل شأنًا ولايات صغرى لأنفسهم. وفي نفس الوقت كان البرابرة يتدفقون من الغرب والشرق إلى عالم المدنية المفكك الأوصال الواهن القوي. وجاء الغال من الغرب، وهم شعب وثيق القرابة بالكلت، فأغاروا مجتاحين مقدونيا وبلاد الإغريق حتى دلفي (٢٧٩ ق. م.) وعبر فرعان منهم البوسفور إلى آسيا الصغرى. كانوا في مبدأ الأمر يستخدمون جنودًا مرتزقة، ثم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص كناهبين مستقلين. وبعد أن مضوا في غاراتهم حتى جبال طوروس تقريبًا، استقروا في أرض الفريجيين (Phrygians) القديمة ملزمين من حولهم من الناس بدفع الجزية. (وقد أصبح غال فرجيا هؤلاء هم الغلاطيين (Galatians) المذكورين برسالة القديس بولس) وأصبحت أرمينيا والسواحل الجنوبية للبحر الأسود منطقة مضطربة لكثرة من تقلب عليها من حكام. وظهر في كبادوكيا (Cappadocia) وفي بلاد بونتش (Pontus) وهي الساحل الجنوبي للبحر الأسود وفي بيثونيا (Bithynia) وفي برجامة، ملوك شبوا متشبعين بالأفكار الهللينية. ومن الناحية الشرقية تقدم كذلك نحو الجنوب الإسكيذيون والبارثيون والباكتريون. واستدامت هناك دول باكتيرية يحكمها الإغريق لم تنفك تتحول تدريجيًا إلى الطابع الشرقي. وفي القرن الثاني ق. م.، أغار بعض مغامري الإغريق من باكتيريا منحدرين حتى شمال الهند. وأسسوا هناك ممالك قصيرة الأجل، وهي آخر موجة للإغريق نحو الشرق، ثم أخذت الهمجية (البربرية) تتدلى تدريجيًا كالستار وتحجب الهند عن المدنيات الغربية [1].

([1]) عن تفاصيل العصر بعد وفاة الإسكندر، انظر للمترجم: "الحضارة الهللينسية"، الألف كتاب والأنجلو.

٧- برجامة ملاذاً للثقافة

هناك دويلة صغيرة تنهض بارزة بين أشلاء هذه الإمبراطورية الهللينية المحطمة وتطالبنا بأن نفرد لها قسمًا وجيزًا على الأقل – تلك هي مملكة برجامة (Pergamun). وقد سمعنا باسم هذه المدينة لأول مرة بوصفها مركزًا مستقلاً إبان النزاع الذي انتهى بمعركة إبسوس. وبينما كان سيل غزو الغالة يرغي ويزبد ويدور جيئة وذهابًا في آسيا الصغرى بين سنتي ٢٧٧ و ٢٤١ ق. م.، ظلت برجامة تدفع الجزية للغالة حيناً من الزمان، على أنها احتفظت باستقلالها العام. وانتهى الأمر في موقعتين فاصلتين. وظلت برجامة بعدها حرة طليقة مدة تزيد على قرن من الزمان (أي حتى ١٣٣ ق. م.)، ولعلها كانت خلال تلك المدة أسمى دول العالم مدنية. وقد أقيمت على تل الأكروبوليس مجموعة فخمة من المباني والقصور والمعابد، كما أقيم متحف ومكتبة ينافسان متحف ومكتبة الإسكندرية اللذين سنتكلم عنهما من فورنا، ويكادان يكونان أول ما ظهر من نوعهما في العالم. وقد ازدهر الفن الإغريقي للمرة الثانية بفضل رعاية أمراء برجامة. وإن فيما صنع هناك من النقوش البارزة بمذبح معبد زيوس، ومن تماثيل الغالة المقاتلين، وتماثيل الذين في النزع الأخير لجزءًا خالدًا من ذخر الإنسانية الفني.

ولم يمض طويل زمن كما سنبين ذلك فيما بعد، حتى أخذ الناس يشعرون في شرقي البحر المتوسط بسلطان قوة جديدة، هي الجمهورية الرومانية، التي كانت ترتبط ببلاد الإغريق وبالمدنية الإغريقية بشعور المودة. ووجدت الجاليات الهللينية ببرجامة ورودس، في تلك الجمهورية الرومانية حليفاً طبيعيًا نافعًا ومعيناً لها على الغلاطيين والإمبراطورية السلوقية المصطبغة بصبغة شرقية. وسنقص عليك فيما بعد كيف انتهى الأمر بأن امتد نفوذ الدولة الرومانية إلى آسيا، وكيف أنها هزمت الإمبراطورية السلوقية في معركة ماجنيزيا (١٩٠ ق. م) وطردتها من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس وكيف انتهى الأمر (١٣٣ ق. م.) بأن استسلم أتالوس الثالث آخر ملوك برجامة إلى إحساسه بالمصير المحتوم، فجعل الجمهورية الرومانية وارثة لمملكته التي أصبحت عند ذلك ولاية "آسيا" الرومانية.

٨- الإسكندر كبشير
وداعية للوحدة العالمية

يكاد كل المؤرخين تقريبًا ينزعون إلى اعتبار سيرة الإسكندر الأكبر مؤذنًا بعهد جديد في الشئون البشرية. فإنها ضمت شتات العالم المعروف كله باستثناء الجزء الغربي من البحر المتوسط فجعل ت مذ ه مس رحية واحدة. على أن الآراء التي كونها الناس عن الإسكندر ذاته، تتفاوت تفاوتًا بعيدًا. فإنهم ينقسمون في غالبيتهم إلى مدرستين رئيسيتين. ففريق من العلماء يسحره شباب ذلك الفتى وبهاؤه وجلاله. ويبدو أن هؤلاء القوم من عباد الإسكندر ميالون لقبوله على أساس التقدير الذي يقدره هو لنفسه متغاضين عن كل جريمة ارتكبها وكل طيش ونزق بدر منه، إما بعَدِّها مجرد ثوران لطبيعة خصبة أو أشياء اقتضتها الضروريات المرير رة الت ي حتمتها إحدى الخطط الهائلة، واعتبار حياته مصوغة في خطة مرسومة من الحنكة والسياسة والتدبير بصورة لا تكاد معها معرفتنا الواسعة وأفكارنا الفسيحة الآفاق في هذه الأيام الحديثة تكفي لإدخالها في مج ال فهمن ا وإدراكنا!!؟!... وهناك من الجانب الآخر، من يرون فيه مجرد محطم لما ك ان يتك ون ويستحصد د م ن احتمالات لتحقيق عالم حر هادئ مهلَّن.

ويحسن بنا قبل أن ننسب إلى الإسكندر أو إلى أبيه فيليب وضع خطط للسياسة العالمية جديرة بأن يقره ا المؤرخ الفيلسوف في القرن العشرين، أن نتأمل بغاية العناية أقصى ما كان في إمكان المعرف ة والفك ر أن يبلغاه في تلك الأيام. فإن عالم أفلاطون وإيزوقراط وأرسطو، لم يكن لديه بالفعل أي تراث تاريخي ينتهي منه على الإطلاق، فإلى ما قبل العصر الحديث بقرنين، لم يكن لدى العالم ذلك الشيء المسمى بالتاريخ، وأعن ي به التاريخ مميزًا عن مجرد المدونات التاريخية الكهنوتية. ولم يتهيأ لأوسع الناس علمًا ومعرف ة إلا أض يق الفكرات عن الجغرافيا والبلدان الأجنبية. إذ كان العالم لا يزال في نظر معظم الناس مسطحًا لا تُع رف ل ه نهاية. وكانت الفلسفة السياسية الوحيدة المنسقة تقوم عل ى تج ارب دوي لات م دن ص غيرة، فل م تأب ه بالإمبراطوريات ولم يكن أحد ليعرف شيئًا عن أصول المدنية، ولم يسبق لأحد قط أن تأم ل ف ي الش ئون الاقتصادية قبل ذلك الزمان. ولم يكن أحد قط استنبط نتيجة تفاعل إحدى الطبقات الاجتماعية ف ي الأخ رى. وإنا لنسرف ميلنا إلى اعتبار حياة الإسكندر وأعماله تاجًا على مفرق بعض عمليات كانت قائمة على قدم منذ زمان بعيد، وأن نعتبرها أوج رفعة وصعود، ولا شك أنه كان كذلك من ناحية ما. بيد أننا نكون أقرب كثيرًا إلى الصدق حين نقرر أنها لم تكن نهاية قدر ما كانت بداية. فكانت أول وحي أوحى إلى الخيال الإنساني عن وحدة الشئون البشرية. وكان أقصى ما بلغه فكر بلاد الإغريق قبل زمانه، ه و النظ ر ف ي فك رة ص بغ الإمبراطورية الفارسية بصبغة هللينية، وفي بسط سيادة المقدونيين والإغريق على العالم ولكن قبل أن يقضي الإسكندر نحبه، بل وبعد أن مات وتهيأ للناس الزمن لإعادة التفكير في أمره، كانت فكرة إيجاد قانون ونظ ام للعالم أصبحت فكرة عملية تستطيع عقول الناس أن تتمثلها.

وظل الإسكندر الأكبر بضعة أجيال وهو في عين العالم رمز النظام والسلطان العالمي وعنوانهما الماثـ ل، فأصبح كائنًا خرافيًا. وإن رأسه المزدانة بالرموز المقدسة لهرقل نصف الإله أو للإله آمون رع، لتظهر على عُملة كل من استطاع من خلفائه أن يدعي لنفسه أنه وارثه. ثم حمل لواء فكرة السيادة العالمية، شعب آخـ ر عظيم هو الرومان، وهو شعب أظهر طوال عدة قرون نبوغاً سياسيًا يعتد به. وقد حجبت شخصـ ية مغـ امر بارز آخر هو قيصر، ضياء الإسكندر في أنظار النصف الغربي من العالم القديم.



(٨٥) سلوقوس الأول



وعلى هذا فإنا عند مستهل القرن الثالث ق. م.، نجد أن ثلاثًا من الفكرات البناءة العظيمة التي تتسلط على عقل الجنس البشري المعاصر، قد أخذ عودها يشتد في المدنية الغربية للعالم للقديم. ولقد تتبعنا فيما سلف تحرر الكتابة والمعرفة وتخلصهما مما كان يحيطهما به كهنة العالم القديم من أسرار وخفايا، وأشرنا إلى تدريج المبتدئين في الكهنوت في درجات الأسرار المقدسة خطوة خطوة، كما تعقبنا تطور فكرة جعل المعرفة في متناول الجميع وفكرة التاريخ والفلسفة اللذين يمكن فهمهما ونقلهما بين الناس كافة. واتخذنا من شخصي هيرودوت وأرسطو شاهدين نموذجيين على هذه الفكرة العظيمة الأولى، فكرة العلم، مع استعمال كلمة "العلم" بأوسع معانيها وأصحها لتشمل التاريخ وتدل على صورة واضحة للإنسان في علاقته بالأشياء المحيطة به. وقفونا أيضًا تعميم الديانة عند البابليين واليهود وغيرهما من الشعوب السامية، أي نقلها من العبادة الخفية في المعابد والأماكن المقدسة لبعض الأرباب المحليين أو القبليين إلى عبادة علنية "لإله واحد للكون كله نده دعو للصلاح والبر" معبده العالم بأسره. وتتبعنا أيضًا منذ هنيهة كيف نبتت لأول مرة فكرة "سياسة عالمية". أما باقي تاريخ الجنس البشري فهو في معظمه تاريخ لهاته الفكرات الثلاث: فكرة العلم، وفكرة البر والصلاح الشامل، وفكرة إقامة حكومة عامة للجنس البشري كافة – في أثناء ذيوعها وانتشارها من أذهان النادرين الأفذاذ من الأفراد والشعوب التي نبتت فيها لأول مرة، إلى أن استقرت في الوعي العام للجنس البشري؛ وحين أسبغت عليه في مبدأ الأمر لونًا جديدًا، ثم أعارته روحًا جديدة، ثم وجهته توجيهًا جديدًا في الشئون الإنسانية.

الفصل الثالث والعشرون

العلم والديانة في الإسكندرية

١- علم الإسكندرية.

٢- فلسفة الإسكندرية.

٣- الإسكندرية مصنعًا للديانات.

٤- الإسكندرية والهند.

١- علم الإسكندرية

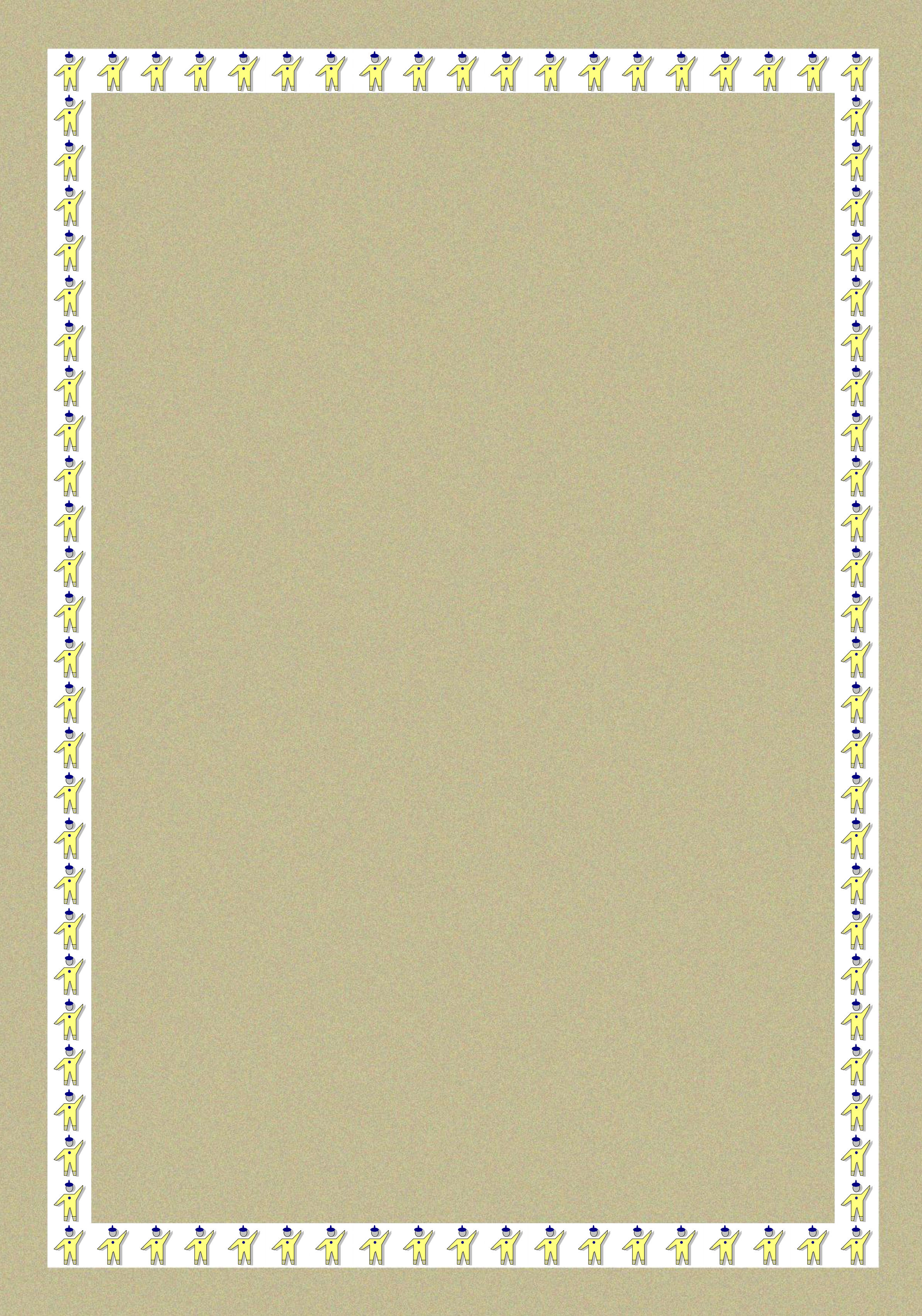
كانت مصر من أشد أجزاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الوجيزة الأمد، نجاحًا ورفاهة. وكانت من نصيب بطليموس الذي عرفنا فيه من قبل صديقًا من أصدقاء الإسكندر الذين نفاهم الملك فيليب. وكان القطر على بعد يجعله في حرز حريز من الغالة السالبة وبارثيا الناهبة. وكان تدمير صور والقضاء على البحرية الفينيقية وإنشاء الإسكندرية، قد أتاحا لمصر سلطانًا ورفعة بحرية موقوتة في شرق البحر المتوسط. فنمت الإسكندرية نموًا هيأ لها أن تنافس قرطاجة وأصبح لها في الناحية الشرقية تجارة خارجية عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والهند.؟ ونافست تجارتها في الناحية الغربية التجارة القرطاجية. وكتب لأهميتها التجارية أن تعمر قرونًا عديدة قدر لها كذلك أن تبلغ بالفعل أقصى حد لنموها في ظل أباطرة الرومان.

ووجد المصريون في حكام البطالمة من مقدونيين وإغريق حكومة أشد عطفًا وأكثر تسامحًا من أية حكومة عرفوها منذ أن انتهى عهدهم بحكومتهم الإمبراطورية المستقلة. وفي الحق إن القول إن مصر هي التي غلبت البطالمة سياسيًا وضمتهم إليها أدنى إلى الصواب من القول بأن المقدونيين هم الذين سادوا مصر وحكموها.

والحق إن الذي حدث كان عودة إلى الأفكار السياسية المصرية أكثر منه محاولة لصبغ حكومة البلاد بصبغة هللينية. وأصبح بطليموس هو الفرعون، الملك الإله، كما أن نظامه الإداري كان امتدادًا للتقاليد القديمة من عهد بيبي وتحتمس ورمسيس ونخاو. وكان للإسكندرية مع ذلك دستور من طراز دساتير المدن الإغريقية يصرّف الشئون الداخلية للمدينة مع خضوعها لسيادة فرعون الإلهية. وكانت لغة البلاط والحكومة هي اللغة الإغريقية الأتيكية [1]. كما أن اليونانية صارت اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين في مصر إلى حد أن الجالية اليهودية هناك وجدت لزامًا عليها أن تُترجِم التوراة إلى تلك اللغة، إذ لم يعد كثير من بني جنسهم قادرين على فهم العبرانية. ولبثت اليونانية الأتيكية بضعة قرون قبل المسيح وبعده لغة جميع المتعلمين من البحر الأدرياتي إلى الخليج الفارسي.

ويبدو أن بطليموس وهو أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر، قد انفرد وحده ببذل أقصى جهده في تحقيق الأفكار المنطوية على تنظيم المعرفة تنظيمًا دقيقًا كما أوحاها وبثها أرسطو في بلاط فيليب المقدوني. وكان بطلميوس رجلاً أوتي مواهب عقلية خارقة، يجمع بين قوة الابتكار والتواضع ويخامر نفسه استخفاف – لا يغيب عنا سببه – بالأثر الوراثي الذي خلفته أوليمبياس في عقل الإسكندر. وقد اندثر كتابه الموسوم "التاريخ المعاصر لحملات الإسكندر" ولكنه كان مصدرًا استُقيت منه جميع الروايات الباقية وكانت مدينة له بأعظم الفضل.

([1]) الأتيكية نسبة إلى أتيكا وهي المنطقة المحيطة بأثينا. (المترجم)



الألف
كتاب
الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ.ج. ولز

المجلد الثالث

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد



هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثالث

في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى وعصر النهضة

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen

By

H. G. Wells

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١- راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجا والأستاذ الدكتور عبـد الحميـد يونس، وراجع المترجم الطبعة الثانية.

٢- وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.

فهرس

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

كلمة المترجم

نال الزمان بعد الإغريق من صولة الرومان، ومالت شمس قيصر، وولت الأيام العظيمة والأيام دُوَل........

وانقضت خمس عشرة مائة من السنين... تلقت فيها البشرية من الدروس ما تلقت، وقاست من العذاب والآلام ألوانًا.

خمس عشرة مائة سنة أو تزيد.. مرت هزالا عجافًا حتى لأخال التاريخ شديد الرغبة في تخليص ذاكرته من شوائبها؛ لما حطمت من نظم، وشتتت من جموع، ولما قوضت من خُلق، ولما اجترحته في الوحدة العالمية العامة التي كانت الشيء الوحيد الذي أفادته الدنيا من الرومان والتي لا تبرح هدفنا الأعلى الذي نسعد بدلوفنا إليه.

خمس عشرة مائة من السنين.. توقف فيها موكب الحضارة، وأخذ الناس يتلمسون طريقهم فلا يجدونه؛ وكأني بهم يطلبون القديم فلا يستطيعون إليه وصولاً، ويجنحون إلى إصلاح الحاضر والحاضر خرائب وأنقاض، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه بارقة تحيي نفوسهم. وكان الناس في قديم العصور في همجية فآلت بهم الحال إلى نظام، وها هم أولاء في حال لا هي بالهمجية ولا هي بالمدنية، حال من الانتكاس المؤنس الموحش.

خمس عشرة مائة من السنين أو تزيد.. أطبقت فيها عن العالم المعروف سدفة محلولكة، فقد فيها الإنسان كل أمل في هذا الوجود، وارتد إلى الكون قانون الغاب الذي قوامه الظفر والناب، والذي يغتال فيه القوى الضعيف، وترجح فيه القوة كل حق.

ظلام حالك وفوضى شاملة، وتفتت لكل شيء إلى جزيئاته بل ذراته الأولى. وذوو الضمائر يسائلون أنفسهم أهكذا نهاية البشرية؟ أهكذا تتحطم كل الآمال التي عقدها الناس على مستقبل مشرق سعيد؟

ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال وطال ما جثم حتى بلغت النفوس الحناجر، فما يستطيع أحد أن يفيق مما غشيه من هم وحَزَن.

ولولا أن يد القدر امتدت إلى تلك الحقبة الطويلة المديدة من الليل الأكدر، فأومضت فيها ثلاث ومضات خطفت الأبصار بادئ الرأي، ثم استردت الأمور بغض وعيها، وأخذت تتلمس بعدهن طريقها نحو نور ابتدأ شعاعًا في دقة الخيط: وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح في القرن العشرين فيضًا منهمرًا من باهر الضياء وساطع الإشراق، لولا هذا لقضي على المدنية في غابرها وحاضرها، ولأديل من الإنسانية إلى أبد الآبدين.

فأما الومضة الأولى التي شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحمة، فذلك الوليد الذي انتبذت به أمه مكانًا قصيًا، والذي كان كلمة من الله شاءت بها إرادته القدسية، أن تعيد إلى النفوس شيئًا من الأمل، وأن تلقي في روع الإنسانية ألا تقنط من رحمة الله، وإذا هو يُعَلِّم القويّ الرحمة بالضعيف ويدعو إلى التفاني الأرض، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه بحب من يحيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكه يداه من مال وقوة ونشب.

وكانت الومضة التي أوراها ذلك النبي الرحيم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فمدت يديها تواري العينين قبل أن يخطف البرق ضياءهما. وما هي إلا هنيهة حتى كان ستار الظلام قد أسدل من جديد كثيفاً فاحمًا مدلهما.

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد...

ثم دار الزمان دورته، وآن للعناية أن تلحظ الدنيا برحمة من لدنها، تعيد إليها شيئًا من الثقة والطمأنينة. وجاءت النفحات القدسية في البوادي العربية على يد ذلك اليتيم العائل، الذي آواه ربه وأغنى. إذ يقول له الملَك: "اقرأ" وما هو بقارئ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتابًا مطهرًا، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحد الصمد، وإلى إخاء شامل ومساواة بين القرشي والحبشي. ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان ويحضهم على العمل الشريف في هذه الدنيا والتزود للآخرة بالصلاح والتقوى. لقد أشرق ضياء الطاهر الصادق، وهبت لنصرته البوادي وأقبل عليه الناس رجالاً وعلى كل ضامر، وسعدت البشرية هنيهة بالإيمان والمساواة والتضحية في سبيل الحق والخير.

ثم غلبت على الإنسانية شقوتها، ففقدت إيمانها بالحق، وحرمت التعلق بالمُثُل وتجانفت عن كل تضحية.

وانطبق الستار كرة أخرى مرخيًا دياجيره، وران على الناس سبات عميق طال في الشرق حتى لتحسبه نعاس الأبد.

ثم خفق سراج القدر في القرون الوسطى بالومضة الثالثة التي، أرسلت شرارة بارقة اتصلت بهشيم الحيوات الأولى، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخرًا لا ينضب له معين؛ فأوقدت نارًا بدأت بإحياء العلوم خافتة تسري ولا ترى، وانتهت بنهضة القرون الوسطى مشبوبة حارة، حتى ترامت إلى ما ترى حولك من مشاعل وهاجة ونيران فيّاضة الضياء مشرقة السطوع....

تلك هي الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشيرها الناصري الكريم؛ وإلى الإسلام ورسوله المصطفى الهادي الأمين، وإلى ذلك النهوض الذي دفع بدولاب المعرفة والحياة في القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما يحيط بك من حال الشئون في القرن العشرين.

ولن أزيد القارئ بياناً بالجذل الطروب الذي يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صوى عظمي في تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز عليها في دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقيبات الفلسفية العميقة التي يعقب بها عليها ولا بالنظرات الناقدة الدقيقة والتوجيهات التي مهما يكن رأي بعض الناس فيها فإنها صادرة من قلب مخلص مؤمن بما يدعو إليه.

وبحسب القارئ أن يقلب صفحات الكتاب ليستمتع ويتزكى.

عبد العزيز توفيق جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيرًا إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة. وقد بذلت في تنقيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنجليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد في مجلديه الأول والثاني. وأضفت إليه كدأبي في سالفيه الشروح والفهارس الأبجدية. وبسّطت عبارته لتكون في متناول كل فهم، رغبة مني في إبلاغ ثقافة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائره النفاذة إلى كل ذي عقل مستطلع يطلب النور.

ع.ت.ج

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تنفد طبعتا الكتاب الأولى والثانية. ولا غرو فإنه بما حوى من ثقافة عميقة وفلسفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصة إلى خير البشرية تكاد تتمم الرسالات العليا التي قام بها أفذاذ الرجال، قد أصبح من الأركان العقلية التي لا يستغنى عنها مثقف في هذا العصر.

وقد تصادف، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع، أن وقعت في يدي طبعة إنجليزية حديثة جدًا نقحها المستر رايموند بوستجيت فضبطته عليها، وفعلت ذلك أيضًا بالمجلدين الأول والثاني من الطبعة الثالثة. وكذلك نقحت عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا.

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة. وأعدت النظر في الأعلام فجاءت مطابقة لما ورد بالكتاب المقدس وغيره من المظان والمراجع وبذا أقدمه إلى القراء راجيًا أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلم والثقافة والتاريخ أتمنى أن يقبل عليها شبابنا اطلاعًا وانتهالاً.

ع. ت. جاويد

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون

قيام المسيحية وسقوط الإمبراطورية الغربية

١- اليهودية إبان الحقبة المسيحية.

٢- تعاليم يسوع (عيسى) الناصري.

٣- الديانات العامة الجديدة.

٤- صلب يسوع الناصري.

٥- مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع.

٦- كفاحات المسيحية واضطهاداتها.

٧- قسطنطين الأكبر.

٨- تأسيس المسيحية الرسمية.

٩- خريطة أوربا في ٥٠٠م.

١٠-خلاص العلوم على يد المسيحية.

١ – اليهودية [١] إبان الحقبة المسيحية

لن يتهيأ لنا فهم خصائص المسيحية التي عليها الآن أن تلعب دورًا كبيرًا في تاريخنا، والتي فتحت أعين الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد، حتى نرجع البصر بضعة قرون ونحدثك عن الأحداث التي جرت في فلسطين وسوريا، وهما القطران اللذان نشأت فيهما المسيحية. ولقد أسلفنا إليك من قبل أهم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودي وتقاليده، وتحدثنا عن يهود التشتت (Diaspora) وعما فطرت عليه اليهودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرد حتى وهي في مهد بدايتها، وعن التطور التدريجي لفكرة إله أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه: أن يحفظ الشعب اليهودي ويرفعه مكاناً عليا. والفكرة اليهودية كانت ولا تزال مزيجًا عجيبًا من رحابة أفق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضيقة. وكان اليهود يترقبون مخلّصًا معينًا: مسيحًا يخلص البشرية بطريقة محببة إليهم، تنطوي على استرجاع ما كان لداود وسليمان من مجد أسطوري، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخيّرة والحازمة أيضًا. حتى إذا انحطت القوى السياسية للشعوب السامية، وإذ أفل نجم قرطاجة من بعد صور وهوتا في غياهب الظلمات، وأصبحت إسبانيا ولاية رومانية، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع. وليس ثمة شك أن الفينيقيين المتناثرين في إسبانيا وإفريقية وفي كل أرجاء البحر المتوسط، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرانية، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة، – قد تحولوا إلى أتباع لدين اليهودية. ذلك أنه مرت في التاريخ اليهودي أدوار قوية من الدعوة واستمالة الأنصار إلى اليهودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى من شامل الغيرة والاعتزال. إذ حدث يومًا أن اليهود قهروا الإدوماييين (Idumeans) وأجبروهم أجمعين أن يصبحوا يهودا [٢].

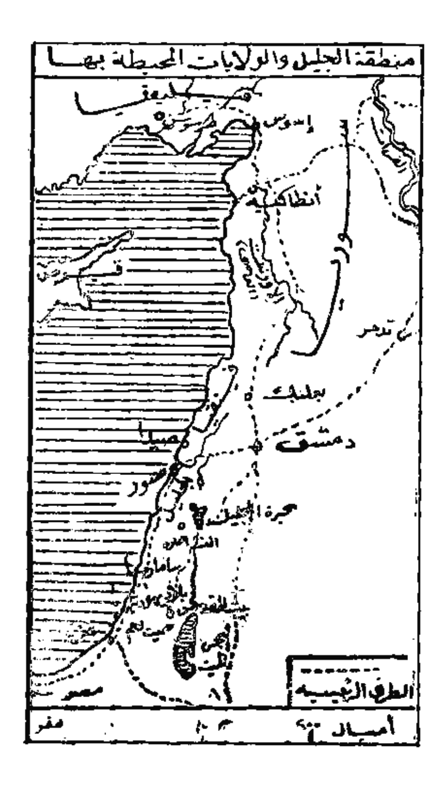
وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية في زمان محمد ﷺ، وثمة شعب تركي في جنوب الروسيا كان في معظمه يهوديًا في القرن التاسع. والواقع أن اليهودية هي المثل الأعلى السياسي المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المحطمة وهي في غالب أمرها سامية الأصل. ولا مراء أن ما لليهود من التقاليد المالية والتجارية إنما يعود إلى الفئة الفينيقية منهم وإلى دخول الآراميين ملة اليهود في بابل. على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان التمثل، التي كانت تقوم تقريبًا بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقًا؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات اليهودية كانت تتجر وتزدهر وتثرى وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية. ولم يحدث في يوم من الأيام أن الشطر الرئيسي من الشعب اليهودي كان يقطن اليهودية، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدًا.

---

(١) أرض أو بلاد يهوديا أو يهودية أو اليهودية هي ترجمة للفظة (Judea) الأجنبية. كما ورد في المجلد الثاني من المعالم. وتسميها الموسوعة العربية الميسرة باسم جودايا. (المترجم).

(٢) تاريخ يوسيفوس.

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وف رص عظيمة جدًا من الناحيتين المالية والسياسية. فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم، وك انوا يستطيعون أن يستثيروا وأن يهدئوا وما بلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى آذ ذاك أوسع منهم انتشارًا، ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بتماسك أقوى مما كان لدى الإغريق. فك ان الإغريق ي عدوًا للإغريقي؛ أما اليهودي فكان لليهودي أخًا ونصيرًا. فحيثما حل يهودي، وجد رجالاً له م عق ل مثـ ل عقليته وتقاليد مثل تقاليده. فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القـ انوني. مـ ن أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهؤلاء القوم حسابًا في كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلاً للقروض أو مبعثًا للمتاعب. وهكذا حدث أن اليهود ظلوا محتفظين بكيانهم كشعب، على حين أصبحت "الهلينية" نورًا عامًا يضيء للجنس البشري كافة.



(شكل ١٢٠) منطقة الجليل والولايات المحيطة بها

ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سبيل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر من الشعب اليهودي الذي عاش في بلاد اليهودية (Judea) نفسها. عاد هؤلاء اليهود إلى مركزهم القديم المحفوف بالمخاطر؛ عادوا يلتمسون السلام مرة ثانية في وسط طريق كبير مطروق إن صح هذا التعبير. لقد كانوا في الزمان القديم ينزلون بين سوريا وآشور إلى الشمال ومصر إلى الجنوب. وها هم الآن بين السلوقيين شمالاً والبطالمة جنوبًا، فلما أن ذهبت ريح السلوقيين، هوت على رأسهم قوة الرومان. ونتيجة لهذا كله كان استقلال "بلاد اليهودية" على الدوام أمرًا مقيدًا غير مستقر. ولا بد للقارئ أن يرجع إلى كتابي "الأخبار العتيقة" (Antiquities) و "حروب اليهود" لفلافيوس يوسيفوس – (وهو كاتب مطنب ممل ذو نزعة وطنية جامحة تبعث في الرأس الجنون) – إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين، والمكّابيين والهيروديين ومن شاكلهم. كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطراز الشرقي المعتاد، ماكرين، غادرين وملطخي الأيدي بالدماء. وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعبد مرتين. ولم ينقذ هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحو التام إلا معونة يهود التشتت الأقوى نفوذًا، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن المتبنى للإمبراطور فسبازيان وخليفته، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضارع في العنف والمرارة والهول حصار صور وقرطاجة. وقد فعل تيتوس ذلك محاولاً أن يقضي على الشعب اليهودي القضاء المبرم إلا أنه في الواقع زاد الشعب اليهودي قوة بتدميره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه.

مرت بين العودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خمسة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية، ولكن ظل اليهود أثناءها محتفظين بصفات معينة ثابتة. فاليهودي لم يفتأ يؤمن بوحدانية الإله إيمانًا راسخًا؛ وهو لا يقبل أي إله آخر إلا الإله الواحد الحق. وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشليم رافضًا في رجولة عبادة أي قيصر رب. كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه. فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل منحوتة إلى أورشليم؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة.

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكريين متباعدين أثناء تلك المئات الخمس من السنين. فأنت واجد إلى اليمين، إن جاز لنا مثل هذا التعبير، فئة اليهود العليا المتشددة، وهم الفريسيون الذين يستمسكون بعقيدة السلف أبلغ استمساك ويحافظون تمامًا حتى على أدق تفاصيل الشريعة؛ وهم شديدو الوطنية قويو النزعة الانعزالية. وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم في يد الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع، لأن استمساكهم بعقيدتهم أبى عليهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل. وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيما بعد عن بذل أي جهد يوم السبت لتدمير أدوات الحصار الذي ألقاه بومبي العظيم على أورشليم، أنه استطاع أن يستولي عليها.

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين، يهود أُخر واسعو الأفق، هم يهود اليسار، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الهلينية، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) – الذين لم يكونوا يعتقدون في الخلود. وكان هؤلاء اليهود الأخيرون وهم اليهود الواسعو الأفق، يميلون جميعًا – وإن بدرجات متفاوتة – إلى الامتزاج والاندماج في الإغريق والشعوب "المهلّنة" المحيطة بهم. وكانوا على أتم الأهبة أن يقبلوا في مذهبهم أتباعًا جددًا، وبذلك يتقاسمون ربوبية الرب ووعده مع البشرية كافة. بيد أن ما كسبوه من السماحة وسعة الأفق خسروه في ناحية الاستقامة وحسن السمعة. فهم في "بلاد اليهودية" يعتبرون العلمانيين المتكالبين على الأمور الدنيوية. ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر المهلّنين فقدوا لغتهم العبرية واضطروا إلى نقل توراتهم إلى الإغريقية.

وظهر في "بلاد اليهودية" في أيام طيبريوس قيصر، معلم عظيم قُدِّر له أن يحرر الإدراك العميق لبر الله ووحدانيته التي لا تقبل تحديًا ولا جدلاً، والتزامات الإنسان المعنوية نحو الله، وهي التي كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلفية، – يحررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالي الجشع، الذي كان يخالطها في الذهن اليهودي على أبلغ صورة خارقة. كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسى) الناصري، الذي هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسسها.

٢- تعاليم يسوع (عيسى) الناصري

إن الجمهور الذي سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم، سيكون معظمه من المسيحيين، وربما يكون فيه بعض قراء متناثرين من اليهود، والأولون على أقل تقدير، يعدون يسوع الناصري شيئًا أعظم كثيرًا من مجرد معلم من البشر، كما يعدون ظهوره في العالم ليس حدثًا طبيعيًا في التاريخ بل شيئًا إعجازيًا خارقًا، يعترض ويغير ما للحياة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى "وعي مشترك وإرادة مشتركة" ويحوله عن سبيله – الأمر الذي ما برحنا حتى الآن نقفو أثره في هذا الكتاب. بيد أن هذه المعتقدات على ذيوعها في أوربا وأمريكا، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الغالبية العظمى من الجنس البشري، ونحن إنما نكتب هذه "المعالم" في التاريخ الحياة، مجانبين بأقصى مستطاعنا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلاً. كما أننا نحاول أن نفترض ونحن نكتب أن من سيقرعون هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون في عددهم من يقرعونه من الأمريكيين والأوربيين الغربيين. لذلك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمساكًا دقيقًا ونجانب – دون أية منازعة أو إنكار – كل الشروح اللاهوتية التي فرضت عليها فرضًا.

وسنخبرك بما اعتقده الناس في يسوع الناصري، أما هو فإنّا سننظر إليه كما بدا، أي بوصفه بشرًا على نحو ما يفعل المصور تمامًا حيث يلتزم حين يصوره إظهاره في صورة البشر. وسنعالج الوثائق التي تدون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية. فإذا سطع ضياء الألوهية من خلال تلاوتنا لها، فلن نعينه ولن نحجبه. وهذا هو ما فعلناه آنفًا في حالة بوذا، وهو ما سننهجه قريبًا مع محمد (ﷺ). فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ. وليست عنايتنا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية، بل إلى تأثيراتها على حياة الناس السياسية واليومية.

ويكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصورًا في الأناجيل الأربعة (Gospels)، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاته ببضع عشرات من السنين، ومن الإشارات إلى حياته في رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل، ويظن الكثيرون أن الأناجيل الثلاثة الأولى، متّى ومرقص ولوقا، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز؛ كما أنه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع هليني قوي. ويميل النقاد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقص أصح ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة. بيد أن الأناجيل الأربعة جميعًا تتفق في إعطائنا صورة لشخصية واضحة الحدود تمامًا. وهي تحمل من الاقتناع بصحتها نفس ذلك الاقتناع الذي تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية وأمور لا تصدق، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول "إن هنا لإنسانًا حقًا. إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الخيال والاختراع".

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة المتربعة التي عليها وثن البوذية المتأخرة المُذَهَّب، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضر به كثيرًا ذلك الجو الوهمي وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته في الفن المسيحي الحديث تبجيل خاطئ من رسّام تقي قانت. كان يسوع معلمًا ذا خصاصة، يتجول في "بلاد اليهودية" المتربة اللافحة الشمس، ويعيش على هبات عرضية من الطعام؛ ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفًا ممشط الشعر مرجّله صقيل الإهاب، نقي الثياب مستقيم العود، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق في الهواء. وهذا وحده قد جعله وهمًا لا يؤمن به الكثير من الناس، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التحسين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها بعض المتبتلين بغباء.

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز. فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع: ذلك النجم العظيم الذي جلب الحكماء من الشرق ليعبدوا الله عاكفين عند مهده بالمِذْوَد، ومذبحة الأطفال الذكور في بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر، والهرب إلى مصر، إنما هي أمور يظنها كلها كثير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة. وهي في خير أحوالها حوادث لا ضرورة لها للتعاليم، وهي تسلبها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن في مسألة النسب المتناقضة التي أوردها متى ولوقا، والتي يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود، كأنما كان شرفًا ليسوع أو لأي إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه. وإدخال هذه الأنساب أشد إمعانًا في الغرابة ومنافرة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابنًا ليوسف بتاتًا، إذ قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية.

فإذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسيرة، وجدنا أنفسنا إزاء كائن مكتمل الإنسانية موفور الجد مرهف العاطفة والحساسية، عرضة للغضب السريع، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة: هي أبوة الرب العامة المحبة ومجيء مملكة السماء. وغني عن البيان أنه كان شخصًا – إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ العادي – ذا جاذبية شخصية بالغة القوة. فكان يجتذب إليه الأتباع ويملؤهم بالحب والشجاعة. وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرته ويبرءون مما بهم، ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة، استنتاجًا منا من السرعة التي مات بها من آلام الصلب. وهناك خبر متواتر يقول بأنه أغمي عليه عندما كلف بأن يحمل صليبه إلى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف. وكان يناهز الثلاثين من عمره عندما شرع لأول مرة يعلم الناس. وظل يجوب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه، ثم هبط أورشليم، واتهم بأنه يحاول أن يقيم مملكة عجيبة في "بلاد اليهودية"، وحوكم بهذه التهمة، وصلب مع اثنين من اللصوص. وقبل أن يموت هذان بزمان طويل كانت آلامه قد انتهت.

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التي تؤلف المبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جدًا. إذ لا يوجد في هذه الكتب كما قد يرى القارئ بنفسه، ما يدعم ويؤيد كثيرًا من تلك المبادئ التي يرى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام للخلاص. فإن سندها من الأناجيل غالبًا ما يكون سندًا غير مباشر ومعتمدًا على الإشارة. ولا بد إذن من تصيد ذلك السند تصيدًا وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة. وفيما عدا بعض فقرات تدور حولها المنازعات، يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلاً إلى يسوع فسّر فيها مبادئ الكفّارة والفداء أو حض فيها اتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس [1] (Sacrament) (وهي أعباء وظيفة رجال الكهنوت). وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد، العالم المسيحي بأسره. وليس هناك من دليل واضح على أن حواريي المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ. كذلك لا يبرز هو دعواه أنه "المسيح" ولا يضفي على اشتراكه مع الله في الربوبية أي ثوب بارز ربما أحسسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضفيه لو أنه كان يراه أمرًا في الدرجة الأولى من الأهمية.

ومن أشد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى: الإصحاح ١٦ – ٢٠): "حينئذ أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح" فمن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع [2]، إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص.

ثم إن مراعاة طقس السبت اليهودي، وهو الذي استبدلوا به الأحد الميثرائي [3]، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية، على أن يسوع لم يرعَ السبت معتمدًا وقال إنه خلق لأجل الإنسان، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت. وهو لم يفُه بكلمة واحدة عن عبادة أمه مريم في صورة إيزيس مليكة السماء، كما أن الكثير مما هو من أخص خصائص المسحية في العبادة والطقوس لقي منه إغضاءً تامًا. ولقد بلغ من جرأة الكتّاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحيًا على الإطلاق. ويجب على كل قارئ أن يلجأ إلى مرشديه الدينيين ليستضيء بهديهم في هذه الثغرات الخارقة في تعاليمه. ونحن ها هنا ملزمون بأن نذكر تلك الثغرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات، كما أننا مضطرون أيضًا ألا نتوسع فيها.

ومما يسترعي الأنظار أيضًا، تلك الأهمية الهائلة التي يضفيها يسوع على الفكرة التعليمية التي أسماها "مملكة السماء"، وعدم أهميتها النسبية في إجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية.

---

(1) على أن السيد المسيح عليه السلام: "أخذ خبزًا وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم: اصنعوا هذا لذكري" (لوقا ٢٢ : ١٩). (المترجم).

(2) كان المنع لحكمة، لأن الجهر بأنه المسيح كما تقول الدوائر المسيحية المطلعة كان يؤدي إلى إيقاف الصلب، والصلب وسيلة الخلاص. (المترجم).

(3) انظر المعالم جـ ٢ ط٣ ص ٥٤٥، ٦٣٣. (المترجم).

إن هذا المبدأ، مبدأ مملكة السماء، الذي كان رأس تعاليم يسوع، والذي يلعب دورًا ضئيلاً جدًا في العقائد المسيحية، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية، التي قدر لها – أبد الدهر كله – أن تحرك الفكر الإنساني وتغيره. فلا غرو إذن أن عالم ذلك الزمان فاته أن يدرك مغزاها الكامل – وتراجع يائسًا مرتاعًا ناكصًا عن أية درجة من الفهم لتحدياتها الهائلة لعادات الجنس البشري ونظمه الراسخة. ولا عجب أن المسيحي الحديث والتلاميذ الجدد المترددين ينقلبون من فورهم إلى الفكرات المألوفة القديمة: فكرات المعبد والهيكل والآلهة الشرسة، ومرعيات الاسترضاء والكاهن المتكرس والبركات السحرية. ولم تلبث رعاية القوم لهذه الأمور، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة المألوفة الأثيرة، حياة الأحقاد والأرباح والمنافسة والاستكبار. ذلك أن مبدأ مملكة السماء، كما يلوح أن يسوع كان يبشر به، لم يكن ليقل عن طلب جريء لا هوادة فيه ينادي بإدخال تغيير وتطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل، أي إحداث تطهير شامل مطلق في جوانية الناس وبرانيتهم [1]. وعلى القارئ أن يرجع إلى الأناجيل ملتمسًا كل ما تبقى من هذه التعليمة الهائلة. فلسنا هنا بمعنيين إلا بالزلزلة القوية التي أحدثتها في الفكرات الوطيدة القائمة.

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله، الرب الأوحد للعالم بأسره – رب بر وهدى، بيد أنهم زعموه كذلك ربًا متّجرًا، أتم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفقة هم قوامها، وهي لا جرم صفقة طيبة جدًا لهم، هي أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة في الأرض. ولشد ما كان ارتياعهم وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات، إذ يعلّم الناس أن الله ليس من المساومين. وأن ليس هناك شعب مختار، ولا أحظياء في ملكوت السماوات. وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء، وأنه لا يستطيع اختصاص البعض بالرعايات وعدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء. وأن الناس جميعًا إخوة كلهم خاطئ آثم وكلهم أبناء محبوبون لذلك الأب القدوس. وإن يسوع في ضربه للناس مثل ذلك السامري الطيب، قد ازدرى ذلك الميل الطبيعي الذي تخضع له نفوسنا جميعًا، والذي ننزع به إلى تمجيد شعبنا نحن وإلى الحط من شأن ما لدى النِّحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر. وإنه في المثل الذي ضربه عن العمال قد اطّرح تلك الدعوى العنيدة التي يدعي بها اليهود بأن لهم ضربًا من حق الرهن الأول على الله جل جلاله. فالله – كما علم السيد المسيح – يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم في الملكوت. فليس هناك تمييز في معاملته إذ ليس لفضله وطيبته من حدود. وهو فضلاً عن ذلك يطالب الناس جميعًا ببذل أقصى ما في مستطاعهم – كما يشهد المثل الذي ضربه عن "الوزنة المدفونة" وكما تعززه حادثة فَلَس الأرملة. وليست هناك أية امتيازات ولا خصم في الأسعار ولا معاذير في مملكة السماء.

---

[1] يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصلح جوانيتك يصلح الله برانيتك". (المترجم).

بيد أن يسوع لم يقتصر فقط على ازدراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها، فإنهم كانوا أيضًا شعبًا ذا ولاء عائلي شديد، وذلك بينما كان يسوع يبتغي أن يكتسح طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية المتشددة الحافلة بالقيود الضيقة. فلم يكن بد لمملكة السماء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه. ويحدثنا الإنجيل أنه "وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجًا طالبين أن يكلموه. فقال له واحد: هوذا أمك وإخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وإخوتي!! لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي"، (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر ٤٦ – ٥٠).

ولم يقتصر يسوع على كيل الضربات للوطنية ولروابط الولاء العائلي باسم أبوّة الله العامة وأخوّة الجنس البشري أجمع، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادي من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. فالناس جميعًا ينتمون إلى الملكوت؛ وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت؛ والحياة الصالحة البرة لكل الناس، الحياة البرة الوحيدة، إنما هي في خدمة إرادة الله بكل ما لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان. ولطالما شهّر بالثروة الخاصة مرة بعد مرة، كما ذم مدخرات الأفراد وعمل الاحتياطات في حياتهم الخاصة.

"وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجاء له، وسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله. أنت تعرف الوصايا: لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك. فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي. فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب. فاغتم على القول ومضى حزينًا لأنه كان ذا أموال كثيرة.

"فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه: ما أعسر دخول ذوي المال إلى ملكوت الله! فتحير التلاميذ من كلامه. فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم: يا بني، ما أعسر دخول المتكّلين على الأموال إلى ملكوت الله. مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله" (إنجيل مرقس. الإصحاح العاشر ١٧ – ٢٥).

وفضلاً عن ذلك فإن يسوع في نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذي يجمع الناس كلهم ويجعلهم فردًا واحدًا في الله، كان يضيق صدرًا بما في الديانة الرسمية من بر وصلاح يقوم على المساومة.

وهناك أيضًا جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحياة التقى. "واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم. ولما رأوا بعضًا من تلاميذه يأكلون خبزًا بأيد دنسة أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ. ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون. وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كئوس وأباريق وآنية نحاس وأسرّة. تم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزًا بأيد غير مغسولة. فأجاب وقال لهم: حسنًا تنبأ إشَعْياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب. هذا الشعب يكرمني

بشفتيه، أما قلبه فمبتعد عني بعيدًا. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس. غسل الأباريق والكئوس وأمورًا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون. ثم قال لهم: حسنًا، رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم" (إنجيل مرقس. الإصحاح السابق ١ – ٩).

كذلك أيضًا، نستطيع أن نلحظ عشرات المواضع التي ازدرى فيها تلك الفضيلة الأثيرة لدى المستمسكين بالشكليات، وأعني بها رعاية السبت.

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية. فإن من الواضح من عشرات الدلائل، أن تعاليمه كان لها طابع سياسي من أبسط الأنواع وحقًا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة في قلوب الخلْق، وليست فوق عرش؛ ولكن يضارع هذا في الوضوح أنه حيثما أقيمت مملكته وأيًا كان المدى الذي تقوم به في قلوب الخلْق، فإن العالم الخارجي يتجدد ويحدث له انقلاب ثوري بنفس ذلك المدى بالضبط.

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء أخرى من أقواله بسبب صممهم وعمايتهم، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اعتزامه إحداث انقلاب ثوري في العالم. وبعض الأسئلة التي كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التي أدلى بها، تمكننا من أن نحدس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة. فإن نزعته الصريحة في مهاجمته السياسية تتجلى في حادثة كحادثة العملة.

"ثم أرسلوا إليه قومًا من الفريسيين والهيروديسيين لكي يصطادوه بكلمة. فلما جاءوا قالوا له: يا معلم، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، بل بالحق تعلم طريق الله. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ نعطي أم لا نعطي؟ فعلم رياءهم وقال لهم: لماذا تجربونني؟ إيتوني بدينار لأنظره. فأتوا به. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له لقيصر. فأجاب يسوع وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (إنجيل مرقس. الإصحاح الثاني عشر ٢٣ – ١٧)، وهي قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما علَّمه، لم تبق لقيصر إلا الشيء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون..

وإن الجو الذي يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف محاكمته وإعدامه، لتظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعين معاصريه في صورة من يقترح صراحة – بل من قد اقترح فعلاً صراحة – تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جنباتها. ولكن حتى تلاميذه أنفسهم لم يدركوا المغزى العميق الشامل الذي ينطوي عليه ذلك الاقتراح. إذ كان لا يزال يغشي على عقولهم الحلم اليهودي القديم بملك أي مسيح يقضي على سلطان أسرة هيرودس المهلنين والسيد الأعلى الروماني، ويسترجع أمجاد داود الأسطورية ولعمري لقد أغفلوا مادة تعاليمه، على ما كان بها من وضوح وقصد إلى الغاية؛ وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقته الخفية الفذة للبدء في المغامرة التي ترفعه آخر الأمر إلى عرش أورشليم. فزعموه مجرد ملك جديد في سلسلة الملوك التي لا نهاية لها، ولكن من طراز شبه سحري ينطق بتصريحات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة.

"وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي قائلين: يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا. فقال لهما: ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له: أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك. فقال لهما يسوع لستما تعلمان ما تطلبان، أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟ فقالا له نستطيع، فقال لهما يسوع: أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها، وبالصبغة التي أصطبغ بها أنتما تصطبغان. وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أُعِدَّ لهم. ولما سمعوا العشرة ابتدءوا يغتاظون من أجل يعقوب ويوحنا. فدعاهم يسوع وقال لهم أنتم تعلمون أن الذين يُحْسَبُونَ رؤساء الأمم يسودونهم وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يصير فيكم عظيمًا يكون لكم خادمًا ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبدًا. لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأت ليُخدَم بل ليَخْدُم. وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (إنجيل مرقس. الإصحاح العاشر ٣٥ – ٤٥).

كان هذا أسوأ عزاء لأولئك الذين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لخدماتهم ومتاعبهم التي يلاقونها في اتباعهم إياه. فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد القائل بمملكة قوامها الخدمة كانت في حد ذاتها هي جزاءها العظيم الأوفى. ومع ذلك فإنهم حتى بعد وفاته على الصليب، استطاعت عقولهم أن تقبل بعد انقشاع ذعرهم الأول، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك ينزع منازع العالم القديم عالم الأبهات والامتيازات. وأنه سوف يبعث حيًا من فوره بإحدى عجيبات المعجزات، ويعود ويقيم عرشه بالأبهة العظيمة والسماحة الفياضة في أورشليم. لقد ظنوا أن حياته خطة محكمة وأن مماته أحبولة مدبرة.

كان أعظم من أن يصل إلي إليه فهم تلاميذه. وهل يعجب القارئ – بالنظر إلى ما قاله صراحًا – أن يشعر كل الأغنياء والموسرين برعب من أشياء غريبة، وأن يحسوا بأن عالمهم يميد ويدور من حولهم بسبب تعاليمه؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فهموه أكثر وأحسن مما فهمه أتباعه. ذلك بأنه كان يستخرج دفين مدخراتهم الصغيرة الخاصة التي كونوها من الخدمة في مجتمعهم ويكشفها للأنظار في ضوء حياة دينية عامة. كان أشبه شيء بصياد أخلاقي رهيب يحفر عن الإنسانية ويخرجها من جحرها الدفيء الذي عاشت فيه حتى ذلك الحين. وتحت أنوار السراج الوهاج لمملكته هذه، لم يكن يجوز وجود أية ممتلكات ولا امتيازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية). ولعمر الحق ما كان فيها من حافز ولا جزاء إلا المحبة. أفمن العجيب إذن أن انبهر منه القوم وعميت عيونهم فتصايحوا كلهم عليه؟ بل إن تلاميذه أنفسهم تصايحوا به عندما رفض أن يعفي أعينهم من ساطع الضياء. أفمن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يكن بين هذا الرجل وبين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة؟ أعجيب إذن أن الجنود الرومانيين، وقد واجههم وأذلهم شيء يعلو على أفهامهم ويهدد كل أنظمتهم، يلوذون بالضحك الضاري، ويتوجون هامته بالشوك ويضعون عليه ثوبًا أرجوانيًا ليتخذوا منه قيصرًا سخريًا؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجد، كان معناه الدخول في غمار حياة عجيبة رهيبة، وترك مألوف العادات وضبط هائج الغرائز والدوافع، ومحاولة درك سعادة لا يصدقها عقل.

أفمن العجيب أنه حتى هذا اليوم، ما يفتأ هذا الجليلي أكبر مما تتسع له قلوبنا الصغيرة؟

٣- الديانات العامة الجديدة

ومع هذا فمما يجب ملاحظته أنه بينما كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيرًا من الأشياء التي لا يستطيع أن يقبلها غني أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطوري أو أي مدني عادي محترم إلا وألمّ بطرائق حياته انقلاب هائل يقلبها رأسًا على عقب، فلم يكن منها شيء لا يبادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممن يتبعون تعاليم جوتاما ساكيا الحقة، إذ ليس ثمة شيء يحول بين بوذي بدائي وبين أن يكون نصرانيًا، وكذلك ما من شيء يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوتاما بوذا المسجلة.

وإليك الآن هذه القطعة المقتبسة من كتابات رجل صيني هو "موتي" [1]، الذي كان يعيش في زمان ما في القرن الرابع ق. م، وقت ما كانت تعاليم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة في الصين، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد، فتأمل نغمتها وانظر كم هي نصرانية الروح.

"إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى؛ والسرقات المتبادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء؛ والحاجة إلى الحنان والواجب البنوي بين الوالد وولده – هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية. وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل. فلو أمكن فقط أن تعمم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة، فلن يصبح للأمراء – وقد أحب أحدهم الآخر – أي ميادين للقتال؛ ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أي شيء غصبًا؛ ولن يرتكب الرجال أية سرقة؛ ولاتصف الحكام والوزراء بالسماحة والولاء؛ ولأصبح الآباء رحماء والأبناء بررة؛ ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضي بينهم هينا. ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا، لما انقض قويهم على ضعيفهم؛ ولما نهبت كثرتهم قلتهم، ولما أهان غنيهم فقيرهم، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم، ولما غش خبهم [2] بسيطهم [3] ".

لا شك أن في هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصري، وإن صب في قالب سياسي. وهكذا اقتربت أفكار "موتي" من ملكوت السماء.

وهذا التطابق الجوهري هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسباب هاتين الديانتين العالميتين. فإن بداياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد، وهي تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعالم معروفة الحدود واللاعبة في مراحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٥,٠٠٠ ق. م و٦٠٠ ق. م دورًا عظيمًا كل العظم هاما كل الأهمية. أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م دورًا عظيمًا كل العظم هامًا كل الأهمية. أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م فصاعدًا، فهي بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوي الشامل. وهي التي جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة التي خدمت حاجة الإنسانية، منذ

---

(1) عن "موتي" انظر للمترجم كتاب "التاريخ وكيف يفسرونه" الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر. (المترجم)

(2) الخب: بكسر الخاء هو الغشاش الخادع . (المترجم)

(3) نقلاً عن هيرث (The Ancient History of China) الفصل الثامن.

أن تلاحمت المجتمعات الإنسانية بعضها في بعض بعاملي الخوف والرجاء. وسنرى من فورنا عندما نصـ ل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسي الجديد، مبدأ الحاجة إلى إخلاص عـ ـام من جميع الناس "الإرادة" واحدة. على أن محمدًا اتعظ بما مر بالمسيحية من تجاريب، فكان حاسمًا باتًّ ـا فـ ـي إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشرًا كغيره من الناس، وبذا وقى تعاليمـ ـه شـ ـرًّا كثيـ ـرًا مـ ـن الفسـ ـاد والتصحيف.

ونحن حين نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه، التي نشأت فيما بين غزو الفرس لبابـ ـل وتصـ ـدع الإمبراطورية الرومانية، – إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة. على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصـ ـها وما تكدس فيها من إضافات وما زاد عليها من نمو طفيلي، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير. وما ينبغي أن نشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى، أو قيام أي بديل جديد يحل محلها جميعًا، بل إلـ ـى الصدق الصراح في كل منها، بعد إذ يصهر تمامًا ويخرج نقيًا من كل الشوائب والأدران ويغدو فيهن جميعًـ ـا هو نفس الصدق الواضح المبين: – وأعني بذلك أن قلوب الناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعًا، يجب أن تخضع "الإرادة" عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعًا. ويقول نائب الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصـ ـريحة الجريئة:

"إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحيين، وأعني بذلك أن "بشارة المسيح" ليسـ ـت "إحـ ـدى" الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه شمولاً وعمقًا".

ومع أن الحماقة دفعت الناس إلى كتابة الشيء الكثير عن التضارب بين العلم والـ ـدين، فـ ـالحق أن ذلـ ـك التضارب شيء لا وجود له. فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية بطريق الوحي والاستبصار، إنما هو شيء يكشف فيه التاريخ مع ازدياد وضوحه، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه – حقيقة معقولة يمكن إثباتهـ ـا: هي أن الناس جميعًا يكوّنون أخوَّة واحدة عامة، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك على هـ ـذا الكوكـ ـب الصغير السابح بين النجوم. وإن العالم النفساني ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظ ويؤكد لنا أنه لـ ـيس هناك سلام للقلب معقول ولا توازن ولا أمان للروح، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها، ومـ ـا لـ ـم يـ ـدرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها. ولا يخفى أن جنسنا وتجاربنا الدينية الشخصية يسيران جنبًا إلى جنب في تحاذ وثيق يخيل معه للمشاهد العصري كأنما هما شيء واحد تقريبًا فكلاهما يتحدث عن كائن كـ ـان في بادئة أمره مشتتًا تحجب العماية عينيه ويكتنفه جو من مطلق الحيرة والارتباك، وهو يتحسس طريقه فـ ـي بطء سائرًا نحو صفاء وخلاص يجمعهما هدف منظم متماسك. ولعلكم ترون معي أن هذه هي معالم التـ ـاريخ في أبسط صورها؛ وسواء كان للمرء هدف ديني، أم كان ينكر كل هدف ديني إنكارًا باتًا، فإن خطوط المعالم تظل كما هي.

٤– صلب يسوع الناصري

في ٣٠ م حين كان طيبريوس الثاني إمبراطورًا على روما، وبيلاطس البنطي واليًا على بلاد اليهودية، وقبل عيد الفصح بقليل، هبط يسوع الناصري إلى أورشليم. والراجح أنه هبطها عند ذاك لأول مرة في حياته. إذ كان حتى ذلك الحين يعظ الناس أكثر ما يعظهم في الجليل، ويعظهم في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها. يعظهم هناك في معبد اليهود.

كان دخوله مدينة أورشليم نصرًا سلميًا. إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من الأتباع، وكان يضطر في بعض الأحايين أن "يعلم" الناس من زورق في بحيرة الجليل، بسبب تزاحم الجمهور على الشاطئ – وتسامع الناس به وساقته شهرته إلى العاصمة. فخرجت جماهير غفيرة لتحيته. وواضح بيّن أنهم لم يفهموا منحى تعاليمه، وأنهم كانوا يشركون من حولهم في اقتناعهم العام، بأنه سيقلب النظام القائم بضرب من سحر البر والصلاح. وقد دخل المدينة راكبًا جحشاً استعاره له تلاميذه، والجمهور يرافقه رافعًا صوته بالتهليل والتكبير هاتفًا بكلمة (أوصنّا!! Hosanna) وهي لفظة تعبر عن الفرح.

فذهب إلى الهيكل. وكانت أفنيته الخارجية غاصة بمناضد الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكي يحرره زوار المعبد الأتقياء!!! وانبعث هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم. وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة.

ثم استمر يعلم الناس في أورشليم أسبوعًا يحيط به جمهور من الأتباع جعلوا اعتقال السلطات له أمرًا عسيرًا. ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع. ذلك أن يهوذا (Judas) أحد تلاميذه ملأ الجزع واليأس قلبه لما شهده في استيلاء معلمه على أورشليم من قلة غناء وجدوى، فتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونته في القبض على يسوع. فكوفئ على تلك الخدمة بثلاثين قطعة من الفضة. وكان لكبير الكهنة ولليهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصيان الوادع الذي كان يملأ الشوارع بالجماهير المنفعلة، فمن الجائز مثلاً أن يسيء الرومان فهم الأمر، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الأذى بالشعب اليهودي كافة. ومن ثم كان الحبر الأكبر قيافا (Caiaphas) – في بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الروماني الأعلى – على رأس من قاموا بالإجراءات التي اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأعزل، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع.

وتحدثنا الأناجيل في جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه في ضيعة جثسيماني (Gethsemane)، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطي الوالي الروماني، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجثة (Golgotha).

بذلك انهارت الثورة انهيارًا تامًا وتخلى عنه تلاميذه عن بكرة أبيهم، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال "إني لا أعرف الرجل". إذ لم تكن هذه هي النهاية التي كانوا يرجونها من قدومهم العظيم إلى أورشليم. ولم يشهده في ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعاني مرارة الألم المبرّح والظمأ الشديد، سوى بضع نفر من النساء والأصدقاء الأدنين. حتى إذا قارب هذا يوم العذاب نهايته، استجمع ذلك الزعيم الذي تخلى عنه الناس جميعًا كل قواه باذلاً آخر جهد لديه وصاح بصوت جهير "إلهي! لماذا تركتني؟" ثم أسلم الروح مخلفًا هذه العبارة ترجعها العصور، أحجية أبدية للمؤمنين.

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن يهوّلوا من عنف الذعر الرهيب المتولد عن هذه المأساة، بإذاعتهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات في الطبيعة تشابه تلك التي اختلقت لتوكيد اهتداء جوتاما إلى الصراط السوي. فإنهم يخبروننا أن ظلمة قد غشيت الأرض... وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقًا، فهي لم تحدث أقل تأثير في أذهان الناس في أورشليم في ذلك الزمان. ومن العسير علينا في هذه الأيام أن نصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانغماس في مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث. ولكن الشيء الأشد هولاً من هذا بكثير أن يفترض المرء وجود عالم لا يهتم فيما يظهر بهذه الصلبان الثلاثة القائمة تحت شفق المساء امقاني، ولا يأبه بتلك الجماعة الصغيرة من النظارة المرتبكين المستوحشين. وأرخى الظلام على التل سدوله. وشرعت المدينة البعيدة في القيام باستعداداتها لعيد الفصح؛ وما من أحد سوى ذلك النفر القليل من المخزونين العائدين إلى منازلهم يُعنى بأمر يسوع الناصري هل هو لا يزال يعاني سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل...

أما الحواريون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة. ثم ما لبثوا أن دب بينهم تهامس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد... بأن جسم يسوع ليس في القبر الذي وضع فيه، وأن واحدًا منهم ثم آخر قد رآه حيًا. وسرعان ما أخذوا يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور، وأنه أظهر نفسه للكثيرين، ثم صعد على مرأى من الناس إلى السماء. وجيء بشهود أعلنوا بلهجة التأكيد القاطع أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرًا للعيان. لقد ذهب يطوي طباق السموات الزرقاء – إلى الرب. وسرعان ما ألقوا في روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره، في قوة ومجد ليحكم البشرية كافة. وقالوا إنه يعود إليهم بعد برهة وجيزة؛ على أنهم – وهم ينعمون بإحياء حلمهم القديم البراق بمجد دنيوي يحقق ذواتهم غاب عنهم ذلك النصيب الأعظم، النصيب الهائل الجبار الذي خولهم إياه يسوع من ملكوت الله.

٥- مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هي قصة الكفاح بين التعاليم الحق ـة والـ روح المحـ ض ليسـ وع الناصري وبين التحديدات التي فرضها، والإطنابات والزيادات التي أضافها، والمسائل التـ ي أسـ اء فهمهـ ا، أولئك الرجال البسطاء الذين أحبوه وساروا في إثره من الجليل، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحملتها إلى البشرية. وتقدم إلينا الأناجيل وأعمال الرسل سجلاً مرقعًا غير متوازن، ولكن لا مجال للشك في أنه في جملته سجل تام الأمانة في تصوير تلك الأيام الأولى.

والناصريون الأوائل وهو الاسم الذي كان يطلق على أتباع يسوع، يتخبطون منذ البداي ـة فـ ي غمـ رات الحيرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران: تعاليمه من ناحية وما استحدثه التلاميذ من ناحية أخـ رى مـ ن صـ نوف الشروح والتفاسير. وقد أقاموا من بعده زمانًا عاملين بسنته في قهر النفس التام؛ فجعلوا بضـ اعتهم مشـ اعًا بينهم، ولم يتخذوا رابطة تربطهم إلا الحب. ومع ذلك فإنهم أسسوا عقيدتهم على الأقاصيص التي كانت تدور حول قيامته وصعوده السحري الخلاب، وحول عودته الموعودة. وقلَّ منهم من كان يفهم أن التبرؤ من النفس ونبذها هو جزاؤها بعينه، وأنه هو نفسه مملكة السماء؛ وكانوا يعدون ذلك التبرؤ قربانًا يخوّلهم جـ زاء مـ ن القوة والسيادة، عندما تحدث العودة الثانية عما قليل. وقد أصبحوا جميعًا يـ رون أن يسـ وع هـ و المسـ يح الموعود، ذلك المسيًا الذي طالما انتظره الشعب اليهودي. واكتشفوا في أقوال الأنبيـ اء تنبـ ؤات بالصـ لب – ويشدد إنجيل متى بصفة خاصة في تأكيد هذه التنبؤات. وأنعشت هذه الآمال المبـ ادئ النصـ رانية، وشـ دت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التي كان يحياها كثير من المؤمنين، فأخذت تنتشر انتشارًا بالغ السرعة فـ ي أرجاء بلاد اليهودية وسوريا.

وظهر للوقت معلم آخر عظيم، يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية – وهـ و شـ اءول الطرسوسي أو بولس. ويظهر أن شاءول هو اسمه اليهودي وأن بولس هو اسمه الروماني. كان مواطنًا رومانيًا، ورجلاً أوتي علمًا أوسع كثيرًا وعقلية أضيق كثيرًا مما يبدو أن قد أوتي يسوع. والراجح أنه كان يهودي المولد، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك. ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود. بيد أنه كان متبحرًا في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية [1] وكانت لغته الإغريقية. ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القـ ديم أن لغتـ ه الإغريقية غير مرضية؛ فهو لم يستخدم لغة أثينا، بل إغريقية الإسكندرية، بيد أنه استخدمها بقوة وطلاقة. وينعتها البروفسور جلبرت موراي بأنها "بالغة الجودة".. "وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلينستية وبأساليب الرواقيين (Stoicism). على أن تمكنه من اللغة الراقية الرفيعة عظيم مدهش". كان صاحب نظرية دينية ومعلمًا يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل، وهو في رواية العهد الجديد يبدو بادئ ذي بدء في إهاب الناقد المرير، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصريين (النصارى) جميعًا.

([1]) يفرق المؤرخون بين العصر الهيليني السابق على الإسكندر والهيلينستي الذي يجيء في تاريخ الإغريق بعد وفاة الإسـ كندر إلى ظهور أوغسطوس قيصر. (المترجم).

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أي بحث في آراء بولس الدينية قبل أن يصبح مـ ن أتبـ ـاع يسوع. ولا بد أنها كانت أساسًا لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها، كما أن أسـ لوب تعبيره ـا وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها، كما أن أسـ لوب تعبيره ـا وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة لوناً خاصًا. وإنا نكاد نتخبط في نفس الظلمات حـ ول تعـ ـاليم عمالائيل، الذي يقولون إنه هو المعلم اليهودي الذي كان بولس يجلس عند قدميه. كذلك لسنا ندري مـ ـا هـ ـي التعاليم غير اليهودية التي درسها. ومن الراجح جدًا أنه تأثر بالمثرائية. إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية. ويتضح لكل من يقرأ "رسائله المتنوعة، جنبًا إلى جنب مع الأناجيل، أن ذهنه كان مشبعًا بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة. فما بشر به يسوع كان ميلادًا جديدًا للروح الإنسانية؛ أما ما علمه بـ ـولس فهـ ـو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلبًا لاسترضاء الإله. كان يسوع في نظـ ـره حمـ ـل عيـ ـد الفصح، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب ودنس التي تتعقب في إصرار ديانات الشـ ـعوب البيضاء الداكنة [1]. أمد بولس الناصريين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تمامًا لكارثة الصـ ـلب. وكان تفسيره ذاك نورًا ساطعًا سلط على دياجير الحيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس.

ولم ير بولس يسوع قط. ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعًا عن التلاميذ الأصـ ـليين. ومـ ـن الجلي أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد، بيد أنه أدخل هذه الفكرة فـ ـي صرح نظام لاهوتي، نظام يتسم بشديد البراعة والخفاء، لا تبرح فتنته إلى اليوم تسـ ـتهوي العقـ ـول "فكريًـ ـا" بصفة رئيسية. ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التي وجدها على صورة مبدأ للحفـ ـز والإثـ ـارة وأسـ ـلوب للعيش، قد تحولت على يديه إلى مذهب "إيمان". ذلك بأنه وجد الناصـ ـريين ولهـ ـم روح ورجـ ـاء؛ وتـ ـركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة.

بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى "أعمال الرسل" و "رسائل بولس"، ليحصل على بيان واضح عن رسالة بولس وتعاليمه. كان رجلاً هائل الطاقة والنشاط، وقد علم الناس في أورشليم وأنطاكية وأثيـ ـا وكورنثـ ـوس وإفيسوس وروما.

ويحتمل أيضًا أنه انحدر إلى إسبانيا. وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه التحقيق، ولكن يقال إنه قتل في روما إبان حكم نيرون. فقد شب حريق عظيم أتى على قسم كبير من روما، فاتهمت الطائفة الجديدة بأنها تسببت في ذلك الحريق. ولا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأي رجل آخر بمفـ ـرده. فلم تكد تمضي على صلب المسيح عشرون سنة، حتى استرعت هذه الديانة نظر الولاة الرومان في ولايـ ـات عديدة. ولئن حصلت من يد القديس بولس على لاهوتها، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعاليم يسـ ـوع مـ ـن السمة الثورية والبدائية. وقد أصبحت أكثر تسامحًا نوعًا ما مع الملكية الخاصة، وأصبح في وسعها أن تقبـ ـل

([1]) يشير المؤلف بهذا إلى الشعوب البيضاء الداكنة الأعين والشعر والساكنة أصولها حول البحر المتوسط (انظر المعـ ـالم ج١، ص ١٧٧، ط٣) (المترجم).

نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعًا، واغتفر القديس بولس نظام الرق عندما قال: "أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم" (1)، ومع ذلك فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجوهرية في العالم الروماني. فإنها لم تجز البتة ربوبية قيصر. فلم يقبل المسيحيون قط أن يعبدوا الإمبراطور، حتى ولا بإيماءة صامتة عند المذبح، رغم ما في ذلك من تعريض حياتهم للخطر. وإنها لتستنكر حفلات المجالدين (2). وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى هائلة من المقاومة السلبية، بدت منذ مستهلها في ثوب ثورة صريحة، تكيل الضربات للأسس الجوهرية للنظام الإمبراطوري السياسي إن لم يكن الاقتصادي. وأول ما نجد في الأدب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد على وجود المسيحية، يبدو عندما أخذ الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء في المشكلة الغريبة الماثلة بين أيديهم، مشكلة ذيوع عدوى ذلك العصيان الصادر من قوم لا شر يخشى منهم فيما عدا ذلك من شئون الدنيا.

ويغشى الغموض التام شطرًا كبيرًا من تاريخ المسيحيين في القرنين الأولين من الحقبة المسيحية. فمع أنهم انتشروا في كل أرجاء العالم، فإنا لا نعرف إلا القليل النادر من فكراتهم أو طقوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان. ولم تكن لهم حتى حينذاك عقائد مستقرة، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات محلية كبيرة في معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك العصر. ولكن مهما يبلغ ما بينهم من فوارق محلية، فيلوح أنهم كانوا في كل مكان يحملون الشيء الكثير من روح يسوع. ومع أنهم كانوا حيثما حلوا أثاروا ضدهم عداء مريرًا ودعاية مضادة قوية، فإن نفس التهم الموجهة إليهم تشهد بما هم عليه من خير وصلاح عام.

وفي أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أي التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التي تكاد تضارعها في سعة انتشارها بين سواد الشعب، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس (3). ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلاً من يوم السبت اليهودي، كما استعاروا فكرة الإكثار من استعمال الشموع في الحفلات الدينية، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعني القسس)، كما اقتبسوا أيضًا فيما يرجح، تلك الفكرات أو العبارات التي لا تزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشيع والتي تتكلم عن "الاغتسال في دم" المسيح وعن كون المسيح تضحية بالدم. ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلبًا، لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق؛ فتصوير يسوع في صورة المراق دمه من أجل البشرية، إنما هو في الحقيقة من أشد العبارات بعدًا عن الدقة. ونحن وإن تذكرنا أنه لقي التعذيب والتنكيل وأنه ألبس تاجًا من الأشواك، وأن جنبه قد طعن بحربة، فإنا لا نزال أبعد ما نكون عن "نبع يفيض دمًا". بيد أن المثرائية، وكانت

---

(1) كانت روح يسوع، الروح الباعثة للحياة في المسيحية، والتي تسري في الأناجيل، تتعارض تعارضًا تامًا مع كل من الملكية الخاصة والرق، إلا أن اتجاه المسيحيين، لم يتعين إطلاقًا بمثل هذا التحديد. وكانوا في الغالب أميل إلى التخفيف منهم إلى الإلغاء. (المؤلف).

(2) المجالد Gladiator، شخص، وبخاصة عبد أو أسير، يقاتل حتى الموت (في المجتلد Arena) أو إنقاذ الحياة، لإمتاع الجماهير بروما القديمة. (المترجم).

(3) سيرابيس كان مركبًا من أوزيريس وأبيس (انظر ج ٢ ص ٣٨٨ من المعالم). (المترجم)

تتركز حول بعض الخفايا التي عفى عليها اليوم النسيان، تتخيل مثرا وهو يضحي بعجل مقدس خير. ويلوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرائية تزدان بصورة لمثرا وهو يذبح ذلك العجل، الذي ينزف دمه نزفًا عظيمًا من جرح في جنبه، ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة. وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعل في دم عجل التضحية، وبذلك "يولد من جديد". وكان عند انخراطه في النحلة لأول مرة يدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها، فيسيل عليه دمه. ويخيل إلينا أنا نعالج هاهنا استمرارًا لسفك الدماء البدائي للتضحية عند وقت البذار، وهي فيما يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد.

على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدرًا أو يكاد. إذ كان طبيعيًا أن يجد المسيحيون في شخصية حورس، (الذي كان ابنًا لسيرابيس وهو سيرابيس في نفس الوقت)، شبيهًا مرشدًا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا. وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس. ثم السمو بها مرتبة شبه قدسية – بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته – خطوة طبيعية جدًا كذلك. وكان طبيعيًا كذلك للمسيحية أن تقتبس وهي لا تكاد تعي، الطرائق العملية للديانات الشائعة في ذلك الزمان. فاتخذ قساوستها طريقة الرءوس الحليقة والزي الخاص بالكهنة المصريين، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتمييز القسس. وتتابعت البدع واحدة في إثر الأخرى. وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك "الإضافات المألوفة". ولقد حاولنا من قبل أن نتصور عودة جوتاما بوذا إلى التبت، وانذهاله لعبادة تمثاله في لهاسا (Lhassa). ولو أن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين ممن عرف واتبع معلمه الأشعث الضاوي من السفر في وهج الشمس اللافح بالجليل، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلاً قداسًا في كنيسة القديس بطرس بروما، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلة عندما يعلم أن تلك الخشكنانة (القربان) الموجودة على المذبح إن هي إلا معلمه المصلوب.

والدين في مجتمع عالمي ليس أشياء عديدة وإنما هو شيء واحد، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني، من أن تتحاسب وتتبادل العبارات والفكرات والطقوس. وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح. ولكن ذكاء بوليس المتوقد أحاط سيرته بالأهمية المستبقية. وكان يسوع دعا الناس رجالاً ونساء إلى أداء واجب جبار: هو إنكار الذات والميلاد الجديد في مملكة المحبة. وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان كان المسيحي يجد في ديانته أن يفر بعيدًا عن هذا المبدأ البسيط الصريح، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة، – إلى الغوص في مسائل ذهنية بحتة قوامها نظريات ومراسم معقدة لا تمس جوهر نفسه بأي حال فما أسهل أن ينضح الإنسان ذاته بالدم ومن أن يطهر نفسه من الحقد والمنافسة؛ وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعيًا أنه قد امتص الألوهية؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب، وأن يحلق الرأس ويستبقي النفس الأمارة بالسوء المستقرة في داخله!! كان العالم غاصًا بأمثال هذه الفلسفة التهربية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للحقبة المسيحية. وليس يعنينا هنا أن نتوسع في تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثة (Neoplationism)

[1] والأدرية [2] (Gnosticism) والفيلونية (Philonism) [3] وما إليها من تعاليم كانت كثيرة في العالم الإسكندراني. بيد أن الواقع أنه كان كله عالمًا واحدًا، ذلك العالم الذي جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول. وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) وأفلوطين (Plotinus) وأوغسطين (Augustine) – بحركة الأخذ والعطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان.

وقد سمى يسوع نفسه ابن الله وابن الإنسان أيضًا؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهتمام بشخصه: من هو؟ أو ما هو؟ وإن اشتد تركيزه كثيرًا على التعاليم المتعلقة بالملكوت. وعندما صرح بولس وأتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله، فإنهم – أخطئوا أم أصابوا – قد فتحوا ميدانًا هائلاً من الجدل. فهل كان يسوع ربًا؟ أم أن الرب خلقه؟ هل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأسئلة، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يكن منها بد، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية في بلاد الغرب. حتى إذا وافى القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها في حالة من الهياج والسخط بسبب الجدل الملتوي الخدّاع حول طبيعة الله – بحيث أهملت بدرجة كبيرة التعاليم الأكثر بساطة، تعاليم الإحسان والأخوّة والخدمة التي طبعها يسوع في العقول مرارًا وتكرارًا.

وأهم الآراء التي ينبغي أن يلحظها المؤرخ هي آراء الآريوسية (Arians) والسابيلية [4] (Sabellians) والثالوثية (Trinitarians). وكانت الآريوسية تتبع آريوس الذي كان يعلم أن المسيح كان أقل منه إله، وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله – فالإله هو الخالق والمخلص والمواسي، كما يكون الرجل الواحد أبًا وقيمًا وضيفًا؛ أما الثالوثية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس، أقانيم ثلاثة مميزة، بيد أنها إلى واحد. وإنا لنرجع القارئ إلى عقيدة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير، ويطلب فيها النتائج المزعجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها!!. ويجب عليه أن يرجع إلى جيبون [5] إن شاء بيانًا عن هذه الخصومات ملؤه السخرية والتهكم. على أن الكاتب الحالي لا يسعه إلا

---

(1) الأفلاطونية الحديثة: مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطونية، وهي فلسفة أفلوطين، الذي عاش بالإسكندرية في القرن الثالث. (المترجم).

(2) الأدرية أو الأغنسطية حركة دينية نشأت والمسيحية ناشئة يراها بعض الناس زندقة، ولكنها محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة الإغريقية، وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط. ويرى الأغنسطيون أن لهم علمًا باطنيًا بالمعنى الداخلي للديانة. وهو المعرفة التي يستطيعون أن يصلوا بها إلى الاستنارة والخلود . (المترجم).

(3) الفيلوثية: نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إغريقي من أصل يهودي ولد بالإسكندرية قرابة ٢٠ ق. م أو فلسفته تخلط بين أفلاطون والكتاب المقدس ولها بعض الأثر في المؤلفات المسيحية. (المترجم).

(4) السابيلية هم أتباع سابيليوس (القرن الثالث م) الذي كان يرى أن الله لا ينطوي إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثًا من الوظيفة والإظهار. (المترجم).

(5) أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر (في ١٩٦٩ – ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيبون بإشراف الأستاذ أحمد نجيب هاشم. فليرجع إليها القارئ. (المترجم).

أن يعالجها دون أدنى رهبة ولا سخرية. وهو يرى من واجبه أن يعترف أنها تبدو له كأنما هي غليان مدمر تهدر مراجله في العقل البشري وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأنها لا تتسق بتاتًا مع تعاليم يسوع البسيطة الصريحة المحفوظة لنا في الأناجيل. ولم يعد اعتناق المذهب التقليدي السليم (الأرثوذكسي) شرطًا لازمًا للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب، بل لمزاولة التجارة بين المسيحيين والحصول على المعونة المسيحية كذلك. فإن التمسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادئ الدينية أو التزحزح عنها قد يكون معناه ثراء رجل أو إدقاعه. ومن العسير أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان، دون أن يشعر شعورًا قويًا بتحكم الاتجاه الاعتقادي (Dogmatism) وباستبداد الأحقاد والمنافسات والتفيهقات بالرجال الذين مزقوا المسيحية إربًا من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة. ومعظم المجادلين الثالوثيين – إذ إن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية – يتهمون خصومهم (وبحق ما يتهمونهم في الغالب) بأن لهم دوافع دنيئة أخرى خفية. بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة في جلاء تام. مثال ذلك أنهم يتهمون أريوس مثلاً بأنه يعتنق الإلحاد (الهرطقة)، لأنه لم يعين أسقفًا على الإسكندرية. وكانت الفتن والحرمانات (من عضوية الكنيسة) والنفي تلازم على الدوام هذه الخصومات، ثم جاء دور الاضطهاد الرسمي آخر الأمر. إذ اختلطت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله، بالسياسة والمنازعات الدولية. وكان الرجال الذين يتنازعون حول أشغالهم، والزوجات اللائي يرغبن في مضايقة أزواجهن، يعتنقون في هذا الموضوع الرفيع آراء متضادة. وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسيين؛ والراجح أن مرد ذلك هو أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة" الثالوثية".

ومن أيسر الأمور على المشكك أن يهزأ من هذه المنازعات. ولكن حتى لو كنا نرى أن هذه المحاولات التي ترمي على وجه الدقة إلى تبيين مقدار ارتباط الله بنفسه، فيها من الغرور والجرأة فضلاً عن الفظاعة من الناحية الذهنية ما فيها، فإنا على ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة المخالفة لكل معقول، تفصيلات الاعتقاديات (Dogmas) المستحيلة، كثيرًا ما كانت تكمن وراءها عاطفة صادقة تهدف نحو الحق، وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه. وكان لكل من الجانبين شهداء صادقو الشهادة. والحماسة التي تجلت في هذه المنازعات وإن تكن حماسة وضيعة في غالب الأحيان، إلا أنها جعلت الشيع المسيحية على كل حال نشيطة جدًا في ناحيتي الدعاية والتعليم. ومع ذلك فينبغي ألا يخدعنا تاريخ الجماعة المسيحية في القرنين الرابع والخامس من حيث هو في معظمه سجل لهذه المنازعات التعسة، إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلاً وتتسامى بأرواح كثيرة بين المسيحيين. وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل، وإن جرى على الراجح التلاعب بها أثناء تلك المدة، إلا أنها لم يقض عليها تمامًا، وظل يسوع الناصري في جلال عظمته الوضاحة التي لا تجارى، يعلّم الناس من خلال نصوصها. كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ بجهة موحدة ضد حفلات المجالدين وضد العبادة المشينة عبادة الأوثان والقيصر الرب.

٦- كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبيعيًا أن تعد المسيحية حركة عصيان للدولة وتفكيك لعراها، ما تحدّت ربوبية قيصر والنظم التي تتميز بها الإمبراطورية، والواقع أنها كانت تعد كذلك في نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطين الأكبر. فلقيت عداء جسيمًا، انتهى آخر الأمر إلى بذل محاولات منظمة للقضاء عليها. وكان ديكيوس (Decius) أول إمبراطور أنزل بها اضطهادا رسميًا، كما أن عهد دقلديانوس (٣٠٣ وما أعقبها من السنين) هو حقبة الشهداء العظيمة. والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هي النزاع النهائي بين فكرة الإمبراطور الرب القديمة وبين الهيئة العظيمة البالغة بالفعل حد القوة والتي كانت تنكر ربوبيته. وكان دقلديانوس أعاد تنظيم شئون الملك والمملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق؛ وألغى آخر ما تبقى من آثار النظم الجمهورية؛ وهو أول إمبراطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة. فاضطره منطق مدعياته أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذي كان ينكرها إنكارًا صريحًا. وكان الاختيار الممهد للاضطهاد، أن يطلب إلى "المسيحي" أن يقرب إلى الإمبراطور قربانًا.

"ومع أن دقلديانوس الذي لم يبرح نافرًا من سفك الدماء، قد خفف من غلواء جاليريوس الذي اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيًا، إلا أن العقوبات التي وقّعت على المسيحيين المعاندين، يمكن أن تعد من النكال الصارم ذي الأثر البالغ. فصدرت مراسيم تقضي بأن كنائسهم في أنحاء الإمبراطورية يجب أن تهدم من أساسها؛ ثم أنذر بعقوبة الإعدام كل من يجرؤ على عقد أية اجتماعات سرية بقصد العبادة الدينية. واتخذ الفلاسفة في ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية، هي توجيه الحماسة العمياء للدولة في ذلك الاضطهاد؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبقريتها دراسة كدّ وتوفر؛ ولما كانوا لا يجهلون أن من المفروض أن المبادئ النظرية للعقيدة تحتويها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسل، فأرجح الظن أنهم هم الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كل كتبهم المقدسة إلى الحكام، الذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها في هيئة علنية رهيبة، وإلا نالهم شر الجزاء. وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور؛ وكانت الأجزاء المختلفة التي تتكون منها، إما أن تباع لمن يدفع فيها أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبراطورية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط. وبعد اتخاذ مثل هذه التدبيرات الفعالة لإلغاء العبادة، وللقضاء على رئاسة المسيحية، رؤي من الضروري تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين يواصلون رفض عقيدة الطبيعة، عقيدة روما وعقيدة أسلافهم، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء. وكان الأفراد المستتيرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكفاء لحيازة الرتب أو تولي المناصب؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرمانًا أبديًا من التطلع إلى الحرية؛ كما أن الجماعة المسيحية بأجمعها حرمت حماية القانون. فقد خول للقضاة الحق في أن ينظروا وأن يقضوا في كل قضية ترفع أمامهم ضد أي مسيحي؛ بيد أنه لم يكن مسموحًا للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المتعسة هدفًا لكل ظلم وعنت، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة. ولم يكد هذا المرسوم يعرض على الملأ في أبرز المواضع بنيقوميديا، حتى امتدت إليه يدا مسيحي بالتمزيق المصحوب

بأقذع التنديد والسباب تعبيرًا عن المقت والاحتقار لمثل هؤلاء الحكام الفسقة الطغاة. وكانت جريمتـه طبقًـا لأخف القوانين وطأة، توضع بمنزلة الخيانة العظمى وتجازى بالإعدام فإن صح أنه كـان رجـلاً ذا مرتبـة وعلم، فإن تلك الظروف ما كانت إلا لتزيد في جرمه، وإذا هو يحرق أو قل يشوى على نـار بطيئـة. وإذا بجلاديه وقد امتلئوا حماسة للانتقام للإهانة الشخصية التي لحقت بالأباطرة، يفتنّون في إنزال العـذاب ألوانًـا بالمسكين دون أن يستطيعوا لصبره قهرًا، وأن يغيروا من ابتسامة الثبات والزراية التي ظل محتفظًا بها على محياه وهو في آلام نزعه الأخير". [1]

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد المجهول. ولكن ما وصـل لنا مـن معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدته إنما هو – كما يلاحظ جيبون – موضع الشك الكثير. وهو يقـدر مجموع الضحايا الكلي بما يقارب الألفين، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من عدد جماهير المسـيحيين الحاشـدة الذين استشهدوا على أيدي زملائهم في الدين أثناء فترة الإصلاح الديني. ومن المعلـوم أن جيبـون شـديد التحامل على المسيحية، وهو ها هنا يبدو كأنما ينزع إلى التهوين من شأن تجلد المسيحيين وما عـانوه مـن الآلام. ولا مراء أن كثيرًا من المقاطعات أبدت نفورًا عظيمًا في تنفيذ المرسوم. بيد أن السلطات بذلت جهـدًا كبيرًا في تصيد نسخ الكتب المقدسة، كما حدث أيضًا في أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية. وعـذب وأعدم كثير، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحيين. ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع المسـيحي كان يؤلف عنصرًا ضخمًا جدًا بين السكان، وأن نسبة كبيرة من الموظفين المكلفين بتنفيذ المرسوم كانوا هـم أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة. وكان جاليريوس صاحب الأمر في الولايات الشـرقية مـن أشـد أنصـار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة، بيد أنه أدرك آخر الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا فائدة ترجى من اعتداءاته على هذا المجتمع الضخم، فأصدر مرسومًا بالتسامح، يترجم جيبون خلاصته على الوجه التالي:

"كان من بين الأمور الجوهرية التي أهمتنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها، اعتزامنـا أن نصـلح ونقيم من جديد كل شيء وفقًا للقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وقد رغبنا رغبة خاصة في أن نهدي إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المخدوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي اسـتنتها آبـاؤهم؛ واحتقروا في جرأة وغرور شريعة الأقدمين، واخترعوا قوانين وآراء هوجاء وفقًا لما تمليه عليهم أهـواؤهم، وجمعوا من حولهم مجتمعًا مخلصًا من مختلف ولايات إمبراطوريتنا. وإذ إن المراسيم التي أصدرناها لـدعم عبادة الآلهة، قد عرضت كثيرًا من المسيحيين للأخطار والمحن، فلقي الكثيرون منهم حتفهم، وترك الأكثرون ممن لا يزالون يصرون على ضلالهم الأحمق محرومين من أي ممارسة عمومية للديانة، فإنا نميل إلـى أن نشمل هؤلاء التعساء بآثار رحمتنا المعتادة. لذلك فنحن نسمح لهم بأن يعبروا بحرية عن آرائهم الخاصة وأن يجتمعوا في اجتماعاتهم الدينية دون خوف أو مضايقة، على شريطة دائمة هي أن يحافظوا علـى الاحتـرام

---

[1] انظر جيبون في "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر. وبإشراف أحمـد نجيـب هاشـم وترجمة محمد علي أبو درة وآخرين، أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر طبعة عربية لطبعـة مختصـرة مـن جيبون أصدرها الأستاذ د. م. لو. (المترجم).

اللائق للقوانين والحكومة القائمة. وسنوضح في أمر آخر مقاصدنا للقضاة والحكام؛ ونأمل أن يطوع تسامحنا للمسيحيين بأن يقدموا صلواتهم للرب الذي يعبدون، من أجل سلامتنا ورخائنا ومن أجل سلامتهم ورخ ائهم ومن أجل سلامة الجمهورية ورخائها".

وفي بضع سنين كان قسطنطين الأكبر في دست الملك، يحكم في مبدأ الأمر بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم يحكم منفردًا بالسلطان (٣٢٤)، فانتهت على يديه أقسى محن المسيحية. ولئن كانت المسيحية قوة عصد يانية مدمرة حيال روما الوثنية، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة في داخل مجالها ومجتمعاتها هي. وأدرك قسطنطين بعبقريته هذه الحقيقة. فإن روح يسوع بالرغم من الخلافات النظرية التي سادت المسد يحيين جعل ت م نهم جماعة متعاطفة كبيرة في كل أرجاء الإمبراطورية بل في خارج حدودها. وأخذت العقيدة في الانتشار م ن وراء الحدود من البرابرة، كما امتدت إلى فارس وآسيا الوسطى. وكانت مصدر الأمل الوحيد للتماسك الخلقي الذي استطاع قسطنطين أن يدركه في حمأة الآراء الضيقة والأثرة التي كان لزامًا عليه أن يحكم من فوقه ا. فهي، وهي وحدها، كانت صاحبة الوسائل المهيئة لتك وين "الإرادة" المنظم ة، تل ك الإرادة الت ي كان ت الإمبراطورية بسبب حاجتها إليها تتناثر أشلاء تناثر قطعة بالية من القماش. وفي (٣١٢) اضطر قسد طنطين أن يحارب دفاعًا عن روما وعن مركزه ضد مكسينتيوس (Mxentius) فوضع طغراء [1] اس م المسد يحية على تروس جيشه وراياته، وادعى أن رب المسيحيين قائل زيادًا عنه في نصره المبين في معرك ة جس ر ميلفيان (Milvian) خارج روما بالضبط. وبهذا العمل تنازل عن كل ادعاء له بالربوبية التي أدخلها غ رور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم الغربي. وبموافقة المسيحيين ومعونتهم نصب نفسه ملكًا، له من الحك م المطلق نصيب أعظم مما أتيح لدقلديانوس نفسه. ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبحت المسد يحية الديان ة الرسمية للإمبراطورية، وفي (٣٣٧م) عُمِّدَ قسطنطين مسيحيًا وهو على فراش موته.

([1]) الطغراء: علامة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتألف من أحرف الاسم الأولى مرقومة على نحو متشابك. (المترجم).

٧- قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهري في التاريخ ويعدل في جوهريته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسوس قيصر. ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الخاصة؛ إذ لم تهيئ لنا المقادير في زمانه مؤرخًا مثل بلوتارك [1] أو سويتونيوس [2] (Suetonius) يبقي لنا على تفاصيل زاهية التلوين تتصل اتصالاً وثيقًا بمعيشته الداخلية. أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسماجة. بيد أن واحدا من هؤلاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلا رمزًا لطائفتهم، أو راية حزبية لهم. ويذكر خصمه زوسيموس (Zosimus) أنه كسرجون الأول، كان غير شرعي المولد. إذ كان أبوه قائدًا شهيرًا، على حين كانت أمه هيلانة ابنة صاحب خان في نيش ببلاد الصرب. على أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعي. ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجًا وضيعًا؛ وقد طغت عبقرية قسطنطين الشخصية على نقائص خطيرة تكنفته. فإنه كان من الأميين أو يكاد، وكان يعرف القليل الذي لا يكاد يذكر من الإغريقية. ويبدو أنه نفى حقًا ابنه الأكبر كريسبوس، وأمر به فأعدم بتحريض من فاوستا امرأة أبي الفتى؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد ببراءة كريسبوس، وأمر بفاوستا فأعدمت، بأن أُغلي عليها ماء حمامها حتى ماتت – على قول إحدى الروايات؛ وبأن ألقيت للضواري (في رواية أخرى) عارية الجسم على جبل موحش، على حين توجد كذلك وثائق مقنعة جدًا تدل على أنها عاشت من بعده. فإن كانت أعدمت فعلاً، فإن ذلك لا يؤثر في الحقيقة القائلة بأن أولادها الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها، أصبحوا ورثة قسطنطين "بالتعيين". وواضح أنه لا يمكن الحصول على شيء يعتمد عليه في هذه المعقدات الغامضة، وعلى القارئ المتطلع أن يطلب أخبار هذه "الخبيصة" القائمة على مادة بالغة الندرة عند جيبون الذي دبجها بمهارة فائقة (الفصل ١٨).

ومعروف أن جيبون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية، فهو من ثم خصم معاد لقسطنطين؛ بيد أنه يعترف أنه كان معتدلاً عفيفًا. وهو يتهمه بالإسراف بسبب مبانيه العامة العظيمة، كذلك يتهمه بالغرور والخلاعة! لأنه لبس وقد تقدمت به السن شعرًا مستعارًا (ولا يخفى أن جيبون نفسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجًا ملكيًا وثيابًا فاخرة. على أن جميع الأباطرة المتأخرين بعد دقلديانوس لبسوا التيجان والثياب الفاخرة.

---

[1] بلوتارك: (ح٤٦ – ١٢٠) كاتب تراجم يوناني حاضر في الفلسفة بروما. وعينه هادريان واليا على اليونان. وكتابه "التراجم المتوازية" فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق والرومان. (المترجم)

[2] سويتونيوس: مؤرخ لاتيني (ازدهر بالقرن الثاني الميلادي) ويعطينا كتابه "حياة القياصرة" معلومات شخصية كثيرة عنهم. (المترجم)

ومع ذلك فلئن ظلت شخصية قسطنطين الكبير أشبه شيء بالأطياف، ولئن لم تتكشف تفاصيل حياته الخاصة إلا عن مأساة يغشاها الإبهام، فإنا مع ذلك نستطيع أن نتخيل كثيرًا مما كان يجول في ذهنه. ولا بد أنه كان ذهنًا يشعر بالوحشة الأليمة وهو في خاتمة سني حياته. كان أكثر استبدادًا من أي إمبراطور سابق – أعني أنه كان أقل استشارة واستعانة بغيره، إذ لم يبق لديه أحد من أهل الثقة ذوي الروح الغيرية العامة [1]، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو)، ولا أي مجلس أيًا كان يشاركه وضع الخطط وتطويرها. فإلى أي مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته وإلى أي حد كان يرى الكارثة الشاملة التي كانت عندئذ وشيكة الحدوث؟ ذلك ما لا نستطيع أن نعتمد فيه إلا على الحدس والتخمين. ومهما يكن الأمر فإنه جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا. وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور لا تزال تبنى. ويلوح أنه – شأن دقلديانوس – قد أدرك انقصام [2] ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام.

وركز اهتمامه على الشئون الخارجية، وعلى الأخص إلى شئون بلاد المجر وجنوب الروسيا والبحر الأسود. وقد أعاد تنظيم أداة الحكم في الإمبراطورية، وأعطاها دستورًا جديدًا وسعى في أن يكوّن أسرة مالكة. وكان مجددًا لا يهدأ له بال؛ فحاول أن يعالج الفوضى الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور. وهو في هذا يترسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس. فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة، وأن يحظر عليهم الانفصال عما في حوزتهم من أرض، وهو في الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالي أرض (Serfs). ذلك بأن الوارد من الأرقاء العمال قد نضب معينه، إذ إن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو. فانقلب يتلمس العلاج في نظام موالي الأرض، واقتضت جهوده الخلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق لها مثيل. وتشير كل هذه الأمور إلى عقل قوي يشعر بالوحدة الموحشة. وتتجلى قوة ابتكاره الأصيلة في فهمه البيّن للحاجة إلى بعض القوى الأخلاقية الموحّدة التي لا بد منها لتماسك بنيان الإمبراطورية.

ويبدو أنه لم يدرك الاختلافات العنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن تحول بوجهه صوب المسيحية. فأنفق جهدًا عظيمًا للتوفيق بين هذه الفروق لكي يتسنى له أن يبث في المجتمع تعاليم تتصف بالتناسق والانسجام، وبناء على مشورته عقد مجمع عام للكنيسة (٣٢٥) في نيقيا، وهي مدينة تقع قرب نيقوميديا في مواجهة القسطنطينية. ويقدم إلينا يوسبيوس (Eusebius) [3] بيانًا عجيبًا عن هذا الاجتماع الغريب، الذي كان يترأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحيًا معمدًا لم يكن أول مجلس عقده من أجل الكنيسة، لأنه سبق له أن رأس في (٣١٤) مجلسًا في آرل (Arles). جلس الإمبراطور في بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب، وإذ إنه كان رقيق الزاد من الإغريقية، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة

---

(١) يقصد المؤلف بهؤلاء كل شخص يعنى بالشئون العامة وخدمة الجمهور (المترجم).

(٢) انقصم الظهر بمعنى انكسر. (المترجم).

(٣) يوسبيوس (ح ٢٦٠ – ٣٤٠ م.) هو أبو التاريخ الكنسي. ويعتقد أنه ولد بفلسطين. عين أسقفًا لقيصرية ح ٣١٣ ولعب دورًا هامًا في مجمع نيقيا. (المترجم).

ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغمات أصواتهم. وكان المجلس عاصفًا. ولما قام آريوس (Arius) المسن ليتكلم، لطمه على وجهه شخص هو نيقولا الميري (Nicholas of Myra)، ثم هرول الكثيرون بعد ذلك إلى الخارج، وقد وضعوا أصابعهم في آذانهم في رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ. وإن المرء ليلذ له أن يتصور الإمبراطور العظيم، وهو في أشد القلق على روح إمبراطوريته، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات، منحنيًا نحو مترجميه يسألهم إيضاح تلك الضجة.

وتمخض هذا المجمع عن "بيان العقيدة النيقية" وهو بيان "ثالوثي" دقيق، وناصر الإمبراطور هذه العقيدة "الثالوثية". ولكن لما حدث فيما بعد أن أثناسيوس اشتط في الحملة على الأريوسيين، أمر بنفيه من الإسكندرية، ولما رغبت كنيسة الإسكندرية في حرمان آريوس، أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها.

٨- تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنا هذا. إذ هو تاريخ أول مجمع عام "مسكوني Oecumenical" بكامل هيئته للعالم المسيحي بأسره: (فأما ذلك المجمع الذي عقد في آرل وذكرناه آنفاً فكان اجتماعًا للنصف الغربي فقط). وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحي بصفة قاطعة إلى مسرح الشئون الإنسانية، على النحو المفهوم عن ذلك الدين في العالم اليوم عامة. وهو يحدد التعريف الدقيق للتعاليم المسيحية بواسطة قرار العقيدة النيقية (Nicene Creed).

ومن الضروري أن نستلفت نظر القارئ إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقيا هذه التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصري. فإن المسيحيين جميعًا يعتقدون أن الأولى تنطوي على الثانية وتحتويها احتواء تامًا، على أن هذه مسألة تخرج عن مجالنا. فمن الواضح تماما أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين. وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبسًا عليها ولا هيكل. ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس. وكان قربانها "قلبًا كسيرًا خاشعًا". وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة. بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها – كانت في صلبها "ديانة كهنوتية"، من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة، والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان بقربه قسيس متكرس للقداس. ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة.

ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل سيرابيس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها. فإنها لم يكن لديها في أي مكان أية صورة مجسدة شبه قدسية للرب. ولم يكن هناك معبد رئيسي يحوي الرب، وذلك لأن الرب موجود في كل مكان ولم يكن هناك قدس أقداس. وكانت مذابحها المنبثة في كل مكان موجهة كلها إلى الثالوث العام الذي لا يرى. والمسيحية حتى في أقدم مظاهرها كانت تحوي شيئًا جديدًا.

وثمة أمر هام جدًا علينا أن نلحظه ونسجله وهو الدور الذي لعبه الإمبراطور في تثبيت المسيحية. فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذي دعا لاجتماع مجمع نيقيا، بل إن كل المجامع العظيمة، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقدون (Chalcedon)(٤٥١)، جمعتها كلها يد الإمبراطور. والجلي الذي لا خفاء فيه أن قدرًا كبيرًا من تاريخ المسيحية في ذلك العصر يشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد. وكان قسطنطين كما سبق أن نوهنا مستبدًا (أوتوقراطيًا) مطلقًا. ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت في أيام أوريليان ودقلديانوس. وكان يحاول بالقدر الذي هيأته له معارفه، أن يعيد – قبل أن يفوت الأوان – تكوين الإمبراطورية المتضعضعة، وكان يعمل من غير مستشار أو ناصح، أو أي رأي عام أو أي شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط. فإن فكرة محق كل خصومة وانقسام، والقضاء على كل فكر

بواسطة فرض عقيدة "اعتقادية Dogmatic" واحدة على المؤمنين جميعًا، إنما هي فكرة استبدادية أوتوقراطية بأشمل معاني الكلمة، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذي يعمل بغير معين والذي يشعر أنه لكي يستطيع أن يعمل ينبغي أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد. ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره، سلسلة من الكفاحات العنيفة التي كان لا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع على رأي. وعنه اقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها.

وجاء بعد ذلك مستبد عظيم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥) فساهم من فوره في فرض طابع استبدادي صريح على المسيحية الكاثوليكية. فحرم على من لم تصح عقيدتهم من المسيحيين عقد الاجتماعات، وسلم كل الكنائس للثالوثيين، وقضى على معابد الوثنية في كل أرجاء الإمبراطورية، وفي ٣٩٠ أمر بتمثال سيرابيس العظيم بالإسكندرية فحطم. إذ لم يكن ليسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية مناقضة لوحدة الكنيسة المتماسكة.

ولسنا بمستطيعين أن نخبرك هنا بما عانته الكنيسة من المتاعب الداخلية الهائلة ولا عن عدم هضمها للزنادقة مثل أتباع أريوس وأتباع بولس [1] والأدريين (الأغنسطيين) والمانويين. ولو أنها كانت أقل استبدادًا وأكثر تسامحًا مع الأفكار المتنوعة، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه. ولكنها على كل هذه الاضطرابات، ظلت زمانًا تحتفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق ما لم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط. ولما وافى القرن الخامس إذا المسيحية أخذت بالفعل تتبوأ منزلة أعظم وأقوى وأشد دوامًا مما وصلت إليه أية إمبراطورية في الماضي. لأنها لم تكن مجرد شيء مفروض على الناس فرضًا بل هي قطعة من نسيج عقولهم. وقد تجاوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية بكثير، حتى شملت أرمينية وفارس والحبشة وأيرلندة وألمانيا وحتى تغلغلت في الهند والتركستان. "وهي وإن تألفت من مجاميع منتثرة انتثارًا متباعدًا، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعة واحدة للمسيح وشعبًا واحدًا لله. واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن تجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة. فإن تبادل الاتصال بين المجتمعات المسيحية المتنوعة كان قائمًا على قدم وساق. وكان المسيحيون الذين هم على سفر، على يقين دائمًا من استقبال حار وترحاب كريم من إخوانهم في الدين. وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى. وكان المبشرون ودعاة الإنجيل ينتقلون على الدوام من مكان إلى مكان. وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية، منتشرة انتشارًا واسعًا. وهكذا وجد الشعور بالوحدة طرائق منوعة للتعبير عن نفسه. حتى لكأن تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة، طرازًا مشتركًا بينهن جميعًا" [2].

---

(١) أتباع بولس (Paulicians): فرقة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق في القرن السابع عقيدتها خليط من الأغنسطية والمانوية. واشتق اسمهم من القديس بولس الذي كانوا يولونه وكتاباته تبجيلاً عظيمًا. (المترجم).

(٢) الموسوعة البريطانية مادة "تاريخ الكنيسة" ص ٣٣٦.

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروح حتى عام ١٠٥٤، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللسان، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة، وهي الكنيسة "الأرثوذكسية"، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صوري هو إضافة كلمتين على العقيدة، فإن الملة القديمة كانت أعلنت: "إن روح القدس منبثق من الأب". وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أي ومن الابن أيضًا) بل وأضافتها فعلاً، وبذلك أخرجوا اليونان من مجتمعهم الديني لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم. على أن مسيحيي شرق سوريا وفارس وآسيا والهند كانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس متذرعين بمثل هذه الذرائع، – إذ كانت هناك كنائس في مرو وهيرات وسمرقند. فهؤلاء المسيحيون الآسيويون الشديدو الطرافة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية، وقد امتد سلطانهم إلى صميم بلاد الصين. كذلك فصلت الكنيستان المصرية والحبشية نفسيهما في زمن مبكر جدًا لمثل هذه النقاط التي لا سبيل إلى تفسيرها. ومهما يكن الأمر، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطري الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتينية والإغريقية بزمن كبير، كان هناك انفصال فعلي جاء في أعقاب انقسام الإمبراطورية. ذلك بأن أحوالهما تباعدت منذ البداية. فعلى حين كانت الإمبراطورية الشرقية الإغريقية اللغة متماسكة البنيان، وعلى حين ظل الإمبراطور في القسطنطينية متسلطًا على الكنيسة، فإن النصف اللاتيني من الإمبراطورية قد انهار كما سبق أن قلنا، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطوري.

وفضلاً عن ذلك فإنه بينما كانت السلطة الكنسية (الإكليروسية) في إمبراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس، فإن السلطة في الغرب تركزت في بطريرك أو بابا روما. وكان الجميع يعترفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة، وتآزرت كل هذه الأمور على تبرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق في ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور. حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطتها النهائية، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذي كان الأباطرة يتخذونه لأنفسهم، وبذا أصبح كاهن القرابين الأعلى في قديم التقاليد الرومانية، فأما في بلاد الغرب فقد اعترف الناس له اعترافًا كاملاً بالسيادة العليا على المسيحيين هناك، فأما في داخل ممتلكات الإمبراطور الشرقي ودائرة اختصاص البطاركة الأربعة الآخرين، فقد كان من الضروري منذ البداية توخي منتهى الحذر في حث الناس على تقبل تلك السيادة.

وكان القول بتولي الكنيسة الحكم الدنيوي منتشرًا بالفعل في القرن الرابع الميلادي. فإن القديس أوغسطين وهو من أهل مدينة هيبو [1] بشمال إفريقية، كتب بين ٣٥٤، ٤٣٠ معبرًا عن تطور الفكرات السياسية للكنيسة في كتابه "مدينة الرب". وكتاب "مدينة الرب" ينتقل بفكر قارئه مباشرة إلى إمكان تحويل العالم إلى "مملكة سماء" لاهوتية منظمة. والمدينة كما يصورها أوغسطين إنما هي "مجتمع روحي من المؤمنين المقدور لهم الإيمان منذ الأذل"، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسي للفكرة لم يكن بالخطوة الواسعة. إذ كان ينبغي للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التي تسود الشعوب جميعًا، والقوة التي ترشدها العناية الربانية وتحكم من فوق عصبة عظيمة من الدول الأرضية. وتطورت هاته الفكرات فيما أعقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية وسياسة محددة. وبينما الشعوب البربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية، شرع البابا يدعي أن له السيادة العليا على ملوكهم. ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من الناحية النظرية، وإلى حد معين من الناحية العملية – الكاهن الأعلى والرقيب والقاضي والملك القدسي للعالم المسيحي. وامتد سلطانه غربًا إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبراطورية القديمة: إلى أيرلندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا. وانقضت ألف عام أو تزيد، وأوربا تسود فيها هذه الفكرة القائلة بوحدة المسيحية، وهي التي تتصور العالم المسيحي في صورة ضرب من حلف من الدول، يمتنع أعضاؤه حتى في أيام الحرب عن إتيان كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوّة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة. ومن أسف أن تاريخ أوربا منذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخًا يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة، فكرة قيام حكومة عالمية مقدسة، – عن تحقيق نفسها عمليًا.

(1) في الموسوعة العربية الميسرة أنه ولد بمدينة تجستي النوميدية. ونوميديا إقليم قديم في شمال غرب أفريقيا يطابق بالتقريب الجزائر الحديثة. (المترجم)

٩- خريطة أوربا في ٥٠٠ م

أدلينا إليك في الفصل السابق ببيان عن أهم الغارات التي قامت بها الشعوب المتبربرة. وفي إمكاننا الآن أن نقوم بمساعدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوربا السياسية عند ختام القرن الخامس. في ذلك الحين، لم يبق للإمبراطورية الغربية وهي الإمبراطورية الرومانية الأصلية، أثر بوصفها قسمًا سياسيًا متميزًا منفصلاً. فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطامًا باليًا وحل محلها في عقول الناس بأجزاء كثيرة من أوربا الشرقية الهلّينية التي أصبحت هي "الإمبراطورية" في عرفهم. وكان الإمبراطور في القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور – من الناحية النظرية على الأقل.

أما في بريطانيا فكان الأنجل (الإنجليز) والسكسون والجوت – وهم أجيال من التيوتون البرابرة البالغي الهمجية قد غزوا نصف إنجلترة الشرقي. وكان البريطون (Britons) لا يزالون صامدين في غربي الجزيرة، بيد أنهم كانوا يرغمون على التقهقر إلى الخلف رويدًا رويدًا نحو ويلز وكورنوال. على أن الأنجلوسكسون كانوا فيما يبدو من أشد البرابرة الغزاة قساوة وتأثيرًا فعالاً فيمن حولهم، فحيثما سادوا حلت لغتهم محل اللغة الكلتية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستخدمون إحداهما – ولسنا ندري على وجه التحقيق أيّهما كانوا يستخدمون. ولم يكن هؤلاء الأنجلوسكسون تنصروا بعد.



(شكل ١٢١) خريطة أوربا حوالي سنة ٥٠٠م

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدنًا. بيد أن وادي الزون كان تابعًا لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين. على حين كانت إسبانيا وشطر من جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويفي كانوا يملكون الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة.

ولقد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية؛ فأما إيطاليا، وكانت لا تزال رومانية السكان والعادات، فإنها وقعت في قبضة القوط الشرقيين. لم يبق هناك إمبراطور بروما؛ بل كان يتولى الحكم هناك ثيودوريك الأول بوصفه أول ملوك القوط. وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا وينحدر جنوبًا في الأدرياتي إلى دالماتيا وبلاد الصرب.

على حين كان أباطرة القسطنطينية يحكمون إلى الشرق من مملكة القوط حكمًا ثابتًا مستقرًا. وما برح البلغار حتى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحّل راكبة الخيول في منطقة الفولجا. أما الصربيون الآريون فقد انحدروا حديثًا نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود، إلى المواطن الأصلية للقوط الغربيين؛ ولم يكن المجريون ذوو الأرومة التركية الفنلندية، وصلوا بعد إلى أوروبا. وكان اللومبارد نازلين حتى ذاك الوقت في شمال الدانوب.

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة تفيأته الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥). فاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م؛ وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م. وما أسرع ما انحدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥)، فاستقروا في لومبارديا، على أنهم تركوا رافنا وروما وجنوب إيطاليا وشمال إفريقية تحت حكم الإمبراطورية الشرقية.

ذلك هو الوضع السياسي للعالم الذي تطورت فيه فكرة عالم المسيحية Christendom. والحق أن الحياة اليومية لذلك الزمان كانت تتقلب في مستوى خفيض جدًا – لا جرم – من النواحي الجثمانية والذهنية والخلقية. وكثيرًا ما يقال إن أوربا قد انحدرت إلى البربرية في القرن السادس والسابع، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال. والأصح كثيرًا أن يقال إن مدنية الإمبراطورية الرومانية قد دخلت في دور انحلال خلقي متطرف. والبربرية نظام اجتماعي ذو طراز أولي، ولكنه منظم داخل نطاقه؛ بيد أن أوربا من دون تمزقها السياسي كانت في حالة فوضى اجتماعية. ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين (Kiaal) بجنوب إفريقيا بل معنويات حي فقير بإحدى المدن. ففي القرية المتوحشة، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع، ويعيش ويتصرف وفقًا لهذا، فأما في حي الفقراء، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأي كائن أكبر منه ولا يتصرف مرتبطًا إلى ذلك الكائن.

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعني به الإحساس بالمجتمع وإن تعلم الناس أن يلتفوا حول فكرة "عالم المسيحية".

لقد أصبح البناء الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية حطامًا وأشلاء. فإن حضارتها حضارة ثراء وسلطان سياسي يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق. أجل إنها تجلت في مشهد من الفخامة الظاهرية والكماليات المترفة، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجي النبيل كل ألوان القساوة والغباء والركود، فكان لا بد لها من أن تتحطم، وكان لا بد من إزالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها ما هو خير منها.

ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها الذهني. إذ إنها لم تنتج في ثلاثة قرون علمًا ولا أدبًا له أية قيمة. والواقع أن الاستطلاعات المخلصة غير المغرضة والدوافع النقية الصافية لن تجد مجالاً يتيح للعالم فلسفة متزنة وعلمًا راقيا وفناً منظمًا، إلا حيث يوجد رجال ليسوا من الثراء والقوة بحيث يُغْرَوْنَ على الإغراق في الملذات. وليسوا فقراء مكدودين بحيث لا يعنون بشيء وراء الحاجة اليومية. على أن بلوتوقراطية (Plutocracy) روما: (حكومة الأثرياء المترفين) قد جعلت مثل هذا الشيء أمرًا مستحيلاً. فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لهم حدًا يلتزمونه ولا ضابطًا يكبحهم، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جميعًا بلا استثناء عرضة لأن يصبحوا وحوشاً عتاة في إمتاع النفس بالملذات؛ فإن أضناهم العسر وأذلهم الشقاء، لجئوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى الفتن الهوجاء أو فزعوا إلى الدين وما فيه من تقشف وتزمت.

على أنه يخيل إليّ أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقيًا تعسًا في هذه "العصور المظلمة"، التي وصلنا إليها الآن؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيرًا أن نقول إن ذلك الخداع العنيف السوقي الخشن الذي ركبت عليه الإمبريالية الرومانية، ذلك العالم من السياسيين والمغامرين وأرباب الأملاك والماليين، قد هوى في خضم البؤس الذي كانت أمواجه تتلاطم حولها من قبل. ولا يخفى أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان بتراء ناقصة إلى أبعد حد، فقلّ أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا، وقلما كان هناك تشجيع على الكتابة إطلاقًا؛ ولم يكن هناك ضمان يكفل لأي إنسان سلامة كتاباته أو يؤكد احتمال قراءتها. بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدرًا يتيح لنا أن نقول إنه لم يكن مجرد عصر لصوصية وحروب، بل عصر مجاعة ووباء. إذ لم تظهر في العالم حتى ذلك الحين أية هيئة صحية ذات أثر فعال، ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضي على كل إجراء صحي يتخذ. فإن تخريب آنيلا لشمال إيطاليا لم يوقفه إلا انتشار الحمى في ٤٥٢. كما حدث وباء عظيم من الطاعون الدمّلي قرب نهاية حكم جستنيان (٥٦٥)، كان له أثر كبير في إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد. وفي ٥٤٣ مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيبون" إن هذا العدد كان يموت كل يوم"). وكانت مراجل الطاعون تغلي وتهدر في روما عام ٥٩٠. وكان القرن السابع كذلك قرناً منكوبًا بالطاعون. ويسجل بيد [1] (Bede) الإنجليزي، وهو أحد الكتاب القليلين في زمانه، أوبئة حدثت في إنجلترة في ٦٦٤، ٦٧٢، ٦٧٨، ٦٨٣، أي ما لا يقل عن أربعة في عشرين سنة! ويقرن جيبون الوباء الجستنياني بالمذنّب العظيم الذي ظهر عام ٥٣١، وبما دهى به

(١) بيد (ح ٦٧٣ – ٧٣٥) لاهوتي ومؤرخ إنجليزي، سمي بيد الوقور. كتب أعمالاً علمية ولاهوتية وتاريخية كثيرة. (المترجم).

العالم أثناء حكم ذلك العاهل من الزلازل المتتابعة الخطيرة. فيقول "غودرت كثير من مدن الشرق خاوية على عروشها، وذبل المحصول والعنب على الأرض في كثير من أصقاع إيطاليا". وهو يدعي حدوث "نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطار الدنيا". وقد بدا للكثيرين في تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة قد أوشك على الزوال.

ومن المحال علينا أن نعرف إلى أي حد كانت العامة أتعس حالاً في ظلال هذه القذارة وعدم الاطمئنان منها تحت نظام الإمبراطورية الطاحن. أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان آخر، فهنا حكم أشرار عنيفين وهناك حرية معتدلة، وقد تلقى مجاعة في هذه السنة ووفرة خيرات في التي تليها. فلئن كثر اللصوص، فإن جامعي الضرائب والدائنين قد اختفوا. وإن ملوكًا من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا في الواقع إلا أطيافًا وحكامًا لا سلطان لهم على معظم من يسمون برعاياهم. كانت حياة كل ناحية ترزح في مستوى خفيض، ليس به إلا القليل من التجارة والأسفار. وقد يسيطر بعض المقتدرين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف؛ مدعيًا على قدر من الحق والعدالة يختلف زيادة ونقصانا، لقب لورد أو كونت أو دوق مستقي من تقاليد الإمبراطورية المتأخرة أو من الملك. ويقوم هؤلاء النبلاء المحليين بجمع فرق من الأتباع وبناء معاقل حصينة لأنفسهم. وكثيرًا ما كانوا يتخذون لأنفسهم مباني قديمة يكيفونها وفق حاجتهم. مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجتلد الذي طالما شهد حفلات المجالدين، حول إلى قلعة، وكذلك حول المسرح المدرج في آرل. وكذلك أيضًا حولت مقبرة هادريان العظيمة بروما.

وكان يحدث في المدن والبلدان المتهدمة التي صارت عند ذاك غير صحية، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناع كانت تتضافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها، مع وضع أنفسهم في حماية بعض النبلاء المجاورين.

١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية

حملت هيئات الرهبنة: (الديرية) المسيحية التي أخذت تنشأ في العالم الغربي إبان القرنين السادس والسابع، نصيبًا بالغ الأهمية في عملية إعادة التبلور الاجتماعي الذي حدث في هذين القرنين بعد ما جرى في الرابع والخامس من التحطم والانصهار.

كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية. وفي الفترة التي ألم فيها الشقاء الاجتماعي ب اليهود قبل زمان يسوع الناصري، كانت طائفة من النساك الإستينيين [١] تعيش منعزلة في مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات. كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة في العالم، ليعيشوا عيش التقشف والتأمل. والواقع أن قصة بوذا، كما سردناها لك، أبانت أن مثل هذه الفكرات لا بد أنها كانت منتشرة في الهند قبل أيامه بزمن بعيد، وأنه عاد فنبذها وراء ظهره آخر الأمر. ونشأت في زمن مبكر جدًا من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه، تتنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد. وفي مصر على وجه الخصوص، خرجت حشود كبيرة من الرجال والنساء إلى الصحراء، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات، وظلوا يعيشون في فقر مدقع في الكهوف أو نحت الصخور على الصداقات التي تقذفها إليهم الصدفة من أولئك الذين يتأثرون بقداستهم. وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى المؤرخ - فإنها لعمري أنفس منسحبة من التاريخ بحكم طبيعتها ذاتها - لولا ذلك الاتجاه الذي اتخذته للفور تلك النزعة الديرية (Monasticism) بين الأوربيين الأكثر نشاطًا والأميل إلى الناحية العملية.

ويعد القديس بندكت الذي عاش بين سنتي ٤٨٠، ٥٤٤ من أهم الشخصيات في قصة تطور الديرية في أوربا. ولد في مدينة اسبوليتو (Spoleto) بإيطاليا، وكان شابًا كريم الأصل جم الكفاية. وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها، فمال إلى الحياة الدينية كما مال بوذا، وأطلق لتقشفاته العنان في مبدأ الأمر. فهناك على مبعدة خمسين ميلاً من روما تقع سوبياكو (Subiaco)، وعند نهاية خانق في نهر الأنيو (Anio) تحت أجمة من الأعشاب والشجيرات، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور نيرون، يطل على بحيرة صناعية صنعت في أيام الرخاء المنصرم ذاك بحجز مياه النهر. وهناك اتخذ بندكت - وكان أهم ما في حوزته قميص من الشعر - مقامه بكهف في صخرة عالية متجهة جنوبًا تطل على النهر، وهي في مركز يصعب الوصول إليه، إلى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يدلي إليه طعامه بحبل وهناك أقام ثلاث سنوات ذاعت فيها شهرته: مثلما ذاعت شهرة بوذا في ظروف مشابهة قبل ذلك بألف سنة.

---

(١) الإسينيون: جماعة إخاء دينية بين اليهود الأقدمين كانت تعيش عيشة شظف انعزالية والملكية بينها شيوع. (المترجم).

وكما حدث في حالة بوذا، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذ له سخفاء بسيطي العقول، طائفة من سخيف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات. على أننا لا نلبث حتى نجده وقد انصرف عن تعذيب النفس، وأخذ يدير مجموعة من اثني عشر ديرًا، كانت ملاذ عدد كبير من الناس. ويجلب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم، وبذا تغير وجه حياته كلية.

وانتقل من سوبياكو جنوبًا إلى مونتي كاسينو، وهو جبل في منتصف المسافة بين روما ونابلي، موحش جميل، يقوم في وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائعة. ومن الشائق أن نلحظ أن القديس وجد هنا في القرن السادس الميلادي، معبدًا لأبولو وأجمة [1] مقدسة، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة لا تزال تتعبد في ذلك المعبد. لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله، بالتبشير لدين المسيح، فاستطاع في شيء من العسر أن يقنع الوثنيين البسطاء أن يهدموا معبدهم وأن يقطعوا أجمتهم. وما لبثت المؤسسة المنشأة على مونتي كاسينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها. وإنا لنستطيع أن نعرف شيئًا من روح بندكت الحقيقية وإن اختلطت بمخترعات وترهات سخيفة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب: من أبالسة تتصداع للرقي، وتلاميذ يمشون على الماء وأطفال موتى يعودون إلى الحياة. غير أن الأقاصيص التي تمثله ينهي على التطرف في قمع النفس وإذلالها، إنما هي أقاصيص لها مغزى ودلالة خاصة. فإنه أرسل رسالة لراهب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع بربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق يثبط فيها من حماسته ويدعوه فيها أن يخفف من غلوائه. قال بندكت: "كسّر أغلالك، لأن خادم الله الحقيقي، لا يغل إلى الصخور بالحديد، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر".

والميزة الثانية التي يمتاز بها بندكت بعد مقاومته لتعذيب النفس والعزلة، إصراره على ضرورة الجد في العمل، وتسطع في ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد بالشغب الذي أحدثه تلاميذه ومريدوه النبلاء؛ الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الكدح الشديد بدلاً من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين على خدمة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا. والشيء الثالث العجيب حول بندكت هو نفوذه السياسي. فإنه نصب نفسه لإصلاح ذات بين القوط والطليان، ومن المعروف أن توتيلا (Totila)، ملك إيطاليا القوطي، حضر إليه يطلب مشورته، وأنه تأثر به تأثرًا عظيمًا. ولما ارتجع توتيلا نابلي من الإغريق، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجنود المأسورين بالإنسانية. وذلك بينما حدث عندما استولى بليساريوس قائد جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات، أنه احتفل بنصره بإقامة مذبحة عامة.

والواقع أن هيئة الرهبنة التي أوجدها بندكت، كانت بداية عظيمة جدًا في العالم الغربي، ومن بين أتباعه المبرزين البابا جريجوري الكبير (٥٤٠ – ٦٠٤)، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠)؛ وهو من أشد الباباوات اقتدارًا وهمة ونشاطًا؛ حيث أرسل بعثات تبشيرية تكللت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا الدين المسيحي وعلى الأخص إلى الأنجلوسكسون. وحكم في روما كأنه ملك مستقل، ينظم الجيوش ويعقد المعاهدات. وإلى نفوذه يرجع الفضل في فرض قواعد المذهب البندكتي وأصوله على كل الرهبنات اللاتينية تقريبًا.

---

[1] الأجمة: الشجر الكثير الملتف. (المترجم)

ويرتبط كاسيو دورس (٤٩٠ – ٥٨٥) بهذين الاسمين ارتباطاً وثيقاً من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأناني لدى النساك الأوائل، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة. وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجوري، ويصغر بندكت بعشر سنوات، وكان شأن هذين – ينتمي إلى أسرة نبيلة من البطارقة، أسرة سورية استقرت في إيطاليا. قضى مدة كبيرة من حياته موظفاً في خدمة ملوك القوط؛ ولما حدث بين سنتي ٥٤٥، ٥٥٣، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوباء العظيم، الطريق لحكم اللومبارد البربري الجديد، راح يلتمس الملاذ في حياة الرهبانية، فأنشأ ديرًا على أرض مزارعه الخاصة، وجعل الرهبان الذين جمعهم يشتغلون على نفس النسق البندكتي تمامًا، وإن كنا لا ندري هل كان رهبانه يتبعون بالفعل القواعد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونتي كاسينو. ولكن لا يتطرق الشك حول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتعليم والدراسة. ومن الجلي أنه قد راعه ما ران على التعليم من انحلال عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد العالم. لذا وجه إخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادتها إلى نصابها. فجمع المخطوطات القديمة وأمر بها فنسخت. وقام بصنع المزاول والساعات المائية وما شابهها من أجهزة: وهو قبس ضئيل أخير للعلم التجريبي خفق هنيهة في تلك الظلمات المتكاثفة. وألف كتابًا في تاريخ ملوك القوط؛ ومن أوضح الدلالات على شعوره بحاجة زمانه، إصداره سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة [1] وكتابًا في الأجرومية أعني قواعد اللغة. والراجح أن سلطانه، يكاد يرجح سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية لإعادة النظام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصابه.

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكتي في القرنين السابع والثامن عظيمًا جدًا، فإنا نجدها في كل مكان مركزًا للنور يعيد مستوى التهذيب إلى نصابه ويحافظ عليه ويرفع لواءه، ويقيم ضربًا من التعليم الأولي، وينشر فنوناً مفيدة ويكثر من عدد الكتب ويختزنها ويصونها، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالاً لعمود فقري اجتماعي. ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكوناً من رقع وخيوط للاستتارة في عالم لولا الأديرة فيه لعمته الفوضى برمته. ومما يرتبط بأديرة البندكتيين ارتباطاً وثيقًا، تلك المدارس التي نمت للفور فأصبحت جامعات القرون الوسطى. وكانت مدارس العالم الروماني قد زالت زوالا تامًا في طوفان الانهيار الاجتماعي العام. ولقد جاء أوان كان عدد قليل جدًا من القسيسيين في بريطانيا وبلاد الغال يستطيع أن يقرأ الأناجيل أو كتب الصلوات. فكأن التعليم لم يرجع إلى نصابه في العالم إلا تدريجيًا. بيد أنه عندما رد إلى نصابه، لم يعد بوصفه عملاً إجباريًا يلزم بأدائه عبد عالم، بل بوصفه الخدمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال الذين حبسوا أنفسهم عليه.

([1]) الفنون الحرة (Liberal Arts): هي فروع معينة من الفكر والعلوم الإنسانية تعد وسائل لا بد منها للتنمية الفكرية مثل النحو والمنطق والرياضيات. (المترجم)

وحدث في شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع حبل التعليم، بيد أن السبب هناك لم يكن الاضطراب الاجتماعي قدر ما كان عدم التسامح الديني، كما أن الانقطاع لم يكن بأية حال تامًا كما حدث في الغرب. فأقفل جستنيان ما بأثينا من مدارس منكمشة ومنحلة ذهنيًا وشرد رجالها (٥٢٩). بيد أنه فعل ذلك في معظم الأمر لكي يقضي على كل منافس للمدرسة الجديدة التي كان يقيمها في القسطنطينية والتي كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى.

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة في الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية ولا أدب خاص بها، فإنها اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتي القوي لنقيض ذلك، أن تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الأدب اللاتيني (الكلاسيكي) القديم وعلى الترجمات اللاتينية للأدب الإغريقي. وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب الفاخر يعظم كثيرًا ما كانت تود أن تحتفظ به.

١١ – الفن البيزنطي

منذ أن نقلت حاضرة الإمبراطورية إلى الشرق أي إلى بيزنطة، يظهر في العالم طراز جديد من الفن المعماري، وروح فنية جديدة، هو الطراز البيزنطي. وبلغ ذلك الفن درجة عالية من التطور إبان حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) وسنحدثك عنه في الفصل التالي. ثم انحط ثانية وعاد فارتفع إلى أوج جديد في القرن الحادي عشر. وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثًا فنيًا حيًا في شرق أوربا. وهو يعبر عما جاءت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع. وقد أفرغت فيه على التقاليد الكلاسيكية السمات الشرقية، وبخاصة بعض النزعات المصرية والفارسية. وتحل فيه الفخامة محل الصراحة والرشاقة.

ومن بين ما تختص به زخرفته من خصائص احتواؤها على قدر معين من الصلابة. وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغريقي والروماني من مرونة، وظهر في مكانها فسيفساء [١] (Mosaics) تحمل أشكالاً مسطحة سيمترية التصوير منتصبة في مواجهة تامة. ولا تكاد تجد البتة رسما جانبيًا (Profile) ولا أي أثر للتقصير [٢]. وكأنما أصبح ذلك الجسم الطبيعي الذي كان يقدسه الإغريق، موضع الملاءمة وشيئًا يخشى شره. ومن ثم بلغ ذلك الفن وقارًا عظيمًا رصينًا. فتبدو صور الرب الخالق والعذراء والطفل والقديسين العظام، الضخمة المصنوعة من الفسيفساء، ممعنة في التفكير، وهي تطل على المشاهدين من علياء القباب العظيمة التي هي موضوعة فيها. وتجلت نفس تلك الصلابة الوهاجة في التصوير وتحلية الكتب بالصور، وانحط فن النحت من الناحية الأخرى، واستبدلت الأشكال المجسدة (أي التماثيل) بنوافذ شبكية Lattices زاهية الألوان ذات حليات محفورة. وكانت أشغال الذهب والفضة والميناء تعمل بإتقان لم يسبق له مثيل. وغالبًا ما كانت مصنوعات النسيج المستجلبة من الشرق ذات رسوم فارسية لا لبس فيها. ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثّل الأجسام قضاء أتم وأكمل.

وكذلك أصبحت الموسيقى ضخمة ولها شأنها. وكانت موسيقى القرون المسيحية الأولى أقرب إلى التبتل والحماسة منها إلى الإتقان والصقل، وهي تنهل من منابع "سامية" أكثر منها "هلّينية". فأما الموسيقى الدنيوية فمحظورة حظرًا تامًا. فقد قال القديس جيروم: "إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو اللير أو الناي". فأما ترتيل المزامير وعزفها على الآلات، فشيء نقله المسيحيون من الصلوات اليهودية، وقصر قصرًا يتراوح زيادة ونقصانًا على الجوقات (الكورس) المنظمة. وكان الترتيل التجاوبي (Antiphonal) شائعًا. وكان جماعة المصلين ينشدون التراتيل بطبيعة الحال في نغمة موسيقية موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الغنائي (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد. وكان إنشاد التراتيل متنفسًا عظيمًا ينفس عن العواطف المكبوتة. فظهر قدر وفير من التراتيل في اللغتين اليونانية واللاتينية. ويقال إن بعضها لا يزال باقيًا في تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا. وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبير)، ذلك المنظم العظيم للكنيسة، الذي لدينا عنه مزيد من القول تحدثك به في فصل تال، أسس موسيقى القداس الكنسي في القرن السادس.

---

(١) وهو ما يسمى بفصوص الذهب أو السليزلي. (المترجم).

(٢) التقصير (Foreshortening): تمثيل المنظور بحيث تقصر في الظاهر الخطوط الساقطة. (المترجم).

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ آسيا أثناء

انحلال الإمبراطوريتين الغربية والبيزنطية

١- جستنيان الكبير.

٢- الإمبراطورية الساسانية في فارس.

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين.

٤- أول رسالة من الإسلام.

٥- زرادشت وماني.

٦- الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند.

٧- أسرتا "هان وتانج" بالصين.

٨- أغلال الصين الذهنية.

٩- الفن الصيني القديم.

١٠-رحلات يوان تشوانج.

١ – جستنيان الكبير [١]

ركزنا التفاتنا في الفصلين السابقين بصفة رئيسية على ما حدث في فترة قصيرة نسبيًا قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسي والاجتماعي في القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية العظيمة: إمبراطوريـة قيصر وتراجان، ولم يفتنا أن ننعم النظر في ذلك الانهيار والإفاضة في بلوغه الذروة. ولا مراء أن أي فـرد ذكي الفؤاد عمومي الروح [٢]، يعيش في زمان القديس بندكت أوكاسيودورس وفي نفس ظروف حياتهمـا، – كان يخيل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها يخبو وآذنت شمسها بالمغيب. على أن النظـرة الأرحـب التـي تتيحها لنا دراسة التاريخ العام، تطوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دورًا – ولعله كـان دورًا ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمفاهيم الاجتماعية والسياسية في انطلاقها إلى الأمام. ولئن حدث أثناء ذلك الزمان، أن إحساسًا قاتما بنكبة فادحة يجثم على صدر أوربا الغربية، فلا بد لنا من أن نتذكر في مقابـل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أي تقهقر ولا انحطاط.

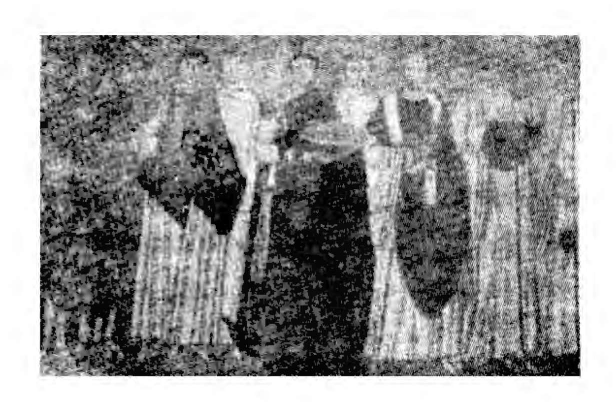
ويجنح الكتاب الأوربيون، بسبب انشغال بالهم الدائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أفكـارهم، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمبراطورية الشرقية التي كان مركزهـا القسـطنطينية. وغني عن البيان أن تلك الإمبراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما. فلو أن القارئ نظر إلـى الخريطة التي تبين مدى اتساعها في القرن السادس، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصـبحت آنـذاك يونانية، لأدرك أن ما نعالجه هنا، إنما هو فرع من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط. إذ الواقع أنها هـي الإمبراطورية الهلّينية التي طالما حلم بها "هيرودوت"، والتي أسسها الإسكندر الأكبر. حقًا إنها كانت تـدعو نفسها "الرومانية" وتدعو سكانها "رومانا" [٣]، ولا تزال اللغة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaic). وحقًا أن قسطنطين الكبير كان ضئيل الحظ من اليونانية وأن لهجة جستنيان في نطقهـا كانـت رديئة. على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسـم والشـكل لا تسـتطيع أن تغيـر الواقـع، وهـو أن الإمبراطورية كانت في حقيقتها هلّينية، لها في زمن قسطنطين الكبير ماض من ستة قرون، وأنه على حـين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية تقلصًا كاملاً في مدى أربعة قرون، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية الهلّينية قد صمدت أكثر من أحد عشر قرناً من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلـى ١٤٥٢، عنـدما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين.

---

[١] من شاء استزادة في تاريخ ذلك الإمبراطور فعليه أن يقرأ للمترجم كتاب "الحضارة البيزنطية" تـأليف اسـتيفن وانسـيمان (مجموعة الألف كتاب، ومكتبة النهضة المصرية). (المترجم).

[٢] عمومي الروح Public spirited هو من يخدم الغير بدافع من حب المصلحة العامة وهو الغيري الروح كما أسـلفنا فـي هامش سابق. (المترجم).

[٣] ويسميها العرب بدولة الروم. (المترجم)



(شكل ١٢٢) صورة بالفسيفساء لجستنيان وبلاطه

وعلى حين اضطررنا أن نحدثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجتماعي الكامل في الغرب، فلم يحدث في الشرق انهيار مماثل لذاك. فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفيـة وتواصـل رواج التجارة. وظلت القسطنطينية قرونًا عديدة أعظم وأغنى مدينة في العالم. ولن نشغل أنفسنا هـا هنـا بأسماء أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم. فإنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمـة، لم يكونـوا ليوجهوا إمبراطوريتهم، بل هي التي كانت تدفعهم دفعًا. ولقد سبق أن عالجنا في شيء من الإسهاب موضوع قسطنطين الكبير (٣١٢ – ٣٣٧). وذكرنا ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥)، الذي وحـد الإمبراطوريـة لفترة يسيرة، وذكرنا جستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥). وسنذكر لك من فورنا شيئًا عن هرقل (٦١٠ – ٦٤١).

ولعل جستنيان كان كقسطنطين يحمل في عروقه دمًا سلافيًا. كان رجلاً واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم، ومن حسن حظه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لمقدرته إن لم تفقها، وهي الإمبراطورة ثيـودورا، التي كانت في صباها ممثلة ذات سمعة مغموزة. على أن محاولاته الطموح لاسترداد عظمـة الإمبراطوريـة القديمة، أثقلت فيما يرجح مواردها بالضرائب [1]. ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإفريقيـة مـن الونـدال واستعاد معظم إيطاليا من القوط. كذلك استرد جنوب إسبانيا. وبنى الكنيسة العظيمة الجميلـة كنيسـة القديسـة صوفيا بالقسطنطينية، وأسس جامعة وجمّع القوانين. بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفاله مدارس أثينـا. ولكن اجتاح العالم في زمانه طاعون عظيم، وانهارت بموته تلك الإمبراطورية الموسعة المجـددة كمـا تنهـار مثانة نفخت بالهواء إذا وخزها دبوس. فذهب القسم الأكبر من فتوحه الإيطالية إلى أيدي اللومبارد، ونذكر هنـا أن إيطاليا تحولت في ذلك الزمان إلى صحراء أو ما يشبه الصحراء. ذلك أن مؤرخي اللومبـارديين يؤكـدون أنهم نزلوا في قطر خال من الناس. وانحدر الآفار والصقالبة (السلاف) يعيثون فسادًا من أرض الـدانوب إلـى الأدرياتي، وأخذ أقوام من الصقالبة يستقرون فيما هو الآن صربيا وكرواتيا ودالماتيا، فأصبحوا يوغسلاف هـذا الزمان. وفضلاً عن ذلك فإن نزاعًا عظيمًا مضنيًا نشب بين الإمبراطورية وبين الساسانيين في فارس.

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئًا عن هذا الكفاح، الذي أوشك فيه الفـرس ثـلاث مـرات أن ينتزعـوا

---

[1] عن المزيد من تاريخ هذه الحقبة، انظر كتاب "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص وترجمة المترجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب). (المترجم).

القسطنطينية، والذي كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب تينوي (٦٢٧)، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرس من أيام البارثيين.

٢- الإمبراطورية الساسانية في فارس

سبق أن عقدنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التي عاشتها الإمبريالية الرومانية وبين الحيوية العنيدة لإمبريالية إقليم دجلة والفرات. وألقينا نظرة عجلى على الملكيتين البلخية الباكترية [١] والسـ لوقية المهلـ ين اللتين ازدهرتا مدة ثلاثة قرون في النصف الشرقي مما غزاه الإسكندر من بـ لاد. وأخبرنـ اك كيـ فـ هـ بط البارثيون أرض الجزيرة في القرن الأخير ق. م. ووصفنا لك معركة كاراي (Carrhae) ونهاية كرسـ وس. ومنذ ذلك الحين فما بعده بقرنين ونصف استمرت أسرة الأرشكيين البارثية تحكم في الشرق بينمـ ا حكمـ ت الدولة الرومانية في الغرب، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا، وكانت الحدود تنتقل شـ رقًا أو غربًا تبعًا لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر. ولحظنا أقصى امتداد بلغته الإمبراطورية الرومانية شرقًا في عهـ د تراجان (انظر الخريطة (١١٤) المرافقـ ة للفصـ ل ٢٧ القسـ م الأول ص ٦١١ ج ٢)، كـ ذلك لاحظنـ ا أن "الهندوإسكيذيين Indo-Scythians " تدفقوا قرابة ذلك الزمان إلى الهند (الفصل ٢٧ – القسم الخامس).

وشبت ثورة في ٢٢٦، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هي الساسانية، وهي أسرة فارسـ ية قومية يرأسها أردشير الأول. وكانت إمبراطورية أردشير الأول ذات مشابهة عجيبة من جهة واحدة بإمبراطوريـ ة قسطنطين الكبير بعد ذلك بمائة سنة. ذلك بأن أردشير حاول أن يقوي أواصر تماسكها بأن اهـ تم بالوحـ دة الدينيـ ة وأصر عليها واتخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد؛ وسنذكر المزيد عنها فيما بعد.

وتحولت هذه الإمبراطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العدوان، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شابور الأول ابن أرشدير وخلفه. وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبراطور فاليريان (٢٦٠) وأخـ ذ أسيرًا. على أنه بينا كان شابور عائدًا من حرب مظفرة في آسيا الصغرى، إذ انقض عليه أذينـ ة وهزمـ ه، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز تجاري عظيم في الصحراء هو تدمر (Palmyra).

وقد ظلت تدمر زمانًا قصيرًا في عهد أذينة، ثم في أيام أرملته الزبّاء (Zenobia)، دولة ضـ خمة تمتـ د كالإسفين بين الإمبراطوريتين. ثم سقطت في يد الإمبراطور أوريليان الذي حمل الزباء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما آية فخار لنصره (٢٧٢).

ولسنا بمحاولين أن نقفو تقلبات الحظ بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية. ففي طوال ذلك الزمان أنهكت حروب فارس وإمبراطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى إنهاك الحمى. وانتشرت المسيحية انتشارًا واسعًا ولكنها كانت موضع الاضطهاد، إذ إنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يـ دعي الربوبيـ ة غير العاهل الفارسي، فرأى في المسيحية مجرد دعاية لمنافسه البيزنطي. وأصـ بحت القسـ طنطينية حاميـ ة المسيحيين، وأضحت فارس حامية الزرادشتيين، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٤٢٢ قبلـ ت إحـ دى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مـ ع النصـ رانية. وفـ ي ٤٨٣ انفصـ ل

---

[١] بلخ (بقتر): وهي ما تسمى الآن باكتريا: كانت ملتقى الحضارة الهندية وغيرها. (المترجم)

نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية، التي نشرت – كما سبق أن ذكرنا – مبشريها في كل أنحاء آسيا الوسطى والشرقية. ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوربا قد حرر الأساقفة النصارى في الشرق من سيطرة البطاركة البيزنطيين، وبذا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسي من شبهات، فإنه أدى إلى تسامح تام مع المسيحية في بلاد فارس.

وابتدأ بحكم كسرى الأول (٥٣١ – ٥٧٩) الملقب أنوشروان آخر عهود القوة الساسانية. كان معاصرًا لجستنيان وعديلا مكافئًا له. فأصلح نظام الضرائب وأعاد الزرادشتية السلفية الحقة، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن)، التي أنقذها من حكم نصارى الحبشة، ودفع بتخومه الشمالية حتى التركستان الغربية، وخاص سلسلة من الحروب مع جستنيان. وبلغت شهرته بوصفه حاكمًا مستنيرًا درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أغلق جستنيان مدارس أثينا. إذ التمسوا فيه الملك الفيلسوف – ذلك السراب الذي أمعن كنفوشيوس وأفلاطون في البحث عنه في زمانيهما كما سبق أن ألمحنا. ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشتية السلفية أقل ملاءمة لأذواقهم من جو المسيحية السلفية. وفي ٥٤٩ ترفق كسرى بهم بأن أدخل في هدنة عقدها مع جستيان فقرة تبيح لهم العودة إلى بلاد الروم، وتستوثق أنهم لن يضارّهم أحد بسبب فلسفتهم الوثنية أو بسبب سلوكهم الذي تجلى فيه ميلهم حيناً ما إلى فارس.

وإنا لنسمع في أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هوني جديد في آسيا الوسطى، هم الأتراك الذين دخلوا فيما نعلم في محالفة معه أولاً ثم مع القسطنطينية.

وتقلبت الحظوظ ألواناً على كسرى الثاني أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨) حفيد كسرى الأول. فإنه في بداية حكمه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية القسطنطينية. وقد وصلت جنوده إلى خلقدون ثلاث مرات (في ٦٠٨، ٦١٥، ٦٢٦) وهي المدينة المواجهة للقسطنطينية، واستولى على أنطاكية ودمشق والقدس (٦١٤). وحمل من القدس صليبًا، قيل إنه الصليب الحقيقي الذي صلب عليه يسوع، حمله إلى عاصمته المدائن (طيشفون). (ولكن جزءًا من هذا الصليب الحقيقي أو صليبا ما آخر حقيقيًا انتقل قبل ذلك إلى روما. إذ أحضرته من القدس فيما يقال "الإمبراطورة هيلينا"، وهي أم قسطنطين التي جعلت مثلاً أعلى ورفعت إلى مصاف القديسات، وهي قصة أظهر نحوها جيبون الشيء القليل من الاحترام [1]). وفي ٦١٩ فتح كسرى الثاني مصر ذلك القطر الهين اللين. وأخيرًا أوقف الإمبراطور هرقل (٦١٠)، هذه الحياة المليئة بالفتوح عند حدّها، حيث شرع يسترجع قوة القسطنطينية العسكرية المحطمة. وظل ردحًا من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته. ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في ٦٢٣. فلقي الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوي (٦٢٧)، ولكن أحدًا من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية. فقلما أشرف الكفاح على نهايته، كان هناك جيش فارسي على ضفاف البسفور لم يهزم، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية مظفرة في أرض الجزيرة.

وفي ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثاني أباه وقتله. وتم صلح غير حاسم بين الإمبراطوريتين المنهكتي القوى بعد ذلك بعام أو ما يقاربه، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة؛ وأعيد الصليب الحقيقي إلى هرقل، فأرجعه إلى أورشليم محاطاً بجو من الفخامة والحفاوة.

---

(1) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها The Decline & Fall of the Roman Empire الفصل الثالث والعشرون.

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة، نقدم إليك إيجاز أهم الأحداث في تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء. بيد أن الشيء الذي يهمنا ويلذ لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توالت على حيـ ـاة السـ ـكان عامة في هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان. ولا يجد كاتب هذه السـ ـطور شـ ـيئًا مقطوعـًا ـا بصحته إلا النزر اليسير في حديث تلك الأوبئة العظيمة التي نعلم أنها اجتاحت العالم فـ ـي القـ ـرنين الثـ ـاني والسادس من هذه الحقبة. ومن المحقق أن تلك الأوبئة أفنت السكان، والراجح أنها أفسدت النظام الاجتمـ ـاعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمبراطوريتين الرومانية والصينية.

وقد دبج المرحوم السير مارك سايكس (الذي جاءت وفاته في غير الأوان في باريس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى) في كتابه "آخر ميراث الخلفاء" The caliph's last Heritage، استعراضًا مشرقًا للحياة العامة وأحداث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نحن بصددها. قال متحدثًا عن القرون الأولى التي افتتحت بها الحقبة الحالية، "أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منعزلاً في أذهان الناس عن الناحية العملية للحكم انعزالاً تامًا؛ وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البلهـ ـاء والسكيرين والمعتوهين والطغاة والمجانين والمتوحشين والنساء الخليعات، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوي عددًا هائلاً من السكان، وبها قنوات وسـ ـدود ضخمة تحظى بالصيانة المستمرة، كذلك ازدهرت التجارة والعمارة، بالرغم من زحـ ـف الجيـ ـوش المعاديـ ـة اللانهائي ذهابًا وجيئة وبالرغم من التغيير المستمر في جنسية الحاكم. وكانت مصلحة كل فلاح ممركزة فـ ـي المدينة التي يتبعها؛ كما أن اهتمام كل مواطن كان موجهًا إلى تقدم مدينته ورغدها؛ كما أن دخول جيش معاد ربما كان أمرًا ينظر إليه في بعض الأحايين بعين الرضا والارتياح، إذا كان نصره مضمونًا وكان تسديده لما يتعاقد عليه محققًا.

"ولا بد أن غارات أهل الشمال [١] كانت من الناحية الأخرى مثار الذعر والهلع، إذ كان لابـ ـد للقـ ـرويين حينذاك أن يعتصموا خلف أسوار المدن، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يبصروا الدخان الذي يدل على مـ ـا ينزله الرحّل بممتلكاتهم من تدمير وإتلاف. وما دامت القنوات لم تمسسها يد المدمرين (والواقع أنها بنيت في متانة وحيطة تضمنان سلامتها)، لم يكن هناك ضرر يستعصي على الإصلاح.

على أن حالة الحياة في أرمينية وبلاد بنطُس كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة، إذ كانت تلك البلاد منـ ـاطق جبلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين، تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم، على حـ ـين كان المزارع المسالم في الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية... وكانت كيليكيا وكابادوكيـ ـا خاضعتين تمام الخضوع لسلطان الروم، وقد احتوتا على مدن عديدة غنية راقيـ ـة الحضـ ـارة، فضـ ـلاً عـ ـن امتلاكهما لبحرية تجارية ضخمة. وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدردنيل، ألفينا سـ ـاحل البحـ ـر المتوسـ ـط

---

(١) أي الطورانيين من التركستان أو الآثار من القوقاز. (المؤلف)

مزدحمًا بالمدن الثرية والمستعمرات اليونانية، وهي المخلطة تمامًا فكرًا ولغة، مع تجلي روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية، تلك الروح التي تبدو قطعة من طبيعة الخُلق اليوناني. وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور، وتمضي بحذاء الساحل حتى سينوب على البحر الأسود، حيث تأخذ في الانتهاء تدريجيًا.



(شكل ١٢٣) خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسنيين

"وتجزأت سوريا إلى أجزاء عجيبة تشبه ستارًا متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية؛ تبدأ في الشمال بدولتي كوماجين والرها (Edessa) [١] شبه الهمجيتين. وإلى الجنوب من هاتين كانت بامبيكي (مبوج) (Bambyce) بمعابدها الفخمة وحكامها الكهنة. وإلى ناحية الساحل كان يتجمع عدد كثيف من السكان حول المدن المستقلة: أنطاكية وأباميا وحمص (Emesa)؛ على حين كانت هناك في البرية مدينة بالميرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة، التي أخذت ترقى مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض التبادل التجاري المحايدة بين بارثيا وروما. وإنا لنجد بين جبال لبنان ولبنان الخلفية مدينة بعلبك (هليوبوليس) وهي في أوج مجدها، ولا تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا... فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جِرَش (Gerasa) وفلادلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية [٢] هائلة. ولا تزال سوريا غنية بخرائب ذلك العصر وبقاياه إلى حد لا يصعب علينا معه أن نرسم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية. ذلك أن فنون الإغريق التي أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوقي. فإن جزالة الحليات والإسراف في النفقة والمباهاة بالثراء لتدل جميعًا على أن أذواق الساميين الشهويين ذوي الروح الفنية كانت آنذاك على ما هي عليه الآن. ولقد وقفت يومًا في

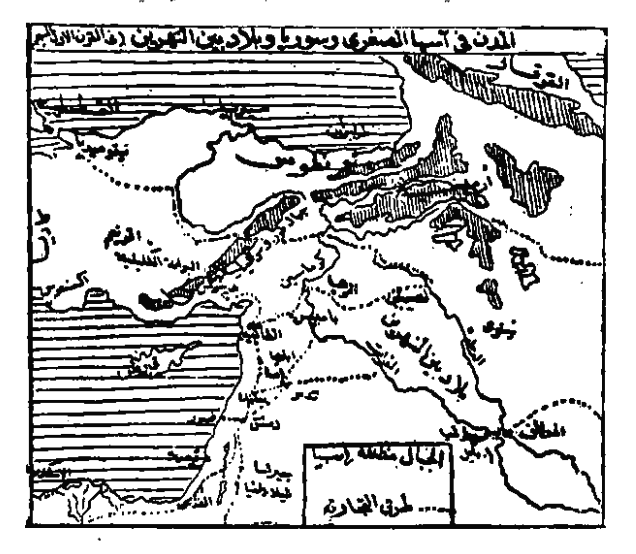
---

(١) ومكانها الآن مدينة أورفه بتركيا. (المترجم)

(٢) السقايات المائية (Aqueducts) هي قنوات مبنية فوق عقود عالية لنقل الماء داخل المدن وهي شبيهة بمجرى العيون الموجود بمنطقة فم الخليج بالقاهرة. (المترجم)

أبهاء الأعمدة بتدمر وتغديت يومًا آخر في فندق سيسل، ولولا أن الثاني مبني من الحديد الملط خ بالخشـ ب والجص الزائف والمموه بالذهب الزائف والقطيفة الزائفة والحجر الزائف، لتوهمت أن تأثير هذا هـ و نفـ س تأثير ذاك. أما سوريا فكان بها جموع وفيرة من الأرقاء تكفي لإقامة مبان حقيقية، غير أن الروح الفنية بهـ ا بلغت من الوضاعة دركًا يماثل ما تخرجه الآلات. فأما في غير المدن، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخذون مساكنهم بطريقة تداني ما يفعلونه الآن حيث يبنون جدرانها من الطين والحجر العاري. على حين أنـ ـه فـ ي المراعي البعيدة في الخارج، كان البدو يرعون قطعانهم بمـ لء حـ ريتهم تحـ ت حكـ م ملـ وك النـ بط [1] (Nabatean) من بني جلدتهم، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة في القوافل التجارية العظيمة.

"ومن وراء الرعاة وأرضهم تمتد الفاوات اللافحة، وتقوم بدور التخوم والحصون المنيعة التي تدفع الشـ ر عـ ن الإمبراطورية البائية خلف نهر الفرات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشـ فون (المـ دائن) وسـ لوقيا وهـ اترا ونصيبين وحوران ومئات أخرى من المدن، نسي الناس منها حتى مجرد أسمائها. كانت هذه المدن العظيمة تعـ يش على ما تغله أرض الجزيرة من وفرة هائلة من الحبوب. وكانت تروى آنذاك بالقنوات التي توارث أسماء منشئيها – حتى في تلك الأيام – في غيابات الماضي السحيق. وكانت بابل ونينوي قد درستا من الوجود. على حـ ين أخلـ ى خلفاء فارس ومقدونيا مكانهم لبارثيا. بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فيهم شيء عما كان عليه الحـ ال عندما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة. وكانت لغة كثير من المدن الإغريقية، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المثقفون فلسفات أثينا ومآسيها (تراجيدياتها). على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمـ ور فيما يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحي مقاطعة إسكس اليوم عما يجري في العاصمة البريطانية".



(شكل ١٢٤) خريطة المدن في آسيا الصغري وسوريا وبلاد بين النهرين

(في القرن الأول المسيحي)

([1]) النبط، شعب عربي كان يسكن القسم الشمالي من بلاد العرب في موقع الدولة الأردنية الآن. (المترجم)

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في نهاية القرن السابع.

"وكانت سوريا عند ذاك أرضًا فقيرة منكوبة. ولا بد أن مدنها العظيمة، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان، قد تكاثرت فيها الخرائب التي لم تكن الموارد المالية العامة كافية لإزالتها. ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقتا مما أصابهما من ويلات الحضارات الطويلة الفظيعة. وانحطت عمان وجرش إلى مصاف القرى التعسة تحت سلطة البدو وسيادتهم. ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من دلائل الرخاء الذي اشتهرت به أيام تراجان. بيد أن مباني ذلك الزمان التعسة وكتاباته الخشنة التي تعوزها البراعة تشير جميعًا إلى اضمحلال محزن مؤلم، وهناك في وسط رمال الصحراء، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم في قلعتها. فأما عن الشواطئ وفي لبنان فكان هناك لقديم التجارة والأعمال والثروة ظل لا يزال مشاهدًا، فأما في الشمال فلا بد أن الخرابّ والدمار والإفقار والوحشة كانت الحالة التي تعم أراضيها التي ظلت يغير عليها المغيرون بانتظام لا يفتر طوال مائة سنة، كما تملكها عدو لها مدة خمسة عشر عامًا. ولا بد أن قد انحطت الزراعة وقلّ السكان قلة ملموسة بسبب تعاقب الطاعون والمحن وصبهما العذاب عليها ألوانًا.

"وهوت كابادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة. وسويت بسطح الأرض الكنائس العظيمة (البازيليت) والمدن الكبيرة التي لم يستطع الريفيون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهدها. وطفقت الجيوش الفارسية تذرع شبه جزيرة الأناضول طولاً وعرضًا وتهلك الحرث والنسل، على حين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنهب".

٤- أول رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولاً بإعادة النظام في سوريا هذه المقفرة المنكوبة بعد وفاة كسرى الثاني أبرويز وقبل عقد الصلح النهائي مع فارس، أن أحضرت إليه رسالة غريبة. وكان حاملها قد دفعها إلى مخفر إمبراطوري أمامي في البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق. وكانت الرسالة بالعربية، وهي اللغة السامية غير المعروفة، لغة الشعوب "المترحلة في الصحراء الجنوبية. ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل لها – أضاف إليه الترجمان فيما نعتقد بعض ملحوظات تنم عن الاحتقار والاستهزاء.

كانت تحديًا غريبًا بليغًا من شخص يدعو نفسه باسم "محمد نبي الله". وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته. ولم يكن في الوثيقة بعد هذا أي شيء آخر محدد.

وليس هناك سجل أثبت فيه تسلم هذه الرسالة، ويغلب على الظن أنها ذهبت دون رد والراجح أن الإمبراطور هز كتفيه، في شيء من التفكه [1] بهذه الحادثة.

بيد أن من في المدائن كانوا يعرفون عن محمد قدرًا أكبر. إذ قالوا عنه – إفكًا وبهتانًا – إنه نبي مقلق كذاب [كذا!!؟..]، حرض اليمن، وهي الولاية الغنية في جنوب بلاد العرب، على الثورة على "ملك الملوك" الفارسي. وكان الملك قباذ مثقل العاتق بالأعمال. فقد خلع أباه كسرى الثاني أبرويز وقتله، وأخذ يحاول أن يعيد تنظيم القوات العسكرية الفارسية. وإليه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك المرسلة إلى هرقل. فأغضبه ذلك الأمر. فمزق الرسالة وألقى بها في وجه حاملها – وأمره بالانصراف.

ولما أن نبئ النبي (ﷺ) بذلك، وهو في بلدته النائية الصغيرة المتواضعة "المدينة"، غضب غضبًا شديدًا وصاح قائلاً: "اللهم مزق ملكه شر ممزق" (٦٢٨ م).

---

(1) ذكر ابن هشام في سيرته أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبي ومعه كتاب إلى هرقل. وأضاف ابن سعد في الطبقات الكبرى قال: وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، دفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافيًا من قسطنطينية إلى إيلياء (القدس)، فقرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص. فقال: "يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟" قالت الروم : "وما ذاك أيها الملك؟" قال "تتبعون هذا النبي العربي" قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش، وتناجزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه، فسكنهم ثم قال: "إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له". جزء ٢ ص ٢٣ – ٢٤ (المترجم).

٥- زرادشت وماني

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث في نشأة الإسلام في العالم، أن نستكمل بحثنا في حال آسيا عند فجر القرن السابع. ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الديني في المجتمع الفارسي أثناء العهد الساساني.

تغلبت الزرادشتية منذ أيام قورش فما بعدها على آلهة نينوي وبابل الأقدمين. وكان زرواستر Zeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوستر Zarathustra [1] الإيرانية) آريا مثل بوذا. ولسنا ندري شيئًا عن العصر الذي عاش فيه، ويرجعه بعض الثقات إلى سنة ١٠٠٠ ق. م، ويجعله آخرون معاصرًا لبوذا أو كنفوشيوس. ولا يزيد على علمنا هذا، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالدقة. فأما تعاليمه فمحفوظة لنا في الزند أفيستا (Zend Avesta). ولكن نظرًا لأنها لم تعد تلعب دورًا كبيرًا في شئون العالم، فليس في طوقنا أن نعالجها هنا في أي تفصيل. وصفوة القول إن التعارض بين رب للخير وهو أهورا مزدا (هرمزد): إله النور والصدق والصراحة والشمس، وبين رب شرير هو أهريمان: رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل، هو محور ديانته. ونجدها في التاريخ محوطة آنفًا بنظام طقوسي وكهنوتي، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل، تتقد عليها نار مقدسة وتقام عليها الطقوس القربانية. ومن بين خصائصها المميزة، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم. والفرسيس (Parsees) الهنود، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين إلى يومنا هذا، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة، هي "أبراج الصمت والخشوع" التي تنتابها العقبان.

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشير فمن بعده (٢٢٧ م)، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك، وطبقًا لأدق مقتضيات العرف القديم، كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسي أو شبه قدسي وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد.

بيد أن ما كان يجري في العالم من اختمار ديني لم يترك للزرادشتية السيادة المطلقة على الإمبراطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقًا، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك، بل نشأت طوائف جديدة في فارس حاملة فكرات ذلك الزمان المستحدثة. ولقد سبق أن ذكرنا فرعًا أو نوعًا مبكرًا من الزرادشتية هو المثرائية. وهي عقيدة انتشرت في أوربا في القرن الأول ق. م بعد حملات بومبي الكبير في الشرق. فمال إليها الجنود والعامة ميلا هائلاً، وظلت حتى عهد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة للنصرانية. ومثرا هو إله النور "الذي يصدر" عن أهورا مزدا (هرمزد) ويولد ميلادًا إعجازيًا بنفس الطريقة التي يصدر بها الأقنوم الثالث في الثالوث المسيحي عن الأول. ولسنا بحاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجذع الزرادشتي. على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هي المانوية، وهي تستحق الآن بعض الالتفات.

---

[1] زرادشت بالعربية. (المترجم).

ولد ماني مؤسس المانوية في عائلة كريمة بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦ م). وتلقى تعليمه في طيشفون. وكان أبوه ناسكا ينتمي إلى إحدى الطوائف الدينية، فتربى في جو من البحث والدراسات الدينية. وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل، الذي هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية. ودفعته الظروف إلى إعلان مبادئه. إذ إنه شرع يبشر بتعاليمه عند تولي شابور الأول ثاني ملوك بني ساسان في ٢٤٢ م.

ومما يتسق وخصائص تفكير الناس في تلك الأيام، أن تحتوي تعاليمه على ضرب من مزج الأديان والآلهة (الثيوكرازيا). فأعلن أنه لا يأتي بأي شيء جديد. ذلك بأن كبار مؤسسي الأديان من قبله كانوا جميعًا على صواب: فإن موسى وزرادشت وبوذا ويسوع المسيح – كانوا جميعًا أنبياء صادقين، بيد أنه وكل إليه أن يوضح تعاليمهم الناقصة المضطربة ويتوجها. وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه. وهو يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة. وأهورا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهريمان هو الشيطان. ولكن كيف خلق الإنسان؟ وكيف سقط من النور إلى الظلمة؟ وكيف يحرر من أغلاله وينقذ من الظلام؟ ثم ما هو الدور الذي يقوم به يسوع في هذا الخليط العجيب من الديانات؟ هذه أمور ما نحن بمستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبنا. فإن اهتمامنا بالموضوع تاريخي بحت وما هو باللاهوتي.

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن ماني لم يكتف بالطواف في إيران مبشرًا بأفكاره الجديدة هذه التي بدت له مقنعة تمام الإقناع، بل دخل التركستان وهبط الهند وعبر الممرات إلى الصين. ولا شك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة. وهي شائقة تثير الاهتمام كذلك، لأنها تعرض على أنظارنا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين، بل إقليمًا تزدهر فيه المدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتيح لهم البحث في المسائل اللاهوتية.

وقد انتشرت فكرات ماني شرقًا وغربًا في سرعة عظيمة، وكانت دوحة مثمرة ظلت تمد العالم المسيحي بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة.

وعاد ماني إلى طيشفون في زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون. فتمخض هذا عن احتكاكه بالدين الرسمي وبرجال الدين. وفي ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب، وأمر بحبسه لسبب مجهول فسلخ. ومن ثم أخذوا يصبون على أتباعه أعنف الاضطهاد. ومع ذلك فإن المانوية صمدت في فارس بضعة قرون مع المسيحية النسطورية والزرادشتية السلفية أعني "المزدكية Mazdaism".

٦- الشعوب الهونية
في آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلي لنا إلى حد ما أنه في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، لم تكن فارس وحدها، بل الأقاليم التي تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان، – على درجة من المدنية تتجاوز كثيرًا" في تقدمها مرتبة الفرنسيين والإنجليز في ذلك الزمان، وقد رفعت غشاوة الغموض عن تاريخ هذه الأقاليم في عشرين السنة الأخيرة، واكتشف "أدب" [1] ضخم جدًا، لم يقتصر تدوينه على لغات من المجموعة التركية وحسب، بل تجاوزها إلى اللغة الصغدية [2] (Sogdian) وإلى لغة آرية أخرى. وترجع هذه المخطوطات الباقية إلى اليوم إلى القرن السابع وما يتلوه من قرون. والأبجدية فيها مقتبسة من الآرامية، وقد أدخلها المبشرون المانويون. وإن كثيرًا من المخطوطات المكتشفة ليجلّي علينا من آيات الجمال ما يضارع خير ما أنتجه الرهبان البندكتيون. وقد وجد بعض الرَّق [3] (Parchement) مشدودًا في النوافذ مكان الزجاج. وفي هذه المخطوطات ترجمات لأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية، وجدت مختلطة بمقدار كبير جدًا من الأدب المانوي. وما برح الكثير من تلك المواد في انتظار اليد التي تتولاها بالفحص الدقيق.

ويصرح السير دنيسون روس بأن هذا الإقليم الآسيوي الأوسط، كان لا يزال إلى حد كبير آريًا لغة وثقافة، وكان فنه لا يزال في جل أمره هندي الأرومة أو فارسي الأصول. وتدل كل الدلائل على صحة الرأي القائل بأن هذه القرون التي هي في أوربا قرون كوارث وتأخر، كانت بالمقارنة عصر تقدم في آسيا الوسطى فما وليها شرقًا حتى بلاد الصين. ولسوف نحصل يومًا على تاريخ متصل الحلقات يسجل الأحداث التي حدثت في ذلك الإقليم أثناء القرون الحالكة التي عمت فيها الفوضى أوربا – إذ حظيت حضارة ذلك الإقليم إبان زمان كان المناخ فيه موائمًا، بدور رقي غير عادي. وفي برلين الآن مجموعة من الرسوم الجدارية المنقولة من التركستان في تلك المدة، وكأنما هي تكهن خارق للمعتاد لما ظهر (بعد ذلك بستة قرون) بفرنسا وألمانيا في القرن الثالث عشر من ثياب ومعدات. فإن الأشكال والرموز المألوفة للملوك والملكات والغلمان في ورق اللعب مثلاً، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية. فقد كانت هناك حياة تبلغ في جذالتها وامتيازها مبلغ حياة القرون الوسطى الأوربية في أزهى أحوالها وهي تشابهها مشابهة عجيبة. ويختلط الشقر والسمر في هذه المناظر، ويكثر الأصهبون [4] وهم في العادة نتيجة للتخليطات العنصرية.

---

(1) يعني المؤلف بلفظه "أدب" المعنى العام للكلمة الذي يدل على جميع ما سطر في اللغة من كتابات ومؤلفات. (المترجم).

(2) الصغدية نسبة إلى صغديانا وهي ولاية من ولايات دولة الفرس القديمة تقابل اليوم مناطق سمرقند وبخارى. (المترجم).

(3) الرَّق (بفتح الراء) جلد رقيق يكتب فيه. (المترجم).

(4) الأصهب هو الأحمر الشعر. (المترجم)

وكانت الشعوب الهونية التي صارت تسمى آنذاك تتارًا وأتراكًا تقوم في شمال بحر قزوين بحركة انتقال مستمرة نحو الغرب تواصلت حتى القرن السادس، ولكن يجدر بنا أن نعدها فيضًا للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها. وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينية لا يزال في معظم شأنه عالم ترحل وبداوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية. ولسنا في حاجة إلى تفصيل القول هاهنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب منهم، وهو النزاع الأبدي بين الطوراني (١) والإيراني. ولسنا نسمع شيئًا عن أي زحف عظيم للفرس نحو الشمال، ولكن كانت هناك غارات نحو الجنوب عظيمة خليقة بالتذكر قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوين والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن تبدأ مجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب، وهي التي حملت الآلانيين والهون إلى صميم قلب أوربا. وانتقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوبًا مخترقين أفغانستان إلى الهند، وذلك فضلاً عن هذه الحركة المتجهة نحو الشمال الغربي. فكأن هذه الأنهار الجياشة بالمترحلين كانت تفيض على كل من جانبي فارس. ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة "يويه تشي" الذين انحدروا آخر الأمر إلى الهند بوصفهم الهندوإسكيذيين في القرن الثاني. على أن قسما متأخرًا من هؤلاء اليويه تشي ظل مقيما على بداوته بآسيا الوسطى، وتكاثر عددًا في سهوب التركستان، وهم يعرفون باسم الإفثاليين أو الهون البيض. فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر إزعاج وخطر على الفرس، أخذوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهند في أثر أقاربهم حوالي ٤٧٠، وكان هذا بعد موت أتيلا بحوالي ربع قرن على أنهم لم يهاجروا إلى بلاد الهند، بل ظلوا ينتهبون في البلاد ذهابًا وغدوًا، ثم يعودون بأسلابهم إلى موطنهم الأصلي، مثلما فعل الهون فيما بعد إذ استقروا في سهل الدانوب العظيم وأخذوا ثمة يغيرون على كل أوربا.

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي نستعرضها الآن، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان: غزو اليويه تشي أي الهندوإسكيذيين الذين أزالوا كما قلنا آخر آثار الحكم الهلّيني، ثم غزو الإفثاليين. وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء، أي الهندوإسكيذيين أمامها، موجة من السكان المطرودين من أوطانهم هم الساكا (Sakas)، وبذا تكون الهند قد لقيت في النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٤٧٠ م. غير أن الثانية من هذه الغزوات، هي الوحيدة التي غدت فتحًا مستديمًا واستقرارًا مقيمًا. واتخذ الهنود الإسكيذيون مركزهم الرئيسي على الحدود الشمالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة، هي أسرة كوشان (Kushan) وهي التي حكمت معظم شمال الهند حتى بنارس شرقًا.

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول)، وهو الذي ضم إلى شمال الهند كلا من قشغر ويرقند وختان. وكان – مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) – عاملا قويًا على رفع شأن البوذية، ولا بد أن هذه الفتوح التي تكونت منها هذه الإمبراطورية العظيمة على الحدود الشمالية الغربية، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة.

---

(١) أطلق الإيرانيون ثم العرب ذلك الاسم على سكان التركستان وآسيا الوسطى ولغاتهم. (المترجم).

ولن نهتم ها هنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام واتحاد وتحالف، لاستعصائها على البحث ها هنا في هذا الحيز الضيق بين أيدينا. فكانت الهند في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج؛ وربما تغلبت إمبراطورية كإمبراطورية الجوبتا (Gupta) على مساحات عظيمة منها. وازدهرت إمبراطورية الجوبتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس. وفي ظل رعايتها قامت الهندوكية العصرية، وظهرت فترة من النشاط الأدبي العظيم. على أن هذه الأمور لم تغير إلا قليلاً طريقة الحياة العادية لدى الشعوب الهندية. وصمدت البرهمانية في وجه البوذية وازدهرت الديانتان جنبًا إلى جنب. وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جدًا؛ فتلبس الثياب وتزرع الأرض وتبني بيوتها على نفس الشاكلة الحالية.

وغارات الإفثاليين جديرة بالذكر، لا بسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل بسبب ما ارتكبه الغزاة من الفظائع. فقد كان هؤلاء الإفثاليون أقرب الناس شبهًا بهون أتيلا في بربريتهم؛ كانت الغارة كل همهم، فلم ينتجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان؛ واحتفظ رؤساؤهم بمركز قيادتهم العليا في التركستان القريبة. وقد سمى ميهيراجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أتيلا بلاد الهند: ويروى أن إحدى تسلياته المحببة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة، هي دحرجة الفيلة في الهاويات للتفرج على آلامها. وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء الهند التابعين له فثاروا عليه وخلعوه (٥٢٨). على أن القضاء النهائي على غارات الإفثاليين على الهند لم يأت من جانب الهنود، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسي للإفثاليين على نهر سرداريا أو سيحون (Oxus) (٥٦٥) على يد قوة الأتراك النامية، إذ هاجموهم متحالفين مع الفرس. وما لبث الإفثاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالاً سريعًا تامًا وانصهروا في السكان المحيطين بهم، مثلما فعل الهون الأوربيون بعد وفاة أتيلا قبل ذلك بمائة سنة. ذلك أن البدو المترحلين الذين ليس لديهم أرض مراع مركزية لا بد أن يتفرقوا، إذ ليس أمامهم غير التشتت من سبيل. ويقال إن بعض عشائر الراجبوت (Rajput) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا في راجبوتانا في شمال الهند، تنحدر من هؤلاء الهون البيض.

وإنا لمضطرون أن نمسك آسفين تمامًا عن الإدلاء بأي بيان عن تطور الفروسية في هذه الولايات الراجبوتية الصغيرة، وهي عجيبة المماثلة لتطور الفروسية المعاصرة لها في أوربا.

ثم إننا لا نستطيع أيضًا أن نتتبع ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندي بين أيام الإسكندر ومجيء الإسلام، إذ لم يقم أي دارس بدراسة تلك الحقبة ولم يمهد لنا السبيل في هذا الصدد. ولا يخفى أن التأثير الهلّيني في الفن الهندي والعمارة الهندية عميق، والراجح أن الفنانين وعلى الخصوص المصورين منهم كانوا لا ينفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند. وذلك أن الفن البوذي تتجلى فيه روح هلّينية قوية. ولما حدث في القرن الثاني وما يتلوه من قرون ميلادية، أن انتشرت البوذية في الصين كما سبق أن ذكرنا، حملت معها شيئًا من رشاقة الفن الهلّيني وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلى الفن الديني الصيني عامة. ولكن للهند مناخًا قتالاً يقضي على كل عمل فني قديم مهجور. فإن أسرات مالكة من التي كاد النسيان يعفى عليها تمامًا، كانت تعيش بالهند عيشًا جميلاً مترفًا، ولكنها لم تخلف من ورائها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال.



(شكل ١٢٥) عملة إفثالية

وهناك أثر فاتن أخاذ تبقى عن هذا الزمان، وهو يرى في كهوف أجانتا (Ajanta) المنقوشة جدرانها التي أخذت صورها تذوى وتتعسر رؤيتها. ومن حسن الحظ أن قد أخذت لها صور يمكن الاطلاع عليها بواسطة الجمعية الهندية. وتوجد أجانتا في حيدر آباد في ممر هام بجبال فندهيا، وقد كان هناك بين الق رنين الث اني والسابع الميلاديين دير بوذي به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة في الصخر، وفي هذه الفترة وفي القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش على حساب ملوك ورجال أثرياء متنوعين، زينها عدد من الفنانين المهرة الموهوبين. وإنا لننظر إلى هذه البقايا في أيامنا هذه ذاهلين، فإنها بلغت من الفصاحة في الترجمة عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة في البلاط كل مبلغ، فلولا هذه الصور لزالت هذه الأم ور م ن ذاكرة الناس تمام الزوال. ولا تزال موضوعات تلك الصور في كثير من الحالات موضع نظر وأخ ذ ورد. فإن بعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطير تدور حوله؛ وبعضها تب دو خاص ة ب الرب إن درا (Indra)، وبعضها لا يزيد عن صفحة من حياة البلاط اليومية. وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من كسرى الثاني أبرويز. وقد زار هذه الكهوف والنقوش في أيام محمد ﷺ يوان تشوانج، وهو رحلة صيني سنحدثك عنه بالكثير من القول عما قليل.

٧- أسرتا هان وتانج بالصين

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما، ورأت حياة أوربا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، تتحطم ثم يعاد سبكها، - شهدت كذلك تغيرات عميقة الأثر جدًا في العالم الصيني. ويتسع بين المؤرخين الصينيين واليابانيين والأوربيين فرض مفاده أن عهدي أسرة هان التي نجد الصين تحت حكمها في بداية هذه المدة وأسرة تانج التي بها انتهت، يعتبران من عهود الرفعة المتماثلة، وأنهما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد، وأن قرون الانقسام الأربعة التي مرت بين نهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٦١٨)، كانت قرون اضطراب لا قرون انتقال ضروري. ويخال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي إلا انقسامات سياسية ومحلية. إذ ينخدعون لأن الصين كانت في نهاية هذه القرون الأربعة كما كانت في مستهلها، تشغل نفس المركز في آسيا، وأنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصين المعروفة، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشتركة من الفكرات - وهم في ذلك يتجاهلون عمليتي الهدم والبناء الجوهريتين اللتين ظلتا تجريان، كما تفوتهم أوجه الشبه الكثيرة بين ما مر على الصين وأوروبا من أحداث.

حقًا إن الانهيار الاجتماعي لم يبلغ أبدًا في العالم الصيني مبلغه الكامل في العالم الأوربي. فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها مساحات مترامية كان من الميسور فيها أن يتواصل التحسين والإتقان في كل فنون الحياة. فلم يحدث بها تقوض تام في النظافة والزخرفة والإنتاج الفني والأدبي كالذي علينا أن نسجله في الغرب. وليس هناك مثيل لما حدث في أوربا من صدوف عن التماس الرشاقة والمتعة. فإنا نلحظ مثلاً أن "الشاي" ظهر في العالم، وفشا استعماله في كل أرجاء الصين. وبدأت الصين تحتسي الشاي في القرن السادس الميلادي. وظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات بهيجة عن تأثيرات الفنجان الأول والفنجان الثاني والفنجان الثالث، وهكذا، واستمرت الصين تنتج تصويرًا جميلاً بعد سقوط أسرة هان بزمن بعيد. ففي القرن الثاني والثالث والرابع، نقشت مناظر طبيعية [1] برية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر الدهور. واطرد ظهور العدد الموفور من إنتاج الزهريات والنحائت الجميلة. ولم ينقطع إنشاء المباني الرشيقة وأعمال الزخرفة. وابتدأت الطباعة عن كتل من الخشب في نفس زمان احتساء الشاي، وظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر.

---

(1) المنظر الطبيعي البري Landscape: منظر أرضي كمنظر قرية أو غابة وقد يكون فيها أشخاص أو حيوانات لا تشغل جزءًا مهما من الصورة. (المترجم).

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب ساعدت كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها. فلم يكن للصين عملة عامة. ولذا فإن ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقدًا وائتمانًا [1]، وهو النظام الذي يجمع بين الكفاية والخطر في وقت واحد، لم يكن مما ابتليت به الصين في حياتها الاقتصادية. وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة. فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل في صفقاتها الصغيرة "نقدًا" مثقوبًا من الزنك والنحاس، فأما في الكبرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك مدموغة من الفضة. وإذن فهذه الإمبراطورية العظيمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذي كان منتشرًا في بابل أيام التجار الآراميين [2]. وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين.

ولقد رأينا كيف قُضي على النظام الاجتماعي والاقتصادي في الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية، تلك السيولة الشديدة التي أوجدتها النقود. فأصبحت النقود شيئًا مجردًا قائمًا بذاته، وانقطعت صلتها بالقيم الحقيقية التي كان مفروضًا أنها تمثلها. فوقع الأفراد والمجتمعات في الدّيْن وقوعًا مخالفًا لكل معقول، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية ثروة حقيقية، بل كان في طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها. فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالي. بل ظلت الثروة في الصين حقيقية ومرئية ملموسة. ومن ثم لم تكن بالصين حاجة إلى أي قانون ليسيني (Licinian) ولا إلى تيبريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين [3]. ففكرة الملكية في الصين لم تتجاوز كثيرًا حدود الأشياء الملموسة. فلم يكن بها "عمال" أرقاء ولا جماعات مستعبدة في الخدمة. وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يُبعن ويُشترين بيع الرقيق، بيد أن هذا لم يكن إلا توسعة طفيفة لما عليه النساء من مألوف الذل المنزلي. وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو في معظم الحالات المالك الفعلي لها أو يكاد، ولا يدفع إلا ضريبة الأراضي. وكان هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضي ذات الرقاع الصغيرة، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة. وكان من لا أرض له من الرجال يعمل أجيرًا مقابل أجر يدفع في غالب الأمر عينًا – شأن ما كان يحدث في بابل القديمة.

وكانت هذه الأشياء من عوامل الاستقرار كما أن شكل الصين الجغرافي كان من عوامل الوحدة؛ ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت، وربما يكون الترف عامل وَهَنها، وعندما حدث آخر الأمر في نهاية القرن الثاني الميلادي أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظيم، وهو نفس الوباء الذي بدأ في الإمبراطورية الرومانية قرنًا من الارتباك والاضطراب، انهارت أسرة هان انهيار شجرة نخرة خاوية هبت عليها ريح عاصفة. وتبدى في الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناحرة ونفس إغارات الحكام البرابرة.

---

(1) نظام الدفع نقدًا وائتمانًا Cash & Credit System (المترجم)

(2) الآراميون: قبائل رحل بشبه جزيرة العرب. رحلت إلى وادي الفرات في ١٥٠٠ ق. م. واقتبسوا حضارة الأموريين والكنعانيين ونشروها في سوريا. (المترجم)

(3) انظر المجلد الثاني من المعالم ص ٥٦٨ ط ٣. (المترجم).

ويعزو المستر فو كثيرًا من خوَر الصين السياسي في تلك المدة إلى انتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت – فيما يرى – عن المذهب الفردي المتشكك الذي أنشأه لاوتزي ويعرف دور الانقسام هذا باسم "عهد الممالك الثلاث". وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدنة نوعًا ما، وقد فرضوا أنفسهم حكامًا على مقاطعة شن سي (Shen-Si). ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فحسب، بل مساحات عظيمة من سيبيريا؛ وتمثلت أسرتها المدنية الصينية، وحمل نفوذها تجارة الصين ومعرفتها وثقافتها قُدُما حتى الدائرة القطبية. ويوازن المستر فو بين هذه المملكة السيبيرية وبين إمبراطورية شرلمان في أوربا التي سنصفها لك من فورنا. فمعناها عنده أن البربري أصبح ذا طابع "صيني" مثلما أن شرلمان البربري أصبح رومانيًا.

ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبيريين والعناصر الصينية الشمالية من الأهالي، أسرة سوي (Suy) التي فتحت الجنوب. وتؤذن أسرة سوي هذه ببداية عصر نهضة ببلاد الصين. فألحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوي، ومرت البلاد بدور من النشاط الأدبي العظيم. ويحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٥٤ ألف مجلد. وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون.

ويصر المستر فو على أن نهضة الصين التي ابتدأت بأسرة سوي وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلادًا حقيقيًا جديدًا للبلاد. وهو يكتب قائلاً: "لقد ظهرت روح جديدة، وهي تدمغ مدنية تانج بخصائص تميزها تمامًا عن كل ما عداها. إذ إن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها في بعض، وهي: (١) الثقافة الصينية المتحررة [1]، (٢) المذهب الصيني الكلاسيكي العتيق Classicism، (٣) البوذية الهندية، ثم (٤) شجاعة أهل الشمال.

"لقد ولدت صين جديدة، فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكري عند أسرة تانج مختلفًا تمام الاختلاف عما كان عليه الحال عند أسلافها. وتأثرت الفنون أيما تأثر وانتعشت كثيرًا بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى. ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم؛ بل كان إنتاجًا جديدًا. وكانت مدارس البوذية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية.

"وربما لذ لنا أن نقارن تكوين الصين هذا، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية في أخريات أيامها. فكما كان العالم الروماني مقسمًا إلى نصفين غربي وشرقي، كذلك كان العالم الصيني مقسمًا إلى شمالي وجنوبي. وقد قام البرابرة في حالة الصين وحالة روما بإغارات متماثلة. وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد. وضارعت إمبراطورية شرلمان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (واي Wei) التالية؛ ويقابل استرجاع الإمبراطورية الغربية المؤقت على يد جستنيان، استرجاع الشمال مؤقتًا على يد ليويو (Liu-yu). ويضاهي الفرع البيزنطي الأسرات الجنوبية. على أن العالمين تفارقا من هذه النقطة. فاستعادت الصين وحدتها؛ على حين لا يزال باقيًا على أوربا أن تحذو حذوها".

(1) Liberal Culture وفي ذلك الضرب المستتير المهذب من الثقافة الخليق بالسادة المهذبين والجنتلمانية. (المترجم).

وكانت ممتلكات الإمبراطور تاي تسنج (Tai-Tsung) (٦٢٧) – وهو ثاني ملك في أسرة تانج – تمتد جنوبًا إلى أنام (Annam) وغربًا حتى بحر قزوين. وكانت حدوده الجنوبية في هذا الاتجاه تساير حدود فارس. فأما حدوده الشمالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاي من سهوب القرغيز في شمال صحراء جوبي. بيد أنها لم تشمل كوريا التي غزاها ابنه وضمها إلى ممتلكاته. وقد استطاعت أسرة تانج هذه أن تنشر الحضارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدمجتهم في الجنس الصيني، وكما أن صينيي الشمال يسمون أنفسهم "رجال هان"، يسمي صينيو الجنوب أنفسهم "رجال تانج Tang". وتم تنسيق القوانين وجمعها في مدونات، ونقح نظام الامتحان الأدبي، وأصدرت طبعة كاملة مضبوطة من كل الآداب الصينية القديمة.



(شكل ١٢٦) الإمبراطورية الصينية

ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومانية

ووفدت على بلاط الإمبراطور تاي تسُنج بعثة سياسية من بيزنطة، وأهم من ذلك، أن قد أتت من فارس جماعة من المبشرين النسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاي تسنج باحترام عظيم. واستمع منهم إلى أهم مواد عقيدتهم، وأمر بترجمة الكتب المقدسة المسيحية إلى الصينية ليفحصها فيما بعد.

وما لبث في ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد الديانة الجديدة مرضية تمامًا، وأنه يجوز التبشير بها في الإمبراطورية. كذلك سمح ببناء كنيسة وتأسيس دير. ويوجد في سيان فو (Sianfu) اليوم حجر منحوت يدعونه الأثر النسطوري يرجع تاريخه إلى ٧٨١م، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصينية.

كذلك حضرت إلى بلاط تاي تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ٦٢٨ م قبل مجيء النساطرة بسبعة أعوام. وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحرًا في فلك تجاري. (ومن الشائق أن نلحظ لهذه المناسبة وجود أمثال تلك السفن التي كانت تعمل في التجارة بين الغرب والشرق في ذلك الزمان). أرسل هؤلاء العرب محمد (ﷺ) الذي سبق لنا ذكره والذي نعت نفسه "نبي الله". والرسالة التي أحضروها إلى تاي تسنج هي فيما يرجح نفس الدعوة التي أرسلت في السنة نفسها إلى هرقل الإمبراطور البيزنطي وإلى قباذ في طيشفون [١].

على أن ملك الصين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لذة عظيمة في آرائهم اللاهوتية، وساعدهم فيما يقال على بناء مسجد من أجل التجار العرب في كنتون – وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا.

(١) هي مدائن كسرى: عاصمة الساسانيين وتقع . ج. ق بغداد. (المترجم).

٨- أغلال الصين الذهنية

كان تحضُّر [١] الصين وثقافتها وقوتها في ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضًا ناصعًا واضحًا للانحلال والفوضى والانقسامات في العالم الغربي، وهي حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة في تاريخ المدنية. فلماذا لم تحتفظ الصين بتلك الزعامة التي فازت بها بفضل عودتها السريعة إلى الوحدة والنظام؟ فلماذا لا تتسلط إلى اليوم على العالم ثقافيًا وسياسيًا؟

لقد ظلت زمانًا طويلاً وهي على التحقيق السباقة المتقدمة. وما نستطيع أن نقول مع الثقة والاطمئنان إن العالم الغربي قد شرع يسبق الصين من جديد، إلا بعد ألف سنة، وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعليم في الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمي العصري. ففي عهد أسرة تانج، وهو أعظم عهودها، وفي ظل أسرة صنج (٩٦٠ – ١٢٧٩) الفنية النزعة وإن كانت على شيء من التدهور، ثم كذلك إبان حكم آل منج المثقفين (١٣٦٨ – ١٦٤٤)، تتجلى الصين للعالم في مشهد من الرفاعية والسعادة والنشاط الفني المتقدم أشواطًا بعيدة على أي دولة معاصرة. فإذا راعينا أنها أحرزت ذلك القدر الكبير تساءلنا لماذا لم تحرز المزيد؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان [٢]، فلماذا لم يكتشف الصينيون قط أمريكا أو أستراليا؟

وهناك رسوم للبوشمن قديمة نقشت على الصخور، ربما دلت على أن سفنًا صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقية في تاريخ ما غير معلوم، كما يقال إن هناك آثارًا تدل على نزول زوار صينيين في بلاد المكسيك، فلئن صح هذا، فإن واحدًا من هذين الاكتشافين العرضيين لا يبدو أنه أُتْبع بغيره مثلما لم يتابع أحد طواف القرطاجيين حول إفريقية أو مثلما لم تتبع زيارات أهل الشمال (North men) لأمريكا بزيارات أخرى. ويقول المستر فوجان: إن هناك أيضا رسومًا صينية محفورة في الصخور في نيوزيلندة ونيوكاليدونيا. على أن توفر العبقرية الفردية والإقدام غير المتواصل، لا يكفي لتوطيد اكتشاف من الاكتشافات في يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يؤتي ثماره ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال. ولا بد أن يكون المجتمع نفسه مستعدًا لتقبله والإفادة منه.

---

(١) يقصد الكاتب بالتحضر أو الحضرية دماثة الأخلاق وحسن الآداب والتهذيب وهي صفات أهل الحضر. (المترجم)

(٢) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية. ويستخلص هيرت في كتابه "تاريخ الصين القديم"، ص ١٢٦ فما بعدها، بعد فحص دقيق لكل العصور والأزمنة، أنه ولو أن من المحتمل أن يكون شيء كالبوصلة عرف في الأزمنة السحيقة، فإن العلم به احتواه النسيان لمدة كبيرة بعد ذلك، حتى ظهر مرة أخرى في العصور الوسطى كآلة بأيدي اللحادين (وهم الذين يوكل بهم اختيار أفضل المواقع للقبور إلخ). وأول ذكر واضح لاستعمالها كمرشد للبحارة ورد في كتاب في القرن الثاني عشر" يشير إلى استخدامها في سفن أجنبية بين الصين وسومطرة. ويميل هيرت إلى الاعتقاد بأن الرواد العرب يحتمل أن رأوها في أيدي لحادين صينيين ثم طبقوا استعمالها على الملاحة، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إعادتها إلى الصين في صورة البوصلة البحرية. (المؤلف).

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع – وإن كانت فردية منعزلة متفرقة – ما لا يقل عما في أي جزء من أجزاء العالم. وعرف الصينيون البارود في القرن السادس. واستعملوا التسخين بالفحم الحجري والغاز استعمالاً محليًا قبل أن تستخدم هذه الأشياء في أوربا بقرون. فأما إقامتهم للكباري وهندستهم المائية فمدهشة جديرة بالإعجاب؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تتبدى في الآنية المطلية بالميناء واللاكيه [1] لعظيمة جدًا. فلماذا لم ينشئوا قط طريقة التسجيل والتعاون في البحث، تلك الطريقة التي وهبت العلم الحديث للعالم؟ ولماذا، بالرغم من مرانهم العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الذهني إلى كتلة السكان العامة ولم يتخللها؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم، كما كانوا على الدوام أميين بالرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعي الاستثنائي المنتشر بينهم؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالبًا ما تكون جوفاء. فيقال لنا إن الصيني أشد المخلوقات البشرية محافظة، وإن عقله – على نقيض الأجناس الأوروبية – ملفوت نحو الماضي، وإنه العبد الخاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربي. وهو يمثّل كأنما له عقلية مميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالبًا أن يجد في تركيب المخ فارقًا يفسر ذلك الاختلاف. والقائلون بهذه الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لدعم ذلك الزعم.

على أننا لو فحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصًا أدق وأضبط لتبدد في الهواء هباء منثورًا. فإن قوة الابتكار والمبادرة الذهنية الفائقة والإقدام العقلي المتحرر والميل إلى التجريب، تلك المزايا التي نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربي، لا تتجلى في تاريخ هذا الذهن إلا في أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثنائية. وفيما عدا ذلك، لا يتجلى العالم الغربي إلا مضارعًا للصين في التزام التقاليد والمحافظة على كل قديم. ومن الناحية الأخرى، فإن العقل الصيني كان إذا حفزه حافز يبدي قدرة على الاختراع والابتداع وتعددًا في المزايا كالأوربي سواء بسواء، كما أن الذهن الياباني المجانس له يكاد يفوقه في هذا. فإذا اتخذت من الإغريق مثالاً، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقعًا في المدة بين القرن السادس ق. م. وبين اضمحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين في القرن الثاني ق. م. ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده، بيد أن تاريخ ألف سنة من سني الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم الهلّيني راكد الذهن كالصين سواء بسواء. ثم إننا قد سبق أن وجهنا النظر إلى عقم الذهن الإيطالي نسبيًا أثناء العهد الروماني، وإلى وفرة خصبه منذ "نهضة إحياء العلوم". وكذلك الذهن الإنجليزي، فقد مر به دور من التوقد في القرنين السابع والثامن، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر. كذلك ذهن العرب كما سنخبرك من فورنا، قد تألق تألُّق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أي شيء ذي بال. ومن الناحية الأخرى كان هناك على الدوام قدر عظيم من المقدرة على الاختراع مبعثر في الصين، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصيني من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية. وإنا لنبالغ في مدى احترام الصينيين لآبائهم؛ فقد كان قتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعًا بين أباطرة الصينيين، لدى حكام فارس أنفسهم. وفضلاً عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثت بالصين حركات تحريرية كثيرة، وكفاحات عديدة ضد "الأساليب العتيقة".

([1]) اللاكيه Lacquer دهان محلول اللك وهو مادة راتنجية (قلفونية) يفرزها نبات الكوكوس لاكا Coccus Lacce الذي ينتج صباغًا أحمر زاهيًا. (المترجم).

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم الذهني الحقيقي في أي مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول، بلغت من الحرية مبلغًا يجعلهم لا يكدحون ولا يحملون همًا يستنفد القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية، ولم يصل في ثرائها وسعة سلطانها إلى حد يغريهم بالإسراف في الشهوات أو المظاهر أو القساوات. ويجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنينة، لا غرور بالتفوق. وأسلفنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تتهيأ لها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة. ويجب ألا تراقب لمظنة الزندقة أو تضطهد لأية آراء قد تعبر عنها. ولا مراء أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق في أحسن أيامها. والواقع أن طبقة من القوم الأذكياء المهذبين الأحرار تتبدى على صفحات التاريخ حيثما ظهرت فلسفة جريئة مدونة أو تقدمات علمية فعالة.

ولا بد أن الصين كانت تضم في أيام تانج وصنج ومنج كثرة من القوم المنعمين من نفس الطبقة التي كان منها معظم شبان "أكاديمية" أثينا أو أذكياء إيطاليا النابهين في عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية، وهي الجمعية التي كانت بمثابة الأم من العلم الحديث؛ ومع ذلك فإن الصين لم تنتج في عصور الفرص التي أتيحت لها شيئًا يماثل تلك البدايات العظيمة للحقائق المسجلة المحللة.

فإذا نبذنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية العميقة بين الصين وبين الغرب، تلك الفوارق التي تجعل الصينيين محافظين بطبيعتهم، وتجعل الغرب تقدميًا بطبعه، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الفعال لهذا الفارق في روح التقدم ملتمسين إياه في نواحي أخرى. ويميل كثير من الناس أن يبحثوا في اتجاه آخر عن السبب الفعال في تأخر الصين ذلك التأخر العظيم بالرغم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة – وهم يرون أن تكبيل الذهن الصيني في كتابة وفي صيغ للفكر بلغت من الإحكام التفصيلي والصعوبة حدًا جعل طاقة البلاد العقلية مستنفدة استنفادًا عظيمًا في تحصيلها هو مرد ذلك كله. وعندي أن هذا الرأي جدير بالفحص والنظر.

وقد سبق أن أعطيناك بيانًا عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية. والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرع تدوينًا. والعدد الكبير من هذه الصيغ "كتابة تصويرية رمزية" [1] منقولة عن الصينية وتستخدم بالضبط بنفس الطريقة التي تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية الصينية، على أن هناك كذلك عددًا من العلامات يستعمل للتعبير عن المقاطع؛ ولليابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممثلة للمقاطع والتي سبق أن وصفناها. ولكن الكتابة اليابانية تظل بعد ذلك طريقة سمجة كالخط المسماري سواء بسواء، وإن لم تصل بسماجتها وتعقيدها إلى درجة الصينية؛ وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية. على أن كوريا تقدمت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد، ونحتت أبجدية حقيقية من المصادر الصينية نفسها.

---

(1) "كتابة تصويرية رمزية Ideograms" أي رموز كتابية هي كما أسلفنا جـ ١ ط ٣ من المعالم ص ١٩٤ صورة أو رمز تستعمل في نظام الكتابة.

وفيما عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن في العالم، تقوم على أبجديات البحر المتوسط، وهي أسهل حفظًا وإتقانًا من الصينية بشكل لا يسمح بأية موازنة. ومعنى هذا أنه بينما الشعوب الأخرى لا تتعلم لتدوين اللغة المألوفة لديها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبيًا، فإن الصيني ملزم أن يتمكن من أحشاد عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة. فليس عليه أن يتعلم العلامات وكفى، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضًا، حتى يتاح له إظهار المعاني المختلفة. فيجب والحالة هذه أن يجعل نفسه ملما بعدد من المؤلفات القديمة التي تتخذ مثالاً يحتذى. وبناء على هذا، فبينما أنت واجد في الصين أعدادًا عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور، فلن تجد إلا القليلين ممن تتسع معارفهم لإدراك معنى فقرة في إحدى الصحف، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرءوا ما قد يرمي إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أية ظلال ممتازة للمعاني. وهذا يصدق أيضًا على اليابان وإن يكن بدرجة أقل. ولا مراء أن القراء الأوربيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التي لا تلتزم نظامًا بعينه والغنية بالألفاظ مثل الإنجليزية والروسية، يختلفون اختلافًا عظيمًا فيما بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التي يستطيعون فهمها ومدى فهمهم لها؛ فإن قوتهم في اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات؛ بيد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند الصينيين، يستدعي تحصيله بذلاً من الجهد والوقت أعظم كثيرًا. فإن تعليم الموظف (الماندرين Mandrin) في الصين إنما هو في معظم شأنه تعلم للقراءة.

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقات المتعلمة أثناء سني قابليتها للتعلم والاستيعاب وإكبابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التي أنفقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة. وقل من الرجال الذين كدحوا في عقولهم بعلم من العلوم، من يطّرح برضاه ذلك العلم جانبًا، مفضلاً عليه شيئًا آخر جديدًا غير مألوف. وغني عن البيان أن هذا الميل شيء لا ينفرد به الشرق دون الغرب، وهو يبدو ظاهرًا ملموسًا عند كبار علماء الجامعات البريطانية والأمريكية مثلما يتجلى لدى أي ماندرين صيني. وإن البريطانيين في الزمن الحاضر، ليرفضون أن يتزحزحوا خطوة عن طريقتهم الهمجية في الهجاء والإملاء، بالرغم من المزايا العظيمة الواضحة التي ستعود على التعليم الشعبي والدعاية القومية من الانتقال إلى الأبجدية الصوتية [1] والهجاء الصوتي. ولا بد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمي المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصرًا بعد عصر بعملية غربلة قوية تظاهر العقول المفرغة في قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الحذلقة العملية الجوفاء وتنصرها على الطراز الجامح الخلاق، وتستبعد هذا الأخير من مراكز النفوذ والسلطان. وعندي أن هذا التفسير مستساغ ومقبول إلى حد كبير.

([1]) الطريقة الصوتية Phonetie في الكتابة الإفرنجية طريقة لا تتمسك بالإملاء التقليدي المعروف للكلمات وإنما تمثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف مميزة. (المترجم)

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أسرة منج الحديثة نسبيًا. وكانت أسرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤) أسرة وطنية النزعة محافظة على القديم، استردت الصين بعد حكم المغول. ويقول المستر ل. ي. تشن L. y. Chen: إن أول أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقًا: "لسوف يجلب هذا إلى مصيدتي كل من في العالم من ذوي العقول". وقد دس جنت "الآداب القديمة الخمسة والكتب الأربعة" عقل الصين في محبسها. فعندما يحل الزمن الذي ينتهي فيه أي رجل من شق طريقه فيها كدحًا وكدًا يكون تقدير القيم لديه، قد بلغ من الصلابة واستعصاء العلاج مبلغه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد.

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولاقتباس طريقة أبجدية. ففي أيام البوذية الأولى بالصين، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية: أوشكت المؤثرات الهندية على بلوغ تلك الغاية. وقد اخترعت في الواقع أبجديتان صينيتان، وحظيت كل منهما بشيء يسير من الاستعمال. ولكن الشيء الذي حال دون تعميم استعمال هاتين الأبجديتين، والذي لا يزال حتى اليوم يقف في سبيل أية "طريقة صوتية" للكتابة الصينية، هو أنه على حين ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبارة الفصحى واحدًا لا يتغير من أقصى الصين إلى أقصاها. فإن لغة العامة المتداولة تختلف في كل من طريقة نطقها وصيغها الاصطلاحية المألوفة اختلافًا يبلغ من الاتساع حدًا يجعل الرجل من أبناء إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى. وهناك على ذلك "لغة صينية فصحى" وهي عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينطق بها المتعلمون ويفهمونها على وجه العموم، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالصين في الوقت الحاضر على احتمال استخدام طريقة أبجدية للكتابة في هذه الصينية الفصحى. وقد صيغت أبجدية صينية، وهي تعلم في المدارس العامة، وتنتشر بها الصحف والنشرات. وقضي على نظام الامتحان الجامد الذي قتل كل ابتكار فكري خلاق.

كذلك أحدثوا تبسيطًا جسيمًا يتمثل في إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة إلى الصينية المكتوبة. وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح. فإن مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكتابة، وهي مكيفة لحاجات التعبير الأدبي العصري تكييفًا أوفق كثيرًا من الصينية الكلاسيكية القديمة.

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحقق. فإن ما نالته الصين في الماضي من النجاح والرخاء القديم والقناعة العامة، لا بد وأنها عملت عملها بتلك البلاد لتبرير كل ما فطر عليه جنسنا البشري من طمأنينة نفسية وروح محافظة طبيعيين. فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية البيولوجية، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير، ما حسنت أحواله حسنًا يكفل له البقاء في وقته الراهن. ولا يزال الإنسان في هذا الأمر حيوانًا. وقد ظلت الصين ما يربو على الألفي سنة حتى القرن التاسع عشر، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأي شكوك خطيرة حول تفوق مدنيتها بوجه عام على مدنيات العالم كله، ولم يكن هناك تبعًا لذلك أي سبب ظاهر يحدو بالصيني إلى إحداث أي تغيير. فقد أنتجت الصين فيضًا وفيرًا من الفن الجميل وبعض الشعر الممتع وطباخة مدهشة وآلاف الملايين

من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلاً بعد جيل. وكانت ولا تزال بلاد ملكيات صغيرة؛ وكل الأيدي فيه ا مطلوبة، ويمكن استخدامها جميعًا في أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد. هذا إلى أن هن اك مناف ذ أمام القوى الجانحة إلى الاتساع. إذ لا يزال في الشمال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان وإذن ف إن شيئًا ذا بال لم يحدث، فلم يقم توتر داخلي حاد يشتت شمل العشيرة العائلية الصينية القائمة على نظام الأبوة. وهي العائلة التي تُزوِّج أبناءها في سن مبكر وتحتفظ بهم في المنزل قب ل أن يحص لوا عل ى الاس تقلال الاقتصادي. هكذا سارت الصين في طريقها عصرًا بعد عصر، ولا تزال تسير دون أن يداخلها أي شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا التعس العام التي كانت تحف بحكم الأغنياء الإمبراطوري ة الرومانية، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها. أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير. بيد أنه ل م يكن فقرًا جماعيًا لقوم مطرودين من أملاكهم، ولم يكن استياء شعبيًا لا مناص منه. فبعد كل شدة وبع د ك ل كارثة، تبرأ نفوس السكان، وتلتئم الجراح. ولقد عمر النظام الصيني ألف سنة، لاح فيها ممتنعً ا عل ى ك ل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويترنح. أجل حدثت تغييرات في الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة؛ كما حدث غزوان عظيمان نصبا أسرتين أجنبيتين على عرش" ابن السماء"؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التي توجد انقلابًا ثوريًا في نظام الحياة اليومية. وقد يأتي الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون؛ فأما الماندرين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما ه ي علي ه. فالمدنية الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج فما بعدها، تنتشر في بطء واستمرار في أن ام وكمبودي ا وس يام والتبت إلى نيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا، لا تنطوي على شيء نستطيع تسجيله لها ع دا ذل ك التق دم الجغرافي. وكان صينيو القرن السابع الميلادي شعبًا ممدناً يعادل في كل من حضارته ونواحيها الجوهرية ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة.

٩ – الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندلي بكلمة حول فن الصين وعمارتها في عهد أسرتي هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى. والصينيون، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحللها، فضلوا على الدوام استعمال الخشب والطوب على استعمال الحجر في المباني. ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفورة ببلاد الصين. ولا يكاد التاريخ يسجل لنا فيما قبل القرن الحادي عشر الميلادي أي خرائب وأطلال ولا أية مبان اللهم إلا السور العظيم. على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهد أسرة "تسي إن" أو أبكر منها.

وأقدم أشكال المباني تشتق اشتقاقًا مباشرًا من الخيمة المغولية. وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذي قد يكون ثنائيًا أو ثلاثيًا وبه أشغال خشبية محفورة ومطلية باللك (الجملكّة). وربما كان السقف نفسه مغطى بقراميد صقلية ألوانها زاهية، والمباني على العموم ذات طابق واحد وتنتشر انتشارًا أفقيًا. وهناك ظاهرة كثيرة الحدوث في التصميم الصيني هي الممرات التكريمية ذات العقود. وتكثر القناطر الحجرية، والكثير منها على درجة عالية من الرونق. والباجودا [1] المشيرة إلى السماء طراز ثالث للبناء، وهذه ومعها الشرفات والدرابزينات تكمل الصورة العامة للمباني الصينية. تلك هي الصورة الممثلة للفن المعماري في الصين في أوائل الحقبة المسيحية، وهي لا تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا. ويقال إن الباجودا – وربما كان ذلك غير صحيح ترجع إلى بدايات هندية بوذية، وأنها المعادل الصيني "للإستوبا" التذكارية الهندية.

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الأجل القوية الاحتمال أثره في معرفتنا بفن التشكيل الصيني قبل أسرة هان. ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد. فإنا نعرف بوجود زلع [2] وتماثيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج. وهي من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجود عالم بأكمله يعاصرها من المنتجات المماثلة التي لم يبق منها اليوم شيء. ولسنا نصل إلا في عصر أسرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية، إلى دور من أدوار الحياة الصينية ترك آثارًا كثيرة في أية مادة أخرى عدا هذه.

ويحدثنا أهل الذكر أن "التصوير" كان فن الصين الأساسي، وكانت تصنع من أشغال بالغة الجمال والرونق في عهد أسرة هان. وينوه التاريخ باسم كوكاي تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادي) بأنه من أعظم أساتذة المرقاش [3] الصينيين. ولا تزال بعض أعماله باقية، ويتجلى فيها من النضج والأستاذية ما يشهد بوجود مدرسة راسخة القدم في الفن فعلاً. والتصوير الصيني يُعمل دائمًا أبدًا بالألوان المائية. وإنا لنجد بدلاً

---

(١) الباجودا أو الإستوبا: نصب بوذي على صورة أكمة ذات قبة. (المترجم).

(٢) الزلعة وعاء معروف، وهو الجرة الكبيرة. (المترجم)

(٣) المرقاش هو ريشة المصور. (المترجم).

من التصاوير الجصية الجدارية (الفرسكوهات) [١] الكبيرة صورًا رقشت على الحرير والورق، وهي تختلف عن المنتجات الغربية فيما تظهر من كراهية إيجابية لتمثيل مظهر البروز (Relief). فهي مسطحة [٢] هوائية رقيقة، كما أنها تعالج المناظر الطبيعية البرية أكثر مما تعالج التمثيل الدقيق المجسم البشري. وعصر أسـ ـرة تانج يعده كثير من النقاد العصر الذهبي لفن التصوير الصيني.

فأما فن النحت الصيني فإنه لم يواكب بأية حال فن التصوير الصيني ولا يكاد يكون له شأن يـ ذكر إلـ ـى جوار الإنتاج الأوربي، على أن الخزف الصيني من الناحية الأخرى فائق في امتيـ ـازه. فقـ ـد جـ ـرت عـ ـادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لنار حرارتها أشد كثيرًا مما جرت به العادة في العالم الغربي، وأنتجـ ـوا عنـ ـد نهاية حكم أسرة تانج خزف البورسلان [٣] وما لا نظير له من أنواع التزجيج [٤] واتصف خزف أسرة هـ ـان بالفعل ببالغ الصلابة والإبداع. وتوجد الآن في المنازل والمجموعات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الخدم والخيل والجمال وما إليها، وكلها ترجع إلى زمن أسرة تانج. وقد استخرجت كلهـ ـا مـ ـن القبور، وكان الأصل في وضعها في هذه القبور أن تحل محل العُبْدان والحيوان التي كانت تسفك دماؤها في ماض أكثر همجية. واستمرت مذابح القبور هذه التي يقصد بها تزويد الرئيس المغـ ـولي الراحـ ـل بالخدمـ ـة والدواب في أرض الظلال: (القبور والموت)، استمرت في الصين حتى القرن السابع أو السادس ق. م. ثـ ـم استبدلت بها التماثيل. على أن الهون في أيام أتيلا ما برحوا يراعون العادة القديمة، عادة الذبح الحقيقي. على أنها كانت بادت في مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية.

---

(١) التصوير الجصي أو الفرسكو Frescoe ضرب من الصور وطريقة للتصوير الثابت على بياض الجدران الطري كثيرًا ما تخلط فيه الألوان بزلال البيض. (المترجم)

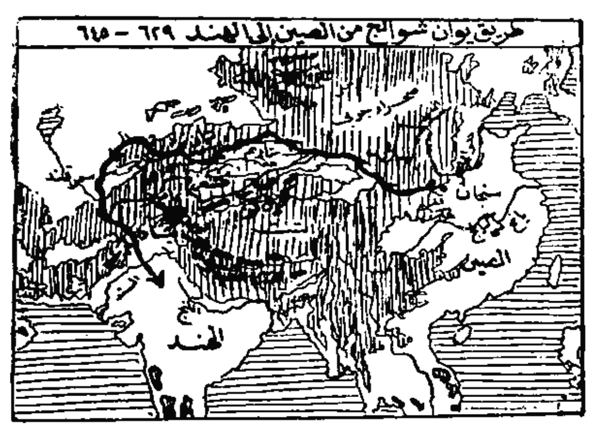
(٢) الصورة المسطحة: هي التي ليس فيها ما يوحي بالعمق والمسافة. (المترجم)

(٣) خزف البورسلان Porcelain : صنف من الصيني أبيض ورقيق وشبه شفاف كان يصنع أولاً بالصين. (المترجم).

(٤) التزجيج: وضع غشاوة شبه زجاجية على سطح الخزف. (المترجم)

١٠- رحلات يوآن تشوانج

في عام ٦٢٩، وهي السنة التالية لوصول مبعوثي محمد (ﷺ) إلى كنتون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجوري إلى إنجلترة بنيف وثلاثين سنة، قام عالم بوذي متبتل يدعى يوآن شد وانج أو (هيو وين تسيانج) كما يفضل بعض الثقات أن يكتبوا اسمه – برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أي (سيجنان) وهـ ي عاصمة تاي تسنج. غاب عن بلاده في هذه الرحلة ستة عشر عامًا، وعاد (٦٤٥) وكتب عن رحلاته بيانًا يعتز به الصينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة. وإن فيما مر به من تجربة لنقطة أو نقطتين جديرتين بالملاحظة ها هنا، لأنهما تساهمان بقسط في استعراضنا العام لحالة العالم في القرن السابع الميلادي[1].



شكل (١٢٧) خريطة تبين طريق يوان شوانج

من الصين إلى الهند ٦٢٩ – ٦٤٥

كان يوآن تشوانج نظيرًا لهيرودوت في غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها، وإن أعوزه ما للكاتب الثاني من الحاسة التاريخية الممتازة؛ فلم يكن ليطيق أن يمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصة ما خرافية. وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب، هي التي منعته من إحاطتنا بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله، ومن كان برفقته، وكيف كان يقيم، أو ماذا كان يأكل، وكيف كان يدفع نفقاته – وهي تفاصيل لها قيمتها البالغة لدى المؤرخ؛ ومع ذلك، فإنه ينفحنا مجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسيا الوسطى والهند في المدة التي نحن بصدد بحثها.

(1) عن وصف جغرافي تفصيل لتلك المناطق انظر الطبعة الثالثة المجلد الثاني من "المعالم" ص ٦٤٦ (المترجم)

كانت رحلته رحلة هائلة. ذهب فيها وعاد منها بطريق هضبة البامير. فذهب بالطريق الشمالي عابرًا صحراء جوبي، مسايرًا المنحدرات الجنوبية لجبال تيان شان، مطوقًا حافة بحيرة إسيك كول (Issik-kul) العظيمة العميقة الزرقاء، وبذا وصل إلى طشقند وسمرقند، ثم سار يترسم إلى حد ما خُطى الإسكندر الأكبر متجهًا جنوبًا نحو ممر خيبر وبيشاوار. ثم عاد بالطريق الجنوبي مخترقًا" البامير من أفغانستان إلى قشغر، وبذا يكون قد سار على امتداد خط التراجع الذي اتبعته قبيلة "يويه تشي" في اتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون، ومر بطريق يرقند على امتداد منحدرات الكوين لن، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب النهاية الصحراوية للسور العظيم. وكان سلوك كل من هذين الطريقين يتضمن تسلقًا شاقًا لجبال وعرة. وليس من المستطاع اقتفاء أثره أثناء رحلاته ببلاد الهند؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عامًا، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيبال إلى سيلان.

وكان هناك في ذلك الزمان مرسوم إمبراطوري يحرم السفر إلى الخارج، حتى لقد انطلق يوآن تشوانج من سيان في خفيه كأنما هو مجرم هارب. وتعقبته السلطات لمنعه من تنفيذ مشروعه. وإن القارئ ليجد في كتابه "الحياة"، كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصانًا هزيلاً أحمر اللون يعرف طرق الصحراء ومسالكها، وكيف تفادى مخفرًا على الحدود بمساعدة "شخص أجنبي"، صنع له على النهر جسرًا من الحسك أدنى من ذلك الموضع، وكيف أنه عبر الصحراء مسترشدًا بعظام الموتى من الرجال والماشية، وكيف رأى سرابًا، وكيف نجا بأعجوبة مرتين من السهام عندما كان يتزود بالماء بالقرب من أبراج الخفارة في الطريق الصحراوي. وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحراء جوبي، وظل أربع ليال وخمسة أيام ولا ماء معه؛ وتجمد اثنى عشر نفرًا من رفاقه وماتوا بردًا وهو فوق الجبال بين أحضان الجليد. كل هذا الذي رويناه موجود في كتاب "الحياة"؛ إذ إنه لا يقول عن ذلك غير القليل في بيانه الشخصي عن أسفاره.

وهو يعرض علينا الترك – وهم التطور الجديد لمجتمع الهون، وقد ملكوا لا ما هو الآن التركستان فحسب، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشمالي بأكمله. وهو يذكر أسماء مدن جمة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها. ويولم له الولائم حكام عديدون، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما، كما يولم له آخرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر في ثياب خضراء من الأطلس، وقد عقص شعره الطويل بالحرير.

"وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشاة بالذهب تشع فخامة وضاءة تخلب الأبصار؛ وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط في صفوف طويلة على كلا الجانبين، وكلهم مرتد ثيابًا فاخرة من وشي الديباج، على حين كانت بقية الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم. ولقد رأيت أنه وإن كان واليًا من ولاة مناطق التخوم، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السمو والظرف. خرج الخان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذي دخل الخيمة بعد تحية كريمة.. وبعد فترة وجيزة، أدخل على الخان رسل من الصين ومن كاو تشانج فقدموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم، فقرأها الخان وسر منها كثيرًا، وأمر فأجلس الرسل؛ ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقى وبشراب العنب للحاج. وعند ذلك تبادل القوم الأنخاب، وكان

لملء كئوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف، بينما ارتفعت أنغام الموسيقى عن آلاتها المتنوعة، ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة، فإنها أدخلت السرور على المشاعر وأنعشت الملكات الذهنية. وبعد قليل قدمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك واللبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب. وبعد انتهاء الوليمة، قدم شراب العنب مرة ثانية، ودعا الخان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفح المجتمعين بعض علمه، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبادئ "الفضائل العشر" والرفق بالحيوان وكمالات البارامينا (Paramitas) [١] وفك الرقاب. فانحنى الخان رافعًا يديه وأمَّن مسرورًا مغتبطًا وتقبل التعاليم".

وبيان يوآن تشوانج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاء، "إنها مستودع تجاري عظيم، والمنطقة المحيطة بها عظيمة الخصوبة ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الخيول الصافنات. وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط". ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة، أنه لم يكن هناك في ذلك الزمان شيء يمكن تسميته مدنية في إنجلترة الأنجلوسكسون.

ومع ذلك فكلما اقتربت روايته مما مر به في الهند من خبرات، تغلبت نزعة الحاج النقي العالم في شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحمًا بأقاصيص فظيعة تروي معجزات لا سبيل إلى تصديقها. ومع ذلك فإنا نحصل على انطباعة عن المساكن والثياب وما إليها، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند اليوم. وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم، من شدة تنوع الأشكال والهيئات المختلفة للجماهير، لهو نقيض صريح للصين بما يعم جميع جماهيرها من الثياب الزرقاء. ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فيها؛ فأما آنذاك فقد صارت الكتابة والقراءة من المهارات الشائعة تمامًا. ويقدم إلينا يوآن تشوانج بيانًا ممتعًا عن جامعة بوذية عظيمة في نالاندا، كشفت أخيرًا خرائبها ورفعت عنها الأتربة. ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليميين كبيرين في زمان يرجع في قدمه إلى عهد فتح المدارس الفلسفية في أثينا. كذلك زار كهوف أجانتا التي مر الحديث عنها. وقد وجد يوآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده بوذا، ووجد نجم البراهمة في تألف وصعود لا ريب فيه. وهو يذكر الطوائف الأربعة الرئيسية التي ذكرنا[٢]. بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعًا ما. فهو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض. ويقول الكتاب الهنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة "المولودة مرتين" الأعلى منهم.

---

(١) كمالات البارامينا: هي فضائل الكمال المطلق مثل، العفاف والإحسان والصبر والحكمة، التي ينبغي أن يمارسها كل من تتوق نفسه إلى سلوك سبيل النبوة البوذية. (المترجم)

(٢) انظر المعالم ج ١ ص ٢٣٤ ط ٣. (المترجم).

ولكن كما سبق أن ألمحنا فإن بيان يوآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية يغمره مما كدسه فيه من الأساطير والمختلقات الورعة. فمن أجل هذه دون غيرها جاء، وبهذه كان يفرح ويغتبط. فأما ما عدا ذلك فواجب قد ألقي على عاتقه رغمًا عنه كما سنرى. فإن عقيدة بوذا التي ظلت إلى أيام أسوكا، بل حتى في زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka)، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهامًا نبيلاً، تتبدى لنا آنذاك تائهة في بيداء من الهراء غير المعقول، حيث تحولت إلى فلسفة تؤمن بوجود سلسلة لا نهاية لها من البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بتمثيليات عيد الميلاد الإيمائية (Pantomime)، وإلى إناث يحملن حملا إعجازيًا ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعامًا لنمرات جائعات، ومعابد مشيدة على قلامة ظفر مقدسة وما إلى ذلك من أشياء. ولسنا بقادرين أن ندلي بمثل هاته الأقاصيص هنا، فإن كان القارئ ميالاً إلى مثل هذا النوع من الأشياء، وجب عليه أن يرجع إلى مطبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية، حيث يجد طوفاناً من مثل هذا الهذيان. وذلك بينما البرهمانية قد أخذت تكسب الأنصار وتفوز بالتفوق من جديد في كل مكان في منافستها لهذه البوذية التي تقوضت فكريًا واختنقت تحت زخارفها المذهبة، كما لحظ ذلك يوآن تشوانج آسفاً.

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضمحلال فكري كبير في الهند، يجوز لنا أن نلحظ أيضًا تكرار الحديث عن المدن الخربة المهجورة في بيانات يوآن تشوانج. فإن شطرًا كبيرًا من البلاد لم يبرح يكابد من غارات الإفثاليين وسلبهم والفوضى المترتبة عليها. فإنا نجد مثل هذه الفقرة مرارًا وتكرارًا: "لقد ذهب شمالاً بشرق مخترقاً غابة عظيمة، وكان الطريق ممرًا ضيقًا خطرًا يكثر به الجاموس البري والفيلة البرية، ويتربص فيه اللصوص والقناصة على الدوام لقتل المسافرين، حتى إذا خرج من الغابة وصل إلى إقليم كوشيه ناكالو (كوزينا جارا). وكانت أسوار المدينة حطامًا خربة، بينما البلدان والقرى قد هجرها أهلوها. وكانت أسس مباني المدينة القديمة المبنية من الطوب، (أعني المدينة التي كانت القصبة) تمتد في دائرة يزيد محيطها على عشرة من الأميال الصينية (لي [1] Li). فأما عدد السكان فقد تضاءل إلى أقصى حد، حتى أصبح داخل المدينة خرابًا موحشاً". ومع ذلك، فلم يكن هذا الخراب عامًا بأية حال. إذ لا يقل عن ذلك كثيرًا ما يذكره الكاتب من المدن المزدحمة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة.

ويتحدث كتاب "الحياة" عما لقيه الكاتب من مشاق في طريق عودته؛ إذ وقع في أيدي اللصوص؛ وغرق الفيل الضخم الذي كان يحمل غالب متاعه؛ ولقي صعوبة كبيرة في الحصول على دابة جديدة. ولكن لا سبيل هنا إلى معالجة هذه المغامرات.

---

(1) لي Li: هو ميل صيني يساوي على الأرجح أكثر من ثلث ميل إنجليزي. (المترجم).

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كانت نصرًا مبينًا. فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقدمه. وأعلنت بالبلاد عطلة عامة؛ وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سرورًا بأنغام الموسيقى. وحف به الناس أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فخم حافل. واحتاج حمل مغانم رحلاته إلى عشرين حصاناً؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذيـة المكتوبـة بالسنسكريتية، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض؛ وحمل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة، وما بين ذهبية وفضية وبلورية أو من خشب الصندوق؛ وكانت معه صور مقدسـة، وما لا يقل عن مائة وخمسين أثرًا حقيقيًا مشهودًا بصحة نسبته إلى بوذا. وقُدِّم يوآن تشـوانج للإمبراطـور، فعامله معاملة صديق شخصي، وأخذه إلى القصر يسأله يومًا بعد يوم عن عجائب تلك الأراضي الغربية التي قضى فيها مثل ذلك الزمن الطويل. ولكن بينا الإمبراطور يسأل عن الهند، كان الحاج ميالاً ألا يتكلم إلا عـن البوذية.

ويحتوي ما يتلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثتين تلقيان الضياء على النشاط الفكري لهذا العاهل العظيم تاي تُسنج، الذي كان فيما يرجح مسلمًا بقدر ما كان مسيحيًا أو بوذيًا [1]. والعيب في كل المتخصصين في الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شئون دياناتهم الخاصة، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى؛ ولعل مزية – أو عيب – أولئك الساسة الخلاقين من أمثال تاي تسنج أو قسطنطين الكبير، أنهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبيًا. وواضح أن الخير الجوهري الكمين في هذه الديانات جمعاء كان يبدو لعين تاي تسنج خيرًا جوهريًا واحدًا لا يختلف في إحداها عنه في الأخرى. لذا كان من الطبيعي أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية، وأن يلتحق بوزارة الخارجية، وهو اقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحـدة. وعنـد ذلك أصر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره، وبذا حصل على هذا الأثر الأدبـي النفـيس الذي نكتنزه معتزين به. وأخيرا اقترح تاي تسنج على البوذي المتشبع تمامًا بمبدئـه أن يسـتخدم معرفتـه بالسنسكريتية في ترجمة مؤلفات المعلم الصيني العظيم لاو تزي (Lao-Tse) لينتفع بها القراء الهنود.

ولا مراء أن الإمبراطور رأى في ذلك ردا عادلاً للجميل وخدمة نافعة للخيـر الجـوهري الكـامن وراء الديانات جميعًا. ذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزي لا يقل عن بوذا إن لم يكن خيرًا منه. وإذن فلو أن عمله (مؤلفه) وضع تحت بصر البراهمة لتلقوه بالترحاب. وبنفس هذا الروح بـذل قسـطنطين الكبيـر قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما وديًا. وطبيعي جدًا أن مقترحه هذا قد رفضه يـوآن تشوانج. فإنه اعتكف في أحد الأديرة، وقضى بقية حياته مترجمًا بأسلوب صيني رشيق كل ما وسعه جهـده من الأدب البوذي الذي أحضره معه [2].

---

(1) يشيد الكتاب البوذيون بذكر تاي تسنج لاستقباله يوآن تشوانج (٦٤٥). بيد أن مؤرخي المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب مسجد كنتون، وكذلك فعل الكتاب المسيحيون من أجل ما لقيه المبعوثون النساطرة (٦٣١) ومن هنا جاء اسـتنتاج المؤلـف بمـا اجتمع في عقل هذا الإمبراطور من احترام لهذه الأديان الثلاثة. (المترجم).

(2) عن الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرهما من أقطار الغرب والشرق، انظر للمتـرجم: "التـاريخ وكيـف يفسرونه" : تأليف البان ورجري [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بماسبيرو]. (المترجم).

الفصل الثلاثون

محمد (ﷺ) والإسلام

١- بلاد العرب قبل محمد (ﷺ)

٢- حياة محمد (ﷺ) حتى الهجرة.

٣- محمد (ﷺ) يصبح نبيًا منافحًا.

٤- تعاليم الإسلام.

٥- الخليفتان أبو بكر وعمر.

٦- أيام عظمة بني أمية.

٧- انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين.

٨- الثقافة العربية.

٩- الفن العربي.

١- بلاد العرب قبل محمد (ﷺ)

سبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أَمَّ مجالس بلاط هرقل وقباذ وتاي تُسنج رسل من العرب، أرسلهم شخص معين هو محمد، "رسول الله"، المقيم في بلدة "المدينة" التجارية الصغيرة ببلاد العرب. وسنخبرك الآن من كان ذلك النبي الذي نشأ بين بدو الصحراء العربية وتجارها.

فمنذ أزمان سحيقة كانت بلاد العرب، عدا شريط اليمن الخصيب الممتد في الجنوب الغربي، أرض بدو رحّل، وهي المنبت الرئيسي للشعوب السامية. فمن بلاد العرب وفي أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشمال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق. وقد لاحظنا في هذا الكتاب كيف عمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلبت عليهم، وكيف مكن الفينيقيون والكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية، وكيف اتخذت الشعوب السامية حياة الاستقرار في بلاد بابل وآشور، وكيف غزا الهكسوس مصر، وكيف استقر الآراميون تمامًا في سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم، وكيف فتح العبرانيون "أرض الميعاد" فتحًا جزئيًا. وقد انتقل الكلدانيون في تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية، واستقروا في الأراضي الجنوبية السومرية القديمة. وكان كل غزو يُدخل في التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذاك. بيد أن كل واحدة من هذه الجماعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية في المستقبل بالرجال.

وتاريخ الإمبراطوريات الأعلى تنظيمًا في عهد الحصان والحديد: إمبراطوريات الطرق والكتابة، يظهر لنا بلاد العرب متمددة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات والدجلة، كما يصورها خزانًا للقبائل المترحلة التي تغير وتتجر وتتقاضى الجزية من أجل حصانة القوافل وحمايتها. أجل إنها تعرضت في بعض أيامها للخضوع لسلطان خارجي ضعيف مؤقت. وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد لتدعي على التعاقب شيئًا من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب، وتعلن عليها ضربًا لا أساس له من الحماية. وكانت هناك في عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى "بلاد العرب"، وكانت تتضمن إقليم حوران الذي كان خصبًا آنذاك وتمتد حتى البتراء (Petra). وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة مؤقتة من الرفعة كذلك كان حال أذينة (أوديناثوس البالميري) صاحب تدمر الذي ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة. وكانت بعلبك كذلك مدينة صحراوية أخرى بلغت رفعة مؤقتة ولا تزال خرائبها تدهش السائح.

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens): أعني المشارقة.

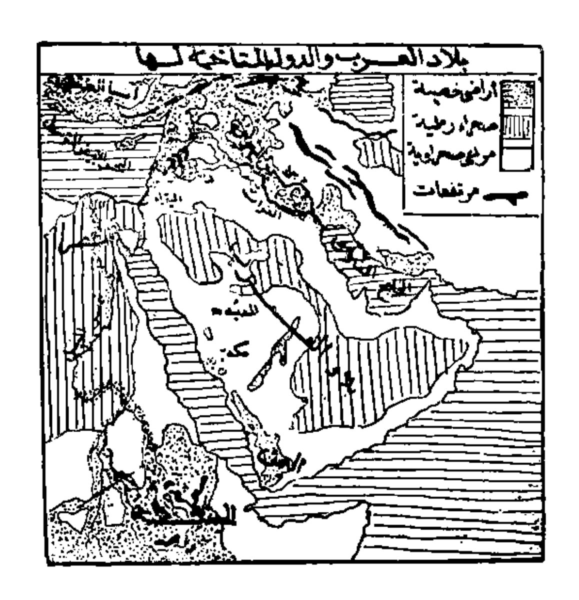
وفي أيام كسرى الثاني الملقب بأبرويز، ادعت فارس نوعًا معينًا من السيادة على بلاد العرب؛ وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب. وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش، وظلت قبل ذلك سبعة قرون وهي تحت حكم أمراء من بني جلدتها، يعتنقون الدين اليهودي، وهو أمر خليق بالملاحظة.

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادي أية أمارات على وجود أية قوة غير مألوف ة أو طاق ة خطرة في الصحراوات العربية. إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيـ ال طويلـ ة. فحيثمـ ا وجدت رقعة خصبة، أعني حيثما كانت هناك عين أو بئر، كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد في مـ دن مسوّرة، محاذَرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم في الصحراء. وكان المدن الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية، وكانت في طليعتها المدينـ ة (:يثـ رب) ومكة. وفي بداية القرن السابع كانت يثرب بلدًا يحتوي على ما يقارب ١٥ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها، فيما يحتمل عشرون أو خمسة وعشرون ألفًا. وكانت يثرب بلدًا أفضل نسبيًا من حيث المياه، بـه ـا أحراش نخيل كثيرة؛ وكان سكانها من اليمانية، أي من أهالي الأرض الخصيبة في الجنوب، أما مكة فمدينـ ة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذي طعم مرير ويسكنها بدو حديثو الاستقرار.

ولم تكن مكة مجرد مركز تجاري ولا كان ذلك أول وأهم صفاتها، بل كانت بمثابة حج للناس. فكان بـ ين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتمركز في مكة وبعض أماكن مقدسة أخرى؛ وكانت هناك أشهر حُرُم (هدنة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكـ رامهم. وقـ د نمـ ا بالإضافة إلى هذا عنصر أوليمبي [1] في هذه الاجتماعات. إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون في لغتهم مجالي الروعة والجمال، فكانوا يلقون القصائد الحماسية وأغاني الغزل. وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسـ هم "أمير الشعراء" للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز؛ وكانت الأغاني الفائزة بالجوائز تغنى في كل بلاد العرب.

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيقة القدم آنذاك. وهي معبد مربع صغير من الأحجار السوداء، حجـ ر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية. وكان هذا الحجر النيزكي يعد ربًا، وفي حمايته كل الآلهة القبلية الصـ غيرة ببلاد العرب. وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البدو؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سـ دنة لـ ه. فيأتيهم في الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسيرون حول الكعبة وفق طقوس دينية معيذ ة، فينحنـ ون ويقبلون الحجر، ويشتغلون كذلك بالتجارة وإلقاء المقطوعات الشعرية. وكان المكيون يجنون أكبر الفوائد من هؤلاء الزوار.

(1) نسبة إلى منطقة أوليمبيا اليونانية القديمة التي كانت تقام فيها المهرجانات. (المترجم)



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد العرب والبلاد المتاخمة لها

ولشد ما يذكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة عشر قرنًا. بيد أن وثنية هؤلاء العرب الأشد بدائية أخذت تتعرض للهجمات من جهات عدة. فأدخل العرب في دين اليهودية أفواجًا أثناء عهد المكابيين [1] والهيروديين ببلاد اليهودية (Judea)؛ وكانت اليمن، كما سبق أن ذكرنا، قد وقعت على التعاقب في حكم اليهود (أعني العرب المعتنقين لليهودية)، فالمسيحيين فالزرادشتيين. وواضح أنه لا مفر من حدوث الكثير من المناقشة الدينية أثناء انعقاد أسواق الحج في مكة وما شابهها من مراكز. وطبيعي جدًا أن تكون مكة هي معقل نحلة الوثنية القديمة التي وهبتها أهميتها ورخائها، فأما المدينة فهي من الناحية الأخرى ذات ميول يهودية، وتقع بالقرب منها مستقرات لليهود. فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينة في حالة منافسة وتنازع.

---

(١) المكابيون: أسرة يهودية ظهرت في القرنين ٢، ١ ق.م. وأسرة هيرود، حكمت في فلسطين في زمن المسيح عليه السلام. (المترجم)

٢- حياة محمد (ﷺ) حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م. ولد في فقر بالغ، وكان ضئيل الحظ من العلم، ولـ و قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أميا غير متعلم، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقًا [١]. وظل بضـ ع سنوات يشتغل بالرعي؛ ثم دخل بعدئذ في خدمة سيدة معينة اسمها خديجة، وهي أرملة تاجر موسر. ولعلـ ه كان يُعنى [٢] بإبلها أو يساعد في أعمالها التجارية. ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن [٣] وإلـ ى سـ وريا. والظاهر أنه لم يكن تاجرًا عظيم النفع لها في تجارتها، ولكنه أوتي من الحظ نصيبًا موفورًا، فأعجبـ ـت بـ ـه السيدة فتزوجته، فتضايقت [٤] من ذلك عائلتها تضايقًا كبيرًا. ولم يكن عند ذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين. وليس من المحقق أن زوجته كانت أسن منه بكثير، وإن أجمع التواتر على أنها كانت في الأربعين. والراجح أنه لم يقم بأية رحلات طويلة بعد الزواج. وولد له أطفال عديدون، كان اسم أحدهم عبد مناف [٥] – أي خادم الرب المكي "مناف"، وهذا يدل على أن محمدًا لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية [٦].

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش في مكة عيشًا عاديًا كبعل لزوجة ثرية وربما كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكًا في بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعي. فلو أن إنسانًا زار مكة سـ نة ٦٠٠ م لرأى فيه فيما يرجح شخصًا أشبه بالمترفين، شخصًا حييًا وسيم الطلعة، متنقلاً بين المجالس، منصتًا للحديث، وشاعرًا غير مجيد [٧]، ورجلاً ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم.

---

(١) علام الشك وأميته (عليه الصلاة والسلام) مقطوع بها بنص القرآن في مواضع متعددة منه. (المترجم).

(٢) المجمع عليه في الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم. (المترجم)

(٣) لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام سافر إلى اليمن لا للتجارة ولا لأي غرض آخر. والثابت المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين، مرة وهو حدث في حوالي الثانية عشرة من عمره في صحبة عمه أبي طالب وأخرى حينمـ ا كان في حوالي الخامسة والعشرين نائبًا عن السيدة خديجة (رضي الله عنها) في تجارتها. (المترجم).

(٤) قال الدكتور هيكل في كتابه "حياة محمد" ص ٨٤ ما نصه "فلم تبطئ خديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج – وزوجها عمها عمر بن أسد إذ كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار – مما يكـ ذب مـ ا يروى من أنه كان حاضرًا ولم يكن راضيًا عن هذا الزواج". (المترجم)

(٥) الثابت قطعًا أنه لم يولد له عليه الصلاة والسلام ولد بهذا الاسم. والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفر منذ صباه مـ ن كـ ل أصنام العرب. ولعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر فجعل من عبد مناف الجد الثالث للنبي عليه الصلاة والسلام اسمًا لأحـ د أبنائه. (المترجم).

(٦) وهل قال أحد بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام قد جاء بجديد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين عنـ دما جـ اءه الـ روح الأمين وهو يتحدث في غار حراء؟ وهل لا يعتبر نفور محمد ﷺ الطبيعي من الأصنام وكل ما يمت إليها بصلة من طقوس وقرابين وتعظيم إلخ من أمارات السمو الروحي الذي عرف به بين قومه من طريق تمسكه بكامل الصفات والأخلاق حتى لقبوه بالأمين، والذي حفزه إلى التفكير والتأمل والتحنث بحثًا عن الحق الذي هداه في النهاية إلى نهجه القويم حتـ ى هـ بط عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم. (المترجم)

(٧) معاذ الله أن يتصف النبي بقوله الشعر؛ والله نزهه عن الشعر في كتابه الكريم ولم ترو كتب السيرة الشريفة قط أنـ ه عليـ ه السلام قال شعرًا في صباه. (المترجم).

وليس في وسعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة إلا على سبيل الظن والتخمين. وقد اعتقد بعض متوق دي الخيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحي عظيم، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية. "ففي هدأة الصحراء ليلاً، وفي قيظ ظهيرة الصحراء نهارًا، عزف النبي نفسه كما يفعل الناس جميعًا وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش، ذلك أن الصحراء لله، وفي الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده" [١]. وربما كان الحال كذلك حقًا، ولكن لم يقم أي دليل [٢] على حدوث مثل تلك الر رحلات الصحراوية. ومع ذلك فإنه كان ولا مراء يفكر تفكيرًا عميقًا فيما حوله من أشياء. ويحتمل أنه رأى كن ائس مسيحية في سوريا [٣]؛ ويكاد يكون محققًا أنه كان يعرف الكثير عن اليهود ودي انتهم، وأن ه اس تمع إلى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذي كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمائة ببلاد العرب. ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الخنل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية في وثنية البلدة فضاق بذلك ذرعًا. وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق، دون أن يدرك ما حدث له[٤].

أخيرًا لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر في نفسه زمنًا أطول. فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمر كما هو واضح وإلى نفر قليل من أصدقائه المخلصين. وجاء بآيات معينة، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء. وكانت تحتوي على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقول ة عن البر والتقوى. كذلك أصر على وجود حياة في الدار الآخرة، وعذاب جهنم للمستهين والش رير، وجع ل الفردوس نُزُلا للمؤمنين بالإله الواحد. وفي ما عدا دعواه أنه نبي جديد، لا يبدو أن قد كان في هذه المب ادئ شيء بارز الجدّة في ذلك الزمان، بيد أن هذه التعاليم كانت في عرف مكة دعوة إلى الشغب والفتن ة، وه ي التي كانت تعتمد في بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلهة، والتي كانت لذلك مستمسكة بالأص نام ي وم كان سائر العالم قد أخذ ينبذها. وقد قال محمد ﷺ – كما قال ماني – بأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيس ى وإبراهيم كانوا معلمين قدسيين، ولكنه يكمل تعاليمهم ويختمها. وهو لم يذكر البوذية بأي حال، وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط باسم بوذا. فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة في الرك ود والت أخر م ن الناحي ة اللاهوتية.

---

(١) السير مارك سايكس.

(٢) المتواتر المجمع عليه أن ذلك حدث منه عليه السلام وإلا فأين حديث غار حراء؟ (المترجم).

(٣) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوريا لا يقوم عليه دليل إذ إنه لم يتعد في زيارتيه للشام مدينة بصرى محـ ط قوافل المكيين وهي في أقصى الجنوب الشرقي لفلسطين الحالية. (المترجم).

(٤) لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من اليهود فإن العرب ف ي ج اهليتهم الوثنية كانوا يعرفون الله الخالق وإنما كانوا يتخذون من الأوثان والأصنام في بداية أمرهم بها شفعاء في تق ربهم إل ى الله زلفى. فلما تقادم عليهم العهد سجدوا لها من دون الله مع ذكرهم لاسمه ومعرفتهم له وذلك ظاهر في أشعارهم وخطبهم في الجاهلية. (المترجم)

وظلت الديانة الجديدة بضع سنين وهي سر تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء، هم: خديجة زوجة النبي، وعلي ابنه المتبنى، وزيد وهو عبد، وأبو بكر وهو صديق معجب به. وظلت بضع سنين نحلة مغمورة في بيوت قليلة بمكة، كانت مجرد عبسة وزمجرة خافتة في وجه عبادة الأوثان، بلغ من خمول شأنها وضآلة أمرها أن زعماء البلدة لم يعيروها أدنى اهتمام. ثم أخذت تقوى ويصلب عودها. وأخذ محمد يجهر بالدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم. ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم. فبدا للكثيرين أنه إنما يهدف إلى إقامة نوع من الدكتاتورية في مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء والمتذمرين إلى جانبه. وبذلت قريش محاولة لتثبيط الحركة الجديدة والقضاء عليها.

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن؛ ولا يجوز سفك أي دم داخل أسوارها؛ ومع ذلك فإن القوم نغصوا عيش أتباع المعلم الجديد تنغيصًا شديدًا إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة. فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية. على أن النبي نفسه لم يمس بسوء – لما له من عزوة قوية تحميه، بينما لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثأر الدموي. وليس في إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح في هذا المقام. بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد، يقول عنها السير مارك سايكس "إنها تثبت أنه كان عربيًا صميمًا" فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله، عاد فداخله التردد. فجاء ساحة الكعبة وأعلن [1] أن أرباب مكة ورباتها، قد تكون قبل كل شيء حقيقية، وقد تكون ضربًا من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة.

---

(1) هذه قرية الغرانيق، وإن تعدد الصورة المروية للآيات المزعومة من "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى" أو "وإن شفاعتهن لترتجى" إلخ لمما يجعل تصديق الرواية مستحيلاً ناهيك عن أنه لا يعقل أن يمتدح القرآن أصنام قريش في بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستنكار في نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ ، إلخ؛ فإذا وضعنا ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى... (ثم أردفناها بقوله تعالى) ....، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا﴾ إلخ لكان المدح والذم لشيء واحد متتابعين، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذي لم يرو عنه أحد أقوالاً أو يسند إليه أفعالاً متناقضة متضاربة طوال حياته.

ولعل عدم ذكر ابن هشام شيئًا عن هذه القصة يشير إلى شيء هام وهو أنه يحتمل كثيرًا أن هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاعت في أيامه وبذلك تكون هذه القصة وضعية في تاريخ متأخر حشرت حشرًا في التفسير وغيره أنها تعليل لنزول آيات أخرى من غير تمحيص أو تحليل. (المترجم).

قوبل تراجعه بالحمية والحماسة من قريش، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم [كذا!...]، وذلك يدل على أن الخوف من الله – كان لا جرم – يملأ جوانب قلبه، فما بدر منه في حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته [1]. ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا!...]. فقال إن الشيطان تلبس لسانه [2]، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجدين. وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة، متأججًا على صورة أشد وأعنف، دون أي أمل آخر في الصلح.

وانقضت فترة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا. فوجد محمد نفسه بعد عشر سنوات من الرسالة رجلاً قد بلغ الخمسين من العمر، وأخفق إخفاقًا تامًا في مكة. وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت، وكان كثيرون من كبار أنصاره ماتوا أيضًا قبل ذلك بقليل. فخرج يلتمس الجوار في بلدة الطائف القريبة، ولكن للطائف ردته بالأحجار والسباب. حتى إذا أظلمت الدنيا في وجهه كأحلك ما تكون، انفتحت أمامه أبواب الحظ. إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب في مكان لم يكن له بحسبان. ذلك بأن يثرب (المدينة) كانت تمزقها الانقسامات الداخلية شر ممزق، وكان كثير من أهلها، اجتذبتهم تعاليم محمد أثناء موسم الحج إلى مكة. ولعل اليهود الكثيري العدد في المدينة زعزعوا في قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيقة. فأرسلت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة باسم ربه [3].

على أنه لم يذهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين، ويرسل الصحابة ليعلموا الناس في المدينة ويحطموا ما بها من الأوثان. ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة لكي يكونوا في انتظاره عند وصوله؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار مجهولين في مدينة غريبة. واستمر خروج المؤمنين هذا، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر [4].

وبالرغم من أنه كان مفروضًا أن مكة حرم آمن، فإنه أوشك أن يقتل هناك. وواضح أن كبار أهل مكة كانوا على علم بما كان يجري في المدينة، فأدركوا ما يحدق بهم من خطر لو تهيأ لذلك النبي الخارج عليهم أن يسيطر على بلد في طريق قوافلهم الرئيسي إلى سوريا. فلا بد إذن للعرف أن ينثني أمام الضرورة القاهرة؛ فأجمعوا أمرهم على أن محمدًا (ﷺ) يجب أن يموت، سواء أترتب على ذلك ثأر أم لم يترتب. فدبروا أن يقتلوه في فراشه، ولكي يشتركوا جميعًا في إثم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة، ندبوا جماعة منهم لتنفيذ ذلك يمثل أفرادها كل عشيرة في البلدة ما خلا بني هاشم عشيرة محمد. غير أن محمدًا كان دبر هجرته من قبل؛ فلما اقتحموا عليه حجرته في سدفة الليل، وجدوا عليًا ابنه المتبنى، نائمًا أو متناومًا في فراشه.

---

(1) وكيف يزل وهو المعصوم من الخطأ والواعي لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذي أخذ الله على نفسه حفظه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ من كل دعاية وكل سوء. (المترجم).

(2) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو اليعقوبي. (المترجم).

(3) ليس في شروط بيعة العقبة ما يؤيد الزعم بدعوته للحكم. (المترجم).

(4) الصحيح أنه بقي بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات، ما لبثوا أن نزحوا إلى المدينة بعد الهجرة. (المترجم)

وكانت الهجرة مليئة بالمخاطر؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة. وأخذ المدربون من قصّاصي الأثر في الصحراء يقصون مواطئ الجمال في شمال مكة؛ على أن محمدًا وأبا بكر انطلقا جنوبًا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤن مخبأة [1]؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة. حيث وصل النبي ومعه زميله الصدّيق؛ واستقبلا بحماسة كبيرة في ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ م. وكان في ذلك خاتمة ابتلائه وبداية صدولته وسلطانه.

(١) ما للمؤلف يتغاضى عما لابس الهجرة من آيات بينات أسهب فيها كتاب السيرة ولم يشذوا في تفاصيلها؟ أين نشاط المكيين في تعقب الفارين، وأين قصة الغار وبقائهما به أيامًا ثلاثة، وأين ذكر وقوف جماعة من المطاردين بباب الغار وارتدادهم عنه بفضل من الله الذي يتحدث عنه القرآن ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا** ﴾ وأين حديث سراقة الذي جد في طلبه هو وأبي بكر وما كان من غوص قوائم فرسه في الرمل وارتمائه من فوقها وطلبه الأمان من فريستيه المرموقتين لما وضع لرأسيهما من مكافأة مجزية، على أن يتكفل برد الطلب؟ ولكن ليس ينتظر منه – وهو غير المؤمن – أن يورد ما يثبت لمحمد عليه الصلاة والسلام الرسالة والنبوة؟ (المترجم).

٣- محمد (ﷺ) يصبح نبيًا منافحًا[١]

لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة، أي حتى أتم الحادية والخمسين من عمره، موضوع الحدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهل الرأي. فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ. وإنا لنستبين فيه رجلاً أوتي قوة تصورية هائلة، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب، ولها أغلب مزايا البدوي ونقائصه[٢].

وكان ابتداء حكمه "بدويًا محضًا". فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طرًّا – حسب تفسير محمد – بدأ بسلسلة من السرايا على قوافل [٣] مكة، دامت أكثر من عام كامل دون أن تلقى واحدة منها أي توفيق. ثم حدث حادث جلل، هو نقض الهدنة العتيقة المسنونة، هدنة الحلف العربي في شهر رجب الحرام. فإن جماعة من المسلمين في موسم السلم الأصيل هذا، هاجموا غدرًا قافلة صغيرة وقتلوا رجلاً. وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذي أصابوه، وقد أتوه بأمر النبي[٤].

ثم نشبت فور ذلك معركة. فإن قوة مكونة من سبعمائة رجل خرجت من مكة لتستقبل في الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها، فالتقوا بفئة مغيرة كبيرة عدتها ثلاثمائة. وحدث بين الطرفين قتال، هو معركة بدر التي انهزم فيها المكيون وخسروا خمسين أو ستين من القتلى وما يعادلهم من الجرحى. وعاد محمد إلى المدينة منتصرًا وقد ألهمه الله هذا النجاح، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود في المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود.

---

(١) عن غزوات الرسول وسراياه انظر كتاب "المغازي" للواقدي طبع جامعة أكسفورد وكلمة Fighting التي استعملها المؤلف لا تعني بالضرورة دائمًا كلمة "مقاتل" وقد اخترنا منافحًا لأنه أكثر الألفاظ انطباقاً على حالة النبي ﷺ وأصحابه وأنصاره في المدينة، إذ كانوا يذودون عن حقوقهم المسلوبة التي أنكرها عليهم المكيون، فقد أخرجوهم من ديارهم عنوة واستباحوا دماءهم وما كان لهم من مال وعتاد، وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن ورائه المهاجرون ليعبثوا بحطام الدنيا ومتاعها، لكنهم والأنصار معهم في صعيد واحد، ما كانوا لتهدأ لهم ثائرة حتى ينتزعوا من المكيين بالسلم أو بالحرب، بالمفاوضة والإقناع أو بالتهديد والبطش، حقوقهم المقررة كسائر الناس في حرية الرأي وحرية العقيدة وحرية العودة إلى الوطن. (المترجم).

(٢) حاشا أن تكون للنبي نقائص. فلئن كان البدوي إنساناً عاديًا، فإن النبي هو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى. (المترجم).

(٣) أنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها "غارات، وهي هي صفة المصادرة بعينها التي أقرها "القانون الدولي" وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية – عبقرية محمد للأستاذ العقاد ص ٦٤. (المترجم).

(٤) ينقل المؤلف ها هنا بعض أقاويل المستشرقين في سرية عبد الله بن جحش التي قال فيها الأستاذ العقاد ما نصه "فهي سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه... وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم، فأباه عليه السلام وقال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبي وساءت لقياهم بين أهل المدينة". ص ٧٨ عبقرية محمد. وظاهر من هذا أن هذه الفعلة لم تكن بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم. وتجمع كتب السيرة كلها على أن السرايا لم يكن القصد الأول والأخير منها غير دفع مكة إلى التسليم للمسلمين بالمدينة بحقوقهم التي ذكرناها آنفًا. (المترجم).

على أن مكة صممت على الانتقام لبدر، وأنزلت بأتباع النبي في معركة "أحد" بالقرب من المدينة، هزيمة غير حاسمة. وقد وقع النبي وكاد يقتل، وهرب كثيرون من أتباعه. ومع ذلك فإن المكيين لم ينتفعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة [١].

ثم تركزت كل طاقات النبي ردحًا من الزمان في استثارة أتباعه الذين كانت عزائمهم على ما يبدو قد أصابها الكثير من الفتور ويسجل القرآن الكريم المحنة التي كانت تمر بها المشاعر في تلك الأيام. يقول السير مارك سايكس: "وسور القرآن التي ترجع إلى هذه الفترة، تبز نظيراتها كلها تقريبًا في جلالها وروعتها ويقينها الرائع"، وإني لأقدم للقارئ هنا مثالاً يحكم عليه من تلك الآيات الجليلة نقلته عن الترجمة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا محمد علي [٢] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.﴾ (آل عمران).

---

(١) ما الذي يدل عليه انتصار موتور ثم تقاعسه عن أن يتابع المهزوم حتى يقضي عليه قضاء مبرمًا لا تقوم له بعده قائمة؟ ألم يكن المسلمون شوكة في ظهر المكيين وهذا النصر فرصة ذهبية للخلاص منهم نهائيًا؟ لا نحسب القارئ، وقد أغضى المؤلف عن هذه المسائل، إلا مدركًا لما بين السطور من أن المكيين قد تكلفوا في هذا النصر خسارة جسيمة أجبرتهم على الرضاء من الغنيمة بالإياب. وجدير بنا أن نقرر هنا أن المعركة في بدايتها وعندما حمي وطيسها كانت تتطور لمصلحة المسلمين وكانت الأحوال كلها توحي بأن المسلمين لا بد منتصرون، لولا أن الرماة بالنبل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على ربوة خلف المسلمين لحماية ظهورهم وأوصاهم ألا يغادروا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون قتلاً، نسوا وصيته عليه الصلاة والسلام حينما أبصروا المكيين يتزحزحون إلى الوراء تحت ضغط المسلمين فظنوا أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أولى بهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جنب إخوانهم، وعندها فطن خالد بن الوليد – وكان لا يزال على الوثنية وعلى رأس فرسان مكة – إلى أهمية الربوة فاستدار بفرسانه وفاجأ المسلمين برجاله من الخلف، وكذلك وقع المسلمون بين نارين، ومع ذلك فلم يهنوا ولم يضعفوا بل قاتلوا قتالاً مجيدًا وأنزلوا بأعدائهم خسارة أعجزتهم كلية عن السير في الشوط إلى نهايته. وهكذا يكون هذا النصر أشبه شيء بالهزيمة إذ لم يقض منه المكيون وطرا، ولم يشف لهم غلة، اللهم إلا قتل نفر من المسلمين وتروهم في بدر في كثير من أقيالهم. (المترجم)

(٢) وهي التي أصدرتها المجلة الإسلامية.

واستمرت المناجزات سجالاً غير فاصلة بضع سنين، وأخيرًا بذلت مكة آخر جهودها لكي تخمد إلى الأبد قوة المدينة النامية. فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل – وهي قوة هائلة بالنسبة للزمان والإقليم. وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تمامًا من المشاة والفرسان والجمّالة، ولم تكن مستعدة لأي شيء عدا مناوشات الصحراء العادية. وكان كل ما لديها من سلاح هو القسي والحراب والسيوف. فلما أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت غمامات هائلة من النقع وأصبحت بمرأى من أكواخ المدينة وبيوتها، فبدلاً من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستعدة للنزال كما كان منتظرًا، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيّرتها: هي خندق وسور. ذلك أن محمدًا احتمى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمشورة فارسي أسلم [1]!.

فبدا ذلك الخندق لعين الخليط البدوي أشد الأشياء مخالفة لأصول النزال الشريف والروح الرياضية القويمة. فداروا حول المكان راكبين. وأخذوا يتصايحون معبرين للمحصورين عن رأيهم في الأمر كله. وأطلقوا بضع سهام، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحشة. غير أنهم لم يصلوا في شأنها إلى قرار حاسم. فإن محمدًا لا يريد أن يبرز إليهم؛ وأخذت الأمطار تهطل، وابتلّت خيام الأحلاف وأصبح الطهي عسيرًا، ودب دبيب الخلاف بينهم في الرأي وأخذ صبرهم ينفد، ثم ذوى ذلك الحشد العرمرم مرة ثانية متفرقًا شراذم وثللا، دون أن يتلاحم مع المسلمين في معركة (٦٢٧). فتفرقت الجماعات شمالاً وشرقًا وغربًا وجنوبًا، وأصبحت ظللا من القتام وزال كل خطر لها. وكان بالقرب من المدينة قلعة لليهود، كان محمد مغضبًا من قبل عليهم، لما أبدوه من عدم احترام لعقيدته [2]. وكانوا أظهروا ميلاً إلى الانضمام إلى من خيل إليهم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المحتملون في هذا الصراع النهائي، هنالك أطبق محمد عليهم، وذبح كل الرجال وكانوا تسعمائة، وسبى النساء والأطفال. ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل، من بين المساومين على مشتري هؤلاء السبايا والعبيد. ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجيب أن انبعثت مكة بتحدٍّ فعّال لمحمد، وأخذ كبار رجالها ينضمون إليه واحدًا بعد الآخر.

---

(1) عن وصف إعداد ذلك الخندق وكيف شارك الرسول عليه السلام في حفره بنفسه انظر كتاب "المغازي" للواقدي طبع جامعة أكسفورد ص ٤٤٢ – ٤٤٥. (المترجم)

(2) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قريظة عهد نقضه أولئك عندما أحاطت الأحزاب بالمدينة إذ تراسلوا مع قريش وأخذوا يلقون الرعب في المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على جيوش المسلمين من الخلف. حياة محمد ص ٣٠١ طبعة أولى. سيرة ابن هشام جـ ٣. ص ٢٢٩ – ٢٧٤، وفيها ذكر للعهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبني قريظة ونقضهم لعهدهم الذي عاهدوا عليه وانحيازهم إلى الأحزاب وتهديدهم مؤخرة المسلمين بفتح ثغرة في تحصيناتهم للأحزاب ليثبوا منها على المسلمين وكل ذلك خيانة عظمى، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم يذكرهم بالعهد ويطلب إليهم التقيد به فقد أجابوا رسله بخلع النقاب والتنكر للمسلمين وسب الرسول علنا وإصرارهم على مؤازرة الأحزاب أحلافهم الجدد ضد المسلمين، فهل يرجى من أحد بعد هذا كله أن ينسى هذه الفعلة الشنيعة وألا يعاقب عليها بمثلها؟. (المترجم).

ولسنا بحاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاهدة التي انتهت آخر الأمر بمد سلطان النبي إلى مكة. وكاد ت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يُصلَّون، بدل أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس، كم ا كانوا يفعلون حتى ذلك الحين، وأن تكون مكة مركز الحج للدين الجديد. وما دام رجال مك ة ق د ضد منوا استمرار تدفق الحجيج إلى بلدهم، فالظاهر أنهم لم يكن يعنيهم كثيرًا، هل يجتمع الناس باسم إله واحد أم آلهة كثيرة. وأخذ اليأس من تحويل أي عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام يدب إلى محمد دبيبًا متزايدًا، فأنشأ يكف عن التشديد على فكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ربًا واحدًا. "فالله" قد أخ ذ يصبح شيئًا ربه الخاص به، وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيدًا بحجر الكعبة النيزكي، كما أخذ يبعد قليلاً؟ عن أن يكون ربًا وأبًا للبشرية جمعاء [١]. وكان النبي أظهر بالفعل ميلاً إلى أن يعقد مع مكة صد فقة، وها قد تمت الصفقة آخر الأمر. وكانت السيادة على مكة تستحق بذل هذا التساهل [٢]. ولسنا بحاج ة إل ى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين. وصفوة القول إن محمدًا دخل مكة ف ي ٦٢٩ سيدًا مطاعًا وحُطِّم صنم مناف – وهو الرب الذي سمي ابنه يومًا ما باسمه – فهوى تحت قدميه وه و يدخل الكعبة [٣].

([١]) إن هذا الذي نقله المؤلف هو رأي المستشرقين، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحد قط عن نصوص التنزيل الت ي تنص جميعها على الاعتراف بالأنبياء جميعًا وأن الله رب العالمين كافة. وكيف يسوغ لمحمد صد لى الله علي ه وس لم أن يختص نفسه بالله ربًا من دون الناس، وهو الذي يخفض جناحه للمسيحيين واليهود على السواء. ويستثنيهم من وصمة الكفر ويدعوهم أهل الكتاب أي (التنزيل من عند الله). وما ذلك إلا لأنهم يقرون لله بالعبودية كالمسلمين سواء بسواء. وإن يك ن المؤلف يقصد قوله تعالى ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**﴾ فذلك هو ما يتفق تمامًا مع وحدانية الله المجردة الت ي ظل يدعو إليها طوال رسالته والتي خاطب بها القرآن المسيحيين واليهود في مجتمع المدينة في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾. (المترجم).

([٢]) نسجل على المؤلف هنا هذا الاعتراف الصريح إذ إن ذلك يبين بجلاء ما كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يحرص عليه جد الحرص من حقن الدماء وغلبة العقل والحكمة فتثوب مكة إلى رشدها وتخلي بين المسلمين وبين حقوقهم المشروعة المباحة لغيرهم من حرية الرأي والعبادة دون عنت ولا إعنات. فلما وجد عليه الصلاة والسلام أن مكة قد أصمت آذانها وأعماها الكبر وصدها عن السبيل القويم وتمادت في طغيانها حتى حاولت قتله فلما فاتها ذلك أهدرت دمه، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة، وفيها حاول بكل ما أوتي من قوة أن يظهر لمكة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها وبمصالحها المادية عساها تفيق من غفلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف عن أذاهم وتتركهم وشأنهم يدعون إلى دينهم ويزاولون عبادة الله وحده على طريقتهم المثلى، ولكنها أبت إلا الاسترسال في غيها والمبالغة في كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما زال يفعل حتى كسرت شوكة مكة وتقوضت دعائم شركها وبان ضعفها فخفض لها جناح رحمته وبسط لها يد السلم التي انقبضت عنها من قبل يدها حمية واستكبارًا. ولعل القارئ إذا رجع إلى صلح الحديبية وما تم فيه واجد فيما ظهر به النبي عليه الصلاة والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إفاضة ما أوجزناه هنا. (المترجم).

([٣]) ليس بين أبناء النبي كما أسلفنا من يسمي بعبد مناف قط ولا ندري من أين جاء المستشرقون الذين نقل عنهم المؤلف بهذه الفكرة. (راجع مقدمة أسد الغابة في أخبار الصحابة وسيرة النبي وذكر أولاده وأزواجه). (المترجم).

ومن ثم أخذ سلطانه يمتد، وحدثت معارك وخدع ومذابح؛ بيد أن الغلبة كانت له على الجملة، حتى دانت له في النهاية بلاد العرب قاطبة؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب في ٦٣٢، انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو في الثانية والستين.

وليس في سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التي ختمت بها حياته بعد الهجرة غير القليل مما يفرق سلوكه العام عن سلوك أي شخص يجمع شتات الشعوب في كنف حكم ملكي موحد. والفارق الوحيد هو استعماله الدين الذي جاء به، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض. كان يستخدم الدبلوماسية ويداري تارة ويقسو ويشتد أخرى، أو يتساهل ويلين، حسبما تقتضيه المناسبة والظرف [1]، كأي ملك [2] عربي قد يوجد في مكانه؛ وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدرًا طفيفًا من الروحانية [3]. كذلك لم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف، خير أنواع الحياة ولا أسعدها. وهو يبدو حتى

---

(1) ما كانت المداراة ولا القسوة من صفاته البتة صلوات الله عليه، وإن المؤلف ليناقض نفسه في فصل تال حين يذكر قدرة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب صداقة الأصدقاء والاحتفاظ بهم، وهذا لعمري أمر لا يتأتى إلا لمن كان حقًا على خلق عظيم أبعد ما يكون من المداراة والقسوة، ولسنا نجد أبلغ في الرد على هذا القول من قول العلي الكريم في مخاطبة نبيه الأمين:

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾، وقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾. (المترجم).

(2) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأعرابي الذي قال للنبي "أنت سيدنا" فأجابه عليه السلام "السيد الله تبارك وتعالى". (المترجم)

(3) هذه تهمة يحب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة منهم وتعصبًا وقد دحضها الأستاذ الإمام محمد عبده، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه الله، ويتزود به. وأية روحانية أكبر من أخذ الناس جميعهم، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، أميرهم وحقيرهم بما شرعه القرآن الكريم من إقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله ونعني بذلك جهاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء الله، وتطهير النفس من أدران الفساد المادي وحملهم حملاً على نبذ الرذائل والتحلي بالفضائل وبخاصة الصدق والحلم والعلم والتواضع والرحمة والإخاء في الله والمساواة المطلقة والصبر وإنكار الذات ونبذ المادة وما تغري به، إلا بما يقوم بالأود ويقضي ضرورات الحياة، والإيمان بالله إيمانًا صادقًا صادرًا من أعماق قلب عامر بحبه عالم بأنه معه في السر والعلن ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾، ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ظل طوال حياته لا ينبي لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويضرب لهم الأمثال بنفسه قولاً وعملا فهو الصادق الأمين البر الرحيم الصابر المتوكل الخافض جناحه للمؤمنين، المؤثر على نفسه، الكاظم الغيظ، الواثق بربه، العامل بوحيه وأوامره. وقصارى القول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد لخصها الله تعالى في قوله ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ . ومن ثم حضه تعالى الناس على اقتفاء أثره وترسم خطاه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثير مما كان عليه الرسول صلوات الله عليه وما كان عليه أصحابه الأقمار النيرة من قوة روحية لا تغالب، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السموات الذي لا نجد له في الإنجيل والتوراة مؤهلات روحية أبلغ وأسمى وأبعد أثرًا مما جاء به عليه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله وأصحابه ومن دخل في دينه دون تفريق أو تمييز. (المترجم).

وفاة خديجة، يوم كان في الخمسين، الزوج المخلص لامرأة واحدة – ولكنه عاد عند ذلك – كما يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلو بهم السن [١] – فأظهر بالنساء اهتمامًا قويًا.

فتزوج زوجتين بعد وفاة خديجة، كانت إحداهما الصغيرة عائشة، التي أصبحت وظلت شريكته الأثيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه. ثم أضاف إلى أهل بيته عددًا من نساء أخريات، ما بين زوجات وإماء. وأدى هذا إلى كثير من المتاعب والاضطراب، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع، فإن هذه التعقيدات لا تزال تستلزم من المؤمنين الكثير من التفسير والنقاش.

وقد كان هناك مثلاً قصة حول السيدة عائشة؛ فإنها خُلِّفت في ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير بينما كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات؛ وذا صار لزامًا أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك[٢]. ثم نزلت الآيات أيضًا فيما غلب على بيت النساء هذا من تلهف على "الحياة الدنيا وزينتها" وعلى "التمتع بالرفاهية". ثم هبت عاصفة جدل قوية لأن النبي زوج في البداية ابنة عمته زينب بنت جحش من ابنه المتبنى زيد، ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا**﴾ أخذها النبي وتزوجها – ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل، إنما كان فقط بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقي. ﴿...**زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُ ؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**﴾ ومع ذلك فمن المحقق أن آية بسيطة في القرآن [٣] كانت تُغني عن هذه المظاهرة العملية الشديدة. وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد في الحريم بسبب

([١]) "ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الشهوات أن يجمع النبي إليه تسعًا من الفتيات الأبكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن إليه راضيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة. لكنه لم يتزوج بكرًا قط غير عائشة رضي الله عنها، ولم يكن زواجه بها مقصودًا في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة منهن – رضي الله عنهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة" (عبقرية محمد للعقاد، ص ٢٠٠ – ٢٠٢).

([٢]) يقول السير وليم موير تعليقًا على هذا الحادث ما ترجمته: "إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثيرت حولها". "حياة محمد". على أننا لا نجد ردًا أبلغ ولا أقطع للشك بيقين من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة النور) (المترجم).

([٣]) لم يكن الرسول كما تصور المبشرون "رجلاً يأخذ بعقله الهوى... فلم يعرف عنه. في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب. (حياة محمد) للدكتور هيكل.

المحبة الزائدة التي أظهرها النبي لجارية مصرية، ولدت له غلامًا [١] – وهو غلام كان يحنو عليه حنوًا شديدًا، ذلك أن لم يعش له واحد من أبناء خديجة. وكل هذه المتاعب المنزلية تمتزج أعظم امتزاج بتصورنا لشخصية النبي. وكانت – صفية – إحدى زوجاته يهودية [٢]، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل. إذ استعرض السبايا في آخر النهار، فراقت نظره وحملت إلى خيمته.

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد.

هذا وليس عدلاً أن نتخذ الغلو لنا رائدًا، فمن الناحية الأخرى هل تراك علمت قط بأن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة طوال حياتها – على أنها ربما كانت زوجة محبة. وأبو بكر شاهد أفضل، وهو لم يتردد قط في إخلاصه. كان أبو بكر يؤمن بالنبي، ومن العسير على أي إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر. وكذلك علي، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه. لم يكن محمد دجالاً بأية حال، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله [٣].

ويقول الأستاذ العقاد ما نصه: وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيدًا بن حارثة بأمره وعلى غير رضا منها، لأنها أنفت – وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول الله – أن يتزوجها غلام عتيق. هذه أيضًا لم يكن "للذات الحس" المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما، ولو كان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قول زيد وهي تأباه. فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدًا وشدد عليها في قبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه وغلاظها بالقول له كان زواج النبي بها "حلا لمشكلة" بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق. (عبقرية محمد ص ٢٠١) للعقاد.

([١]) انظر للرد على ذلك في حياة محمد ص ٤١٦، ٤١٧ للدكتور محمد حسين هيكل.

([٢]) "وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختارت الزواج منه عليه السلام" عبقرية محمد ص ٢٠٤. فكأنه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفًا يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كريم وذوق سليم ورحمة بالضعفاء. (المترجم)

([٣]) المفروض أن المؤلف لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأينا أن نترك هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويتجهوا إلى دحضه والرد عليه بما يعرفون عن نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من روحانية وقدسية وتواضع ورحمة إلى غير ذلك مما جمعه الله جلت صفاته في نعته نبيه العظيم بأنه لا ينطق عن الهوى، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكمله لرأيت أن المؤلف قد تنكب طريق الحق والإنصاف إذ لم تكن للنبي عليه الصلاة والسلام صفة واحدة مما تفضل بها المؤلف عليه، بل الأمر على النقيض من ذلك إذ كان النبي صلوات الله عليه الفضائل الكونية كلها في صورة حية كما أن القرآن الكريم الذي أنزل عليه قد نهى جزمًا وصراحة عن الرذائل كلها ومن بينها تلك التي عددها المؤلف ولا يمكن لعقل بشر أن يتصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام على ذرة مما نزل به القرآن خاصة وهو القائل "**أدبني ربي فأحسن تأديبي**". فضلاً عن أن أحدًا من الرواة لم يرو البتة أنه عليه السلام ند يومًا عما أدبه به ربه، ولا أن أحدًا من صحابته أخذ عليه يومًا شيئًا من هذا الذي ينتقده المؤلف، فكأن كل أعماله صلوات الله عليه كانت مما يقبله الذوق السليم في عصره. (المترجم).

ولئن كانت رغبته في صفية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية، فإن حبه لإبراهيم الصغير ابن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفي الطفل، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين خبروا عاطفة الحب ولوعة الحرمان.

وهو حين سوى التراب فوق القبر الصغير بيديه قال "**إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحي، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه**".

٤ – تعاليم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية [١] شيء، وصفة الإسلام – تلك الديانة التي أسس – شيء آخر. لم يناصب محمد يسوعًا أو ماني أي عداء. ولكن الإسلام هو الذي ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد المجوس الزرادشتية المنحلة، وهي الأمور التي يُعنى بها المؤرخ أعظم ما يُعنى، وسواء أكان الأمر بفضل النبي (صلى الله عليه وسلم)، أم بسبب صدف وملابسات معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها في الصحراء التي منها نشأ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة.

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام في آخر السنة العاشرة للهجرة. وعند ذلك ألقى على شعبه موعظة عظيمة، ينقلها إلينا التواتر كما يلي. وبدهي أن هناك خلافًا حول الألفاظ.. ولكن ليس ثمة نزاع في أن عالم الإسلام، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمائة مليون نفس، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحياته ويعمل بها إلى حد كبير. وسيلحظ القارئ أن أول فقرة في الخطبة تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء. وتجعل الفقرة الأخيرة منها، الزنجي المؤمن عَدْلا للخليفة. وربما لم تكن تلك الكلمة رفيعةً [٢] رفعة بعض أقوال يسوع الناصري، بيد أنها أسست في العالم تقاليد عظيمة، للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ. وقد أنشأت مجتمعًا أكثر تحررًا من أي مجتمع آخر سبقه، مما عمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي. قال:–

"أيها الناس: اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، كحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربًا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم – ثلاثة متوالية، ورجب مفرد الذي بين

(١) أسلفنا الرد على مزاعم المؤلف والمستشرقين فيما يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى داعيًا إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وقائده وهاديه فجميع أعماله هي السنة وجميع تصرفاته هي الأسوة وجميع أقواله هي الأحاديث النبوية الشريفة ولا يمكن عقلاً الفصل بين نبي رسول وبين رسالته النبوية. (المترجم)

(٢) للقارئ أن يحكم بعد أن يقرأ الخطبة، على روعة ألفاظها وعباراتها وما اشتملت عليه من جوامع الأخلاق ونبيل الأفكار ورفيع المبادئ. (المترجم)

جمادي وشعبان. أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحدًا تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله؛ واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا به أبدًا، أمرًا بينًا: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلّغت؟".

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قاطعًا مانعًا إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على روح يسوع. وكان مصدر قوّته الثالث تحديده الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة، وبيانه الصريح عن المغزى العرفي المحدود للأهمية المنوطة بمكة. وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سمٌّ خيِّاط مفتوحًا ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة. لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع. أو ديانة جوتاما في أيام حياة جوتاما، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير. ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ. ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة.

كان دينًا مليئًا بروح الرفق والسماحة والأخوّة؛ وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم؛ كان دين فطرة تحوي ما للصحراء من عواطف الفروسية؛ وكان يتوجه بمناشدته المباشرة إلى أشيع الفطر الغالبة على تكوين الرجال العاديين. وقد ناصبته اليهودية عداءً مريرًا، وهي التي اتخذت من الرب كنزًا عنصريًا تكتنزه لجنسها. كما تألبت عليه المسيحية وهي التي كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث وقوانين الإيمان والهرطقات التي لم يكن أي رجل عادي ليستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب؛ كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب ماني. ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) الذي كان يبشر به الرسول، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب بر وهدى وتقوى، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه – في عالم طافح بالتقلقل والخيانة والانقسامات التي لا تسامح فيها – على أخوّة عظيمة متزايدة بين رجال جديرين بالثقة في هذه الدنيا، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسرمدي المتواصل مع التسبيح والعبادة، على حين يكون فيه القدسيون والقسوس والملوك المعمدون لا يزالون يحظون بالدرجات العلا، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملذات البسيطة اليسيرة الفهم من أمثال تلك التي تتلهف عليها نفوسهم. وقد أوصل محمد (ﷺ) هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أن يلجأ إلى أية رمزية مبهمة ودون أي تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس.

٥- الخليفتان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد في محمد (ﷺ) فقط، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبي بكر. ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والخيال الخصب للإسلام البدائي، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته. ففي كل أيام حياتهما معًا كان محمد هو الذي يقول الشيء، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان. فإذا داخل محمدًا شيء من التردد [١] سارع أبو بكر إلى مساندته. كان أبو بكر رجلاً عامر النفس باليقين، خلوها من الشكوك، وكانت معتقداته تقطع قطعًا حاسمًا وتتمخض كسكين شاحذة – عن أفعال جازمة. وما يخالجنا إلا شديد التأكد في أن أبا بكر ما كان ليداري أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاغر ولا كان بحاجة إلى الوحي ليفسر للناس تصرفاته في حياته الخاصة [٢]. فلما أن مرض النبي بالحمى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى، كان أبو بكر هو الذي أعقبه خليفة له وإمامًا للناس، وكانت ثقة أبي بكر التي لا تتزعزع في الله وبره وهداه. هي التي منعت الشقاق بين مكة والمدينة؛ وهي التي أخمدت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة المجبية للصالح العام، وهي المسماة "حرب الردة"؛ وهي التي دعته أن ينفذ إلى سوريا حملة غزو كان النبي الراحل أعدها. ثم أنشأ أبو بكر، بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحزح الجبال وتلك البساطة النقية والعقل الراجح، ينصّب نفسه لتنظيم إخضاع العالم بأسره لحكم الله وإرادته – بجيوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربي – أخذًا بتلك الرسائل التي بعث بها النبي (ﷺ) من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك العالم.

وأوشكت المحاولة أن تؤتي ثمارها. ولو قيض للإسلام عشرون رجلاً من طينة أبي بكر وممن يصغرونه سنًا فواصلوا عمله لنجح على التحقيق في بلوغ تلك الغاية. وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزًا للإيمان والعزيمة، ولأنه لم يكن هناك في أي مكان آخر في العالم حتى حدود الصين، اللهم إلا في سهوب الروسيا أو التركستان، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لهم أي قوة من إيمان بحكامهم وزعمائهم. ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هرقل قاهر كسرى الثاني (أبرويز)، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمبراطوريته. وكانت فارس متردية في الحضيض الأوهد من دركات انحطاط الملكية. فإن قباذ الثاني قاتل أبيه لقي حتفه بعد حكم دام أشهرًا قليلة، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فملأت حياة القصر نشاطًا، ولكنها أضعفت قوة البلاد.

---

[١] سبق أن رددنا على المؤلف في مثل هذه النقاط فلا داعي للتكرار والعصمة للأنبياء في أداء الرسالة مكفولة بجميع النصوص المنزلة. (المترجم).

[٢] كل هذه أمور سبق الرد عليها فليرجع إليها القارئ.

ثم إننا لا ندري ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التي جاء بها الرسول ما دامت العقيدة لم تتأثر أولاً وأخيرًا بأي شيء مما يأخذه المؤلف ويدعيه المستشرقون وأعداء النبي والإسلام في قديم الزمان وحاضره. إن محمدًا هو رسول الإسلام وفكره ومتلقي وحيه وصاحب سنته، ولا يمكن أن تفضل الفروع الأصول. (المترجم).

ولم تنته الحرب بين فارس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبي بكر. وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام؛ وانتشرت في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتنصرين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس؛ وكانت مناطق التخوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربي تابع للفرس، مقر إمارته الحيرة. وكان سلطان العرب قويًا في مدن من أمثال دمشق، حيث كان السادة من مسيحي العرب يقرءون وينشدون أحدث ما ينتجه المتبارون من الشعراء في الصحراء من القصيد. وبهذا كانت في متناول الإسلام مقادير وفيرة من المواد اليسيرة التمثل مهيأة لتقبل دعوته.

والحملات العسكرية التي بدأت عند ذاك من ألمع ما خلّد تاريخ العالم. فقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستانًا مونقًا من رجال ممتازين ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في نخبة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء. فحيثما حل قائدًا لجيش كان النصر حليفه، ولما أن دفعت الغيرة الخليفة عمر بن الخطاب إلى خلعه – ظلمًا منه لا يغتفر – لم يحدث أية ضجة، بل راح يخدم الله في سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيرًا عليهم [1]. ولسنا بمستطيعين أن نتتبع قصة هذه الحروب ها هنا؛ وبحسبنا أن نقول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس بين أمور ثلاثة: فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تؤمن بالله الحق وتنضم إلينا، وإما أن تقتل. فالتقوا بجيوش كثيرة، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها. ولم يحدث في أي مكان أن قوبلوا بشيء اسمه المقاومة الشعبية. فإن سكان أراضي الري والزراعة الآهلة في أرض الجزيرة بالعراق، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو برسبيوليس [2] أو المدينة؛ فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي وبين العرب، كان العرب، أعني عرب السنين العظيمة، أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلاً. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود. وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق، إذ كان الغزو يتحول إلى ثورة اجتماعية. ولكنها كانت ها هنا ثورة دينية أيضًا لها حيوية ذهنية جديدة متميزة.

---

(1) يقول شورتز في تاريخ العالم (هلموت) إن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوي على وصمة. فإنه ارتكب الفسق وهي خطيئة خطيرة في مجتمع يبيح تعدد الزوجات. (المؤلف)

ولكن المعلوم أن هذه الحادثة التي يعدها ولز فسقًا قد عرضت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو من نعلم في ورعه وتقواه فلم يرها كذلك وأقر خالدًا على تصرفه. وفضلاً عن هذا لم يكن ما حدث من عمر رضي الله عنه عن غيرة ولا ظلم؛ ذكر ابن الأثير أن عمرًا رضي الله عنه استدعى خالدًا إلى المدينة بعد العزل، فلما وصلها وفد على عمر شكاه، وقال قد شكوتك إلى المسلمين، فبالله إنك في أمري لغير مجمل، فقال له عمر "من أين هذا الثراء؟ قال من الأفضال والسهمان ما زاد على ستين ألفًا فلك، فقوّم عمر ماله فزاد عشرين ألفًا فجعلها في بيت المال، ثم قال: "يا خالد؛ والله إنك علي لكريم وإنك إلي لحبيب" وكتب إلى الأمصار: "إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به، فخفت أن يتواكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بمعرض فتنة" وعوضه عما أخذ منه.

تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ هـ). (المترجم)

(2) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من مدينة شيراز الحالية، غير بعيد من مجرى نهر البلوار واسمها عند المؤرخين العرب اصطخر. (المترجم)

وكان خالد هو الذي قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك، وهو أحد روافد الأردن. إذ كانت الكتائب – شأنها على الدوام – خلوًا من القدر الكافي من الفرسان الصالحين؛ فكأن طيف كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثًا دون أن يتعظ بمصرعه أحد؛ فكادت الجيوش الإمبراطورية تعتمد في أعمال الخيالة على الجنود العربية المسيحية الحليفة، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التقى الجيشان. وأقام الجيش البيزنطي موكبًا عظيمًا من القساوسة والرايات المقدسة والصور والآثار القدسية، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بتراتيلهم. ولكن الآثار لم يكن لها أي سحر، كما أن الاعتقاد في الترتيل كان ضئيلاً فأما في الجانب العربي، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش بخطبهم وانطلقت أصوات النساء في المؤخرة بالزغاريد تشجيعًا لرجالهن حسب العادة العربية القديمة. وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان يتلألأ أمام نواظرهم أمران: النصر أو الفردوس. ولم يعد في نتيجة المعركة أدنى ريب بعد انحياز الراكبة غير النظامية. وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشتيتًا لم يلبث أن تحول إلى مذبحة. وكان الجيش البيزنطي يحارب وظهره إلى النهر، الذي أصبح للوقت مليئًا بأشلاء قتلاه.

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى عن سوريا شيئًا فشيئًا لأعدائه الجدد، بعد إذ لم يمض على استرداده لها من يد الفرس إلا زمن قصير. وسرعان ما سقطت دمشق، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية. ثم اضطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهد آخر بذلته القسطنطينية لاستردادها، على أنهم ما لبثوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكثين بها إلى آخر الدهر.

وفي نفس الوقت حدث في الجبهة الشرقية، بعد أن أصاب العرب نجاحًا ابتدائيًا سريعًا استولوا به على الحيرة، أن اشتدت مقاومة الفرس. وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملوك جديد، واكتشاف قائد ذي مقدرة هو رستم. فالتحم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧). وكان جيشه جحفلاً مخلّطًا كالذي اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذي هزمه الإسكندر في إسّوس. كان خليطًا من المجندين، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلا حربيًا، وجلس على عرش ذهبي من فوق منصة مرتفعة خلف الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المعركة ويشرف عليها، وهذا العرش يذكر القارئ بهيرودوت والهلس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألف سنة. واستمرت المعركة ثلاثة أيام. وكان العرب في كل يوم يهجمون، فيصمد الجيش العظيم الفارسي في مكانه، حتى يسدل الليل ستاره آمرًا بالهدنة، وتلقّى العرب في اليوم الثالث أمدادًا، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاسمة، بأن قاموا بهجوم بالفيلة. ولقد جرفت تلك الوحوش الهائلة في مبدأ الأمر كل شيء أمامها؛ ثم جرح أحدها جروحًا أليمة، فجن جنونه وأخذ يندفع هنا وهناك بين الجيشين، وانتقل الذعر منه إلى الفيلة الأخرى؛ واستمر الجيشان مصعوقين فترة من الزمان في أصيل شمس الغروب، وهما يلاحظان الجهود الجنونية التي تبذلها هذه الوحوش الشهباء الصارخة كي تهرب من جموع الرجال المسلحين المعذبة لها والتي أحاطت بها من كل جانب. وقد حدث بمحض الصدفة أن الفيلة خاضت في الجيش الفارسي آخر الأمر ولم تخض صفوف العرب، وإن كان العرب هم الذين قيض لهم أن يهجموا هجمة فعالة في الصميم على أثر الفوضى التي وقعت في صفوف أعدائهم. وبعد الغسق أطبقت ظلمة الليل، ولكن الجيوش لم تتباعد هذه المرة. وظل العرب الليل كله يكيلون الضربات لأعدائهم باسم الله، ويضغطون على الفرس

المحطمين المتقهقرين وبزغ الفجر وفلول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من الفوضى وبقايا المعركة المتناثرة. وكانت تلك الفلول تمضي في طريق مملوء بالأسلحة المتناثرة والأدوات الحربية، وكثير من دواب ومعدات الحمل والموتى والذين في النزع. فأما المنصة والعرش الذهبي فقد تكسّرا، وكان رستم صريعًا بين كومة من الموتى.



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

وكان أبو بكر قد مات من قبل في ٦٣٤، فتولى الخلافة من بعده عمر وكان حَمًى للنبي [1]. وقد أنجزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٦٣٤ – ٦٤٤). فطردت الإمبراطورية البيزنطية من سوريا طردًا تامًا. على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس. واجتيحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزيرة، كما فتحت فارس وراء النهرين. وانتقلت مصر انتقالا يكاد يكون سلبيًا من يد الروم إلى العرب [2]، وبذلك استطاع الجنس السامي في بضع سنين، باسم الله ورسوله، أن يسترد تقريبًا كل الأقاليم التي خسرها للفرس الآريين

([1]) ورد في الأصل Brother- in -Law أي عديل النبي أو شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبت هنا، حيث تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر. (المترجم).

([2]) إن فتح العرب لمصر عزل الحبشة عن سائر العالم المسيحي، ثم يظل العالم بعد ذلك ألف عام دون أن يسمع شيئًا عن هذه البلاد النائية التي بقيت على المسيحية. وفي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت في روما فجأة بعثة حبشية تستعلم عن بعض نقط معينة تتعلق بالعقيدة المسيحية. وكانت تشيع في العالم المسيحي أسطورة عن بلاد مسيحية عظيمة في الشرق هي بلاد بريسترجون أي القديس يوحنا. والظاهر أنها قامت على قصص محرفة عن الحبشة ومختلطة بأقاصيص أخرى عن زعماء من المغول تنصروا على أيدي النساطرة. (المؤلف).

قبل ذلك بألف سنة. وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتمل الحصار، وبـ ذلك حدث أن "الصليب الحق" الذي حمله الفرس قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيـ رة انتقـ ل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى. على أنه ظل باقيًا في أيد مسيحية؛ ونصت المعاهدة نفسها أن يـ نعم النصارى بالتسامح في مقابل دفع الجزية على الرءوس فقط؛ وتركت الكنائس بأسـ رها والآثـ ار والـ ذخائر المقدسة بأجمعها في حوزتهم.

واشترطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطًا عجيبًا. فإن المدينة أبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه. وكان الخليفة حتى ذلك الحين مقيمًا في المدينة ينظم الجيوش ويدبر شئون القتال عامة. فحضر إلى بيـ ت المقـ دس (٦٣٨)، على أن طريقة حضوره والحالة التي وجدها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التي أوهن النجـ اح بهـ ا بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها. جاء في رحلة طويلة أمدها ستمائة ميل ومعه تابع واحد ليس غيـ ر؛ وكان راكبًا جملاً، وكانت عدته في السفر كيسًا صغيرًا من شعير وآخر من تمر وقربة ماء وجفنة من خشب. واستقبله قواده الكبار خارج المدينة، وهم يرتدون أثوابًا فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياد مزركشـ ة السروج والأعنّة. وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب. فانزلق من رحله، وجمع بيديـ ه الثرى والأحجار، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأنقين وهو يصيح بهم سبابًا. فلماذا كانت هذه الإهانة؟ وما معنـ ى هذا التأنق؟ وأين المقاتلون الأشداء؟ وأين رجال الصحراء الخشنون؟ إنه ليأبى علـ ى هـ ؤلاء "الطـ واويس" المتأنقين المعجبين بأنفسهم أن يسيروا في معيته. فواصل المسير مع تابعه، وسار الأمراء المتأنقون من خلفه عن بعد، خارج مجال قذفه إياهم بالأحجار. التقى منفردًا ببطريرك بيت المقدس، وهو الذي تملك المدينة فيما يظهر من حكامها البيزنطيين. وأخذ يتعامل والبطريرك على ما يرام فطافا معًا بالأمـ اكن المقدسـ ة، وأنشـ أ عمر، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوي الثياب الفاخرة.

ومما له دلالته كذلك على نزعة ذلك الخليفة رسالة عمر إلى أحد عماله – وكـ ان ابتنـ ى لنفسـ ه قصـ رًا بالكوفة – يأمره فيها أن يهدمه ثانية.

كتب إليه يقول: "بلغني أنك شئت أن تحاكي إيوان كسرى [1]، وأنك شئت أن تحيط نفسك بالأبواب التـ ي كانت له، أفترغب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى من حراس وحجاب؟ أم تريد أن تباعـ د بينـ ك وبـ ين المؤمنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجابًا؟ أم تريد أن تخالف سنة "النبي"، وتصير إلى ما كان عليـ ه ملوك الأعاجم من الأبهة والفخامة، فتردى في نار جهنم كما تردوا؟" [2].

---

(١) بمدينة طيشفون.

(٢) نقلاً عن: Schurtz in Helmolt's History of the World.

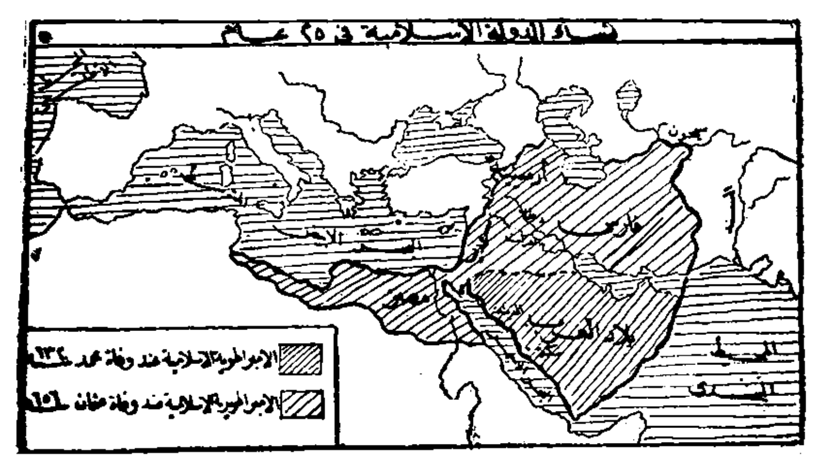
٦- أيام عظمة بني أمية

كان أبو بكر وعمر بن الخطاب [١] أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام. لا يتسع المجال هذا لوصف الحروب التي تم بها في خمس وعشرين ومائة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وإسبانيا، ومن قشْغَر على حدود الصين إلى مصر العليا. وبحسبك خريطتين لتبيان المدى الذي دفع به الباعث القوي للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربي قبل أن استطاعت النزعة الدنيوية أي روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريري، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لذكاء العرب وإرادتهم. وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربي العظيم في آثار خطى يوآن تشوانج، وكيف تم في سهولة بإفريقية أن فتوح الوندال السهلة قد كُررت في الاتجاه المضاد أعني من الجنوب إلى الشمال، وإذا خامرت القارئ أية أوهام مضللة في أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هلّينية أم مصرية، غمرها هذا الفيضان الجديد، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته الفكرات من عقله كان ذلك خيرًا له. فإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت تلك الأيام تقديمه. لقد ساد لأنه كان يجد في كل مكان شعوبًا تبلد حسها سياسيًا، تُسلَب وتُظلم وتُخَوَّف ولا تُعلم ولا تُنظم، كما وجد حكومات أنانية سـ قيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال. كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعلي في العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب الجمهرة الغفيرة من البشرية عامة نظامًا أفضل من أي نظام آخر سبقه. وكان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الإمبراطورية الرومانية، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوربا، قد انحلت انحلالا تامًا وانهارت قبل أن ينشأ الإسلام. ولم يحدث أن دب دبيب الانحلال في الإسلام أيضًا، إلا عندما ضاعت ثقة البشرية في إخلاص ممثليه.

ولقد تبددت معظم طاقته في غزو بلاد فارس والتركستان وتمثُّلهما. وكانت أقوى طعناته هي الموجهة من فارس نحو الشمال والمنطلقة إلى الغرب عبر مصر. ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية، فلا شك في أنه كان مستطيعًا انتزاع القسطنطينية حوالي القرن الثامن والوصول إلى قلب أوربا بنفس السهولة التي وصل بها إلى هضبة البامير. حقًا إن الخليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (٦٧٢ – ٦٧٨)، وكذلك فعل سليمان (٧١٧، ٧١٨)؛ بيد أن الضغط لم يدعم ولم يتواصل، وظلت الإمبراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصنًا متداعيًا يدفع الشرق عن أوربا. ولا جدال أن الإسلام كان يستطيع على التحقيق أن يجد في المنتصرين حديثًا أو الباقين على الوثنية من آفار وبلغاريين وصربيين وصقالبة وسكسون – رجالاً مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى. ومع أنه بدلاً من الاستمساك بالاستيلاء على القسطنطينية، دار إلى أوربا أولاً بطريق إفريقية وإسبانيا الملتوي البعيد، فإنه لم يصادف إلا في فرنسا في نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيقاف تقدمه.

---

(١) درج كتاب الغرب على تسمية هذا الخليفة باسم عمر الأول، وتسمية عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي باسم عمر الثاني (المترجم).



(شكل ١٣٠) خريطة نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عامًا

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الجديدة منذ البداية. فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخب في المدينة للخلافة بطريقة شكلية غلب فيها الصياح، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالث، على أن ثلاثتهم كانوا مكيين من أسر عريقة. ولم يكونوا من رجال المدينة. ومع أن أبا بكر وعمر كان رجلي بساطة وتقشف مطلق واستقامة، فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة، وهو رجل من طراز أصحاب الثياب الحريرية. فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب، وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب، وبالأخص لنفسه هو وللمكيين ولعشيرته الأقربين بني أمية. كان رجلاً ذا مكانة شريفة، نصب نفسه لخدمة وطنه وبلدته وقومه. ولم يسلم مبكرًا كما فعل سلفاه الأولون[1]. وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عملية أخذ وعطاء عادلة [كذا!...] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلاً عجيبًا له شخصية مدهشة متوقدة، ويصبح ملكًا شرقيًا، ككثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد، ملكًا لا بأس به إذ قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئًا.

وإن حكم عثمان ومقتله ليبرزان بوضوح عواقب ما حدث في عهد النبي[2]، بمقدار ما شهدت حياة أبي بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جذوة قدسية. إذ كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يلجأ إلى الدبلوماسية في أوقات كان أبو بكر يجنح فيها إلى الصلابة، وكان العنصر الجديد من الجشع الأرستقراطي الذي ظهر بتولية عثمان أحد ثمرات تلك التصرفات الدبلوماسية. وكانت عواقب ذلك الحريم، حريم النبي المتجمع من غير تمحيص، والمنازعات والغيرات العائلية التي استكنّت خلف أمور المسلمين أثناء حكم

(1) الصحيح أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن عثمان أسلم قبل عمر وثلاثتهم من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكلهم من المهاجرين المخلصين لله وللرسول ولم يكن لأحدهم بغية خاصة من وراء إسلامه فقد ضحى كل منهم في سبيل الإسلام بالنفس والنفيس وتحمل آلام التعذيب والتشريد والفقر والمهانة من أجل عقيدته ودينه. وعن عثمان بن عفان وفضله على الإسلام والثورة التي أدت إلى مقتله، انظر الموسوعة العربية الميسرة. (المترجم).

(2) أسلفنا عليك القول في تفنيد تلك المزاعم بما فيه الكفاية. (المترجم)

الخليفتين الأولين، قد أخذت تتسلل إلى ضوء النهار. فإن عليًا وهو ابن عم النبي وابنه المتبنى[1] وزوج ابنته فاطمة، كان يعد نفسه صاحب الحق في الخلافة دون سواه. وكانت ادعاءاته تيارًا خفيًا يترقرق معبرًا عن امتعاض المدينة، وعشائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بني أمية. ولكن عائشة زوجة النبي الحظية، كانت تغار على الدوام من فاطمة وتعادي عليًا. فانحازت إلى عثمان... وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة في حمأة هذا النزاع والمناوشة بين الوراث والأرامل[2].

وفي ٦٥٦ رجم جماعة من الرعاع عثمان – وهو شيخ في الثمانين – بالأحجار في شوارع المدينة ثم طاردوه إلى منزله وقتلوه. وأصبح عليٌّ آخر الأمر خليفة لكي يقتل بدوره هو أيضًا (٦٦١). وفي إحدى معارك هاته الحرب الأهلية ميزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزًا شجاعة حادة الطبع، بأن قادت [3] ضد عليّ معركة وهي في هودج على جمل. فأسرت وأحسنت معاملتها.

([1]) لم يتبن النبي صلى الله عليه وسلم عليًا وإنما هو قد ضمه إليه؛ وهو ابن عمه أبي طالب، في أيام اشتدت فيها الأزمة على الناس وفعل مثل ذلك العباس بجعفر بن أبي طالب تخفيفاً عن أبي طالب لكثرة عياله حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيًا فاتبعه وآمن به وصدقه. (المترجم).

([2]) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تأخر علي كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر بما عده الشيعة سندًا لأحقيته في الخلافة دون أبي بكر وعمر وعثمان؛ فإننا نبادر إلى القول بأن عليًا إنما تأخر عن بيعة أبي بكر لا لأنه يرى أحقيته في الخلافة، وإلا لظل طوال حياته دون مبايعة، وإنما كان ذلك منه لأنه استنكر أنه يبرم الأمر من دونه ومن دون بني هاشم فلما تبين له إجماع المسلمين دخل في الجماعة وبايع. فأما أمهات المؤمنين فما أبعد هذا القول فيهن عن الصحة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعقد على واحدة من زوجاته إلا لسبب هام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير، فبعضهن كان زواجه منها بسبب التشريع كما حدث في حالة زينب بنت جحش مثلاً، وبعضهن كان زواجه منها للتآلف وإحكام الروابط كما حدث في حالة حفصة. وبعضهن للوفاء لهن بما يكفيهن شر العيلة مثل أم حبيبة مثلاً إلخ. فإن أردت الاستزادة فعليك بكتب السيرة ففيها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمحيص، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضي الله عنهن غرض يهدف إليه، ويضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شئون الدولة إطلاقًا لا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعده. وما كان خروج عائشة رضي الله عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعلي كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن عليًا لم يكترث لدم عثمان المطلول فخرجت معهما. حتى إذا مرت بالحوأب واشتد نباح كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلما ذكر على مسمع منها وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أيتكن تنبحها كلاب الحوأب إلخ" صرخت وأبركت الجمل وهمت بالرجوع وظلت مكانها حتى تصايح الناس بإشراف علي كرم الله وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلى البصرة وهذا الخروج من جانب عائشة رضي الله عنها لم يكن منها إلا حفاظًا على الدم المطلول ومطالبة بمعاقبة المجرمين وإن كانت قد خدعت بهذا الأمر وعميت عليها الأغراض الحقيقية للذين حفزوها على الخروج معهم. والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شيخوخة عثمان وتسلط بني أمية في إقامة على شئون المسلمين تسلطًا أسخط الناس (انظر الموسوعة العربية الميسرة). (المترجم).

([3]) هي لم تقد المعركة وإنما كان هودجها في وسطها لأن أنصار طلحة والزبير أبوا إلا الالتفاف حول الهودج بزعم الدفاع عنه (المترجم).

وبينما كانت جيوش الإسلام تتقدم منصورة في غزوها المظفر للعالم، أصلبها هذا الداء، داء الحرب الأهلية بضربة على أم رأسها. ماذا كانت قيمة "حكم الله في العالم" لدى عائشة، ما دامت تستطيع أن تقضي على فاطمة الممقوتة؟ وماذا كان يجني الأمويون وأتباع عليٍّ على السواء من وحدة البشرية، وقد قام بينهم مثل ذلك الثأر العظيم الحار الذي يتلهون به ويتسلون والذي الخلافة هدفه وغنيمته في النهاية؟[١] لقد انقسم العالم الإسلامي شطرين، قسمته الضغائن والجشع والسخافة الحزبية لحفنة من رجال ونساء في المدينة. ولا يزال هذا الشقاق قائمًا إلى اليوم. فإن هناك حتى يومنا هذا قسمًا رئيسيًا من المسلمين هم الشيعة ممن يدينون بفكرة حق علي الوراثي في الخلافة "كمادة رئيسية في عقيدتهم"! وهم منتشرون في فارس والهند.

ولكن شطرًا آخر يعادل هؤلاء في الأهمية هم "السنيون"، الذي لا يسع المراقب المحايد إلا أن يوافقهم على آرائهم، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة. ونحن – على قدر ما نستطيع أن نستنتج على بعد الزمان بيننا وبينهم – نرى أن عليًا كان فردًا عاديًا جدا.

ومراقبة هذا الصدع يتمشى في بداية الإسلام البديع الرائعة، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطرق إلى عقله الضعف. وإنا لنحيل القارئ إلى "الأدب" [٢] الكثير المدون في هذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن علي سممته زوجته، وكيف قُتل أخوه الحسين. ولسنا نتجاوز أن نذكر اسميهما في هذا المكان، لأنهما لا يبرحان يمدان قسمًا كبيرًا من البشرية بمجال مفعم بالعواطف التشيعية والامتعاض المتبادل. وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة. وقد أحرقت الكعبة البيت العتيق بمكة بين غدو المصادمات الناشبة بين مختلف الأطراف ورواحها، وطبيعي أن تبتدئ لشأنها في أثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين. فهل يجب أن يعاد بناؤها في نفس هيئتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيرًا؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه، كيف أن الكفاح الحتمي لهذا الدافع الجديد، الذي هو أحدث الدوافع وآخرها، والذي يدعو إلى الوحدة في الشئون العالمية، والذي يكافح ما ركب في البشرية من نزعات دنيوية؛ ورأينا كذلك كيف أن دار النبي بما سادها من تقلقل وتعقيد كانت منذ البداية أشبه الأشياء بتركة مثقلة بالأعباء في العقيدة الجديدة[٣]. ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم العادية والمؤامرات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية، فإن دارس التاريخ سيدرك نقطة جوهرية ثالثة في إصلاحات محمد

---

(١) يبلغ من شدة إعجاب المؤلف ببداية الإسلام واندفاعاته الأولى وهي معجبة فعلاً، أن يتسخط هذا السخط البالغ على الخلافات التي نشبت بين كبار القادة. ولكن المؤلف يغلو ويقسو وينسب الأشياء إلى غير أسبابها الحقيقية كاعتقاده الخاطئ في غيرة عائشة من فاطمة. (المترجم).

(٢) يقصد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التي ظهرت حول ذلك الموضوع، فالأدب هنا مستخدمة بمعناها العام الواسع. (المترجم).

(٣) وما دخل دار النبي بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؟ الحق أننا لا نجد مبررًا لهذا الإقحام الغريب. وكل ما في الأمر أن بني أمية انتهزوا فرصة ضعف عثمان وقرابتهم منه فوطدوا مركزهم في الدولة. وكانوا قومًا تجارًا دنيويين، ذوي نزعة جاهلية ولم يجدوا تلقاءهم سوى علي بن أبي طالب وهو رجل زاهد لم يؤت قدرتهم على الختل والخداع. (المترجم)

العالمية. فإنه كان عربيًا أميًا، غير ملم بالتاريخ، ولا بكل تجارب روما وبلاد الإغريق السياسية، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ بلاد اليهودية الحقيقي [1]؛ فترك أتباعه من غير خطة لحكومة مستقرة تنظم إرادة المؤمنين العامة وتركزها [2]، وخلّفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة التي هي الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعمالنا للكلمة بمعناها العصري). وكان حكمه حكمًا فرديًا مطلقًا، ومن ثم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة. وبذا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدمًا بل تراجعًا [3] عن الحريات التقليدية وقوانين الصحراء العرفية. وكان نقض هدنة الحج [4] الذي أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشئ. والله هو المدبر الأعلى للإسلام نظريًا، ولكن سيده الفعلي كان على الدوام أي رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب الخلافة ويستمسك بها. وإذ إن رجلاً كهذا يصبح عرضة لشبوب الثورات عليه والإقدام على اغتياله، فإن قانون الإسلام النهائي كان إرادة ذلك الرجل.

وقد ارتفع شأو أسرة بني أمية زمانًا بعد موت علي وظلت قرنًا من الزمان تقريبًا تعطي الإسلام حكامه وولاته.

---

(1) هذه الأمية وعدم الإلمام بخبرات روما والإغريق السياسية وبتاريخ أرض اليهودية الحقيقي هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعددة منها على سبيل المثال: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (سورة العنكبوت).

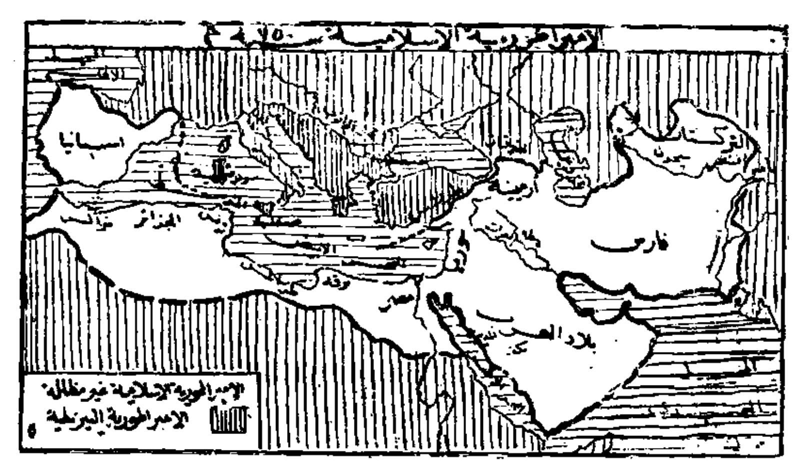
﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (سورة الشورى). (المترجم).

(2) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبي لم يستخلف أحدًا من بعده، وفاته أن الشورى من النقاط الأساسية في حكم الإسلام بنص القرآن. وذلك ما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة الأوائل. (المترجم).

(3) إن كان الانصراف عما كانت عليه الجاهلية من إباحية وتفلت وخروج عن السمة الإنسانية ومنافاة لروح كل قانون وخلق وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام معمول به، يعد في نظر المؤلف تراجعًا فأنعم به من تراجع. (المترجم).

(4) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد الله بن جحش ويتخذ عنها مغمزًا على الإسلام؛ ونسي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرسل عبد الله بن جحش وأصحابه لغزو أو شيء من أعمال القتال. وإنما أرسله للاستطلاع فقط؛ وذلك ظاهر تمامًا من كتابه ﷺ لعبد الله، كما أن المؤلف أغفل غضب النبي من القوم عند عودتهم بقوله؛ "**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**" ووقّف العير والأميرين وأبي أن يأخذ من ذلك شيئًا، وكذلك سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا واشتد تعيف المسلمين لهم حتى أنزل الله تبارك وتعالى ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ (سورة البقرة) وفي هذا أبلغ رد على المؤلف الذي يتخذ من هذه السيرة وسيلة لأخذ المآخذ على الإسلام في بدايته متناسيًا صد الكفار المسلمين عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين منه وهم أهله، وفتنتهم للمسلمين مع أن كل واحدة من هذه أشد من القتل وأنكى من القتال وتستدعيهما. هذا، وزيادة في الإيضاح نقول إن سرية عبد الله بن جحش لا علاقة لها بغزوة بدر الكبرى لأن المسلمين هم الذين خرجوا لاعتراض عير قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش لحماية عيرهم. ولكن العير حين أفلتت من المسلمين عز على كفار قريش وأقيالها أن يرجعوا فاستعمل بعضهم دم الحضرمي (الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش) وسيلة للتحريض على من قال منهم بالعودة دون قتال، وبذلك كانت قريش البادئة فجعله الله نكالاً عليها ونصر المسلمين نصرًا مبينًا. (المترجم).

ويبلغ من انشغال مؤرخي العرب بالمنازعات على العرش وبجرائم ذلك العصر أن أصبح من العسير علينا أن نتتبع التاريخ الخارجي لتلك الفترة. ومهما يكن الحال فإنا نجد سفناً إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البيزنطي في قتال بحري عظيم بإزاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهي إقليم جبلي ج.غ. آسيا الصغرى) (٦٥٥ م)، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر في هذا الوقت المبكر من تاريخهم؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح. والراجح أنه كان في معظمه مصريًا. ولا شك أن الإسلام ظل بضع سنين متحكمًا في شرق البحر المتوسط، وفي ٦٦٩ ثم في ٦٧٤ قام معاوية (٦٦١ – ٦٨٠) أول خليفة أموي عظيم بهجومين بحريين على القسطنطينية. وكان لزامًا أن يكون الهجومان بحريين لأن الإسلام، طالما كان تحكم الحكم العربي، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس [1]. وفي نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بغزواتهم أبعد فأبعد في صميم آسيا الوسطى. وعلى حين كان الإسلام آخذًا في الاضمحلال فعلاً في منطقته المركزية، كان لا يفتأ مع ذلك يضم إليه حشودًا عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحًا جديدة بين الشعوب التركية التي كانت حتى ذلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها في الحياة. ولم تعد المدينة بعد مركزًا صالحًا لمغامرات الإسلام الهائلة في آسيا وإفريقيا والبحر المتوسط، وبذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين.



(شكل ١٣١) خريطة الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠م

(١) وفي عهد معاوية أيضًا استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل رودس وإقريطش وإرواد وقبرص بقيادة مقدم الجند جنادة بن أمية وعبد الله بن أبي السرح وغيرهما من أمراء البحر المظفين. (المترجم).

ومن أعظم هؤلاء – يوم تبددت إلى حين سحب المؤامرات على العرش – عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥) والوليد الأول (٧٠٥ – ٧١٤) اللذان ارتفع شأو الأسرة الأموية في عهديهما إلى ذروة المجد والعظمة. فانتقل الحد الغربي إلى جبال البرانس، على حين كانت ممتلكات الخليفة في الشرق تتاخم حدود الصين. وأنفذ الخليفة سليمان بن الوليد [١] (٧١٥) سلسلة ثانية من هجمات المسلمين على القسطنطينية، كان أبوه [٢] قد وضع خططها وأعد العدة لها. وكان الهجوم بحرًا شأن ما حدث أيام الخليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان – وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من توّنا لم تكن غزيت بعد. وقد أخذت السفن بصفة رئيسية من مصر. وأبدى الإمبراطور ليو الإيسوري [٣] – وهو مغتصب للعرش – في الدفاع مهارة وعنادًا خارقين للمعتاد فخرج من داخل أسوار المدينة خروجا مباغتًا رائعًا تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين، وقطع خط الرجعة على الجيوش التي كانوا أنزلوها على الناحية الآسيوية من البسفور، وبعد حملة دامت سنتين في أوربا (٦١٧ – ٧١٧) دُحر المسلمون. ثم جاء شتاء لا نظير له في القساوة فأكمل هزيمتهم.

ومن هذه الآونة فصاعدًا يبدأ مجد السلالة الأموية في الأفول. لقد تبدد عند ذاك الدافع الأول الهائل للإسلام. فلم يحدث بعد ذلك أي توسع فضلاً عن ظهور اضمحلال بيّن في الحماسة الدينية. وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين، ولكن هضمه لهؤلاء الملايين كان هضما ناقصًا وسيئًا. فإن إمبراطورية خلفاء محمد الهائلة الجديدة هذه ابتلعت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين العرب واليهود والمسيحيين والمانوية والزرادشيتيين والوثنيين الطورانيين. وحتى ذلك الحين، كان من الخصائص المشتركة بين جميع عظماء أصحاب الرسالات الدينية، الداعين إلى توحيد العالم، الوقوع في خطأ شائع، هو قبولهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التي مال الناس إليها قبل زمانهم كما لو كانت مثلاً عليا عمومية. فكانت دعوة محمد مثلاً متجهة إلى الفروسية التقليدية، وإلى ما وقر في نفوس أذكياء العرب في زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية. وكانت هذه الأمور كامنة في طوية مكة والمدينة وضميرهما. فكان كل ما فعله أن أخرجها من مستقرها [٤].

---

(١) سليمان هو ابن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه. (المترجم)

(٢) ظاهر أن المقصود بأبيه هنا الوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبلا. (المترجم)

(٣) انظر كتاب "الحضارة البيزنطية" تأليف رانسيمان (ص ٣٩ – ٤٥) وقد عرّبه المترجم لإدارة الترجمة والألف كتاب (مكتبة النهضة المصرية).

والإمبراطور لاوون (ليو الإيسوري) (٦٨٠ – ٧٤٠) جندي اغتصب العرش في ٧١٧، ونجح في الدفاع عن القسطنطينية على العرب. (المترجم).

(٤) لو صح هذا الزعم لكان لزامًا أن تسير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في يسر وسهولة، مع أن الواقع أنها لقيت في مكة، مهدها، معارضة قوية وعداوة مرة أليمة وأذى شديدًا من المكيين للمسلمين ومعهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولبث المسلمون يتجرعون كئوس العذاب ألوانًا ولم يسلم من ذلك أحد منهم، كما تعاقد المكيون على مقاطعة الهاشميين وحرمانهم اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا من كل ما هو مقرر لغيرهم، لقاء نصرتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام وعدم تسليمه لهم ليقتلوه ويستريحوا مما كاله لأصنامهم من السب ولتسفيهه أحلامهم ونيله من عقولهم ومداركهم، بل إنهم عقدوا الخناصر بعد أن أعيتهم فيه الحيلة، على قتله وتفريق دمه في القبائل إعناتًا لبني هاشم وإعجازًا لهم عن إشهار السيف للثأر. وعندئذ

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت في قالبها الخاص، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها، والتزمت أن تنمو في تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم. وكان مرجعها الوحيد هو القرآن. وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التي لم تتذوق نغمات اللغة العربية، أعني كما يبدو لكثير من العقول الأوربية اليوم خليطاً من البلاغة الرائعة المعنى الممتازة الروح التي يمازجها – ولنقلها صراحة – قعقعة غامضة لا كيف لها [1]. وقد غاب مغزاه الحق عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غيابًا تامًا. ذلك عندنا هو مردّ ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسلمين من استعداد للانضمام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الأقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها. وإلى نفس المحاولة للتوفيق بين ذلك الشيء الجديد وبين التراث القديم. يرجع ذلك الغلوّ الفقهي الذي سرعان ما نهض يتساءل: أكان القرآن – ولم يبرح منذ الأزل – قديمًا قِدَم الله [2]؟ وإنا لتأخذنا الدهشة حيال خروج هذه الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم نتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحي من رجال العلم أسلم، وأراد أن يُسبغ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه: "في البدء كانت الكلمة، والكلمة عند الله، وكانت الكلمة الله [3]".

ولم يحدث قبل ذلك أن واحدًا من عظماء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى وحدة العالم قد أظهر يومًا أدنى فهم للواجب التعليمي العظيم، واجب الشرح الواضح المنوع فضلاً عن التنظيم الفكري الذي تنطوي عليه مقدماتها وقضاياها الأولية: بل تراهم جميعًا يكررون نفس القصة، قصة الانتشار السريع الذي نشبهه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظيم، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحية وفساد.

ولا ينقضي طويل زمن حتى نسمع الأقاصيص عن خليفة أموي هو الوليد الثاني (٧٤٣ – ٧٤٤)، الذي هزأ بالقرآن وأكل الخنزير وشرب الخمر ولم يُقم الصلاة. وربما كانت هذه القصص صحيحة أو ربما كانت تشاع لأسباب سياسية. ومهما تكن الحال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهرية رجعية تقاوم استخفاف دمشق وترفها. وثمة عائلة عربية أخرى عظيمة هي عائلة العباس (العباسيين) ظلت تدبر الخطط زمنًا طويلاً للاستيلاء على صولجان الحكم، فأنشأت تستغل التذمر العام، والنزاع بين بني أمية وبني العباس أقدم من الإسلام. وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد. وحمل هؤلاء العباسيون لواء "شهداء" الشيعة: عليّ وابنيه

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب وتفتحت بذلك الآفاق للدعوة الحرة وجعل الدين ينتشر بالطرق الطبيعية التي كان أهمها وأنجعها الإقناع بالحجة الدافعة والمنطق السليم المعجز. (المترجم).

[1] هذا رأي لا نستغربه على رجل انعدم إلمامه باللغة العربية أصلاً، ناهيك بتذوق أدبها وبلاغتها تلك المؤهلات التي احتازها الوليد بن المغيرة أحد أقيال مكة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تؤهله أن يتذوق ما في القرآن من فصاحة وبلاغة ومعاني فذة. إذ يصف ما سمع من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن "والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته" البداية والنهاية ج ٣ ص ٦١. (المترجم)

[2] سير مارك سايكس.

[3] إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول: آية ١.

الحسن والحسين، وأقاموا الدليل على أنهم والشيعة سواء [١]. وكان علم بني أمية أبيض؛ فاتخذ العباسيون علمًا أسود حدادًا على الحسن والحسين، وأسود لأن السواد أشد تأثيرًا في النفوس من أي لون آخر. وفضلاً عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد عليّ مغتصب. وفي ٧٤٩ قاموا بثورة محكمة التدبير، وطاردوا آخر خليفة أموي وقتلوه بمصر. وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين، فبدأ حكمه بأن جمع في سجن واحد كل ذكر حي من سلالة أمية استطاع أن يضع يده عليه، وأمر بهم جميعا فذبحوا. وقد جمعت أجسامهم فيما يقال، ومد من فوقها بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة، جلس أبو العباس ومستشاروه يطعمون [٢]. زد على ذلك أن قبور خلفاء بني أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة. وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بعلي من مظالم، وزالت أسرة أمية من التاريخ.

ومن الأمور الشائقة الجديرة بالملاحظة، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان إمبراطور الصين يشد أزرها.

([١]) ليست الشيعة عليًا وابنيه الحسن والحسين، وإنما هي حركة ينتصر أهلها لعلي وابنيه وأبنائهم على أنهم أصحاب الحق الأول في الخلافة أي أنهم كانوا يناصرون مبدأ الوراثة وهذا هو المبدأ الذي أكد العباسيون أنه يرجح حقهم في الخلافة على حق الأمويين لأنهم أبناء عم النبي. وهنا بالذات يضع المؤلف يده، دون أن يدرك، على أساس الصدع الذي ظهر في الإسلام بسبب شيخوخة الخليفة عثمان، وهو الشقاق القديم في الجاهلية بين الهاشميين والأمويين. (المترجم).

([٢]) ليس هذا عمل أبي العباس وإنما هو عمل عمه عبد الله وقائد جيشه وواليه على الشام. (المترجم)

٧- انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية علي لم يقدَّر لها أن تسهم في هذا النصر طويلاً. فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكامًا من طراز أقدم من الإسلام. فلما قضوا من قصة عليّ وطرهم المنشود، كان ثاني إجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عترة علي وفاطمة ويذبحهم.

وواضح أن التقاليد القديمة في فارس الساسانية وفي فارس قبل الإغريق كانت في طريق عودتها إلى العالم. وبارتقاء العباسيين عرش الخلافة أفلتت السيادة البحرية من قبضة الخليفة وذهبت معها شمال إفريقية وإسبانيا التي نشأت فيها دول إسلامية مستقلة، وكانت إسبانيا من نصيب رجل من بني أمية أفلت من الموت.

وانتقل محور الأهمية في الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الجزيرة. وشيد المنصور الذي تولى الخلافة بعد أبي العباس عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بالقرب من خرائب المدائن (طيشفون) (Ctesiphon) العاصمة الساسانية القديمة. وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية. ولم يعد للمدينة ومكة آنئذ من أهمية قط إلا كمركزين للحج يولي المؤمنون وجوههم شطرهما في الصلاة[1]. على أن العربية استمرت في انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة المتعلمين في كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن.

ولن ندلي إليك إلا النزر اليسير عن ملوك العباسيين بعد أبي العباس. وكانت تنشب سنة بعد سنة في آسيا الصغرى حرب مناوشات سريعة رجراجة، لم تفز فيها بيزنطة ولا بغداد بأي كسب دائم، وإن وصل المسلمون في غزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور. وظهر نبي كذاب هو المقنع، ادعى الألوهية واستمر مدة قصيرة الأمد، ولكنه أتعب الدولة وشغلها. ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم في أسفار التاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتي سفر قديم. وثمة خليفة عباسي آخر لا مندوحة لنا من ذكر اسمه، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وما له من أهمية حقيقية سواء بسواء، ذلك هو هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩). لم يكن فحسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء في عالم الحقيقة، بل كان كذلك خليفة إمبراطورية خالدة لا تغرب لها شمس في عالم القصة السرمدي، فهو هارون الرشيد في "ألف ليلة وليلة".

---

(1) حج المسلمين هو للبيت الحرام، وللحج مناسك مثل عرفة والصفا والمروة وغيرها وكلها بجوار مكة، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هي المسجد الحرام بمكة؛ وللمدينة حرمتها الخاصة في نظر المسلمين؛ فهي في نظرهم فقط مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثواه الأخير بعد الوفاة، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة للتزود عن قرب بزيارة قبر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام. (المترجم).

ويدبج السير مارك سايكس في وصف إمبراطوريته الواقعية بيانا نقتبس منه فقرات معينة [1]، كتب يقول: "كان البلاط الإمبراطوري مهذبًا مترفا غنيًا غنى لا حد له؛ وكانت العاصمة بغداد، مدينة تجارية هائلة تحيط بقلعة ضخمة هي مقر الحكم والإدارة، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم على قواعد صحيحة ومرتب ترتيبًا تامًا؛ وفيها كثرت المدارس والكليات؛ وإليها تقاطر الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم الممدن.. وكانت العواصم الإقليمية مزدانة بالمباني العمومية الضخمة؛ وتتصل فيما بينها بخدمة سريعة فعالة من بريد وقوافل؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميات الكافية، وكان الجيش مخلصًا للخليفة وفيا ذا اقتدار وشجاعة؛ وكان الحكام والوزراء شرفاء رحماء. وكانت الإمبراطورية تمتد بقوة متعادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية [2] إلى عدن، ومن مصر إلى آسيا الوسطى. وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة. وكأنما اختفى المغتصبون للعروش والقواد المتمردون والأنبياء الكذبة من الديار الإسلامية اختفاء تامًا. وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والمجاعة... وكانت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الإمبراطورية وأطباء الحكومة.. فأما في أعمال الحكومة، فإن طرائق الإدارة العربية الفجيجة الارتجالية أخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء، ولكنه أخذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي. فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراضي التاج ومرافق العدالة والشئون العسكرية تدار كل منها من دواوين منفصلة على أيدي وزراء وموظفين، وكان جيش من الكتبة والناسخين والمنشئين والمحاسبين المحتشدين في هذه الإدارات يجمعون كل قوة للحكومة في أيديهم هم رويدًا رويدًا، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أي اتصال مباشر برعاياه. كان القصر الإمبراطوري ومن به من حاشية، مؤسسين بالمثل على سوابق وتقاليد رومية وفارسية. وكان الخصيان ودور الحريم المنعزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراس والجواسيس والوسطاء والمضحكون والشعراء والأقزام يتزاحمون حول شخص أمير المؤمنين، كل في مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكي ويشغل العقل الملكي بطريقة غير مباشرة عن شئون العمل والدولة. وفي نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب في بغداد صبا، وتضيف إلى سيل النقود الهائل المأخوذ من فيء الأسلاب والغنائم المرسل إلى العاصمة من لدن قواد القوات المغيرة المظفرة، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان. وثمة معين آخر للثراء كان يبدو كالفيض الذي لا نهاية له، وهو المماليك والأتراك والنقود المعدنية البيزنطية، وكان يزيد دخل العراق ثراء، كما كان – بالإضافة إلى حركة التبادل التجاري الضخمة التي كانت بغداد مركزًا لها، يخلق طبقة كبيرة قوية من ذوي اليسار: تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن إليهم، ممن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة والشعر بالقدر الذي تحملهم عليه أمزجتهم، بأنين القصور لأنفسهم، متنافسين فيما بينهم في بذخ ترفهم، محرضين الشعراء على مديحهم والإشادة بذكرهم متلهين بالفلسفة، معضدين مدارس للفكر متنوعة، باذلين الصدقات وسالكين في الحقيقة نفس الطريق الذي يسلكه الأثرياء في كل العصور.

([1]) كتاب آخر تراث الخلفاء The Caliph's Last Heritage

([2]) بوابة من قيليقية (جوليك بوغاز) ممر ضيق يخترق سلسلة جبال طوروس بآسيا الصغرى، والطريق الرئيسي منه يمتد من الغرب، في منحدر طويل وعر يبدأ من الهضبة الوسطى، إلى وادي أطنة (أدنة) وطرسوس. واتساع الطريق عند البوابة نفسها ٢٥ قدمًا. (المترجم).

"ولقد قلت إن الإمبراطورية العباسية في أيام هارون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجة ما ولعل القارئ يعد هذا فكرة حمقاء عندما يضع في اعتباره أني وصفت الإمبراطورية بالنظام، والإدارة بالدقة والاستقرار، والجيش بالاقتدار، والثروة بالوفرة. ويرجع ذهابي لهذا الرأي إلى أن الإمبراطورية العباسية قطعت صلتها بكل شيء أصيل وحيوي في الإسلام، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الإمبراطوريات التي حطمها الإسلام من قبل. ولم يكن في الإمبراطورية شيء يستثير في قادة الشعب أسمى الغرائز؛ إذ إن الجهاد، أو الحرب المقدسة، قد انحط وتحول إلى استيلاء منظم على الغنائم. وبات الخليفة إمبراطورًا أو ملكًا للملوك مترفًا فاخرًا. على حين انتقلت الإدارة من النظام "الأبوي" إلى نظام مركزي بيروقراطي. وأخذت الطبقات الكبيرة الغنى تفقد كل إيمان بديانة الدولة. بينما أخذ التأمل والنظر الفلسفي والمعيشة الراقية يحلان محل العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية. وقد أهمل كل من الخليفة ومستشاريه إهمالاً تامًا صرامة الإسلام وبساطته، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجزاء الإمبراطورية. وكان هارون الرشيد نفسه من معاقري النبيذ [1] وكان قصره مزينا بصور وتماثيل للطير [2] والحيوان والإنسان.

وإنا لنتوقف هنيهة ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العباسية؛ ثم لا نلبث أن ندرك فجأة أنها لا تزيد عن غلالة برّاقة تستر رفات المدنيات الغابرة ورمادها".

مات هارون الرشيد سنة ٨٠٩. وما إن مات حتى هوت إمبراطوريته العظيمة في حمأة الحرب الأهلية والاضطرابات. والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجزء من العالم، تأتي بعد ذلك بمائتي سنة عندما انثال الترك من التركستان جنوبًا بقيادة رؤساء آل سلجوق العظام، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد، بل آسيا الصغرى كذلك. ونظرًا لانحدارهم من الشمال الشرقي، فإنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس، التي ظلت حتى ذاك الحين تصد المسلمين. وكانوا لا يزالون الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوآن تشوانج لمحة سريعة قبل ذلك بأربعمائة سنة، ولكنهم كانوا الآن قد أسلموا، وكانوا مسلمين من الطراز البدائي، أي رجالاً ممن كان أبو بكر يرحب باعتناقهم الإسلام. فأحدثوا في قوة الإسلام انتعاشًا عظيمًا، وأداروا أذهان العالم الإسلامي من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضد المسيحية. ذلك أنه حدث ضرب من الهدنة بين هاتين الديانتين العظيمتين بعد انقطاع التقدم الإسلامي واضمحلال شأن الأمويين. أما تلك الحروب التي دامت بين المسيحية والإسلام فكانت بالأحرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر منها حربًا متصلة الحلقات. ولم تصبح كفاحًا مريرًا تعصبيًا من جديد إلا في القرن الحادي عشر.

---

(1) ذكروا أن هارون الرشيد كان يحضر مجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكنهم اختلفوا في نوع شرابه من حيث الاختمار والتأثير على العقل فجعلوه النبيذ غير المحرم عند أبي حنيفة والظاهر أن هارون الرشيد كان ممعودا وكان الشراب ضروريًا له لتيسير الهضم وبهذا لا يكون معاقرًا للنبيذ المحرم. (المترجم).

(2) انظر "حضارة الإسلام" لجرونيباوم وترجمة المترجم، (الألف كتاب ومكتبة مصر بالفجالة ص ٤٤ – ٤٥) في اقتباس عن البغدادي في وصف الشجرة الذهبية وطيورها المعدنية المغردة وأروقة قصر الخلافة وفخامته. (المترجم).

٨- الثقافة العربية

على أنا قبل أن ننتقل فنحدثك عن الأتراك والصليبيين، وعن الحروب العظيمة التي ابتدأت بين المسيحية والإسلام، والتي خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامت حتى العصر الحاضر، نرى من الضروري أن نوجه مزيدًا من عنايتنا للحياة الفكرية في العالم الناطق بالعربية الذي كان آخذًا عند ذاك في الانتشار انتشارًا يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التي تسلطت عليها الثقافة الهلّينية يومًا ما. فقد كان الذهن العربي، قبل محمد(ﷺ) ببضعة أجيال متقدًا بنار تسري تحت الرماد، فكان ينتج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني. وما لبث ذلك العقل – بتأثير ما أحرز من النجاح القومي والعنصري – حتى تأجج في تألق لا يفوقه إلا ما كان للإغريق في أزهى عصورهم. فأحيا من جديد بحث الإنسان وراء العلم. فلئن كان الإغريقي أبا للطريقة العلمية، فلقد كان العربي أبا روحيًا لها وشريكًا له في أبوتها. فمن العرب، وليس عن طريق اللاتين، تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة.

على أنا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا، يجب أن نكتبها في قدر معين من التحفظ فإن ثقافة الإسلام العربية تتصل بالعربي القح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة الهلّينستية [1] بعد أيام الإسكندر بالإغريقي الأوربي الأصلي. إذ لم تعد تلك الثقافة نقية من الناحية العنصرية. بل ضمت بين دفتيها مجموعة من الثقافات السابقة عليها، هي ثقافة فارس في عهد الأسرة الأرشكية [2] والثقافة القبطية لمصر المهلنة. إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحديث بالعربية في سرعة عظيمة على أنهما ظلتا في جوهرهما فارس ومصر.

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الإغريقية. حقًا إن ذلك لم يحدث في الإغريقية الأصلية ولكن عن طريق الترجمات السريانية المنقولة عن الكتاب الإغريق. ويلوح أن المسيحيين النساطرة، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية" كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنًا من علماء اللاهوت في بيزنطة، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أعلى كثيرًا من مسيحيي الغرب الناطقين باللاتينية. وحظوا بالتسامح في الأيام الأخيرة للدولة الساسانية، كذلك تسامح معهم الإسلام حتى يوم ارتفاع شأن الترك في القرن الحادي عشر. كانوا العمود الفقري لثقافة العالم الفارسي. وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينستي، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء. ففي عصر بني أمية كانت غالبية الأطباء في دولة الخلافة من النساطرة، ولا مراء أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الإسلام دون أن يلم بهم أي ندم خطير أو أي تغير عظيم في مرتزقهم أو أفكارهم. ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو في كل من

(1) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلينية وهي الإغريقية بصفة عامة شاملة والثقافة الهلينستية أي اليونانية بعد عصر الإسكندر انظر للمترجم كتاب "الحضارة الهلينستية" (تارن) مكتبة الأنجلو والألف كتاب. (المترجم).

(2) الأرشكيون Arsacide: هم أسرة حكمت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هي الأسرة الغالبة على أمر دول الطوائف جميعها ومنها أردوان الأصغر الذي نازعه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه، وأردشير هذا هو مؤسس الدولة الساسانية في فارس. (المترجم)

الإغريقية والترجمات السريانية. وكانت لديهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات. ولا شك أن عتادهم من العلم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أو كاسيودوراس من موارد معاصرة، يبدو في حالة إعواز تستحق الرثاء. وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء العقل العربي الغفل متوقدًا مستطلعًا، فاستوعب كثيرًا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرًا وتحسينه نوعًا. تعلم كثيرًا واستوعب كثيرًا. ومن قبل ذلك كانت فارس قرونًا عدة ميدانًا لنشاط لاهوتي وفكري عميق دقيق. فعندئذ تدثر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصبح سبيلاً للزندقة والانقسام في الديانة الإسلامية. وكان الانقسام الشيعي فارسيًا في جوهره.

على أن الفرس ومعهم العلم الهليني لم يكونوا المعلمين الوحيدين الذين أتيحوا للعرب، فقد كان ذوو قرباهم اليهود منتشرين في كل مدن الشرق الغنية ومعهم أدبهم وتقاليدهم الخاصة المميزة لهم. وأثر العقل العربي والعقل اليهودي كل منهما في صاحبه تأثيرًا عاد بالمنفعة المشتركة عليهما جميعًا. فاستفاد العربي من ذلك علما وأفاد اليهودي من ذلك مزيدًا من الشحذ الفكري. ولم يحدث قط أن كان اليهود متحذلقين في أمر لغتهم. فلقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة، يتكلمون الإغريقية في الإسكندرية المهلنة وها هم الآن في كافة أنحاء هذا العالم الإسلامي الجديد يتكلمون العربية ويكتبونها. فكتبت في العربية طائفة من أعظم الآداب: (المؤلفات) اليهودية، منها على سبيل المثال، كتابات ابن ميمون (Maimonides) الدينية [1]. والواقع أن من العسير أن نقول، في حالة هذه الثقافة العربية، متى ينتهي المؤثر اليهودي ويبدأ العربي، فإن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حدًا كبيرًا.

وفضلاً عن ذلك، فثم مصدر ثالث للإلهام، هو، بلاد الهند – وقد تجلى على الأخص في علم الرياضيات، ويعسر علينا في الوقت الحاضر أن نقدره حق قدره. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن الذهن العربي إبان فترة روعته كان على اتصال وثيق فعال بالأدب السنسكريتي وبعلم الفوزيقي "الهندي الفارسي" Indo-Persian.

وقد تجلت نواحي النشاط الذهنية التي يمتاز بها العقل العربي منذ أيام بني أمية وإن لم تظهر بأحسن مظاهرها إلا في عهد العباسيين. والتاريخ هو بداية ولباب كل فلسفة سليمة وكل أدب عظيم، وكان أول من برّز من الكتاب العرب الممتازين هم المؤرخون وكتاب التراجم والشعراء شبه المؤرخين. وتبع ذلك ظهور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى. حتى إذا كفت القراءة عن أن تكون امتيازًا خاصًا، وأصبحت ضرورية لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهذب، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدب تعليمي. وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات في قواعد اللغة (أجروميات) فحسب بل معاجم عظيمة وكتلة ضخمة من الدراسات في فقه اللغة.

---

(1) هو أبو عمران موسى بن ميمون (١١٢٣٥ – ١٢٠٤) فيلسوف وطبيب يهودي ومصنف قوانين. ولد بقرطبة، وأنتج فلسفة دينية لها وزنها وعمل طبيبًا لصلاح الدين وأولاده بمصر، وله مؤلفات منها "مشنة التوارة" و "دليل الحائرين" (المترجم).

وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت به مجموعة من الجامعات العظيمة في عـ دد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة، تطورت عما كان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد. فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة، واجتـ ذب إليهـ ا الطلاب من الشرق والغرب. وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوي أعدادًا كبيرة من الطلاب المسيحيين، وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق إسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد وشمال إيطاليا وعلـ ى الفكـ ر الأوربي الغربي عامة، – جسيما جدًا ولا جرم. ويبرز اسم ابن رشد القرطبـ ي (١١٢٦ – ١١٩٨) ممـ ثلاً لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة العربية من سلطان على الفكر الأوربي. وهو الذي طور تعاليم أرسـ طو علـ ى أسس فصلت الصدق الديني عن الصدق العلمي فصلاً تامًا، وبذا مهد الطريق لتحرير البحـ ث العلمـ ي مـ ن المذهب الاعتقادي (Dogmatism) اللاهوتي الذي كان يقيده في ظلال كل من المسيحية والإسلام. وهنـ اك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ – ١٠٣٧) الذي ولد في الطرف الآخر من العـ الم العربـ ي ببخارى، وتنقل في خراسان [١]... وازدهرت صناعة نسخ الكتب في الإسكندرية ودمشق والقاهرة وبغـ داد، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية في قرطبة لتعليم الفقراء.

ويقول تانتشر وشويل [٢]: "شاد العرب ما شادوه في الرياضيات على الأسس التـ ي أقامهـ ا الرياضـ يون الإغريق. وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاه الإبهام. وقد حدث في عهد ثيودوريك الأعظم أن اسـ تعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة، كانت من ناحية جزئية شبيهة جدًا بالأرقام التسـ عة التـ ي نسـ تعملها الآن". وكذلك استخدم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شبهًا بأرقامنا؛ على أنه يقال إن الصـ فر ظـ ل مجهولاً حتى القرن الثاني عشر، عندما اخترعه رياضي عربي اسمه محمد بن موسى [٣]، الذي كان كـ ذلك أول من استعمل العلامات العشرية، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية في خاناتها. على أن هـ ذا ينـ ازع فيـ ه الكثيرون من الهنود الذين يدعون لأنفسهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالـ ة وفضـ لاً للهند على الثقافة.

"ولم يضف العرب إلى ما ابتكره إقليدس في الهندسة إلا الشيء القليل، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم؛ وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائري مختـ رعين جيـ ب الزاويـ ة (Sine) وظـ ل الزاويـ ة (tangent) وظل تمام الزاوية (Contangent)، واخترعوا في "علم الفوزيقي" البندول وكتبـ وا فـ ي علـ م البصريات (Optics) بعض الكتب. وتقدموا بعلم الفلك. فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيرًا من الآلات الفلكية لا تزال تستعمل حتى اليوم. وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتي الاعتـ دالين. وكانت معرفتهم بالفلك جسيمة ولا مراء.

---

(١) خراسان : هي منطقة شمال شرق إيران المتاخمة لبلاد التركستان. (المترجم).

(٢) في كتابهما: "A General History of Europe"

(٣) هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠) رياضي وفلكي وجغرافي، عربي عاصر المأمون (المترجم)

"وتقدموا في الطب أشواطًا بعيدة على الإغريق. ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة، ويكاد علم الأقراباذين [١] (المادة الطبية Medical material) لديهم أن يكون هو نفس مـ ا لـ دينا اليوم. ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم. وكان جراحـ وهم يفهمـ ون استعمال التخدير، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة. وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الكنيسـ ة تحرم ممارسة الطب انتظارًا منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها القساوسة، كـ ان لـ دى العرب علم طبي حق.

"وابتدءوا في الكيمياء بداية حسنة. واكتشفوا كثيرًا من المواد الجديدة، من أمثال البوتاس ونترات الفضـ ة والسليماني وحمض النتريك والكبريتيك. وكلمة "الكحول" عربية؛ وإن كانت المـ ادة معروفـ ة باسـ م "أرواح الخمر" عند بليني (١٠٠ م). فأما في الصناعة فإنهم بزوا العالم في تنوع الصنف وجمال التصـ ميم وإتقـ ان الصنعة. كانوا يشتغلون في جميع أنواع المعادن: الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصـ لب. ولم يفقهم أحد أبد الدهر في صناعة المنسوجات. وصنعوا زجاجًا وخزفًا من أرق الأنواع وأشـ دها امتيـ ازًا. وعرفوا أسرار الصباغة، وصنعوا الورق. وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود، وكانـ ت مصـ نوعاتهم الجلدية شهيرة في كافة أرجاء أوربا. وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة. وصنعوا السكر مـ ن القصـ ب، وأوجدوا أصنافًا كثيرة ممتازة من الخمور. ومارسوا الزراعة بطريقة علمية، وكانت لـ ديهم طرائـ ق جيـ دة للري. وعرفوا قيمة المخصبات، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة. وتفوقوا في فلاحة البساتين وعرفـ وا كيف يطعّمون النباتات وكيف ينتجون أضربًا جديدة من الفواكه والأزهار. وأدخلوا إلى الغرب أشجارًا كثيرة ونباتات متعددة اجتلبوها من الشرق، وكتبوا رسائل علمية في الزراعة".

وثمة عنصر في هذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته في حياة البشـ رية الفكريـ ة، وهـ و صـ ناعة الورق. ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى؛ وأخذها الأوربيـ ون عـ ن العرب. وكان لزامًا حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرَّق [٢] أو البردي، حتى إذا فتح العرب مصـ ر، انقطع عن أوربا مورد البردي. وما كان فن الطباعة بكبير الغناء، ولا كانت الصحف والتعليم الشعبي العـ ام بوساطة الكتب من الأمور الممكنة، حتى أصبح الورق وفيرًا. وربما كان هذا عاملاً أعظم أثرا فـ ي تـ أخر أوربا النسبي أثناء العصور المظلمة، مما يبدو أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به...

([١]) الأقرباذين: فرع الطب الذي يبحث في مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها. (المترجم).

([٢]) الرق بفتح الراء جلد رقيق يكتب فيه – المعجم الوسيط . (المترجم)

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية في العالم الإسلامي على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة. ولم يحاول العرب من البداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال تنتظر الحل، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية؛ فقد كان نظام الحكم عندهم في كل مكان مطلقًا وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل، وهي أمور كانت على الدوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف. ولكن روح الإسلام ظلت بضع قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها، وكانت الإمبراطورية البيزنطية أعجز من أن تحطم هذه المدنية، كما أن الخطر التركي في الشمال الشرقي لم يفتأ يشتد قوة ولكن في بطء كبير. واستمرت حياة الإسلام الذهنية نابضة بالحياة حتى أطبق الترك عليها. ولعلها كانت تمني نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يتبدى في توجيهها السياسي من آيات العنف والمخالفة لكل معقول. وقد كان هذا. حتى ذلك الحين، هو الخاصة المميزة للعلم والأدب في كافة الأقطار. إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافرًا من الاصطدام برجل العنف والقوة. وكان على الجملة رجلاً ممن حذقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان. ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه وإلى ذلك الحين، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصب الديني (الفنطيق) وثقته بنفسه. ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لديهم عقائد ثابتة، واستجمعوا الثقة في أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة، فاهتدوا في بطء إلى سبيلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبي العام والأدب الرائج بين الناس عامة، وها هم اليوم أشد ميلاً إلى التحدث عن الأشياء بصراحة ووضوح، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظيم الشئون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل في أي عصر من عصور تاريخ العالم.

الفن العربي

ترتبط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة في العمارة، وهي تسمى بأسماء متنوعة هي: المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية. على أن العربي الحق فيما يقول "جايت Gayet" لم يك قط فناناً. وإنما شيد العربي المساجد والقصور والقبور والمدن، لأنه اضطر أن يبتنيها بحكم الحاجة. على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعماريه بين المصريين والسوريين والفرس الذين أخضعهم. فلم يكن الفن العربي في فارس إلا مجرد استمرار للفن الفارسي، ولكن حدث في مصر وسوريا تكييف حقيقي يساير الظروف الجديدة، وظهور طراز جديد وخصيصة جديدة في المباني والزخرفة. كان هذا هو الفن "العربي" بأدق معانيه. وإلى الغرب في شمال إفريقيا وإسبانيا نشأ تنويع خاص جديد يتميز بعقد الأشكال البيزنطية باستبدال العقد المستدير بالعقد المدبب؛ وكانتا تقدمتا على الفن البيزنطي كثيرًا بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج مجسمة ذلك بأنهم كانوا يغفلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التنزيين الزخرفي بالرسوم والنقوش. وكان المزاج العربي المفطور على التأمل والنشوة ميالاً بكليته إلى تقوية هذه العملية. "ولا يرجع ذلك – كما يقول جايت – إلى الرغبة في إطاعة ناموس ديني – لأن هناك كثيرًا من التصاوير العربية المبكرة التي تمثل الأشكال الحية – بل إلى غريزة فطرية ركبت فيهم". والعربي يبدي في شئون الحياة العادية، وبصرف النظر عن أية ثقافة، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جسد عار. وحدث تدريجيًا في ثنايا تطور الفن العربي أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المتشابكات الهندسية المسماة "بالنسق الزخرفي العربي Arabesque " وتصبح السقوف والأقبية مغشاة بطبقة مشكلة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقًا، فيتكاثر التلبيس بالأستار المثقّبة، بل إن الشكل الخارجي نفسه يصير مجسمًا متعدد السطوح، وتغدو الأقبية مغطاة بجمانات (Studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (Polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلي المعلقات الكلسية [1]. ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمال جديد سحري شبيه بجمال البلورات والتموجات المائية والإيقاعات الساحرة الغامضة لغير الأحياء من الأشياء، ولكنه جمال يضاد على خط مستقيم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفقة للفن الهليني.

وتقترن هذه التطورات البنائية بخصائصها العربية في أذهاننا بالمئذنة والقبة البصيلية واستعمال جميل للقراميد المزججة التي غالبًا ما تكون جزلة الحليات. وثمة توسع هائل في استعمال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآنية بالخط العربي الانسيابي الجميل.

---

(1) المعلقات الكلسية: (Stalactites) : تكوينات كلسية مدببة تنشأ في الكهوف الطبيعية عن رشح المياه الجيرية وتبدو متدلية كالثريات والشموع من سقوف الكهوف. (المترجم)

الفصل الحادي والثلاثون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

١- العالم الغربي في أشد دركات تدهوره.

٢- نظام الإقطاع.

٣- مملكة الميروفنجيين الفرنجية.

٤- تنصير البرابرة الغربيين.

٥- شرلمان يصبح إمبراطورًا على الغرب.

٦- شخصية شرلمان.

٧- الفن والعمارة الرومانسكميان.

٨- الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم.

٩- النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون.

١٠-كيف استغاثت القسطنطينية بروما.

١١-الحروب الصليبية.

١٢-الحروب الصليبية اختبار للمسيحية.

١٣-الإمبراطور فردريك الثاني.

١٤-معايب البابوية وتحديداتها.

١٥-قائمة بأسماء البابوات العظام.

١٦-العمارة والفن القوطيان.

١٧-موسيقى العصور الوسطى.

العالم الغربي في أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التي قامت في مهد المدنيات القديمة إلى شئون العالم الغربي.

ولقد وصفنا لك الانهيار التام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي ألمّ بالنظام الإمبراطوري الروماني في الغرب، وبينا الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك إبان القرنين الخامس والسادس، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس في سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة. وتمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام. وكل ما في الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة أو ناحية من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكمًا غير مستقر. فكانت الجزر البريطانية مثلاً. مقسمة بين حشد كبير من الحكام؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون في أيرلندة واسكتلندة وويلز وكورنوال، يتقاتلون ويتغلبون أحدهم على الآخر أو يخضعون بعضهم لبعض. وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضًا إلى عدد من الممالك غير المستقرة، وهي كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية، وهي دول لا تنقطع الحرب بينها أبدًا.

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي فأنت واجد هنا أسقفًا يتولى الملك، كما كان جريجوري الكبير في روما. وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك. وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء، كل يزود عن حياضه ومعه أتباعه. وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك، ولكن كان ينافسه في تلك السيادة ويرجحه تمامًا في بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه "دوق روما". وقد حُوِّل المجتلد [1] العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد، وكذلك حُوِّل قبر الإمبراطور هادريان الهائل المستدير؛ وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض، ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الخربة للمدينة التي كانت يومًا ما حاضرة الإمبراطورية. وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجوري الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أي حصن الملاك المقدس، لأنه عندما كان البابا جريجوري يعبر الجسر من فوق التيبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلي لله طالبًا رفع الوباء العظيم الذي كان يعيث في المدينة دمارًا، أطافت به رؤيا مَلَك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفًا، وعند ذلك عرف أن دعواته ستستجاب. وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دورًا عظيمًا للغاية في الشئون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب.

---

(1) المجتلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الجزء المتوسط من مدرجات الألعاب العنيفة، وهو مفروش بالرمل للمصارعات. انظر المجلد الثاني ص ٥٦٣ [ط٣]. (المترجم)

وكانت إسبانيا على نفس التمزق السياسي الشديد الذي كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، وكان النزاع القديم بين القرطاجي والروماني لا يزال مستمرًا في إسبانيا متمثلاً في العداء المرير بين أخلاقهم وورثتهم من يهود ومسيحيين، حتى إنه لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقي الشمالي إلى مضيق جبل طارق، وجدت في يهود إسبانيا أعوانًا متأهبين لمعاونتها في غزوها لأوربا. فإن جيشًا عظيمًا من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية المترحلة في الصحراء الإفريقية والأراضي الجبلية الداخلية الذين اعتنقوا الإسلام)، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١). وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضع سنين [١].

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس، واندفع من حول نهايتها الشرقية إلى فرنسا؛ وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الجديد موشك أن يخضع بلاد الغال (فرنسا) بنفس السهولة التي أخضع بها شبه الجزيرة الإسبانية. على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشيء صلب، هو مملكة جديدة للفرنجة، أخذت أجزاؤها تتماسك طوال قرنين تقريبًا في أرض الراين وشمال فرنسا[٢].

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا، والتي كانت الحصن الغربي لأوربا ضد دين محمد، كما كانت الإمبراطورية البيزنطية خلف جبال طوروس حصنها الشرقي؛ على أنا نرى لزامًا علينا أولاً أن نقدم إليك بيانًا عن النظام الجديد لتلك التجمعات الاجتماعية التي نشأت منها تلك المملكة.

---

(١) صحيح أن اليهود في إسبانيا كانوا يسامون سوء الخسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط الغربيين بإسبانيا. ولكنه صحيح كذلك أن لذريق ملك إسبانيا عند الفتح العربي لها كان مغتصبًا للعرش وكان أولاد غيطشة وكثير من أمراء القوط ثائرين عليه نفسيًا متحفزين للإيقاع به. ومع ذلك فهذه عوامل نتلمسها لهزيمة القوط في شريش ويمكن أن يكون منها قوة جيش الخليفة المعنوية ومهارة قواده العسكرية واستماتة الجيش والقواد في نصرة الدولة والدين. (المترجم).

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التي مني فيها جيش العرب بالهزيمة أمام جيش شارل مارتل وهو في إشارته يعزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلابتها بدرجة تحطمت على صخرتها قوة الغافق وجيشه، ولكنه من العدل أيضًا أن نجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى مسافة بعيدة داخل حدود بلاد غالة وطالت خطوط تموينه ومدده وقلت عدته وعدده بسبب الحاميات التي اضطر إلى تركها خلفه كما أن كثرة يعتد بها من رجال الجيش كانوا أثقلتهم الغنائم وأهمهم أمرها حتى شغلهم عن لقاء عدوهم بنفس القوة والحماسة التي كانت لهم في المشاهد والملاحم السابقة فكان ما كان من هزيمة وهي أمور أشار إليها المؤلف في فصل سابق. (المترجم).

٢- نظام الإقطاع

من الضروري أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوربا الغربية في القرن الثامن. فإنها لم تكن على همجية بربرية. أجل كانت أوربا الشرقية لا تزال متبربرة ومتوحشة؛ ولم تتقدم الأمور هناك إلا قليلاً عن حالها التي وصفها جيبون في بيانه عن بعثة بريكوس إلى أتيلا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٦ ص ٦٦٠). على أن أوربا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة، لا قانون فيها ولا إدارة، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم فكرات وعادات وتقاليد ممدنة.

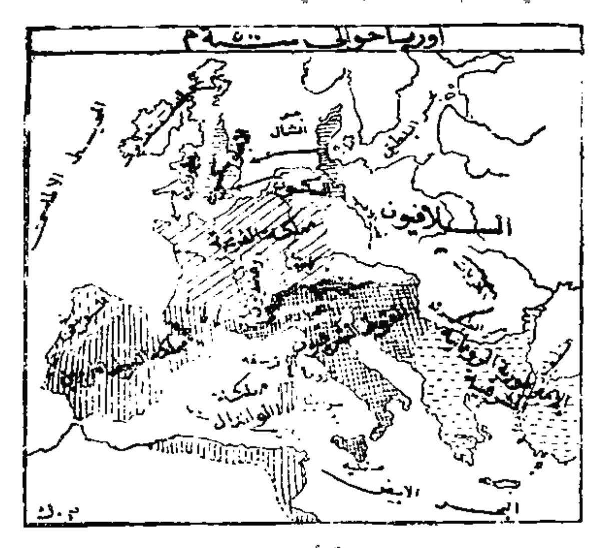
كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم. ومن الشائق الممتع أن نتتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاخب ونتبين كيف تمخض عن ظهور بواكير نظام جديد. فلو أن انهيارًا حدث في عصرنا هذا لتم على الراجح تكوين جمعيات للإدارة والمراقبة المحلية، تتحد فيما بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكمًا ديمقراطيًا بدائيًا خشناً. ولكن أفكار الناس في عهد حطام الإمبراطورية الغربية المنهارة إبان القرون السادس والسابع والثامن، كانت أكثر اتجاهًا صوب الزعماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان، وكانت المراكز التي تبلورت حولها شئون الناس هي أحد رؤساء البرابرة هذا أو أسقفًا قويًا هناك أو مدعيًا لوظيفة رومانية قديمة، وهنا تجد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به، أي رجلاً من أسرة عريقة، وتعثر هناك على قوى مغتصب للسلطان، وهي حال لم تدع لرجل بمفرده مجالاً للاطمئنان والأمن.

لذلك اضطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بغيرهم، مفضلين في ذلك من كان أقوى منهم من الرجال. وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليمه ويصبح رجله وتابعه. وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه. وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جسامة كلما تكاثر المنضوون تحت جناحه. وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسي، في خضم الارتباك وانعدام القانون الذي هوت إليه الإمبراطورية الغربية. وهذه الارتباطات والمخالفات الطبيعية تمامًا بين الحامي والأتباع سرعان ما تدرجت في النمو فأصبحت نظامًا هو "نظام الإقطاع"، والذي لا تزال آثاره باقية في التركيب الاجتماعي لكل مجتمع أوربي غرب الروسيا. وكان يختلف اختلافًا بينا في مظاهره الخارجية.

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لنفسها صورًا فنية وأصولاً وقوانين خاصة بها. فكانت في قطر كبلاد الغال متقدمة تقدمًا حسناً أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاض قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية" ولما أن هبط الفرنجة بلاد الغال جلبوا معهم نظامًا سبق أن لحظناه لدى المقدونيين، وكان على الراجح واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب النوردية الشمالية، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك المحارب، وهم رفقاؤه أو لداته وبطانته من النبلاء (COIMITATUS) (الكونتات) أو قواده. فكان من الطبيعي في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوي شكل العلاقة بين الكونت ومليكه، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات المستولى

عليها والمصادرة. وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة التجمع بغية الحماية المتبادلـة للناس والممتلكات؛ وجاءت من الجانب "التيوتوني" فكرات جمعيات الفرسان، والإخلاص والخدمة الشخصية. وكانت الأولى هي الناحية الاقتصادية للنظام، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه.

والمماثلة بين التجمع في الإقطاع وبين عملية التبلور مماثلة وثيقة جدًا. وبينا المؤرخ يراقب أثناء القرنين الرابع والخامس مراجل الارتباك ودواماته تدور وتهدر في أوربا الغربية، فإنه يبدأ في ملاحظة ظهور هـذه التكوينات الهرمية المكونة من رؤساء وأتباع، وأتباع أتباع، وهي تتدافع إحداها مع الأخـرى أو تتفـرع أو تنحل من جديد أو تلتحم. وإنا لنستعمل مصطلح "نظام الإقطاع" من أجل اليسر والسهولة، ولكن في شيء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى "الترتيب والنظامية". فنظام الإقطاع في أزهر عصوره أبعـد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية. إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطرابًا نظم على أخشن وجه، وكان التغاير والاختلاف العظيم بين أشكاله منتشرًا في كل مكان. ومن ثم فلن يدهشنا وجود تبـاين فـي الوقـائع والعرف والعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى. وقد وصل نظام الإقطاع الأنجلو نورماندي فـي القـرنين الحادي عشر والثاني عشر على شدة ما أوتي من اتساع الرقعة إلى اكتمال منطقي واتساق فـي الممارسـة والعرف كان منقطع النظير في صميم العصر الإقطاعي نفسه.



(شكل ١٣٢) خريطة أوربا حوالي عام ٥٠٠م

"والأصل في العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعية (Fief) التي كانت في العادة أرضًا، ولكنها ربما كانت أي شيء مرغوب فيه كالوظائف، أو الدخل نقدًا كان أم عينًا، أو حق جمع مكس أو (فرضة مالية)، أو إدارة طاحون. وكان الرجل يصبح في مقابل الإقطاعية تابعًا [1] (vassal) لمولاه؛ فكان يجثو أمامه، ويعده – ويداه بين يديه – بالولاء والخدمة... وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهـد

([1]) ويسمى أيضًا بالمقطع [بضم الميم وفتح الطاء] أو الفَصَل (Vassal) (المترجم).

الولاء قوام حقه في التمتع بإقطاعته: فإذا أديت الواجبات، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاعة ملكًا حلالا لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم الملاك. وفي حفلة الولاء والتخويل التي هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع، كانت الالتزامات التي يضطلع بها الطرفان، غير محددة في العادة تحديدًا دقيقًا. وكان العرف المحلي هو الذي يحددها. وكانت خدمات التابع تختلف اختلافًا بينًا في كثير من دقائق التفاصيل بين أجزاء عالم الإقطاع المختلفة. على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين، عامة وخاصة. فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء: من المحافظة على مصالح السيد، وكتمان أسراره، وإفشاء خطط أعدائه، وحماية عائلته وهكذا، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديدًا، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحيانًا والوثائق المكتوبة في بعض الأحيان الأخرى. وكانت أبرز نواحيها هي الخدمة العسكرية، التي كانت تتضمن الخروج إلى الميدان عند النفير بقوة معينة من الجند، غالبًا ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد. وتبقى فيه زمنًا معلومًا. وكانت كثيرًا ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه في الدفاع عن إقطاعه (Fief)... وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية، ألفيناه يملأ أوربا بشبكة من هذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى في مراتب مدرجة بادئة من أقلها شأنًا في القاع، وهي أجر الفارس، حتى الملك في القمة، وهو مالك الأرض الأعلى، أو هو الذي وهبه الله المملكة..." (١).

على أن هذه هي النظرية التي فرضت على الحقائق المقررة. ولكن الحقيقة الواقعية في نظام الإقطاع كانت تقوم فيما هو عليه من تعاون اختياري.

"وقد قيل: إن الدولة الإقطاعية دولة اغتصب فيها القانون الخاص مكان القانون العام". ولكن أليس الأصح أن يقال: إن القانون العام قد فشل وتوارى وإن القانون الخاص جاء ليسد الفراغ الحاصل؟ لقد صار الواجب العام إلزامًا خصوصيًا.

---

(١) الموسوعة البريطانية – الطبعة الثانية عشرة – مادة "الإقطاع للأستاذ ج. ب. آدامز.

٣- مملكة الميروفنجيين الفرنجية

سبق أن ذكرنا من قبل ممالك متنوعة للقبائل البربرية الذين أقاموا لأنفسهم بين أنقاض الإمبراطورية سيادة هزيلة تتفاوت في رثاثتها فوق هذه المنطقة أو تلك، وهي ممالك السويفي والقوط الغربيين بإسد بانيا ومملك ة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التي عقبت القوط بعد أن طردهم جستنيان وبعد أن ع اث الوباء العظيم في إيطاليا تدميرًا.



(شكل ١٣٣) خريطة حدود ممتلكات الفرنجة في عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت في أول الأمر فيما هو الآن بلجيكا، ثم امتدت جنوبًا حتى اللوار، بيد أنها أظهرت من القوة والتماسك ما يفوق كثيرًا ما كان لدى الأخريات. وكاذ ت أول دول ة حق ة تخرج من غمرة الدمار العام. ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة. ومنه ا نبعت دولتان عظيمتان في أوربا العصرية، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية. وكان مؤسسها هو كل وفيس (Clovis) (٤٨١ – ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكًا صغيرًا في بلجيكا وانتهى وحد دوده الجنوبي ة تك اد تت اخم البرانس. وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة. على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم م ن ه ذا التقسيم، وثارت بين الإخوة حينًا من الدهر حروب تستهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر مما فرقت بي نهم. على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصبغة اللاتينية، وبعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة، لغة السكان المقهورين، على حـ ين احـ تفظ

فرنجة إقليم الراين بلغتهم الألمانية الدنيا [1]. وتتولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية، توترات سياسة قوية للغاية. وأقام العالم الفرنجي مائة وخمسين سنة وهو منشق شطرين، هما نوستريا (Neustria)، وهي نواة فرنسا وتتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن، وأوستراسيا وهي أرض الراين التي ظلت ألمانية. وكان الفرنجة يختلفون عن السوابيين وسكان جنوب ألمانيا، ويقاربون الأنجلوسكسون كثيرًا لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا. وكانت لغتهم تشبه اللغة الألمانية [2] الدنيا (Plattdeutsch) والأنجلوسكسونية، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية. والواقع أنه حيثما لم يصطبغ الفرنجة بالصبغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولنديي جنوب هولندة (فأما هولندة الشمالية فلا تزال فرزية Friesisch أي أنجلوسكسونية). "والفرنسية" التي كان يتكلمها الفرنجة والبرجنديون ذوو الصبغة اللاتينية في القرن السابع إلى العاشر، كانت عجيبة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumansch)، استنتاجًا منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة [3].

ولسنا بمحدثيك ها هنا عن انحلال الأسرة الميروفنجية التي أسسها كلوفيس، ولا كيف حدث في أوستراسيا أن موظفًا بعينه في البلاط، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace)، أصبح بالتدريج ملكًا فعليًا، واتخذ من الملك الحقيقي ألعوبة طيّعة. ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثيًا أيضًا في القرن السابع، وفي (٦٨٧) كان من يدعى ببين الهرستالي محافظ القصر في أوستراسيا قد غزا نوستريا ووحد كل الفرنجة تحت لوائه. وأعقبه في (٧٢١) ابنه شارل مارتل، الذي لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر. (فأما سادته الملوك الميروفنجيون التافهون المساكين، فلا يعنينا أمرهم هنا في قليل ولا كثير) وشارل مارتل [4] هذا هو الذي أوقف المسلمين العرب. وكانوا قد وصلوا إلى "تور" عندما التقى بهم، وهزمهم هزيمة كاملة في معركة عظيمة بين ذلك المكان وبين بواتييه (٧٣٢) وفلّ من عزيمتهم. ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم. فلم يتقدموا بعد ذلك في أوربا الغربية.

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه، ولكن أحدهما اعتزل الملك وترهب. تاركًا أخاه ببين حاكمًا وحيدًا على الدولة. وببين هذا هو الذي قضى نهائيًا على أحفاد كلوفيس. إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق، صاحب القوة والسلطان أو صاحب التاج؟ وكان البابا في حاجة إلى ناصر يعيده، فقضى لصالح محافظ القصر. وبذلك انتخب ببين ملكًا في جمع نبلاء الفرنجة في العاصمة الميروفنجية، سواسون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج. وكان ذلك في (٧٥١). وقد قوّى ابنه شارلمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية التي وحدها ببين. وظلت الدولة موحدة متماسكة إلى عهد حفيده لويس (٨٤٠)، ثم انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد – مما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقًا في الجنس ولا المزاج، بل فارقًا في اللغة والتقاليد.

---

(1) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch): هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا. والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها. (المترجم).

(2) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch): هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا. والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها. (المترجم).

(3) الرومانشية هي اللغة التي يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا. (المترجم).

(4) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر للمترجم "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص (الألف كتاب، ومكتبة عالم الكتب).



(شكل ١٣٤) خريطة إنجلترة عام ٦٤٠ م

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراسيا يثمر ثمارًا مريرة إلى يومنا هذا. ففي ١٩١٦ كان لهيب ذلك النزاع التليد بين نوستريا وأوستراسيا قد تأجج من جديد حربًا ضروسًا. وفي أغسطس م ن تل ك السنة، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون، وعبر الكوبرى الخشبي المؤقت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne) بين القسم الرئيسي بالمدينة وبين ضاحية القديس ميدارد (Medard). وكان ت أس تار م ن الخيش تحمي المارة على الكوبري من عيون الرماة القناصة الألمان، الذين كانوا يطلقون النار من خن ادقهم في منحنى النهر. فسار مع أدلائه مخترقًا حقلاً ثم تقدم بمحاذاة جدار بستان انفجرت فيه قنبلة ألماني ة أثن اء مروره. وبذا وصل إلى المباني المحطمة التي تقوم في موقع دير سانت ميدارد العتيق، الذي خلع فيه آخ ر الميروفنجيين، وتوج فيه ببين القصير مكانه، ومن تحت هذه المباني العتيقة، كانت توجد س راديب عظيم ة، صالحة جد الصلاحية لتكون خنادق – ذلك أن الخطوط الألمانية الأمامية لم تكن تبعد أكثر من مائتي ي اردة. وكان الجنود الفرنسيون الفتيان الأقوياء يهيئون الطعام ويستريحون في هذه المخابئ، وينامون بين التوابي ت الحجرية التي احتفظت بعظام ملوكهم الميروفنجيين.

٤- تنصير البرابرة الغربيين

والسكان الذين كان يحكمهم شارل مارتل وببين، كانوا في مستويات من المدنية مختلفة جدًا باختلاف الأصقاع. ففي الغرب والجنوب كانت كتلة السكان مكونة من الكلت المسيحيين ذوي الصبغة اللاتينية؛ وفي المناطق الوسطى كان هذان الحاكمان يتوليان شئون ألمانيين يتفاوتون في مدى اعتناقهم للنصرانية، من أمثال الفرنجة والبرجنديين والأليماني (Alemanni)؛ وإلى الشمال الشرقي كان لا يزال يوجد فريزيون وسكسونيون وهم على الوثنية؛ وكان البافاريون إلى الشرق؛ وقد تنصروا حديثًا بفضل نشاط القديس بونيفاس (Boniface)، وإلى الشرق من هؤلاء كان يوجد كذلك صقالبة وآفار على الوثنية. وكانت "وثنية" الألمان والصقالبة مشابهة جدًا لديانة الإغريق البدائية، كانت ديانة رجولة يلعب المعبد فيها والكاهن والقرابين دورًا تافهًا وكانت آلهتها شبيهة بالبشر، أو بضرب من "قادة الطلبة بالمدارس"[1]، فهم مخلوقات أشد قوة من الناس يتدخلون في الشئون الإنسانية حسبما تمليه عليهم دوافعهم ودون قاعدة مطردة. وكان الإله جوبيتر يتمثل عند الألمان في الإله أودن (Oden). والإله مارس (المريخ) يمثله ثُورْ (Thor) والربة الزُهرة تمثلها لديهم الربة فريا (Freya) وهكذا. وتواصل إبان القرنين السابع والثامن تنصير هذه القبائل الألمانية والسلافونية (الصقلبية).

وربما كان من الشائق للقراء الناطقين بالإنجليزية، أن يتنبهوا إلى أن أشد المبشرين حماسة ونجاحًا بين السكسون والفريزيين جاءوا من إنجلترة. وقد وضعت بذور المسيحية مرتين في الجزر البريطانية. فكانت موجودة بها فعلاً حين كانت بريطانيا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. إذ يذكرون أن شهيدًا اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز، ولا شك أن كل زائر لكانتربري، لن يفوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التي كانت تستعمل إبان العهد الروماني. وانتشرت المسيحية من بريطانيا – كما أسلفنا – خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة – وكان أهم المبشرين القديس باتريك – وحدثت حركة رهبنة قوية تتصل بها أسماء القديس كولمبا والمستوطنات الدينية بجزيرة أيونا (Iona) [2]. ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون في القرنين الخامس والسادس، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم المسيحية الرئيسي. وفي القرن السابع أخذ المبشرون المسيحيون ينصِّرون الإنجليز في كل من شمال إنجلترة، حيث أتوا من إرلندة، وفي الجنوب وافدين من روما. وقد أوفد بعثة (إرسالية) روما البابا جريجوري الكبير عند نهاية القرن السادس بالضبط. وتقول الرواية إنه رأى غلمانًا من الإنجليز يباعون في سوق الرقيق بروما، وإن كان من العسير علينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك. كانوا شديدي الشقرة ووسامة الطلعة. فلما أن تحرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجليز. فقال "إنهم ليسوا إنجليزًا (Angles) وإنما هم ملائكة (Angels) [3] لو أن لديهم الإنجيل".

([1]) قادة الطلبة بالمدارس هم أوائل طلبتها وزعماؤهم. (المترجم)

([2]) هي جزيرة من جزيرة من جزر الهيبرباس الداخلية باسكتلندة نصرها كولمبا في ٥٠٣ م. (المترجم).

([3]) هنا يلعب الكاتب على الجناس بين لفظتي (Angles) أي الإنجليز و (Angels) أي الملائكة. (المترجم).

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع. وقبل أن ينتهي ذلك القرن كان معظم الإنجليز قد تنصروا؛ وإن أبدت مرسيا (المملكة الإنجليزية الوسطى) نحو القساوسة مقاومة شديدة، دفاعًا عن العقيدة والطرائق القديمة. وأصاب أولئك المتنصرون الجدد تقدمًا سريعًا في العلوم. فأصبحت أديرة مملكة نورثمبريا في شمال إنجلترة مركزًا للنور والعرفان. وكان ثيودور الطرسوسي من أوائل رؤساء أساقفة كانتري (٦٦٨ – ٦٩٠). "وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلاً تامًا في غرب أوربا، كان بعض تلاميذ ثيودور يجيدونها. وكانت الأديرة تضم كثيرًا من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة. وكان أشهرهم جميعًا بيد (Bede)، المعروف باسم بيد الوقور (٦٧٣ – ٧٣٥)، وهو راهب من جارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne). وتتلمذ عليه رهبان ذلك الدير الستمائة، فضلاً عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسماعه. ولم يبرح بيد حتى أتقن بالتدريج كل علوم زمانه، وترك عند وفاته خمسة وأربعين مجلدًا من كتاباته، أهمها "تاريخ الإنجليز الكنسي [1] " وترجمة إنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية. وذاعت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوربا. ثم إنه جعل ميلاد المسيح بداية لكل تواريخه، وبفضل مؤلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث المسيحية شائعًا بكل أوربا. ونظرًا لكثرة الأديرة والرهبان في نورثمبريا، تقدم ذلك الجزء من بريطانيا حيناً من الدهر تقدمًا كبيرًا على الجنوب في المدنية [2].

وإنا لنجد المبشرين الإنجليز في القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية. وأهم هؤلاء هو القديس بونيفاس (٦٨٠ – ٧٥٥)، الذي ولد في كريديتون بمقاطعة ديفونشير والذي نصّر الفريزيين والثورنجيين والهيسيين (Hessians) ثم استشهد في هولندة.

وفي كل من إنجلترة والقارة الأوربية، كان الحكام الذين أخذ نجمهن يعلو يستمسكون بالمسيحية ويتخذونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض. وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان – شأنها في أوغندة بأفريقية في الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية.

وخلف ببين الذي توفي ٧٦٨ ولداه، شارل وأخوه، فاقتسما مملكته، ولكن أخا شارل توفي (٧٧١)، وعندئذ انفرد شارل بالحكم (٧٧١ – ٨١٤) في مملكة الفرنجة النامية. ويعرف شارل هذا في التاريخ باسم شارل الكبير في شارلمان، وكما حدث في حالة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، فإن الخلَفَ بالغوا في الإشادة بذكراه. فإنه جعل من حروبه العدوانية حروبًا دينية لا شك فيها!! وظل عالم شمال غربي أوربا بأجمعه الذي هو الآن بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا والدانمرك والنرويج والسويد طَوَال القرن التاسع، معتركًا لصراع مرير بين العقيدتين القديمة والجديدة. وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوبًا بأسرها في بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه.

---

(1) "The Ecclesiastical History of the English"

(2) انظر: "A General History of Europe" تأليف ثاتشر وشويل.

فاستخدم شرلمان السيف والنار في التبشير بإنجيل الصليب لدى السكسون والبوهيميين، بل توغل حتى الدانوب فيما هو الآن بلاد المجرد؛ وحمل نفس التعاليم منحدرًا بها حتى سواحل الأدرياتي" خلال ما هو الآن دالماتيا [1]؛ ودفع المسلمين خلف البرانس حتى برشلونة.

زد على ذلك أنه هو الذي آوى إجبرت (Egbert)، يوم نفى من وِسكِس بإنجلترة ثم ساعده من فوره في أن يقيم نفسه ملكًا في وسكس (٨٠٢). وأخضع إجبرت البريطون[2] في كورنوال، مثلما أخضع شرلمان البريطون في بريتاني (بفرنسا)، ثم تهيأ له بقيامه بسلسلة من الحروب التي والاها بعد وفاة نصيره الفرنجي، أن يجعل نفسه آخر الأمر أول ملك لإنجلترة بأسرها (٨٢٨).

على أن هجمات شرلمان على آخر معاقل الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب الذين لم يتنصروا. وكان الإنجليز المتنصرون لم يحتفظوا إلا بالنذر اليسير في الملاحة الذي جاءبهم من أرض القارة الأوروبية، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة. وبينما كانت دعاية شرلمان تنساق نحو شواطئ بحر الشمال وبحر بلطيق، فقد دُفع الوثنيون دفعًا إلى البحر. وكان ردهم على اضطهادات المسيحية، القيام بغارات سلب ونهب وحملات على سواحل فرنسا الشمالية وعلى إنجلترة المسيحية.

وهؤلاء السكسون والإنجليز الوثنيون في أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هم الدانيمركيون وأهل الشمال (North men) الذين تذكرهم كتب تاريخنا القومي. وكانوا كذلك يسمون بالفيلك إنجز (Vik-ings) [3] ومعناها رجال الخلجان أو الفيوردات، لأنهم جاءوا من الثنايا العميقة في الشاطئ الإسكندناوي. حضروا في سفن طويلة سوداء تسمى القوادس [4]، مستعملين الشراع استعمالاً طفيفًا. ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات الفيك إنجز الوثنيين مستقاة من مصادر مسيحية، ولذا فإن لدينا معلومات مستفيضة عما كانوا يرتكبونه في غاراتهم من المذابح والفظائع، ونزرًا يسيرًا عما حلّ بإخوانهم الوثنيين السكسون من قساوات على يد شرلمان. وكان عداؤهم للصليب والرهبان والراهبات شديدًا متطرفًا. ولشد ما كان يبهجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء.

وظل هؤلاء الفيك إنجز أو أهل الشمال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن التاسع يتعلمون فن البحرية، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم. ثم اجترءوا على البحار الشمالية حتى أعدت شواطئ جرينلندة الثلجية مرتادًا مألوفًا لديهم، وكانت لهم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (لم تعرف أوربا عنها شيئًا. ولم يكن لأهل الشمال أي مستقر دائم في أمريكا. وفي زمان ما يقارب (١٠٠٠م). قاموا بمحاولة للاستقرار في جزء ما من أمريكا اسمه فن لاند (Vinland)، على أنهم لم يتملكوا الأرض سوى سنتين اثنتين. فإن قاربًا من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئًا بالهنود المنقوشي البشرة؛ فدار بخلد رجال الشمال

---

(1) دالماتيا: هي القسم المطل من يوغوسلافيا على شرق الأدرياتي. (المترجم).

(2) البريطون: سكان بريطانيا القدماء الأصليون، أو سكان إقليم بريتاني بفرنسا. (المترجم).

(3) تنبيه: تنطق هذه الكلمات فيك إنجز وليس في كنجز. ومعنى فيك: Vik هو فيورد أو خليج. (المؤلف).

(4) القادس Gally: سفينة قديمة طويلة ذات سطح واحد تسير بالمجاديف والشراع. (المترجم)

أنهم ضيوف سوء شديدو القبح. ويلوح أن الطرفين تبادلا نظرات التفحص الصامت، ولكن لم يحدث بينهم ا تجارة ولا نزاع، لقد حملق العالم الجديد في وجه القديم. وحدثت المتاعب فيما بعد، وإذ إن رجـ ـال الشـ ـمال كانوا أقل عددًا وبعيدين عن أوطانهم، فإنهم جمعوا متاعهم واعتلوا سفنهم عائدين إلى بلادهـ ـم. ولا يسـ ـجل التاريخ أي مستقر آخر لرجال الشمال على الأراضي الأمريكية. وفي القرن الثاني عشر، بدئ بكتابة كثيـ ـر من ملاحمهم (Saga) في أيسلندة. ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسـ ـرحًا للمغـ ـامرة الجريئـ ـة. فلطالما هاجموا كلب البحر والدب والحوت. وقد انتسجت في خيالهم صورة ضخمة لمدينة عظيمة غنية فـ ـي الجنوب – وهي ضرب من الخليط بين روما وبيزنطة وسموها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجـ ـارث (أي المدينة العظيمة) – (قارن هذه بكلمة ميكلابابر (Miklabaer) الأيسلندية ومعناها المزرعة العظيمـ ـة). وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هذه أن اجتذبت أحفاد رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطـ ـريقين، أولهما من جهة الغرب، وثانيهما عبر الروسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيما بعد. وبالطريق الروسـ ـي ذهب كذلك أقرباؤهم السويديون.

ولم يكن الفيك إنجز إلا مجرد مغيرين ما عاش شارلمان وإجبرت؛ ولكن مع تقدم الأيام بـ ـالقرن التاسـ ـع، تطورت هذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة. ففي كثير من نواحي إنجلترة، لم يكن مركز المسيحية حتـ ـى آنذاك وطيدا بأي حال. إذ كان رجال الشمال الوثنيون يلاقون في مرسيا على وجه الخصوص كـ ـل عطـ ـف ومعاونة. وما إن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترة في قبضة الدانيمركيين، وحتى كـ ـان الملـ ـك الإنجليزي ألفريد الكبير، قد اعترف بحكمهم لما فتحوه، (وهو ما يسمى بالقانون الـ ـدانيمركي Dane-Law) في الحلف الذي عقده مع جوثرام زعيمهم.

وبعد ذلك بقليل في (٩١١) وطدت حملة أخرى بزعامة رولف العدّاء (Rolf the ganger)، أقدامها على ساحل فرنسا في الإقليم الذي عرف منذ ذلك الحين باسم نورماندي (أي بلد رجال الشمال Northman-dy).

على أننا لا نستطيع أن نحدثك بأي تطويل عن كيف حدث على الفور غرو جديـ ـد لإنجلتـ ـرة علـ ـى يـ ـد الدانيمركيين، ولا كيف أصبح دوق نورماندي آخر الأمر ملكًا على إنجلترة. والفوارق العنصرية والاجتماعية بين الإنجليز (الأنجل)، والسكسون والجوت والدانيمركيين أو النورمانديين ضئيلة لا تكاد تذكر؛ ومع أن هذه التغيرات ترتسم ضخمة في أخيلة الإنجليز، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدًا في مجـ ـرى التاريخ عندما نقيسها بمعايير عالم أكبر.

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية. إذ قبل الدانيمركيون بمعاهـ ـدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية، إذا ضمن لهم بقاء ما غزوا بأيديهم، ولم يقف الأمـ ـر بأحفـ ـاد رولف في نورماندي عند حد التنصير، بل إنهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب المحيط بهم الأكثر مـ ـنهم تمدنًا، ناسين لسانهم الشمالي (النورسي Norse) الخاص على أن هناك شيئًا. له شأن أعظم قدرًا في تـ ـاريخ البشرية، هو علاقة شرلمان بجيرانه في الجنوب والشرق، وعلاقاته بالتقاليد الإمبراطورية.

٥- شرلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوربا على يد شرلمان. كانت الإمبراطورية الرومانية قد ماتت وأخذت تتعفن؛ وكانت الإمبراطورية البيزنطية ممعنة في الاضمحلال؛ على أن تعليم أوربا وعقليتها كانا ترديا إلى درك كاد معه كل فكر سياسي جديد خلاق أن يكون ضربًا من المحال. ولعل أوربا بأكملها لم تكن لتحتوي مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التي نجدها في الأدب [1] الأثيني في القرن الخامس ق. م. ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع منهجًا سياسيًا جديدًا وتنظمه فكريًا.

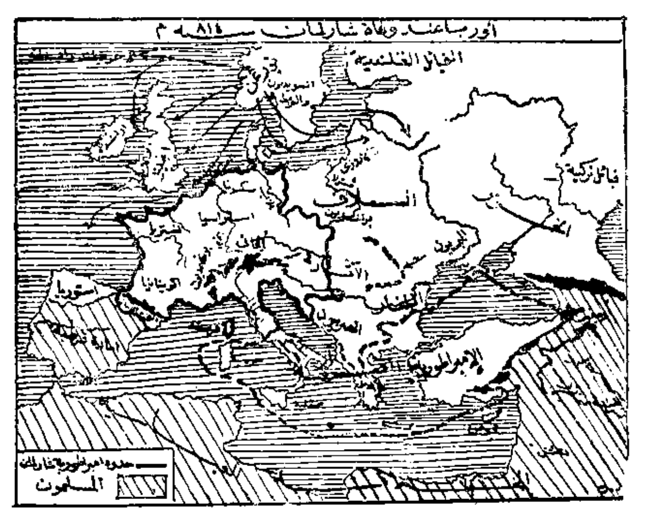
تعمدت المسيحية الرسمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستارًا كثيفًا على تلك التعاليم العجيبة الرائعة، تعاليم يسوع الناصري التي منها انبعثت – كما أنها روضت نفسها على تجاهلها. فأما الكنيسة الكاثوليكية فهي حين تشبثت ذلك التشبث الشديد بملكيتها للقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيد لواجبها الذي خلقت من أجله، وأعني بذلك بلوغ مملكة السماء. ذلك بأنها كانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض، التي تصورت أنها تراثها التليد. لقد أصبحت هيئة سياسية، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضي قُدمًا بمشروعاتها وخططها. وتشبثت بتقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكرة أنها هي الطريق الطبيعي لوحدة أوربا. على أن أوربا في ثنايا محاولاتها المتكررة إعادة تلك الإمبراطورية إلى الوجود، قد انحرفت إلى تزييف مثال لها شائه ممسوخ: وإلى ابتعاث كبوات الماضي وسقطاته التي أساءت تصورها.

وانقضى أحد عشر قرنًا من عهد شرلمان فما بعده، و "الأباطرة" و "القياصر" من هذه الأسرة أو تلك يظهارون على مسرح التاريخ الأوربي ثم يتوارون كأنهم خيالات سقيمة تتراءى لذهن مضطرب. ونحن على أن نخبرك عن عملية عظيمة من النمو العقلي في أوربا، وعن اتساع الآفاق وتجمع القوى، بيد أنها كانت عملية سارت في طريقها مستقلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها، حتى ترامت آخر الأمر إلى تحطيم تلك الأوضاع تحطيمًا مطلقًا. وكانت أوربا أثناء حقبة الأحد عشر قرنًا من القياصر الزائفين التي افتتحت بشرلمان، والتي لم تنته إلا بمجزرة (١٩١٤ – ١٩١٨) الرهيبة الوحشية، – أشبه به شيء بمصنع مزدحم يملكه رجل مصاب بالتجول أثناء النوم، فهو في بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقًا، وهو في أحيان أخرى معطل للأعمال تعطيلاً ينذر بالشر المستطير. بل لعلنا نشبهها بما هو أقرب إليها من ذلك المتجول في نومه: فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سيما الحياة. فأنت تشهد الإمبراطورية الرومانية تترنح ثم تنبطح على الأرض، ثم يقذف بها خارج المسرح ثم تعود فتظهر كل هذا وكنيسة روما – إن جاز لنا أن نتقدم بهذه (الصورة الخيالية) خطوة أخرى إلى الأمام – هي التي تقوم بدور الساحر وتبث في هذه الجثة سيما الحياة.

---

[1] المؤلف هنا كعادته يستخدم لفظة الأدب بمعناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر في اللغة من أبحاث ومؤلفات أيًا كان نوعها. (المترجم).

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات، حول التحكم في الجثة يظل ناشبًا بين القوى الروحيـ ـة ومختلف القوى الزمنية. وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى الروح التي ينطوي عليها كتاب "مدينة الله" للقـ ـديس أوغسطين. وهو كتاب نعرف أن شرلمان طالعه، أو استمع لتلاوته – إذ إن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك. وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شيء يحكمه ويصون سلامته في أمثل صـ ـورة وأسـ ـلمها، قيصر عظيم مثله، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه.



(شكل ١٣٦) خريطة أوربا عند وفاة شرلمان عام ٨١٤ م

على أن وجهة نظر روما في شأن الإمبراطورية المبتعثة، كانت تختلف قليلاً عن ذلك. إذ إن الرأي المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحي يجب أن يمسحه البابا بالزيت المقدس ويهديه سواء السبيل – بل هـ ـو الـ ـذي تكون له حتى سلطة حرمانه وعزله. وكان هذا التضارب في وجهات النظر واضحًا حتى في أيـ ـام شـ ـرلمان نفسه. على أنه ازداد حدة في القرون التالية.

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتعثة لم تدر بخلد شرلمان فجأة، بل بغاية البطء والتدرج. فإنه كان في مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية، وكان منهمكًا بكل قواه في الكفاح مع السكسون والبافاريين ومع الصقالبة في شرقهم، ومع المسلمين في إسبانيا. وفيما شب في ممتلكاته نفسها من ضـ ـروب العصـ ـيان. وحمله شقاق دب بينه وبين حميِّه ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشمال إيطاليـ ـا. وقـ ـد رأيـ ـنا اسـ ـتقرار اللومبارد في شمال إيطاليا قرابة (٥٧٠) بعد الوباء العظيم، وبعد خلع جستنيان لملوك القوط الشرقيين. كـ ـان هؤلاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباباوات، وقد أبرمت ضدهم محالفة بـ ـين البابـ ـا وملـ ـك الفرنجة في زمن ببين. والآن أخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤)، وأرسل حماه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا: إلى دالماتيا (٧٧٦). وفي (٧٨١) جعـ ـل ابنـ ـه ببين (الذي لم يعش بعده) ينصب ملكًا على إيطاليا ويتوج في روما.

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث في (٧٩٥)، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جع ل شا رلمان إمبراطورًا. وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا. وك ان أقوي اء الأباطرة من أمثال جستنيان يخيفون الباباوات ويجبرونهم على المثول إلى القسد طنطينية؛ وك ان الأب اطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر. ولطالما خامرت قصد ر اللاتير ران [1] فك رة الانفصد ال ع ن القسطنطينية انفصالاً علمانيًا ودينيًا، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذي لا بد منه إذا أري د تحد دي القسطنطينية.

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ول واءً، رم زًا لسيادته في روما بوصفه ملكًا لإيطاليا. وسرعان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامي الذي اختار. ذل ك أنه كان مكروهًا في روما؛ فهوجم في شوارعها وأسيئت معاملته أثناء مسيرة في أحد المواكب، واضد طر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩). ويقول إجنهارد إن عينيه سملتا وإن لسانه قطع. ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان. فإن شرلمان أعاده إلى روما ورده إلى منصبه (٨٠٠).

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية. ففي يوم عيد الميلاد (٨٠٠)، وبينما كان شرلمان ينهض من الصد لاة ف ي كنيسة القديس بطرس، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء)، تاجًا على رأسه وحياه قيصد رًا وأوغسد طس. وعج الشعب بالاستحسان العظيم. ولكن إجنهارد صديق شرلمان والمترجم لسيرته، يق ول إن الإمبراط ور الجديد لم تسره فعلة البابا المفاجئة هذه بأية حال. فإنه قال: "لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسد ة، مهما بلغ العيد من الجلال!". ولا شك في أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمبراطورًا، ولكن من الواضد ح أنه لم يكن يريد أن يجعله البابا إمبراطورًا. وكان يجول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني، التي كانت تحكم في القسطنطينية في ذلك الزمان، وبذا يصبح عاهلاً لكل من الإمبراطوريتين الشرقية والغربي ة. ولكنه أصبح آنئذ مضطرًا إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث، أي بوصفه هبة م ن الباب ا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية. وكانت بيزنطة في بادئ الأم ر غير راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطوري. ولكن حد دث ف ي ٨١١ أن حل ت بالإمبراطوري ة البيزنطية كارثة عظيمة. فإن البلغار الوثنيين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ – ٨١٥)، دحروا وشتتوا جيوش الإمبراطور نقفور الذي أصبحت جمجمته كأسًا لكروم. وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان. (وبذلك يكون الشعبان البلغاري والإنجليزي ظهرًا كوحدتين سياسيتين في وقت واحد تقريبًا). وبع د هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أي اعتراض على هذا الابتعاث للإمبراطورية في الغرب، وفي (٨١٢) اعت رف رسميًا بشرلمان إمبراطورًا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين.

---

[1] واللاتيران هو قصر الباباوت الأول في روما. ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد. (المؤلف)

وبذلك تكون إمبراطورية روما التي ماتت على يدي أودواكر (Odoacer) في ٤٧٦، قد بعثت من جديد في ٨٠٠ م باسم "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" وعلى حين أن جسمها وقوتها الجسمية كانت في شمال جبال الألب، فإن مركز فكرتها كان روما. فكانت من ثم، منذ بدايتها، شيئاً موزعًا له قوة غير محددة، كانت دعوى وجدلاً أكثر منها حقيقة لا يستغنى عنها. كيف كان صليل السيف الألماني يسمع على الدوام في مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا، وكانت بعوثُ المبشرين والقاصدون الرسوليون يدلفون من فوقها في الاتجاه المضاد. على أن الألمان لم يتهيأ لهم البتة أن يحتفظوا بإيطاليا باستمرار، إذ لم يكن في طوقهم تحمل الملاريا التي كانت تلك البلاد المخربة المهملة غير المصرفة المياه مباءة لها. وثمة تقليد قديم كانت جذوته تتقد خلال الرماد في روما وفي مدن إيطالية أخرى عديدة، تقليد أعرق منبتاً، هو أحد التقاليد المتوارثة عن الجمهورية الأرستقراطية، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا على السواء.

٦- شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شرلمان وشخصيته، وبالرغم من أن لدينا سيرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد [١]. ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة، نعم إنه يدلي إلينا بتفاصيل كثيرة، ولكنها ليست التفاصيل التي تبعث الحياة في صورة الرجل المسجلة. وهو يقول إن شرلمان كان رجلاً طويل القامة، له صوت ضعيف أو يكاد، وكانت له عينان براقتان وأنف طويل. "وكانت قمة رأسه مستديرة"، (وما ندري لذلك القول معنى). وكان أشيب الشعر. وكانت رقبته غليظة قصيرة نوعًا و "بطنه شديد البروز". وكان يلبس إزارًا Tunic [٢] مطرز الحواشي بالفضة وجوربا له أربطة للساق. وكانت له عباءة زرقاء، وكان على الدوام متقلدًا سيفه، وكان مقبضه وحمائله من الذهب والفضة.

وواضح أنه كان رجلاً جم النشاط – وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة – ولم تحل غرامياته العديدة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع. كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات. وكان يكثر من مزاولة الرياضة: وكان مغرمًا بالأبهة والحفلات الدينية، كريمًا يجزل العطاء. كان رجلاً متعدد نواحي النشاط عظيم الإقدام الذهني، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بغليوم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق الذي هو آخر – وربما كان ذلك إلى الأبد – هذه المجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا الذين يقوم على رأس قائمتهم شرلمان.

والحياة العقلية التي يسجلها عنه إجنهارد شائقة لا تخلو من متعة، لأنها لا تقف عند إعطائنا لمحات عن شخصه مستطلعة، ولكنها تمثل لنا نموذجًا من عقلية ذلك الزمان. كان له إلمام بالقراءة؛ والراجح أنه كان أثناء تناوله الطعام "يصغي إلى الموسيقى أو القراءة"، ولكن يحدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة؛ "وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحه تحت وسادته، حتى يمرن يده على كتابة أشكال الحروف إذا تهيأت له فسحة من وقت الفراغ، ولكن تقدمه كان طفيفًا في ذلك الفن الذي ابتدأه في وقت متأخر جدًا من حياته". ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوي على احترامٍ حق للعلم ورغبة صادقة في المعرفة" وبذلك قصارى جهده ليجتذب رجال العلم إلى بلاطه. ومن بين الكثيرين الذين وفدوا عليه الكوين (Alcuin) وهو عالم إنجليزي.

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس)، إذ لم يكن هناك أي علماء آخرين، وطبيعي أنهم كانوا يصبغون المعلومات التي يقدمونها لسيدهم بصبغة قوية من الدين. وكان مقر بلاطه في العادة إكس لاشابل أو مايانس" فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غريبة تسمى "مدرسته"، وفيها كان يتظاهر هو وخلطاؤه اللوذعيون أنهم ينبذون جانبًا كل تفكير في المراكز الدنيوية، ويتخذون لأنفسهم أسماء مستقاة من كتَّاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة، ويتناقشون في اللاهوت والأدب. فأما شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم "داود". فأفاد علمًا غزيرًا ومعرفة جسيمة باللاهوت، وإليه ينبغي لنا أن

---

[١] انظر : "Life of Karl the Great" تأليف إجنهارد (جلايستر).

[٢] هو رداء روماني يشد بنطاق حول الخصر. (المترجم)

نسب اقتراح إضافة عبارة: "وعن الابن أيضًا Filio que" إلى قانون إيمان العقيدة النيقية [1] – وهي إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن الأخرى. ولكنا نشك كثيرًا في أنه كان يرمي إلى مثل هذه الفرقة. فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحي كلمة أو ما إليها، كما شاء الإمبراطور غليوم الثاني بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأوبرات) وأن يدبج الصور، وكان بذلك يتخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة إسبانية. فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل؛ واقتضت حكمة البابا ليو معارضتها. وعندما تم قبولها آخر الأمر، كان ذلك على الأرجح عمدًا بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية. والنقطة التي ينطوي عليها الموضوع، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية، غير أن كاتب هذه السطور لا يستطيع أن يدلي فيها برأي. فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن "الروح القدس" ينبثق من الآب "وعن" الابن، على حين يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن "الروح القدس" إنما ينبثق من الآب دون أي ذكر للابن. وهذا الاتجاه الثاني يبدو كأنما يميل هونًا ما نحو وجهة النظر الآريوسية. ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول في تنظيم شرلمان للإمبراطورية. فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتهيأ له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث في شروط الاستقرار السياسي، وأجدر الأمور بالذكر في هذا الصدد هي أنه أوصى ابنه وخليفته، لويس الورع (٨١٤ – ٨٤٠)، بأن يأخذ التاج من المذبح "ويتوج نفسه بنفسه". على أن لويس الورع كان أتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عندما اعترض البابا.

وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثر بقراءته للكتاب المقدس؛ فإنه أصبح مع تقدم الزمن، جيد المعرفة بالكتاب المقدس، ومن خصائصه المأثورة أنه بعد ما توج إمبراطورًا، طلب إلى كل ذكر من أفراد رعيته تجاوز الثانية عشرة أن يجدد له قسم الولاء والطاعة، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرعية بل مسيحيًا صالحًا. وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم عقوبتها الإعدام.

فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العمارة، فاستحضر معماريين إيطاليين عديدين، من رافنا (Ravenna) بصفة خاصة، ونحن مدينون لهم بكثير من المباني الجميلة التي ما زالت تبهج السائحين في ورمز وكولونيا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين. وبذل جهدًا كبيرًا للنهوض بفن العمارة "الرومانسكي" [2] الذي سنصفه في القسم التالي. وأسس عددًا من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة، وفعل الشيء الكثير لتشجيع دراسة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة، وكان هاويًا ممتازًا شديد الولع بموسيقى الكنيسة. على أن احتمال تحدثه باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جدال ونظر؛ ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية. ومع ذلك فإن الفرنجية (Frankish) هي لغته العادية. وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة. على أن خلفه لويس الورع دمر هذه لوثنيتها.

---

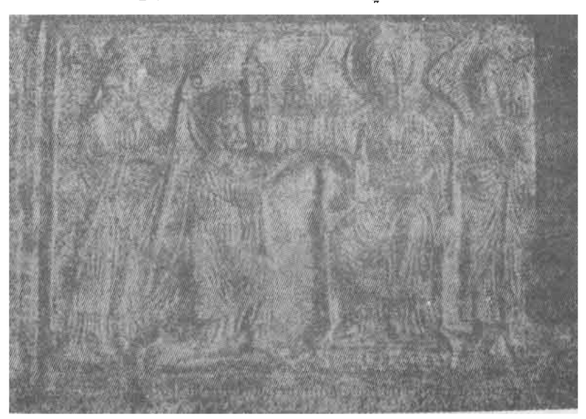
[1] يشير كما أسلفنا إلى المجمع الذي عقده قسطنطين (٣٢٥ م) وأصدر قانون إيمان انظر (ص ٧٤١). (المترجم)

[2] الرومانسكي طراز من فن العمارة وسط بين الطرازين الروماني والقوطي. انتشر بغرب أوربا بين القرن التاسع والثالث عشر. (المترجم).

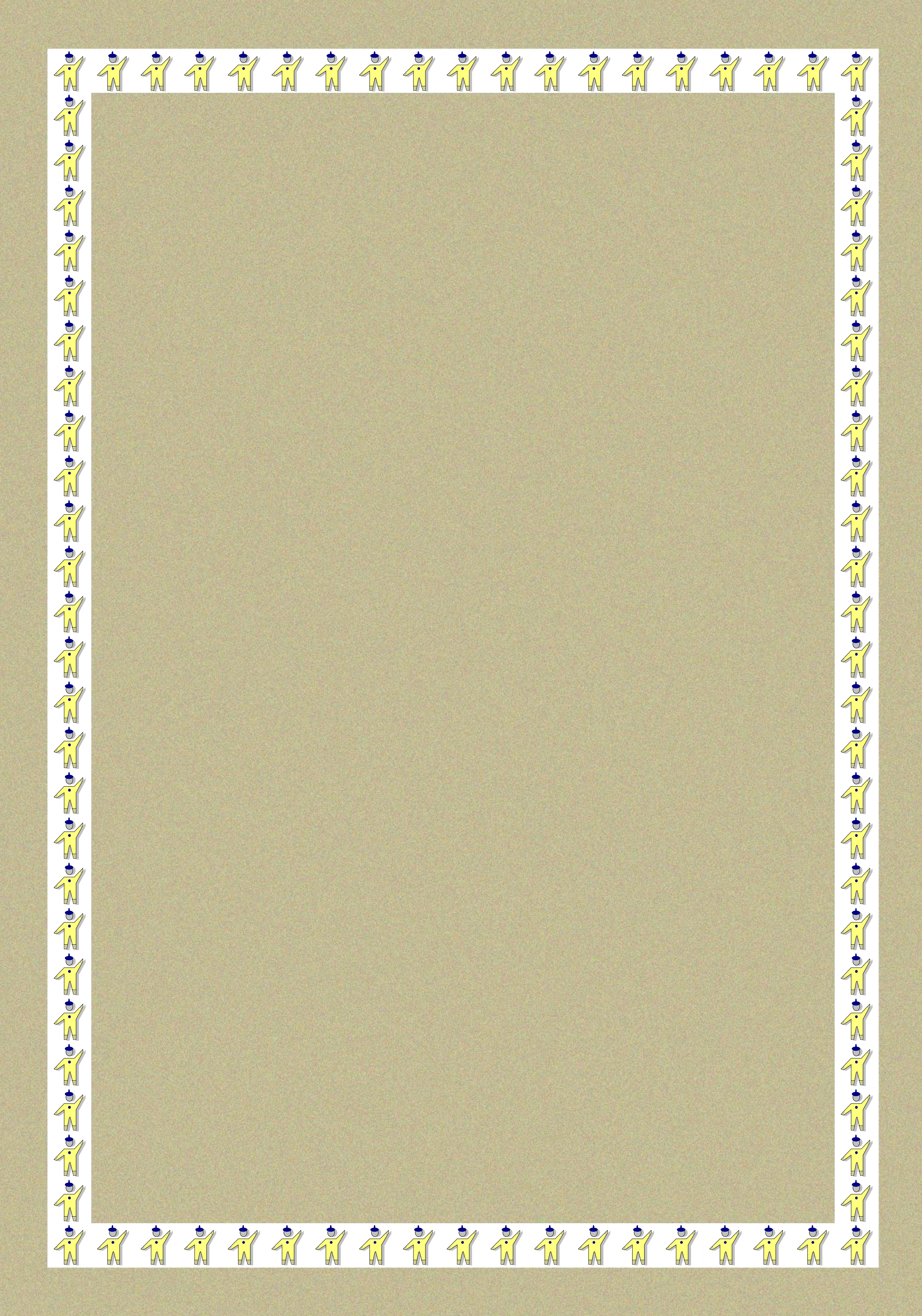
وتبادل الرسائل وهارون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد، الذي يحتمل أن مودته له لم تتأثر قط بم ا لقي ه العرب الأمويون في إسبانيا على يديه من شديد النكال ويرى جيبون أن هذه "المراسلات العلنية كانت تق وم على الغرور"، وأن "مركزيهما المتباعدين لم يتركا أي مج ال لاحتك اك المص الح". ولك ن لم ا كان ت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما في الشرق، والخلافة المستقلة بإسبانيا في الغرب، والخطر المشترك من أتراك السهول العظيمة، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية. ويق ول جيب ون إن هارون الرشيد أرسل إلى شرلمان على يد سفرائه فسطاطًا فاخرًا وساعة مائي ة وف يلا ومف اتيح الن اووس المقدس. والهِبّة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربي كان يَعدّ شرلمان إل ى ح دِ م ا، ح امي المس يحيين والممتلكات المسيحية في مملكته، ويعلن بعض المؤرخين صراحة – أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا الصدد.

٧- الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث في الشرق بدافع المؤثرات المسيحية، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية الف اخر الاذ زان والجمود، أي فن العمارة الذي يوجد في تدمر وبعلبك قد ألم به تحوير سريع عميق. تحول به نحـ و جمـ ود الجزالة الأثيرية التي للطراز البيزنطي؛ أما في الغرب فكانت تلم به تطورات مشابهة وإن لم تكـ ن منـ اظرة لتلك تمامًا. وقد شاع إطلاق اسم "الرومانسكي" على أضرب جمة من المباني تتبـ دى فيهـ ا جميعـًا صـ فة مشتركة، لأنها مشتقة جميعًا من التقاليد الفنية الرومانية، التي أوهن قوتها وكبحها انتشار الفقر بصفة عامـ ة في أرجاء العالم، ولكنها تشهد أيضًا في كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية جديـ دة وضـ رورات اجتماعيـ ة جديدة. فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة للماء ولا أي أقواس نصـ ر ولا معابـ د تقـ ام للآلهة. بل كانت هناك حصون وقلاع ضخمة مستديرة أو مربعة، وكنائس وأبراج. ويصبح البرج آنذاك لأول مرة مهما في أوربا: ذلك أن فن العمارة أخذ يعلو صُعُدًا. وقد كنا حتى الآن لا نشاهد الأبراج إلا فـ ي أرض الجزيرة بالعراق. ولم تحاول المباني في العالم المصري ولا الهلّيني ولا الروماني أن تشق عنان السـ موات. حقًا إنه توجد أبراج في التحصينات الرومانية والهلّينية وفي سـ ور الصـ ين العظـ يم، وهـ ي أجـ زاء مـ ن الاستحكامات الدفاعية، ولكن هذا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية. ثم يصـ بح البـ رج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع – وسنحدثك في قسـ م مقبل عن أهل الشمال (North men) والعرب والمجريين. وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسـ بب صـ لاة الجماعة التي يدعو إليها الدين الجديد، وطبيعي أن يظهر الاثنان جنبًا إلى جنب.



(شكل ١٣٧) رسم بارز من قبر شرلمان
في إيكس لاشابل يمثله وهو يكرس كنيسة للعذراء



الألف
كتاب
الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ.ج. ولز



المجلد الرابع

ترجمة



عبد العزيز توفيق جاويد

هـ. ج. ولز

H. G. WELLS.

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٦٠٠ – ١٩٦٥)

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind By

H. G. Wells.

الفهرس

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت "المعالم" كتابًا عربيًا، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطب اق الـ سماوات العلى التي تسكنها روحه بين العباقرة والنابغين، ويهيب بنا: "هاؤم اقرءوا كتابيه".

واليوم يتردد صوته في أجوائنا التي خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى، يتردد جهيرًا مدويًا كأنه النفخ في الصور "إني لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبي، وبذلت لها دع وتي، ورض يت له ا مذهبي وفكرتي".

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكانًا عليًا، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين. فقد قضى نصف عمره في الحدب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمح يض الن صح لها.

واليوم يستطيع ولز أن يسامي الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئًا ذاكيًا وهَّاجًا نصف قرن كامل من الزمان. وهي فترة لم تتح في العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تتهيأ لمرشد ذي رسالة.

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادي بواكيرها ومستهل تباش يرها، إذ هي هزة نشأت بإذن العلي القاهر في ذلك الماء الذي جعل منه كل شيء حي، هزة لا يكاد يق وم له ا أث ر ولكنها الأثر كل الأثر، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالي تهدهدها حتى تمثلت على ط ول الحق ب ب شرًا سويًا. ذلكم هو الكائن الذي حارت البرية فيه، والذي هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المع رة، هذا الكائن الضعيف بقوته القوي بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته، ه و منذ خليقته مصدر للشغب ومثار للفتن. بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى. وحل بالأرض فأفسد فيه ا وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا، تفتن ه هوائج ه ويزين له حب شهواته، والله في عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقلع.

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته، وأيقنا أن التاريخ وحدة واح دة، وأن رك ب الحضارة نهر واحد متدارك اللجات متلاحق الفيضات، وأنه إن هدأ يومًا أو ألم به شيء من الغيض، فلا ب د أن يتدفق في تاليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم واصطخاب، وأن البشرية على مر العصور كتلة واح دة متحركة دائمًا إلى الأمام في حركة واحدة تجمعها جميعًا وتضم شملها في عالمنا العصري الذي أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حبل الوريد.

* * *

والعصر الذي يستهل به كتابنا هذا كان، كما يقول بعض أفذاذ الزمان، أمثل الأزمان وأسوأها، وأحكمها وأحمقها، وأشدها نورًا وأشدها حلوكة. كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد؛ وكان ينطوي على ربي ع الأمل والرجاء وخريف اليأس والقنوط؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة؛ عصر رقي بلغ الذروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال؛ يوم

كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله في دينه وإلا فله الموت والعذاب؛ ويوم كان الغنيّ العزيز يعفى من الضرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجائع تمد بصرك فتجد في مكان كل شيء، وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء.

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الأرستقراطية كان ينهش كلب العامة، فما كاد الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه، حتى انقلب هو كذلك ذئبًا أشد ما يكون عواء وإزعاجًا ولعلعة بلسانه وولوغًا به في دماء الأبرياء.

وأين مبادئ الثورة الفرنسية؟ أين الإخاء والحرية والمساواة؟ لقد ذهبت في أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قددًا.

وهذه مغاليق قوى الطبيعة تتفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر، إذ أخذ عقل ذلك الجبار يتسلل إليها رويدًا رويدًا. فعرف كيف يستذل البخار، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولاً وعسيفًا ذليلاً. وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصرًا بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنَّى شاء.

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم، واستهوته المادة حتى أنسي الروح وما لها من قيام معلوم، ولج به الطغيان فبغى في الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعًا. وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملاً، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه الله لكافة مخلوقاته من حرية. لأن داعي الاستعمار قد أصمه عن كل ضمير وأعماه.

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقًا يتلقفها. وبشمت أوربا بما أنتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتمس مشتريًا. وتحول الشراء والبيع في أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب، فحيثما حل الأوربي فثم الاستعمار البغيض. وتلفتت دول أوربا بعضها إلى بعض، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد في أقطار العالم أقدامه، وإذا بعضها الآخر قد تخلف. وثار في النفوس ما ركب فيها من جشع. فالسابق يريد أن يستأثر، واللاحق يبتغي لقمة يسد بها جوعته. فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبورًا.

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود! ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم، أو من خشاش الأرض؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لا يقووا به فينازعوه سيادته التي زعم أن الله آثره بها وحده؟

وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بذريعة واهية؛ والله يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق، وقطع الطريق، والاستئثار بما في البلاد من خير وثمار.

وكيف يكون النفط في أرض إيران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلكم الشركات، وما هي بشركات ولكنها خدع وذر للرماد في العيون.

والإنسان لا جرم يطغى أن رآه تقوّى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بني الإنسان حربًا يهزمه فيهما ويفتك به. ولا يطيق المغلوب على الهزيمة صبرًا، فهو يترصد الغالب ويتربص به الدوائر، ويعد له معدات الفتك والفناء، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء، ثم ينفجر بها حربًا ضروسًا عاتية، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية، ولم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل، ومما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات. وانقسم العالم كدأبه فإذا هو محور وديموقراطية، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض، هذا ينسف وذاك يدك ويقصف، حتى استلقت البشرية أجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية، قد نزفت من الدماء ما لا قبل للأيام برده، وأزهقت من الأرواح شبابًا ما كان أجدره بأن يحيا ليسعد بالحياة، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية في البناء والتعمير لا في الفتك والتخريب.

والمالية والملكية والنقود، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد والجماعة؟ وما بالهن ينتجن المشكلات الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل؟

* * *

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين: فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك، على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوي ولا ضعيف ولا استعمار ولا مستعمرات، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التي وظيفتها التصدير والتوريد، وضبط النظام في البر والبحر والجو، وإرساء أسس الديموقراطية الصحيحة، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البرلمانية النزيهة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم.

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش، فما اختلاف الألوان ولا الأديان بعيب في طبيعتهما جميعًا، ولكن العيب في الناس وفيما يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوي على الغل والحقد أو التجبر والتحكم، فالناس جميعًا إخوان، والدين بالفطرة خير، فكيف ينجم عن الخير الشر؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر، فإن حافزه حب لا تشاؤم، ولذا فهو يهدي الناس بوعي وقوة وحمية وإخلاص هي السر فيما أوتي من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس.

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية. يريد أن يأخذ بيدها إلى قيم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلي عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادئ الخلقية. فالمادية إذ طغت ولدت حربًا، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض محبة وسلامًا، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووئام، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود، وسعادتها الضائعة، وسلامها المنشود.

ومن عجب أن ولز لا يترك علمًا ولا فنًا ولا تقدمًا ولا أدبًا إلا أرخ له وكتب عنه، ولا حادثة ذات أثر في تاريخ البشرية ولا ملكًا أو عظيمًا خلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجًا ذلك كله بهذه المبادئ الإنسانية الرفيعة ومنتجًا منها وشيًا رائع النقش أخاذ الإبداع.

فأنت لا تقف في إعجابك به عند حد، ولا تلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنعم فيه النظر وتتدبر ما فيه من آيات، تشعر بأن من المحزن حقًا أن عظماء الدول وأصحاب الرأي فيها لم يأخذوا إلا مؤخرًا جدًا بهذه المبادئ النبيلة التي دعته إليها الأديان السماوية قديمًا والتي يبثها ولز في كل سطر من سطور كتابه. ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره روزفلت وميثاق سان فرانسسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشرة لتعاليم ولز في هذا الكتاب وغيره.

ولا يذهبن عن فطنة القارئ أن ولز كاتب عميق عويص، يعبر عن فكر عميق عويص، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرؤها فيه، لأنه مثقف يكتب لكل مثقف مثله. وأنت أيها القارئ – مهما تكن مهنتك أو مزاجك في الحياة – واجد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك، وواجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظرًا زدت منه أثرًا.

فمن زعم أنه لن يجد التاريخ نقيًا صافيًا، منزهًا من كل دخل، مبرئًا من كل هوى، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء "المعالم"؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقالا فلينهل من مناهل ولز العذبة؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطنًا حرًا ذا رأي في إدارة شئون بلاده فليفد من ولز، ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم، وصراحة العمل، واحترام رأي الأغلبية، وتقديس الدساتير، والتخلي عن الميكيافللية البغيضة والدس والتآمر – فليتخذ من ولز رائده وهاديه.

وما أبدع أن تجلس إليه جلسة التلميذ الخاضع من أستاذه العظيم، لكي تخرج بعد ذلك مثقفًا ناصع الصقل، ومواطنًا بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة، عديم التعصب، عارفًا بحقك وكرامتك مؤديًا لواجبك ومؤمنًا بالديموقراطية.

وبعد فإذا لقي القارئ بعض العسر في استيعاب ولز ومتابعة عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبذله في ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكي بثمرات ذلك العقل الملهم الفياض.

عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجديدة في:

٩ أبريل ١٩٥٢ . ١٤ رجب ١٣٧١

كلمة المترجم للطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لقيت استجابة جميلة من جمهور القراء من عشاق أدب ولز وثقافته ورسالته الإنسانية، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بلدنا العزيز، وهو أمر عجبت له كثيرًا وأسفت له أكثر، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيه من المفاهيم والتعبيرات التقدمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم سابقًا لأوانه ففيه مثلاً: التطور والتطوير، والتنمية والتخطيط، والتأميم والحكم المحلي، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس في العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسيغونه في أبسط الظروف.

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برنارد شو نفسه يسخر منه ومنها أكثر من نصف قرن. وها هي ذي الإنسانية تشهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهما بعيدًا في ١٩٣٠. فقد انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا، أنه واجد فيها الأرض الخصبة البكر التي يرتع فيها ويهطع. وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسها وتؤمن من ثم بحقوقها؛ فتتخذ الديموقراطية أساسًا والاشتراكية منهجًا والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاعتماد عليه في رفع مستوى المعيشة ركازًا والنهوض باقتصاد الأمة مبدأ وعقيدة. وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت ضيقة الأفق الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة في بعض الحين، فقد أخذ هذان العيبان يزايلانها إلى حد كبير. فهناك السوق الأوربية (وهي مثل سيئ) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوربية المنشودة. وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على يد المؤتمر الأفريقي. وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأماني والآلام وجمعت بينها في الأهداف والخطط السياسية. وهناك وحدة العرب التي التأمت على يد الرئيس جمال عبد الناصر. وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي تتزعمها جمهوريتنا الفتية وتسابق في عقد مؤتمراتها إلى غير ذلك مما يجده القارئ موضحًا في هذا الكتاب كدعوة ومتسلفًا كنبوءة وممثلاً في جو الحياة كحقيقة.

وقد نقحت هذه الطبعة تنقيحًا شاملاً فضلاً عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب في الإنجليزية (١٩٥٦). وهي الطبعة التي قال في مقدمتها المستر رايموند بوستجيت الذي تولى إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التي أعدها المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها جامعة لتعقيباته على أحداث أربعينات القرن. وكان تاريخ صدور الطبعة التي نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحتوي على أحداث الحرب العظمى الثانية، الأمر الذي ألجأني إلى أن أنتهج نفس السبيل التي سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب "موجز تاريخ العالم" الذي أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبيل وفاته، كما أكملت ما في تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف نفسه وبذلك استكملت تاريخ الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تعديل جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية. فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغي ذيل الكتاب القديم.

وكدأبي في الطبعة الثانية من أجزاء اذه الكتاب ذيلته بكشاف أبجـ دي وأضـ فت إلي ـه م ن الـ صور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية.

وإني لأشكر للسادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذي يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمي الكريم ولا يسعني إلا أن أبذل الشكر جزيلاً عاطرًا إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجيهات المرشدة. وإذ أختم كلمتي هذه أؤكد للقـ ارئ أني أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد.

كما أنني أشهد القارئ أنني أفارق ولز فراق الآسف راجيًا أن يمد الله في الأجل حتى أرى رسالته قـ د تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعًا، وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب في مجـ د واحـ د يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتي سفر محدود.

والله الموفق للسداد..

مصر الجديدة في ١٤/ يناير ١٩٦٥

ع. ت. ج

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

١- الأمراء والسياسة الخارجية.

٢- الجمهورية الهولندية.

٣- الجمهورية الإنجليزية.

٤- انقسام ألمانيا واضطرابها.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٧- التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٨- نمو فكرة الدول العظمى.

٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها.

١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار.

١١- بريطانيا تسود الهند.

١٢- تقدم الروسيا إلى المحيط الهادي.

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠.

١٤- الهدنة الاجتماعية تشارف نهايتها.

١- الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا في الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة، هي المدنية ذات الطابع الحديث التي أصد بحت ف ي العصر الحالي تعم العالم أجمع. وهي لا تزال إلى الآن شيئًا ضخمًا لم تستو له قسمات، ولم تتخط في يومنـ ا هذا بواكير أدوار النمو والتطور. وشهدنا فكرتي العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية – بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام – تذويان – عند مستهل ذلك الفجر. وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديدًا يشمل العالم برمته. وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان مـ ن ميـ ادين المصالح الإنسانية الأخرى، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العـ امتين وهمـ ا الكنيـ سة والإمبراطورية، إلى تدلي الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدوني.

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية، وهي طور من تلك الأطوار التي كان يسميها كتّاب الحوليات[١] من الصينيين "عصور الاضطراب". ولبثت فترة التوقف هذه أمدًا يعادل المدة الممتدة بـ ين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تتويج شرلمان في روما. وما زلنا حتى اليوم نعيش في ظلالها ولعلهـ ا أشفت على نهايتها. وأقول "لعلها" لأننا لا نستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك. وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يبلبل عقول الناس وأفعالهم، لذا اضطر العالم في الوقت نفسه أن يرتد على عقبيه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة: تقاليد الأمير الفرد. ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم، وكان الأمير بين أيديهم.

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة، وقد سادتها الملكية التي تنزع إلى الحكم المطلق. فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية). وكان الحكم ف ي إسبانيا استبداديًا بالفعل. ولم يصل العرش يومًا في إنجلترة إلى مثل قوته آنذاك، حتى إذا تقدم القرن الـ سابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة في أوربا وأشدها تماسكًا. وما نحن بقـ ادرين على أن نسجل ها هنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات.

وكانت تحتشد في كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دورًا ميكيافلليًا ضد منافسيهم في الدول الأخرى. والسياسة الخارجية هي الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك. ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهـ م الشخـ صيات البارزة الزعيمة في تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله. وهم الذين دأبوا على إلقاء أوربا في أتون حُمَّى من الحروب. وكانت نفقات الحروب في ازدياد باهظ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجنـ دين غيـ ر مدربين ولم تعد جموعًا من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم، بل أخذت تـ شتد حاجـ ة

---

[١] كتاب الحوليات (Annalists) هم الذين يدونون التسجيلات السنوية للأحداث. (المترجم).

هذه الجيوش إلى المدفعية؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجورًا يلحون في طلبها؛ كانوا جنودًا محترفين متأنّين حذاقًا، يقومون بالحصارات الطويلة، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة. فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة في فرض الضرائب.

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر – في نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع. إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون في حياة رعاياهم ولا أموالهم. بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التي كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لاعتداءاتهم ومحالفاتهم السياسية أن تتواصل. وأصبحت الشئون المالية شبحًا كريهًا في كل قاعة يجتمع فيها مجلس. وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده. فقد أعلن جيمس الأول ملك إنجلترة (١٦٠٣) أنه "لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله، أو أن يقول إن ملكًا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك".

ولكنه وجد في الواقع – كما قُدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثرًا مما وجد أبوه – أن في ملكه عددًا كبيرًا من أصحاب الأرض والتجار، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم، قد رسموا حدًا محدودًا لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم. كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مُكِّنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكًا وأقيالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل. ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئًا.

وكان هناك تطور مماثل لهذا في كل أرجاء أوربا. فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقيال الصغار، وأعني بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (الممادنين) الأغنياء ومن إليهم، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التي أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور. وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم، وأن يكونوا أحرارًا في ديارهم وضياعهم. وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازدياد الاتصال بين الناس، أن تمكن هؤلاء الأقيال الصغار، أقيال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكري متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله. كانوا نزاعين في كل مكان أن يقاوموا الأمير، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليسر في المقاومة المنظمة. فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية في الأراضي المنخفضة وإنجلترة جعلت هذين القطرين أول من جعل الخصومة بين العاهل والمالك موضع البحث للوصول إلى حل ناجع لها.

وفي بادئ الأمر كان "جمهور" القرن السابع عشر هذا، جمهور أصحاب الأملاك، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية. ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر كيف أنها تؤثر فيهم. فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك. ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الخارجية، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات، فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة، وعلى التدخل في شئون التجارة، وعلى الحبس التعسفي، وعلى تحكم الملك في الضمائر. وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج.

٢- الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التي اسـتعرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. بيد أنها كانت تختلف في تفاصيلها اختلافًا بالغًا تبعًا للخصائص المحلية والعنصرية، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمردًا على السلطان الشخصي "للأمير" وعلى توجيهه السياسي والديني.

كانت منطقة الراين الأدنى بأكملها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من صغار الحكام، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German) [١] من دونها أساس كلتيّ قديم، وتخالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهدًا شديدة الشبه بما في بلاد الإنجليز من خليط. وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى. ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهورًا كبيرًا في الحروب الصليبية. فإن جودفري البوبوني (of Bouillon) الذي استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكيًا. كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندرا. (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين، لأنهم كانوا يظاهرون الكنيسة اللاتينية).

ونمت مدن ضخمة في الأراضي المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر: منها غنت وبروج وإيبر وأترخت وليدن وهارلم وما إليها. وتطورت في هذه المدن "حكومات مجالس بلدية" شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين ولن نشغل القارئ بما سنح بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضي المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية)، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى ميراث الإمبراطور شارل الخامس.

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التي كانت عندئذ ذاك تعم ألمانيا. واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة، ولكنه ما لبث في (١٥٥٦)، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثاني). وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة – وقد كان مشتبكًا بحرب مع فرنسا – مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضي المنخفضة وأهل مدنها، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالبًا المعونة. فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة، يقودهم وليم الصامت، أمير أورانج، وكونتا إجمونت وهورن، وصار يستحيل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد الديني. وفي أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة. أما الشعب فكان من قبل بروتستانتيًا متعصبًا.

---

[1] راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ط٢. والأورمة الألمانية الدنيا هي التي كانت تسكن سهل ألمانيا الشمالي المنخفض ولغتهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا. (المترجم).

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضي المنخفضة وضمائر أهليها جميعًا. فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الإسبان واستعمل على البلاد نبيلاً اسمه ألفا، وهو أحد أولئك الرجال "الصارمين" الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملكيات. فطفق يحكم البلاد ردحًا من الزمان بقبضة من حديد، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسه من جسم روحًا من حديد، ففي (١٥٦٧) جهرت كل الأراضي المنخفضة بالعصيان. وأخذ ألفا يُعمل القتل والانتهاب والمذابح على غير طائل. وأُعدم الكونت ان إجمونت وهورن. فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر، ومليكهم في الواقع.

واستمر الكفاح في سبيل الحرية زمانًا طويلاً يتخلله كثير من التعقيد، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين في كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثاني إنما هو ملكهم – على شريطة أن يرضى أن يكون ملكًا معقولاً محدود السلطان. ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان في أوربا وقتذاك، وأخيرًا دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التي نطلق عليها اليوم اسم هولندة، إلى النزوع نحو الحكم الجمهوري. وليلحظ القارئ أن ذلك النزوع ظهر في هولندة وليس الأراضي المنخفضة جمعاء. ذلك أن القسم الجنوبي من الأراضي المنخفضة وهو بلاد البلجيك كما يسمى ذلك القطر الآن، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضًا.

ويمكن أن يتخذ حصار آلكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلي[1]، مثالاً على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندي الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكي التي كانت لا تزال كبيرة ضخمة. كتب ألفا إلى فيليب يقول:

"إذا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فردًا. ولسوف أضع النصل في كل رقبة.."

والآن وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والخاوية على عروشها، وكأني بها شبحًا يتنبأ لهم بمصيرهم، فإن رجال آلكمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تهيّؤوا لأسوأ الظروف. وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر. ذلك بأن الفتحات الهائلة التي يمكن بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بغاية السرعة، لم تكن إلا على مبعدة أميال قليلة. فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب في صفهم. ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهلين لازمة للحصول على تلك النتيجة، إذ إن تلف كل المحاصيل التي في الحقول يكون عند ذاك محققًا. وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجدوا رسولاً يقوم بتلك المهمة المخطرة. وأخيرًا تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعي بيتر فان دروماي.

"وسرعان ما تحرجت الأمور في داخل المدينة المحصورة. فقد كانت تحدث في كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة. ثم حدث آخر الأمر في اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدون فردريك في الساعة الثالثة بعد الظهر أمرًا بالهجوم، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضربًا متواصلاً دام اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. وبالرغم مما مر به من خبرة دامت سبعة شهور في هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ

---

(1) في كتابه "Rise of the Dutch Republic"

المدينة اكتساحًا. وحدث الهجوم في نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر في الجهة المقابلة. وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكًا من لومبارديا، وهما تزلزلان الجو بصيحات أفرادهما معبرين عن ثقتهم بنصر هين قريب. وكانت تظاهرهم قوة جارفة من الجنود المنظمة. بيد أنه لم يحدث قط في تاريخ هارلم القريب، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جنانًا وأشجع أفئدة. فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذًا مكانه على الأسوار. وكانت الجماعات المهاجمة تقابل بالمدافع والقرابينات والغدارات. وكان الماء الحار والقار والزيت المغلي والرصاص المصهور والجير الحي تصب عليهم في كل لحظة صبًا. وكانت مئات من الأطواق المقيَّرة والمحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود، الذين حاولوا عبثًا أن يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية، في حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمه على الثغرة حتى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه في الخندق.

"وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلين وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلد لا هوادة معهما. واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات. ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة، إلا أن يسقط عنه صريعًا أو جريحًا. ونفخ في البوق نفخة الارتداد، وانسحب الإسبان عن الأسوار مدحرين تمام الاندحار، مخلفين وراءهم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية... وقد روى حامل العلم سوليز الذي صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة ونجا بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجًا: بل شهد نفرًا من الناس البسطاء المظهر يرتدون عمومًا ثياب صيادي السمك. ومع ذلك فإن هؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألفا.

"وفي نفس الوقت كان الحاكم سونوي قد فتح كثيرًا من جسور الماء، فأخذت الأرض في المنطقة المجاورة للمعسكر تصبح بركًا، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتى آنذاك. ودب دبيب القلق في الجنود وامتلأت نفوسهم بالشكس والتمرد. ولم تذهب مهمة النجار عبثًا...".

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل. ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التدبير – وهو في طريقه إلى المدينة – فوقعت في يد ألفا. وكانت تحوي وعدًا صريحًا من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء غمرًا يجعل الجيش الإسباني بأكمله من المغرقين. وكان هذا الأمر يغرق في نفس الوقت معظم محصول الهولنديين وماشيتهم. ولكن ألفا عندما أطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى. وسرعان ما أخذ رجال آلكمار البواسل يتصايحون ويهتفون – حين شهدوا الإسبان يأخذون أهبة الرحيل والتفرق.

واتخذت حكومة هولندة المحررة شكل جمهورية من الأشراف تحت رياسة بيت أورانج. وكان "مجلس الطبقات States General أقل تمثيلاً لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزي، الذي سنقص عليك فيما يلي قصة كفاحه مع التاج.

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار، فإن هولندة لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩)، ولم يعترف باستقلالها اعترافًا تامًا كاملاً إلا في معاهدة وستفاليا في (١٦٤٨).

٣- الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذي قام به مالك العقار مناهضًا عدوان "الأمير" في إنجلترة منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثاني عشر. ودور الكفاح الذي علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذي ابتدأ بمحاولات هنري السابع والثامن وخلفائهما، إدوارد السادس، وماري وإليزابيث جعل حكومة إنجلترة "ملكية شخصية [1]" من الطراز الشائع بالقارة الأوربية. واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعًا لمصادفات المصاهرة في الأسرة المالكة، أن أصبح جيمس ملك اسكتلندة، هو جيمس الأول ملك إنجلترة واسكتلندة على السواء (١٦٠٣)، وأخذ يتكلم على المنوال الذي اقتبسناه عنه آنفًا عن "حقه الإلهي" في أن يفعل ما يشتهي.

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلاً معبّدًا. ففي كل العاهليات التي أقامها غزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلي الشعب ذوي النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة، ولم تكن تلك الجمعية أنشط في أيّ منها حياة في إنجلترة. فكانت لفرنسا تقاليدها الخاصة بجمعية "الطبقات الثلاث Estates" وكان لإسبانيا كورتيزها. بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين: أولاهما أنها كانت تستند إلى تصريح يتخذ صفة الوثيقة ويحتوي على حقوق معينة أولية وعامة؛ وثانيتهما أنها كانت تضم "فوارس مقاطعات" منتخبين كما تضم نوابًا عن المدن منتخبين أيضًا. وكانت الجمعيتان الفرنسية والإسبانية تتألفان من العنصر الأخير دون الأول.

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلمان الإنجليزي قوة خاصة في كفاحه مع العرش. والوثيقة المعنية إنما هي "الماجناكارتا" أي العهد الأعظم، وهو تصريح أخذ غصبًا من الملك جون (١١٩٩ – ١٢١٦)، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ – ١١٩٩) وخليفته، وذلك بعد العصيان الذي قام به البارونات في (١٢١٥). وهو يكرر عددًا من الحقوق الجوهرية التي جعلت من إنجلترة دولة قانون لا دولة ملك. وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع المواطنين – اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن.

فأما وجود ممثلي المقاطعة المنتخبين في البرلمان الإنجليزي – وهي الخصيصة الثانية في حالة بريطانيا – فقد نجم عن بدايات بسيطة جدًا، وحميدة لا مضرة منها. إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطني ليشهدوا بمقدرة نواحيهم على دفع الضرائب. وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى في نواحيهم في زمان يرجع إلى (١٢٥٤)، فينوب عن كل مقاطعة فارسان. فألهمت هذه الفكرة سيمون دي مونت فورت، وكان في ثورة ضد هنري الثالث، خليفة جون، أن يدعو إلى المجلس الوطني فارسين عن كل مقاطعة، وممادنين لكل

---

[1] الملكية الشخصية أو الفردية هي الاستبدادية المطلقة التي يجتمع فيها الحكم في شخص الملك. (المترجم)

مدينة أو بندر انتخابي [١]. وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنري الثالث، إذ إنه كان يلوح في نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالي بالمدن النامية.

وأبدى الفرسان ورجال المدن في بادئ الأمر قدرًا جسيمًا من عدم الرغبة في حضور البرلمان، ولكنهم أدركوا شيئًا فشيئًا القوة التي يملكونها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطًا لمنح الاعتمادات المالية.

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة في المدن والريف يسمون باسم "العموم Commons". وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور من زمن قديم جدًا أو قل منذ البداية، بمعزل تام عن كبار اللوردة والأساقفة. وهكذا نمت في إنجلترة جمعية نيابية تمثيلية، هي مجلس العموم، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللوردة. ولم يكن هناك فارق جوهري عميق يفرق بين هيئتي الجمعيتين. إذ إن كثيرًا من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبينهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم، على أن مجلس العموم كان في جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية.

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية، وبخاصة مجلس العموم، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد. وأخذا بالتدريج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها.

ولسنا بمترسمين التقلبات التي ألمت بقوة البرلمان الإنجليزي وهيبته إبان حكم ملوك آل تيودور، (أعني هنري السابع والثامن وإدوارد السادس وماري وإليزابيث)، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي، وجد التجار والنبلاء والجنتلمانية المستقلون الإنجليز، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أي شعب في أوربا نظير لها.

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسي الإنجليزي، هي انفصاله النسبي عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو الكفاح الذي كانت نيرانه مشبوبة في كل أرجاء أوربا. حقًا إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزي منازعات دينية واضحة المعالم جدًا، ولكنه كان في جوهره نضالاً سياسيًا بين الملك والبرلمان مجسمًا في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة. على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية من الآخذين بالإصلاح الديني كما كانا من البروتستانت. نعم إن كثيرًا من الناس في الجانب الأول (أعني الشعب) كانوا بروتستانت، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزنًا للنظام الكهنوتي، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح الديني كما تراه الشعوب، وإن الملك كان الرئيس الاسمي لكنيسة من نوع خاص تعترف بالعشاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت، وهي كنيسة إنجلترة الرسمية، التي تمثل الإصلاح الديني كما يراه الأمراء [٢] ولكن هذه الخصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الجوهرية.

---

(1) البندر الانتخابي: لفظة أطلقناها للدلالة على Borough ومعناها المدينة التي ترسل عنها نوابًا في البرلمان. (المترجم).

(2) انظر ص ٩٧٩ ج٣ من المعالم الطبعة الثانية.

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول في (١٦٢٥)، ولكنه لم يبلغ ذروته، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول. وفعل شارل بالضبط كل ما يتوقع من ملك في ذلك الموقف، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية. فإنه زجّ بالمملكة في حرب مع كل من إسبانيا وفرنسا، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطني على ما توقّر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال. فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض، وحاول أن يفرض على الناس ألوانًا مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية.

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبدًا (١٦٢٨)، هي "ملتمس الحقوق Petition of Rights" ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزي، وأنكر حقه في جباية الفرائض من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس، دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة.

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي. والميل إلى عرض القضية، كان على الدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جدًا. وعندما كان الرئيس ولسون أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٨) يمهد لكل خطوة من خطوات سياسته "بمذكرة"، كان يسير في نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقارًا.

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس – فحله في (١٦٢٩)، وظل أحد عشر عامًا يحكم بلا برلمان. ويجمع الضرائب جمعًا غير قانوني، ولكنها لم تكن تفي بغرضه وإذ أدرك أن في الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة، عين لود رئيسًا لأساقفة كانتربوري وبذا يصبح على رأس كنيسة إنجلترة، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدواني الطبع، وينطوي على كثير من صفات القسيس وممن يؤمنون "بالحق الإلهي".

وفي (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنيسة الإنجليزية الذي يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية، إلى مملكته الأخرى الاسكتلندية، التي كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل، والتي كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتي ولا تعترف بالعشاء الرباني، وهي الكنيسة البريزبترريانية Presbyterian [1]، التي تأسست بوصفها الكنيسة القومية. فثار الاسكتلنديون، وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلهم.

وكان الإفلاس – وهو في كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح – قاب قوسين منه أو أدنى. واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة، أن يدعو آخر الأمر برلمانًا (١٦٤٠). ولكنه حل ذلك البرلمان في السنة نفسها، وهو المعروف بالبرلمان القصير. ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء في يورك (١٦٤٠)، ثم استدعى في نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له.

---

[1] البريزبتريانية هي كما ترى الكنيسة الاسكتلندية الرسمية. وهي تقوم على إدارة الشئون الدينية والكنيسة بواسطة الكهول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا. وقد قامت على تعاليم جون كالفن. (المترجم).

واجتمعت هذه الهيئة، وهي البرلمان الطويل، وهي في حالة تهيؤ للنضال. فقبضت على لود، رئيس أساقفة كانتربوري، واتهمته بالخيانة. ونشرت ما يسمى "بالاعتراض الأكبر"، وكان تقريرًا مفصلاً شاملاً لقضية البرلمان ضد شارل. وأصدر البرلمان مشروع قانون (Bill) – اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة في كل ثلاث سنين على الأقل، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه. وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان، وبخاصة الإيرل سترافورد.

فدبر الملك إنقاذًا لاسترافورد – مؤامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن. ولكن المؤامرة اكتشفت، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضي بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبي. ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطاني وأشدهم خيانة. ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار. فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد.

وكان الملك في الوقت نفسه يأتمر في الخفاء ويبحث عن المعونة في مواطن غريبة، يتنشدها بين الإرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الاسكتلنديين. وأخيرًا لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف. فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه. فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة. وكان مستعدًا لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جمل متقطعة. إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنسر، ولجئوا إلى مدينة لندن التي كان لها مجلس بلدية يحكمها حكمًا ذاتيًا. وتحدته لندن. وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر، ولكي يتجنب الملك جو الصخب والعداء الذي صحب الحادث، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور. وعندئذ استعد كل من الفريقين صراحًا للحرب.

وكان الملك هو الرئيس التقليدي للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك. وكانت لدى البرلمان موارد أعظم. ورفع الملك لواءه في نوتنجهام في مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢).

وعقبت ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة، كان الملك فيها مستحوذًا على أكسفورد والبرلمان على لندن. وكان النجاح ينتقل من جانب إلى جانب، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن، كما لم يستطع البرلمان أن يستولي على أكسفورد. وكان يفل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين "لم يكونوا يحبون الاشتطاط في الأمور".

وبرز من بين قادة البرلمان، رجل اسمه أوليفر كرومويل، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جنرال. ويصفه معاصره اللورد واورويك بأنه رجل بسيط يرتدي بدلة من قماش عادي صانعها خياط "ريفي رديء". لم يكن مجرد جندي مقاتل، بل كان منظمًا عسكريًا، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية، ونصب نفسه لإصلاحها. وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة، تقاليد الفروسية والولاء. وكان البرلمان شيئًا جديدًا عسيرًا على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك. قال كرومويل "إن معظم جنودكم

إنما هم خدمة وسقاةٌ كهولٌ واهنو القوى، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشخاص الأسافل الأدنياء، تستطيع يومًا أن تقاتل الجنتلمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم؟.

ولكن هناك شيئًا أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة في العالم، وذلك هو الحماسة الدينية. ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من "الربانيين الأتقياء". وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالاً جادين معتدلين في حياتهم. وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالا ذوي عقيدة قوية. فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة. قال: "إني لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدي بدلة ريفية حمراء، ويعرف الذي من أجله يحارب ويحب ما يعرف، على ما تسمونه جنتلمانًا وليس بشيء عدا ذلك".

واكتشفت إنجلترة بين ظهرانيها قوة جديدة هي الحرس الحديدي. كان السعاة والحوذية وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا، إلى جوار أبناء البيوتات. وأصبحوا النموذج الذي حاول البرلمان أن يبني على منواله من جديد جيشه بأكمله. وكان الحديديون هم العمود الفقري "للنموذج الجديد". واجتاح هؤلاء الرجال أمامهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسبي. وأخيرًا وقع الملك أسيرًا في قبضة البرلمان.

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك في عرشه بشكل ما، ولكن شارل كان رجلاً قدرت عليه العواقب المحزنة، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط؛ "رجلاً بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان". وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد في تاريخ العالم، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانته شعبه وأن يقضي فيه بحكم.

والحق أن جميع الثورات – شأن هذه الثورة الإنجليزية – إنما تدفعها نحو العجلة المتهورة تصرفات الحاكم ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالا يتجاوز حدود القانون. وتتقذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفًا مما كان يستشف من الخلاف الأصلي. ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر. والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم مترددون، والراجح أن الغالبية العظمى منهم كانت لا تزال تريد أن يظل الملك ملكًا وأن يكون الناس أحرارًا، وأن يرقد الأسود والخراف بعضهم إلى جوار بعض في سلام وحرية. ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن في مستطاعه أن يتراجع. فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا جنتلمانية الملك بخيولهم. وعندما شرع البرلمان في التفاوض من جديد مع المخاتل الملكي، تدخَّل الطراز الجديد. فطرد الكولونيل برايد ثمانين عضوًا من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك، ثم قدمت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الأبتر (Rump Parliament)، الملك إلى المحاكمة.

ولكن الواقع أن الملك كان مقدرًا عليه من قبل قضاء لا مرد له. فلما أن رفض مجلس اللوردة قانون المحاكمة، أعلن البرلمان الأبتر عند ذلك "أن الأمة إنما هي في ظل الله مصدر كل السلطات العادلة" وأن "العموم في إنجلترة أصحاب السلطة العليا في هذا الشعب"، وإذ افترض المجلس الأبتر أنه هو نفسه العموم – فإنه واصل المحاكمة. وحكم على الملك بأنه "طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده". وأخذ في صباح أحد أيام

شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة في هوايت هول. وهكذا قطعت رأسه. فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل – وذلك بعد إعدام استرافورد بثمانية أعوام، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة، سببها كلها تقريبًا بلا استثناء خروجه على القانون.

والحق أن هذا الذي عمله البرلمان كان عملاً فظيعًا مرعبًا. فلم يسمع الناس بمثله قط في العالم من قبل نعم إن الملوك كثيرًا ما قتل أحدهم الآخر؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاغتيال وسائل اختص بها الأمراء؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب، ويحاكم ملكه في جد وتعمد متهمًا إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة، ويحكم بإدانته ثم يقتله، فأمر بث الذعر في كل بلاط في أوربا. ذلك أن البرلمان الأبتر تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكراته. وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الظباء فأسر أحد النمور وقتله – وهي جريمة مخالفة للطبيعة. فطرد قيصر الروسيا السفير الإنجليزي من بلاطه. واتخذت فرنسا وهولندة تصرفات عدائية صريحة. ووقفت إنجلترة منعزلة أمام العالم، مبلبلة يؤنبها ضميرها بجرمها.

ومضى ردح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليفر كرومويل ولنظام الجيش الذي أنشأ وقوته، أن تصون لإنجلترة النهج الجمهوري الذي سلكت. وكان الإرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة في الإنجليز البروتستانت النازلين في إرلندة، وعند ذاك قمع كرومويل بشدة عظيمة الإرلنديين العصاة. وفيما عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم. ولكن فظائع المذبحة كانت لا تزال قوية الأثر في ذهنه، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة في المعركة، ومن ثم لا تفتأ ذكراه يتقد لهيبها في أذهان الإرلنديين، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل.

وبعد إرلندة، جاء دور اسكتلندة، حيث مزق كرومويل جيشًا ملكيًا في معركة دنبار (١٦٥٠).

ثم صرف انتباهه إلى هولندة، وهي القطر الذي نهز في حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له في التجارة. وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر، فكان قتال الأسطول الإنجليزي من ثم غير مضمون العاقبة. ولكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى. وأصبح حتمًا مقررًا على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها. وذهب أسطول إنجليزي إلى البحر الأبيض، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه؛ فأصلحت كثيرًا من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكاني ومالطة، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القراصنة – الذي تعوّد في أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديفون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقية.

وتدخلت كذلك ذراع إنجلترة القوية لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا، وكان دوق سافوي يطاردهم ويفتك بهم. ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من "قتل العاهل" فتحالفن مع إنجلترة. ونشبت الحرب مع إسبانيا، ودمر الأميرال الإنجليزي العظيم

بليك أسطول المعادن [1] الإسباني في تناريف في إقدام وجرأة لا يكاد يصدقها عقل. فإنه هاجم البطاريات البرية. فكان بذلك أول رجل "جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشواطئ". (ومات في ١٦٥٧، ودفن دير وستمنستر، ولكن نبشت عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثاني، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر). تلك هي الصورة التي نقشتها إنجلترة لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة.

وفي اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفي كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ. وما كادت يده القوية تجمد عن الحركة، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال؛ ففي (١٦٦٠) رحب الناس في إنجلترة بعودة شارل الثاني ابن شارل "الشهيد" بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصي المحببة إلى قلوب الإنجليز، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتثاءب بعد حلم عنيف حاد. قُضي على البيوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم. وعادت إنجلترة المرحة سيرتها الأولى، وفي (١٦٦٧) دخلت سفن الهولنديين – وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية – في نهر التاميز حتى وصلت جرافزند Gravesend وأحرقت أسطولاً إنجليزيًا في الميدواي [2].

يقول ببيس في يومياته: "وفي الليلة التي أحرق فيها الهولنديون سفننا، تعشى الملك فعلاً مع مولاتي الليدي كاستيل مين، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة".

وتناول شارل منذ ساعة عودته (١٦٦٠)، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديه، و (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تمامًا لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوي مقداره مئة ألف جنيه. وكانت دنكرك التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا. وكان الملك رياضيًا عظيمًا، وله الولع الإنجليزي الصحيح بمشاهدة سباق الخيل، ولعل أبلغ آثاره في الدلالة على خصائصه حلبة السباق في نيوماركت.

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة، الاحتفاظ مدى سني حياته بالعرش البريطاني، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيطة وخطة التفاهم والمسالمة، حتى إذا خلفه في (١٦٨٥) أخوه جيمس الثاني، الذي كان كاثوليكيًا مخلصًا، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الخفي الذي يحد من سلطة الملكية في إنجلترة، عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك إلى حدته الأولى.

ونصب جيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما. وإذا به في ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا. على أن اللوردة الكبار والتجار والجنتلمانية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على أيدي كولونيل برايد آخر أو كرومويل آخر. وكانوا استدعوا آنفًا ملكًا آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك. وتم التغيير سريعًا. ولم تحدث أية حرب أهلية – اللهم إلا في إرلندة – ولم تنطلق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه.

---

(1) المستعمل في نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا. (المترجم)

(2) الميدواي: نهر صغير بإنجلترة يصب في نهر التاميز. (المترجم)

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش، أو بالحري في ادعاء زوجته ماري به، فإن هذا موضوع فني بحت – كما يقولون – ولا كيف حكم وليم الثالث وماري، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردحًا من الزمان، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ – ١٧١٤) أخت ماري. ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت، ولكن اللوردة والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشئون الإنجليزية، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية. إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوفر، الذي أصبح ملكًا على إنجلترة باسم جورج الأول (١٧١٤ – ١٧٢٧). كان ألمانيًا قحًا لا يعرف اللغة الإنجليزية، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزي حشدًا من النساء الألمانيات والحشم الألمان؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خمود وركود وزال عنها الصقل، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم ما يزكيه لدى كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية، بل كان الميزة التي من أجلها خاصة استقدموه.

ودخلت إنجلترة مرحلة يسميها اللورد بيكونز فيلد باسم مرحلة "أوليجركية البندقية "[1]؛ وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدي البرلمان الذي كان يسيطر عليه آنذاك مجلس اللوردة، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات، اللذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والبول، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين. فإنه استخدم طرقًا خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناخبين. فقد ترسل مدن قديمة تحوي نفرًا قليلاً من السكان أو هي لا تحوي أحدًا قط عضوًا أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلاك نائبان)، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان. وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلا عقاريًا ضخمًا، أن زادت ضيقًا على ضيق، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوقة.

وعقب جورج الأول جورج الثاني (١٧٢٧ – ١٧٦٠) الشديد الشبه، وبموته أتيح لإنجلترة من جديد ملك مولود في إنجلترة، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده جورج الثالث. وسنحدثك في فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى.

ذلك موجز لقصة الكفاح الذي حدث بإنجلترة إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى في مشكلة الدولة العصرية؛ أي بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المبهمة، التي لا تزال عمياء جاهلة، وهي قوة الناس العوام الخلّص. وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا في اللحظات التي تهتز فيها البلاد اهتزازًا أشد ما يكون عمقًا، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق. ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصرًا تامًا جدًا لصاحب الأملاك الخاصة البريطاني على أحلام الحكم المطلق الميكيافللي وخططه. وأصبحت إنجلترة وعلى رأسها الأسرة الهانوفرية "جمهورية متوجة"، على حد تسمية جريدة التايمز لها في الآونة الأخيرة. فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم، هي الحكم البرلماني، الذي يذكرنا من نواحي كثيرة

---

[1] الأوليجركية: هي حكومة هيئة صغيرة من الرجال تمسك زمام السلطة العليا بإحدى الدول. (المترجم).

بمجلس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان، ولكنه حكم أرسخ قدمًا وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل النيابي مهما يكن ذلك الاستخدام محدودًا. وكان أن قُدر لجمعيتها في وستمنستر أن تصبح "أم البرلمانات" في كافة أقطار العالم.

وقد أمسك البرلمان الإنجليزي وما يزال ممسكًا حيال التاج بقسط وفير من العلاقة بين ذ ا نظار القاصر وبين الملوك الميروفنجيين. وهم يرون في الملك شخصًا للرسميات غير مسئول، ورمزًا حيًا للنظام الملكي والإمبراطوري.

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامنًا في تقاليد التاج وهيبته، وإن في اعتلاء الملوك الهانوفريين المسميين بجورج، ووليم الرابع (١٨٣٠)، وفيكتوريا (١٨٣٧)، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦)، لأسلوبا يخالف تمامًا ملوك الميروفنجيين الضعفاء. فقد مارس هؤلاء الملوك جميعًا على درجات متفاوتة في شئون الكنيسة، والهيئات العسكرية والبحرية، والسياسة الخارجية، نفوذًا لم يقلل من شأنه كونه غير ذي حدود محددة.

٤- انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة، في أي قطر من أقطار أوربا، عواقب أوخم مما جره على ألمانيا، وطبيعي أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور، وقد كان ألماني الأرومة، في كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج، كان لا بد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القومي في دولة تتكلم الألمانية. على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانيين. فإن فردريك الثاني آخر سلالة آل هوهنشتاوفن، كان كما رأينا، صقليًا نصف مستشرق. وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل، ممثلين في شخص شارل الخامس، بورغنديي الروح بادئ ذي بدء، ثم إسبانييها. وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فردريناند النمسا والإمبراطورية، وأخذ ابنه فيليب الثاني إسبانيا والأراضي المنخفضة وجنوبي إيطاليا. ولكن السلالة النمسوية، كانت كاثوليكية عنيدة في كثلكتها، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الحدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط في الشئون الهنوغارية ودافعةً الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته، لذا لم تحتفظ لنفسها بأي سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب، وجهلهم بالخطر التركي أو عدم اهتمامهم به.

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم، الذين كانت أملاكهم تقطّع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقّعة تكد البصر بأجزائها الممزقة، - بمعادلين في الحقيقة لملوك إنجلترة وفرنسا بل كانوا على التقريب في مستوى كبار أصحاب الأراضي من الدوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترة. ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب "ملك"؛ وكان الكثير من ممتلكاتهم أضأل في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء البريطانيين. وكان مجلس الدايت الألماني شبيهًا بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلاً لبرلمان ليس فيه نواب منتخبون. حتى إن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت للفور في ألمانيا، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨)، كانت في جوهرها أوثق قربى وشبهًا بالحرب الأهلية في إنجلترة (١٦٤٣ - ٤٩)، وبحرب الفروند (١٦٤٨ - ٥٥)، (وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا)، - مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة.

وفي كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكيًا أو نزاعًا إلى الكثلكة، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردي، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية. ولكن على حين حدث في إنجلترة وهولندة أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا في النهاية فوزًا مبينًا، وكان نجاح التاج في فرنسا أكمل وأوفى، فإن الإمبراطور في ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغًا كافيًا، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم، ما يكفل لأحد الطرفين نصرًا نهائيًا. وانتهت الحال هناك بتمزق أوصال ألمانيا.

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيدًا اشتباك شعوب غير ألمانية منوعة فيه، وهي: البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس فازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الديني). وأخيرًا تدخلت الملكية الفرنسية، وقد انتصرت نهائيًا على نبلائها، فعضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية، رامية بذلك إلى غاية واضحة هي الحلول محل آل هابسبرج في رياسة الإمبراطورية.

وقد ترتب على طول أمد الحرب، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة، لتناثرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع: فمن بروتستانت هنا وكاثوليك هنالك – أن تحولت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميرًا، حرب لم تشهد أوربا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الهمجية. وليس يقوم شرها الخاص في القتال، بل فيما يلازم القتال من ويلات. فإنها حدثت في زمن تطور فيه التاكتيك العسكري إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوي غناء حيال المشاة المحترفين المدربين. فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرابينات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضى على الفارس الفرد ذي الدروع السابغات، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت لا تزال تستطيع أن تشتت شمل أي مشاة، لم تصل في تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية. فإن المشاة بقرابيناتهم التي لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجًا متواصلاً يفي بتشتيت فرسان ذوي عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم. ومن ثم كان لزامًا عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفًا أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات. وكان لا بد لهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة؛ وكانت المدافع الحديدية لا تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جدًا، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم في الحرب. نعم إنها كانت تستطيع أن "تشق خطوطًا" في صفوف المشاة، ولكنها لم تكن لتستطيع في سهولة أن تحطمها وتبددها، إن هي كانت قوية العزم جيدة التدريب.

وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تمامًا إلى جنود مدربين محترفين، وكانت مسألة أعطياتهم أمرًا يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة. وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جرًا من طور إلى طور، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية؛ كان قواد كلّ من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاب على المدن والقرى، رغبة في أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم. ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدًا رويدًا إلى مجرد مناسر تعيش على حساب البلاد نهبًا واستلابًا، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاب والسلب بوصفهما عملية قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازًا للجندي، وهي تقاليد لوثت سمعة ألمانيا الطيبة حتى الحرب العظمى (١٩١٤).

إن الفصول الأولى من كتاب "مذكرات فارس Memoirs of a Cavalier" تأليف "دانيال ديفو"، بما حوت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان، أحسن جدًا من أي كتاب رسمي في علم التاريخ. إذ بلغت البلاد من الخراب حدًا حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفى فور جمعه، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن يتتبعون معسكرات الجيوش، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة. فما إن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خرابًا بيانًا. ولم تتخلص أوربا الوسطى تخلصًا تامًا من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان.

ولن يسعنا ها هنا إلا أن نذكر اسمى تللي (Tille) ووالنشتين (Wallenstein) قائدي النهب الكبيرين في جانب أسرة هابسبرج، وجوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذي كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق "بحيرة سويدية". ولكن جوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين في لوتزن (١٦٣٢)؛ وقتل والنشتين في (١٦٣٤).

وفي (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهراني ذلك الدمار الذي حاكته أيديهم، اجتمعوا لترقيع شئون أوربا الوسطى في صلح وستفاليا. وبهذا الصلح استحالت قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال، وترتب على استلحاق للألزاس أن وصلت إلى نهر الراين. وأصبح في حوزة أمير ألماني هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضي جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلي قوة الإمبراطور، وهي قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١)، مملكة بروسيا.

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضًا بحقيقتين مقررتين من زمان مديد، وهما الانفصال عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندة وسويسرة.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا

افتتحنا هذا الفصل بقصتي قطرين، هما الأراضي المنخفضة وبريطانيا، اللتين نجحت فيهما مقاومة المواطن الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية، وهي الملكية الميكيافللية، التي أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الخلقي. ولكن الملكية الفردية في فرنسا والروسيا وفي كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا- في سكسونيا وتوسكاني مثلاً لم تُصد وتقهر على مثل تلك الدرجة. بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربي السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. بل لقد كانت الملكية في هولندة وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر. (فأما بولندة فلها ظروف خاصة، وإنا لمعالجوها في فصل تال).

ولم يكن ثمة "عهد أعظم" (ماجناكارتا) في فرنسا، ولا كان للحكم البرلماني بها مثل تلك التقاليد المحددة الفعالة. أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى، ولكن هؤلاء لم يكن لهم متجمّع (أي مكان اجتماع) معترف به، ولا كان لهم أسلوب للوحدة كريم. لقد شكلوا المعارضة للتاج ألوانًا، وأنشئوا عُصبًا للمقاومة، - كذلك شأن "الفروند [1]"، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته في إنجلترة - ولكن الأمر انتهى في (١٦٥٢) بأنهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية. وعلى حين حدث في إنجلترة بعد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردة وتابعه مجلس العموم صارا يحكمان البلاد، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية. وكان الكردينال مازارين نفسه يبني على أسس مهدها له الكاردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترة.

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأي نبيل فرنسي عظيم إلا أن يكونوا في البلاط حشمًا للملك وموظفين. ذلك أنهم شروا وروِّضوا - ولكن بثمن، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التي لا صوت لها. فكان كل من رجال الدين والنبلاء، بل وفي الواقع كل إنسان يحمل لقبًا - معفين من كثير من الضرائب. وأصبح هذا الظلم في النهاية أمرًا لا يطاق، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت ردحًا من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء في المزامير. وإنك لترى الكتاب الإنجليزي عند مفتتح القرن الثامن عشر، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز، في نفس ذلك الزمان، من رخاء نسبي.

على مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها "الملكية العظمى" الفرنسية أسسها. فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زمانًا لا نظير له في الطول هو اثنتان وسبعون سنة (١٦٤٣ - ١٧١٥)، وأقام من نفسه نموذجًا يحتذيه كل ملوك أوربا. وكان يقوده بادئ الرأي وزيره الميكيافللي الكردينال مازارين. وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه "الأمير" المثالي. وكان - داخل حدود

---

[1] وحروب الفروند: هي الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ - ٥٣) وتقع في مرحلتين: محاولة برلمان باريس في (١٦٤٨ - ٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه على حكم مازارين في (١٦٥٠ - ٥٣) (المترجم)

عطنه الضيق – ملكاً ذا كفاية استثنائية؛ وكان طموحه أقوى من شهواته الدنيا، فجر على بلاده الإفلاس بم ا انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقارًا محكمًا ما يزال يستدعي إعجابنا. وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس، وأن يتمثل الأراضي المنخفضة الإسبانية؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى في مل وك فرن سا خلف اء محتمل ين لشرلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد سكها.

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب. وكان شارل الثاني مل ك إنجلت رة يتناول منه الأعطيات المالية، وكذلك كان شأن معظم النبلاء البولنديين، الذين سنصفهم من فورن ا. وكان ت نقوده أو بالحري نقود الطبقات الدافعة للضرائب في فرنسا تذهب كل مذهب. ولكن البذخ كان شغله الشاغل. فكان قصره العظيم في فرساي بقاعاته (صالوناته) ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومنظرات ه، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه.

لقد حفز الجميع إلى محاكاته. فإن كل ملك أو أمير صغير في أوربا كان يبني لنفسه ق صر فرس ايه الخاص متجاوزًا موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه ودائنوه. وكان النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد. وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحكم ة ال صنع وعظم شأنها وازدهرت فنون الترف في كل مكان، فثم ة تماثي ل م ن الرخ ام المج زع، والقاش اني [١] (Faience) وأشغال الخشب المذهب، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة، وموسيقى كثي رة وتصوير فاخر، وطباعة جميلة وتجليد مونق وطباخة ممتازة وخمور بديعة. وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة في شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق، وحرائ ر ومخرم ات وه م يتمايلون على أعقاب عالية حمراء، ويتوكئون على عصي باهرة!! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشً ا وإعجابً ا، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفي ثياب لها متسعات عظيمة من الحري ر وال ساتان تحمله ا الأسلاك. وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم، شمس عالمه، غير شاعر ب الوجوه الهزيل ة المتجهم ة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمس ضيائه.

وليس هذا مجال التفصيل في قصة حروب ذلك الملك وأعماله. وما يزال كتاب فولتير المسمى "عصر لويس الرابع عشر" أحسن ما كتب عنه وأصحه من وجوه كثيرة. أنشأ الملك بحرية فرن سية كفئً ا لمقاتل ة الإنجليز والهولنديين. وهو عمل يعد مأثرة عظيمة القدر. ولكن نظرًا لأن ذكاءه لم يسمُ قط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع، أو تلك اللوثة التي أصابت العقلية السياسية في أوربا، وأعني به الحلم بقيام "إمبراطورية رومانية مقدسة" تشمل العالم طرًا، فإنه تحول في سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له. ونصب نفسه حربًا على روح الاستقلال والانفصال، الممثلة ف ي الأم راء البروت ستانت، وأشعل نار الحرب على البروتستانتية في فرنسا. فأبقت إلى خارج البلاد ف رارًا م ن اض طهاداته الدينية ة جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالاً وأعظمهم قيمة، حاملين معهم فنونًا وصناعات. ف إن ص ناعة

---

[1] القاشاني: هو ضرب من الخزف الممتاز مطلي بطبقة صقيلة من الطلاء الملون. (المترجم)

الحرير الإنجليزية مثلاً، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون. ونفـ ذت إبـ ان حكمـ ـه عمليـ ـة "الـ دراجوناد Dragonnades" وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص. فكان بعض الجنود الأجلاف يُنزَلون في منازل البروتستانت، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم. وخضع لهذا النوع من الضغط، كثير من الرجال ممن لم يكونوا ليخضعوا للنار والعذراء، خالعة العظام.

وانقطع تعليم الجيل التالي من البروتستانت، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليمًا كاثوليكيًـ ـا أو لا يعلمونهم البتة. ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم، ولكن في سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه. وبينما الأقطار الأكثر تسامحًا أصبحت في معظم أمرها مخلصة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الأقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتي الشريف، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سنحت لهم الفرصة لذلك. وكان العهد التالي أي عهد لـ ويس الخـ ـامس عشر هو عصر ذلك الساخر الرفيع فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨)، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماعـ ـة الفرنسية مطابقًا للكنيسة الكاثوليكية ومتمشيًا معها، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها.

وكان من مقومات الملكية العظمى – بل من مقوماتها الفائقة الممتازة – أن تنصر الآداب والعلوم. فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافسًا بها الجمعية الملكية الإنجليزية التي أنشأها شارل الثـ ـاني ومثيلتهـ ـا جمعية فلورنسا. وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم. ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشيء القليل من الإلهام، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة في أعين السوقة.

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلترة، منوالا تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية أثنـ ـاء تلك الفترة، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير، وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشئات التجاريـ ـة النامية. وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتمادًا على الملكية منها بإنجلترة، وأشد تمركزًا واتساقًا. وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التي تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة – روح شكـ سبير – إذ كانت الحياة الذهنية للفرنسية تتركز حول البلاط، وكانت أشد من الإنجليزية إحـ ساسًا بالـ ضبط وكـ بح الجماح. وهي لم تنتج أبدًا أدباء من "العامة" أبناء الشعب أمثال "بنيان Bunyan" الإنجليزي، ولم يكـ ن فـ ي متناول أيديها في القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح التمرد والانشقاق الـ ذي قامـ ت عليـ ـه الجمهورية والذي يطلق عقال رجل مثل ملتون. وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود، وكانت أتم خضوعًا لنفوذ معلمي المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد. وكانت تخضع المادة للأسـ لوب. فكـ أن تنظـ يم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديدًا. وترتب على تلك الفروق، أن تشبع الأدب الفرنسي السابق على القرن التاسع عشر بالوعي الذاتي الأدبي، وكأني به قد كتب بروح طالب ماهر يخشى الدرجات الرديئة، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح. فإنه أدب قوامه الدرر اليتيمـ ـة والمآسـ ـي والمهـ ـازل (التراجيـ ديات

والكوميديات) وقصص الرومانس [1] والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة مطابقة للأصول، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة. وممن برزوا بين ممارسي "الصحة" في الدراما، كورني (Cornelle) (١٦٠٦ – ١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩ – ١٦٩٩). وانتصر موليير (١٦٢٢ – ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات يراها بعض الثقات خير ما ظهر في العالم. ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذي يبدو وسط الرياش العقلي الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى، أن يوجد في مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقيل والقال والفضائح. فهناك هذه، وهناك تدوين بعض المساجلات القوية الاجتماعية والسياسية.

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون. فإن ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة الفرنسيين عاش معظم حياته في ظلال أمن هولندة النسبي. وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألقة من العقول المتأملة وأهل النظر، نشطت في إعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم المهذبة. وكان يعلو محلقًا فوق كل هؤلاء المبعدين، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص فولتير العظيم، الذي سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية في فصل تال. وإن جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) – وهو روح أخرى منبوذة – بما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفي للطبيعة والحرية مثلا أعلى، ليقف مبرزًا بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطنه. وسنزيد القراء عنه بيانًا.

وكان الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشئون الإنجليزية الأقل قرارًا وتمركزًا، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسي. ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان. وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته، باكون الذي سبق أن نبأناك عنه في بياننا عن النهضة العلمية، ثم هوبز ولوك. وكان ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤)، يرتدي ثوبًا مخلطًا من الدراسات الإغريقية واللاتينية، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أبراد من المجد من نسج يديه. وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره في كتاب بنيان "مسير الحاج Pilgrim's Progress" – (١٦٧٨). وواضح أيضًا أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (١٦٥٩ – ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قدره الحق من التقدير، موجهة إلى جمهور بريء من تهذيبات العالم الأكاديمي وادعاءاته. وإنما جاء مؤلَّفه روبنسون كروزو واحدًا من أعظم مبتكرات الأدب. وكتابه "مول فلاندرز Moll Flanders" إنما هو دراسة للأخلاق تستدعي الإعجاب، وديفو هذا الكتاب وفيما كتبه في التطورات الخيالية للتاريخ، إنما يسبق كثيرًا من الناحية الفنية كل معاصرية. ويكاد يكون على نفس مستواه، فيلدنج الحاكم اللندني ومؤلف "توم جونز". وكان صمويل ريتشاردسون بائع الأقمشة الذي كتب "باميلا وكلاريسّا"، شخصية عظيمة ثالثة بين حقائق الأدب الإنجليزي الحية في القرن الثامن عشر؛ وهو الأدب الذي لم يعن بأن يكون أدبيًا، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم "سموليت Smollett"، وهو أدنى كثرًا. وبهذه الأسماء وباسم جان جاك روسو معها، تعود

---

[1] الرومانس: قصص الغزل والفروسية. (المترجم)

إلى الأهمية" الرواية" وهي البيان شبه الحقيقي عن طرائق العيش، وعن الضرب في أرجاء العـ ـالم، وعـ ـن الالتقاء بالمسائل الخلقية، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبراطورية الرومانية. وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة إلى الاستطلاع في شئون الحياة والخُلق، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكلتهم. ذلك بـ ـأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة.

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية، أن نلحظ أيـ ـضـًا مـ ـا عليـ ـه أديـ ـسون (١٦٧٢ – ١٧١٩)، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها في الأدب الإنجليزي، وما للدكتور صـ ـويل جونـ ـسون (١٧٠٩ – ١٧٨٤)، من رغبة في التعقيد يحبها الناس، وهو مصنف أول قاموس إنجليزي. ولا يكاد يـ ـصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شيء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء، بيد أن أمثاله وغرابة أطواره قـ ـد بقيت لنا في الكتاب الذي ألفه بوزويل عن تاريخ حياته جونسون. فأما إسـ ـكندر بـ ـوب (١٦٨٨ – ١٧٤٤)، وكان كلاسيكي الاتجاه فرنسي الروح، فإنه ترجم هوميروس ثم تناول بعض المذاهب الدايستية [1] فحولها إلى شعر صقيل متقن. وصدرت أقوى كتابات هذا العصر، عصر الرجال المؤدبين غير الممتازين في إنجلتـ ـرة شأنه في فرنسا، عن روح انغمست في نزاع عنيف مع النظام السائد، بل مع نظام العالم بأجمعه في الواقـ ـع، وهو سويفت (١٦٦٧ – ١٧٤٥)، مؤلف رحلات جليفر. وهناك "لـ ـورانس سـ ـترن L. Sterne"، (١٧١٣ – ١٧٦٨)، وهو رجل الدين الذي تكاد تتصل باسمه شهرة السوء والذي كتب "تريسترام شاندي"، وعلم من تلاه من كتاب القصص مائة حيلة مبتكرة في فن الرواية. وقد استقى حيويته من عظمة الفرنسي رابليـ ـه الـ ـسابق على العهد الكلاسيكي. ولسوف نقتبس من جيبون المؤرخ في قسم تال، وعند ذاك نحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التي تغل ذلك العصر عصر الجنتلمانية.

ومات الملك الأعظم في ١٧١٥. وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم. اتخذ وضعة ملك وجلاله، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هي الشيء العادي الملازم لجنسنا البشري، وهي طراد النساء الذي يخفف منه خوف من جهنم يمتّ إلى الخرافات بسبب. فأما كيف أن نـ ـساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام دي باري تسلطن على ملذات الملك، وكيـ ـف أن الحـ ـروب كانـ ـت تـ ـشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاث فيها فساداً، وآلافاً من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقادها، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تلوثت بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن، فأمور ينبغي أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان. وصارت السياسة الخارجية الطمـ ـوح فـ ـي حكـ ـم لـ ـويس الخامس عشر بقدم ثابتة صوب تحطيمها النهائي.

---

[1] الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر الوحي. (المترجم)

وفي ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدري، لويس المحبوب جدًا كما كان مملِّقوه يسمونه، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣)، وهو رجل غبي حسن النية، وصاحب طلقة نارية بديعة التسديد، وصانع أقفال هاو على شيء من المهارة. فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلي به في قسم تال. إذ ينحصر كل اهتمامنا في الوقت الحاضر، في الملكية العظمى إبان مجدها.

وقد نستطيع أن نذكر من بين ممارسي الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولاً وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ – ١٧٤٠)، وابنه وخلفه فردريك الثاني وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ – ١٧٨٦). وقصة النهوض البطيء لأسرة هوهنزلرن، التي حكمت مملكة بروسيا، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مُبرزة، قصة مملة ليس يهمنا أن نتتبعها هنا. وهي قصة تجمع بين الحظ والعنف، والدعاوى الجريئة والخيانات المباغتة. ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى "فردريك الأكبر". حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية قد بلغت من الأهمية حدًا هددت معه الإمبراطورية؛ وكان لها جيش قوي حسن التدريب، وكان ملكها ممن أعطوا ميكيافللي حظًا كبيرًا من التفاتهم وعنايتهم. وجعل فردريك من قصر بوتسدام فرسايًا آخر بلغ به حد الكمال. إذ هناك بلغت جنات سان سوسي، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حد التقليد "القردي" لنموذجها الفرنسي؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجري[1]) ذات الطراز الإيطالي وفيها مجموعة من الصور، وقصر من الرخام إلى غير ذلك. وسما فردريك بالثقافة إلى حد التأليف، كما أنه أخذ يراسل فولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السآمة المتبادلة.

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى إنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقي إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ – ١٧٨٠) (التي لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة). وخلفها على قصورها في ١٧٨٠ جوزيف الثاني الذي تولى الإمبراطورية منذ (١٧٦٥ – ١٧٩٠).

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدها التتارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية. وحلق بطرس لحى نبلائه الشرقية وأدخل الثياب الغربية. ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية. ولكي يحرر نفسه من الشعور الآسيوي وتقاليد موسكو، التي لها – شأن بكين – مدينة جوّانية مقدسة، هي "الكرمِلْين Kremlin" بنى لنفسه عاصمة جديدة هي بتروجراد على مستنقع النيفا. وطبيعي أنه شاد لنفسه فرسايًا أخرى هي قصر البيترهوف على قرابة ثمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه، مستخدمًا في ذلك مهندسًا معماريًا فرنسيًا ومنشئًا شرفة (تراسًا) ونوافير ومساقط مائية وبهوًا للصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها. وكان من أبرز خلفائه إليزابث (١٧٤١ – ١٧٦٢) وكاترين العظيمة، وهي أميرة ألمانية، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها، القيصر الشرعي، فانحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦). فأقامت

---

[1] الأورانجري أو صوبة البرتقال (Orangery) مبنى من الزجاج يساعد بدفئه شجر البرتقال على النمو. (المترجم)

أكاديمية، وتراسلت مع فولتير. وعاشت حتى شهدت نهاية "الملكية العظمى" في أوربا وإعدام لويس السادس عشر.

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار "الملوك الأعظمين" في فلورنسا (توسكاني) وسافوي وساكسونيا والدانماركة والسويد. ولو راجعت كتاب دليل بيديكار [1] لشهدت في كل عاصمة فرسايًا جديدًا باسم جديد تقلد فرساي باريس، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره في تلك القصور لدقة التقليد. وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الإسبانية. فإن إسبانيا وقد أجهدتها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطوري التي دبرها شارل الخامس وفيليب الثاني، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبي، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة في الشئون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية.

كان هؤلاء الملوك الأوروبيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض، وكانوا "سياسيين" "وبعيدي النظر" بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع، وكانوا يخوضون الحروب ويبددون العصارة الحيوية لأوروبا في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة. وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء. وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى، فإنّ غضب الرجل العامي في أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة. ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحي لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية لا تزال مستمرة، ولعلها ستستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية النزعة ثم ينقشع الغمام وتتجلي السماوات ثانية على السلام الأعظم الذي سيظل اتحاد البشرية جمعاء.

---

[1] دليل بيديكار (Baedeker): كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبينًا أهم ما بها من المدن والآثار والمعالم (المترجم)

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوي في الموسيقى. إذ إن العوامل الفكرية الممهـ دة لذلك كانت أحكمت، وتأسس الديوانان (السلمان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لهمـ ا مـ ن تعاقـ ب ثابـ ت للنغمات، ومن قابلية للتكيف وفق التلحينات وبما يكمن فيهما من احتمالات اللون الهـ ارموني. فـ صار فـ ي الإمكان تحديد القصد الموسيقي (Musical intention) تحديدًا واضحًا، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة في دقة عظيمة. وكانت الأحوال الاجتماعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر في جوقة المرتلين الكنسيين. وكانت الحفلات التنكريـ ة والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب في القرن السادس عشر، فأتاحت أمام محكم الموسيقى فرصًا جمة، وأصابت الأوبرات والأناشيد الدينية تقدمًا عظيمًا عند حلول القرن السابع عشر.

وظهرت في إيطاليا الموسيقى الجديدة (Nuove Musiche). يقول السير و. هـ .. هـ ادو "إن لـ ولّي (١٦٣٥ – ١٦٣٥ – ١٦٨٧)، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته ألحانه من قوة درامية تمثيلية، بل لما تجلى في طريقة خطابه الدرامي من ضبط متسق". ويقف إلى جـ واره الإيطالي مونتيفردي. ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير في تلك المدة.

"ودونت قدّاسات القرن السادس عشر لجوقات المرتلين بالكنيسة، وكتبت غزليات (مادريجالات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم، ولم يحدث إلا عند قريب مـ ن نهايتـ ه أن عازفي العود والفرجينال يشرعون في أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكـ رة الأسـ تاذية [1] Virtuoso فـ ي الفـ ن التنفيذي... واجتلب التحسين العظيم في بناء الأرغن عددًا متعاقبًا من العازفين العظماء: منهم بُـ ل وفيلـ بس الإنجليزيان، وسويلنك الهولندي، وفرسكو بالدي في روما، وفروبرجر في فيينا، وبكستودي في لوبيك، وهـ و الذي سعى إليه باخ ماشيًا على قدميه لكي ينعم بسماعه... ويساير هذا كله التطـ ور الـ ذي لحـ ق موسـ يقى الفرجينال [2] ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس في قبولها. فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتي [3] في النصف الأول من القرن السادس عشر، إلا أنها قضت زهاء مئـ ة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام. ناهيك بأن ماس عازف العود كان في عصر يصل فـ ي تـ أخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيعًا أن يطعن في "الكمان الصارخة" – على حد تعبيره، وأن يأسف على نغم جدتها القيول Viol الأكثر هدوءًا واستواءًا. بيد أن نطاقها الأرحب، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرهـ ا الأشـ د وخزًا وتأثيرًا فرضت نفسها وأصبحت شيئًا ملموسًا على طول المدى.. وبلغ من شأنها في إيطاليـ ا موطنهـ ا

---

(1) (Virtuoso): الأستاذ الماهر في الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى. (المترجم)

(2) الفرجينال: آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع). (المترجم)

(3) أسرة أماتي (Amatis): اسم عائلة من صناع إيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية. (المترجم)

الأصلي وإن حملوها في سماجة وعزفوا عليها في سماجة – أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيـ دة التـ ي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وتنافسه [1]".

ويقال إن التطور الموسيقي تأخر حيناً من الدهر بسبب التباهي بالصائت المغني والإعجاب بـ ـه فـ ي الأوبرا الإيطالية، وكان لمغني القرن السابع عشر، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران، صـ يت يقارب في سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما العصريين، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى الـ سَّاندرو اسكرلاتي (١٦٥٩ – ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار. وحدث في إنجلترة انفجار عظـ يم من النشاط الموسيقي بلغ أوجه في شخص بورسل (١٦٥٨ – ١٦٩٥) بعـ د فتـ رة هـ دوء أثنـ اء عـ صر الجمهورية. وفي ألمانيا أمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألماني بقدر لا حـ صر لـ ـه مـ ن مراكز الاستثارة الموسيقية، وولد في ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاندل، لـ يحملا الموسـ يقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذي قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف مـ ن الزمـ ان، يقـ ول السير و. هـ .. هادو "إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر فيينا أشداهم وأوثقاهم ارتباطـً ا بزمانـ ا هـ ذا وإن صوتيهما ليرنان في آذاننا بآلف اللهجات وأدناها إلينا".

فأما بالسترينا الذي سجل لنفسه آنفًا ذروة في الموسيقى، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش في عالم آخر. إذ كان تاجًا على مفرق أساتذة موسيقى جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم. وجاءت بعقـ ب أسـ ماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخـ رى. فـ إن هايـ دن (١٧٣٢ – ١٨٠٩)، ومـ وزار (١٧٥٦ – ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقًا. ذلـ ك أن الفـ يض العظـ يم للموسـ يقى العصرية كان ينثال آنذاك عميقًا جياشاً واسع الجنبات. وما يزال يهمي ويفيض. ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلي إليك بعد ذلك في فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسـ يقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه. كانت هذه الموسيقى، موسيقى القرنين السابع والثامن عـ شر إبـ ان صنعها امتيازًا خاصًا لعالم صغير مثقف – هو من في البلاطات من الناس، ومن في مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس في مدن تحوي لكبرهـ ا دور الأوبـ را وحجرات العزف. وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقى في أوربا الغربية قدرًا مطرد التنـ اقص إبـ ان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة في التطور. ذلك أن الغناء الـ شعبي تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان. وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم. والراجح أن النهضات الدينية في تلك الأيام، مدينة بشيء من قوتها الدافعـ ـة إلى إطلاقها سراح الحافز الغنائي السجين. ولم يحدث إلا في أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم في الطرائـ ق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقي، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصري وخالطهـ ا الـ شوء والارتقـ اء وارتفعت في علياء التسامي – تعود إلى غمار الحياة العادية. فأصبح من ثم باخ وبيتهوفن جزءًا مـ ن ثقافـ ـة الجنس البشري العامة.

---

[1] انظر كتاب "Music" من تأليف السير و.ه. هادو.

٧- التصوير في القرن السابع عشر والثامن عشر

إن فني التصوير والعمارة في هذا الزمان شأن موسيقاه، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه. وهو زمان تحطمت فيه الفكرات وتمزق السلطان، ولم تعد اعتبارات المظهر (Object) والروعة تسيطر على الفن التصويري. وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية، فحيثما عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثًا صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة. وتنحط أشكال الكنايات [1] والرمزيات. فإن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة. وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الديني على نفس الشاكلة التي تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال. والأستاذان المتفوقان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلاسكويز (١٥٩٩) – ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ – ١٦٦٩). إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت في نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال في الجو والنور والمادة. وكان فيلا سكويز يقوم في البلاط الإسباني المتدهور، برسم الباباوات والملوك دون تمليق، ورسم الأقزام والمقعدين دونما احتقار. ويخلي الرسم الدقيق التحليلي والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين الرجلين – وهما أول المصورين العصريين – لعملية إفراغ إجمالي للأثر، ولتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية. وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الماضي الشديدة لتمركز، إما شاهدًا يشهد بشيء أوحتثاثًا على شيء أو تمليقًا لشخص أو حلية لمكان؛ فأما الآن فإنها أصبحت في عدد عظيم من الحالات، شيئًا في حد ذاته، شيئًا يوجد من أجل نفسه. فالصور تعلق بوصفها صورًا وتجمع في معارض للصور. وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطورًا قويًا، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre) [2]. وصارت الصور العارية (Nude) تنقش في شكل لطيف مثير؛ وفي فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيرهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية. وإن الإنسان ليدرك في هذه الأشياء شواهد تنم عن مجتمع نامٍ مكون من أناس آمنين موفقين ذوي أرواح جدّ ممتازة، يقدرون الحياة وينفصلون شيئًا ما عن مباذخها وآلامها جميعًا.

ولم يبدُ عصر إليزابيث في إنجلترة أي تحمس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية. فهي إنما كانت تستورد مصوريها ومعمارييها. بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتهما تلك الدولة التي كانت حتى حين قطرًا على هامش المدنية الغربية – أحوالاً توائم ازدهار المجهود الفني، حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣

---

[1] الكنايات :(Allegory): ضرب من التصوير المجازي أو الرمزي يرمي إلى موقف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فهو موضوع في عالم الخيال. (المترجم)

[2] الجنر (Genre): هو لفظ يطلق في النقش والتصوير على الصور التي تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية. (المترجم)

– ١٧٩٢)، وجينزبورو (١٧٢٧ – ١٧٨٨) وورومي من المصورين الإنجليـ ز يـ ستطيعون أن يطـ اولوا أي مجهود معاصر.

وكانت هذه الفترة، فترة الملكيات وطبقة الخاصة، موائمة أيضًا أعظم المواءمة لتطور طرز معينة من العمارة. ذلك أن عمليات ناشطة من قبل في القرن السادس عشر، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة. وكان الملوك في كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناءً، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويـ شيدونها منازل أنيقة. فأما منازل المدن فقد شرع فن العمارة في التفكير فيها على معيار أكبر. فأمـ ا فـ ن العمـ ارة الكنسي فإنه ذوى. وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبيًا، والواقع أن المثرى الكبير الفـ رد، إنمـ ا هـ و القابض بيده على مفتاح الابتكار في ذلك العصر في هذا الشأن وفي غيره من الشئون. وأتاح احتـ راق قـ سم عظيم من لندن في الحريق الكبير (١٦٦٦)، لإنجلترة نهزة خاصة أتيحت للسير كرستوفررن، وإن كاتدرائية سانت بول وكنائس لندن، لتسجل دورًا بالغًا الأوج في العمارة الإنجليزية. وكان له الفضل علـ ى أمريكـ ا إذ أرسل إليها تصميمات لبيوت ريفية منوعة شيدت هناك، كما أن عبقريته الخاصة طبعـ ت أثرهـ ا فـ ي فـ ن التصميم الأمريكي الباكر. وكان إينيجو جونز شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الإنجليز في بواكير القرن السابع عشر، وهذه قاعة الولائم التي قصد بها أن تكون قسمًا من قصر في هوايت هول [1] لم يـ تم بنـ اؤه – تجعل عمله مألوفًا لدى كل زائر لمدينة لندن. وكان كل من هذين الرجلين بل في الواقـ ع كـ ل المعمـ اريين الإنجليز والفرنسيين والألمان في تلك الفترة، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التي كانت لا تزال حيـ ة متطورة، وذلك أن كثيرًا من أحسن المباني في ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين. وحـ دث بالتـ دريج مـ ع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته، أن توقف التطور الحر الطبيعي لعمارة عصر النهضة، إذ اعترضـ ته موجة من التحذلق الكلاسيكي. وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوربا الغربية من تجمد تدريجي، نظير بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فما كان يومًا من المنبهات أضحى الآن مخدرًا ذهنيًا تقليديًا مخبلا للعقول. وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبني على صـ ورة المعبـ د الأثيني، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Colonnades). ولكن أسوأ غلوّ تهيأ لهذه النزعات القاتلة، جاء في القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هذا.

---

[1] هوايت هول: قصر بناه ولم يتمه هنري الثامن ودمرته النيران في ١٦٩٨. (المترجم)

٨- نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت في الشئون الإنسانية فكرتا الحكم العالمي والمجتمع البشري، وقصصنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها في توطيد وصيانة تينكم الفكرتين، فكرتي مؤسسها يسوع، قد أفضى إلى انهيار خلقي في الشئون السياسية وانتقال إلى الأنانية ونقص في الإيمان. ورأينا كيف أن الملكية الميكيافللّية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة في المسيحية، وكيف أن الملكية الميكيافللية تطورت في قسم كبير من أوربا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. بيد أن عقل الإنسان وخياله لا ينفكان ناشطين، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد، تهدف إلى اصطياد عقول الناس والإمساك بها. تلك المجموعة المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء، بل بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة، هي الدول. ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون. فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوي الغبي لويس السادس عشر. وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات. وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس، في كل من النمسا أو إسبانيا، تواصلاً للشفاه الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد في الخرافات. وإن النذالة المحببة التي يبديها ملك مثل شارل الثاني، لتتخذ من مدعياته هزوًا وسخريًا. فأما الشيء الأرسخ قدمًا فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة. وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم، وفي الفترات التي يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه.

ولذا فإنا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية في أذهان الناس من "الدولة" التي كان الأمير رأسًا لها؛ ومن ثم يحين الزمان الذي نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطماع هذا الملك أو ذاك، ونقرأ أكثر من "خطط فرنسا" أو "أطماع بروسيا". فإنا نجد في عصر كانت فيه العقيدة الدينية في انحدار، رجالاً يظهرون إيمانًا جديدًا جازمًا بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية. وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المبهمة وأعني بها "الدول" تسللت خفية إلى الفكر السياسي الأوربي، حتى تسلطت عليه تسلطًا كاملاً عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر. وهي لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا. وظلت القارة الأوربية مسيحية اسمًا، ولكن عبادة رب واحد روحًا وحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان في تلك العبادة. ولكن الواقع العملي أن أوربا لا تفعل ذلك، بل إنها قد سلمت نفسها تسليمًا تامًا لعبادة تلك الرطازة (Mythology) العجيبة المسماة بالدولة. ومن أجل هذه الآلهة "الدول ذات السيادة"، ومن أجل وحدة "إيطاليا"، وزعامة "بروسيا"، ومن أجل مجد "فرنسا"، ومقدرات "الروسيا"، ضحت بأجيال عديدة من الوحدة الممكنة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال.

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جدًا في العقل الإنساني. والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسمات أو الشخصيات المعنوية. فإن مملكة يهوذا وآدوم وموآب ومملك ـة آشـ ور (آشوريا) لتبدو في الكتب المقدسة العبرانية كأنما هي أفراد. بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحايين أن يقول المرء هل الكاتب العبري يعالج شخصًا أو أمة؟ ولا خفاء في أنها نزعة بدائية وطبيعية. ولكنها في حالة أوربا العصرية، ضرب من النكوص. فإن أوربا في كنف فكرة "عالم Christendom المـ سيحية تقـ دمت مراحل كثيرة في سبيل الوحدة. وبينما كانت شخوص قبلية أمثال "إسرائيل" أو "صور" تمثل بالفعل مجتمعًـ ا بعينه من القرابة الدموية، واتساقًا بعينه في الطراز وتآلفًا في المصلحة، فإن الدول الأوربية التي نشأت فـ ي القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت وحدات افتعالية تمامًا. فالروسيا مثلاً كانت في الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تباينًا وعدم تجانس، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم – بعـ د زمـ ان بطرس – الأستونيون واللتوانيون. وكانت فرنسا في حكم لويس الخامس عـ شر تـ ضم الألـ زاس الألمانيـ ة ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثًا، وكانت سجنًا للهوجنوت المهيضي الجناح ومستنزفًا لحياة الفلاحين. فأما في "بريطانيا" فإن إنجلترة كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية في ألمانيا كما تحمل اسـ كتلندة، وأهـ ل ويلز الأجانب تمامًا، والإرلنديين الكاثوليك المعادين. وإن هناك دولا كالسويد وبروسيا، وأكثر منها في هـ ذا بولندة والنمسا، وكلها تروح إذا نحن تتبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية، تـ تقلص وتتمـ دد، وتقـ ذف بزوائدها وذوائبها خارجًا وتتجول فوق خريطة أوربا كما تفعل الأميبا تحت الميكرسكوب.

ولو أنّا تأملنا سيكولوجية العلاقات الدولية كما نراها متجلية في العالم المحيط بنا، وكما يظهرها تطور فكرة "الدولة" في أوربا العصرية، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعـ ة الإنسان. لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسي، ولكنه في المعنى العصري الذي لدينا عن كلمـ ة "السياسة" وهي التي تشمل الآن سياسة العالم بأجمعها، ليس بأي حال شيئًا من هذا القبيل. ولا تزال غرائـ ز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما، أي إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة. ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمة جد غير نقادة. ومهما يكن من شيء، فإنه ميال إلى خشية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الـ ذي يحـ يط بحياتـ ه والذي سلم نفسه إليه، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد. ولعل في نفسه خوفًا شبه شعوري مـ ن العزلـ ة التي قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذي يجد فيه نفسه أمرًا مـ سلمًا بـ ه. وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذي حباه الحظ به. بيد أن ولاءات الرجال، أعني الجوانب التي ينحازون إليها في الأمور السياسية ليست فطرية، وإنما هي نتائج تربية وتعليم. ولكن التعلـ يم الذي يتلقاه أغلب الناس في تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهـ م. فإن الناس يجدون أنفسهم جزءًا من إنجلترة المرحة أو الروسيا المقدسة. وهم إنما يشبون على هـ ذه العقائـ د ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم.

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء، إلى أي حد من العمق يمكن التعليم الـ ضمني المفهـ وم بالاستنتاج والذي تجيء به الظروف العابرة، أن يُستكمل أو أن تُعدل أو يصحح بـ التعليم الإيجـ ابي والأدب

والجدال، والخبرة المنقودة نقدًا صحيحًا. فحياة الفرد العادي الحقيقية هي حياته اليومية وأعني بها الدائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة. وهو لا يلزم عقله المتكره أن يؤثر في الشئون السياسية إلا عندما يُوجَّه نظرُه إليها بوصفها شيئًا له أثره الحيوي في تلك الدائرة الشخصية. ولا تكاد تكون هناك مبالغة في القول بأن الرجل العادي يفكر في الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع. فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستثنائية، أو العقول التي استطاعت بفضل المثل المحتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهي الرغبة في معرفة أسباب الأشياء، أو العقول التي حزت فيها أو صدمتها كارثة قومية عامة حتى استثارتها إلى التخوف من الأخطار المقبلة، هي وحدها التي تأبى قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمجرد أنها لم تؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصيًا. وإن الكائن الإنساني العادي لينضوي – حتى يأتي الوقت الذي يستثار فيه على تلك الشاكلة – تحت ظلال أية مناشط جماعية تجري في هذا العالم الذي يجد فيه نفسه؛ كما أنه يتقبل أي تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شيء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمئن إليه شئونه الشخصية ودائرته الفردية.

فإذا نحن وعينا جيدًا هذه التحديدات الواضحة التي تغل طبيعتنا، لم يصبح بعدُ سرًا خافيًا كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوّة عالمية بين الناس قد هوت في دركات المهانة وضياع الثقة بسبب اشتباكها القاتل بدسائس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان، – فقد حول الناس مدار حياتهم عن ملكوت الرب وأخوّة الجنس البشري إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر في ظاهرها دوامًا وحياة، وهي فرنسا وإنجلترة والروسيا المقدسة وإسبانيا وبروسيا، التي كانت على الأقل تتجسم في شخص بلاطات ناشطة، والتي كانت تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل، والتي كانت تلوح براياتها في هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رءوسها اعتزازًا بالنفس بهمة نهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الاتساق مع الطبيعة الإنسانية.

ولا مراء أن رجالاً من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خدامًا لغايات أعظم من غاياتهم هم، ومن غايات ملوكهم، إذ يخدمون فرنسا شبه المقدسة التي تصورها لهم أخيلتهم. كما لا مراء أيضًا أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مرؤوسيهم وإلى هيئة الشعب العامة. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت عامة السكان في أوربا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئًا مبهمًا؛ فما إن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين بكليتهم. فلو حدث في عربة مزدحمة من عربات السكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية في أخريات القرن التاسع عشر، أن شخصًا سخر من الله لاستثار من العداوة قدرًا أقل كثيرًا مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة: إنجلترة أو فرنسا أو ألمانيا. فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس، تعلقت بها لأنه لم يبد في كل أنحاء العالم أي شيء آخر تقتنع النفوس بأن تتعلق به. ولذا كانت هي آلهة أوربا الحقة الحية.

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا، وحلفوا منها رطازة، هي رطازة [١] "الدول" ومحباتها وكراهياتها ونضالاتها. واشتد تشبع خيال أوربا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدرًا تستقي منه "أشكال تفكيرها". ويكاد كل ما دوِّن من التواريخ، وكل الأدب السياسي في القرنين الأخيرين في أوربا، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح. على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذي سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصفى بصيرة ويرى في شيء من الارتباك والحيرة، كيف حدث في المجتمع الأوربي الغربي، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة جدًا) من خليط عنصري مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة ساميّة ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريبًا لهجات محورة عن نفس اللسان الآري، ولها ماضٍ مشترك متمثل في الإمبراطورية الرومانية، وأشكال دينية مشتركة، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشتركان، وهي تتزاوج فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أي تحقق عن جنسية (أي قومية) أيٍّ من أولاد أحفاده، كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا، ونهضة وتوحيد ألمانيا، ومدعيات الروسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية. ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها، جنونية لا عقل فيها، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال التي اشتجرت بين "الخضر والزرق [٢]" الذين كانوا يملئون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفك الدماء.

وهذه الأطياف أعني الدول عظيمًا ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هي – كما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان – أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون الأخيرة القليلة بل هي مجرد ساعة واحدة أو دور عرضي في التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشري. وهي تسجل دورًا من أدوار الانتكاس أو ضربًا من الانسلاخ من ركب التقدم، مثلما يسجل نهوض الملكية الميكيافللية حالة تخلُّف وقتي عن مسايرة الركب. هي جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلاً: ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقي والذهني للبشرية. لقد ارتد الناس حينًا من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين. فإن فكرة "الدولة العالمية" ومملكة الصلاح العامة التي يصبح فيها كل كائن حي مواطنًا، كانت موجودة في العالم قبل ذلك بألفين من السنين، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط. وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها. وإنك لتحس في كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين، كأنما بين يديك رجال ثملون قد شرعوا يستفيقون، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه. فهم لا يفتئون يتكلمون بصوت مرتفع عن "حبهم" لفرنسا و "كراهيتهم" ألمانيا وعن

---

[1] الرطازة (Mythology): هي أسطورة أو حكاية تقليدية كثيرًا ما تعبر عن معتقدات وأحلام بدائية لشعب بعينه وعن طريقة تفسيره للظواهر الطبيعية والتاريخية. (المترجم).

[2] الخضر والزرق: فرقتان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسًا للمدينة. وكان النزاع بينهما دائمًا لا ينقطع (انظر للمترجم كتاب الحضارة البيزنطية في مجموعة الألف كتاب). (المترجم)

"سيادة بريطانيا التقليدية في البحار"، وهكذا وهكذا... شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكئوسهم بالرغم من تواصل دبيب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الخمار [1] عنهم. وما تلك التي يخدمون إلا أرباب ميتة. فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تتسم بالرفعة، وإنما يبتغون القانون والخدمة. وإن ذلك التحدي الصامت الذي لا مندوحة منه ولا مفر، لموجود في أذهاننا وجود الفجر وهو يبزغ في تمهل وأناة، وينفذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوشّة النظام.

---

[1] الخمار: كما ورد في المعجم الوسيط: ما خالط الإنسان من سكر الخمر. (المترجم)

٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر في أوربا قرن لويس الرابع عشر الذي كان هو وعظمة فرنسا وفرساي قطب الرحى في القصة. وكان القرن الثامن عشر بالمثل "قرن نهضة بروسيا كدولة عظمى"، والشخصية الرئيسية في قصته هي فردريك الثاني، أي فردريك الأكبر. وتجيء قصة بولندة مشتبكة وتاريخه.

كانت الشئون في بولندة ذات سمة خاصة. وبولندة بخلاف جيرانها الثلاثة الروسيا وبروسيا وملكية آل هابسبرج في النمسا والمجر، لم تطور لنفسها ملكية عظمى. وخير وصف يوصف به نظام حكومتها أن يقال إنه كان نظامًا جمهوريًا له ملك، أي رئيس ينتخب مدى الحياة. وكان كل ملك ينتخب على حدة. فكأنها كانت في واقع الأمر أبلغ في روحها الجمهورية من بريطانيا، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية في شكلها. وكان لبولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد، وكانت قطرًا زراعيًا ما يزال به مساحات عظيمة للرعي والغابات والأرض البراح؛ فكانت لذلك قطرًا فقيرًا، وكان أصحاب الأراضي فيها أرستقراطيين فقراء. وكانت جمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلاً وحشيًا، وكانت تئوي كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدي الإدقاع. وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية. فكأنها كانت – إن صح هذا التشبيه – بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا. ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة، فلا بحر ولا جبل. ومما زاد في مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكامًا أذكياء عدواني النزعة. فكان سلطانها يمتد شرقًا امتدادًا ضعيفًا إلى مناطق يسكنها كلها تقريبًا الروسيون؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان.

ونظرًا لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوربا الغربية، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض. وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها، دون الشيء الكثير من الاختلاط الذهني. كانوا وطنيي النزعة، ولديهم إحساس أرستقراطي بالحرية يتسق تمامًا مع الإفقار المنظم الذي يعيش فيه موالي أراضيهم – ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال. كانت بولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل، دولة قوية نسبيًا؛ ولكنها لم تستطع بأي حال أن تماشي تطورات الفن العسكري الذي كان يتخذ من قوات دائمة من جنود محترفين، العدة الضرورية في الحروب. ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار، تستطيع أن تكتب في كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر. فإن الهجوم التركي الأخير على فيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكي (الملك دون الثالث). (وكان هذا السوبيسكي نفسه قبل أن ينتخب ملكًا، أجيرًا يتقاضى المال من لويس الرابع عشر، وكان قد حارب في صفوف السويديين ضد وطنه). ولا حاجة بنا إلى القول إن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة، بانتخاباتها المتداركة الحدوث كانت تستدعي العدوان من كل من جيرانها الثلاثة. وكانت "الأموال الأجنبية" وكل نوع من أنواع التدخل تنساب إلى البلاد عند كل انتخاب. وكان كل مواطن بولندي ساخط منهم يفر – شأن الإغريق قديمًا – إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناكر للجميل.

ولم تكن للملك البولندي إلا سلطة ضعيفة جدًا حتى بعد أن يتم انتخابه، وذلك بسبب غيرة النبلاء البولنديين بعضهم من بعض. إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبي؛ ولأنه – لنفس السبب – لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها في البلاد. ولكنهم بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التي كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان في لندن، التي كانوا يسمونها: "الحضور إلى العاصمة". وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوها من تمازج متواصل بين الفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص. ولم تكن لبولندة مدينة كلندن ولا كان فيها "هيئة اجتماعية". ولذا فالواقع أنه لم تكن لبولندة حكومة مركزية على الإطلاق. وما كان ملك بولندة بمستطيع أن يعلن حربًا أو يعقد صلحًا، ولا أن يجبي ضريبة أو يغير قانونًا دون موافقة مجلس الدايت، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس الدايت الحق في الاعتراض (Veto) على أي مقترح مطروح للبحث). وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول "إني غير موافق" فيسقط الموضوع. بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه في الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا. إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس، وعند ذلك ينحل الدايت. فكأن بولندة لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوّجة مثل تلك البريطانية، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة.

وكان وجود بولندة في نظر فردريك الأعظم أمرًا مثيرًا بوجه خاص بسبب الطريقة التي كانت بها ذراع لبولندة تمتد إلى بحر البلطيق في دانزج، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده في بروسيا الشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية. فكان هو من حرض كاترين الثانية قيصرة الروسيا وماريا تريزا النمسوية – التي فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا – على القيام بهجوم مشترك على بولندة.

واسمحوا الآن لخرائط أربع لبولندة أن تروي لكم القصة.

وبعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولندة في (١٧٧٢)، ألم بفؤادها تغير كبير. إذ الواقع أن بولندة ولدت شعبًا متماسكًا في ليلة انحلالها. إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعًا فقد كان إلى ذلك جسيمًا ضخمًا في التعليم والأدب والفن. ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة، وقذف جانبًا بالدستور العقيم الذي جعل من بولندة دولة كليلة واهنة. وألغي حق الاعتراض المطلق، وجعل التاج وراثيًا من أجل إنقاذ بولندة من المؤامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب، وأقيم برلمان يحاكي البرلمان البريطاني. على أنه كان هناك مع ذلك محبون للنظام القديم في بولندة، كرهوا تلك التغييرات الضرورية، وطبيعي أن تعين الروسيا وبروسيا هؤلاء المعترضين، إذ كانتا لا ترغبان في نهضة بولندية. وجاء التقسيم الثاني، وبعد كفاح وطني عنيف ابتدأ بالمنطقة التي سلختها بروسيا، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko)، زعيمًا له وبطلاً وطنيًا، حدثت إزالة بولندة نهائيًا من الخريطة. وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلماني للملكية العظمى في أوربا الشرقية. ولكن وطنية البولنديين اشتد تضرمها وتلألأ صفاؤهم لهذا الضغط. فإن بولندة ظلت مائة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء، تحت تلك الشبكة السياسية والعسكرية التي كانت تمسك بها وتغل حركتها. ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى.

١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة في أوربا، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذي تهيأ للدولة الإسبانية وعن انفصالها عن النمسا، وقيام بروسيا. فأما فرنسا والبرتغال وإسبانيا وبريطانيا وهولندة، فإن تنافسها على الرفعة في أوربا قد امتد وتعقد في كفاح على الممتلكات وراء البحار.

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهي الضخمة القليلة السكان، غير المتطورة والمكيفة تكيفًا رائعًا لإقامة الأوروبيين واستغلالهم، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبي المناطق الاستوائية الحارة في إفريقية التي كانت حتى ذلك الحين تحد من معرفة الأوربيين، ثم التوصل على التدريج إلى معرفة أقاليم جزيرية فسيحة في البحار الشرقية، لم تمسسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية، - كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع. وكأنما ورثت شعوب أوربا ميراثًا فاخرًا باذخًا. فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضعافه. وكان لكل ما يفي بحاجته ويفيض. ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش الثراء، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة. ولكنهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقي الورثة السيئي التربية. إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة. ولكن أنَّى لنا ذلك المجتمع البشري الذي يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة؟ وأي شعب في قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأي ثمن أن يدبر المكايد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر؟ ابتدأت دول أوربا الأمر "بادءاء" المدعيات الجنونية المتهوسة على الأقطار الجديدة. ثم ترامى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى. فإن إسبانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدها، والتي ظلت ردحًا من الدهر "سيدة" ثلثي أمريكا، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريبًا.

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية في آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية، قسمت القارة الأمريكية بين إسبانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة في الأراضي الجديدة. وطبيعي أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة. ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أي احترام، ونصبوا أنفسهم ضد الإسبان بوجه خاص. وحوّل السويديون نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل. وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الإسبان حتى نشروا قلوعهم غربًا ليسخروا من البابا، وينالوا نصيبهم من خيرات العالم الجديد. فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أي بروتستانتي. فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس في دعاواها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية.

ولم تفد المملكة الدانيماركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئًا كثيرًا جدًا في هذا التخاطف. فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية. ولم تصل السويد إلى شيء منها. وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائصتين في الشئون الألمانية. فقد ذكرنا آنفًا جوستاف أدولف "أسد

الشمال" البروتستانتي، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندة والروسيا. والحق أن هذه الأقاليم الأوروبية الشرقية تمتص الطاقات امتصاصًا عظيمًا، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسطًا عظيمًا من العالم الجديد، قد حصدت لها محصولاً عقيمًا من المجد في أوروبا. وسرعان ما سقطت تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدي الهولنديين.

وكذلك الهولنديون أيضًا فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكاردينال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر، وهي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الإسبانية نحو تخومهم، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولا القوة المجتمعة التي كانت بريطانيا من خلف لجج "بحرها الفضي" تستطيع أن تقذف بها في ميادين المغامرات وراء البحار.

وفضلاً عن ذلك فإن الجهود التي بذلها في سبيل الحكم المطلق جيمس الأول، وشارل الأول، وعودة شارل الثاني، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترة عددًا عظيمًا من البروتستانت الأقوياء العقول، الجمهوريي الروح، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة، أقاموا في أمريكا، وبوجه خاص في منطقة نيوإنجلند، بعيدًا عن منال الملك وضرائبه – فيما كانوا يظنون. ولم تكن السفينة "ماي فلور" إلا واحدة من السفن الأولى في فيض من سفن المهاجرين. وكان من حسن طالع بريطانيا أنهم ظلوا تحت العلم البريطاني، وإن كانوا مخالفين منشقين. فأما الهولنديون فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرقي، وذلك أولاً لأن حكامهم الإسبانيين لم يكونوا ليسمحوا لهم، وثانيًا لأنهم تملكوا بلادهم هم. ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عذاب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر، فقد كان لهم من هولندة وإنجلترة ملتجأ قريب، فانتقلت صناعاتهم ومهاراتهم وجدهم وقناعتهم إلى ذينك القطرين فكان لهما منهم وبخاصة إنجلترة قوة أي قوة. وأسس القليل منهم المستقرات في كارولينا، على أن هذه لم تستمر فرنسية. فإنها انتقلت إلى الإسبان أولاً ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز.

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطانيا. فأصبحت نيوأمستردام بريطانية (١٦٧٤) وتعدل اسمها إلى نيويورك، كما قد يرى القارئ في كتاب واشنجتن إرفنج الفكه: "تاريخ نيويورك الموجز". وتتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تبينًا واضحًا جدًا من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب "العصور الوسطى والحديثة" لروبنسون[1]. وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الشرقي من سافانا إلى نهر السانت لورنس، فأما نيوفوندلند وأراضي شمالية مترامية هي أراضي شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح. واحتل البريطانيون بربادوس في (١٦٠٥)، (وهي تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية)، واستحوذوا على جامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الإسبان. ولكن فرنسا كانت تطارد صيدًا خطرًا مزعجًا جدًا، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطرًا وإزعاجًا منه في الحقيقة. فإنها أنشأت مستقرات حقيقية في كوبيك ومونتريال في الشمال وفي نيوأورليانز في الجنوب، وتقدم مستكشفوها وعملاؤها جنوبًا وشمالاً، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمة ويقيمون

---

[1] Robinson: "Medieval & Modern Times".

المدعيات – دون أن يقيموا المدن – عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين. ولكن حة ائق الموقـ ف لا تمثَّل على هذا النحو تمثيلاً كافيًا. فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون. وما كان الفرنسيون في ذاك الزمان يدانون عُشر ذلك العدد.

أجل كان لهم عدد من أذكياء الرحالين والمبشرين يعملون ناشطين، على أنهم لم يكن من ورائهم مـ ادة عظيمة من السكان.

وما يزال في الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا في تلك الفتـ رة، وهـ ي خـ رائط وضعت خصيصًا لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى "خطط الفرنسيين" فـ ي أمريكـ ا. ونـ شبت الحرب في (١٧٢٤). وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنـ رال وولـ ف على كويبك وأتمت من فتح كندا في السنة التالية. وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت نهائيًّـ ا إلـ ى أيدي بريطانيا. (على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجنـ وب، والمـ سمى باسم لويس الرابع عشر، ظل خارج الدائرة البريطانية. فأخذته إسبانيا، وفي (١٨٠٠) استردته فرنـ سا. ثـ م اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا). وفـ ي هـ ذه الحـ رب الكنديـ ة، حـ صل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب، وعلى علم بالتنظيم العسكري البريطـ اني عـ اد عليهم بعظيم النفع بعد ذلك بزمن وجيز.

١١- بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها. بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين. فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب، كانت قد سارت في الانحلال شوطًا بعيدًا. وما حدث للهند كان موازيًا ومماثلاً لما جد لألمانيا. فإن المغولي الأكبر، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعًا، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب، يتولى سلطة اسمية ليس غير، اللهم إلا في المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته. وقد حدث نهوض عظيم في الهندوكية وفي الروح الوطنية. ففي الجنوب الغربي ثار على الإسلام شعب هندوكي هو الماراتا (Mahrattas)، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة. ثم بسطوا سلطانهم حينًا من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبي بأجمعه. وتقوض حكم الإسلام في راجبوتانا أيضًا وحلت محله البرهمانية، وكان يحكم في بهورتبور وفي جايبور، أمراء راجبوتانيون أقوياء. وكانت في أوده مملكة شيعية عاصمتها لَكْنو، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة. ونشأت في بلاد البنجاب القصية في الشمال هيئة دينية شائقة جدًا هي السيخ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجموا الفيدا الهندوكية والقرآن الإسلامي على السواء. وكان السيخ في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن احتذوا حذو الإسلام[1] وحاولوا – موقعين أنفسهم في أول الأمر في أشد الكوارث – أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام. وإلى هذه الهند الهندية المتبلبلة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشمال، هو نادر شاه (١٧٣٦ – ٤٧) حاكم فارس التركماني، الذي انثال بجيوشه عابرًا ممر خيبر، موقعًا بكل جيش اعترض طريقه، واستولى على دلهي ونهبها، وحمل منها غنائم هائلة. وخلف شمال الهند محطمًا يبابًا إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة في العشرين سنة التالية لم يقل عن ست غارات في شمال الهند أتت جميعًا من بلاد الأفغان، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادر شاه. وواصل الماراتا محاربة الأفغانيين ردحًا من الزمان على حكم شمال الهند. ثم تحطمت دولة الماراتا وتقسمها عدد من الإمارات وهي إندور وجواليور وبارودا وغيرها. فكانت الهند في القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوربا في القرن السابع أو الثامن، إذ كانت أرض نهوض بطيء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث.

ذلك شأن الهند التي كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر. ذلك أن عددًا متعاقبًا من الدول الأوربية الأخرى ما فتئ يكافح طلبًا لمرسى تجاري وسياسي في الهند والشرق منذ السنة التي قام فيها فاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت. وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك في يد عرب البحر الأحمر، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية. إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجمًا، وكانت تحمل أسلحة أثقل. وظل البرتغاليون زمانًا وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليمينهم،

---

[1] سبق أن رددنا على هذه النقطة في المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ ط١ و (ص ٧٨١ – ط٢) فليرجع إليها القارئ في موضعها. (المترجم)

وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية. ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار. وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح، هذا إلى جزيرة موريشيوس، وإلى مؤسستين في فارس، واثنتي عشرة في الهند، وست في سيلان، وكانوا قد نثروا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية. ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق، ألجأ السويديين والدانمركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية. فكانت أولى الضربات التي كيلت لاحتكارهم وراء البحار، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية. وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر في نزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند. وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في مدراس وبمباي وكلكتا؛ وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندتشيري وشاندر ناجور.

وفي بادئ الأمر، كانت كل هاته الدول الأوربية تأبى بوصفها مجرد متجرين، وكانت المؤسسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن. ولكن حالة البلاد غير المستقرة، والطرق غير الشريفة التي كان يتبعها منافسوهم، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسلحهم شيئًا طبيعيًا، وجعلهم هذا التسلح حلفاء جذابين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تتقسم الهند آنذاك بينهم. وكان مما يتواءم تمامًا وروح السياسة القومية الأوروبية الجديدة. أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر. وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهند في (١٧٤٣). وكان خصمه الأكبر هو دوبليه. ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان. ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهم السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية. وفازت جنودهم في بلاسي (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده. وكان المغولي الأكبر، صاحب السيادة عليهم اسميًا، قد أصبح في الحقيقة ألعوبتهم الخاضعة. وكانوا يجبون الضرائب في مساحات عظيمة؛ وكانوا يحتمون دفع التعويضات جزاء لأية معارضة حقيقية أو خيالية.

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها أيدي قوات ملك إنجلترة مباشرة، بل فازت بها شركة الهند التجارية، التي ما كانت في الأصل حين إنشائها في حكم الملكة إليزابيث، إلا شركة من المغامرين البحريين. واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد الكسب والربح، أنها لا تتجر فحسب في الأفاويه والأصباغ والشاي والجواهر، بل في إيرادات الأمراء وممتلكاتهم وفي مقدرات الهند. جاءت لتشتري وتبيع، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة. ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها. أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفيها، كلا بل كتبتها وجنودها العاديين، كانوا يعودون إلى إنجلترة محملين بالغنائم؟ إن رجالاً في مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضٍ عظيمة غنية، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز. كانت في أعينهم أرضًا عجيبة ذات شمس عجيبة الضياء. وكان سكانها السمر القاتمون جنسًا مختلفًا، يخرج عن مجال عطفهم. وكانت معابدها ومبانيها تبدو كأنما تقيم أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة.

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب وتتبلبل عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم م ويتراشقون بالتهم السوداء ما بين ابتزازات وقساوات. وأصدر البرلمان قرارًا بلوم كلايف. فقضى على نفسه انتحارًا في (١٧٧٤). وفي (١٧٨٨) حوكم وارن هاستنجس وهو مدير عظيم آخر للهند د و ق ضـي ببراءة ـه (١٧٩٢). وكان ذلك الموقف موقفاً غريبًا لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم. فإن البرلمان الإنجليز ي ز ألفى نفسه يحكم فوق شركة لندنية للتجارة، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سـ كانًا م ن ك ل ممتلكات التاج البريطاني. وكانت الهند في نظر كتلة الشعب الإنجليزي أرضًا شاسعة خيالية سخيفة لا يكا د يستطاع الوصول إليها. لم يذهب إليها إلا فقراء الشبان من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء جدًا حاديّ الطبع جدًا. وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن تكون عليه حياة ملايين السُّمر الذين لا يحصرهم عدد في ضياء شمس الشرق. وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة. فظلت الهند شيئاً غير حقيقي يشابه في غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم من كان من المستحيل على الإنجليز، أن يقيموا أي إشراف ورقابة فعالين، على تصرفات الشركة.

١٢ – تقدم الروسيا إلى المحيط الهادي

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة في الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذاك عظيم. ولقد سبق أن نبأنا القارئ كيف استردت الدول المسيحية في الروسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبي، وكيف أصبح قيصر الروسيا سيدًا على جمهورية نوفجورود؛ وأخبرناك في القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا في الواقع إلى أوروبا سوقًا. ونهوض هذه الدولة الكبرى التي تتوسط العالم القديم والتي لا هي بالشرقية تمامًا ولا هي بالغربية تمامًا، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدّراتنا الإنسانية.

كذلك نبأناك في الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحي في السهوب، هم القوزاق الذين كانوا حدًا فاصلاً بين زراعة بولندة وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق. وكان القوزاق يمثلون شرق أوروبا المتوحش، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلفون كثيرًا عن القسم الغربي المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر. فكل من أحنق عليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تئويه، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين، وموالي الأرض الثائرين، وأعضاء الشيع الدينية، واللصوص، والأفاقين والقتلة، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية، ثم يبدءون حياتهم من جديد ويقاتلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من البولنديين، والروسيين، والتتار على السواء. ولا مرية في أن لاجئين من التتار في الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون في عدد خليط القوزاق. وكان أكبر هذه القبائل المترحلة الجديدة، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون. وضُمَّ هؤلاء القوم على الحدود في بطء إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هايلاند) في اسكتلندة إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية. فمنحوا أراضي جديدة في آسيا. فأصبحوا سلاحًا ضد قوة المغول المترحلين المضمحلة، في التركستان في مبدأ الأمر، ثم عبر سيبيريا حتى نهر العامور.

وانحلال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جدًا أن نفسره. فلم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام جانكيز وتيمورلنك، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسي مفرط. ولعل تغيرات في المناخ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى، والذي ربما لا يكون إلا تأخرًا موقوتًا إذا قيس إلى معيار التاريخ العام. ويظن بعض الثقات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضًا أثر مهدئ لنفوسهم. ومهما يكن من شيء، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها نحو الخارج، بل تحولت بهم الحال، فأصبحوا هم الذين يُغزون ويقهرون ويُدفعون إلى الخلف من كل من الروسيا في الغرب والصين في الشرق.

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسيا الأوربية ويستقرون حيثما تهيأت لهم الظروف الزراعية. وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركة لهذه

المستقرات في الجنوب، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين؛ ومع ذلك فإن الروسيا من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادي نفسه. وكانت الصين في نفس الوقت في دور اتساع. إذ إن الغزاة "المانشو" بثوا في الشئون الصينية طاقة جديدة، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلى توسع شمالي عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا. وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن تلاحم [1] الروسيون والصينيون في منغوليا. وكانت الصين في تلك الفترة تحكم التركستان الشرقية، والتبت ونيبال، وبورما وأنام.

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضًا، مماثل لعصور نظرائهم في أوربا وإن استقل عنها الاستقلال كله، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعتا إلى مستويات عالية في الأسلوب والإمتاع، وحدثت للدرامة الصينية تطورات هامة. وصورت مناظر أرضية ممتازة كثيرة، واخترعت الطباعة بالألوان، وتعلم الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين، وارتقى صنع الخزف (البورسلين) الصيني إلى ذرًا لا مثيل لها من الرفعة. ولكن السمة الجمالية لهذا الخزف انحطت مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقًا لما كانوا يعدونه الذوق الأوربي. وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والدور الريفية التي للنبلاء والأعيان الأوربيين. وقلدت صناعة الخزف الأوربية المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط. وابتدأت أيضًا تجارة الشاي الأوروبية.

سبق أن ذكرنا غزوًا يابانيًا للصين (أو بالحري لكوريا). ولا تلعب اليابان فيما عدا عدوانها هذا على الصين، أي دور في تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها – شأن الصين تحت حكم أسرة منج – قد نصبت نفسها في حزم وعزم ضد تدخل الأجانب في شئونها. فكانت قطرًا يمضي قدمًا في ظل حياته الحضارية الخاصة. وهو مختوم ختمًا سحريًا ضد كل دخيل. وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر اليسير. فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسي الشعري يقف بمعزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية. كان سكانها في معظم أمرهم من المغول، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جدًا يوحي بطراز نوردي بدائي، هو الأينو (Ainu) المشعرون في الجزائر الشمالية. ويلوح أن مدنيتها قد استمدت كلها تقريبًا من الصين وكوريا؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصيني وكتابتها تكييف للكتابة الصينية.

[1] تلاحمت الأشياء: تضامت وتلاءمت بعد أن كانت منفصلة. (المترجم).

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠

كنا نعالج في هذه الأقسام الاثنا عشر السابقة عصر فرقة وانقسام، وقوميات متفرقة. وسبق أن شـ بهنا تلك الفترة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة "عطل وخلو" من الدافع الأعلى توقـ ف فيهـ ا تقـ دم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع. وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل "فكرة موحدة جامعة". فإن قوة دفع الإمبراطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة مـ ن الأمـ راء المتنافسين، كذلك ذهب حلم "عالم المسيحية" أدراج الرياح. وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب في كـ ل أرجاء العالم قاطبة؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضي تتدافع بالمناكب إلى ما شـ اء الله دون أن تُلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة. وقد وسَّعت المكتشفات الجغرافية العظيمة في القـ رن الـ سادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والـ سياسات على شعوب أوربا من الخسارة والضياع، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايـ د. وراحـ ت أوربا الوسطى تنتعش انتعاشاً مطردًا مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة.

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة إلى تلك الفترة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عـ شر، كمـ ا قـ د نستطيع أن نفعل ذلك اليوم، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التي سبقتها، وإلى الحركـ ات العظيمـ ة فـ ي الزمن الحاضر، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة. كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأي عصر آخر، وكانـ ت عـ صر تمثل وإبلال بل هي كانت توقفاً سياسيًا، وتجميعًا لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لمجهود إنساني أرحـ ب. على أن العقل المعاصر لها لم يردها على هذه الصورة. فإن إخفاق الفكرات الخلاقة العظيمة بـ شكلها الـ ذي صيغت فيه في القرون الوسطى، غادر الفكر الإنساني حيناً من الدهر محرومًا من هداية الفكرات الخلاّقـ ة؛ فإن المتعلمين وذوي الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة؛ فلـ م يعـ د فـ ي نظرهم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهدًا تلتمس فيه الفضائل الفاترة حسن الجـ زاء. ولـ م يكـ ن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتفيَّئون – في عالم حافل بـ التغيرات الـ سريعة – أكناف هذا الاطمئنان الذي يجزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار. بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة، وذلك لامتناع وجود أي حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فـ إنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كانت عليه من العجلة الفاجعة؛ فإنها أصـ بحت كوميـ ديا مؤدبة. وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت في النهاية عابسة جهمة. ولا يكاد يتصور العقـ ل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان في طوقه أن ينتج عظماء مـ ن أمثـ ال يـ سوع الناصـ ري ولاجوتاما ولا فرنسيس الأسيسي، ولا إناطيوس ليولا. فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هَس آخر في القرن الثامن عشر، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أي إنسان لديه ما يكفي من الحميّـ ة لإحراقـ ه.

فإلى يوم بدأت حركات تيقظ الضمير في بريطانيا التي تطورت إلى نهضة المنهاجيين (Methodists) [1] لا نكاد نلمح في أوربا أية بارقة شك تشير إلى أنه لا تزال توجد بين يدي جنسنا واجبات عظيمة لا بد له من إتمامها، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب، ولا أن أخطارًا لا حصر لها كانت تغشّى بالسُدفة والظلام طريق الإنسان في الزمان والفضاء، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتى النهاية جهدًا عظيمًا ورهيبًا.

عاودنا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب "اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها" لجيبون. ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب. ولد جيبون في ١٧٣٧، وصدر آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧. على أن الفقرة التي نقتبسها كتبت فيما يرجح في ١٧٨٠. كان جيبون شابًا رقيق الصحة متوسط الثراء، نال في أوكسفورد تعليمًا جزئيًا متقطعًا، ثم أتم دراساته في جنيف؛ وكان اتجاهه الذهني في جملته فرنسيًا دوليًا أكثر منه بريطانيًا. وكان كبير التأثر بالنفوذ العقلي للفرنسي العظيم الذي يشتهر باسم فولتير (فرانسوا ماري أرويه دي فولتير، ١٦٩٤ – ١٧٧٨). كان فولتير مؤلفًا هائل الجد والتشمير، فإن سبعين سفرًا له تزين رفوف كاتب هذه السطور، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات فولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفرًا، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرة الروسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين في ذلك الزمان. وكان إحساس جيبون وفولتير بالتاريخ قويًا، وكلاهما قد وضع آراءه في الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه؛ وواضح أنهما كليْهما كانا يريان أن النظام الذي كان يعيشان فيه وأعني به نظام الملكية، ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات، ونظام الأقوام المحتقرين تقريبًا أصحاب الصناعة والتجارة، ونظام العامة والفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمنزلين منزلة الإهمال، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم طَوال الدهر. فاعتنقا مبادئ الجمهوريين إلى حين، وأخذا يسخران من الادعاءات المقدسة للملكية؛ ولكن الروح الجمهورية التي راقت فولتير كانت "الروح الجمهورية المتوجة" في بريطانيا أثناء ذلك الزمان، التي كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمي، وأول الجنتلمانية وأعظمهم.

وكان المثل الأعلى الذي يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال – وأعني بهم الرجال ذوي السجايا العالية، إذ ليس لغير هؤلاء وزن – في خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظًا أو متحمسين، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشي، والخشية من هزؤ الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام في الحياة. وكان فولتير يحمل في صدره استعدادًا للكره المتوقد للظلم، وما تدخلاته في نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة في قصة حياته المديدة المعقدة. وإذ كان هذا هو الميل الذهني لدى جيبون

---

[1] المنهاجيون: هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التي قام بها شارل وجون ويسلي في القرن الثامن عشر. (المترجم)

وفولتير، ولدى العصر الذي كانا يعيشان فيه، فإن من الطبيعي لديهما أن يجدا في وجود الديانة في العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها. وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لهما في مجموعه نوعًا من الخبل في الكيان الإنساني. وما ذلك التاريخ العظيم الذي ألفه جيبون إلا مهاجمة للمسيحية في جوهره، بوصفها السبب الفعال للتدهور والسقوط. فكان يمجد بلوتوقراطية [1] روما الفجة الغليظة ويتخذ منها مثلا عليا حاول أن يبثها في عالم مكون من جنتلمانية ممتازين نشئوا على غرار القرن الثامن عشر، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلي من جراء المسيحية. وقد حاولنا في كتابنا التاريخي هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصلح وأحسن. وكان فولتير يرى في المسيحية الرسمية "شنعة L'infame"، وشيئًا يحد من حياة الناس، ويتدخل في أفكارهم، ويضطهد المخالفين الذين لا يضرون أحدًا. والواقع أنه لم يكن في "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" هذه إلا أثر ضئيل جدًا من النور أو الحياة في أي من مسيحية روما (السلفية) أو كنائس الروسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت. وكان من العسير على الإنسان في فترة هذا "الخلو من الدافع الأعلى" التي يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكرة – أن يدرك أي نيران توقدت جمرتها يومًا ما في قلب المسيحية، وأي نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها لا تزال ممكنة التوقد في قلوب الناس.

وأتم جيبون في نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية. ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يومًا ما بانهيار يماثل ذاك؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبراطورية. وعندي أن من المناسب جدًا لخطتنا العامة في هذا الكتاب أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة، فما من شيء يستطيع أن يوضح خيرًا منها الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين في أوروبا إبان بلوغ "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" في عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية. وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية، قوى التفكك التي أنتجت في النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجود في عصرنا هذا.

كتب جيبون عن الانهيار الغربي يقول: "ربما طُبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقًا نافعًا لما يعود بالعظة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر. فإن من واجب الوطني أن يؤثر ويزكي مصالح ومجد وطنه وحده دون أي شيء عداه. على أنه ربما أبيح للفيلسوف أن يوسع وجهه نظره، وأن يعد أوربا جمهورية واحدة عظيمة، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأدب والتهذيب. ولسوف يستمر توازن القوى في التأرجح، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غِيَر الدهر ما بين تسام وتدلٍّ؛ على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالضرورة أن تسدد سهمًا يجرح سعادتنا العامة، وأعني بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك، التي تميز الأوربيين ومستعمراتهم عن الجنس البشري تمييزًا له جدواه التامة. فإن شعوب الكره الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية الممدنة، ولعلنا

---

[1] البلوتوقراطية Plutocracy: حكومة الأغنياء. (المترجم)

نتساءل في تطلع القلق ألا تزال أوربا مهددة بتكرار تلك النوازل التي سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها. وربما وضّحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمأنينة الفعلية التي نحن عليها اليوم.

"كان الرومان بمجهلة لمدى الخطر المحيق بهم وعدد أعدائهم. وكانت المناطق وراء الراين والدانوب أي الأقطار الشمالية لأوربا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان، متصفون بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلى انتهاب ثمار الكدح والجد الذي يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة. كان العالم المتبربر يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور في الصين من ثورات. فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر، يجعلون وجهتهم الغرب، وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف. واتخذت القبائل الهاربة التي خضعت للهون، روح الغزو بدورها؛ وكان طابور البرابرة الذي لا نهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة. ولئن دُمر الأولون منهم، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد. وليس في المستطاع بعد ذلك أن تجيء من الشمال مثل هاته الهجرات العاتية. فأما السكون الطويل الذي يعزى إلى نقص عدد السكان، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة. فبدلاً من ألا تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثرًا بعيدًا وسط غاباتها ومستنقعاتها، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفين وثلاثمائة مدينة مسورة؛ وتأسست على التعاقب ممالك الدانمارك والسويد وبولندة المسيحية. ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق، حتى خليج فنلندة. ومن خليج فنلندة حتى المحيط الشرقي، تتخذ الروسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممدنة. ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الفولجا والأوربي والليناء؛ وعُلِّمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع.

"وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل. ولكن هذا الاتحاد اشتُري بضياع الحرية القومية والروح العسكرية؛ وكانت الولايات الذليلة وهي خلو من الحياة والحركة، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأتمرون بأوامر بلاط بعيد الشقة. وكانت سعادة مائة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين، ربما كانا طفلين ممن أفسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية. وأوروبا اليوم مقسمة إلى اثنتي عشرة مملكة قوية وإن تكن غير متعادلة، ثلاث منها إمبراطوريات عظمى، هذا إلا عدد من الدول الصغرى، وإن كانت مستقلة. فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها. وربما تولى الأحكام في الشمال جوليان آخر (أي فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعني كاترين الكبيرة قيصرة الروسيا)، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (لويس السادس عشر)، وهونوريوس (شارل الثالث ملك إسبانيا)، الجالسين على عرش آل بوربون. وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجة لما للخوف والخجل من تأثير متبادل. فاكتسبت الجمهوريات النظام والثبات، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير؛ ودخل إلى أشد الدساتير نقصًا شيء من معنى الشرف

والعدالة بفضل ما ساد الزمان على الجملة من خلق حسن. وفي زمن السلم كانت سرعة تقدم العرفان والصناعة تزداد بتنافس مثل هذا الحجم من المتبارين الناشطين. وفي زمن الحروب تتمرس القوات الأوروبية بنضال معتدل غير حاسم. فلو خرج من صحراء التتار غاز متبربر، فلا بد له من أن يقمع على التوالي فلاحي الروسيا الأشداء، فجيوش ألمانيا العديدة، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئي الجنان؛ الذين لعلهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك. ولو أن البرابرة المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسي، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجماعة الممدنة إلى حيث لا تنالها أيديهم؛ وعند ذلك تنتعش أوربا مزدهرة في العالم الأمريكي المليء بمستعمراتها ونظمها.

"والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعتهم متعة وحصانة. ولقد كانوا في كل عصر كَلاًّ يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام من أمم الصين والهند وفارس، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا لأنفسهم عمادًا يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكري. وكانت الدول الحربية النزعة في الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما، تنشئ جنسًا من الجنود، فتمرن أجسامهم، وتنظم شجاعاتهم وتكثر من عددهم بما تحدث في قواتهم من تطورات منظمة، وتحول ما في حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة. ولكن هذا الاستعلاء الحربي ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم. وأدت السياسة الضعيفة التي اتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الخشنة على فنون القتال، - فعاد ذلك على الإمبراطورية بالخراب. ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكري؛ والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار. ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعمارة في خدمة الحرب؛ وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع. وربما لاحظ بعض المؤرخين في شيء من الغضب أن نفقه معدات الحصار قد تكفي لتأسيس مستعمرة مزدهرة والمحافظة عليها. ومع ذلك فليس في مستطاعنا أن نتكدر لأن تخريب مدينة عمل لا بد أن يتكلف ثمنًا غاليًا وأن تعترضه صعوبة كبيرة، أو أن شعبًا مجدًا يجب أن تحميه فنونه، التي تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتي تكون من عوامل ذلك الفناء. فالآن تنهض المدافع والتحصينات حاجزًا منيعًا في وجه خيل التتار؛ كما أن أوربا أمست بمأمن من أية غارة مستقبلة يشنها البرابرة؛ إذ إنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولاً عن همجيتهم.

"فإن ساورك الشك في هذه الآراء، أو تبينت خطأها، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل. فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصريين والتاريخ الداخلي أو التقاليد لأشد الشعوب استنارة، -تظهر "المتوحش الإنساني" عاريًا في كل من جسده وعقله، ومجردًا من "القوانين والفنون والفكرات، بل من اللغة تقريبًا". وعن هذه الأحوال الوضيعة، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية، ارتفع الإنسان شيئًا "فشيئًا" إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض، وإلى اختراق لجات المحيط، وإلى قياس أطباق السماوات. وكان تقدمه في تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعًا غير منتظم، بطيئًا بطئًا لا نهائيًا في البداية، متزايد السرعة بعد ذلك، متضاعفها درجة فدرجة. وكم تلت عصور الرفعة المضنية لحظات

انحدار سريع. وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام. على أن خبرة أربعة آلاف سنة، يجب أن توسع آفاق آمالنا، وأن تقلل من مخاوفنا. ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال. على أنه م ن المم ن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمانة أن شعبًا واحدًا لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغي ر وج ه الطبيعة.

"فمنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحماسة الدينية بين متوحشي الأزمان القديمة والعالم الجديد، تلك الهبات التي لا تقدر، بأن طفقت تنتشرها نشرًا متعاقبًا على الأجي ال؛ وإذن فل يس ف ي الإمكان أبدًا أن تزول. ولذا فإنا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد – في الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشري وربم ا زاد ف ي ف ضيلته أيضًا".

١٤- الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوربا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر، أثن اء دور الملكي ات العظمى والبرلمانية، ما نراه من الاستسلام النسبي في العمال والفلاحين. والظاهر أن نيران العصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تمامًا. ذلك بأن بع ض الت سويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الخلافات الاقتصادية في الفترة السابقة، إذ أحدث اكت شاف أمريك ا انقلابًا وتغييرًا في معيار الأشغال التجارية والصناعة، وأدخل إلى أوربا قدرًا ضخمًا من المعادن النفيسة ف صنعت نقودًا، وزاد في العمل ونوّعه. وامتنعت أسباب الشقاء إلى حين. ومر حين من الزمن لم تع د في ه الحي اة والعمل شيئًا لا يطاق عند جماهير الفقراء. ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من ال شقاء والت ذمر الفردي، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء، بيد أن هذا الشقاء والتذمر ك ان موزعًا متناثرًا. فأصبح من ثم همهمة لا تصل إلى الآذان.

وكان لعوام الناس في الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهي فكرة الشيوعية المسيحية. وقد وج دوا في أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة وإذ إن الحركة الداعية إلى نهضة في المسيحية استنفدت قوتها، وإذ إن العقيدة اللوثرية نكصت في زعامتها عن يسوع الناصري إلى الأمراء البروت ستانت، فقد نضب معين ذلك التماسّ والتفاعل الذي تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذه ان الأمي ة. ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها، فلن يكون في إمكانها القي ام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها. فإن أصحاب الأفكار من متعلمي الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى. فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم، وإن للأوليجركية – من أي طراز كانت – لتعليمًا تتلقاه م ن إدارته ا للشئون؛ ولكن ليس لدى الرجل العامي وأعني به الفلاح أو الكادح أي تجربة في الشئون الكبي رة، فه و لا يستطيع أن يعيش سياسيًا بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم. فالإص لاح ال ديني، أي الإص لاح الديني الذي نجح ووفّق، وأعني به الإصلاح الديني للأمراء، قد قضى بتحطيمه للوسائل والفرص التعليمي ة على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيرًا وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكنًا بإقناعهم الجمهور.

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أي عن دما اس تولوا عل ى الكن ائس الوطنية، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضًا. وكانت فكرتهم عن التعليم هي فكرة الاستيلاء على أذكياء الشبان واستخدامهم في خدمة سادتهم. وكان التعليم يعد عندهم فيما وراء ذلك شيئًا ضارًا. وعلى ذلك لم يبق للفقر إلا وسيلة واحدة للتعلم هي الاستعانة بنصر يأخذ بيده. وبدهي أن جميع الملكيات العظمى كانت ت شجع التعليم بطريقة هي بالمهرجانات أشبه، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين، وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق في المتعلم الفقير. كذلك ح دث في الجمهورية العظيمة الأرستقراطية المتوجة في بريطانيا، نفس التناقص في الف رص التعليمي ة. ويق ول هاموند في بيانه عن القرن الثامن عشر: "إن كلا من الجامعتين القديمتين، كانت للأغنياء. وهناك فق رة ف ي

ماكولي تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ وأبهة عند مختتم القرن السابع عشر، "عندما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور في ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشلدوني [1]، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان إنجلترة في دعة ووقار بوصفهم طلابًا لدرجات الشرف العلمية. لقد كانت الجامعة قوة، لا بالمعنى الذي يمكن أن تقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة، التي كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقًا، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءًا من الجهاز الأرستقراطي المعترف به. وما كان يصدق عن الجامعات، كان يصدق عن المدارس العامة [2]. فلم يكن التعليم في إنجلترة مهد مجتمع، بل مهد هيئة من الناس، وليس مهد دولة، بل مهد جنس من الحكام الملاك". وكانت روح التبشير الديني قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوربا. وإلى هذا، بل وأيضًا إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء، ينسب طور الاستسلام هذا الذي ران على الطبقات الدنيا. فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى. وكان المجتمع أشبه شيء بحيوان مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة.

وفضلاً عن ذلك فقد دخلت تغييرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب. ومن أشق الأمور التي على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما، تقدير القيمة النسبية للأملاك الكلية، التي تملكها في أي وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع. فإن هذه الأمور تتقلب تقلبًا سريعًا جدًا. وتدل حروب الفلاحين في أوربا على دور تركز نسبي للأملاك في أيدي قلة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أملاكها وشملت حالة من السوء مشتركة. وبذلك تنتهج خطة العمل الجمعي. كان هذا هو الزمان الذي تسنمت فيه أسرة الفوجر [3] وأمثالها مراقي الرفعة والرفاهية، وهو زمان مالية دولية. ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى أوربا من أمريكا، عودة لحالة ثراء أوسع انتشارًا بين الأفراد. وكان الفقراء على حالهم التي هم عليها من الشقاء والتعاسة، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول نسبيًا، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لا تجمعها فكرات مشتركة. فأما في بريطانيا العظمى، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الديني، قد استقرت من جديد في نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام. وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعي سائمة القرويين الأفقرين، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعًا على أساس الملكية المشتركة للمجتمع. فأما الرجل المتوسط الحال، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض، فكانوا يعيشون عيشًا مطاقًا مقبولاً في (١٧٠٠). فإن مستوى الحياة وأعني به فكرة ما قد يطاق من العيش، كان مع ذلك في ارتفاع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى.

---

(1) المسرح الشلدوني: نسبة إلى جلبرت شلدون رئيس أساقفة كانتربري في ١٦٦٣ بناه على نفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن. (المترجم).

(2) المدارس العامة Public Schools: هي المدارس الثانوية. (المترجم).

(3) أسرة فوجر Fuggers: أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحيانًا على حملات ملوك ألمانيا العسكرية. (المترجم).

وبعد انقضاء آن من الزمان، تبدو عملية تركز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت. فإن مُلاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر. وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا ينازعهم منازع، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين – هي قوانين السياجات (The Enclosure Acts) – وهي التي كادت تفضي إلى مصادرة الأراضي غير المسوّجة والأراضي المشاع، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان. وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبي الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعي.

ولم يصل الفلاح في فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته. فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابي؛ فكان يُدفع إلى أرضه دفعًا بدل أن يدفع إلى خارج أراضيه.

ومع مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من أدب ذلك الزمان، أن معالجة شأن "الفقير" عادت فشغلت أذهان الناس ثانية، فإنا نجد كتابًا من متوقدي الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ – ١٧٣١) وفيلدنج (١٧٠٧ – ١٧٥٤)، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة. ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية. شأن ما كان يميز أزمان ويكليف وهس (Huss). فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة، مزقت ردحًا من الزمان فكرة التماسك العام، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلاً تامًا في تحقيق تلك الفكرة، فإنها كانت على كل حال رمزها.

وكان ديفو وفيلدنج رجلين أوتيا خيالاً عمليًا أشد نشاطًا من خيال جيبون، فأدركا شيئًا من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما، وكذلك شأن أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ – ٧٤)؛ فإن قصيدته "القرية المهجورة" (١٧٧٠) ليست إلا منشورًا في موضوع السياجات متنكرًا في زي قصيدة. ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظريه ظهورًا ناصعًا جدًا. فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين التبربر والمدنية، على أنه لم يدرك شيئًا من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرَك، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين. فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التي أوشكت للفور أن تعصف بكل التوازن القائم بين "ممالكه الاثنتي عشرة القوية غير المتعادلة" أعني بين "إمبراطورياته المحترمة الثلاث" وما حولها من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم. وحتى الحروب الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم "بالديمقراطية".

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار في أيدي طبقة قوية شرهة ذات امتيازات، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي الإنجليزية في القرن الثامن عشر – إذ الواقع أنا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير. وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية، كان يحدث تقدم عظيم في

الزراعة. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن طرائق الفلاحة التي يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار، كانت طرقًا عتيقة بالية مضيعة للجهد وغير منتجة نسبيًا، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التي خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجًا بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفاً). فلربما كان التغير أمرًا ضروريًا، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعًا إلى حدوثه، بل إلى أنه إنما حدث لكي يزداد الأثرياء ثراء والفقراء عددًا. أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصًا بها نفسه. فوقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى.

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشكلات حياتنا في الزمن الحاضر، وهي مسألة انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طريقها الطبيعي. فقد انقضت مئات من السنين – ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسي، تحسن متواصل في طرائق إنتاج كل شيء تقريبًا تحتاج إليه الإنسانية. فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الاجتماعي كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله، وكانت تتيح لكل فرد قدرًا من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل. ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب إذ إن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفًا لم يعهدهما العالم من قبل، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخاملين من الناجحين وغير المنتجين في المجتمع؛ على أن هذا يفشل في تعليل النفع الكامل المستفاد. إذ حدث ثمة كثير من المضيعة التي لا فائدة تجنى من ورائها، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد لها. وكرس شيء كثير من الجهد في سبيل تلك الجهود غير المجدية، التي تتفق في المنافسة الفاشلة في الأعمال التجارية. وظلت إمكانيات كثيرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الاقتصادي. ولم تتناول الطيبات التي ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية – تناولاً منهاجيًا [١] ولم تستعمل إلى أقصى حدودها، ولكن تخاطفتها الأيدي وتجاذبتها الأصابع – واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمتّ إلى الغرور بسبب. وكان القرن الثامن عشر في أوربا وبوجه أخص في بريطانيا العظمى وبولندة عصر الملكية الخاصة. وكان القدح المعلى فيه "للمسعى الخاص" [٢] الذي معناه في الممارسة العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع. ولسنا نعثر في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أي إحساس بالتزام الأفراد بأي شيء نحو الدولة في شئون الأعمال. إذ إن كل إنسان منطلق "لتكوين ثروته"، وليس هناك من يدرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيليًا على المجتمع غير منتج، وأقل من هذا أن يشعر مالي أو تاجر أو صاحب صناعة، أنه يتناول لقاء خدماته للإنسانية أجرًا أكثر مما ينبغي. كان ذلك هو جو الزمان الخلقي. وهؤلاء اللوردة والجنتلمانية الذين

---

[1] منهاجيًا Methodically: أي متبعًا للترتيب المنطق في البحث العلمي. (المترجم).

[2] المسعى الخاص أو الجهد الفردي Private Enterprise: جهود الأفراد في التجارة والأعمال الحرة. (المترجم).

كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع، يفترضون امتلاك المناجم التي تحت أراضـيهم، ويحطمـون صـغار المزارعين الملاك [1] والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ولم تكن تخامرهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشاً جديرًا تمامًا بكل كرامة واستحقاق.

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العظمى، أعني هذا الانتقال من فلاحة الرقاع التقليدية والمراعـي المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتمادًا على العلم – تغيرات عظيمة جدًا في صناعة الـسلع. وكانـت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر زعيمة العالم في تلك التغيرات. فحتى ذلك الحـين وعلـى مـسار التاريخ أجمع منذ بداية المدنيات، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدي أرباب الحرف على وجه العموم وفي أيدي صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة. وكانـت تنـتظمهم نقابات، وهم في معظم الأمر سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم. فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مـستديمة لها وزنها. وكان بينهم الممولون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليهـا، ويـزودون غيـرهم بالخـدمات، ويأخذون السلعة التي تتم، على أنهم لم يكونوا مولين كبارًا. فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء، بل كـان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضي العظام أو مسلفو النقود أو الممارسون لشئون النقـود أو التجار. ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع صناعات بعينها رغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامي للعمل، وشرع صاحب العمل مميزًا من المعلم (الأسـطى) فـي أن يكون شخصًا هامًا. زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخذت تنتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليـدوي وتبسطه، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار. إذ ركبـت فـي (١٧٦٥) آلـة وات Watt البخارية، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية. وكانت صناعة القطن مـن أوائـل الصناعات التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) وتلا ذلك صناعة الصوف. وفي نفس الوقت لجأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجـري وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتي. وابتـدأت صـناعات الفحـم والحديد كذلك في الانتشار. وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسري (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم. ولما وافت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب في الصناعة قد سار شوطاً صالحًا وانتقل بها من الإنتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير في كنف أصحاب أعمال كبار. فنشأت في كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم ثنّت بقوة البخار. كان تغيرًا ذا أهمية جوهرية في الاقتصاد البشري. ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعًا من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة.

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل، فأما هو فإنه أصبح إما صاحب عمل يستخدم إخوانـه، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوي بالطبقات الفنية الأخرى، أو ظل صانعًا وانحط سريعًا إلـى مـستوى

---

[1] صغار المزارعين الملاك Yeomen: وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود. (المترجم).

العامل الأجير، ويعرف هذا التغير العظيم في الشئون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية. وقد بدأ ذلك الانقلاب في بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع.

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية، انفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيره والعامل المستخدم الأجير ففي الماضي كان كل عامل "منتج" يمني النفس بأن يصبح يومًا ما معلما (أسطى) مستقلاً. وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء في بابل وروما أن كانت تحميهم قوانين كانت تمكنهم من ادخار المال وشراء حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم. أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئًا ضخمًا باهظ النفقة، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية. ولذا صار لزامًا على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعًا. وكان الائتمان ومعدات المصنع وأعني بهما "رأس المال" لازمين مطلوبين. ولم تعد إقامة الصانع "عملاً مستقلاً بنفسه" مطمحًا طبيعيًا لمهرة الصناع. ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملاً من مهده إلى لحده. ونشأت عند ذاك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذاك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذاك هذه الثورة الناتجة من رأس المال الصناعي – وهي ضرب جديد من القوة في الدولة.

وإنا لمحدثوك عما قليل، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها. وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيما حلت به من أقطار، أن أحدثت انتقالاً أليماً وهزة عظيمة بين عوام السكان الصامتين غير المتعملين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرمانًا يتزايد أكثر فأكثر. فأما صغار المزارعين والفلاحين – وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم – فإنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطت مكانتهم في المصانع. وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة. وما نخال أن إنسانًا لاحظ في وضوح، ماذا كان يجري في ذلك الزمان. فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب "المسعى الخاص" هي أن يلزم كل امرئ شأنه، وأن يحصل على أقصى ربح في مستطاعه، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من عواقب. ونمت مصانع قبيحة الشكل، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال. وتجمعت حولها شوارع تحوي منازل العمال، وقد بنيت بأرخص الأسعار، دون أي اتساع ودون أي انفصال عن الجيران، ودون أي مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريبًا، مع تأجيرها للعمال بأقصى إيجار يمكن تحتيمه عليهم. وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة، بلا مدارس ولا كنائس بادئ الأمر.

وكان الجنتلمان الإنجليزي الذي عاش في الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أي خوف خطير من الهمج المتبربرين، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو، كما كان هذا التحول، الذي كان يحيل أبناء وطنه شيئًا حالكًا معتمًا لا رجاء فيه، يسير بأشد قوة وأقصاها.

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

١- متاعب نظام الدولة العظمى

عندما كان جيبون يهنئ منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسي المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولّى، كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحقائقه الواقعة – أن نخبره بأنها تحمل في طياتها النذر بهزات وتقلقلات أفدح ثقلاً من أي شيء توقعه. ولقد خبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكرًا ودهاء وأشد تعقدًا بين وزارات الخارجية، وهي في ثياب تنكرية تتشكل فيها شكل "الدول العظمى" وتتخذ منها معبودات ومثلاً عليا مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر. وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى. ولم يعد "الأمير" متآمرًا ميكيافلليًا يعمل في الخفاء، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطة ميكيافللية. فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على بولندة واقتسمتها. وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد إسبانيا. وخاتلت بريطانيا "خطط فرنسا" في أمريكا واستحوذت على كندا. وتفوقت على فرنسا في الهند. عند ذلك حدث أمر جلل، أمر عدته الدبلوماسية الأوروبية مزعجًا جدًا. فإن المستعمرات البريطانية في أمريكا رفضت رفضًا باتًا أن يكون لها بعد ذلك أي دور أو نصيب في لعبة "الدول العظمى" هذه. إذ إنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة في هذه الخطط والمنازعات الأوربية، ورفضوا أن يتحملوا أي نصيب من عبء الضرائب التي تجرها تلك السياسات الخارجية، وكانت الفكرة المتسلطة عليهم هي أن "الضرائب بلا تمثيل نيابي استبداد وطغيان".

وغني عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملاً سويّ الخلْق من العقل الأمريكي منذ بداية هذه المتاعب. فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثلما كانوا في إنجلترة في القرن السابع عشر، في رضاء تام بل رغبة أكيدة في الواقع في ترك الشئون الخارجية في يد الملك ووزرائه. ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شئون اتجاهاتهم العادية متدخل. ولكن هاتين الرغبتين متعارضتان. فإن الرجال العاديين لا يستطيعون أن يتنصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الخاصة، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر. وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا، كان مجرد تذمر من الضرائب، ومن التدخل الذي تبع بالضرورة "السياسية الخارجية" دون أي تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض. ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقًا تمييزًا واضحًا أنهم رفضوا وجهة نظر "الدولة العظمى" في الحياة. وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنجتون "بتجنب المخالفات المورطة". ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرناً كاملاً وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية – بمنأة تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية. وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبدأهم الانفصالي إلى سائر أجزاء القارة، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع "محظورًا" على من في العالم القديم من أصحاب مؤامرات

التوسع الاستعماري ومدبري خططه. وعندما اضطروا آخر الأمر في ١٩١٧ أن يدخلوا ثانية إلى مجتلد[1] السياسة العالمية، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا في معقدات العلاقات الدولية، بالروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتي مكنهم ترفعهم من تطويرها. على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع. فمنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجبلية على حقها في الانعزال عن خطط الملوك والإمبراطوريات.

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور في تاريخنا تتزايد أهميته، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسمًا أوفى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن. ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة في القسم العاشر من الفصل السابق. ولسوف نزيدك من فورنا إيضاحًا – وإن كان ذلك في حدود أبسط المعالم – عن أحوال تلك المستقرات، التي كان عنادها سببًا في تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمى ووزرائها في لعبتهم السياسية ضد سائر بني الإنسان.

[1] المجتلد (Arena): هو حلبة المباراة والمنازلة عند الرومان. (المترجم).

٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. والتظليل الأقتم يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠، ويمثل التظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠. وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل، تمتد إلى الداخل شيئًا فشيئًا وتعترض سبيلها جبال ألكيجاني والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزًا خطيرًا جدًا. ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة فرجينيا، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة إليزابث، ملكة إنجلترة العذراء. وأول حملة لإنشاء مستعمرة بفرجينيا قام بها السيد والتر رالي في ١٥٨٤، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم، ومن ثم ترجع بدايات فرجينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرجينية في ١٦٠٦، إبان حكم جيمس الأول (١٦٠٣ – ١٦٢٥). وإن قصة جون سميث ومؤسسي فرجينيا الأوائل وكيف تزوجت الأميرة الهندية بوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكل قطعة أدبية كلاسيكية هي "رحلات جون سميث"[1]. ولقي الفرجينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطباق. وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة الفرجينية، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من "مضيق الجزيرة الطويلة [2]" لونج أيلند التي ادعى الإنجليز ملكيتها. ولكن الناس لم يشرعوا يستقرون في المناطق الشمالية إلا في (١٦٢٠)، وذلك بموجب مراسيم جديدة. وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (نيوإنجلند) التي أصبحت كونكتي كتّ ونيوهمبشير ورود آيلاند وماساشوستس، رجالاً لهم طابع يخالف طابع الفرجينيين، فإنهم كانوا بروتستانت متذمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة، كما كانوا رجالاً ذوي روح جمهورية لا مأمل لديهم في مقاومة ملكية جيمس الأول أو شارل الأول العظمى. وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركابها مدينة نيوبليموث في ١٦٢٠. وكانت أهم المستعمرات الشمالية هي ماساشوستس. وأدت الفوارق في الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التسمح الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس. ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمبشير بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابتن جون ماسون، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمائة طن من النبيذ الفرنسي – معفاة من المكوس الجمركية – وهو عرض رفضه الملك. واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدعي ملكيتها بمبلغ ألف ومائتين وخمسين جنيهًا.

وفي إبان الحرب الأهلية التي انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول، كانت عواطف نيوإنجلند منحازة إلى جانب البرلمان. وكانت فرجينيا من أنصار فرسان الملك، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين [3]

---

[1] John Smith's Travels

[2] Long Island Sound

[3] المستقرات والمستعمرات والمستوطنات: تستعمل هنا بمعنى واحد والمؤلف في الإنجليزية يستعمل كلمتي (Settlement. Colony) ولا تنطويان على معنى الاستعمار الحالي. بل على معنى الاستيطان والتعمير. (المترجم).

مائتان وخمسون ميلاً، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير. وصحب عودة الملكية في ١٦٦٠ تطور قوى في الاستعمار البريطاني بأمريكا. إذ كان بشارل الثاني ومن حوله من خلطاء شراهة للمال، فضلاً عن أن التاج البريطاني فقد راغمًا كل رغبة في أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة في أرض الوطن. غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين التاج والحكومة البريطانية لاح فيها بوادر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي. فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك. وكان اللورد بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الاسم الجذاب ماري لاند، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا. وعندئذ استقر "بِنْ" الكويكري (الذي أدى والده لشارل الثاني خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا. وقد حدد تخومها الرئيسية مع ماري لاند وفرجينيا، رجلان هما ماسون وديكسون، اللذان قدر لخطهما "خط ماسون وديكسون" أن يكون بالفعل خط تقسيم هامًا جدًا فيما تلا ذلك من شئون الولايات المتحدة. ومن قبل ذلك سقطت كارولينا في أيدي الإنجليز فسكنوها في جهات متعددة. وكانت كارولينا هذه في الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة، وكانت تدين باسمها لا لشارل الثاني (كارلوس) ملك إنجلترة، بل لشارل التاسع الفرنسي. وكان يمتد بين ماري لاند ونيوإنجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية، كانت المدينة الرئيسية فيها هي نيوأمستردام. وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين في ١٦٦٤، ثم خسروها مرة ثانية في ١٦٧٣، واستعيدت بالمعاهدة التي أبرم بها الصلح بين هولندة وإنجلترة في ١٦٧٤. وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (مملكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى). وكان الإسبان مستقرين إلى الجنوب؛ وكان مقرهم الأكبر في قلعة سانت أوغسطين في فلوريدا، وفي ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للإنسانية هو "أوجلي ثورب" الإنجليزي، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم في إنجلترة، ومن ثم أنقذ من السجن عددًا منهم فأصبحوا مؤسسي مستعمرة جديدة، هي جورجيا التي أصبحت حصناً منيعًا يقف في وجه الإسبان. ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكي وهي: مجموعة نيوإنجلند المكونة من البيوريتانية والبروتستانت الأحرار، وهي: - مين (التابعة لماساشوستس)، ونيوهمبشير وكونكتيكت وورود أيلاند وماساشوستس؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التي كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الاسم الجديد لمدينة نيوأمستردام) ونيوجرسي وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية، وألحقت في أبكر أدوار تبعيتها البريطانية بينسلفانيا) ثم جاءت ماري لاند الكاثوليكية، وفرجينيا الفرسانية، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم جورجيا ومنشأة أوجلي ثورب. ثم التجأ إلى جورجيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيروليين، وهاجرت إلى بنسلفانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان.

تلك هي الأصول المخلطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة. ولا بد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها في يوم من الأيام كان يبدو في عين أي امرئ غير متحيز يراقب الأمور في ١٧٦٠ احتمالاً ضعيفاً جدًا. ومما زاد الأمر سوءًا أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولّدها المناخ. فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على أساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوربا الوسطى وعلى يد

زراع أحرار من البيض. واكتست المنطقة المسكونة في نيوإنجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزي؛ ونشأت في مساحات مترامية من بنسلفانيا حقول ودور ريفية تشبه ما في جنوب ألمانيا. وكانت للظروف المميزة في الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية. إذ كان لزامًا على السادة ورجالهم أن يعملوا يدًا ليد بوصفهم سكان غابات خلفية [1] فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك. أجل إنهم لم يبدءوا العمل متساوين. فإن قائمة السفينة "ماي فلاور" تحوي أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جميعًا في ظل ظروف المستعمرات؛ فكان هناك – مثلاً – متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختفى نظام الطبقات الإنجليزي. ونشأت في أكناف هذه المستعمرات مساواة "في ملكات كل من الجسم والعقل". وظهر استقلال فردي في الحكم على الأشياء تأخذه حمية الأنف لأي تدخل من جانب إنجلترة. ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون، وكان المناخ الأدفأ مشجعًا على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال. فحاولوا بادئ الرأي استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلا شديدًا إلى سفك الدماء البشرية. وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإرلنديين إلى فرجينيا، وهو أمر كان له أثره البالغ في استرضاء أفئدة المزارعين الملكيين على الجمهورية ومبادئها. وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا "يرسلون خفية" إلى أمريكا لكي يصبحوا صبيانًا في صناعة [2] أو عبيدًا أرقاء. ولكن أثبتت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر [3] العمال إنما هو منسر العبيد الزنوج. وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزنوج إلى (جيمس تاون) من مدن فرجينيا في زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠. ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزنوج منتشرين في كل أرجاء الولايات، بيد أن فرجينيا وماري لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من زراع غير كبيري الثراء وغير كبيري الفقر، فإن الجنوب طور طرازًا من المالك الكبير ومجتمعًا أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء. فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي نما في الجنوب، وكان وجود الأرقاء في الشمال أمرًا لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمرًا مزعجًا. لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضمائر الحية على الاسترقاق في جو الشمال مجالاً أرحب لتطورها وازدهارها. ولا بد لنا من عودة إلى هذه المسألة، مسألة انبعاث الرق من جديد، عندما نأخذ في التأمل فيما تتعرض له الديمقراطية الأمريكية من دواعي الارتباك. ونحن هنا إنما نلحظها في بساطة بوصفها عاملاً إضافيًا إلى ذلك الخليط المتنافر في المستعمرات البريطانية.

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعًا شتى في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجاه عواطفهم، لقد كانت تجمعهم معًا خصومات ثلاث: فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر. وتقاسموا

---

(1) الغابات الخلفية: أراضي غابات غير مزدرعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات. (المترجم).

(2) وهم الذين يعبر عنهم الآن باسم تلاميذ صناعيين. (المترجم).

(3) مناسر العمال Gang Labour: هي جماعات العمال التي تجمع لأداء عمل ما. (المترجم)

ردحًا من الزمان خوفًا مشتركًا من الفتح والسيادة الفرنسيين. وكانوا في الثالثة – مشتركين بأجمعهم في النضال ومدعيات التاج البريطاني والأنانية التجارية للأوليجركية الجشعة التي كانت تسيطر على البرلمان البريطاني والشئون البريطانية. فأما الخطر الأول وهو الهنود، فكان شرًا مستديمًا ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر. إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم. ومع ذلك فلقد ظهرت عليهم في بعض الأحيان احتمالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير. فإن الشعوب الخمسة في عصبة القبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصبة قبائل هامة جدًا. بيد أنها لم تنجح في حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكي تضمن لنفسها الأمان، ولم ينشأ بين مرتحلة العالم الجديد هؤلاء جانكيز خان هندي أحمر. وكان العدوان الفرنسي تهديدًا أخطر، ولم يقم الفرنسيون أبدًا بإنشاء مستعمرات في أمريكا على معيار ينافس المستقرات الإنجليزية. بيد أن حكومتهم اتجهت إلى تطويق المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة. كان الإنجليز في أمريكا مستعمرين مستوطنين، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين، ووكلاء تجاريين ومبشرين وتجارًا وجنودًا. ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساسًا متينًا إلا في كندا. إذ إن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان. وإنك لواجد أحلامهم ماثلة في خريطتنا، في سلسلة القلاع المتسللة جنوبًا، من البحيرات العظيمة، وشمالاً في أعلى المسيسبي والأوهايو. وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحًا شمل العالم أجمع. وقد فصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة أعالي البحار [1]. ويصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترة، وتركوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين. وكان معنى ذلك تخلى فرنسا تمامًا عن أمريكا. وبزوال هذا الخطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحرارًا لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك: وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها.

---

[1] أعالي البحار: High Seas أجزاء البحار الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياه الإقليمية لأي قطر من الأقطار التي عرضها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال. (المترجم)

٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضًا

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى دأبت على وضع يـ دها علـ ى الأراضي والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعمايتهم عن الثورة الصناعية[1] الجديدة. كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطاني بسبب انحلال أساليب التمثيل النيـ ابي لمجلس العموم، أصبح في كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أي اللوردة والعموم، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي. وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة في أمريكـ ا – الأولـ ين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة، والأخير بوصفه ممثلاً لاستغلال ملوك أسـ رة اسـ تيوارد ومضاربتهم من ناحية، وبوصفه ممثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى؛ وطبيعي أن اللوردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلـ ى التجـ ار والـ زراع والعامـ ة سـ كان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرته إلى صغار المزارعين وصغار الزارعين المـ ـلاك فـ ي أرض الوطن. والواقع أن مصالح الرجل العامي (العادي) في كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت فـ ي صميمها واحدة لا اختلاف بينها. فإن كلا منهم كانت تعتصره وتستغله نفس الهيئة الحاكمة، ولكن على حـ ين كان العاصر والمعصور في إنجلترة متشابكين تشابكا وثيقًا في نظام اجتماعي وطيد، فـ إن التـ اج وطـ البي الاستغلال في أمريكا كانا بعيدين، وكان في مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا فـ ي أنفـ سهم شـ عورًا بالجماعة ضد عدوهم المشترك.

هذا إلى أن المستوطن الأمريكي كانت له الميزة الهامة، ميزة امتلاكه لسانًا وترجمانًا منفصلاً قانونيًـ ا لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية، التي كانت ضـ رورية لإدارة الشئون المحلية. ولم يكن للرجل العامي في إنجلترة – وهو الذي تحرمه الجنتلمانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والخداع من التمثيل الصحيح في مجلس العموم – أي لسان ناطق عنه ولا أي مركز للعمل والتعبيـ ر عن تذمره.

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان يهيئ الفرص لسلسلة لا نهايـ ة لها من المنازعات، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة. وقصة تطـ ور الانفعـ الات بـ ين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقدًا وأدق وأطول من أن تتسع لها خطة هذه "المعـ الم". وحـ سبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي: المحاولات المبذولة لضمان حصول المغامر البريطاني أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفـ اظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أيد بريطانية، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في أمريكا سوى السلع البريطانية. وأخيرًا تجيء محاولة فرض الـ ضرائب بواسطة البرلمان البريطاني بوصفه السلطة العليـ ا الفارضـ ة للـ ضرائب فـ ي الإمبراطوريـ ة. واضـ طر

---

[1] تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعي. (المترجم)

المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات، أن يقوموا بقدر جسيم من التفكير السياسي العميق. وشرع رجال من أمثال باتريك هنري وجيمس أوتس (Otis) في مناقشة الفكرات الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسي على نحو شديد الشبه بمناقشتها في إنجلترة في الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية. وأخذوا ينكرون كلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطاني، وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالي:

- "خلق الله الناس جميعًا متساوين تساويًا طبيعيًا.
- والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية
- وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم
- وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيدًا
- ومع أن معظم الحكومات تعسفية في واقع الأمر
- وهي بناءً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية.
- فما من واحدة منها تكون تعسفية قانونًا وشرعًا".
- وبعض هذه الأقوال تضرب في الموضوع بسهم بعيد المرمى.

وقد بدأ هذا التخمر في أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خميرة بريطانية. فإن هناك كاتبًا إنجليزيًا عظيم التأثير هو جون لوك (١٦٤٢ – ١٧٠٤)، الذي يمكن أن يعد كتابه "مقالتان عن الحكومة المدنية" نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية. كان أبوه جنديًا من أتباع كرومويل، كلية وقد تعلم في "كرايست تشرتش Christ Church" بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية، وقضى بضع سنين مبعدًا في هولندة، وتكوّن كتاباته جسرًا يصل بين التفكير السياسي الجريء في تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا.

على أن الرجال لا يشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات. وإنما يحدو الناس إلى "العمل" على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقي أو ضرورة ما عملية. ولن تستقيم للنظريات الأمور وتستقر في نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هدّ صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أمورًا جديدة محيرة. وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار. فالخلاف على المصالح والفكرات، المشتجر بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية. وكانت بريطانيا ترفل في بحبوحة السلم وتنهال عليها الرفاهية من كل جانب، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة. ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آراءهم نفسها، وإن اختلفت عنهم قليلاً في غاياتها – وهي قوة التاج المنتعش. ذلك بأن جورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠، أصر على أن يكون في سلطانه ملكًا أكثر من سلفيه الألمانيين. وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية، وكان يدعي أنه "مباهٍ بأن يلقب

بريطونيا [1]، وعندي أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجري في عروقه قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزي ولا الويلزي ولا الاسكتلندي!!؟ وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة – (بل عساها بلا مراسيم مطلقًا) – أماكن قد يستطيع التاج فيها أن يدعي السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكارًا باتًا الأرستقراطية القوية الغيور على سلطانها في بريطانيا. فدفع هذا كثيرًا من نبلاء الهويج (Whigs) [2] أن يعطفوا على المستوطنين عطفًا لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الظرف. ذلك أنه لم يكن لديهم أي اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب "المسعى الخاص" [3] البريطاني ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جدًا على تقوّي التاج بذلك الاستغلال تقويًا يجعله على الفور مستقلا مستغنيًا عنهم.

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حربًا بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين، انحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقدر جسيم من الشعور العام في إنجلترة إلى صف هؤلاء المستوطنين. وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمي إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا في المستعمرات بتحتيم دمغ الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق. ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطاني، فألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦). وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح صحبها شيء من الشغب في لندن؛ وتجلى فيها من السرور القلبي ما لم يتجل في المستعمرات نفسها.

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة في سيل مضطرب يتدافع هاويًا نحو حرب أهلية. فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج في أعلى الساحل وأسفله دائبين على تحقيق سلطاتهم وإبرازهم وجعل الحكومة البريطانية كلاً فادحًا لا يطاق. وكان إنزال الجنود في ضيافة المستوطنين كرهًا، من أفدح الأمور وطأة عليهم. وكانت رود أيلاند ناشطة بوجه خاص في تحديها لقيود التجارة. فإن سكان رود أيلاند كانوا متجرين أحرارًا – أي مهربين، وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسبي (Gaspee) شحطت على أرض بروفيدانس؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق، ثم ما لبثوا أن أحرقوها. وفي (١٧٧٣) منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في استهانة تامة بنظام تجارة الشاي في المستعمرات. وصمم المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته. ولما أن أظهر مستوردو الشاي في بوسطن إصرارًا على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ، صعد إلى سفن الشاي الثلاث عصبة من الرجال متنكرين في زي الهنود الحمر، وألقوا بالشاي في البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣).

---

[1] بريطوني Briton: أي من سكان بريطانيا القدامى. (المترجم)

[2] الهويج Whigs: حزب ظهر في القرن التاسع عشر ممثلاً لتجار الطبقة الوسطى مناهضًا لأصحاب الأملاك من حزب التوري (المحافظين أخيرًا) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار. (المترجم).

[3] المسعى الخاص Private enterprise: الجهود أو المشروعات الخاصة التي يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات. (المترجم).

وشغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعدادًا للمعركة المقبلة. وقرر البرلمان البريطاني في ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاي. وكان ذلك مثالاً نموذجيًا كاملاً لذلك "الحزم" الأحمق الذي يمزق الإمبراطوريات بددًا. ولكي يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة، احتشدت الجيوش البريطانية في بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لتلك. وانعقد أول (كونجرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا في سبتمبر، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هي: ماساشوستس، وكونكتي كت، ونيوهمبشير، وورود آيلاند، ونيويورك، ونيوجرسي وبنسلفانيا، وماري لاند، وديلاوير، وفرجينيا، وكارولينا الشمالية والجنوبية، ولم تكن جورجيا حاضرة. وأصدر الكونجرس تمشيًا مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر "إعلان حقوق". والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥). يوم جاء أول سفك للدماء.

فإن اثنين من الزعماء الأمريكان هما هانكوك وصمويل آدامز، قد اتجهت نية الحكومة البريطانية إلى اعتقالهما، ومحاكمتهما بتهمة الخيانة، وكان معروفًا أنهما في لكسينجتن، على مبعدة أحد عشر ميلاً تقريبًا من بوسطن، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بزحف قواته لاعتقالهما.

وكانت تلك الليلة من ليالي التاريخ العظيمة. فإن المستوطنين تنبهوا إلى حركة جيوش جاج، فرفعت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وانسل رجلان هما داوز وبول ريفير في قارب عبر الخليج الخلفي حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكي يُحذّرا المنطقة الريفية. كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية عبر الخليج؛ وفيما هم يزحفون تحت جنح الليل إلى لكسينجتن عند الفجر، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفين في تشكيلة عسكرية. والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار. فانطلقت طلقة واحدة ثم سيل من الطلقات، وتراجعت الثلة الصغيرة دون أن تجيب – فيما يظهر – على الطلقات تاركة في ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى.

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد، وهي وراء ذلك بعشرة أميال، فاحتلوا القرية وأوقفوا ثلة من الجنود على الكوبري القائم في ذلك الموضع. وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز، ويلوح أن القائد البريطاني تحير ماذا يفعل بعد ذلك. وفي نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حدب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبري أنفسهم غرضًا لنيران متزايدة انتهت بهجوم. وتقرر التقهقر إلى بوسطن. ولكنه كان تقهقرًا مدمرًا. فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم، وأخذ المستوطنون في التجمع طول الصباح. وعندئذ أصبح جانبا الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسياجات والمباني، وكثيرًا ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكي. وكان الجنود في ثياب قرمزية وضاحة، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة في أخريات ربيع نيوإنجلند، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حارًا متربًا، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سُراهم طول الليل. وفي كل بضع

ياردات يقع منهم رجل إما جريحًا أو قتيلاً. على حين يسير الباقون ثقالاً أو يقفون ليطلقوا وابلاً من نار على غير جدوى. وكانت هناك في لكسينجتن أمداد بريطانية ومدفعان، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر في نظام أحسن. ولكن التعقب استمر حتى النهر، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن، اتخذ جنود المستوطنين مراكزهم في كامبريدج وأعدوا أهبتهم لحصار المدينة.

٤- حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب، ولم تكن حربًا تبشر بنهاية حاسمة. فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحـ دة يخـ شون عليها عطبًا؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها، ولذا كانت لهـ م قـ وة مقاومـ ـة عظيمة. وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود. فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال في نظـ ـام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم. ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقى البريطانيين في معركة عظيمة، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربي؛ هذا إلى أن مجنديهم كاد يُلم بهم نفادُ الـ صبر إذا طال بالحملة الأمد، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم. وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخـ ـرى جـ ـيش حسن التدريب، كما أعارتهم سيادتهم على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالاً وجنوبًا فـ ـي ذلـ ـك الـ ساحل الأطلسي الطويل. وكانوا في سلام مع العالم أجمع. ولكن الملك كان غبيًا شرهًا في تدخله في إدارة الأمـ ـور، وكان القواد الذين يؤثرهم بعطفه إما رجالا أغبياء "أقويا الشكيمة" أو طائشين من أبناء البيوتـ ـات "والطبقـ ـة العالية". ولم يكن فؤاد إنجلترة محبذًا لهذا الأمر. لذلك تركز جل اعتماد التاج على قدرته على توقيع الحصار البحري على المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائي للبلاد. ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التـ ـي كانـ ـت لا تـ ـزال تحتفظ بتقاليد القادة المأثورة عن حرب الثلاثين، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سـ ـكان المـ ستوطنات المنعزلة – لم تضجر الأمريكيين من الحرب قدر ما أضجرتهم من البريطانيين. فأما الكونجرس فإنه اجتمـ ـع لثاني مرة في ١٧٧٥، وأقَرَّ التصرفات التي أتاها مستوطنو نيوإنجلند، وعين جورج واشنجتون قائـ ـدًا عامًـ ـا للجيش الأمريكي. وفي ١٧٧٧ بينما الجنرال برجوين يحاول أن ينحدر من كندا زاحفًا علـ ـى نيويـ ـورك، إذ انهزم عند "مزرعة فريمان" عند أعلى نهر الهدسون الأعلى، وأحيط به واضطر إلى التسليم فـ ـي سـ ـاراتوجا ومعه جيشه كله. وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والإسبان على الدخول إلى الحلبة في صف المـ ستوطنين. وقام الأسطول الفرنسي بالشيء الكثير في سبيل تقليل ميزة البريطـ ـانيين فـ ـي البحـ ـار. وحـ ـصر الجنـ ـرال كونواليس في شبه جزيرة يوركتون بفرجينيا في ١٧٨١، فسلم بجيشه. وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقيل من الكفاح مع فرنسا وإسبانيا في أوربا.

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا في البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالاسـ ـتقلال التـ ـام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضـ ـطهادات فيليـ ـب الثـ ـاني وحماقاتـ ـه. وأطلـ ـق اسـ ـم الراديكاليين على دعاة الانفصال [1]؛ وكانوا قومًا يغلب عليهم التطرف في الديمقراطية، كما قد نقـ ـول فـ ـي إنجلترة في أيامنا هذه، وأدخلت آراؤهم التقدمية شيئًا من الخوف إلى قلوب كثير مـ ـن المـ ستوطنين الأكثـ ـر رزانة وثراء، الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم في أعينهم. ولكن إنجليزيًا مقتـ ـدرًا قـ ـوي

[1] الراديكاليون: كانت كلمة الراديكاليين تطلق في إنجلترة في ذلك الزمان على أنصار الديمقراطيـ ـة والإصـ ـلاح البرلمـ ـاني (المترجم)

الحجة هوتوماس بين Paine نشر في زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثًا بفيلادلفيا تحت عنوان "حسن التصرف"، كان لها أثر هائل في الرأي العام. كان أسلوبها أسلوبًا بيانيًا بليغاً إذا قيس بالمعايير العصرية. "إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكي تصيح، أن قد حان وقت الافتراق" وهلم جرا... ولكن آثارها كانت بالغة القوة. فإنها حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال. وما كاد انقلاب الرأي يبدأ حتى أخذ يهدر مسرعًا.

ولم يتخذ الكونجرس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها: بإعلان طلب الانفصال "وإعلان الاستقلال"، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التي يعود الفضل في إنتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة. وقد سطره توماس جفرسون. وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة، أن جُعِل الوثيقة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية. وأدخل تعديلان جديران بالذكر على مسوّدة جفرسون. فإنه شن حملة عنيفة على تجارة الرقيق، وأنحى باللائمة على حكومة أرض الوطن بإنجلترة لحيلولتها دون المحاولات التي بذلتها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة. فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخرى عن البريطانيين تقول: "يجب أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم.. فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعبًا حرًا عظيمًا".

وفي قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت في باريس البنود الأولية في المعاهدة التي اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة. وأعلن انتهاء الحرب في ١٩ أبريل (١٧٨٣) أي بعد ثماني سنين بالضبط من انطلاق بول ريفير بجواده وارتداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسطن. ووقعت معاهدة الصلح نهائيًا بباريس في سبتمبر.

٥- دستور الولايات المتحدة

إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة، كانت من وجهة نظر التاريخ الإذ ساني، أقل شأناً بكثير من استقلالها الفعلي نفسه. وظهر في العالم بتوطيد استقلالها ذاك، نوع من المجتم ع جدي د. وكأني به شيئاً فقست عنه بيضة. كان حضارة أوربية غريب ة انف صلت وتح ررت م ن آخ ر آثاره ا الإمبراطورية والمسيحية؛ ولم يكن بها أي أثر للملكية ولا دين رسمي للدولة. وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتا، ولا أي ضرب من حملة الألقاب المدعين سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً. بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحاداً بقصد الدفاع والحرية. فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة في التنظيم السياسي لم ي ر العالم من قبل لها نظيراً. وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتنويه وبوجه خاص. فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية، ولا مجال للشك في أن روحها كانت مسيحية. ولكن الأم ر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية في (١٧٩٦) تصريحاً لا لبس فيه "إن حكومة الولايات المتحدة لي ست بأي حال مؤسسة على الديانة المسيحية" [1]. فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بل غ أص ول الجماعة الإنسانية العادية المجردة. وكان يبني نوعاً جديداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول.

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء، وهم قوم لمّا يبرحوا فقراء، وإن ك ان أمامهم إمكانيات تبشر بثروة لا نهاية لها. وقد نشطوا يعملون في واقع الحقيقة على معي ار ض خم أعم الاً إنشائية جليلة مثل تلك التي قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرناً.

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة في فكاك الإنسان من السابقة والعرف، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته. كانت طريقة جديدة أخ ذت تصبح شيئاً عملياً في الشئون الإنسانية. فإن دول أوربا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء، نظاماً في إثر نظام، وعلى مهل وبطء، بلا خطة مرسومة. فأما الولايات المتحدة فإنه ا خُطط ت تخطيطاً ا واص طنعت اصطناعاً.

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الخلاقة، كانت محددة تحديداً خطيراً جداً من ناحية واحدة. فلم يك ن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع ممهد موطأ. بل إن تكوينه الاصطناعي لم يبلغ في صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثينية المتأخرة التي انطلقت عن المدينة الأم لتخطط وتبني دول مدن جديدة تماماً ا ذات دساتير جديدة تماماً أيضاً. فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة في نهاية الحرب دستورها الخاص، وهو إما مثل دساتير كونكتي كت وورود أيلاند، التي يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأص لية (١٦٦٢) وإم ا أعيد تكوينه أثناء النضال، شأن دساتير سائر الولايات، حيث كان حاكم بريطاني يلع ب دوراً عظيماً ا ف ي

---

[1] نقلاً عن معاهدة تريبولي، انظر تشاننج السفر الثالث، الفصل الثامن عشر.

الإدارة. على أنا نستطيع أن نعد هذه التجديدات محاولات لها فضل الإسهام وتجارب في المجهود الإنشائي العام.

وهناك فكرات معينة كانت تبرز بروزًا واضحًا جدًا من فوق هذا المجهود. فمن هذه الفكرات فكرة المساواة السياسية والاجتماعية. فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري، قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معيارًا عمليًا للعلاقات الإنسانية. يقول البيان الأساسي في فرجينيا: "وإن كل الناس خلقوا بالفطرة أحرارًا مستقلين"، ثم هو يمضي في سرد "حقوقهم" والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا "مؤتمنين على المصلحة العامة وخدامًا لها". ولكل الناس الحق المتساوي في ممارسة الديانة بملء حريتهم. فأما الملك بحكم الحق، والأرستقراطي، "والعبد الطبيعي"، والملك الرب، والله، فقد اختفت كلها من هذه الخطة السياسية الأمريكية – بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات. وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه. وقال إعلان الاستقلال إن "كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية". وإنك لترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون – إذا استخدمنا التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق [1] – "مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة". غير أن مفكري ذلك الزمان، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت أن تبلغ حد السماجة والغلط، فإنهم تصوروا أن المواطنية تنطوي على ضرب من الاختيار الفردي والقبول، لم يحدث قط في واقع الأمر، وهو الشيء المتسمى باسم العقد الاجتماعي. ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية في دستور ماساشوستس مثلاً، كيف تذكر أن الدولة ترابط اختياري، "به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمي إلى الخير المشترك".

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة. فالرجال لا يولدون سواسية، ولا هم يولدون أحرارًا، بل هم يولدون حشدًا أشد ما يكون تنوعًا، وينشئون خليطًا متورطًا في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة. ثم أين ذلك الرجل الذي يدعى للتوقيع على أي عقد؟. فإن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيدًا. فلو فسرت هذه البيانات تفسيرًا حرفيًا، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر، حدًا يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفيًا. وإنما هم أنشئوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية – وهي فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها، في وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيرًا أحسن. والمدينة كما أوضحت هذه "المعالم" نشأت بوصفها مجتمع طاعة، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة. وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلاً بعد جيل. ثم

---

(1) انظر ص ص ٩٥٧ – ٩٦٣ م المعالم ج٣ ط٢. ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التي يعنى المؤلف أيما عناية بإبرازها في كل أجزاء "المعالم". (المترجم).

حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدرًا من الغابات والغياض والسهوب [1]. ذلك أن الروح الإنسانية ثارت في نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء في الحياة المشتركة. كانت تبغي – وكان ذلك بطريقة سمجة جدًا في بداية الأمر – الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جدة وأحسن صنعًا، يكون في نفس الوقت "مجتمع إرادة". وكان من الضروري للوصول إلى تلك الغاية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطانًا على نفسه؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية. وكانت فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية تعتمد على صفته الفردية. والطريقة التي حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على "مجتمع الإرادة" ذاك، كانت طريقة مفرطة في بساطتها وفجاجتها. فقد منحوا الناس شيئًا كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية، حتى اقتراع واسع المجال جدًا. ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى، وكان أوسع حق للاقتراع في بنسلفانيا، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق في التصويت، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر. وبذل مؤسسو أمريكا الجهود – وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا – للوصول إلى "تعليم" بسيط واسع الانتشار. فأما "إعلام" المواطنين بخبر ما يجري داخل بلادهم وخارجها، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطبعة الخاصة التي يملكها أي فرد، دون أن تخالجهم – فيما يظهر – وخزة ارتياب في هذين العاملين.

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم، قصة معقدة جدًا، لسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضابًا. وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هي إغفال النساء بوصفهن ممادنات (مواطنات). وكان المجتمع الأمريكي مجتمعًا بسيطًا زراعيًا في كبير أمره. وكانت معظم النساء متزوجات؛ فلا غرو إذن أن يمثلهن بعولتهن. على أن نيوجرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية. وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعيًا بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسي اللوردة والعموم في بريطانيا. وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد، الأمر الذي كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية في ديمقراطيتها. وعندي أنه فيما عدا الدفع الجدلي بأن التشريع يجب أن يكون بطيئًا كما يجب أن يتسم بالتمكن والتثبت، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس. ويلوح أن المسألة كانت تقليدًا جديدًا أو (موضة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة. فإن الازدواج البريطاني كان تقسيمًا قديمًا. فمجلس اللوردة وهو البرلمان أصلاً، كان جميعه من "الكبراء": وأعظم زعماء المملكة؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملاً جديدًا، وبوصف أعضائه الفئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة. وكان مفروضًا في شيء من التعجل في القرن الثامن عشر أن العامة

---

[1] الغياض (Parklands): مصطلح جغرافي معناه الغابات الحقيقة المتباعدة الأشجار. والسهوب (Steppes): هي السهول الفسيحة. الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها في جنوب شرقي أوربا وجنوب غربي آسيا. (المترجم)

ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضاربة وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكمها؛ وكان الرأي متجهًا إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائمًا شكائم [1] قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل. وكانت فكرة النخبة المنتقاة هالة تحيط بتلك المجالس العليا؛ فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدودًا. وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلاً يعتصم به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التي كانت تروق بها أمثالهم في القرن الثامن عشر. ولكن فكرة المجلس الثنائي مكونًا على صورة ما أخرى، لا تزال ولها أنصارها. فإنهم يرون بأن المجتمع يجوز له – مع رجوع ذلك بالخير عليه – أن ينظر في شئونه من زاويتي نظر – فينظر بواسطة أعين هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك، وهي هيئة تمثل الوظيفة، كما ينظر من خلال أعين هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات. فلانتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطي الرجل صوته على أساس مهنته. وللثانية على أساس الحي الذي يسكنه. وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطاني إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلاً غير متناسب مطلقًا، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الخدمات العامة وأهل الفن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك؛ وأن مجلس العموم البريطاني جغرافي بحت في أصوله. بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك "نبلاء من العمال" ينتخبون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة. على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالي.

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جدًا بادئ الأمر، مكونة من كونجرس ينتظم ممثلي الولايات الثلاث عشرة، التي تضمها بعضها إلى بعض عناصر اتحاد احتلافي [2] (كونفدرالي) بعينها. ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة؛ إذ لم يكن في يده مثلاً أي هيمنة على التجارة الخارجية في كل ولاية على حدتها، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو. وقد حدث عندما ذهب جون آدامز أول وزير للولايات المتحدة في إنجلترة لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطاني أن قوبل بطلب ثلاثة عشر مندوبًا، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة. ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها. وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضي الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظًا فعالاً. وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضًا في مسألة أخرى مستعجلة خطيرة. إذ إنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتخذون سبيلهم إليها في أعداد

---

[1] شكائم: فرامل. (المترجم)

[2] الاتحاد الاحتلافي أو الكونفدرالي: أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederanon وهو الاتحاد بين الولايات اتحادًا مفككًا تحتفظ فيه كل منها بسماتها والشيء الكثير من استقلالها وذلك تمييز لها من كلمة الاتحاد الوحدوي أو الفدرالي التي تدل على الاتحاد التام بين الولايات. (المترجم)

متكاثرة أبدًا. وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسُّع غربًا. فكان من الواضح لكل رجل بعيد النظر، أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة. وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجاتها إلى التركز، حدا أصبحا معه أمرًا مزعجًا وخطرًا باديًا، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمي إلى إنشاء نظام ملكي في البلاد، وكلف ناثانيل جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفاتح الأمير هنري البروسي شقيق فردريك الأكبر في هذا الصدد. وأخيرًا دعي مؤتمر دستوري للاجتماع في (١٧٩٧) بفيلادلفيا، وهنالك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالي للولايات المتحدة. ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم في الروح، إذ فشا في الناس جميعًا شعور بضرورة الوحدة.

وعندما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافي (الكونفدرالي)، كان الناس يفكرون في فرجينيا وشعب ماساشوستس وشعب رود أيلاند وما إلى ذلك؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة، هي "شعب الولايات المتحدة". وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذي وأعضاء بمجلس شيوخ ورجال كونجرس ومحكمة عليا (التي أنشئت عند ذاك)، إنما هي حكومة "شعب الولايات المتحدة". كانت هيئة مندمجة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة. وكانت تقول "نحن الشعب" وليس "نحن الولايات"، كما اشتكى ذلك بمرارة "لي" الفرجيني. إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد فدرالي Federal لا حكومة اتحاد احتلافي Confederate.

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية، وفي ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنيويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة، تحت رياسة جورج واشنجتون، الذي كان القائد الأعلى الوطني طوال حرب الاستقلال. وعند ذلك مر الدستور في طور من المراجعة جسيم، وبنيت مدينة واشنجتون على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد.

٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك في فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية، وخليطها الجامع بـ ين المظـ ـاهر العـ صرية المشوبة بالخرافات القاتمة والسمة الوحشية البدائية – بأنها الصورة النياندرتالية التي تؤذن بالدولة العصرية. وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكي وأجهزته العديل السياسي للأدوات والمستحدثات التي كانت لإنسان العصر الحجري الحديث. على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداءً حسنًا، ونمـ ـا شـ ـعب الولايات في ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التي ظهرت في العالم إلى الآن ومن أشدها قـ ـوة وحضارة؛ على أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكي شيئًا أقرب إلى الغاية النهائية وأبعـ ـد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التي تعلو كثيرًا من طرقات نيويورك العامة، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذي ما يزال يعم فيلادلفيا. فإن هذه الأشياء أيضًا أدت الغرض منهـ ـا أداءً حسنًا، وفيها عيوبها على أن في الإمكان إصلاحها وتحسينها. فإن مستحدثاتنا الـ ـسياسية شـ ـأن مـ ـستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط، في حاجة إلى أن تمتد إليها يد التعديل المتواصل كلما نما العرفان والتفهم.

ومنذ أن رسمت خطة الدستور، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوجيا الجماعـ ـة لتطـ ـور جسيم جدًا. فإنا أخذنا نرى في معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثـ ـامن عـ ـشر عنهـ ـا عمين؛ وإذ إنهم كانوا شجعانًا شجاعة تتجلى في نزعتهم الإنشائية تلقاء أي تكوين سياسي سابق لهم، فإن تلك النزعة الإنشائية قصرت كثيرًا عن حد تلك الجرأة التي تدرك الحاجة إليها في هذه الأيام للوصول إلى حـ ـل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة، مسألة إنشاء "مجتمع إرادة" ممدن. فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقًا وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والتعديل. ذلك أنهـ ـم كـ ـانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكليات، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها، وأنه من الجائز عند ذاك أن تترك وشأنها. ولكن التعليم ليس عشبًا ينبت بقوة في أية تربـ ـة، وإنمـ ـا هـ ـو محـ ـصول ضروري رقيق قد يذبل في سهولة ويضوي. وإنا لنعلم في هذا العصر أن النقص في تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية، يشبه شيئًا من نقص التطور للمخ والأعصاب، الذي يعوق نمو الكيان الاجتماعي كله. وإذا قـ ـيس مستوى التعليم العادي في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيار أية دولة ظهرت حتى الآن، تجلى أنه مـ ـستوى عال؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة. كذلك أيـ ـضًا زعـ ـم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا "الصحافة" حرة، وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور. فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعًا من الارتشاء والفساد الدسـ ـتوري بـ ـسبب علاقتهـ ـا بأصحاب الإعلانات، وأن في مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونـ ـوا قراصـ ـنة يتقبلـ ـون كـ ـل رأي ومحطمين فاقدي الشعور للبدايات الحسنة. ويجيء في آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسي أمريكـ ـا أي معرفـ ـة بتعقيدات التلاعب بالأصوات. فإن "علم الانتخابات" بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم، ولم يكونوا يعرفـ ـون شيئًا عن الحاجة إلى الصوت القابل للنقل لمنع طبخ الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها – أن أصبح نظامهم السياسي فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التي

سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية. وأصبحت السياسة حرفة، وحرفة وضيعة جدًا. وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال، وانحطت روح الشعور بالدولة. وتحكم "المسعى الخاص" في كثير من الشئون العامة، لأن الفساد السياسي جعل "المسعى الجماعي" أمرًا مستحيلاً.

على أن نقائص النظام السياسي العظيم الذي خلفه أمريكيو فترة الثورة، لم تظهر على الفور. فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالاً عدة، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية، وسعادة ساذجة وعمل ناشط، على حال لا نظير لها جميعًا في تاريخ العالم. وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك في المائة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل في نصاعتها وشرفها قصة أي شعب معاصر آخر.

ولم يتهيأ لنا في هذا البيان الموجز الذي كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلاً مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة في التاريخ الإنساني. وقد ذكرنا أسماءهم عرضًا، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالاً من أمثال توماس بين وبنيامين فرانكلين وباتريك هنري وتوماس جفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز وماديسون الكسندر هاملتون وجورج واشنجتون. ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة ما من التاريخ برجال فترة أخرى. وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت في البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة، فيبدون إزاء مؤسسي أمريكا هؤلاء ضربًا مما قد يبديه محدثو النعمة من خجل إزاء شيء مصنوع بالمنزل. فإنهم يشعرون أن بنيامين فرانكلين إنما يبدو في بلاط لويس السادس عشر في شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصًا ينقصه الامتياز الأرستقراطي نقصًا محزنًا. ولكنهم إن جردوا حتى بدت شخصياتهم، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافي لجعله وصيفاً لفرانكلين. فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والمعيار والبريق، فلا شك إذن أن الإسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها. ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من إذا تولى منصبًا عظيمًا أو تهيأت له فرص عظيمة – وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة – خدم الله وخدم إخوانه بقلب ملؤه التواضع؟ ولا ريب أنه يبدو أن عددًا جمًا من أمريكيي الزمن الثوري أولئك، قد أظهروا الشيء الكثير من الإخلاص والتجرد من الأغراض. كانوا لا جرم رجالاً محدودين، رجالاً غير معصومين من الزلل، ولكنهم يبدون في جملتهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذي يخلقون، يعنون به في حد ذاته أكثر من عنايتهم به كغاية شخصية أو غرور شخصي. ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة.

ولا ننكر أنهم كانوا محدودي المعارف ضيقي أفق النظر إلى الأمور؛ إذ كاد يحدوهم محدد زمانهم وقيوده. كانوا – شأننا جميعًا – رجالاً تتنازعهم دوافع مختلفة؛ قد نشأت في أذهانهم حوافز طيبة وسرت في أجسادهم فكرات عظيمة. ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العناد أو الشر. فلو قدر

للمرء أن يكتب تاريخاً حقيقيًا كاملاً مدققاً لتكوين الولايات المتحدة، لوجب أن يكتب في روح من السماحة والجذل كما تُكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات. ولسنا نعثر على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية في القصة الأمريكية، قدر ما نعثر عليها ممتازة رائعة إزاء تجارة الرقيق. وإذا نحن راعينا مسألة العمال بصفة عامة – وجدنا الرق خير محك لهذه الروح الجديدة في التاريخ العالمي وأعني بها الروح الأمريكية.

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جدًا من تاريخ أمريكا الأوربي. وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا بمبرأ براءة تامة من وزر ذلك الأمر. ومن الإنصاف أن نلحظ في وقت لما يزل فيه الألماني في أوربا من الناحية الخلقية كالمعاقب بجريرة غيره – إن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة. وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانيين في بنسلفانيا. ولكن المستوطن الألماني كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة كثيرًا في الشمال عن منطقة المزارع الكبرى؛ فلم يكن واقعًا إذن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن. ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العمال بالمناجم وفي المزارع الكبرى. ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حض على استيراد الزنوج إلى أمريكا للحلول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين، كان بالفعل رجلاً طيبًا جدًا عطوفاً على الإنسانية. ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة. وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف، شخص المزارعون لا إلى الزنوج فحسب بل إلى السجون وملاجئ الفقراء في أوربا لتزودهم بالعمال الكادحين. ولسوف يعلم قارئ كتاب مول فلاندرز من تأليف دانيال ديفو، الرأي الذي كان يراه إنجليزي ذكي الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرجينية. على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جدًا فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر في لميموث بنيوإنجلند، شهدت غليونًا هولنديًا يُنزل إلى البر أول شحنة من الزنوج في جيمس تاون بفرجينيا. فكأن عمر تجارة الرقيق الزنوج يناهز عمر نيوإنجلند وكانت تلك التجارة نظامًا أمريكيًا مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان. وقدر لها أن تواصل حياتها في كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر.

على أن ضمائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة، وكانت إحدى التهم التي وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردتها، أن كل محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبرى في أرض الوطن الأم (أي إنجلترة). وفي سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا يمكن أن يباح لهم "أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يثبطوها". وقفزت مسألة استرقاق الزنوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام بفضل نشوء التخمر الأخلاقي الذي حدث إبان الثورة. وظهر التباين والتحادّ واضحًا وهَّاجًا لعين العقل. فإن قانون الحقوق الفرجيني يقول " كل الرجال بطبيعتهم

أحرار متساوون"، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجي يكدح في ضياء الشمس تحت سوط "ريِّس" العمال!!!.

ومما يشهد بالتغيير العظيم في الفكرات الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطوري الروماني أمام هجمات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم. فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحتى ملكية الأراضي قد حالت زمانًا طويلاً دون حدوث انتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء. ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم، في المناجم والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة. فبعث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة. وتعالت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تتزايد وتشتد. إذ كان استحياء تلك العادة مضادًا لضمير البشرية الجديد. وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسر أسوأ في بعض مناحيه من أي شيء في العالم القديم. ومما كان فظيعًا مرعبًا بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق، وما كان يجري من طراد الإنسان في إفريقيا الغربية، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي. فإن هؤلاء المساكين كانوا يعبئون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق. حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئًا لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم. وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشتغلة بوجه رئيسي بهذا العمل البشع، وهي بريطانيا وإسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي في الجديدة في أمريكا فأما البراءة النسبية للشعوب الأوروبية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر. كانوا مجتمعات مماثلة لتلك، فلو أتيحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفًا مماثلاً.

وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنوج في بريطانيا العظمى وفي الولايات على السواء. وقدر عدد الأرقاء في إنجلترة في سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وفرجينيا. وفي سنة ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائي في بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد. فإن زنجيًا اسمه جيمس سومرست أحضره سيده من فرجينيا إلى إنجلترة. ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذًا عنيفًا إلى إحدى السفن لكي يعاد إلى فرجينيا. فاستخلص من السفينة بحكم نص في "قانون المثول Habeas Corpus". وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزي، وأنه حالة "بغيضة"؛ وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلاً حرًا.

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوستس قد أعلن أن "الناس جميعًا يولدون أحرارًا ومتساويين". وقام زنجي بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار في ١٧٨٣، وفي تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا لا تتسامح مع الرق؛ فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية. ولم تنح هذا النحو في ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد. وفي تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس هي الولاية الوحيدة التي لم تسجل وجود "عبد واحد بها".

وآراء الناس في فرجينيا جديرة بالملاحظة، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التي كانت تواجه الولايات الجنوبية. فإن كبار رجال السياسة الفرجينيين من أمثال واشنجتون وجيفرسون كانوا يطعنون في ذلك النظام، ومع هذا فإن واشنجتون كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أي شكل آخر للخدمة المنزلية. ونشأ بفرجينيا حزب قوي يناصر إعتاق الرقيق؛ على أنهم كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية في مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون. وكان من الطبيعي أن ينزعجوا من احتمال وجود مجتمع همجي حرّ من السود، الكثير من أفراده مولودون بإفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة – يقوم إلى جوارهم على الأراضي الفرجينية. فلو أنا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددًا كبيرًا من الفرجينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود في البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيدًا، على حين كانوا في نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستيراد أي دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة. ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها في وجههم.

ومن هنا يتضح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة "حالة" أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية [1]، قد انغمرت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقًا هي مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفي نقيض، كما أنهما على أشد التباين في التقاليد والثقافة. فلو أن الرجل الأسود كان أبيض، فلا مجال للشك في أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة في مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة في ذلك الإعلان.

---

[1] عنصرية (Racial): تقوم على العنصر الإنساني وفوارقه أو تماثلاته. (المترجم)

٧- الفكرة الثورية في فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظ ام المل وك الأوربيـ ين ووزارات الخارجية الأوربية، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة الميكيافلليّ ـة بوصـ فها الـ صورة المدبِّرة للشئون الإنسانية. وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذاناً بالشر، ثورة قامت ضد هذه اللعبة العجيبة:

لعبة الدول العظمى، وأعني بذلك التفاعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذي أشربت به عقلية أوربا. على أنه لم يكن في هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة. حدثت هذه الفتنة الثانية في فرنـ سا مهـ د الملكيـ ـة العظمى وموطنها وقلب أوربا ومركزها. وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبـ ذ الملك، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجليزية. والثورة الفرنسية شـ أن الثـ ورة البريطانية وشأن الثورة في الولايات المتحدة، يمكن تعقبها حتى مصادرها الأولى متمثلة في سخافات الملكية ومطامعها. فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوربا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب. ناهيك بأن تـ رف الملكيـ ـة ومظـ اهر بذخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج في ذلك الوقت. وقد حدث في فرنسا كما حدث بالـ ضبط في بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفه ملكاً ولا ضد سياسته الخارجيـ ـة بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد، كذلك لم يميز الناس تمييزًا واضحًا أن أصل الشر ينحصر في تلك الأمور. وطاقة فرنسا الفعلية على دفـ ع الـ ضرائب كانـ ت لا محالة أقل كثيرًا نسبيًا من طاقة إنجلترة بسبب الإعفاءات المتنوعة التي كان يستمتع بهـ ا النـ بلاء ورجـ ال الكنيسة. ولذا كان العبء الملقى إلقاءً مباشرًا على عاتق عامة الشعب أثقل وأفـ دح. وهـ ذا الإعفـ اء جعـ ل الطبقات العليا أعواناً للبلاط، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأنهم في إنجلترة؛ وبذا ساعد على إطالـ ـة أمـ د الخراب؛ حتى إذا تناهى الأمر فعلاً إلى درجة الانفجار، كان الانفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتدميرًا.

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجـ ارًا يوشـ ك أن يحدث في فرنسا. أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا، وكان النقد ناشطاً والتهكم ذ ذاعا. والتفكيـ ر المتحرر الصريح وفيرًا، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع في مجمله وبكل ما فيـ ـه مـ ن عـ رف وعادات واختلافات مألوفة، قد لا يستمر في طريقه زماناً لا آخر له. كانت فرنسا تتجاوز في استهلاكها كـ ل طاقة لها على الإنتاج. ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الوخزة إلا الطبقات التي ليس لهـ ا لسان تئن به. وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة، فقد كان بصيرًا بباريس بصره بلندن؛ ولكـ ن أحدًا لا يستطيع أن يحس منه في الفقرة التي اقتبسناها خلجة ارتياب تنبئ بأن أيامًا من الانحـ لال الـ سياسي والاجتماعي وشيكة دانية. ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم، ومع هذا فإنه مـ ن وجهـ ـة نظر المفكر العالم والجنتلمان كان على درجة لا بأس بها من الرفاهية كما كان يلوح في حال لا بأس بها من الطمأنينة.

نعم ظهر في فرنسا في ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة. وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) ضريبًا لجون لوك في إنجلترة وإن تأخر عنه بعض الزمان. فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس الفحص والتحليل الجوهري وبخاصة في كتابه "روح القوانين".

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من الفكرات الخاطئة التي كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعة الإنسانية. ولئن حدث في بداية الأمر أن أقيمت في الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطة في الضعف بالغة الغاية في عدم الاستقرار، فإن ذلك لم يكن راجعًا إلى خطئه هو. فإن الجيل الذي عقبه في أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته، كان يفكر تفكيرًا جريئًا فيما قام به ذهنيًا وخلقيًا من هدم وإزالة. وتألفت جماعة من أذكياء الكتّاب هم "الموسوعيون" – ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعيين الممتازة – ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات. ويقول ماليه (Mallet)، "إن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وعدم التسوية بين الناس في الضرائب، وفساد العدالة، والدمار الذي تجره الحروب... وفيما كانوا يحلمون به من التقدم الاجتماعي، وما كان يخالجهم من عطف على "دولة" الصناعة الناهضة التي شرعت تحول العالم تحويلاً". ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عمياء. فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفء من الناحية السياسية، على أن اندفاعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليمًا دينيًا، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف. فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسّقة فإنها لا تؤدي إلى شيء سوى الفوضى الاجتماعية.

وقامت إلى جانب الموسوعيين جماعة الاقتصاديين أو الفيزيوقراطيين، الذين كانوا يقومون بأبحاث جريئة فجة في شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها. وقد شهّر مؤلف "قانون الطبيعة [1]" بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع. كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة، مدرسة المفكرين الجماعيين [2] أو الحشديين في القرن التاسع عشر وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الاشتراكيين.

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين أي الفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قدرًا جسيمًا من التفكير الشديد العميق. وثمة زعيم ألين معطفًا وأقرب إلى قلوب الناس هو روسّو (١٧١٢ – ١٧٧٨). أظهر مزيجًا عجيبًا من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية. وكان يبشر بالمبدأ الجذاب القائل بأن

---

[1] قانون الطبيعة: Code de la Nature

[2] الجماعيون: Collectivists. هم أنصار المذهب الجماعي المطابق للاشتراكية، لولا أنهم لا يدخلون الثورة في خططهم. ومذهبهم يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتبادل تحت هيمنة الحكومة. (المترجم)

حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة، انحدر عنها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطًا لا يكاد يبدو له سبب يفسره. وكان تأثير روسو الذهني تأثيرًا مفسدًا للأخلاق على وجه العموم. إذ إنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعي القائم بل مس كل تنظيمة اجتماعية! والظاهر أنه حين كتب عن "العقد الاجتماعي" كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد – الذي كتب عنه – أكثر مما يؤكد ضرورته.

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى إنه يعلي قدر كاتب يناصر مناصرة ظاهرة رأيًا قائلاً بأنه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف في سلوكه الجنسي، ويهرب من أعباء تعليم نفسه وغيره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر الفضيلة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذي يكاد يكون عامًا للأهواء، والذي ينبغي علينا أن نحمي أنفسنا منه ونقاومه، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى إن كاتبًا كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جمهور كبير من الناس من كل الطبقات التي تستطيع قراءة ما يكتبه. وقد ساعدت بدعة روسو الخطيرة مساعدة كبرى على إشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة والخروج في معالجة المسائل السياسية والاجتماعية.

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن مجتمعًا إنسانيًا واحدًا بدأ يومًا عمله على أساس نظري. فلابد من أن يحدث أولاً انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها. ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهورية والفوضوية، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أمورًا لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس [1] الجمالية (الإسطيقية) في إنجلترة في نهاية القرن التاسع عشر. فهناك في فرنسا، كان النظام الاجتماعي والسياسي يسير في طريقه ثابتًا قويًا كأنما سيعيش أبدًا، فكان الملك الفرنسي يخرج للقنص أو يصلح ساعاته، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما، وكان الماليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم في الائتمان؛ وكانت الأعمال التجارية تتردى في الخطأ وهي تسير في سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالي، تبهظها الضرائب والمكوس، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات، وتمتلئ نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبيل. وكان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون دون جدوى. وكان في الإمكان أن يقال أي شيء إذ كان يبدو أن لن يحدث أي شيء.

---

[1] وليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦): شاعر واشتراكي وفنان. تعلم في أكسفورد وتأثر براسكن. أنشأ مصنعًا للأثاث وورق الجدران وزخارف الكنائس وأصدر كتبًا شعرية عديدة. (المترجم).

٨- ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت في ١٧٨٧ أول درجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة في فرنسا. فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣) كان ملكًا غبيًا سيئ التعليم. وكان من سوء طالعه أنه تزوج من امرأة حمقاء مبذرة، هي ماري أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا. ومسألة اتصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التي تثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ، على أنا في غير حاجة إلى مناقشتها في هذا المكان. فكانت كما يقول بول ويرياث [1] " تعيش جنبًا إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه". وهي تكاد تكون غليظة القسمات، ولكن وجهها لم يكن عاديًا إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختالة. فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية في الحرب في أمريكا، وعندما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق، ذهبت كل سلطانها لغل أيدي وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذي كانوا يتبوءونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر. وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة. ووجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالوني المثل الأعلى لوزير ماليتها. فمنذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر، ثم تختفي هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضًا، ثم انهار في ١٧٨٧. وكان قد طبق القرض فوق القرض، وعند ذلك أعلن أن الملكية، أي الملكية العظيمة التي حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر – قد أفلست. ولم يعد في الطوق جمع أي نقود جديدة. ولا بد من عقد جمعية من ذوي الرأي والمكانة في المملكة للنظر في الموقف.

وقدّم كالوني إلى اجتماع ذوي المكانة ذاك، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليهما الدعوة للانعقاد، مشروعًا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض. فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة. فطالبوا بدعوة هيئة تعادل على وجه التقريب البرلمان الإنجليزي – وهي "مجلس الطبقات States General" الذي لم يجتمع منذ ١٦١٤. وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على طلبهم ذاك دون أن يتنبهوا إلى أنهم سينشئون بذلك لسانًا يعبر عما يخالج من دونهم من الطبقات من تذمر، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيبًا من أثقال البلاد المالية. ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات في مايو ١٧٨٩.

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث: النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أي العامة. وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعًا جدًا، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت. (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء). وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أي تقاليد ولا سوابق. وأرسلت الاستفسارات في هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة "بأكاديمية المخطوطات". ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن

---

[1] الموسوعة البريطانية مادة (France).

يجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل. ولما كان عدد رجال الـ دين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدي العامة، ويعطـ يهم الترتيـ ب الثاني صوتاً واحدًا من ثلاثة. كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكان ينعقد فيه. فهل يجب أن يجتمع في بـ اريس أو في إحدى مدن المقاطعات؟ واختيرت فرساي "بسبب الصيد". وواضح أن الملك والملكة كانا يقـ صدان أن يعالجا هذه الضجة المثارة حول المالية القومية معالجتهم لأي شيء ثقيل مزعج، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل في نظامهما الاجتماعي بأقل قدر مستطاع. وإنا لنرى الاجتماعات تتواصل في قاعات مهملة ليس بأحد إليهـ ا حاجة أو في صوبات البرتقال وملاعب التنس وما إليها.

وكان أخذ الصوت، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمرًا واضح الأهمية الحيوية. وتجادل القوم فيه مـ دة ستة أسابيع. حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب [1] مجلس العموم الإنجليزي، راحت تعلن أنها وحدها هي الممثلة للشعب، وأنه ينبغي ألا تجبى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها. وعند ذلك أغلق الملك القاعة التي كان يجتمع فيها، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم. وبدلاً مـ ن ذلك اجتمع النواب في ملعب للتنس مناسب، وهناك أقسموا يميناً هو يمين ملعب التنس: – ألا يتفرقوا حتـ ى ينشئوا لفرنسا دستورًا. واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة. ولكن الجنود رفـ ضوا أن يطيعوا. وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائي خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطي صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة. وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحريض ظـ اهر مـ ن الملكة، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها فـ ي العمـ ل ضـ د الـ شعب، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دي بروجلي، وأعد الملك العدة للتراجـ ع فـ ي منحتـ ه. وعندئذ تمردت باريس وفرنسا. وتردد بروجلي في إطلاق النار على الجماهير. وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الحـ رس الأهلي، وهي قوة معدة أولاً وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش.

وكان عصيان شهر يوليه ١٧٨٩ هو في الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة. وأخذ شعب بـ اريس عنـ وة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفةً جدًا. وانتشر التمرد سريعًا إلى كل أرجاء فرنسا. وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيرًا من قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم، وقتلـ وا أصـ حاب القصور أو طردوهم منها. وانتشر العصيان في كل أرجاء فرنسا. ولم يمض شهر حتى كـ ان نظـ ام هيئـ ة الأرستقراطية البالي القديم قد انهار. وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة. ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسي واجتماعي لعصر جديد.

---

[1] أعني أن الجمعية قلدته وحذت حذوه. (المترجم).

٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة

٨٩ – ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقاً بكثير في ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي. فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء حريته، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية. وكانت منظماته الدينية والتعليمية متنوعة، وهي في مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوي في الجملة على الود والصداقة نحوه. وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك جورج في إنجلترة، وقد أخذ ينحدر في بطء نحو حالة من البلاهة. ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة. وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران ميالين إلى العدوان لهم فكرات ميكيافللية، ويجثم على صدورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له. وكانت الملكة على تراسل متواتر مع الكونت دارتوا والدوق دي بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي الجديد. هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطراً مفلساً على حين كانت للولايات المتحدة موارد لا نهاية لها لم تمتد إليها يد التنمية بعد، وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل بالأسواق قد أنتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل في حالة أمريكا.

تلك هي صعوبات الموقف التي لم يكن إلى تجنبها سبيل. ولكن الجمعية خلفت لنفسها بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى. فلم تكن هناك إجراءات منظمة. على حين كان لمجلس العموم الإنجليزي ما يربو على خمسة قرون من خبرته في عمله وعبثاً ما حاول ميرابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الإنجليزية المتبعة بمجلس العموم. ولكن شعور الزمان كان ميالاً بكليته إلى الصياح والمقاطعات الدرامية، وما شاكل ذلك من إظهار "الفضيلة الطبيعية". وليت الفوضى اقتصرت على أعضاء الجمعية وحدهم. فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار – شرفة فاقت في كبرها كل حد مناسب، فمن ذا الذي يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت في الرقابة القومية؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواق إلى الاستمتاع "بمشاهدة التهاتر والخصومات"، مستعد للتصفيق أو الصياح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحته. اضطر الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرفة، وأن يسلكوا سبلاً عاطفية مثيرة للحواس. وكان من السهل إبان الأزمات أن يدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة.

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغلولة الأيدي في القيام بواجبها الإنشائي. وفي اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحًا أخاذًا عظيماً فأصدرت – يقودها كثيرٌ من أحرار النبلاء – سلسلة من القرارات، تلغي نظم موالي الأرض (Serfs) والامتيازات والإعفاء من الضرائب، والعشور ومحاكم الإقطاع. (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع).

وذهبت الألقاب فيما ذهب. وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقروناً بلقبه. وحبست الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا نهاية لها؟!)، على صوغ "إعلان لحقوق الإنسان" على غرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزيـ ـة الممهـ ـدة للتغير المنظم. وشرع البلاط في نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث انقلاب رجعي وشعر الناس أن الـ بلاط يأتمر بهم. وتتعقد القصة ها هنا في خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الخسيسة، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسي. وفتحت حدائقه في الباليه رويال – Palais Royal للجمهور، وأصبحت مركزًا عظيمًا للمناقشات المتطرفة. وفعل وكلاؤه الشيء الكثير لإذكـ ـاء حـ ـدة شبهات الشعب نحو الملك. وبلغت الأمور حدًا لا يطاق بسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه.

وسرعان ما ظهرت بفرساي الفرقة الفلاندرية [1] الموالية للملك. وكانت العائلة الملكية تدبر التـ ـدابير لتزداد بعدا عن باريس – لكي تتحلل من كل شيء أبرم وتستعيد الاسـ ـتبداد والتبـ ـذير. فـ ـانزعج الملكيـ ـون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج. وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامـ ـة لقلـ ـة الطعام، وتحول في دور انتقال هين إلى غضبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية. إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساي يضم قدرًا وفيرًا من المواد الغذائية؛ وأن الأطعمة كانت تختزن هناك بعيـ ـدةً عن أيدي الجمهور. وكان الاضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغًا فيهـ ـا، عن إقامة مأدبة حديثًا في فرساي، تجلى فيها العداء للشعب. وإليكم بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة التاعسة:

"سمح بقاعة الأوبرا. وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال. ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر. بل تعداه إلى الضباط السويسريين، السويسريين المائة. كلا بل ضباط الحرس الوطني بفرساي، فمـ ـن كـ ـان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة. ولسوف تكون وليمة قل نظيرها.

"والآن هب أن هذه الوليمة أعني أن القسم الوقور منها قد تم؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت. وهـ ـبْ أن نخب الولاء المألوف قد شرب؛ فجاء نخب صحة الملك؛ ثم نخب الملكة في هتافات تصم الآذان؛ وأسـ ـقط نخب الشعب أو قُل نُبْذ... وافرض أن الشمبانيا تفيض أنهارًا، ويصحب ذلك خطب كلهـ ـا شـ ـجاعة وإقـ ـدام، ولكنه إقدام السكارى المخمورين، هذا إلى عزف آلات موسيقية؛ ويأخذ خفاف الأحلام في رفع عقيرتهم أكثر فأكثر، كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعججًا. فأما صاحبة الجلالة وهي تبدو الليلة محزونـ ـة الفـ ـؤاد بشكل غير عادي (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص في طول يومه بالتبلد)، فهم يخبرونهـ ـا أن منظـ ـر الوليمة سيدخل إلى فؤادها السرور. انظروا إليها إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمـ ـر من بين أطباق الغمام، هذه الملكة الناعسة أبدع مليكة على عرش الأفئدة؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكـ ـي،

---

[1] فلاندر Flanders هو الاسم الذي كان يطلق قديمًا على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكـ ـا وهولندة. (المترجم)

وولى العهد الصغير بين ذراعيها. وها هي ذي تنزل من المقاصير، بين مظاهر الروعة والفخامة والتهليل، وتسير حول المناضد سير الملكات؛ وهي تحني رأسها برشاقة؛ وتنظر نظرات تنم عن الحزن والأسى، يخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام، وعلى صدرها الأموي الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر. ثم تعزف الجوقة الموسيقية: يا ريكارد – يا – يا – مليكي، إن العالم يتخلى – عنك. فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقةً وولاء وشجاعة؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء، التي سلمتها إليهم الأنامل الجميلة؛ وبتلويح السيوف التي استلت للقسم على صحة الملكة؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام؛ وبتسلق المقاصير التي قد يصدر منها أصوات تدخّل أو احتجاج، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وفقدان الرشد في الداخل والخارج – مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التي هم عليها أثناء تناولهم النخب؟.

"وليمة طبيعية؛ هي في الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة.. فإن ماري أنطوانيت المسكينة قد تجمّع حولها فصحاء السوء، وحفلت بما في المرأة من حدة الطباع، وحرمت بُعد نظر الملوك! فالأمر إذن طبيعي جدًا وهو مع ذلك من الحماقة بمكان. ففي اليوم التالي تصرح جلالتها في خطبة رسمية عامة أنها مبتهجة بيوم الخميس". ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب.

"تستيقظ" الأمومة" في صبيحة الاثنين في طوابق السطوح القذرة، فتسمع أطفالها يبكون طالبين الخبز. ولا بد للأمومة من الانطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبازين. حيث تلتقي بأمومة قد أضرت بها المخمصة، وهي مليئة بالعطف عليها والإثارة لها. يا لنا من نساء تعسات! ولكن بدلاً من الوقوف في صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الأرستقراطية التي هي الشر كله؟ هيا بنا Allons. ولنجتمع. هيا إلى دار البلدية.. وإلى فرساي..".

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والمجيء والذهاب، قبل أن تتحقق هذه الفكرة الأخيرة. وظهر فرد اسمه مايّار له قدرة على التنظيم، واتخذ لنفسه نوعًا من الزعامة. وليس هناك أقل ريب في أن زعماء الثورة، والجنرال لافاييت بوجه خاص، قد استخدموا ونظموا هذا الانفجار للحصول على الملك، قبل أن يفلت من أيديهم – كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد – ليبدأ حربًا أهلية. وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل، تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلاً وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل:

"كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قمة آخر تل؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائي المتعجب فرساي وقصر فرساي وميراث الملكية المترامي الأطراف. ومن على بعد في الناحية اليمنى فوق مارلي (وسان جرمين إن لاي) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييه، إلى اليسار، مناظر كلها جمال؛ وهي ترقد في رفق؛ كأنما يخيم عليها الحزن في أحضان ذاك الجو المعتم الرطب! وأمامنا تبدو عن كثب فرساي قديمها وجديدها. وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع فرساي، وهو شارع شجره فخم الإيراق رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمائة قدم، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدرداء؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر فرساي، منتهيًا بجنات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلألئة، وعرائش عظيمة عدا

بيوت التيه (لابيرانت) ومجموعة وحوش ضارية والترايانون الكبير والصغير؛ وم ساكن عالي ة الأب راج، وأماكن مورقة ممتعة؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلي. ومع ذلك لا يمكن أن نستبعد منه ا الهم وم القاتم ة الشوهاء؛ وإليها كان الجوع المشرد يتقدم آنذاك، مسلحًا بالقضبان ذات الرءوس". وسقط المطر عن دما خ يم المساء.

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة، بجماعات من نساء قذرات يقطر م نهن م اء المطر؛ ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلي الشعور وهم مسلحون بالبلط، والخوازيق الصدئة والقرابينات القديمة، والهراوات ذات الحدائد (Batons ferres) والعصي التي تنتهي بسكاكين أو نصال سيوف، وذ وع من الخطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ارتجالاً، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جي اع. وينهم ر المط ر والحرس الخاص يتنقل مختالا بخيله وسط الجماهير التي تفح عليه كالأفعى؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجماعات ما يتفرق ها هنا لكي يتجمهر هناك.

"ويحيط عدد لا حصر له من النساء القذرات بالرئيس والوفد؛ ويصرون على الذهاب معه: ألم يرس ل جلالته بنفسه بعد أن نظر من النافذة، من خرج ليسأل عما نريد؟ نريد الخبز. والكلام مع الملك، ذل ك ه و الجواب. ويضاف إلى الوفد بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة؛ ثم يسرن مع ه مظف رات عب ر الميدان. وبين جماعات متفرقة من الحشد، ورجال من الحرس الخاص، يتحركون بجي ادهم تح ت المط ر المنهمر."

"الخبز...، مع عدم الإكثار من الكلام!..." طلبات طبيعية.

ويتردد على الأسماع أيضًا أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول، كأنما هي ذاهبة إل ى مدين ة متز. وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تك ن. ب ل إنه م أب رزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية فرساي – وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية. ومع هذا فإن دوريات فرساي أدخلتها ثانية، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ.. "وهكذا احلولكت أشباح الليل، ب ين العج يج والمط ر؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة. وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن. وربما كان ذلك من ذ ليل ة بارثولوميو [1] عند ما كانت فرساي – كما كتب ذلك باسومبيير – قصرًا هزيلاً، "فأنى لنا بقيثارة أورفيو وس [2] ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى التزام النظام! إذ كان يبدو أن كل شيء ه ا هنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه خروجًا بعيدًا. وأخذ أعلى الناس قدرًا في الدنيا – كأنما يجذبهم تي ار إلى أسفل – يتصلون بأدنى الناس. أخذت دهماء فرنسا وزعانفها وأنذالها تطيف بملكي ة فرن سا وأقيالها ا.

---

(1) بارثولوميو: يشير الكاتب هنا إلى مذبحة الهوجنوت التي حدثت بباريس في عيد القديس بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دي مدسيس. (المترجم)

(2) أورفيوس: تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هومر، وهو يحمل قيثارة كان يسبي بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجي أنغامه وتخضع لأوامره. (المترجم)

ورفعت الهراوات ذوات الرءوس الحديدية حول التاج لغاية أخرى غير حراسته! وانطلقت مع السباب الموجه للحرس الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة للوطنية، دمدمات قاتمة تزمجر اسمًا لملكة.

"ويجتمع البلاط مرتعدًا لا يقدر على شيء: ويتقلب رأيًا مع تقلب أهواء الميدان، ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس. شائعات تأتي متكاثفة تنبئ آونة عن السلم وآنًا عن الحرب. ويتشاور نيكر والوزراء كافة، فلا يخرجون بنتيجة. والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات: لسوف نفر إلى متز! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية.. وإن كان ذلك لمجرد المحاولة. على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية، تدفعها دوريات ليكوانتر".

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدوم الحرس الوطني ليلاً تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه، وبالمساومة بين الجمعية والملك، واندلاع نار القتال في الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا في الأسرة المالكة ذبحًا. وجاء لافاييت وجنوده في الوقت المناسب فحالوا دون ذلك. ووصلت للجمهور الجائع من باريس في الوقت الملائم عربات محملة بالخبز. وأخيرًا استقر الرأي على وجوب ذهاب الملك إلى باريس.

"إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان، وهناك دق الصنوج الكابريّة Cabiric [1] والمواكب الملكية والجنازات الأرلندية؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهي تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشهده. فعلى امتداد أميال عديدة بعرض يتلاشى في زوايا الغموض والإبهام – ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر لتطلّع. يسير الجمع في بطء ويركد في مضيّه حتى ليكاد يأسن، كأنه بحيرة بلا شواطئ، ولها مع ذلك لجَبُ ضجة تشبه ضجة شلالات نياجارا، أو تشبه بابل وبدلام [٢]. ويحدث ضرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض. ثم ارتفاع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرابينات؛ إنها أصدق قطعة من الفوضى شوهدت في تلك العصور الأخيرة! حتى تصب نفسها رويدًا رويدًا ساعة عتمة الغسق المكاثفة، في باريس المنتظرة، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من بأسى إلى دار البلدية.

"تأمل هذا: مقدمة من جند الحرس الوطني، من خلفها أرتال من المدفعية؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحراب؛ يركبون المدافع والعربات والمركبات، أو يسيرون على الأقدام.. أرغفة قد رشقت على سن السونكيات، وغصون خضراء قد رفعت في أنابيب البنادق. ثم يأتي بعد ذلك الموكب الرئيسي، خمسون عربة محملة بالقمح، أقرضت لهم من مخازن فرساي التماسًا للسلام. يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم في قبعات الحرس المشاة (الجريناديرز). ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتي المركبة الملكية. ثم تأتي مركبات ملكية. إن هناك مائة من النواب الوطنيين كذلك، يجلس من

---

[1] الكابري :Cabirl مجموعة من الآلهة كانت تعبد في الأزمنة القديمة بآسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان. وكانت قوى شيطانية في العالم السفلي كما كان يعتقد أنها المتحكمة في الخصوبة. (المترجم).

[2] بدلام: أقدم مستشفى للمجانين بأوربا. (المترجم).

بينهم ميرابو وهو لا يبدي أية ملحوظة. ثم يأتي خليط من الحابل والنابل يسيرون كأنهم حرس المؤخرة، من الفلاندريين، والسويسريين والمائة سويسري وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام.

وفيما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالي حي سانت أنطوان وكتيبة التشرد النسائية. ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية.. متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغاني كلها الهمز واللمز، ويشرن بإحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التي يقصدن بها ذلك اللمز، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة، وتعلن هذه الألفاظ: تشجعوا أيها الإخوان! فلن نحتاج بعد الآن إلى الخبز، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز..

"ويلوث المطر الألوان المثلثة، ولكن لهيب السرور متقد لا يستطيع إطفاءه أي شيء. ألم يصبح كل شيء الآن على ما يرام؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام – آه يا مدام يا ملكتنا الطيبة، لا تعودي إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا!".

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩. وأقامت الأسرة المالكة في التويلري قرابة سنتين لم يكدر صفوها أثناءهما مكدر. فلو أن البلاط حافظ على عهده العادي مع الشعب، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك. حافظت الثورة الأولى على كيانها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة، واحتفظ الملك بسلطان منقوص في قصر التويلري، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطرًا شمله السلام. فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التي قدمناها في الفصل السالف، لعرف ما كان يشغل الروسيا وبروسيا والنمسا في ذلك الأوان. فعلى حين كانت فرنسا تنشئ التجارب في جمهورية متوجة في الغرب، كان يجري آخر تقسيم للجمهورية المتوجة [1] في الشرق. وماذا لو أمهلت فرنسا قليلاً.

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية، والظروف التي كانت تعمل في كنفها، والتغييرات المحيطة بكل شئونها، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسيم جدًا من العمل الإنشائي. وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليمًا قويًا وما يزال باقيًا إلى اليوم، وكان كثير منه تجريبيًا. فهدم ونقض. وكان في بعضه الكوارث. فتمت تنقية قانون العقوبات؛ وألغي التعذيب، والحبس التعسفي، والاضطهادات الدينية. وأخلت مقاطعات فرنسا القديمة: نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها لثمانين محافظة أو قسمًا إداريًا وجعل باب الترقي إلى أقصى رتب الجيش مفتوحًا للرجال من كل الطبقات. وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم، ولكن أفسده كثيرًا أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير. فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعًا من محكمة استئناف نهائية، واضطر القضاة – شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفة [2]. واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها. وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشغل بالتعليم أو الإحسان، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضًا على الأمة. ولم يكن هذا في حد ذاته شيئًا تكرهه

[1] يريد بها المؤلف دولة بولندة التي اقتسمتها تلك الدول الثلاث. انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها ج ٤. ط ٢. (المترجم).

[2] وهو تعبير مجازي: معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وممالأة أذواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها. (المترجم).

الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا، الذين كانوا في غالب الأحيان يتناولون أجورًا بخسة بشكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة. ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسيين والأساقفة جعلت بالانتخاب، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في الصميم، وهي التي كانت تمركز كل شيء حول البابا، والتي تأتي فيها السلطة من أعلى إلى أسفل. والواقع العملي أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضربة واحدة، بروتستانتية في التنظيم إن لم يكن في المبادئ. وحدثت في كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين (الذين لا يحلفون اليمين)، الذين أخلصوا الولاء لروما.

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور؛ إذ إنها أصدرت مرسومًا يقضي بأن لا يكون أي عضو من أعضائها وزيرًا تنفيذيًا. وكان ذلك محاكاة منهم للدستور الأمريكي، حيث الوزراء هناك أيضًا منفصلون عن الهيئة التشريعية. وكانت الطريقة الإنجليزية تقضي بأن يكون كل الوزراء أعضاء في الهيئة التشريعية، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب. فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذا السيادة، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق اتصال بسيدهم. وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة. إذ كانت السلطة التشريعية تعوزها السيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة في القوة المعنوية. فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية غير فعّالة إلى حد أنه كانت تكتشف في كثير من النواحي في ذلك الزمان كومبونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد؛ فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسبما يمليه عليهم هواهم، ويأبون دفع الضرائب، ويقتسمون ارض الكنيسة طبقًا لمشتهياتهم المحلية.

١٠- ثورة اليعاقبة

من المحتمل جدًا أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء، فعسى أن كانت تلك الجمعية تتعثر في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا – بالرغم من شرفاتها العالية العجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضئولة خبرتها – وكان لها في ميرابو رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر. وكان يعرف مواطن القوة والضعف في النظام البريطاني، وكان جليًا أنه قد نصب نفسه ليؤسس في فرنسا نظامًا سياسيًا مماثلاً للإنجليزي على أساس اقتراع أفسح مجالاً وأشد أمانة وشرفًا. حقًا إنه قد استمرأ نوعًا من الغزل الروريتاني[1] مع الملكة وكان يلقاها خفية، ويصرح عنها جادًا غير مازح أنها هي "الرجل الوحيد" حول الملك، ويكاد في هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحماقة. على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيرًا من نطاق سلالم التويلري الخلفية. ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحدًا من أشد سياسييها قدرة بناءة، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك. وحيثما وجد بلاط ملكي كان هناك في العادة التآمر، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها في كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية. ولم يكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا؛ وكل ما كانوا يريدونه هو الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المفقود، وإلى صلفهم، وسرفهم الذي لا حد له. وخيّل إليهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشئون أمرًا مستحيلاً، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لا بد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات. ولم يخالجهم أي إدراك للاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التي كانت فاغرة فاها تحت أقدامهم.

وفي إحدى ليالي شهر يونيه من ١٧٩١، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل، أن الملك والملكة وطفليهما انسلوا متنكرين من قصر التويلري ثم اخترقوا باريس وجلين، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق، حتى وصلوا آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون. كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق "مواليًا" أي إن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلي عن فرنسا وللانضمام إلى الملك وبلاطه. وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التي تروق فؤاد الملكة، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس. وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة، التوقير والانحناء العميق ولثم الأيدي ثم تأتي العودة إلى فرساي. وإطلاق يسير للنار على دهماء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوي المكانة. وعهد إرهاب أبيض[2] يستمر أشهرًا قلائل. ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام. وربما عاد كالوني أيضًا ومعه تدبيرات مالية جديدة. وكان في ذلك الوقت مشغولاً بجمع المدد من بين

---

[1] في ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التي عشق الملكة فيها نبيل إنجليزي عشقًا عذريًا. (المترجم).

[2] كان اللون الأبيض شعار آل بوربون. (المترجم)

ظهراني الأمراء الألمان. وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها، ولن يكاد يكون في مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكّوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلاً فادحًا نوعًا ما على أعناقهم القذرة.

على أن كل هذه الأماني الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت في تلك الليلة تحطمًا قاسيًا عند فارنّ. فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك في سانت مين هولد، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق في جو الطرق المؤدية شرقًا وقع سنابك خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين. وكانت هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار في القرية العليا من فارنّ وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه – على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة في القرية السفلى وهو يتنازع مرتديًا ثياب الخدم – مع الحوذي والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم في القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة. وأخيرًا رضوا أن يواصلوا المسير. ولكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان. فإن الفئة القليلة وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولد – بعد أن سبقها والسواس في لجاجهم يجادلون – ومعه ثلة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين في فارنّ؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئي المدينة. وأقيمت على الجسر المتاريس. وصوبت القرابينات إلى المركبة، وقيل لمن فيها: "جواز سفركم!" عندئذ سلم الملك بدون مقاومة. وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظفي القرية. قال الملك "حسنًا! ها أنا ذا بين أيديكم!" ثم ذكر كذلك أنه جوعان. وأثنى أثناء تناوله الطعام على النبيذ وقال "نبيذ ممتاز جدًا" ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة. وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقذوا الملك. وأخذ جرس الخطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزًا من المباغتة.

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربة الملكية مهيضًا ذليلاً، وقابلته جماهير غفيرة في صمت وسكون. إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجترأ على إهانة الملك جلد، ومن هتف له يقتل..

لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسيين. أجل كانت تخالج الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى فارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية، ولكن لم يكد أن يكون في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في إلغاء الملكية. وقد حدث حتى في شهر يوليه يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد، حين عقد اجتماع عظيم في شأن دي مارس (Champ de Mars)، لتعضيد القيام بملتمس بعزل الملك – أن فرقت السلطات شمله، وقتل فيه خلق كثير، ولكن مظاهر الحزم هذه لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلل إلى أذهان الرجال. وكما حدث في إنجلترة في أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن في فرنسا، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن – وأنه مصدر خطر. وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة. وشرع زعماؤهم روبسبير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين، أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية.

وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين، وهم رجال ذوو فكرات تقدمية ضارية غير مروضة. وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة. كانوا رجالاً فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه. وكان حزب: "الاعتدال" والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من

ذوي المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت، الذي ميز نفسه في شبابه بقتاله متطوعًا في صفوف المستوطنين الأمريكيين، وميرابو وهو أرستقراطي كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرستقراطية الإنجليز الأغنياء الواسعي النفوذ. بيد أن روبسبيير كان محاميًا شابًا فقيرًا ذكيًا من أراس، كان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو؛ وكان دانتون محاميًا هو الآخر بباريس، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء، وكان شخصًا ضخمًا كثير الإشارة بليغ العبارة ميالاً إلى الأسلوب الخطابي، فأما مارا فكان رجلاً أسنّ منهما وكان سويسريًا على شيء من الامتياز العلمي وإن عادلهما في انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الأموال والممتلكات. قضى سنوات عديدة في إنجلترة وكان يحمل شهادة الدكتوراة الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز، وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالإنجليزية. وكان كتابه في علم الفوزيقي موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيته. فهذا هو الذي يسميه كارليل "الكلب الكلب" و "الفظيع" و "القذر" و "مطبب الطلاب". ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه!!

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة، وكانت أقدم ثمار قريحته التي أدلى بها في معمعان جدلها العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير. وكانت تنتشر في فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن إنجلترة أرض حرية. ولكن مقالته التي جعل عنوانها "عيوب الدستور الإنجليزي" تبين حقيقة الأوضاع الإنجليزية. وقد جن جنونه في سنيه الأخيرة لإصابته بمرض جلدي لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان مختبئًا إبان الثورة في مجاري باريس فرارًا من عواقب اتهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى فارنّ. ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه للكتابة إلا وهو جالس في حمام حار. لقد لقي معاملة شديدة وقاسى الآلام، فأصبح شديدًا قاسي الفؤاد، ومع هذا فإنه يبرز في التاريخ بوصفه رجلاً ذا نزاهة ممتازة. ويلوح أن فقره بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه.

"يا لطول الطريق الذي يقطعه!! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف، وهو يسلق نفسه في حمامه، متقرح الجسد؛ مصابًا بالسقام، مريضً بحمى الثورة.. رجلاً عليلاً مضنى مفرطًا في العلة والضنى، فقيرًا مملقًا معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليمات من العملة الورقية؛ معه حمام على صورة حذاء، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل، ومتاعب، ومعه غسالة قذرة تقوم بمرافق بيته... ذلك هو مسكنه ومثواه في شارع مدرسة الطب. وإلى هذا المكان دون أي مكان آخر اقتاده سبيله... أنصت! فإن هناك طرقًا ثانيًا، وإن هناك لصوتًا موسيقيًا لامرأة، وهي تأبى أن تحرم الدخول: إنها هي المواطنة التي تريد أن تؤدي لفرنسا خدمة. وإذ يسمع مارا الحوار من الداخل، يصيح أن أدخليها. ويؤذن لشارلوت كورداي بالدخول".

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التي قامت ضدهم في كاين، وبينما هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢).

تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة. فإنهم كانوا رجالاً لا أملاك لهم، رجالاً لا قيد من ثم يغل أيديهم. وكانوا أقل ترابطًا بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الآلية من أي حزب آخر. وكانوا على استعداد

أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية. وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان هناك شيء غير إنساني حتى في حميتهم لحب الخير. وكانوا ممتعضين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها، وإلى إبقاء العامة في حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام للغير شيئاً ما، وأن يجعلوا الملكية (وذوي الاعتبار من الرجال) موقرين قليلاً ما، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالمًا أو مظلومًا، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحرارًا إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم.

وبينما حدث في أمريكا أن صِيَغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جملتها مستنهضة للناس معينة لهم، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال، فقد أنتجت هذه المبادئ في فرنسا خليطًا جنونيًا خطرًا على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم. وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس مخطرة، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف. وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلي الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها. والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين، وداخل الاضطراب الأعمال، أصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين. ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة خطرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يتخذوا منهم أداة يعملون بها. وكان موعد إحلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقًا للدستور الجديد قد قرب أوانه، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية، انضم إليهم الملكيون في جذل عظيم وأنفذوا الاقتراح. ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة، سوف تكون ولا مرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية. وعند ذلك يعود عليهم "الإفراط في الشر بالخير العميم"، وعند ذلك تعود فرنسا فتهوى صريعة لا معين لها في أيدي سادتها الشرعيين. هكذا دبروا وقدروا. بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا. فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة لباريس. وكأني بهذا التصرف في ذكاء من يجتلب إلى منزله نمرًا جائعًا ليقنع زوجته بحاجتها إليه. وهي هيئة أخرى تقف مستعدة عن كثب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها، وكانت أحسن عدة من البلاط وأقدر على التقدم أمامًا والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة، تلك هي كوميون باريس (أي هيئتها البلدية) القوى وهي هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية.

وكانت فرنسا لا تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام. فلم يهاجمها أحد من جيرانها، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية. فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة. ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحلو لهم ذلك. واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلنيتز Pilintz ١٧٩١، وأصدرا تصريحًا يقول إن

إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك. وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسراتهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط – بالتجمع على مسافة دانية من الحدود.

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا. وكانت الدوافع التي خالجت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة. فإن كثيرًا من الجمهوريين كانوا يرغبون في ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوي قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمسوي. وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالاً لإعادة هيبة الملكية وسلطانها. وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L'Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحماسة للجمهورية إلى حمى حرب. وقد حذرته غريزته من نابليون. وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب.

وابتدأت الحرب بكارثة. فإن جيوشاً فرنسية ثلاثة دخلت بلاد البلجيك؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت. وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزويك. وأصدر الدوق إعلانًا من أشد إعلانات التاريخ نزقًا؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه. وإن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسي سينتقم لها من الجمعية التشريعية وباريس "بالإعدام العسكري رميا بالرصاص". وكان هذا كافيًا لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهوري – لمدة الحرب على الأقل.

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة، وهو الثورة اليعقوبية، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان. ذلك أنه جعل من المحال استمرار جهود الجمعية التشريعية، التي كان يتسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الجيرونديون) والملكيون، كما جعل من المحال بقاء الحكومة التي أخمدت ذلك الاجتماع الجمهوري في الشأن دي مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالمجاري. واجتمع العصاة في دار البلدية، وفي ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلري.

وتصرف الملك بغباء سمج، وبذلك الاستخفاف بالغير الذي هو من امتيازات الملوك. وكان معه حرس سويسري مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلي ولاؤه غير مضمون. فصمد صمودًا مبهمًا حتى ابتدأ إطلاق النار، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهي المجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها، تاركًا حرسه السويسري يقاتل. ولا شك أنه كان يطمع في إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاتلة التي كانت تستمع بها دار البلدية. ووضع اللاجئون الملكيون في مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة)، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش في مصيرهم. وكانت تعلو في الخارج أصوات معركة ضخمة؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تتكسر إحدى النوافذ. وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك.

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة في تكرار ما عملته في شأن دي مارس في شهر يوليه. إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تتسلط عليها. ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لفؤاده فإنها عنفته وتناقشت في "إيقافه عن العمل". وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمرًا بالكف عن القتال. وعند ذلك أعمل الجمهور فيهم قتلاً حتى قضى على معظمهم، أن كان الغضب قد بلغ به حتى التوحش من إجراء سفك الدماء الذي لا ضرورة له، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل.

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس في الغالب "الميروفنجي" [1] ولاستخراج جمهوري شريف متوّج من ملك مطلق غبي غير قابل للتكيف، – قد قاربت آنذاك خاتمتها المحزنة. فإن كوميون باريس كان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان في فرنسا. وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقها تغير ظاهر في شجاعتها، مرسومًا يقضي بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله؛ وأودعته المعبد، واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمرًا وطنيًا لإنشاء دستور جديد.

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئًا لا يطاق. وكان كل ما تمتلك من جيوش يتدحرج منهزمًا على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة بأس واستسلام (الخريطة ١٨٥). وسقطت لونجري (Longwy)، وعقبتها قلعة فردان العظيمة، ولم يكن يبدو هناك أي احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة. وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب. وكان لا بد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار. ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكي يمكن العثور عليه، حتى اكتظت بهم سجون باريس. ورأى مارا شبح المذبحة مقبلاً. فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البريء من المذنب في هذا الخليط العظيم من المتآمرين، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين. ولكنهم تجاهلوه، وحدثت في أوائل سبتمبر المذبحة التي لا بد منها.

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولي على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا. ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة. على حين يتجمع في الخارج صنف من الدهماء الضارية مسلحًا بالسيوف والخوازيق والبلط. وكان السجناء يقتادون من زنزاناتهم واحدًا بعد الآخر لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة، ثم يستجوبون استجوابًا وجيزًا، ويعفى عنهم بصيحة "لتحيا الأمة" "Vive La Nation" أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب. وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث في الضحية جرحًا أو يصيبها بطعنة. وكان المحكوم عليهم يطعنون، ويمزقون إربًا ويضربون حتى يقضوا نحبهم، وكانت رءوسهم تحتز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانبًا. وهلك في يمن قتل الأميرة دي لا مبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلري. وحملت رأسها على رمح إلى المعبد لتراها الملكة.

---

[1] أي ملكا بلا سلطان كملوك الميروفنجيين الذين كان يتولى السلطة الفعلية دونهم ناظر القصر. (انظر المعجم الص ج . . ٣ ط٢). (المترجم)

وكان في زنزانة الملكة اثنان من الحرس الوطني، رغب أحدهما في أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك.

وفي نفس هذا الوقت الذي كانت هذه المأساة الدموية تجري فيه في باريس، كان الجنرال الفرنسي دومورييه يهرع بأحد الجيوش مسرعًا من فلاندر إلى غابة الأرجون، ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء فردان. وحدثت عند فالمي في ٢٠ سبتمبر معركة انطوت في الغالب على تبادل إطلاق المدافع. وأوقف تقدم بروسي لم يكن مصحوبًا بالعزم، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها، مذ كانت مدفعيتهم خيرًا من مدفعية الحلفاء. وظل دوق برونزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم أخذ ينسحب إلى الراين. وكانت أعناب شامبانيا الحامضة قد نشرت الدوسنتاريا في الجيش البروسي. ومعركة فالمي هذه – ولم تكن لتعدو كثيرًا تبادل إطلاق المدافع – إحدى معارك التاريخ الفاصلة. وتم إنقاذ الثورة.

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢، وأعلن من فوره الجمهورية. ولم تكد تلك الأحداث تنتهي حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة المنطقية. مات الملك بوصفه رمزًا لا بوصفه رجلاً. إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئًا يفعلونه به، يا له من مسكين، فإنه كان يسد مسالك الأرض. ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين، ولا هي بمستطيعة أن تمنعه من إحداث الشر في بلادها؛ فكان وجوده مصدر تهديد لها. وكان مارا قد حض في غير هوادة على القيام بهذه المحاكمة قبل أن يوقع الدستور، لأنه يكون قبل ذلك ملكًا فعليًا، ويكون فوق القانون وبذا لا يمكن أن يكون غير شرعي. كذلك لم يكن مارا ليقبل السماح بالطعن في محامي الملك... والواقع أن مارا قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دورًا مريرًا غير أنه دور عادل في الغالب؛ كان رجلاً عظيمًا، ذا ذكاء لطيف ممتاز، في إهاب من نار؛ يعصف به ذلك البغض العضوي المستقر في الدم، والذي ليس من ثمار العقل بل الجسد.

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣. احتزت بالمقصلة لأن المقصلة (الجيلوتين) أصبحت منذ أغسطس السابق أداة الإعدام الرسمية في فرنسا. وكان دانتون فيما اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازًا جدًا في هذه المناسبة. فلقد زأر بأجهر صوت قائلاً: "يريد ملوك أوربا أن يتحدّونا، وها نحن أولاء نلقي إليهم رأس أحد الملوك".

١١- جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ – ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب في تاريخ الشعب الفرنسي. فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية. وانعقدت العزائم على وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها، ففي الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء؛ وفي الخارج، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل الثوريين ومعينتهم. ولا بد أن تصبح أوربا كلها بل الدنيا كلها جمهورية في تكوينها. وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالاً. وانتشرت في كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهي أغنية لا تزال تعمل في إحماء الدم فعل الصهباء هي "المارسيليز". وتدحرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوابير الوثابين من حملة السونكي الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة في حماسة. وقبل أن تأتي خاتمة ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر؛ وإذا هم يطئون في كل مكان أرضًا أجنبية. كانوا في بروكسل وكانوا اجتاحوا سافويا، وأغاروا حتى مايانس Mayence، واستولوا من هولندة على الشلد. وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء. إذ كان أسخطها طرد ممثلها من إنجلترة عند إعدام لويس، فأعلنت الحرب على إنجلترة. كانت فعلة خرقاء لأن الثورة التي أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوّقة، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للإنجليز السيادة في البحر. ووحد هذا الاستفزاز كلمة إنجلترة كلها ضد فرنسا، بعد أن كان هناك في بداية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية.

ولسنا بمستطيعين أن ننبئك في أي تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا في السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربي. فأزاحت النمسويين إلى الأبد من بلجيكا، وحولت هولندة إلى جمهورية. وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد حوله الماء في نهر التِّكسل، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة. وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحًا من الزمان، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن جنرالاً جديدًا هو نابليون بونابرت، اقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة عبر بيدمونت إلى مانتو وفيرونا. ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن يصور تلك الحملات بدقة؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب. كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته، وتسعى في بطء وتراخ، كالعمال الذين يشتغلون بالساعة؛ وكانت هذه الجيوش المدهشة الجديدة تحارب من أجل النصر – وإن كانت جائعة ظمئة. وكان أعداؤهم يسمونهم "الفرنسيين الجدد". يقول س. ف أتكنسون [1]: "كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم. فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أي عائق. فكان من المتعذر الحصول على الخيام بسبب انعدام المال. وكان في غير الإمكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التي لا مفر عندئذ من الاحتياج إليها، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التي طالما سببت تسلل الجند زرافات لواذًا من الجيوش المحترفة، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ – ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين.

[1] في مقالته "الحروب الفرنسية الثورية" بالموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشرة.

كما أن المدد لهذه الجيوش التي لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله في قوافل، وسرعان ما تعلم الفرنسيون "فكرة العيش على حساب البلاد". وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية: سرعة الحركة والتطور الكامل القوة الوطنية، والهجود [١] في العراء والاعتماد في الميرة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش؛ وذلك كله مقابل المداورات الحذرة، والجيوش الصغيرة المحترفة، والخيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة. وكان الأولون يمثلون روح الحسم في الأمور، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل".

وبينما كانت هذه الجيوش (العرمرم) المتحمسة في أسمالها البالية تنشد "المارسيلينز" وتقاتل من أجل "فرنسا"، دون أن يتضح لها تمام الوضوح فيما يبدو، هل كانت تنتهب الأقطار التي انثالوا إليها أو تحررها، كانت الحماسة الجمهورية في باريس تبدد نفسها بطريقة أقل مجدًا وكرامة بكثير. وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهر بين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب دائه العضال، وسرعان ما قتل. وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية؛ فلم يبق عندئذ غير روبسبيير وتعصبه الراسخ الوطيد، فتسيطر على الموقف. ومن العسير أن يفضي الإنسان في هذا الرجل برأي، كان رجلاً ضعيف البنية خوافًا بطبعه مغرورًا صلفًا. ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهي الإيمان. كان يعتقد لا في رب يألفه الناس، بل في كائن عليّ بعينه، وكان يرى روسو نبيا لذلك الكائن. فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها، وكان يتوهم أنه ليس في مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها. وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه في دست الحكم إنقاذ للجمهورية. وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبحة الملكيين وعن إعدام الملك. وحدثت ثورات كثيرة: شبت واحدة منها في الغرب في محافظة لافانديه، حيث ثار الأهالي ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسيين؛ وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول فيها. وكأنما ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين. ولم يكن هناك شيء أحب من هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة. وأخذت محكمة الثورة تعمل بجد، وابتدأت عملية ذبح متواصلة.

وقد نفذ حكم الإعدام في مدة الثلاثة عشر شهرًا السابقة على يونيه ١٧٩٦ في ١٢٢٠ شخصًا؛ ونفذ الإعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصًا. وجاء اختراع المقصلة في أنسب الأوقات لهذه الحالة التي ألمت بمزاج الناس. وقضت المقصلة على الملكة، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسبيير، وقضت المقصلة!!.. على الملحدين الذين أنكروا وجود أي كائن عليّ أسمى؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولغ في استعمال المقصلة!!؟.. وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تحز يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، الرءوس ثم المزيد من الرءوس ثم المزيد فالمزيد، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالمزيد!!؟....

---

[١] الهجود: أي مبيت الجنود على الأرض دون خيام ولا لوازم معسكرات. (المترجم)

وكان دانتون ما يزال هو دانتون، إذ كان غضنفرًا فوق المقصلة وكان موقفه عليها مثاليًا. قال" لا ضعف يا دانتون!".

وأعجب شيء وأدعاه إلى الضحك أن روبسبيير كان شريفًا شرفًا لا يتطرق إليه الشك. بل لقد كان أشرف بكثير من أي فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان يطيف به إلهام يبث فيه رغبة حارة في إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية. وأخذت لجنة الأمن العام وهي حكومة الاثنا عشر للطوارئ وهي التي كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانبًا، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذي استطاع أن يستنبطه لها روبسبيير. وكان المعيار الذي حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلاً ضخمًا. فإن كل المسائل المعقدة التي لا بد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة وبذلت محاولات للتسوية بين الناس في العقار. قال القديس جوست "الثراء شنعة". فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء. وكان لابد من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد. وكان العامل جديرًا بأجره، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع. وجرت محاولة لإلغاء الربح إلغاء تامًا، وهو الحافز الخشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين الناس منذ ابتداء الجماعة الإنسانية. والربح هو اللغز الاقتصادي الذي ما يزال يشكل علينا إلى اليوم. وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا في ١٧٩٣. وجدير بالذكر أن إنجلترة وجدت نفسها في ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك. ولم يقتصر هَمُّ حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادي – في معالم صريحة – بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعي كذلك. فجعل الطلاق في نفس سهولة الزواج، وألغي التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين. واستحدث تقويم جديد، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك – وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد؛ وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها – للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة... وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغاء "الله" فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الإلغاء، واستبدال عبادة العقل به. وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاتدرائية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل. ولكن روبسبيير وقف في وجه هذه الحركة إذ إنه لم يكن ملحدًا. قال "إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية" فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العليّ الذي يراقب البريء المظلوم ويكلؤه ويعاقب المجرم الظافر، إنما هي بالضرورة فكرة الشعب". ولذا قضى بالمقصلة على هيبير Hebert، الذي احتفل بعيد العقل. كما قضى على كل أفراد جماعته.

وألم بروبسبيير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شيء ملحوظ من الاضطراب الذهني. كان مهتمًا أعمق الاهتمام بديانته. (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجري آنذاك على أتم نشاط. فكان "الإرهاب" يجلجل في شوارع باريس في كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم). وقد حمل روبسبيير المؤتمر أن يصدر مرسومًا بأن فرنسا تؤمن بكائن علي أسمى، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة في النفوس: مبدأ خلود الروح. وفي يونيه أقام عيدًا عظيمًا هو عيد كائنه الأسمى. وسار إلى الشأن دي مارس موكب ترأسه وهو في ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح. وأحرقت في مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق

تمثل الإلحاد والرذيلة؛ ثم نهض في مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشيء قليل من الصرير، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق. وألقيت الخطب – وألقى منها روبسبيير أهمها – ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة...

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبيير بوادر الرغبة في التأمل بمعزل عن شئون العالم. فظل شهرًا كاملاً بمنأة من المؤتمر. وحدث في أحد أيام شهر يوليه أنه حضر وألقى خطبة عجيبة أنذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة. قال: "إني وقد شخصت ببصري متفكرًا في مجموع تلك الرذائل التي قوضها سيل الثورة الجارف، كانت في بعض الأحيان تأخذني رعدة الخوف من أن أتدنس من جيرة الشريرين النجسة... وإني لأعرف أن من السهل على عصبة الطغاة في العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده، غير أني أعرف كذلك ما هو واجب الرجل الذي يقدر أن يموت دفاعًا عن الإنسانية".

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان.

واستمع المؤتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعها وتوزيعها، أن جأر بصياح الغضب وأبي السماح بذلك وخرج روبسبيير في استياء مرير وذهب إلى نادي أنصاره، وأعاد تلاوة خطبته عليهم! وامتلأت تلك الليلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد؛ وفي اليوم التالي انقلب المؤتمر على روبسبيير، وهدده شخص اسمه تاليان بخنجره. ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه، ودق الرئيس الجرس في وجهه. وقال روبسبيير: "يا رئيس السفاحين إني أطلب الكلمة!" وأبيت عليه الكلمة. وخانه صوته. فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم "إن دم دانتون يخنقه". فوجهت إليه التهمة. واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأنًا.

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر ثائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة اليعقوبية. وأخذ روبسبيير ورفقاؤه عنوة من أيدي آسريهم. ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد، وأخيرًا التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية.

وكان هنريو، قائد اليعقابة يرقد مخمورًا في الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهمكًا في العمل؛ وعقبت ذلك مفاوضات، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قليل إلى صف الحكومة. وتصايح القوم في انفعال وطني وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية. ووجد روبسبيير وآخر من بقي معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم في الفخ. وألقى اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم. وحاول آخرون الانتحار. والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسبيير برصاصة في الفك الأسفل فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم.

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها في الألم المبرح قبل أن تحين نهايته. ولم ينبس بكلمة طوال تلك المدة، إذ كان فكه مربوطًا ربطًا خشنًا بقطعة قذرة من القماش، واقتيد هو ورفاقه، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ – وكانوا في مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً – إلى المقصلة بدل الذين قضى بإعدامهم في ذلك اليوم. وكانت عيناه مغمضتين معظم الوقت، ويقول كارليل إنه

فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص. كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عن دما رفع الجلاد عنه ضمامدته. ثم هوت السكين سريعة رحيمة. وانتهى عهد الإرهاب. ومنذ البداية حتى النهايـ ة كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان.

١٢- حكومة الإدارة

مما يشهد بالحيوية الهائلة والخير العميم في طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التي أطلقت الثورة الفرنسية أسارها إلى عالم الجهود العملية، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت في شخصية روبسبيير وحياته العجيبتين المضحكتين. وروبسبيير صاحب الفضل في الكشف عن أعمق أفكارها، وهو الذي أبدى المتوقع من طرائقها وثمارها، خلال العدسات الغريرة المشوّهة التي صيغت منها كبرياؤه وأنانيته الخارجة عن كل معقول؛ وهو الذي سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الفكرات لم تتدمر. إذ إنها تحملت الاختبارات القاسية التي ألمت بها أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة. وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالاً. ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عاديين، وواصلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية، ثم سقطت ونهضت ولا تزال تكافح، وهي ترتطم بالعراقيل وتشتبك في الأحابيل غير أنها منيعة لا تقهر.

ومن الخير أن نذكّر القارئ في هذا المقام بالحجم الحقيقي لدور الإرهاب هذا، الذي يروع الأخيلة أيمّا ترويع، والذي بولغ فيه بناءً على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة. فمنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية منتظمة، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة. ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها، بل مما جنته أيدي رعاع المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملكيين على خيانتهم وعدم ولائهم، إصرارًا أثار المتطرفين إلى درجة الجنون، وحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل. وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النمسويين والملكيين على الحدود. وينبغي لنا أن نتذكر أن مجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياسًا على معايير ذلك الزمان. وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان، صاحب قصر "الباليه رويال" الذي أعطى صوته محبذًا موت لويس السادس عشر.

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم في يوم افتتاح ما يسمى باسم هجوم السوم في يوليه ١٩١٦، أكثر مما ضاع في الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها إلى خاتمتها.

وإنا لنسمع كثيرًا عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قومًا من ذوي المكانة والمصاهرة والقرابة الطيبة، ولأنه أثير ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب. ولكن علينا أن نوازن في أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجري في سجون العالم عامة في ذلك الزمان. فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب، كان يقتل في إنجلترة وأمريكا لجرائم ارتكبت ضد الممتلكات – وغالبًا ما كانت جرائم تافهة جدًا – عدد يفوق كثيرًا عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الخيانة للدولة. وبدهي أنهم كانوا في الواقع

أناسًا عاديين جدًا، ولكنهم قاسوا آلاما على طريقتهم الخشنة. فقد حدث مرة أن شنقت فتاة في ماساشوستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه قبعة وحذاء وشمابك من فتاة أخرى لقيتها في الطريق. كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عددًا من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجان. وكانت تلك السجون أماكن قذرة لا تخضع لأية رقابة فعالة. وكان التعذيب لا يزال يستعمل في الممتلكات الهانوفرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثالث. وظل يستخدم في فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية. فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة.

وليس فيما سجل ما يدل على أن أي امرئ قد عذبه عمدًا رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب. فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردّوا في حفرة كان يطيب معظمهم نفسًا بأن تحفر للآخرين. كان الأمر فاجعًا لا جرم، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام. فإن الرجل العامي في فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقًا، وأشد سعادة إبان حكم "الإرهاب" مما كان في ١٧٨٧.

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف السياسية التي اتخذت لنفسها برامج وأهدافًا لا حصر لها، منها ما هو جمهوري راديكالي ومنها ما هو ملكي رجعي، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قدرًا جسيمًا من الإذعان والتساهل. وأحدث اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن، إذ يلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع، وهي على أتم الاستعداد للخروج للقتال والنهب في صف أي من الطرفين. ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة، هي حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات. وقضي على آخر فتنة وأشدها خطرًا في أكتوبر ١٧٩٥، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت.

كانت الإدارة مظفرة في الخارج، غير أنها كانت خاملة غير خلاقة في الداخل، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأمجادها، من أن يعدوا دستورًا يخليهم من العمل ويحل غيرهم محلهم، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التي تتطلبها حالة فرنسا. ولسنا بحاجة أن نذكر إلا اسمي رجلين منهم – أحدهما كارنوه (Carnot) الذي كان جمهوريًا شريفًا؛ وبارا (Barras) الذي كان لصًا بشكل ملحوظ. وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثّلت بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغييرات العظيمة.. فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها. ولعبت حماسة الدعاة للثورة دورًا عظيمًا في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلجيكا، وسويسرا وجنوب ألمانيا، وشمال إيطاليا. كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات.

ولكن حماسة تلك الدعاية التي أثارتها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الاضطراب والعسر المالي. وأخذت حروبهم تنحدر رويدًا رويدًا عن صفتها كحرب حرية مقدسة، وتقترب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية. وكانت السياسة الخارجية

آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى. وإنا لن ستطيع أن نتب ين أن تل ك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة.

١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم؛ ذلك الفيض الذي خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكيات الأوربية. وكأن شيئًا قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية؛ وبذل جهدًا جبارًا، ثم ما لبث أن تلاشى بددا إلى حين. وجرف أمامه كثيرًا من الأشياء المهجورة والضارة، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة. نعم إنه حل مسائل كثيرة، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك الستر عنها. وذهبت أشكال معينة من الامتيازات، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني. وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه، بدت كأنما لم تكن لها أبدًا أية أهمية، وكل ما كان يهم فعلاً هو أن الرجال العاديين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجودهم، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في تفيؤ أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما، ظلا وهمًا لا ظل لهما من الحقيقة.

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريبًا كل شيء فكر فيه الناس تفكيرًا واضحًا قبل مجيئها. ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع، بل بسبب امتناع الفكرات المدروسة المصقولة. فقد جرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التي طالما أوقعت الظلم بالإنسانية. والآن وقد جرفت وانتهى أمرها، بات واضحًا لكل ذي عينين، كم كان الرجال غير متأهبين لتلقي النهزات الخلاقة التي أتاحتها لهم هذه الإزالة. وما فترات الثورة إلا فترات عمل؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الفكرات التي نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الثورات. إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة فكرات جديدة منضجة لتقابل بها لغزًا غير متوقع.

وكان طرد الملك والنبيل، والقسيس وقاضي محكمة التفتيش، وصاحب الأراضي وجابي الضرائب وملاحظ الأشغال، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحي معينة جوهرية جدًا للتركيب الاجتماعي، وهي العلاقات التي سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها. وظهر أن النظم التي كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء، والأمور التي كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التي تطلع الفجر وتأتي بالربيع – ظهر أنها كانت أمورًا اصطناعية يمكن ضبطها والتحكم فيها، لولا ما هي عليه من التعقيد المربك، كما ظهر أنها الآن وقد ألغيت الروتينيات القديمة وتخلص الناس منها، أصبحت في أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتهيمن عليها. ووجد النظام الجديد نفسه تلقاء ألغاز ثلاثة، كان غير مستعد مطلقًا لحلها: وهي الملكية والعملة والعلاقات الدولية.

وسنتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب، ونسأل عن ماهيتها وكيف نشأت في الشئون الإنسانية؟ فإن كل حياة إنسانية تتصل بها اتصالاً عميقًا، كما أن حلها يمسها مسًا مباشرًا. والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يتزايد وضوحًا كل يوم، تطورًا للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل، أو بمعنى آخر: إن هذا "التاريخ" سيصبح من الآن جهدًا غايته "تفسير الملكية، وتأسيس العملة، وإدارة دولاب

العلاقات الدولية"، على شاكلة تجعل في الإمكان إنشاء "مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيدًا وتقدميًا، يعم العالم أجمع. فهن الألغاز الثلاثة التي يرمز لها صمت "أبي هول" القدر، والتي يجب على الدولة الإنسانية أن تجد لها جوابًا وإلا كان مآلها الهلاك.

وتنشأ فكرة الملكية من غرائز المقاتلة في النوع البشري. فقبل أن يكون الإنسان إنسانًا بزمان مديد كان القرد الجد مالكًا. والملكية البدائية هي ما يقاتل الوحش من أجله. فالكلب والعظمة، والببرة ووجارها، والغزال الهادر وسربه، كل هذه مِلْكيات يتوهج أوارها. وليس ثمة تعبير أسخف في علم الاجتماع من عبارة "الشيوعية البدائية". فإن الرجل المسن في قبيلة العائلة في الأزمان المبكرة من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) كان يصر على ملكيته في زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئي المحيط به. فلو دخل أي رجل إلى عالمه المرئي المحيط به لقاتله، ولذبحه إن استطاع. ونمت القبيلة على مر العصور، كما بين ذلك أتكنسون تبيانًا مقنعًا في كتابه "القانون البدائي" [1]. وكان نموها نتيجة للتسامح التدريجي الذي أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سنًا، ونحو ملكيتهم للزوجات اللائي يؤسرن من خارج القبيلة، والآلات والحلي التي كانوا يصنعونها والصيد الذي كانوا يقتلون. ونمت الجماعة الإنسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك. كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقًا وتحالفًا اضطر الرجال إليه اضطرارًا بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئي المحيط بهم. فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضي، فذلك لأنه كان لزامًا أن تكون أرضنا. وإن كلا منا ليؤثر لو أنها كانت "أرضه هو"، ولكن هذا لا يمكن العمل به. ففي تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا. فكأن الجماعة الإنسانية إذن، إنما هي منذ بدايتها تخفيف لغلواء الملكية. والملكية في الوحش الضاري وفي المتوحش البدائي كانت أشد حدة منها في العالم الممدن اليوم. فهي في غرائزنا أقوى مغرسًا منها في عقولنا.

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند المتوحش الفطري ولا الرجل غير المتعلم. ومن الخير لنا أن نتذكر دومًا أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمائة جيل من جده المتوحش البدائي وكل ما تستطيع أن تقاتل من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه: من النساء وممن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضواري المصيدة. ومن مسالك الغابة ومن مآخذ الحجر إلى غير ذلك. ومع نمو المجتمع، وتولّي ضرب بدائي من القانون الحد من القتال الفتاك، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملكية. فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه. وكان يبدو طبيعيًا أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكًا لدائنه. ويعادل هذا في جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض، لا بد له من تحتيم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها. ولم يحدث إلا مع البطء الشديد، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس، أن ابتدأ الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأي شيء كان – مصدر إزعاج ومضايقة لهم. وألفى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله – لا بل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم. ومن العسير الآن علينا أن نقفو

---

[1] Atkinson Primal Law

أثر الكفاحات الاجتماعية في المدنيات الأشد قدمًا، غير أن التاريخ الذي حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعًا يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الدّينو مضايقة عامة، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه، وأن الملكية غير المحدودة للأرض إنما هي كذلك مضايقة من المضايقات. وإنا لنجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت في عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد في امتلاك الأرقاء تحيدًا شديدًا. وأخيرًا نجد في رسالة ذلك الثوري العظيم، يسوع الناصري، هجومًا وطعنًا في الملكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبدًا. قال "أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غني (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات".

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنًا الأخيرة يوجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذي يمكن السماح به من الملكية. وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مائة من السنين على يسوع الناصري، نجد كل العالم المستظل بالتعاليم المسيحية مقتنعًا بأن الملكية في الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب في الضمير العام. وكذلك الفكرة القائلة "بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك" قد هُزت هزًا واضحًا كبيرًا وضعفت ضعفًا ملموسًا بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملكية. على أن هذا العالم الذي نشهده في نهاية القرن الثامن عشر، لم يبلغ بعد في هذه المسألة إلا مرحلة الشك والاستفسار. ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضح وضوحًا كافيًا يستطيع أن يتخذه أساسًا يعمل عليه، فضلاً عن شيء مستقر استقرارًا كافيًا. وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعبث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء المغامرين. وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الخاصة. ولكن مبادئ المساواة التي أخذت، دفعت بها في غمرات النقد والتجريح للملكية التي نهضت لحمايتها. إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحرارًا متساوين بينما العدد الجم منهم ليس لديهم أرض يعيشون عليها ولا شيء يطعمونه، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكدحوا كدحًا شديدًا مسرفًا – تلك هي شكوى الفقراء.

وكان رد اليعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على "التقسيم". فإنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملكية ويعمموها. وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين – أو بمعنى أدق من الشيوعيين – كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إلغاءً تامًا. وكان على الدولة في رأيهم أن تملك كل الممتلكات. ولم يشرع الناس إلا بعد مضي فترة كبيرة من القرن التاسع عشر، يدركون أن الممتلكات ليست شيئًا واحدًا بسيطًا. بل هي مركب عظيم من الملكيات ذوات القيم والأهميات والدرجات المختلفة. وأن كثيرًا من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرش الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية بصورة عميقة جدًا ولا علاج لها أبدًا. وأن هناك نطاقًا عظيمًا من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن تلقى منا تأملاً خاصًا جدًا لنقدر إلى أي درجة وتحت أي حدود يمكن وضعها تحت اسم الملكية الخاصة، وإلى أي مدى تقع في نطاق الملكية العامة ويمكن أن تديرها وتؤجرها الدولة خدمة للمصلحة الجماعية. ونحن نمتاز اليوم على الجيل الثوري الأول بذخر كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المائة والثلاثين الأخيرة، ولكن حتى هذا "الأدب" المسطر في الملكية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم اختمارًا هائلاً حامي الوطيس أكثر منه علمًا مقررًا. وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا

القرن الثامن عشر أن تنتج أي مشهد آخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المربكة الراغبة في حرمان الملاك من أملاكهم، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المتجهم مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية.

ومما يتصل أوثق اتصال بغموض فكرة الملكية في أذهان الناس غموض فكراتهم عن "العملة". فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا الأمر بمتاعب خطيرة. وإنا لنعالج هنا أيضًا أمرًا ليس بالهين اليسير، بل هو غمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية، التي تنشأ عنها مسائل تسمح بأي حل يقوم على أسس بسيطة، والتي هي مع ذلك صاحبة أهمية حيوية في حياة المجتمع اليومية. وصحة الاعتراف الذي يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يوميًا، ذات أهمية أولية تمامًا، كما هو بيّن، في عمل الجهاز الاجتماعي. وهناك نوعان من النمو تما بالتدريج على كر التاريخ الإنساني، هما نمو الثقة في المعادن النفيسة ونمو العملة نموًا اقتنع به الناس عمليًا أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية في أي مكان.

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطًا، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جدًا، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع. فما كادت تحدث زلزلات سياسية واجتماعية خطيرة، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة.

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها في دور عسر مالي. وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعودًا ورقية بدفع الفوائد، وهي فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته في غير مشقة. وأفضت كل من الثورتين إلى الشيء الكثير من الإنفاق والاقتراض العام المستيئس، وأدت في نفس الوقت إلى انقطاع في عملية الزراعة والإنتاج زاد في إنقاص الثروة الحقيقية التي يستطاع فرض الضرائب عليها. وإذ إن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت)، التي تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضي غير المتطورة (في أمريكا) أو أراضي الكنيسة المصادرة حديثًا (فرنسا). وتجاوز القدر الصادر في كل من الحالتين حد ثقة الناس في الضمان الجديد تجاوزًا بعيدًا. وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مَكَرَةُ الناس، أو أرسل إلى الخارج تسديدًا لأثمان البضائع المستوردة، ووجد الناس أنفسهم يحملون أنواعًا مختلفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة.

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بد لها من خدمتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية. فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقليًا كان أم جسميًا)، أو عن التخلي عن ملكيتها مقابل منفعة استهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشتري له ولاستعماله قدرًا يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة. (ولفظة "السلع المستهلكة" عبارة نحب أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء). فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له، وضمن أن

النقود لن تنحط قوتها الشرائية – فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية. فعند ذلك، وعند ذلك فقط، يشتغل الرجال مسرورين راضين.

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الضمان في العملة، إنما تقوم بناءً على هذا في الحقائق الثابتة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها. ولكن لا بد دائمًا من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في ظلال أثبت الأحوال وأرسخها. فإن صافي جملة السلع القابلة للشراء والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل؛ ولعل الخريف زمن خيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع؛ فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة، ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح في السلع الاستهلاكية، شأن ما يحدث في الحروب، نقص نصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلاً في مبلغ من المال، ثم تعلو لا محالة الأسعار والأجور. فربما حدث في الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة، وإن لم تصب شيئًا، يستهلك من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفي ظريف أو نفقة عطلة سنوية. فإن أصابت القنبلة شيئًا ما، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص في السلع الاستهلاكية. ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى تنقص جزءًا يسيرًا من القوة الشرائية لكل عملة في العالم بأجمعه. فإن كان هناك أيضًا زيادة في العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل بها غيرها تمام الاستبدال – وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام – تكون الزيادة عند ذلك في الأسعار والهبوط في قيمة العملة المدفوعة أجورًا، أكبر وأكبر.

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال، أعني أنها تصدر أوراقًا تحمل الفائدة بضمان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب.

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالا على تمام الشرف يقومون بها في صراحة، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية. ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا، ففي كل آن ومكان تجد الأناني البارع أي الصنف الشرير من الرجل الغني، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلاً نحو مصلحته الخاصة. كذلك يجد الإنسان في كل مكان الأناني الغبي، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل ذعرًا. ومن ثم تتكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحتها وفرة في العملة، التي هي في واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد، كما يبهظها كذلك عبء فوائد القروض. ويبدأ كل من "الائتمان Credit" والعملة في التمايح والتقلب الشديد مع تبخر (تناقص) الثقة العامة. وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنهما في حالة انحلال معنوي خلقي.

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوي هي إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطاع مواصلتها بالدفع عينًا أو مقايضة. فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عينًا. والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالاً معنويًا جزئيًا هي رفع الأسعار وجعل التجارة

أمرًا مخيفًا مخطرًا، وملء نفوس العمال بالرِّيب والشكوك والتهيؤ للهياج. ففي مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكي إلى إبقاء النقود في حوزته إلى أقصر أمد ممكن؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التي بين يديه، ويشتري مرة ثانية حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكي يباعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك، وأعني بها العملة الورقية. ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المدّخر ويقاسون من غلاء الأسعار، ويجد الأجراء ولهيب غضبهم يزداد في كل آن أوارا، أن القيمة الحقيقية لأجورهم في تناقص مطرد.

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص ذكي أن يبذل العون ويقوم بجهد في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة في نفوس الناس. على أن كل تقاليد المسعى الخاص، وكل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوي الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الادعاءات، والألقاب والأملاك المحسوسة في ظل العواصف والتزلزلات والتقلقلات التي تحدث أثناء انهيار هذه العملة. ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق في العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم في إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل في ظلالها، كانوا رجالاً قليلي العدد، عديمي الأثر. فإن معظم رجال المال والمضاربات في ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال [1] دون وعي منهم إلى ما في ذلك من قلة الشرف، بل يفعلونه فيما يبدو بأتم أنواع الاستحسان الذاتي وأكمل مظاهر رضا زملائهم. لقد كان هدف كل شخص ذكي ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول، وعند ذلك، وعند ذلك فقط، يعمد إلى تدبير وسيلة تؤدي إلى التوطيد السياسي، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعًا. فهذه هي عوامل جو اقتصادي رديء مليء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات...

فأما الاتجاه الثالث الذي اتجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة، وهو مسألة العلاقات الدولية، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالة، حالة المغامرة المالية والاقتصادية وهذا التخاطف والارتباك وانشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدي في بلادهم، من انزلاق محير للعقول. فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة في حرب. وقد ظل المجندون الجدد ردحًا من الزمن يخوضون غمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم ير العالم لهما في تاريخه نظيرًا. ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد. ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فاتحة، ولكنها كانت من الناحية الداخلية في عسر مالي واضطراب لا يطاقان، ووجدت نفسها تحتل أراضي أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها، عامرة بالفرص المادية المالية. ويحمل كل منا في طياته طبيعة مزدوجة. ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطقي متناسق (سيمتري) في حمل كلتا الطبيعتين. فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوّة مُحرِّرًا ومعلمًا وكانت أستاذة الإنسانية في الروح الجمهورية. ومن ثم أصبحت هولندة وبلجيكا تسميان الجمهورية الباتافية، وأصبحت جنوا وملحقتها

---

[1] يشير الكاتب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب انجلترة؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتدمر على شاطئهم فينهبوها. (المترجم)

الرفييرا الجمهورية الليجورية، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزألبينية، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلفاتية (Helvetian Republic)، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونابولي جمهوريات. فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه. تلك هي الناحية المثالية في الموضوع. وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادي لموارد تلك البلاد المحررة.

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شبهًا عجيبًا بفرنسا القديمة. بل هي أشد عنفوانًا وأنشط قوة؛ وهي ترتدي فوق رأسها قلنصوة الحرية في مكان التاج؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولاً محطمًا؛ وإن فيها لأناسًا أغنياء جددًا مكان الأغنياء القدماء، وفيها فلاحون جدد يكادون يكدحون أكثر من سابقيهم ويدفعون ضرائب أفدح؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبي عهد المسيح المنتظر.

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

١- أسرة بونابرت في كورسيكا.

٢- بونابرت قائدًا جمهوريًا.

٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ – ١٨٠٤.

٤- نابليون الأول إمبراطورًا من ١٨٠٤ – ١٨١٤.

٥- المائة يوم.

٦- خريطة أوربا في ١٨١٥.

٧- طراز الإمبراطورية.

١- أسرة بونابرت في كورسيكا

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعًا، هـي شخصية مغامر مُحطَّم، يبدو أن قصته تظهر في نصاعة خارقة للعادة النضال العـام الخفـي الدقيق بـين الأنانيـة والكبرياء والشخصية، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعًا. وإنك لتلحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك والمحنة والأمل، أي قبالة هذه القارة الأوربيـة والدولـة الفرنسية المنهكتين اللاهثتين، وهذا الفجر العاصف الضخم، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة. ولـد فـي ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التي كانت لا تزال نصف همجية. وكان ابناً لرجل غير ذي شأن تقريبًا، وهو محام كان في بادئ أمره وطنيًا يناضل الملكية الفرنسية، التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا، ثم انقلب عند مولده علـى وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب. وكانت أمه ذات طبيعة أقوى، محتدمة الوطنية ولها قـوة شـكيمة ومقدرة في الكياسة وتدبير الأمور. (كانت تضرب أولادها بالمقرعة، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو في السادسة عشرة). وكان هناك إخوة وأخوات كثير، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالإلحاف فـي طلب المكافآت والوظائف. وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو عائلة "جائعة" عادية تمامًا. كان ماهرًا ذكيًا سيئ الخلق متكبرًا غطريسًا. اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية.

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدأ بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثـم بالمدرسة الحربية بباريس، ومنها انتقل إلى المدفعية في ١٧٨٥. كان دارسًا مجتهدًا لكـل مـن الرياضيات والتاريخ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة، وكان يدون ملحوظاته في دفاتر ضخمة لا تزال موجودة. ودفاتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أي ذكاء استثنائي، كما أنها تحتوي كذلك على قطع صغيرة من الإنشاء الأصيل – حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين. وقد وقع في حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر؛ ثـم تزايت حساسيته رهفاً وتطور في نفسه الاحتقار لمفاسد المدنية. وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسري هاجم روسو. وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين. ثم أصبح مـع شبوب الثورة جمهوريًا متحمسًا ونصيرًا للنظام الجديد في كورسيكا. وظل يعقوبيًا بضع سنوات حتى سقوط روبسبيير.

٢ – بونابرت قائدًا جمهوريًا

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر، وقد استطاع بوساطة شقيق روبسبيير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبز بها أقرانه في طولون. وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والإسبان، واحتل أسطول متحالف ميناءها. وأعطيت لبونابرت قيادة المدفعية، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرغموا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة.

ثم عين بعد ذلك قائدًا للمدفعية في إيطاليا، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدا في الأفق أن موت روبسبيير قد يجر مصرعه أيضًا؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبيًا، وظل خطر المقصلة محدقًا برقبته ردحًا من الزمان. ثم انقشع ذلك الخطر. وعين قائدًا للمدفعية في غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو في حال رثة. وتصف مدام جونو في مذكراتها وجهه الهزيل ومظهره الرث في ذلك الزمان، وشعره "الأشعث سيئ التذرير يتدلى فوق معطفه الرمادي"، ويديه العاطلتين عن القفاز وحذاءه السيئ الدهان. كان ذلك زمان إجهاد وانتكاس أعقبا قساوات الجمهورية اليعقوبية. يقول هولاند دروز "كان نجم الحرية قد أخذ يأفل في باريس تلقاء إشراق عطارد (Meieury) والمريخ (Mars) والزهرة (Venus)" أي المالية والثياب العسكرية والبهاء الاجتماعي. وكان خيرة الرجال العاديين يعملون في الجيوش وراء الحدود. ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة للملكيين في ١٧٩٥. ومن حسن طالع نابليون أنه كان في باريس في ذلك اليوم، فلقي في هذه المسألة نهزته الثانية. فأنقذ جمهورية الإدارة.

وأثرت كفايته في كارنو أيما تأثير، وهو أشد المديرين استقامة فأعجب به. زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسنا، هي مدام جوزفين دي بوهارنية، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras). والراجح أن هذين الأمرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة في إيطاليا.

وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية في إيطاليا (١٧٩٦ – ١٧٩٧)، ولكن لا بد لنا من كلمة أو اثنتين عن الروح التي تمت بها تلك الحملات على إيطاليا؛ لأنها تبين أنصع تبيان، تلك الروح المزدوجة لفرنسا ونابليون، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية في الشحوب تلقاء الظروف العملية القاهرة. فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم – وكانوا عند قولهم!؟.. على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول: "لسوف نجبي عشرين مليونًا من الفرنكات، نحتم على الأهالي دفعها في هذه البلاد؛ فإنها من أغنى بلاد العالم". فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله: "إنكم جياع وتكادون تكونون عراة.. وإني لأقودكم إلى أخصب سهل في العالم. ولسوف تجدون هناك مدنًا عظيمة وولايات غنية وشرفًا ومجدًا وثروة..".

ونحن البشر مفطورون لا جرم – على طبيعة مخلطة كهذه؛ بيد أن هذه الفقرات التي كتبها شاب في السابعة والعشرين، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبي المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل في سن مبكرة تبكيرًا غير عادي.

وكان نجاحه في إيطاليا زاكيًا كاملاً. وكانت رغبته في الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذابًا له؛ فخاطر بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضني في قيادة حملة على العصاة في لافنديه. وكان قد أكب طويلاً على قراءة تراجم بلوتارك [1] والتاريخ الروماني، فكان خياله البالغ النشاط ملتهبًا عند ذاك بالأحلام، أحلام انبعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية. تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا، محتفظًا لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقي. وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين. فقد اشتركت جمهورية فرنسا الجديدة في قتل جمهورية قديمة – وأنفذ نابليون رأيه مخالفًا بذلك صيحة سخط وإنكار تعالت في فرنسا – وحصلت النمسا على مقاطعة فينيتيا، وهي الأراضي التي قدر عليها في ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت. وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضي الألمانية الجنوبية. ولم يكن الحلم بالتوسع الروماني نحو الشرق هو وحده الذي كان آنذاك يعمل عمله في عقل نابليون. فهذه هي أرض قيصر نفسها، وكان قيصر مثالاً سيئًا لذلك الجنرال الموفق في جمهورية غير وطيدة.

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلاً وفاتحًا. فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفرًا كذلك، ومن ثم تكون مصر والهند هي بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون. وكانت عناصر الفشل تحملق بعينها في وجهه. إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحريًا، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبي العهد، أقوى مُنّة في البحر من الفرنسيين. زد على ذلك أن مصر كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ولم تكن هذه بأي حال دولة يستهان بها في تلك الأيام. ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة بالسماح له بالذهاب. وخرجت أرمادا [2] من طولون في مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطة، ومن يمن طالعها أن تجنبت الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية. فأنزل جنوده على عجل، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيدًا على مصر.

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قادس، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه، بقيادة الفيس أميرال نلسون – وهو نابغة عظيم في الشئون البحرية نبوغ نابليون في الأمور العسكرية البرية – أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية الصغيرة وينازلها. وطفق نلسون حينًا من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسي بلا جدوى؛ حتى وجده أخيرًا في مساء يوم أول أغسطس رأسيًا في خليج "أبي قير " فأخذه على غرة؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقدًا في سفينة القيادة. ولم تكن لديه خرائط، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمرًا محفوفًا بالمخاطر. ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح، ولذا لم يتعجل

---

[1] تراجم بلوتارك. وهو كاتب إغريقي ولد في خيرونيا، وكان يلقي المحاضرات بروما في عصر هادريان. وكتابه "التراجم المتماثلة" يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين. (المترجم).

[2] عمارة بحرية من سفن الحرب. (المترجم).

في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان. ومهما يكن من شيء، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من قواده. ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط. فدلت بذلك بقية الأسطول على المنطقة الضحلة. وتحرك الأميرال بسفنه هاجمًا في خط مزدوج قرب غروب الشمس، فوضع الفرنسيين بين نارين. وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان في المعركة؛ وكان القتال يهدر ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهيب السفن الفرنسية المحترقة، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت (L'orient). وقد انفجرت... ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت، وكان أسطول نابليون قد تدمر. وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا.

ويقول هولاندروز نقلاً عن تيير Thiers، إن هذه الحملة المصرية كانت "أشد المحاولات التي سجلها التاريخ هوجا وتسرعًا". فقد غودر نابليون في مصر والترك يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله: ومع هذا فإنه استمر ردحًا من الزمان يواصل القيام بهذه الخطة الشرقية. فأحرز في يافا نصرًا، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح في كل أسراه. ثم حاول أن يستولي على عكا، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسير. حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط في يده، فإنه أحرز فوزًا عظيمًا على جيش تركي عند أبي قير، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر – ولكن ذلك الجيش بقي يقاوم حتى عام ١٨٠١، حتى استسلم لقوة بريطانية – وفر نابليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقلية.

ولقد لقي في هذه المشروع من الإخفاق ما يسقط كل ثقة بأي قائد – لو أن أمر ذلك الإخفاق عرف. بيد أن الطرادات البريطانية التي أوشكت أن تلقي عليه القبض هي التي أعانته على إخفاء خيبته إذ منعت تسرب أي علم بحقيقة الموقف في مصر إلى مسامع الشعب الفرنسي. فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبي قير وأن يخفى فشله في عكا. ولم تكن الأمور في فرنسا في ذلك الحين على ما يرام. إذ منيت بالهزائم العسكرية في مواطن عدة؛ فضاع منها أكثر إيطاليا؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بونابرت، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي للموقف، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس. فكانت فرنسا في أحد أدوار فضائحها المالية، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أي مال، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكليلة حالة التعب المعنوي التي يطلب عندها الرجل القوي المتين، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق، ويقوم بكل شيء لكل إنسان. وأخذ الناس يقذفون في روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الظواهر ذا الوجه الجامد، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر – إنما هو الرجل القوي الأمين المنشود – وأنه واشنجتون آخر.

واستجاب نابليون لمطلب زمانه وفي مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون. ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال ثلاثة "قناصل" بحكومة الإدارة؛ يكون نابليون كبيرهم – وكأني بكل إنسان في ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغي في صفحات التاريخ الروماني يقرأها ويستوعب ما فيها. والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان: وقد تضمن على طريقة كروموبل تشتيت المجلس الأدنى (أي

مجلس الخمسمائة)، وفي هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه. فإن النواب صاحوا به ودفعوه، حتى ليل وح أن الخوف داخله. فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يحر كلامًا، ولكن أخاه لوسـ يان أنقـ ذ الموقف، بأن استقدم الجنود وفَرَّقَ المجلس. على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر في نجاح الخطة النهـ ائي. ونزل القناصل الثلاثة في بناء قصر لوكسمبرج، ومعهم قوميسيران اثنان لإعادة وضع الدستور.

وأخذ نابليون يعمل حيال زميليه والقوميسيرين بمنتهى الجرأة والصلف بعد أن عادت إليه كـ ل ثقتـ ه بنفسه وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له. وأنشئ دستور جعله الموظف التنفيذي الأكبـ ر ولقّبـ ه القنـ صل الأول، وخوله سلطات هائلة. وكان لزامًا أن يكون هو نابليون، إذ كان ذلك منـ صوصًا عليـ ه فـ ي صـ لب الدستور. وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل به غيره بعد انقضاء عشر سنوات. وكان علـ ى أن يـ ساعده مجلس الدولة، يعينه هو بنفسه، ويكون من حقه أن ينشئ التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيئتين، همـ ا الهيئة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطي أصواتها في الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التربيـ ون (The Tribunate) (وكانت تستطيع أن تناقش. المسائل دون أن تعطي فيها صوتًا)، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي "ذوو المكانة" في فرنسا، الـ ذين كـ ان ينتخـ بهم "ذوو المكانة في المديرية أو المحافظة" الذين كان ينتخبهم "ذوو المكانة في الكوميون" الذين كان ينتخبهم النـ اخبون العاديون؟ وكان الاقتراع على انتخاب ذوي المكان في الكوميون حقًا مباحًا للجميع. فكان هذا هـ و المظهـ ر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهل المحير!!....

وكان هذا الدستور في معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو "سيايس Sieyes" (أحد القناصل الثلاثة) – بالاشتراك مع بونابرت. على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير، أنه عندما حدث في مستهل القرن التاسع عشر أن قـ دم هـ ذا الدستور إلى البلاد أقره ٣,٠١١,٠٠٧ صوتًا ضد ١٥٦٢. لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدي بونابرت وضعًا مطلقًا وأعدت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد.

٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ – ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للشك في أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل. فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أي امرئ إشفاقاً من نفسه على نفسه، وأن يبحث في زوايا قلبه، وأن يخدم الله والإنسان بأقصى مستطاعه. إن النظام القديم قد قضى أو كاد؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها. وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمية وبسلام عالمي دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوي الأذهان المنزعجة. وكانت فرنسا بين يديه، وكانت أداة طيّعة له يفعل بها ما يشاء، وهي أرغب ما تكون في السلام، غير أنها شاحذة للحرب شحوذ مهند ممتاز. ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل. وإذ فات نابليون ذلك فإنه لم يكن ليستطيع إلا أن يتبختر بخيلاء على قمة جبل النهزات ذاك العظيم، كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث. فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من وثقوا به وعدم الاكتراث بهم. وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقليد القردة، لو لا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء. حتى "جاء" كما يقول فكتور هوجو بطريقته الهائلة "يومٌ ضاق فيه الله به ذرعًا"، فقذف به ركلاً بالأرجل ليختم أيامه في ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحًا للذكاء والمهارة وهو يتربص في أرجاء جزيرته الحارة الموحشة متصيدًا الطيور ويتشاجر شجارًا وضيعًا مع سجان منحط التربية لم يكن يوليه "الاحترام" اللائق.

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة. فإنه تناول في يده الشئون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة. وبعد حملة معقدة في شمال إيطاليا، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب اليسّاندريا في (١٨٠٠). وكان نصرًا قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة. وفي ديسمبر من السنة نفسها أوقع الجنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمسوي قرب هوهنليندن، في ظروف تكنفته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعبًا. وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمرً ممكناً. وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة للصلح مع إنجلترة والنمسا. وانتهى الصلح مع إنجلترة بمعاهدة أميان في سنة ١٨٠٢. وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذي كانت فرنسا – وأوربا بأجمعها من وراء فرنسا – في أشد الحاجة إليه. لقد أتاحت الحرب لفرنسا أن تمد رقعة أرضها وتوسع حدودها، وبمقتضى المعاهدة مع إنجلترة استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت في حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر. وكان الباب مفتوحًا أمام نابليون لكي ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراسًا ومصدر وحي وإلهام على كل أوربا والعالم قاطبة.

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل. إذ كان خياله الهزيل المقلِّد مليئًا بحلم أن يكون هو قيصر من جديد. فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطورًا حقيقيًا، يضع على رأسه التاج ويجعل منافسيه وزملاءه في المدرسة وأصدقاءه عند موطيء قدميه. ولم يكن هذا ليمنحه أية قوة جديدة ليست في يديه حتى

آنذاك، على أن ذلك يكون شيئًا أعظم أبهة وأشد فخامة، يكون شيئًا يدهش أمه. فيا لها من استجابة يـ ستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدي الرائع الخلاق في ذلك الزمان؟!!.

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء. إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور. فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره؛ وأنشأ الترع تقليـ دًا منه للترع الإنجليزية؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد. وتمهيدًا لمشهد درامته الشخصية، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بمالها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية. ونشأت في تنظـ يم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب، فاستعملها. وكان في كل هذه الأمور مسايرًا لزمانه؛ فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الاستبداد أقل وقدر من التمركز أضأل، ولو لم يولد نـ ابليون قـ ط. ونـ صب نفـ سه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجوهرية. فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجديد. وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة فـ ي العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعوا آل بوربون وشأنهم وبعدوهم في خبر كان. ثم توصل إلـ ى صـ لح عظيم أبرم به "ميثاقًا Concordat" مع روما. تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأبروشيات. إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيعة سلسلة القياد، وأنها لن تستطيع أن تطيق ملكية جديدة من غير الدين. قال: "كيف تستطيع أن تجد في دولة نظامًا من غير الدين؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة. فعندما يوشك أحد الرجال أن يقضي نحبه جوعًا إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفـ ارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك؛ ولا بد للعالم من أن يحوي الفقيـ ر والغنـ ي؛ ولكـ ن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف". وكانت الديانة فـ ي رأيـ ه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر، مادة ممتازة يستطاع بها تسكين العامة. وكـ ان فـ ي أيامـ ه اليعقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب.

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الإنسانية وذلك هو نظام "جوقـ ة الـ شرف Legion of Honour"، وهي خطة للإنعام على الفرنسيين بقطع من الشريط، خطة دبرت تـ دبيرًا محكمًـ ا معجبًا بقصد تحويل نظر ذوي الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة.

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية. وها هي ذي فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية، وهي فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين. قال: "قد اتجهت رغبتي إلى إعادة إنـ شاء مؤسـ سة الإرساليات التبشيرية الأجنبية؛ إذ إن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوي نفع كبير إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا، وذلك أني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها. ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سـ وف تخفي وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية. ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسـ لين، بـ ل باريس".

ألا ترى في هذا فكرات تاجر لص لا فكرات رجل دولة؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهِر في وضوح عمايته عن حقائق الفجر الجديد المنبثق من حوله. فأما التعليم الأولي فإنه أهمله إهمالاً يكاد يكون تامًا؛ فتركه لضمير السلطات المحلية، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم من مصروفات التلاميذ؛ وواضح أنه لم يكن يرغب في أن يتعلم عامة الناس العلم؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن السبب الذي من أجله يجب أن يتعلموا؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال، لأن دولته كانت في حاجة إلى خدمات رجال أذكياء واسعي الإطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية. وكان هذا تراجعًا يبعث الذهول، عن الخطة العظيمة التي كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه [1] في ١٧٩٢، محبذاً إقامة نظام كامل من التعليم المجاني للشعب بأكمله. وتحقق الأيام في بطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه؛ فإن الأمم العظيمة في العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويدًا رويدًا، وتخرج وسائل نابليون من نطاق اهتمامنا. أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة نابليون فيه: "لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات، فليس في المستطاع أن يربيهن أحدٌ خيرًا من أمهاتهن. وليس التعليم العام مناسبًا لهن؛ لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام، وإنما الأخلاق هي الكل في الكل لهن، والزواج كل غايتهن".

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء في قوانين نابليون (Code Napoléon). إذ لم يكن يباح للزوجة مثلاً أن تتصرف في أملاكها؛ بل كانت (أي الزوجة) في يد زوجها. وكان هذا القانون في معظمه من عمل مجلس الدولة. ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها. وإنه ليجتاح الجلسات غازيًا بلا سابق إخطار، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة، كثيرًا ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجًا تامًا. وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله. وإنه ليستبقي مستشاريه إلى ساعات متأخرة من الليل؛ مخالفة لكل معقول، ويظهر افتخارًا ساذجًا بقدرته الفائقة على السهر. وقد تذكّر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان سنيه الأخيرة، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون... وكان قانونه هذا شيئاً حسناً، بقدر ما ذهب بالمعميات القانونية العسيرة القديمة، وأحل محلها الواضح البين من البيانات، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها، والقانون شأن كل عمل الإنشائي، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات، حتى يشرع الناس في العمل عليها بلا مناقشة جديدة. ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيرًا ما كان يُعرِّف تلك الأشياء تعريفًا خاطئًا. ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية

---

[1] كوندورسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤): فيلسوف ورجل دولة فرنسي. اشترك في إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالته في نظرية الإمكانيات شهرة واسعة، انضم إلى الثورة وانتخب عضوًا في الجمعية التشريعية (١٧٩١ – ١٧٩٢)، وكانت خطته التي كتبها عن واجب الدولة في التعليم أساسًا لخطة فرنسا التعليمية. عارض وإن كان من رجال الثورة في قتل الملك، فأهدر دمه. ولما قبض عليه في النهاية وجد ميتاً، ولعله تجرع السم. (المترجم).

تنهض كشيء متميز عن النشاط الذهني. إذ إنها سلمت بكل شيء قائم: "إن جلالته لا يعتقد إلا في الموجود [1]". والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن، وقواعد التعاون الإنساني كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطبها ومدارها نابليون – ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبدًا. وكل ما فعله أنه قبل دورًا من أدوار التغير. وحاول أنه يثبته إلى الأبد. ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مُقَمَّطَةً مشدودة الوثاق بهذا الصُّديري الضيق الذي يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر، والذي حشرها فيه نابليون. ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين، ولا يزالون جميعًا يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريفاته الجامدة. وتقدم نابليون في نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافي الضيق الأفق لكي يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها. ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءًا من الخطط الأعظم شمولاً التي كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط عليها. فقد اتجه خياله اتجاه الإصرار والعزم إلى "قيصرية Caesarism" جديدة. وفي ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلاً أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندة وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته في المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحًا شديدًا منذ البداية بذاتها. ولما كان من الضروري أن تثير عليه خططه حربًا مع إنجلترة، فقد كان يجدر به أن يتريث بأي ثمن حتى يرتفع ببحريته إلى حد التفوق على البحرية البريطانية. فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان. ولكنه بالرغم مما لقي في مصر من تجربة شاقة قاسية، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية. وفي ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة؛ ونشبت الحرب من جديد مع إنجلترة. فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أخلى مكانه في إنجلترة لوليم بت الأعظم منه مقدرة. ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب.

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطًا على زيادة ثروات إخوته وأخواته. وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوي ويمت إلى حب العشيرة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه ينفعنا في أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات الماثلة بين يديه. وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بونابرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه. فكان يرقي إخوته بشكل يثير الضحك إذ إنهم كانوا رجالاً عاديين جدًا ولكن شخصًا واحدًا كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع. وكان ذلك الشخص هو أمه. كان يرسل إليها المال لتنفقه وتدهش به جيرانها؛ وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهرًا عظيمًا، وأن تعيش العيش الذي يتناسب وأم مثل هذا الابن العجيب الذي يهز العالم هزًا.

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة، لأنه لعب بوجهه لجدته، لم تتبهر ولم تنخدع له عند سن الثانية والثلاثين، قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبده ولكن الأم لم

---

[1] من اقتباس لهولاند روز عن جورجو. "Sa Majesté ne croit que ce qui est."

يساورها أي وهم خادع من قبله فكانت تضع النقود التي يرسلها جانبًا؛ وتواصل المـ ضـي عـ ى اقت صادها المعتاد. قالت: "عندما ينتهي كل شيء سيكون ادخاري هذا موضع سرورك".

٤- نابليون الأول إمبراطورًا (١٨٠٤ – ١٨١٤)

لن نفصل لك القول في الخطوات التي غدا بها نابليون إمبراطورًا. وكان تتويجه ابتعاثًا للقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقًا للمعتاد. ولم يعد قيصر هو نموذجه المحتذى؛ بل كان نابليون عند ذاك هو شرلمان. فإنه توج إمبراطورًا، حقًا إنه لم يتوج في روما، بل في كاتدرائية نوتردام بباريس، واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع البابا جانبًا، وتوج نفسه بنفسه. وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس [1] قد آتت آخر الدهر ثمارها. وفي سنة (١٨٠٦) ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق، إذ إنه لما كان ما يزال يتعقب خطى شرلمان، فإنه توج نفسه بتاج لومباردي الحديدي في كاتدرائية ميلان. وعندئذ صار لزامًا على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك: ففي ١٨٠٦ نصب الأخ لويس في هولندة والأخ جوزيف في نابلولي. على أن قصة الممالك التابعة التي خلقها في أوربا، قصة أعقد وأقصر عمرًا من أن تتحملها هذه المعالم، وإن كان هذا العبث بالحدود عونًا على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا.

ولم يعمر هذا الحلف الذي تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد، زمنًا طويلاً جدًا. ففي ١٨٠٧ شرع يتحدى البابا ويضغط عليه. وفي ١٨١١ جعل منه أسيرًا مضيقًا عليه في فونتنبلو. ولا يبدو أن هذه الإجراءات تنطوي على حكمة كبيرة. فإنها نفرت منه الرأي العام الكاثوليكي، كما نفر منه تتويجه الرأي العام المتحرر. وبذلك كف عن أن يكون نصيرًا وممثلاً للقديم والجديد على السواء. فأما الجديد فقد خان، وأما القديم فقد فشل في اكتسابه. وأخيرًا لم يعد يمثل أحدًا إلا نفسه.

ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تنطوي إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من التعقل؛ فإنها زجت آنذاك أوربا في غمرة دورة جديدة من دورات الحرب. ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى في أوان مبكر جدًا فإنه حشد جيشًا عرمرمًا في بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترة، غير ناظر إلى الموقف البحري. بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عمودًا في بولونية تخليدًا لذكرى نصره في غزوته المنتظرة. وكان دبر بطريقة نابليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطاني ويستدرجه بعيدًا، وأن يهرب جيش بولونيه ذاك غير مضيق المانش على أسطول صغير من الأرماث والزوارق، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول. وفي نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته في جنوب ألمانيا، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده. وفي ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له في النصر النهائي، أنزلهما به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون. فإن الأول أنزل في يوليه هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسي في خليج بسكي؛ وفي أكتوبر دمر الثاني أسطول فرنسا وإسبانيا المشترك في معركة الطرف الأغر. ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته "النصر". ومنذ تلك اللحظة استحكم العداء مريرًا بين نابليون وبريطانيا، وهي

---

[1] هو لويس الورع ابن شرلمان. انظر المعالم ص ٨٥٤ ج٣ ط٢. (المترجم).

في منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها، بينما كانت هي تستطيع أن تضربه هذا أو هذاك على امتداد كل شواطئ أوربا.

وتكتم نابليون الخبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذي أصابه في "الطرف الأغر" بضع سنوات عن مسامع الفرنسيين. وكل ما سمعوه هو أن "العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد قتال أخرق". وبعد انتصار كالدر سحب نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل، واندفع به عبر أوربا وهزم النمسويين في "أولم" "وأوسترلتز". ودخلت بروسيا الحرب ضده في هذه الظروف المشئومة. فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها في معركة يينا (Jena) (١٨٠٦). ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن الروسيا كانت لا تزال قوة مقاتلة، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراسًا، الأبعد منالا، الأعسر مدخلاً. ولسنا بقادرين أن نتعقب في أي تفصيل صعوبات الحملة البولندية على الروسيا، ولقي نابليون شرًا كبيرًا في بَلْتَسْكَ – التي أُعلن في باريس أنها نصر عظيم – وكذلك لقي مثل هذا الشر في إيلاو (Eylau). ثم دحر الروس في فريد لاند ١٨٠٧. ولم يكن حتى ذاك الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمه، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء؛ ولكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن. فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخداع والمداهنة، أن يضم إلى جانبه قيصر الروسيا الشاب الطموح إسكندر الأول – إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين – وأن يحمله على عقد تحالف معه. وتلاقى الإمبراطوران على عوامة في وسط نهر النيمن قرب تِلْست (Tilsit). حيث تفاهما.

وكان الإسكندر تشرب بالشيء الكثير من النزعة التحررية أثناء تلقيه العلم في بلاط كاترين الثانية. وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد – شريطة خضوعها لاستعلائه هو. قال أحد خلطائه في مستهل شبابه "إنه يسره أن يرى كل إنسان حرًا، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعدًا أن يفعل بحرية ما يريده بالضبط". وقد أعلن أنه مستعد أن يلغي نظام " موالي الأرض Serfdom" وإن كلفه ذلك رأسه ثمنًا – لو حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة. وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكي يحرر الشعب الفرنسي – لأن نابليون كان طاغية مستبدًا. وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نابليون تحت ضياء جديد. تلاقى هذان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشر يومًا، وكان الإسكندر يمر ولا ريب في حالة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من التغير.

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الإرضاء لنابليون. فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ. وحلق في الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تلسْت. قال الإسكندر: "ما هي أوربا؟ إنما نحن أوربا". تناقشا في شئون بروسيا والنمسا متأثريْن بهذه الروح، وتقاسما تركيا مقدمًا، ودبرا أمر غزو بلاد الهند، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ الروسيا فنلندة من السويديين؛ على أنهما أغفلا تلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر، وأن الأسطول البريطاني كان عند ذاك يبسط قلوعه في البحار غير منازع. وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى، وهي على أتم استعداد لأن تثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب قط في هذا. على أنه كان عن بولندة في عماية تامة. كان

يومه يوم رؤى لا رؤية فيه. وقد أخفى نابليون في نفسه فيما يبدو حتى في ذلك اليوم، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يومًا ما أميرة روسية، أميرة حقيقية. على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك في ١٨١٠ – أن فيه هذا تجاوز لحدوده بعض الشيء...

وحدث بعد تلْست تقوض ملحوظ في صفات نابليون؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعًا وأقل صبرًا على العقبات، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذي هيأته الأقدار، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه. وفي (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جدًا. فإن إسبانيا كانت حليفه الذليل، وكانت تحت مطلق تصرفه تمامًا، ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربوني لكي يرقي إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين [1]. وقد أتم فتح البرتغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البرتغالية والإسبانية. ومن ثم ثار الإسبان عليه في حنق وطني متأجج، وأحاطوا بجيش فرنسي في بايلن، وأجبروه على التسليم. وكان ذلك ثلمة مدهشة في سيرة النصر الفرنسي المتواصل.

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط موطئ القدم الذي أتاحته لهم تلك الثورة. فقد نزل في أرض البرتغال جيش بريطاني بقيادة السر آرثر ولزلي (المسمى بعد ذلك باسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين في فيميرو، وأجبرهم على الانسحاب إلى إسبانيا. وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجًا عظيمًا جدًا في الخواطر في ألمانيا والنمسا، وعاد القيصر فأظهر إزاء حليفه قدرًا أكبر من الغطرسة.

ثم تمت مقابلة أخرى بين هذين العاهلين في "إرفورت Erfurt"، كان فيها القيصر أقل تأثرًا وانبهارًا بخطط نابليون الوهاجة، وأعقبت ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا في رفعة مُقَلْقَلَةٍ غير ثابتة، على حين كانت الحدود ترفرف على خريطة أوربا وفرقة الثياب على حبل الغسيل في يوم رائح. ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار، حتى تضمنت هولندة وشطرا كبيرًا من ألمانيا الغربية وكثيرًا من إيطاليا وكثيرًا من الشاطئ الأدرياتي الشرقي. ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط في أيدي البريطانيين واحدة تلو الأخرى، وأخذت الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الإسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشمال يساعدها في ذلك المتطوعون الإسبان. وكانت أوربا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء، بل شعوبًا بأكملها كذلك. وكان البروسيون بعد كارثة "يينا Jena" في ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم. فإنهم قاموا بقيادة الفرايهر فون شتين واطرحوا نظامهم الإقطاعي جانبًا، وألغوا الامتيازات ونظام موالي الأرض، ونظموا التعليم الشعبي، والوطنية الشعبية، وأتموا تقريبًا – وكان هذا في واقع الأمر بلا نزاع داخلي – كل شيء حصلت عليه فرنسا في ١٧٨٩. ولما وافت ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة، هي النواة لألمانيا الجديدة. وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُذفت في روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية – يتخذ من جديد وضع صديق الحرية. وفي ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب اعتراض الإسكندر على مطامع نابليون في الزواج. ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معينته القديمة جوزفين، لأنها لم تعقب ولدًا يضمن استمرار الملك في أسرته. والآن وقد أبيت

[1] الصقليتين: مملكة كانت تتكون من صقلية وجنوبي إيطاليا (نابولي). (المترجم).

على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره وذكره بضعة مولده، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة ماري لويز. ذلك أن رجال السياسة النمسويين قرأوه قراءة صادقة. وكانوا على أشد الاستعداد لإلقاء أميرتهم إليه. وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه في أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة. وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد، ولكنه آثر أن يكون صهرًا للعالم القديم.

وفي السنتين التاليتين داخل الوهن والانحطاط شئونه. فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد؛ بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتوقراطي أشد فجاجة. وقد باعد ما بينه وبين كل ذوي النفوس الحرة من الرجال، كما استدعى عداوة الكنيسة له. فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأي واحد متفق ضده عندما بلغ الرأي حد القضاء عليه. وكانت بريطانيا عند ذلك هي خصمه اللدود، على حين كانت تتأجج في إسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكي؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الإسكندر الأول لكي تدفع هذه الإمبراطورية إمبراطورية الخداع والمناظر المسرحية دفعًا يعثرها ويسقطها. وجاء الخلاف. وكانت مشاعر الإسكندر نحو نابليون على الدوام مبهمة مخلطة جدًا، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافسًا ويحتقره بوصفه عصاميًا وضيع المنبت. زد على ذلك أن الإسكندر كان يكتنفه نوع من العظمة المبهمة العاطفية؛ وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية، وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معًا إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطيم نابليون. على أن اجتلاب السلام إلى أوربا، لم يكن يتناقض في رأيه مطلقًا مع ضم بولندة إليه؛ واستلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الإمبراطورية التركية!؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا، التي كان نابليون مُصرًا على انقطاعها. وذك أن تجارة ألمانيا جمعاء تقلقلت، وأن طبقات التجار الألمان كانت في غيظ شديد من "النظام القاري النابليوني"، الذي يرمي إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوربا أجمع. وكابدت الروسيا من جراء ذلك عناء كثيرًا ولعلها قاست أكثر من ألمانيا.

وجاء الشقاق في ١٨١١، عندما انسحب الإسكندر من "النظام القاري". وفي ١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الجنود تبلغ في مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل، وأخذت تتحرك نحو الروسيا تحت القيادة العليا للإمبراطور الجديد. وكان نصف هذه القوة تقريبًا من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها. كان جيشًا مخلطًا أشبه شيء بجيش دارا أو جيش قباذ. وكانت الحرب الإسبانية لا تزال على قدم؛ ولم يقم نابليون بأي جهد لإنهائها. وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل. فشق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء – وظلت الجيوش الروسية تمتنع في جل شأنها عن قتاله – وأصبح مركزه خطرًا خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء. فاستولى على موسكو متوقعًا أن يضطر ذلك الإسكندر إلى عقد الصلح. ولكن الإسكندر لم يرغب في عقد الصلح، ووجد نابليون نفسه في مركز هو أشبه شيء بمركز دارا في جنوب الروسيا، قبل ذلك بألفين وثلاثمائة من السنين. وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه – يساعدهم في ذلك المرض، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفًا حتى قبل أن يصل إلى موسكو. ولكن

كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب في التقهقر. وظل الشتاء معتدلا مدة طويلة طولا غير عادي – فكان في مقدوره أن ينجو. ولكنه بدلاً من ذلك أقام في موسكو يدبر الخطط المستحيلة. فقد كان قبل ذاك سعيد الحـ ظ سعادة عجيبة في كل مقامراته السابقة مع القدر؛ وقد نجا من مصر نجاة لا يستحقها، وأنقذه من التحطيم فـ ي بريطانيا الانتصارات البحرية البريطانية؛ ولكن ها هو ذا قد وقع في الفخ مرة أخرى، وما كان لينجـ و هـ ذه المرة. ولعله كان يبغي أن يقضي الشتاء في موسكو، ولكن الروسيين طردوه بسحب الدخان طرد النحل مـ ن أكواره، إذ أضرموا النار في المدينة وأحرقوا معظمها.

تأخر به الأوان في أكتوبر، بل تأخر به أكثر مما ينبغي، قبل أن يصح عزمه علـ ى العـ ودة. فحـ اول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربي، ثم حول وجهة من تبقى لـ ـه من جيشه اللجب نحو القطر الذي عاثوا فيه فسادًا أثناء تقدمهم. وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عـ ن كـ ل أرض موالية. ولم يكن الشتاء متعجلاً. وظل الجيش العرمرم أسبوعًا وهو يكافح بين الوحول؛ ثم جاء الصقيع الشديد ألوانًا، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج، ثم الثلج فالثلج....

وأخذ النظام ينحل رويدًا رويدًا. وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد ثلـ ل مـ ن المغيرين. وقام الفلاحون عليهم دفاعًا عن النفس على أقل تقدير وأخذوا يكمنون لهم في الطرقات ويقتلونهم. وكانت غمامة من الراكبة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيذية [1]. وهذا التقهقر من أكبر مآسي التاريخ.

وأخيرًا ظهر نابليون في ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع، ولم يحضر معـ ـه جيـ شه، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجر سيقانها جرًا، وقد فقدت كل معنوياتها. ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج في حالة انتظام، بعد أن لم يتبق منه إلا ألف من الرجال من قرابـ ـة الـ ستمائة ألف. وتراجع موراه من كونجسبرج إلى بوزن. وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس؛ وانفصل عنه النمسويون واتجهوا جنوبًا نحو وطنهم. وفي كل مكان كان اللاجئون المتنـ اثرون والرثـ و الثيـ ـاب الهزيلـ و الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخبار الكارثة.

لقد تبدد سحر نابليون أو كاد. ففر مهرولاً إلى باريس. وشرع ينظم مجندين جددًا ويجمع جيوشًا جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية. وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣؛ وكانت أوربا بأكملها تواقة إلى الثـ ورة علـ ى مؤتمن الحرية الذي قصر في حقوقها وفرط في أمانتها، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض. لقد تخلى عن النظام الجديد؛ فالآن دمره النظام القديم، الذي أنقذه وابتعثه. وثارت بروسـ يا، وابتـ دأت "حـ ـرب التحريـ ـر" الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه. وثارت هولندة بعيد ذلك وكان موراه جمع في بوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسي. وتراجعت هذه القوة خلال ألمانيا، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص مليء بالسباع المخدّرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر. وفي الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن، ثم يلوح أنه قد أصيب ردحًا من الزمـ ـان بتـ شتت

---

[1] الإسكيذية أو الأشقوذية انظر ص ٣٤٣ ج٢ من المعالم ط٢. (المترجم).

وانهيار في قواه الفكرية والمعنوية. فأصبح سريع التأثر بشكل جنوني، ثم أخذت تلم به أحياناً حـ الات مـ ن الجمود. فإنه لم يفعل إلا القليل، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن. وفي سبتمبر نـ شبت "معركة الأمم" حول ليبزج وبالقرب منها، وانضم السكسون في أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه. ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا مندحرين.

وكانت ١٨١٤ هي حملة الختام. فاجتيحت فرنسا من الشرق والجنوب. فعبر الراين السويديون والألمان والنمسويون والروسيون، وجاء البريطانيون والإسبان من فوق جبال البرانس. وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاكياً رائعًا، ولكنه قتال غير مجد. على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما اسـ تطاعت أن تشق طريقها إلى جواره، واستسلمت باريس في مارس. ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتنبلو عن العرش وكادت تقضي على حياته جماعة من الرعاع الملكيين في بروفانس وهو في طريقه إلى الخارج.

٥- المائة يوم

تلك هي الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون [١]. وها قد قضي عليه آخر الأمر. فلو كانت هناك حكمة حقيقية في تصريف الشئون الإنسانية، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمركز العلم الإنساني والإرادة الإنسانية، وتوفرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أدائه وأعني به واجب إنشاء نظام عالمي للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس. ولكننا لسنا بمحدثيك عن شيء من هذا القبيل. فقد كان العلم والحكمة غائبين غيابًا طاهرًا ملموسًا عن مجلس الحلفاء العظيم. ووافت إليه النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الحالم عند القيصر الإسكندر، ووافاه آل هابسبرج النمسويون الضعفاء، وآل هوهنزولرن البروسيون المغضبون، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهي لا تزال وجلة الروع من الثورة، وضميرها لا يبرح منحرفًا مثقلاً بما يبهظه من أراضٍ عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكدودين عملاً. ولم يحضر المؤتمر أي شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزرائه الخارجية دون غيرهم. ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه. وبين مظاهر الفخامة والجلال التي لا يعلو عليها شيء، اجتمع المؤتمر في فيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن. وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جدًا، فقد كثرت فيه السيدات الحسان، وتألقت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب البدلات الرسمية، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص، وروى فيه فيض جارف من النوادر والنكات المشرقة اللألآءة. وكان أذكى أفراد المجتمعين روحًا شخص بعينه اسمه تاليران، وهو أحد "أمراء نابليون"، كان حقًا رجلاً ذكيًا جدًا، عمل قسيسًا قبل عهد الثورة، وهو الذي اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة، وهو الذي كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون!؟...

وأضاع الحلفاء الثمين من الزمان في منازعات تجلى فيها الطمع والجشع متزايدين؛ وعاد آل بوربون إلى فرنسا. وعاد معهم بقية "المهاجرين Émigrés"، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفي والانتقام. وكأنما دفعت أنانية عظيمة جانبًا – لا لشيء إلا لكي تكشف الستر عن حشد من الأنانيين الأكثر دناءة وخسة. كان الملك الجديد أخًا للويس السادس عشر؛ وما كان أشد تلهفه إلى التسمي باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) في المعبد. كان مصابًا بالنقرس، وبليدًا. ولعله لم يكن من ذوي المقاصد السيئة، غير أنه كان رمزًا يمثل النظام القديم البالي، فأحس كل ما هو جديد في فرنسا بنذير الرجعية الثقيل الذي لازم مجيئه. لم يكن ذاك تحريرًا، بل استبدادًا وطغيانًا جديدًا ليس غير – بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلاً من آخر نشيط رائع.

---

[١] الملاحظ هنا أن المؤلف يشتد في أحكامه على نابليون ويقسو عليه ويقلل من أهميته وينتقص قدر فتوحه، بل ويكاد يشمت فيه عندما سقط، وما أدري هل خرج ولز هنا عن نزعة الإنصاف التي امتاز بها، أم غلبت عليه النزعات البريطانية؟. (المترجم)

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا؟ وأظهر آل بربون حقدًا خاصًا إزاء كبار ضباط الجيش العظيم، وكانت فرنسا في ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين، الذين وجدوا أنفسهم في ظل غمامة قاتمة. وقد أرسل نابليون إلى إمبراطورية صغيرة في جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه. وكان على أن يظل ملقبا باللقب الإمبراطوري وأن تكون له دولة بعينها. فإن فروسية الإسكندر.. أو هوائيته!.. أبت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هذه المعاملة. وانتزع آل هابسبرج منه إمبراطورته الهابسبرجية – فذهبت راضية قريرة العين إلى فيينا، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبدًا.

وبعد أن قضى نابليون في إلبا أحد عشر شهرًا قدّر أن فرنسا ضاقت ذرعًا بآل بوربون، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته وظهر في كان بفرنسا ليقوم بآخر لعبة له مع القدر. وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم؛ وطأ فيه بقدميه القيعان البوربونية البيضاء. ثم غدا، أمد مائة يوم "وهي فترة المائة يوم" سيدًا على فرنسا من جديد.

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسي شريف. فمن ناحية كان ثمة هذا المغامر الذي خان الجمهورية، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذي جلبته عودة الملكية القديمة. ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أي تجارب جديدة في موضوع الجمهورية. ومن ثم كان الاختيار عندهم بين أمرين: إما نابليون وإما آل بوربون. أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال في صف نابليون؟ وها هو ذا قد عاد معترفًا بأنه تغير وأصبح رجلاً آخر؛ فلن يكون ثمة أي طغيان؛ ولسوف يحترم النظام الدستوري.

جمع جيشًا، وبذل بعض المحاولات في سبيل السلام مع الحلفاء؛ على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجهود غير مجدية، أن تقدم فضرب البريطانيين والهولنديين والروسيين في بلاد البلجيك ضربة سريعة، مؤملاً أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمسويون والروس. فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبًا. فإنه كسر البروسيين عند لجني (Ligny)، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافي؛ وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وترلو (١٨١٥)، على حين وصل البروسيون بقيادة بلوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار. وانتهت معركة وترلو بتشتيت شمل جيشه؛ وغادرت نابليون بلا معين وبلا أمل. وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقًا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التي ارتكب. وأمرته حكومة مؤقتة في باريس أن يغادر البلاد، وأمهلته أربعًا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك.

فحاول أن يذهب إلى أمريكا، ولكن ميناء روشفور الذي وصل إليه كانت تراقبه الطردات البريطانية. والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد، فإنها قامت تلاحقه في حرارة. فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية، هي البلتروفون طالبًا أن يُقبل لاجئًا لائذًا، ولكنه في الواقع عومل كأسير. فأخذ بليموث ثم حمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة.

وهناك بقي حتى وافته منيته بالسرطان في ١٨٢١، بعد أن كرّس نفسه بوجه رئيسي لتحضير مذكراته، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب، وكان رجلان ممن معه يسجلان محادثاته، ويثبتان انطباعاتهما عنه.

وراجت هذه المؤلفات رواجًا عظيمًا في فرنسا وأوربا. وظل الحلف المقدس بين ملوك الروسيا والنمسا وبروسيا (الذي دعي ملوك آخرون للانضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل بث في روعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الآبدين. ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة الحلف المقدس رسمت بوحي من البارونة فون كرودنر، التي يبدو أنها كانت نوعًا من المدبر الروحي للإمبراطور الروسي وكانت بدايتها كما يأتي: "باسم الثالوث المقدس الذي لا تنفصم عراه"، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها، "بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة" وأنهم "إذ يَعدّ أحدهم الآخر مواطنًا له"، يشد أحدهم أزر الآخر، ويحمون الدين الحق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية. ويصرح الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه كان بناء على هذا ملكًا ميروفنجيا بكل معاني الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المتربعين في دست الأحكام والذين هم لديه بمثابة محافظين للقصر؟..[1] ولم يكن لملك بريطانيا أي سلطة تخول له أن يوقع هذه الوثيقة، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعاها، وانضم إليها سائر ملوك أوربا بما فيهم ملك فرنسا. على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة!!، وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات الذهول الورع فألحق ببلاده معظم بولندة!. ولم يصبح الحلف المقدس أبدًا محالفة قانونية بين الدول، بل حلت محله عصبة أمم حقيقية، هي "اتحاد أوربا" الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨٢٢. وعقبت ذلك فترة سلام وعسف في أوربا. وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى نابليون نفسه بنظرة إحسان، وأن يقبلوا منه ادعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا، على طريقة لا يمكن تفسيرها. ونمت بعد وفاته نحلة تعده شيئًا ذا بطولة صوفية دينية.

---

[1] محافظ القصر: في ذلك إشارة إلى تاريخ ببين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج٣ م المعالم ٢. حيث كان الملك اسما للأسرة الميروفنجية ومقاليد الحكم كلها بيد محافظ القصر الذي يتولاها باسم الملك. (المترجم).

٦- خريطة أوربا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس، والاتحاد الأوروبي الذي تمخض عنه ذلك الحلف، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقبت الاتحاد، محافظة مدة أربعين عامًا على سلام مزعزع الأركان في أوربا التي خرجت من الحروب منهوكة القوى. وهناك أمران رئيسيان حالا بين هذه الفترة وبين أن تكون سلامًا اجتماعيًا ودوليًا كاملاً، ومهدا السبيل لدورة الحرب التي وافت بين ١٨٥٤، ١٨٧١. وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة، والتدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم. وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الدبلوماسيون في فيينا.

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحًا أولاً وبوجه خاص في إسبانيا. حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش. فأما عبر المحيط الأطلسي، فإن المستعمرات الإسبانية حذت حذو الولايات المتحدة وثارت على نظام الدول الكبرى الأوربي، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف ملكًا على إسبانيا في (١٨١٠). وكان زعيم الاستقلال وواشنجتون أمريكا الجنوبية هو الجنرال بوليفار. ولم تستطع إسبانيا أن تقمع هذا العصيان، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة، وأخيرًا تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح الحلف المقدس، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا إسبانيا في كفاحها ذاك. فعارضت في ذلك بريطانيا في أوربا، فأما في أمريكا فإن العمل السريع الذي قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو في (١٨٢٣)، هو الذي قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائيًا. فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعدّ أي بسط للنظام الأوربي في نصف الكرة الغربي عملا عدائيًا. وبذا نشأ "مبدأ مونرو"، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مائة من السنين، وسمح للدول الجديدة في أمريكا الإسبانية بأن تكوّن مقدراتها على الشاكلة التي ترضيها. ولئن فقدت الملكية الإسبانية مستعمراتها، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الاتحاد الأوربي أن تفعل ما تشاء في أوربا. وأخمد جيش فرنسي فتنة شعبية قامت في إسبانيا في (١٨٨٣)، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية، وفي الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة شبت في نابلي.

وفي (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر، وخلفه كونت أرتوا الذي رأيناه مهاجرًا يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية في (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر. ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد نابليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم في (١٧٨٩). وفي (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذي يتمثل فيه النظام العهيد [1]، وتبدلت به لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان المعروف، الذي حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب. ولم تتدخل في هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا، إذ واجهها استحسان علني من بريطانيا العظمى واختمار تحريري قوي في ألمانيا والنمسا. ومهما يكن من شيء فإن فرنسا كانت لا تزال

---

[1] ورد في معجم الوسيط ما نصه: "العهيد": القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل". (المترجم).

محتفظة بالنظام الملكي. وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ – ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدس توري أمد ثمانية عشر عامًا. ولكنه سقط في (١٨٤٨) وهي سنة عظيمة الأحداث في أوربا، وسنحدثك عنه ا ف ي الفصل التالي.

تلك هي التأرجحات القلقة التي ألمت بصلح مؤتمر فيينا، والتي أثارت التصرفات الرجعي ة لأذ صار الملكية. فإن التأزمات التي نشأت عن خريطة الدبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت في تجم ع القوى بتعمد أكثر، ولكنها كانت أشد خطرًا على سلام البشرية. فإن من أكثر الأمور عسرًا ومضايقة أن يدير السياسي شئون أقوام مختلفين عنصرًا يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدبًا مختلفًا ولهم فكرات عام ة مختلفة، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والاختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية. وليس في طوق أي شيء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال احتياجات الدفاع المشترك لـ دى سـ كان سوي سرا الجبليين)، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها، بل إن سويسرا ذاتها يقوم به ا أقصى درجات الحكم الذاتي المحلي استقلالا. وعندما تموت في النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى الت راب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فع سى ه ؤلاء الـ سكان السويسريون أن ينجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. وعندما يكون الحال كشأنه ف ي مقدونيا حيث يختلط السكان تخلطًا موزعًا إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحي، فعندئذ تحتم الظروف قيـ ـام نظام الكانتونات. ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها مؤتمر فيينا، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلي إلى أقصاه. فإنه دمر الجمهورية الهولندية، ثم راح بغير مـ ـا داع، فجمع بين الهولنديين البروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا في الأراضـ ي المنخفـ ضة الإسبانية (النمسوية). وأقام بهما مملكة للأراضي المنخفضة. ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقيـ ة القديمـ ة فقط، بل كل شمال إيطاليـ ا حتـ ى مـ يلان للنمـ سويين النـ اطقين بالألمانيـ ة. وأدمـ ج منطقـ ة الـ سافويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا. وكانت إمبراطورية النمسا والمجر مـ ن قبل ذلك خليطًا به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين ومجـ ريين وتشيكوسلوفاك ويوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون، ثم جعلتها أحـ داث (١٧٧٢، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت. فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكـ م القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلـ ى بروسـ يا البروتستانتية. كذلك ثبتت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافـ ًا كليًـ ا. وربُـ ط الشعبان غير المتشابهين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك واحد. وتركت ألمانيا – كما سيرى القـ ارئ – في حالة ارتباك خطرة بوجه خاص. فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتين جزئيًا وخارجتين جزئيًا فـ ي اتحاد كنفدرالي (Confederation) ألماني كان يضم عددًا كبيرًا من الدول الصغرى. ودخل ملك الدانمارك على مائدة الاتحاد الكنفدرالي بسبب وجود ممتلكات له في ذلك الاتحاد تتكلم الألمانية في هولشتين. وأدخلـ ت لكسمبورج في ذلك الاتحاد الكنفدرالي الألماني، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضي المنخفضة، ومع أن كثيرًا من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية. وهنا تلمس إغفالاً تامًا لحقيقة واقعة هي أن القوم الذين يتكلمون

الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الألماني، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطالي، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية ويبنون فكراتهم على الأدب البولندي سوف يكونون جميعًا أسعد حالاً ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعًا ومعونة وأقلهم بها شرًا وضرًا، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص. أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوعًا في الناس في ألمانيا أثناء تلك الفترة، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألماني يتكلم، كانت أرض الأجداد الألمانية.

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية. وهناك "خريطة ضرورية سياسية للعالم" تتعالى فوق كل هذه الأمور. وثمة طريقة أخرى هي "أحسن الطرق المستطاعة" يقسم بها أي جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها، وإنه لمما يهمنا جميعًا أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تمامًا عن الدبلوماسيات والرايات" والمدعيات" "والولاءات" الميلودرامية الانفعالية، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم. وخريطة العالم السياسية المخططة حسب الطبيعة تأبى إلا أن تنفذ. وهي تضطرب وتتحرك تململاً من دون الخريطة السياسية الاصطناعية كما يتململ جبار في وضع لا يريحه. ففي (١٨٣٠) قامت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية – وقد حفزتها الثورة في فرنسا – فثارت على شريكتها الهولندية في مملكة الأراضي المنخفضة. وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان قيام جمهورية بها أو استلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هوليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوثا. وحدث كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليا وألمانيا، وفتنة أشد خطورة بكثير في بولندة الروسية. وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصمدت عامًا كاملاً حيال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥)، ثم قُضي عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبيرين. وصدر قرار بتحريم اللغة البولندية، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة...

وهناك انفجار في خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث في (١٨٢١)، وانتهى بالحصول على مناصرة إنجلترة وفرنسا والروسيا. وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك. ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستيئس أمد ست سنوات، على حين وقفت حكومات أوربا تنظر إليهم متفرجة.. واحتج الرأي الحر على هذا الجمود؛ وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوربية، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك. فدمر الأسطولان الإنجليزي والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارين (١٨٢٧) وغزا القيصر تركيا. وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩)، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدها الجمهورية القديمة. واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكًا ألمانيا هو أمير بافاري اسمه أوتو – فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس، ونبذ في ١٨٦٢ – وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (التي هي الآن رومانيا)، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغسلافيا). وكان هذا إذعانًا جزئيًا للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة، ولكن كان لا بد من سفك الدم الكثير قبل أن يطرد التركي طردًا تامًا من هذه الأراضي. وبعد ذلك بزمن يسير قامت الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة تنادي بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا.

٧- طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية انعكاسًا تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والثياب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة. وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية. وكأنما أفلتت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات وخرجت تسعى في الطرقات. وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تتهادى وتتبختر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة. وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marble Arch). واختفت من الوجود تطورات البروق (الباروك) [1] والركوكو [2] في مباني النهضة لأن الناس فضلوا عليها واجهات أخرى أقسى وأعبس مظهرًا. وكان كانوفا الإيطالي هو المثّال العظيم لذلك الزمان. وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة. وخلد إنجرس (Ingres) أميرات نابليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات. وتماثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناتو والأباطرة. وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميمًا لخاتمها الأعظم، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسر وأن تضع في مخالبه سهم المشترى [3].

---

[1] كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمة الشكل وتدل في الاصطلاح الفني على طراز خاص شديد الزخرف شاع في أوربا بين عامي ١٦٠٠ – ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ "براق". (المترجم).

[2] روكوكو: مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل الصدفة وهو اصطلاح في الفنون الزخرفية يطلق على زخرف يتألف من الأصداف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز البروكي (المترجم).

[3] المشتري: أكبر آلهة الرومان. (المترجم).

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

١- الانقلاب الآلي.

٢- العلاقة بين الانقلابيين الآلي والصناعي.

٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨.

٤- تطور فكرة الاشتراكية.

٥- عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية.

٦- كيف أثر مذهب داروين في الفكرات الدينية والسياسية.

٧- فكرة القومية.

٨- المعرض الكبير في ١٨٥١.

٩- سيرة حياة نابليون الثالث.

١٠- لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا.

١١- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين.

١٢- التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار.

١٣- السابقة الهندية في آسيا.

١٤- تاريخ اليابان.

١٥- ختام فترة التوسع وراء البحار.

١٦- الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤.

١٧- التصوير والنحت والعمارة في القرن التاسع عشر.

١٨- الموسيقى في القرن التاسع عشر.

١٩-نهوض القصة إلى المرتبة العليا في الأدب.

١- الانقلاب الآلي

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته في مؤلفات القرن التاسع ع شر التاريخي ة ض خمة لا تتناس ب وأهميته. فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرحيبة السائرة قدمًا بالشئون الإنسانية نحو الأمام. ولم ي زد على أن كان مقاطعًا لتلك الحركة ومذكرًا بالشرور الكمينة، كما كان أشبه شيء بباكتريا بعض الأوبئة. ول و نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا، فإنه لم يكن منها في المقام الأول؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا في سنة ١٩١٨، وأنتج من التمزيق السياسي والاجتماعي أقل مما أنتجه الطاعون في عصر جستنيان.

لم يكن بد من ظهور تمثيليته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى، ولم يكن مندوح ة من حدوث تلك التسوية الأوربية المرقعة التي تتبدى في الاتحاد الأوربي، ذلك أنه لم يكن هن اك مجموع ة مدروسة من الفكرات يمكن أن يقام عليها عالم جديد. وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوي على عامل م ن عوامل التقدم. فإنه على الأقل اطرح جانبًا روح "الفردية" الممثلة في الملكية الميكيافللية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية. فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك، فإنه أدى تحية التجلة والإكب ار للوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان.

والواجب الدائم الأثر الذي كان على الإنسانية أداؤه، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أي بناء سياس ي واجتماعي جديد مستديم، وهو الواجب الذي لا تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به م ن فت رات التوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب – كان وما ينفك هو واجب إنت اج وتطبي ق:"ا" علم للملكية يكون أسًا تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية، "ب" علم للعملة يضمن وجود وسيط اقت صادي كفء، "ج ." علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية، يستطيع به الناس في كل مجتم ع أن يتعلم وا كي ف يتولون مصلحتهم المشتركة بتوافق وانسجام، "د" علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضي على ما في الح روب بين الجنس والجنس، والشعب والشعب، والأمة والأمة، من التدمير والإسراف الشديد والق ساوات الفظيع ة، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح قيام البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة؛ وفوق كل شيء، "ه ." عل م يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم في مغامرتهم الإنسانية المشتركة.

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر، وهم القوم الذين سوف تحدّد عواق ب أعم الهم الحياة الإنسانية مقدمًا لمدة قرن كامل من الزمان، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحماسي البنّاء وأسهموا فيه. فلو قيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد إضرام الناس والإحراق، أو بضع نفر من س راق المع ادن، الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شرًا موقوتاً بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه.

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكمله، وهو العقل الذي أطلقته النهضة من عقاله، ظل يجمع نفسه لأداء واجب التعمير الاجتماعي والسياسي الخلاق الذي ما يزال عليه عبء القيام ب ه

– فقد غمرت العالم موجة تغيير عام في القوة البشرية وفي أحوال الحياة المادية التي أباحت سد بل وجوده ا الجهود العلمية الأولى لهذا العقل المتحرر.

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش في عالم الحقيقة. فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذين حملوا لواء التنمية العلمية، قد أخذت عند ذاك تؤتى ثمارًا كان في مستطاع العامة من الناس أن يفهموها. وكانت الآلة البخارية هي أشد تلك الثمار الأولى وضوحًا. وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة في القرن الثامن عشر مضخات تستعمل في صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم المحتفرة حديثًا. وكانت مناجم الفحم هذه تشغَّل لاستخراج الكوك بغية استعماله في صهر الحديد الذي كان الفحم النباتي المتخذ من الخشب يستخدم فيه آنفًا. وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة في جلاسجو يرجع الفضل في تحسين تلك المضخة البخارية، وجعْل استعمالها لدفع الماكينات أمرًا ممكنًا. وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض في مصنع لنسج القطن بنوتنجهام في (١٧٨٥).

وفي (١٨٠٤) كيف ترفيتيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل، وأنشأ أول قاطرة. وفي (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدي بين ستوكتون ودارلنجتون. ولا تزال الآلة الأصلية وهي (القاطرة رقم١، ١٨٢٥) تزين رصيف محطة دارلنجتون. وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوربا.

هنا حدث انقلاب فجائي فيما ظلّ زمانًا طويلاً حالة ثابتة في الحياة الإنسانية، وأعني بذلك أقصى سرعة للنقل البري. وقد سافر نابليون بعد كارثته الروسية من قرب فيلنا إلى باريس في ٣١٢ ساعة، وهي رحلة تقارب الألف والأربعمائة من الأميال. كان يسافر مستمتعًا بكل ما تتصوره العقول من الميزات، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال في الساعة. وذلك في حين أن الراكب العادي لم يكن ليستطيع أن يقطع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت. وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القصوى التي كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن الأول الميلادي، أو بين سارديس وسوسا في القرن الرابع ق. م.

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل. فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأي راكب عادي إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة، أي إنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يداني عشر ما كانت عليه. وجعلت من الممكن القيام بالعمل الإداري في مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان في الإمكان إدارته حتى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة. وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال في أوربا ينتظر الأيام التي تحققه. فإن أوربا ما برحت تقسّمها شبكة حدود رسمت في عصر الحصان والسكة الزراعية. وكانت آثار ذلك الحدث في أمريكا سريعة مباشرة. وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غربًا، هو إمكان وجود اتصال مستمر بواشنجتون، مهما تكن المسافة التي تنتقلها الحدود عبر القارة. وكان معنى ذلك هو الوحدة التي تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل.

وكان ظهور الزورق البخاري أسبق قليلاً من الآلة البخارية في مراحلها الأولى. وكان هناك زورق بخاري هو (شارلوت دنداس)، ينتقل في قناة (الفورت والكلايد بإنجلترة) في (١٨٠٢)، وفي (١٨٠٧) كان

لأمريكي يدعى فالتون باخرة معدية، هي الكليرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا، وكانت تسير في نهر الهدسون أعلى نيويورك. وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي "الفينكس" التي كانت تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا. وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضًا قلوع) عبرت الأطلسي، وهي السافانا (١٨١٩). وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاسة، ولكن زوارق العجلة الرفسة لا تصلح للعمل في عرض البحار الثقيلة. فإن الطارة الرفاسة سهلة الكسر، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزًا أشل.

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي[1]. وكان لا بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن يصبح الداسر اللولبي شيئًا عمليًا يمكن الانتفاع به. ولم تشرع حمولة السفن البخارية في أن تزيد على حمولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه. وبعد ذلك أمسى التطور في النقل البحري سريعًا وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التحقق من موعد وصولهم. وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خفضت مدته في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر، إلى أقل من خمسة أيام، مع إمكان تحديد ساعة الوصول على وجه التقريب. وشمل نفس هذا التخفيض في الزمن ونفس هذا التحقق من المواصلات الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره.

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفي عباب الماء، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشري، ونشأ عن أبحاث "فولتا" و "جالفاني" و "فارادي" في الظواهر الكهربية المتنوعة. وظهر التلغراف الكهربي إلى عالم الوجود في (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحري (كابل) تلغرافي تحت أطباق البحر في (١٨٥١) بين إنجلترة وفرنسا. ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عم العالم المتمدن بأكمله، وبذا أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر في كل أرجاء المعمورة في وقت واحد تقريبًا.

وقد كانت هذه الأشياء وأعني بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربي أشدّ المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس في منتصف القرن التاسع عشر، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأسمج تباشير عملية أشد منهما اتساعًا وعظمًا. وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية التكنيكية تتطوران في سرعة غير مألوفة، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أي عصر سابق عليه.

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها في البداءة أقل ظهورًا بكثير في حياته اليومية، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية. وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب، وكان يتناول قطعًا صغيرة ثم يطرق ويصاغ في الشكل المطلوب. كان مجرد مادة يعمل فيها صانع. وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتمادًا هائلاً على خبرة الصانع الفرد وفطنته. وكانت أكبر كتل الحديد التي يستطاع معالجتها في مثل تلك الظروف تصل

---

[1] الداسر اللولبي (Screw) أو الدافع اللولبي: هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دفع السفن أو الطائرات. (المترجم).

في أعظم شأنها (في القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة. (فكان هناك إذن حدّ أعلى محدود جدًا لحجم المدفع). ونشأ الفرن العالي [1] في القرن الثامن عشر وازداد تطورًا باستخدام فحم الكوك. ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٢٨)، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٨٣). وجاءت مطرقة "نازميث" البخارية في زمن متأخر هو (١٨٣٩).

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره في علوم المعادن والتعدين. فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد. وتبدو الآلات الأولى لعين الرائي العصري قطعًا من الحديد الخردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه في ذلك الزمان. وجاءت طريقة "بسمنر" في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦)، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤)، عملية الأتون المفتوح الذي كان في المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك. ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى في الفرن الكهربي أطنانًا من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يَهْدِرُ هدير اللبن المغلي.

وليس في مراحل التقدم الإنساني العملية السابقة ما يعدل في عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها. وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها مجرد انتصارات للوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات[2]. وسرعان ما ظهرت سفن الحديد والصلب والكباري الضخمة، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل. وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة [3] يتجلى فيه الخوف المفرط، وإنه كان في مستطاعهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيرًا من الموجود.

ولم تكن هناك في العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان. وليس هناك اليوم أي عجب في وجود باخرة ذات خمسين ألف طن. ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم زاعمين إياه تقدمًا في "مجرد الحجم" فقط، غير أن هذا النوع من الزراية إنما يدل على ضيق أفقهم.

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذي صورة مضخمة من سفينة الماضي الصغيرة أو بناء الماضي الصغير كما يتوهمون، وإنما هي شيء مختلف في نوعه، يبنى بناءً أخف وأقوى، من مواد أجود وأمتن. وبدل أن تكون شيئًا يعتمد على السوابق والحساب التقريبي، إذا بها شيء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة. ففي المنزل أو السفينة القديمة، كانت المادة هي المتسلطة – فكان الحال يقتضي أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فيهما على ناصية المادة وغُيِّرت

---

[1] الفرن العالي (Blast – Furnace) هو فرن لصهر الحديد ينفخ فيه الهواء الساخن. (المترجم).

[2] علم الفلزات (Metallurgy): هو العلم والفنون المطبقة على المعادن بما في ذلك استنزالها من خامها وتنقيتها وخلطها سبائك وتشكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبنيتها وخواصها. (المترجم)

[3] مقياس سعة (Oavge) مسافة ما بين القضبان. (المترجم).

معالمها وضبطت أحوالها. تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم، وهي تؤخذ وتشغل، وتصهر وتصب لكي تقام آخر الأمر برجًا رفيعًا براقًا من الصلب والزجاج يعلو على المدينة المزدحمة بستمائة قدم!

وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفلزية للصلب ونتائجها قد أدلينا بها على سبيل المثال والتوضيح. وفي إمكاننا أن نروي لك قصة مماثلة لهذه عن الخواص الفلزية للنحاس والقصدير وعن عدد غفير من المعادن نجتزئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر.

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد، أعني على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها، وعلى الألوان والتكوين، الفضل في إحراز الإنسان أهم انتصاراته في الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان. ومع هذا فإنا ما نزال في مرحلة اجتناء أول بواكير ذلك الأمر. لدينا القوة، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا. وكثيرًا ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدامات سوقية أو قبيحة الذوق أو مبهرجة أو سمجة حمقاء أو شنيعة. ولم يكد الفنان ولا الفني المنفذ [1] أن يشرعا حتى الآن في العمل في الأضرب اللانهائية للمواد التي هي الآن بين أيديهما.

ونما علم الكهرباء الجديد نموًا مماثلاً لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانية ولم يحدث إلا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن تؤتي ثمارًا تؤثر في العقل السوقي. ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائي والجر الكهربائي؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل (Transmutation) القوى، أعني احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان، على امتداد سلك من النحاس، كما ترسل المياه داخل الأنابيب.

وكان البريطانيون والفرنسيون في مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم في مضمار هذا الإخصاب العرفاني العظيم. ولكن ما عتم الألمان الذين تعلموا الذلة في حكم نابليون أن أظهروا للوقت من الحماسة والدأب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون هؤلاء القادة. وكان العلم البريطاني في معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين [2] الذين يشتغلون خارج مراكز الحذلقة العادية.

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترة قل عليها الإقبال الشعبي بعد الإصلاح الديني، وكيف أنها أصبحت وقفًا على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية. وتغلبت عليها روح ادعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا. وكانت المعرفة الوحيدة التي تعترف بها هي الإلمام بنصوص لمختارات من الأدب الكلاسيكي اللاتيني والإغريقي إلمامًا لا ينطوي على نقد ولا تمحيص، وكانت أمارة حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة.

---

[1] المنفذ الفني (Adapter): المنفذ لخطة المهندس. (المترجم)

[2] ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و. م. هملتون بوصفهما من رجال العلم المبرزين الإرلنديين. (المؤلف).

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطاني، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية، ورغم أنف العداوة المريرة التي أبداها أصحاب مهنتي التعليم والكهنوت. كذلك تسلطت على التعليم الفرنسي تقاليد اليسوعيين الكلاسيكية، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البحاثة، كانت صغيرة بالنسبة لاحتمالات الموضوع، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المخترعين والتجريبيين البريطانيين والفرنسيين. ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذاً بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنى بلاد العالم وأقواها، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء. وهناك ضرب ضروري من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخلص لعلمه. فإنه أشد انشغالاً بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يجر من ورائها المغانم.

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادي لمكتشفاته بشكل سهل جدًا وطبيعي جدًا في أيدي طراز من الناس أكثر ميلاً إلى الاقتناء والاحتياز. وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج في بريطانيا العظمى محصولاً جديدًا من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفسهم بحيث يتركون الإوزة الذهبية البيض تموت جوعًا، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الجامحة في إهانة إوزة البيض الذهبي القومي وقتلها. كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يجيئون بحكم الطبيعة لكي ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاءً ومهارة.

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر. فإن "العلماء" الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالتطور. كذلك لم يكن يخالج الألماني صاحب الأعمال والمصنع نحو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطاني من احتقار للعلماء. كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولاً مزدرعًا يستجيب للمخصبات. لذلك سلموا للذهن العلمي بقدر معين من الفرصة ينتهزه؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبيًا، وجوزي هذا الإنفاق أوفى الجزاء.

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثاني حتى كان العالم الألماني قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب في أن يكون على الدوام في الطبيعة مماشيًا آخر إنتاج في فرع علمه، وأحرزت ألمانيا في فروع معينة من العلوم وفي الكيمياء بوجه خاص تفوقًا عظيمًا جدًا على جيرانها الغربيين. وأخذ الجهد العلمي في ألمانيا في العقدين السابع والثامن يحدث آثاره في ثمانينات القرن، وأخذ الألمان يسبقون بريطانيا وفرنسا سبقاً متواصلاً في النجاح التطبيقي الفني (التكنيكي) والصناعي. ومن المستحيل في معالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التي أدت إلى هذا التوسع المتواصل في المعرفة والقوة الذي يجري الآن في العالم. وكل ما نستطيع فعله هنا أن نسترعي التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول التي اقتادت آخر الأمر "زلاقة" الشئون الإنسانية إلى ما هي عليه من حال التقدم السريع.

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنساني، وعن بدايات البحث والتجريب المنتظم. كذلك حدثناك كيف حدث عندما جاء النظام الروماني البلوتوقراطي [1] وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم

---

(1) البلوتوقراطي: القائم على حكم الأثرياء. (المترجم)

ثانية – أن تجددت عملية البحث هذه. وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الأخوة في المعرفة، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية، والجمعية الفلورنسية، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس "الاشتراكية". كانت هذه الأمور هي جذور الانقلاب الميكانيكي، وما دام جذر البحث العلمي الصرف حيًا فلن يقف تقدم ذلك الانقلاب عند حد. وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما في إنجلترة من الخشب في مصانع الحديد. وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة، وأدى التحول بالمضخة على يد "وات" إلى آلة تدفع الماكينات، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية. وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم في استعمال البخار. وابتدأ دور ثان للثورة الميكانية بتطبيق العلم الكهربي على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والجر.

وثمة دور ثالث لا بد من تمييزه، جاء عندما ظهر في العقد التاسع طراز جديد من الآلات، وهي آلات حلت فيها قوة التمدد في خليط متفجر محل قوة التمدد في البخار. ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاية التي أصبحت بذلك في حيز الإمكان أن طبقت على السيارة، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاية تجعل الطيران شيئًا عمليًا، والطيران فكرة كان معروفًا منذ زمن مديد أنها ممكنة.

وكان جهد إخوان رايت في أمريكا ذا أهمية أولية في هذا الميدان. وفضلاً عن هذا فإن الأستاذ لانجلي التابع لمعهد سميثسون بنيويورك تمكن في زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنساني. فأما مجهوده الثاني وهو طائرة كاملة الحجم، فقد فشل في محاولاته الأولى، ولكن كوريس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جدًا عليها، إلى الطيران بها بنجاح بعد ذلك ببضع سنين. حتى إذا وافت (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل الإنساني. وكانت بوادر بعض التوقف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة في الطرق؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى. وقد كانت المسافة بين لندن وأدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن الثامن عشر. وفي (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوي البريطانية تقريرًا تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض، يرجح أن يمكن في بضع سنين أن تتم في نفس مدة الأيام الثمانية.

وينبغي ألا نبالغ في التشديد على هذه التخفيضات الرائعة في المسافة الزمنية بين مكان وآخر. فما هي إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقًا وأشد ضخامة. فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلاً أصابا أطوارًا من التقدم مماثلة لهذه تمامًا إبان القرن التاسع عشر. وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها في القرن السابع عشر. وكان هناك تقدم أشد خرقًا للمعتاد في العلوم الطبية. فارتفع معدل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص ضياع الحياة بددًا بسبب سوء الصحة.

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طورًا جديـ دًا في التاريخ. فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانية فيما يربو على القرن بقليل. وقام الإنسان إبان تلك المـ دة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع من كل ما خطاه في جميع الفترة الطويلة المحصورة بـ ين المرحلـ ة الباليوليثية (العصر الحجري القديم) وعصر الزراعة، أو بين أيام بيبي في مصر وأيام جورج الثالث. وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية. ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد. بيد أن هذه التنسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالـ ضرورة علـ ى تطـ ور الثـ ورة الميكانيكية، وهي لا تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لَمَّا تتجاوزها.

٢- العلاقة بين الانقلابين الآلي والصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سميناه هنا باسم الانقلاب الآلي، الذي كان شيئًا جديـ دًا تمام الجدة في الخبرة الإنسانية ناشئًا عن تطور العلم المنظم، وكان خطوة جديدة تشبه اخت راع الزراع ة أو اكتشاف المعادن، وبين شيء آخر مختلف تمام الاختلاف في مصادره وأصوله، شيء كان له من قبل سـ ابقة تاريخية، هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمى الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية.

كانت العمليتان تسيران جنبًا إلى جنب، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلا م ستمرًا، ولكنهم ا كانتا مختلفتين أساسًا وروحًا وجوهرًا. إذ لم يكن بد من أن يحدث انقلاب صناعي من نوع ما، ولو لم يوج د الفحم الحجري، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات؛ ولعله كان سيقتفي في هذه الحال ة بدق ة أش د، خط ى التطورات المالية والاجتماعية التي حدثت في السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية. ولعله كان يعيد ق صة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم، وقصة مناسر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثورات الماليـ ة الكبرى، وإحدى العمليات المالية المقوضة للمجتمع.

والواقع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات. فكأن المصانع لـ م تك ن ثم رة للآلات، بل "لتقسيم العمل". فإن العمال المدربين المكدودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات الـ سيدات وصناديق الورق المقوى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها في العمليات الصناعية. وكانت هناك مصانع في روما في أيام أوغسطس، فإن الكتب الجديـ دة مثلاً كانت تملى على صفوف من النساخ في مصانع الوراقين. وسوف يدرك كل لبيب من دارسـ ي الكاتـ ب الإنجليزي دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية، أن فكرة جمع الفقراء كالقطيع في أماكن ليشتغلوا أحشادًا في كسب رزقهم، كانت أمرًا سبقت معرفته في بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر. وهناك من الإشارات مـ ا يدل على هذا حتى في زمان يرجع في قدمه إلى أيام اليوتوبيا [١] التي ألفها السير توماس مور (١٥١٦). كان الانقلاب تطورًا اجتماعيًا وليس ميكانيًا.

وكان تاريخ أوربا الغربية الاجتماعي والسياسي إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسـ م فـ ي الحقيقة نفس الطريق الذي سارت فيه الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح. وكانـ ت أمريكا من نواح كثيرة إسبانيا جديدة. وكانت الهند والصين مصرًا جديدة. على أن الانقسامات السياسية فـ ي أوربا، والفورات السياسية ضد الملكية، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الـ ذكاء الأوربـ ي الغربـ ي العظيمة لتلقي الفكرات والمستحدثات الميكانيكية، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجـ دة. وبفـ ضل المسيحية بوجه خاص انتشرت فكرات الترابط الإنساني انتشارًا أعم وأعظم في هذا العالم الأوربي الأحـ دث جدّة، ولم يكن السلطان السياسي مركزًا إلى هذا الحد. ومن ثم سارع النشيط من الرجال التواق إلى الثـ راء،

---

[١] اليوتوبيا: جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكمل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية. واسـ مها الأصلي بالعربية الطوبى. (المترجم)

فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفًا عن فكرة الرقيق ومناسر العمال إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكينة.

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أي عملية الاختراع والاكتشاف الآلي، فكانت شيئًا جديدًا في الخبرة الإنسانية، وقد سارت في سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التي عسى أن تترتب عليها. فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى، فقد ألم بها وما يزال يلم بها العميق المتكاثر من التغير والانحراف بسبب التغير المستمر في الأحوال الإنسانية الناشئ عن الثورة الميكانيكية. وينحصر الفارق الضروري بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال، وطوْر المالية الكبيرة في القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية، وبين الحالة الشديدة المماثلة لتلك والتي قوامها تركز رءوس الأموال في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى، ينحصر في الفارق العميق في خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية تحدثها.

كانت القوة في العالم القديم هي قوة الإنسان، فكان كل شيء يعتمد اعتمادًا مطلقًا على قوى الدفع في العضل الإنساني؛ عضل الجهلة والمقهورين من الرجال. وكان قليل من العضل الحيواني قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان. فأنى كان هناك حمل لا بد من رفعه فقد كان الرجال هم الذين يرفعونه، وأنى وجب أن يقطع حجر، كان الرجال يقدُّونه، وأنى لزم حرث حقل من الحقول، كان الرجال والثيران يحرثونه؛ وكان المعادل الروماني للسفينة البخارية هو الغليون (Galley) أي السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين.

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدنيات الأولى في العمل الشاق الآلي البحت. والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأي أمل في فكاك الإنسان من ربقة مثل هذا العناء العضلي الذي لا زكاء فيه. فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم في حفر القنوات، وفي عمل قطوع السكك الحديدية وجسور [١] الأنهار وما إليها. تزايد عدد عمال المناجم تزايدًا هائلاً. ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جدًا. ومع مضي الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحًا. فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدرًا لمجرد قوة لا يميز بين مفرداتها أحد. إذ كان ما يمكن صناعته آليًا بواسطة الكائن الإنساني ممكنًا صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنساني الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء. فكأن الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير. فأما ذلك العسيف [٢] المشتغل بالأعمال الشاقة الذي قامت على أكتافه كل المدنيات السالفة، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة، ذلك الإنسان الذي كان عقله شيئًا لا لزوم له – فقد أصبح غير ضروري لرفاهة الإنسانية.

---

[1] الجسور ليست هنا بمعنى الكباري بل بالمعنى الذي يقال عنه في مصطلح أهل مصر الكورنيش. (المترجم).

[2] العسيف (Drudge): فاعل تساء معاملته ويرهق بالباهظ الحقير من الأعمال. (المترجم).

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز في المعدنيات. فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال. وفي هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم. وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانتها، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة. إذ جاءت مائة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل. فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها في المنجم، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ردحًا من الزمان أرخص من الماكينات. فكانوا يقدرون في نورثمبرلند وديرهام في أيام استخراج الفحم الأولى تقديرًا يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى في كوارث المناجم. وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه.

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوي والقضاء عليه بواسطة الآلات، كان انقلابًا ذا أهمية من الدرجة الأولى تمامًا في الشئون الإنسانية. وكان أهم ما يشغل بال الغني والحاكم في المدينة القديمة أن يحتفظ بمدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة. إذ لم يكن هناك أي مصدر آخر للثراء. فلما تطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحًا لدى القوم الأذكياء الموجِّهين للآخرين، الفكرة القائلة بأن الرجل العادي لا بد له الآن من أن يكون شيئًا أحسن من فاعل عسيف بكدح. فكان لا بد من تعليمه للحصول على "الكفاية الصناعية على الأقل". وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا.

وقد كان التعليم الشعبي منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى، نارًا تتقد تحت الرماد في أوربا، كما كانت تتقد تحت الرماد في آسيا حيثما وضع الإسلام قدمه، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شيء من الفهم للعقيدة التي تنقذ روحه، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التي تحمل إليه اعتقاده. وقد أدت الخصومات بين الطوائف المسيحية وما صحبها من تنافس على الأنصار، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبي العام. فقد حدث في إنجلترة مثلاً عندما ضرب القرن التاسع عشر في عقديه الرابع والخامس، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الاستحواذ على الأنصار صغارًا، وفرة في المدارس الليلية، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطفال، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية.

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهدًا والأقل استنارة وعلمًا يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة. وفي هذا المجال أيضًا تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة. وسرعان ما وجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالبي المكاسب قد انحازوا إليه، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس، وإلا فإلى "تدريبهم" إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية.

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربي. ولم يصحب هذا تقدم مماثل في تعليم الطبقات العليا – ولا ريب أن قد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذاك ويقابله – وبذا لم يعد ذلك البون العظيم الذي كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئة والمجموعة غير القارئة، يزيد كثيرًا عن فارق ضئيل جدًا في المستوى التعليمي. وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية. وكانت تسير غير عابئة في الظاهر بالظروف الاجتماعية، ولكنها مصرة في الحقيقة إصرارًا عنيدًا على إلغاء الطبقة التامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملاً.

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الاقتصادية في الجمهورية الرومانية فهمًا واضحًا. فإن المواطن (الممادن) الروماني العادي لم ير قط التغيرات التي كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن. على أن الثورة الصناعية وهي تمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متماسكة، لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل، ولأنهم كانوا يضربون في الأرض ويرون الدنيا على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا. ولقد حرصنا في هذه "معالم التاريخ" أن نومئ لك إلى الظهور التدريجي للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة. ومن رأي الكاتب أن الحركات الضخام لعامة الناس فوق مساحات جسيمة، لم تصبح في الإمكان إلا نتيجة لديانتي الدعاة: المسيحية والإسلام، وإصرارهما على الاحترام الذاتي للفرد. وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميزًا لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعي.

غير أن هذه الحركات الضخام بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر، محدودة نسبيًا. ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداءً من زمان ويكليف فما عقبه، مقصورة على مجتمعات للفلاحين في مواضع محلية محدودة، ولم تنتشر إلا على بطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة. أجل إن صناع المدن كثيرًا ما كانوا يشغبون، ولكن ذلك كان شيئاً محليًا بحتًا.

ولم يكن إحراق القصور في الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم. وكان "كوميون" باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية، وكان الجمهور الباريسي في الثورة الأولى جمهورًا شديد التخلط بدائي التفكير متوحشاً، بالموازنة إلى أي جمهور أوربي بعد (١٨٣٠).

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسرًا على السكان كافة، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعيار للصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظامًا من الفكرات جديدًا مميزًا بدلاً من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التي تحدث من دهماء أمّيين.

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة، التي كانت حتى حين ضربًا من طبقة متوسطة مخلطة، إلى نوعين من الطبقات، هي أصحاب الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكنهم من

الاختلاط بالطبقات المالية والمتجرة وصاحبة الأراضي؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويدًا رويدًا من حالة مجرد عمّال المناسر والزراعة. وبينما كان العامل الصناعي يهبط، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعي بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة في قوة إنتاجه الفردي.

وعند منتصف القرن التاسع عشر، كان كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وهو يهودي ألماني بالغ بسطة عظيمة من العلم، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة مالكة رأس المال المتزايدي التمركز تزايدًا متواصلاً مستمرًا، كان يطور تصنيفاً اجتماعيًا جديدًا يحل محل أنظمة طبقات الماضي الأكثر تعقيدًا. ذلك أن الأملاك بالقدر الذي هي به قوة، كانت تجمَّع بعضها إلى بعض في أيد قليلة نسبيًا، هي أيدي كبار الأغنياء، أي طبقة الرأسماليين، على حين كان ينتج هناك اختلاط عظيم في العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك، الذين كان يسميهم باسم "أصحاب الأملاك سابقًا" أو "البروليتارية [1] " – (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) – وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا "وعيًا مشتركًا" بين أفراد طبقتهم.

وقد جاء على الناس ردح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق في التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهدًا، والتي كانت تمر في عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقًا)، قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف. فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعًا بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال. ولكن هذا التعميم "الماركسي" يصبح الآن مقبولاً أكثر فأكثر مع انتشار التعليم ورخص ثمن الكتب.

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعًا على السواء، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك في نفس المضايقات. ومن ثم فإن شعورًا من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التي تكدس الأرباح ومتمركز الثروة، قد أخذ يزداد وضوحًا أكثر فأكثر في عالمنا هذا. فإن الفوارق القديمة تذوى، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل في العراء، وبين الموظف صاحب السترة (الجاكتة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواقي (العفريتة)، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس. فلا بد لهم جميعًا من مشترى نفس الأثاث الرخيص، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة. ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعًا ويتزوجوا بعضهم من بعض. ويصبح النجاح في المستويات العليا أمرًا ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل عامة الناس. وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذي لم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تنبأ بها؛ وهو يعني بحرب الطبقات الحرب التي

---

[1] البروليتارية (Proletariat): هي الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال وهي كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (Proletarius)، ومعناها مواطن من أدنى طبقة، يخدم الدولة لا بأملاكه بل بنسله (Panes). ومن ثم يشير المؤلف إلى الفارق بين استخدام اللفظ قديمًا وحديثًا (المترجم).

تشنها طبقة "أصحاب الأملاك سابقًا" على الأقلية التي لا تبرح تمتلك الأملاك وقد يدفع بعضهم أحياناً في جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت في كثير من المجتمعات العصرية. فهذه المدخرات هي من الناحية الفنية التكنيكية "رأسمال" وأصحابها إنما هم "رأسماليون" على ذلك المنوال، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز في أيد تنتقل في عددها من القليل إلى الأقل. وكان ماركس يستعمل كثيرًا من مصطلحاته بلا عناية ويسيء اختيارها، وكانت فكراته خيرًا من ألفاظه. فقد كان عندما يكتب "الأملاك" يعني "الأملاك إلى حد الذي هي به قوة". وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صد غرًا ملحوظًا على رأس ماله المستثمر.

٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختمار الأفكار الذي كان يحدث أثناء الانقلابـ ين الآلي والصناعي في القرن التاسع عشر. على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربطـ بـ ين مـ ا سبق حدوثه في هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم.

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين في السنوات المائة الممتدة بـ ين (١٨١٤، ١٩١٤). فقـ د جاءت أولاً الفترة بين (١٨١٤ – ١٨٤٨)، وفيها حدث قدر جسيم جدًا من التفكير المتحرر والكتابة الأسمحية المتحررة في دوائر محددة، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة في الفكر بـ ين كتلـ ـة الشعب العامة. وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش – إن جاز لنا مثل هذه العبارة – على رأسمالها الـ ذهني القديم، فإنها كانت تمضي وفق الفكرات الرئيسية "للثورة" والثورة "الرجعيـ ـة" المـ ضادة. وكانـ ت الفكـ رات التحررية السائدة هي الحرية وضرب مبهم بعينه من فكرة المساواة. وكانت فكرات المحافظين هي الملوكية؛ والديانة المنظمة، والامتيازات الاجتماعية والطاعة.

وكانت روح المحالفة المقدسة حتى (١٨٤٨)، وهي روح مترنيخ تكـ ـافح لمنـ ـع أي انتعـ ـاش للثـ ورة الأوربية التي خانها نابليون وأرجعها أدراجها. ومن الناحية الأخرى كانت الثورة في أمريكا بجزءيها الشمالي والجنوبي، قد انتصرت. وكانت الروح التحررية في القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هنـ ـاك منـ ـازع. وكانت بريطانيا قطرًا قلقًا، لا هي تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلـ ـى حركـ ـة التقدم، ولا هي صادقة في روحها الملكية ولا صادقة في روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكـ ذلك كانت أرض الملك المرح شارل، وكانت مضادة للنمسا؛ ومضادة لآل بوربون، ومضادة للبابا، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة. ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوربـ ـا فـ ـي (١٨٣٠) وحواليها. وصدر في بريطانيا في (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعًا عظيمًا ويعيد إلى مجلس العموم شيئًا كثيرًا من خصيصته التمثيلية، فخفف كثيرًا من توتر الموقف.

وجاءت قرابة (١٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الانفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير، أفضت إلى خلع ملكية آل "أورليان"، وتأسيس جمهورية ثانية في فرنسا (١٨٤٨ – ٥٢)، وأثـ ـارت شـ مال إيطاليـ ـا والمجر ضد النمسا، وأهاجت البولنديين في "بوزن" على الألمان، وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما. وعقد في براج مؤتمر شائق جدًا هو مؤتمر الكتلة السلافية الذي تسلف مقدمًا كثيرًا من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التي تمت في (١٩١٩). وانفض المؤتمر بعد أن قمعت الجنود النمسوية عصيانًا شب في براج. فأما العصيان الهنغاري فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين. وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسـ ـوث. ولم يبرح بعد أن دحر ونفي، يواصل دعاية عظيمة في سبيل حرية وطنه وقومه.

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية إخفاقًا تامًا. وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفًا على قدميـ ـه. ولا ريب أن هذه الفتن كانت وراءها تذمرات اجتماعية خطيرة، ولكن لم تكن لهذه الثورات حتى آنذاك، اللهم إلا في حالة باريس، أية صورة واضحة ملموسة. وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه – بقدر ما يهم أوربا

– أن تنعت في كلمة واحدة باسم "ثورة الخريطة السياسية الطبيعية" على الترتيبات الاصطناعية لدبلوماسيي فيينا، وعلى نظام القمع الذي ترتب على تلك الترتيبات.

ومن ثم يكون تاريخ أوربا من (١٨١٥ – ١٨٤٨) على وجه العموم، لاحقًا لتاريخ أوربا من (١٧٨٩ – ١٨١٤). ولم يكن ينطوي على أية فكرات جديدة حقًا وما برح رأس المتاعب هو الكفاح بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام الدولة العظمى التي أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيدتها – وإن يكن في الكثير من الأحاديين كفاحًا أعمى سيئ التوجيه.

ولكن حدث بعد (١٨٤٨)، أي من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسوية الخريطة إعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة، وألمانيا موحدة، تواصلت ولم تقف عند حد. فقد بدأ دور جديد في عملية التكيف الذهني والسياسي وفق ما بلغته البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة. ثم حدث انفجار عظيم للفكرات الجديدة الاجتماعية والدينية والسياسية، تغلغل بها في العقل الأوربي العام. ولسوف نتأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الانفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التي نبني عليها اليوم فكرنا السياسي، غير أنها ظلت زمنًا طويلاً وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة. فاستمرت السياسة المعاصرة تجري على السنن القديمة. وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعامة في ضمائر الناس واعتقاداتهم الفكرية.

ولقد وصفنا لك آنفًا الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩). وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجري في أرجاء أوربا إبان فترة الدول الكبرى من (١٨٤٨ – ١٩١٤). إذ انتشرت في كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التي لكثير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادي. ثم جاءت حرب هي أعظم حروب التاريخ وأشدها تدميرًا، ومن ثم استحال على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقدروا قوة ومجال الفكرات الجديدة التي تجمعت في هذه السنوات الست والستين. فلقد مرت الدنيا في ملمة كبرى أعظم كثيرًا، حتى من الكارثة النابليونية نفسها، وما نحن إلا في فترة راكدة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥ – ٣٠) وتمت إليها بسبب. وما زلنا نتوقع أن تأتينا سنتا (١٨٣٠، ١٨٤٨) الخاصتين بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف.

٤- تطور فكرة الاشتراكية

قفونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حاق بفكرة الملكية منذ الادعـ ـاء الأول غيـ ـر المحدود للرجل القوي على ملكية كل شيء، ومنذ إدراك الناس تدريجيًا الفكرة الأخوية بوصفها شيئًا يـ ـسمو على البحث الشخصي عن الذات. وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الخوف من الملك والله، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية. ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيـ ـرة من السنين، أن تهيأ لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الإختياري في سبيل غاية أعظم، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر، كان فكرة مقبولة لدى الناس، أو أن أي إنسان قد قام بطرحها.

ثم إننا نجد شيئًا ينتشر على وجه الشئون الإنسانية، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمـ ـر فـ ـوق جوانب التلال في يوم ريح من أيام الربيع، هو الفكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظـ ـم مـ ـن أي إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدرًا وأكثر أهمية من صافي مجموع حيـ ـاة الأفراد الذين يوجدون في نطاقها؛ ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس، ناصعة نصاعة ضياء الـ ـشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتبهر به الأبصار، رأيناها في تعاليم "بوذا"، "ولاو تسي" وبوجه أشد ما يكون وضوحًا في تعاليم "يسوع" الناصري.

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير والمفاسد بارقة إخلاص لملكوت الرب تجعل بذخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادم أفرط في أناقة ثيابه، وتجعل أبهة الأثريـ ـاء وإشـ ـباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص. وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل ديانة مثـ ـل المـ ـسيحية أو الإسلام، بمستطيع أن يكون عبدًا تام العبودية. فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمحى تجبـ ـر الرجـ ـال علـ ـى إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم.

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها من حالة الـ ـشره الأنـ ـاني العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة في جماعة العائلة الباليوليثية الأولى، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبيراً متخالفًا جدًا. ووجدوا أنفسهم على خلاف وفي نـ ـزاع مـ ـع الفكـ ـرات القديمـ ـة المقررة. وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة، والوثوب من فوقها إلى عكـ ـسها المطلق.

وقد قامت الحركة الأولى متسرعة نافدة الصبر، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة، ولكـ ـن غلبتهـ ـا والحق يقال الفوضى الشاملة، خاصة وقد واجهها عالم، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعًا وكأنما لا هم لها إلا إيتاء الفرص للأنانية الشخصية والظلم الفاجر. وواجهها عالم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيرًا عـ ـن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الاستبعاد، وكان من الطبيعي أيضًا أن نجحد كل ملكية.

ويبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعًا متزايدًا يدفع الناس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية. وقد تعقبنا ذلك الدافع في القرون الوسطى، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب في الثيوقراطية [١] والشيوعية. وكان هذا التمرد المزدوج واضحًا جليًا في الثورات الفرنسية. فإذا نجد في فرنسا رجالاً يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك، كما نجد آخرين يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية. وهم يعيشون جنبًا إلى جنب ويستلهمون جميعًا نفس الروح الواحدة، كما أنهم أعضاء طبيعيون في الحركة الثورية نفسها. ولكن ما كانا في كلا الحالين ثائرين عليه إنما هو أن الحكام وصاحب العمل، لا يزالون كغيرهم من البشر أفرادًا أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بدل أن يكونوا خدامًا للمجتمع.

وإنا لنجد هذا الاعتقاد ينمو في أذهان الناس على مر العصور: وهو أن في الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قيامًا يقدم للناس الحكم والنظام، بينما هو لا يبرح يصد أنانية أي حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذي يمنح الحرية من غير قوة ظالمة. وقد شرعنا ندرك في أيامنا هذه أنه ليس في المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائي مركب، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة؛ بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة. (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها، بل والحياة عامة، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة).

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عددًا من التجارب في تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد، ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية، تجاريب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ – ١٨٥٨)، وهو غزّال قطن من مانشستر، وهو يعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية. ونشوء كلمة "الاشتراكية" لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالي (١٨٣٥). ويلوح أنه كان رجلاً من رجال الأعمال على غاية من الكفاية. فإنه ابتكر عددًا من المستحدثات في صناعة غزل القطن، وجمع ثروة لا بأس بها في سن مبكرة. وقد أحزنه ضياع ما في عماله من احتمالات بشرية بددا؛ فنصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال. فجهد أن ينفذ ذلك أولاً في مصنعه بمانشستر ثم في نيولانارك بعد ذلك، حيث ألفى نفسه متصرفًا بالفعل في مصانع تستخدم ألفين من الأفراد.

وتوصل بين (١٨٠٠، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جدًا. فإنه أنقص ساعات العمل، وجعل مصنعه صحيًا مقبولاً، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جدًا، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد في التجارة، وأسس مجموعة من المدارس، وجعل من نيولانارك مثالاً يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب، على حين كانت في نفس الوقت تحافظ على رخائها التجاري. كتب كتابات قوية مدافعًا عما كانت تتهم به أغلبية البشرية من الإفراط في المسكرات وعدم التبصر في العواقب، التي كان أهل العصر

---

[1] الثيوقراطية (Theocracy): حكومة قسوس تدعى أن الله مصدر سلطتها. (المترجم).

